

جَهْدُ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ

فِي

الصَّاعِ مَعَ النَّصْرِ

خِلَالِ عَصْرِ الْمُرَابِطِينَ وَالْمُوحِدِينَ
(١٤٨٣هـ / ١٠٩٠م - ١٣٤٠هـ / ١٢٤٢م)

تأليف الدكتور
محمد بن إبراهيم بن صالح الحُسَيْن، أبا الخيل

دار أصدقاء المجتمع
للنشر والتوزيع

دار أصداء المجتمع للنشر و التوزيع ، ١٤١٩ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبا الخيل ، محمد بن إبراهيم
جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين والموحدين
- بريدة
٥٧٦ ص ؛ .سم
ردمك ٩٠٧٦-٩٩٦٠
١- الأندلس - تاريخ ديوي ٩٥٣,٠٧
٢- الإسلام والمسيحية
أ- العنوان
١٩ / ٠٧٥١

رقم الإيداع : ١٩ / ٠٧٥١

ردمك ٩٠٧٦-٩٩٦٠

هذا الكتاب رسالة دكتوراه نال بها صاحبها
الدرجة العلمية مع مرتبة الشرف الأولى

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م

دار أصداء المجتمع للنشر و التوزيع

السعودية - القصيم - بريدة

هاتف و فاكس : ٠٦٣٢٣٢٥٩٠ ص ب: ٣٤١٥

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

أما بعد ...

بوأ الإسلام العلماء مكانة سامقة ، ومنزلة عالية ، ورفعهم على غيرهم درجات ، وعدهم - لا سيما من يحمل العلم الشرعي منهم - ورثة الأنبياء والمرسلين ، يبلغون للناس ما حفظوه من العلم ، ويثبون بين الآحاد والجماعات ما وعوه من آيات الله والحكمة ، وينذرون المخالفين بضنك العيش ، وسوء المنقلب ، وهم فوق ذلك يخشون الله تعالى أكثر من بقية العباد ، فتراهم يتمثلون في حركاتهم وسكناتهم ما اكتسبوه من العلم ؛ الأمر الذي يجعل الأمة تحاول أن ترسم خطاهم ، وتأتسى بمسلكهم في الحياة ، وتسير وفق ما يدعون إليه من الهدى والخير .

ولقد مثل غالب رجال العلم مسؤوليتهم في طول البلاد الإسلامية وعرضها على مدى تاريخنا المجيد ، فسعوا - قدر طاقتهم - لتعليم الناس ووعظهم ، والقيام بمصالحهم ، وإصلاح ذات بينهم ، وتأليف قلوبهم ؛ فإذا ما تعرضت البلاد لاضطراب داخلي أو خطر خارجي هبوا لدرء ما ينجم عن ذلك من شرور ، وقدموا الحلول الناجعة لتجنيب الأمة ما قد يضرها ؛ زد على ذلك أن العلماء لا يكلون عن السعي لنشر دين الإسلام ، والجهاد في

سبيل الله ، وكثيراً ما انتصوا السلاح - هم بأنفسهم - وتقدموا صفوف الجيوش الإسلامية في مواجهة الأعداء .

التعريف بالموضوع وأهميته :

ولقد تبوأ العلماء في الأندلس مقاماً رفيعاً في وسط المجتمع الأندلسي، فكانوا يشاركون في قيادة الأمة مع القوة السياسية في أكثر فترات التاريخ الإسلامي في هذه البلاد . وبجانب ذلك فإن طبيعة بلاد الأندلس ، وما ابتلى به المسلمون فيها من تفكك وتناحر في كثير من عصورها ، ثم مجاورتها للأعداء المتربصين بها - أبداً - قد فرض عليهم مضاعفة الجهود للنهوض بمسؤوليتهم ، والقيام بواجبهم ؛ حيث كان الواحد منهم في ليله ونهاره يعايش همّ دينه المستهدف من قبل أولئك الأعداء ، فهو يعمل جاهداً بشتى الوسائل لدفع ذلك الخطر عن هذا الدين ، ومن ثم إعازته ورفعته شأنه .

ولقد اختلف نشاط علماء الأندلس في العصور المتوالية ، إذ طغت جوانب من نشاطاتهم في عصر على جوانب أخرى في عصر آخر ، وظهرت بعض الجهود المرتبطة بالعلماء في زمن واختفت في زمن آخر ، ولعل ذلك مرده إلى الظروف التي مرت بها الأندلس ، وكذلك إلى طبيعة حكم الدول التي سيرت الأمور فيها . ففي زمن الدولة الأموية - مثلاً - كان للعلماء مشاركات كثيرة في الجهاد ضد النصارى إلا أن أثرهم في الجوانب المدنية كان أشد وأقوى . ولما سقطت هذه الدولة ، وتفرق مسلمو الأندلس شيعاً وأحزاباً، وحل بين ظهرانيتهم ما يعرف بعصر الطوائف ، واستأسد النصارى، واشتد الكرب بالمسلمين برز أثر العلماء في شتى الميادين ، وكان في مقدمتها ميدان الصراع ضد القوى النصرانية السياسية منها والدينية .

استمر نشاط أهل العلم في ميدان الصراع ضد النصارى ، وأصبح في عصر المرابطين والموحدين لافتاً للأنظار ، ذلك أن العلماء الأندلسيين حرصوا على استدعاء المرابطين إلى الأندلس للوقوف في وجه العدو النصراني الذي اتَّهَمَ العديدَ من الأراضى الإسلامية هناك ، وأذل المسلمين وأرهقهم عسراً فوافق ذلك رغبة في الجهاد عند المرابطين ، فعبروا إلى الأندلس وتصدوا لذلك العدو . ثم إنهم سوغوا لهؤلاء المرابطين ضم الأندلس إليهم بعد أن مزقها حكام الطوائف شر ممزق ، وبعد ذلك أيدهم في حكمهم لها ، وجدوا في مناصحتهم والوقوف معهم ، فكان علماء الأندلس بذلك أحرص الناس على وحدة البلاد وتماسك أطرافها في ظل المرابطين ، وحين سقطت دولتهم على أيدي الموحدين ، وسعت دولة هؤلاء الأخيرين إلى بسط سلطانها على الأندلس بادر العديد من العلماء الأندلسيين إلى مبايعة حكامها ضمناً لبقاء وحدة البلاد أمام النصارى ، ثم قاموا - أيضاً - بتأييدها والدعوة إلى طاعتها كما أبدوا في كثير من المناسبات ولاءهم لحكامها .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد كان لعلماء الأندلس جهود فعالة في ميدان الجهاد الحربي أيام المرابطين والموحدين الذين عبروا من المغرب إلى الأندلس حاملين راية الجهاد ضد النصارى . وقد تعددت إسهامات هؤلاء العلماء في هذا الميدان ، فطفق بعضهم يدعو إلى الجهاد في سبيل الله في أماكن تجمعات الناس كالساجد والأسواق والميادين العامة وغيرها ، كما صدرت عنهم الفتاوى والرسائل والأشعار والمؤلفات التي استهدفوا من ورائها استنهاض مسلمي الأندلس من جواذب الأرض ، ومغريات الحياة ، ومن ثمَّ شحذ الهمم ، وتقوية العزائم لمجاهدة الأعداء

النصارى بشتى الوسائل .

ولم يكتف علماء الأندلس زمن المرابطين والموحدين بالدعوة إلى الجهاد بالأقوال المجردة ، وهم بمنأى عن ساحات الوغى ، وميادين القتال ، بل أتبعوا ذلك بتطبيق واقعي لما يدعون إليه ، فشاركوا هم وغيرهم من حملة العلم وطلبته في معارك عديدة ، وشهدوا وقائع كثيرة ، أرخصوا فيها الأرواح ، وباعوا فيها الأنفس ، نصرة للدين ، ودفاعاً عن المسلمين ، وقد كتب لبعضهم القتل في سبيل الله ، وتعرض بعضهم لذل الأسر ، وجاهدت فئة ثالثة وعادت سالمة لتستأنف القيام بمسؤولياتها ، ولتمارس مهامها الملقاة على عواتقها تجاه الجماعة الإسلامية في الأندلس .

ومن جانب آخر فإن جمعاً من رجال العلم في الأندلس كان لهم أثر في النفقة لمصلحة الجهاد ضد النصارى كتجهيز الغزاة ، وإصلاح أسوار بعض المدن المتعرضة للغارات ، أو فك الأسرى المسلمين ونحو ذلك ، فأنفقوا من أموالهم في هذا السبيل ، ودعوا غيرهم إلى الإنفاق فيه .

وكان من المتوقع أن تتعاضد مسؤولية العلماء في مجال الصراع ضد النصارى في السنوات التي ضعف فيها حكم المرابطين أو الموحدين في الأندلس . ففي تلك السنوات العصيبة من حياة الأمة اجتهد المخلصون منهم للوقوف في وجه الزحف النصراني المتدافع نحو الأراضي الإسلامية ، فتولى بعضهم زمام السلطة في بعض المدن بعد أن بويع من قبل أهلها ، وقام بعضهم بمناصرة من رأوه مناسباً لحكم المدن التي يعيشون فيها . كما أن ثلة من العلماء قامت بجهود ملموسة لتلافي التفكك المريع الذي ضرب بأطنابه في

الأندلس حين اضمحلت دولة الموحدين .

ولم تقف جهود هؤلاء العلماء عند هذا الحد وكفى ؛ بل ظهرت أكثر في أثناء حصار النصارى للمدن الأندلسية ، إذ قاموا بالسعي في طلب النجدة من عمال الدولة المسيطرة على الأندلس ، أو من أهل المدن القريبة منهم ، وذلك عن طريق بعث الرسائل إليهم ، أو بالاتصال المباشر بهم . كما أنهم لم يقتصروا على طلب المساعدة من داخل الجزيرة الأندلسية ، بل اضطروا في وقت من الأوقات إلى طلبها من الخارج ، وبخاصة من أهل العدو المغربية .

وحين استنفذ العلماء شتى السبل لإنقاذ المدن من الخطر النصراني ، وأعيتهم الحيل لم يخنسوا عن المواجهة ، ويركنوا إلى الراحة ؛ فضلاً عن الفرار إلى مدن آمنة ، ولكنهم لبثوا مع الناس يحرضون على قتال العدو ، والصبر على مدافعته حتى النهاية ، فلا تكاد تسقط مدينة من المدن الأندلسية إلا وتجد بعض العلماء من ضحاياها سواء من القتلى أو الأسرى . أما من سلم منهم من القتل وأطلق سراحه من الأسر فقد عاش أكثرهم - بقية عمره - يجول في البلاد يسدي النصح للمسلمين ، ويحذرهم مغبة الخلاف ، وعاقبة الشقاق ، ويدعوهم للحفاظ على ما بقي من أراضٍ إسلامية في الأندلس أولاً وإنقاذ ما فقد منها ثانياً .

ولعلماء الأندلس في عصر المرابطين والموحدين نشاط من نوع آخر لا يقل في أهميته للأمة وبقائها عما ذكرنا سابقاً - وهذا النشاط يتمثل في التصدي للحملات النصرانية الفكرية المضادة للإسلام وما يرتبط بها سواء

أكانت بالمشافهة أو بالكتابة . فالنصارى إبان هذا العصر دعموا حروبهم العسكرية السافرة ضد مسلمي الأندلس بما يمكن أن نسميه حرباً فكرية ، فأخذوا يجتمعون بالعامّة من المسلمين ، ويعقدون المحاورات معهم بغية تشكيكهم في دينهم ، وإدخالهم في الدين النصراني ، كما لجأت فئة من رجال الدين النصارى إلى ترجمة القرآن الكريم والكتب الإسلامية للرد عليها - فيما زعموا - ومحاربتها . كما أن فئة أخرى من رجال الدين أخذت على عاتقها تأليف كتب ورسائل تهاجم فيها عقيدة الإسلام وأحكامه وشرائعه ورسوله ﷺ ، بلّغة اللغة العربية لغة هذا الدين وأهله . ولمواجهة هذا التحدي انبرت طائفة من المفكرين المسلمين للرد على هذه الحرب الفكرية رداً علمياً محكماً ، سواء باللسان مباشرة أو في داخل كتب عامة ككتب التفسير والفقه والفتاوى وغيرها ، أو في كتب خاصة لم يؤلفها أصحابها إلا من أجل بيان تهافت تلك الشبهات التي أثارها أولئك النصارى .

ولقد قام عدد من العلماء والمفكرين في ذلك العصر من خلال دروسهم وخطبهم ومؤلفاتهم بجهد مشكور في مجال تميز الجماعة الإسلامية في الأندلس ، وتحصين هويتها الأصيلة ، فوقف بعضهم موقفاً صلباً إزاء ما تسلل إليها من عادات العدو وتقاليده ، وسعى إلى تبصيرها بأمر دينها ، وتحذيرها من عاقبة التماذي في الانحراف عن تعاليمه .

وهكذا نرى جهود علماء الأندلس في ميدان الصراع ضد النصارى خلال عصر المرابطين والموحدين متعددة الجوانب ما بين حرص على وحدة البلاد ، وتأيد للحكام الذين رأوهم جديرين بحكم تلك البلاد ، وسعى

للاتصال بالقوى الإسلامية لمساعدة المسلمين في الأندلس إذا لزم الأمر ،
ودعوة للجهاد ومشاركة فيه بالأنفس والأموال ، وتصدي للحملات الفكرية
المضادة للإسلام ، ومحاربة لأية عادات وتقاليد غريبة عن المجتمع الإسلامي .



لعل العرض السابق أعطى فكرة موجزة عن الموضوع ، وبالتالي
اتضح - ولو بصفة مجملّة - أهمية دراسته والتي يمكن إبرازها في النقاط
المركزة التالية :

- إنه يدرس صراع المسلمين في الأندلس ضد النصارى من منظور
جديد يختلف عن الدراسات المعروفة التي تناولته - فحسب - من خلال
العلاقات الرسمية البحتة بين الحكومات الإسلامية في هذه البلاد والممالك
النصرانية .

- إن دراسته تقدم لنا نماذج لرجال من مجتمعا الإسلامي ساروا وفق
تعاليم دينهم ، وعاشوا حياتهم من أجل نصرته والدفاع عن بيضته ، تارة
بالسنان ، وأخرى باللسان ، وثالثة بالأموال ، أو بذلك جميعاً . هذه النماذج
التي كادت أن تغيب عن أذهان الباحثين في تاريخنا الإسلامي بعد الصدر
الأول، وذلك في غمرة اهتمامهم بالحديث عن قيام الدول الإسلامية
وسقوطها ، والخلافات بين زعمائها ، والإشادة بمآثر حكامها وقوادها .

- وما يضيفي على هذا الموضوع أهمية : أن دراسته لا انفصام فيها
بشكل عام بين الأحداث السياسية والنواحي الحضارية ، فكلا الأمرين
يمتزجان فيها ببعضهما البعض ، وهذا مطلب طالما نادى بتطبيقه المنهجيون في

البحث التاريخي ، وعدد من المؤرخين للوصول إلى أقرب تصور ممكن للحقائق التاريخية ، ومن ثم قطف الثمرة المرجوة من دراسة التاريخ .

- كذلك فإنه يعرض للأدواء المستشرية في كيان المجتمع الأندلسي المسلم التي شخصها مفكرو ذلك العصر من خلال نصحهم - آنذاك - للمسلمين حكماً ومحكومين ، أو نقدهم لواقعهم ، ولعلنا بذلك نمسك ببعض الأسباب الحقيقية الكامنة وراء سقوط الأندلس ، خصوصاً إذا كان ذلك التشخيص صادراً من علماء الشرع العارفين بسنن الله تعالى الثابتة حول رقي الأمم وانحطاطها .

- وفي دراسة الموضوع -أيضاً- تعرف على جانب من وضع المسلمين الذين وقعوا - بُعيد سقوط مدنها - تحت السيطرة النصرانية في وقت كان للمسلمين دولة في الأندلس ، وهو جانب لم يحظ باهتمام الباحثين في التاريخ الأندلسي - فيما أعلم .

- وفي التعرض لجهود علماء الأندلس في الرد على الحملات الفكرية النصرانية المضادة للإسلام خلال هذه الدراسة كشف لبعض الأساليب غير العسكرية التي سلكها النصارى لاستئصال شأفة هذا الدين من الأندلس ، وإحلال النصرانية محله ، لا سيما ونحن المسلمون اليوم أحوج ما نكون إلى تفهم مثل تلك الأساليب ، وإدراك أبعادها ، أو حتى لفت الأنظار إليها في ظل هذا الاندفاع التنصيري على شعوب إسلامية كثيرة في آسيا وإفريقيا وشرقي أوروبا .

- ومما يكسب الموضوع أهميته أن دراسة أعمال أولئك الأعلام الذين

جاهدوا في الله حق جهاده ، وقضوا زهرة حياتهم في مواجهة أعداء العقيدة الإسلامية اتجاء بالغ الأهمية في عصرنا الشاهد ؛ إذ فيه استنهاض لهمم علمائنا وكل من لديه أثارة من علم للقيام بواجبه نحو أمته المثقلة بالعلل ، المثخنة بالجراح ، والتي لا يننى أعداؤها في توجيه الضربات القاتلة إليها كلما وجدوا نهضة ، أو سنحت لهم فرصة .

الدراسات التي ست الموضوع :

قبل أن اتجاسر على دراسة هذا الموضوع استفرغت الجهود ، وبذلت الوسع للتأكد من كونه لم يدرس دراسة علمية منسقة ، فقرأت ما وقع تحت اليد من كتابات حوله ، وتصفححت ما تيسر من فهارس مهمة برصد عناوين رسائل الماجستير والدكتوراه في تاريخ الأندلس وحضارتها ، واتصلت بالمتخصصين فظهر - بعد كل هذا - أن نشاط رجال العلم في الأندلس ضد القوى النصرانية إبان عصر المرابطين والموحدين لم يحظ بدراسة جامعة لأطرافه، لامة لأشغاته ، منظمة لأبوابه ، كاشفة لغوامضه ، ذاك أن الباحثين في التاريخ الأندلسي مع أنهم درسوا هذا العصر بجوانبه السياسية والحضارية وأثروه بكتابات محكمة إلا أن كتاباتهم في غالبها جاءت مرتبطة ارتباطاً وشيخاً بالنظام الرسمي الحاكم للأندلس المتمثل فترة بدولة المرابطين وفترة تالية بدولة الموحدين . ولذا فإنهم لم يعنوا بنشاط رجال العلم في الصراع مع النصراني الذي ما هو إلا ميدان واحد فقط من الميادين المتعددة التي كان هؤلاء الرجال يجولون في مناكبها ، ويشاركون بالعمل فيها . ومع ذلك كله فلا أنكر أن عدداً من المؤرخين والكتاب قد مسوه مساً خفيفاً في معرض حديثهم عن الأحداث السياسية أو النواحي الحضارية في مؤلفاتهم

أو رسائلهم الجامعية أو أبحاثهم المكتوبة عن المرابطين والموحدين .

فمن الذين علقوا على الموضوع الدكتور / حسين مؤنس في كتيبه الموسوم بـ " شيوخ العصر في الأندلس " والذي درس فيه مشيخة العصر عند الأندلسيين ، حيث كان أهل العلم في الأندلس في كل جيل يختارون شيخاً ممن عرفوا بالصلاح والتقوى والإخلاص للعلم ، فيتخذونه إماماً لهم دون أن يحفزهم على ذلك سلطان أو طمع ، فيكون هذا الشيخ : المتكلم باسم الجماعة الأندلسية ، الذاب عن حقوقها ، المفزع لها - بعد الله تعالى - عند حلول الأزمات . ولما كان المؤلف قد درس هذا التقليد من الفتح حتى نهاية عصر الموحدين فإنه تعرض لشيخ كل جيل في الفترة التي قمت بدراستها ، فأشار إلى نشاطاته المختلفة في بلاد الأندلس ، وضمنها طرفاً من نشاطه في المواجهة مع النصارى وعلق على ذلك ، فكانت تعليقاته مفيدة .

ومن الباحثين من أشار أثناء حديثه عن الجهاد الحربي ضد النصارى في عصري المرابطين والموحدين إلى مشاركة بعض العلماء في عدد محدود من المعارك التي تعرض لها ، واكتفى في أحيان كثيرة بذكر أسمائهم فقط دون تعليق ، ومن هؤلاء الباحثين الأستاذ محمد عبد الله عنان في العصر الثالث من موسوعته " دولة الإسلام في الأندلس " بقسميه الأول والثاني ، والدكتور / عبد الرحمن الحجي في كتابه " التاريخ الأندلسي " وغيرهما .

كما أن الدكتور / يوسف العربي في رسالته للدكتوراه " الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين " أعطى أمثلة للعلماء المساهمين في الجهاد ضد النصارى إبان عصر الموحدين .

وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك باحثين آخرين ألحوا إلى مشاركة بعض العلماء في الجهاد الإسلامي ضد النصارى ، وذلك بإشارات عابرة وسريعة ضمن أبحاثهم ودراساتهم الأندلسية .

وصفوة القول أن ما ورد عن الموضوع في المؤلفات والأبحاث الأندلسية الحديثة لا يعدو أن يكون نتفاً متفرقة ، أو تلميحات مبعثرة ، أو تعليقات محدودة ، أو معلومات عارضة ، وفوق هذا فهي جاءت - في عمومها - تمس فقط مشاركة العلماء بأنفسهم في الجهاد الحربي ضد القوى النصرانية.

هيكل البحث :

ولدراسة الموضوع دراسة علمية منظمة ، مُلمة بجوانبه كلها ، مغطية ما يفرضه عنوانه أولاً ، وما توافر من مادة علمية ثانياً فقد جاء هذا الكتاب محتوياً على تمهيد وفصول خمسة وخاتمة .

فحيث أن الموضوع يستغرق في زمانه عصري المرابطين والموحدين ، وينحصر في مكانه على الأندلس، ولا يُعنى إلا بجانب الصراع مع النصارى، ولا يتعرض إلا لنشاط فئة واحدة من فئات مجتمع مسلمي الأندلس في ذلك الصراع - أعني العلماء - حيث أن ذلك كذلك فقد كان من الضروري أن يتقدم الدراسة تمهيدٌ يُعرِّف باختصار بأوضاع الأندلس السياسية في ذلك العصر من جانب ، وبأحوالها العلمية في العصر نفسه من جانب آخر ؛ فبدون هذا التعريف المختصر تبقى خلفيات كثيرٍ من الأحداث والقضايا الواردة في فصول الكتاب غير واضحة ، وقد حرصنا أن نركز عند التطرق للأوضاع السياسية على اهتمام الحكام المرابطين والموحدين بشؤون بلاد الأندلس ، وبالأخص في حقل الجهاد العسكري ضد القوى النصرانية .

أما الأحوال العلمية التي ترتبط بالعلماء المشاركين في الصراع المضاد للنصارى ارتباطاً وثيقاً فقد آثرنا أن يكون الحديث عنها مُبرزاً لما طرأ من تطور أو تغيير في الحركة العلمية في الأندلس زمن المرابطين ثم الموحيدين .

وأتى الفصل الأول بعنوان : " العلماء المشاركون في الصراع مع النصارى ومنزلتهم العلمية والاجتماعية " فلقد كان من غير المناسب دراسة المناشط المختلفة للعلماء في ميدان الصراع ضد النصارى دون التعرف عليهم ، والوقوف على أحوالهم ، ولذا احتوى هذا الفصل على أربعة مباحث ؛ أفرد أولها لمعرفة ملامح حياة مشاهير هؤلاء العلماء خلال عصر الدراسة كله ، وتناول المبحث الثاني المكانة العلمية - بشكل عام - للعلماء المشاركين في الصراع ضد النصارى ، كما عالج المبحث الثالث منزلتهم الاجتماعية ، ثم اختتم هذا الفصل بالمبحث الرابع الذي يتم المباحث السابقة ، وهو أثرهم العلمي في المجتمع الأندلسي .

أما الفصل الثاني فقد تعقب تحركات العلماء السياسية المتصلة بالمجابهة مع العدو النصراني ، فكان عنوانه " أثر العلماء السياسي في مواجهة النصارى " وقد أبرز - أولاً - نشاطهم المتنوع في دعوة الناس إلى مجاهدة ذلك العدو ، ثم درس - ثانياً - ما نُسِبَ إليهم من أقوال وأعمال في سبيل إبقاء الأندلس في عصر الدراسة متوحدة الكلمة ، مترابطة الأجزاء أمام الخطر النصراني . وبعدها تتبع - ثالثاً - أثرهم السياسي وقت اضمحلال دولة الموحيدين والذي تمثل بالاستنجد بالدولة الحفصية في العُدوة المغربية لمحاولة استنقاذ البلاد من زحف الجيوش النصرانية عليها .

ثم تلى ذلك : الفصل الثالث الذي رصد بصورة جلية إسهام أكبر عدد ممكن من علماء الأندلس في ميدان الصراع ضد النصارى ، إذ هو يتعلق بجهودهم في الجهاد العسكري ، وقد عنون له بـ " مشاركة العلماء في الجهاد الحربي ضد النصارى " وقد تطرق في البداية إلى عدد من المظاهر الدالة على اهتمام علماء الأندلس بقضية الجهاد العسكري مع هؤلاء الأعداء ، ثم عرض لإسهاماتهم في إنفاق الأموال في ذلك الميدان ، ثم فصل في مشاركتهم الميدانية في الجهاد التي قسمت إلى شطرين ؛ الأول يرصد مشاركاتهم في الغزوات الموجهة نحو ممالك إسبانيا النصرانية ، فابتدأ بخروجهم للجهاد ضد مملكة قشتالة ، ثم مملكة برشلونة (قطلونيا) ، ثم مملكة أرغون ، وأخيراً مملكة البرتغال . أما الشطر الآخر فقد عُني بالحديث عن إسهاماتهم في تحصين المدن الأندلسية من العدوان النصراني الغادر عليها ، ثم تناول جهودهم في الدفاع عنها عند تعرضها للاعتداء أو الحصار من جانب أولئك الأعداء .

والفصل الرابع الموسوم بـ " تصدي العلماء للحملات الفكرية النصرانية ضد الإسلام " أفتتح ببيان للحملات الفكرية التي سلطها النصارى على الإسلام والمسلمين في الأندلس إبان ذلك العصر ، ثم لحق ذلك استقصاء للعلماء الذين انبروا للرد على تلك الحملات ، فعُرف بهم ، وشرحت جهودهم في هذا الجانب ، وبعدها عُرِضت نماذج من ردود هؤلاء العلماء على النصارى الطاعنين في الدين الإسلامي .

وأتى الفصل الخامس - وهو الأخير - معالجاً لأثر العلماء في الحفاظ على هوية مسلمي الأندلس إزاء النصارى ، فكان عنوانه " أثر العلماء في

المحافظة على الشخصية الإسلامية تجاه التأثيرات النصرانية " .
وكما هو المقرر في البحوث العلمية فقد أنهى هذا الكتاب بخاتمة
رصدت فيها أهم النتائج التي توصل إليها ، كما ذُيل بعدد من الملاحق
والخرائط التي رُئي أنها تخدم الموضوع .

المادة العلمية :

إن المصادر المختصة بأخبار علماء الأندلس لم تعن كثيراً برصد
جهودهم في ميدان الصراع ضد النصارى ، فذكرُ شيءٍ منها لم يكن يمثل
ركناً أساسياً مرعياً في كتب التراجم ، إذ الملاحظ أن الإشارة إلى جهود هذا
العالم أو ذاك في ذلك الميدان قد جاء عَرَضاً في تلك المصادر ، وربما مبتسراً
في أحيان كثيرة . وقد يُغفل مصدر من هذه المصادر - معاصر للدراسة -
مشاركة عالم في جهاد النصارى ، ثم نرى مصدراً آخر جاء بعده بزمان يشير
إلى تلك المشاركة . وقد تخلو المصادر المعنية بأخبار العلماء من أي تصريح أو
تلميح لمشاركة العلماء في الجهاد لكن تأتي المصادر التي تتكلم عن الأحداث
معلنة عن مشاركتهم فيه ولو بإشارات مقتضبة ؛ علماً أن ما جاء في هذين
الصنفين من المصادر يختص - في الغالب - بالجهاد العسكري . وقد لا نجد
مطلقاً أي إشارة لجهود العلماء في ميدان الصراع ضد النصارى في الكتب
الخاصة بتراجمهم أو المختصة بالأحداث ثم نعثر على شيء من ذلك أثناء
كلامهم عن أنفسهم في مؤلفاتهم الخاصة ، أو في مؤلفات نقلت مما صدر
عنهم من أقوال . ولذلك فإن جمع مادة هذه الدراسة اقتضى جهداً كبيراً ،
ووقتاً مضاعفاً ، حيث تطلب مسحاً شاملاً لكثير من المصنفات المختلفة في
فنونها ، المتنوعة في موضوعاتها . فالمادة العلمية المكونة للدراسة - إذن -

فوق أنها انداحت إلى مصادر متعددة الاتجاهات، متلونة المشارب، فهي لم تأت فيها محدودة في أبواب معروفة، متسقة في مواضع معينة، ولكن يمكننا - على العموم - حصرها في قسمين؛ قسم منها جاء وافرأ في مصادر معينة ولكنه في الوقت عينه كان متفرقاً في تضاعيفها، وهذا وجد بصفة عامة في المؤلفات التي كُتبت على العلماء وأخبارهم، وعن أحداث عصرهم. أما القسم الآخر من المادة العلمية فقد أتى مشعشعاً في مصادر شتى، وفي الآن نفسه مبعثراً في أكثرها، فتخاله شذرات هنا، وشذرات هناك، وقد وردت هذه الشذرات في كثير مما سَطُر في عصر الدراسة في فنون العلم المختلفة، سواء بأيدي علماء ذلك العصر وكتّابه، أو بأيدي الذين جاءوا من بعدهم؛ فقضية كقضية الصراع مع النصارى - تصك سمع المجتمع الإسلامي في الأندلس وبصره كل حين - قد استحوذت - بلا ريب - على تفكير رجال العلم، وأرقت نفوسهم، وأصبحت الهم الأكبر لدى كثيرين منهم، فانعكس ذلك على ما ألقوه من خطب ومحاضرات، وما أملوه من شروح ومختصرات، وما خطوه هم بأنفسهم من رسائل وكتب؛ علاوة على ما سجله تلاميذهم عنهم من أقوال وآراء. وعلى هذا فلدينا كمية من المصادر التي اعتمد عليها البحث تميزت بأن كتّابها كانوا من أهل العصر الذي ندرسه، فاتفق أن ثلثة منهم سجلت من الحوادث المتعلقة بالصراع ضد النصارى ما شاهدته بعينها، أو شاركت فيه بنفسها، أو عايشته في عمرها.

وقبل أن نلقي الأضواء على أهم المصادر التي أفادتنا نؤكد أنه بالرغم من أن تلك المصادر اختلفت في فنونها واتجاهاتها إلا أن ما ورد فيها بشكل عام من معلومات تخص البحث كان بعضها - في كثير من الأحيان -

يكمل بعضاً ، وربما فسر بعضها ما غمض في الأخرى .

ومن الطبيعي أن تكون كتب التراجم وما يلحق بها كـ بعض كتب الفهارس والبرامج ونحوها أساس هذه الدراسة وعمادها ، فمعظم العلماء الأندلسيين الواردة أسمائهم في صفحات هذا الكتاب انطلقت معلوماتنا الأولى عن إسهاماتهم القولية أو الكتابية أو الميدانية في الصراع ضد النصارى - من هذه المصادر ؛ إضافة إلى كونها المعول الأصلي في التعريف بهم ، وتبيان أحوالهم .

فلقد كانت كتابات أبي عبد الله بن الأبار (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م) الذي كان من المشاركين في حقل الجهاد ضد النصارى - من أهم هذا النوع من المصادر ، فكتابه " التكملة لكتاب الصلة " من بين المصادر قاطبة - كان الأكثر حضوراً في فصول الدراسة ، فهذا الكتاب ترجم - أصلاً - لعلماء عصر المرابطين والموحدين الذي زخر بكثرة كاثرة من أهل العلم لايدانيه في الأندلس عصر سابق ولا لاحق ، فأمدنا بإفادات عن إسهامات كثير من العلماء في ميدان الصراع ضد النصارى ، وبالأخص في مضمار الجهاد الحربي فأشار إلى وقائع حربية بين المسلمين والنصارى شارك فيها أهل العلم لا ذكر لها في المصادر التاريخية . كما أن كتابه " المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدي " الذي شمل تراجم علماء عاشوا في عصر المرابطين ، وفي النصف الأول من عصر الموحدين - قد أفادنا بمعلومات قيّمة عن مشاركات العلماء السياسية والعسكرية المضادة للنصارى .

ويُعد كتاب " الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة " لابن

عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٣م) الذي طُبعت أكثر أسفاره حتى الآن - من كتب التراجم التي أثَّرت البحث كثيراً ، فبالإضافة إلى اختلاف طريقته - أحياناً - عن ابن الأبار في عرضه لسير علماء الدراسة ، فقد تفرد بترجمة علماء فات ذكرهم عن ابن الأبار ، وفوق ذلك أنه تميز بتوسع كبير في تراجم عديد من أولئك العلماء المشاركين في الصراع ضد النصارى ، وعرض لإسهاماتهم في ذلك ، سواءً السياسية أو العسكرية بل وحتى الفكرية .

ومن كتب التراجم التي أفادتنا كثيراً كتاب " صلة الصلة " لابن جعفر ابن الزبير (ت ٧٠٨هـ/١٣٠٨م) الذي طُبِع قسمه الأخير قديماً ، ثم طُبِع مؤخراً أقسام ثلاثة ، رقت بالثالث والرابع والخامس ، فشملت هذه الثلاثة الأقسام ذلك القسم المطبوع من قبل ، حيث سددت ما كان فيه من نقص ، ثم أتت بتراجم جديدة سابقة عليه . فعلى الرغم من أن ابن الزبير لم يكن دائماً دقيقاً في تحديد سنوات الأحداث التي تعرض لها في زمن دراستنا إلا أن معلوماته عن مشاركات العلماء في الجهاد الميداني كان بعضها فريداً ، كتفرده - مثلاً - بذكر مشاركة بعض علماء الأندلس في الجهاد ضد الصليبيين في المشرق .

أما كتب الفهارس أو البرامج أو المشيخة التي سارت على نهج كتب التراجم ، واستفاد منها البحث ، فنذكر على سبيل المثال ما كتبه بيراعه أبو محمد بن عطية (ت ٥٤١هـ/١١٤٧م) الذي كان من مشاهير المسهمين في حرب النصارى ، وعُنُون له بـ " فهرس ابن عطية " حيث أورد عن نفسه

عَرَضاً - وهو يحكي قصة طلبه العلم - إشارات دقيقة عن مشاركاته ومشاركات بعض شيوخه في المعارك ضد العدوان النصراني . وفي معجم مشيخته المسمى " الغنية " زدنا القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م) بمعلومات طيبة عن عدد من العلماء الذين درس على أيديهم ، وشاركوا في جهاد النصارى . أما ما دونه الرعيني (ت ٥٦٦هـ / ١٢٦٧م) عن شيوخه ، ونشر بعنوان " برنامج شيوخ الرعيني " فقد اطلعنا على طرف من أحوال بعض العلماء في المعارك ضد القوى النصرانية ، كما قدّم لنا إشارات عامة عن سير الحركة العلمية في عصره ، فكانت تلك الإشارات مفيدة لنا في الكشف عن جوانب معينة من جهود العلماء الفكرية المواجهة للنصارى .

ولقد كان للمصادر التاريخية الأثر الأعظم في بناء هذا البحث ، فكثير مما ورد مقتضياً عن أحداث الصراع ضد النصارى في كتب التراجم وغيرها أتى موسعاً في هذه الكتب التاريخية ، وما التقطناه من تلويحات عامة، وقد تكون غامضة عن جهود العلماء في ذلك الصراع - في عديد من المصادر غير التاريخية جاءت المصادر التاريخية شارحة لها ، مجلية لغامضها .

فمن المصادر التاريخية التي أفادت الدراسة كتاب ابن الكردبوس (كان حياً في النصف الثاني من القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي -) الموسوم بـ " الاكتفاء في أخبار الخلفاء " والذي سُمّي ما وجد منه يخص الأندلس " تاريخ الأندلس " فما كتبه عن عصر المرابطين كانت فائدته للبحث عظيمة ، وبالذات عند دراسة أثر العلماء في وحدة البلاد أمام النصارى في ذلك العصر .

وكان كتاب "المن بالإمامة" * لابن صاحب الصلاة الذي عاش في أواخر النصف الثاني من القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي - رافداً مهماً للدراسة في الفترة التي غطى أحداثها ، ذلك أن ما نشر منه يمثل فقط السفر الثاني الذي يتتبع بسنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م ويقف عن نهاية حوادث سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ، فجاءت فيه تفصيلات واسعة عن الأحداث في الأندلس إبان هذه السنوات ، وكذلك عن مشاركات العلماء في جهاد النصارى ، وبخاصة في المجال العسكري . كما حكى ابن صاحب الصلاة عن نفسه - بصفته أحد رجال العلم - خروجه مع الجيوش الموحدية للغزو في البلاد النصرانية .

كذلك فإن عبد الواحد المراكشي (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) في كتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" قد عرّض لجهود بعض العلماء ومواقفهم السياسية والعسكرية في حقل الصراع ضد الأعداء . كما أفادنا - أيضاً - بأخبار وافية عن بعض المعارك الكبرى الدائرة بين المسلمين والنصارى في عصري المرابطين والموحدين التي شارك فيها العلماء .

ويعد كتاب "نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان" لابن القطان (وفاته في منتصف القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي -) من المصادر التاريخية التي زودتنا بمادة علمية فريدة عن أثر العلماء في صراع الإسلام ضد النصرانية في الأندلس إبان العصر المرابطي خاصة ، ففي أخبار

* أصل عنوان هذا الكتاب هو "تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، وظهور الإمام المهدي بالموحدين على الملثمين ، وما في مساق ذلك من خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين وآخر الخلفاء الراشدين" ، وقد اكتفى المحقق بكلمتين من العنوان .

السنوات الباقية من أصل هذا الكتاب - وتمتد من سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م - ٥٣٣هـ/١١٣٨م والتي تحامل فيها كثيراً على المرابطين - تفرد بشرح إسهام بعض العلماء في معركتين دارتا بين المسلمين وقشتالة ، وهما أقليمش وطلّيرة. كما كشف جهود بعض العلماء في الدفاع عن المدن الأندلسية من هجمات الأعداء .

وثمة مصادر تاريخية غير ما سبق اعتمد عليها البحث في أغلب فصوله، وذلك عند شرح الأحداث والمواقف المرتبطة بجهود العلماء في ميادين المواجهة مع النصارى ، فضلاً عما ورد فيها - هي بنفسها - عن أثرهم في تلك الميادين . ومن أهم هذه المصادر نذكر كتاب " البيان المغرب ... " لابن عذارى (ت بعد سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م) في القسم الخاص بالمرابطين ، وهو الجزء الرابع ، والقسم الخاص بالموحدين . وكتاب " الأنيس المطرب... " لابن أبي زرع (ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) وكتاب " أعمال الأعلام ... " بقسميه الثاني المختص بتاريخ الأندلس ، والثالث المتعلق بتاريخ المغرب ، وكتاب " الحلل الموشية ... " لمؤلف مغربي مجهول (عاش في القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي -) . وكذلك كتاب " العبر ... " لابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) في الجزء الأول " المقدمة " ، والجزئين الرابع والسادس .

وواضح مما تقدم أن هذه المصادر التاريخية وقبلها كتب التراجم كلها أندلسية أو مغربية ، بيد أن المصادر المشرقية من هذين الصنفين قد أفادت

الدراسة . وميزتها أن كتبها نقلوا رواياتٍ لبعض أحداث ذلك العصر من أندلسيين أو مغاربة هاجروا إلى المشرق ، أو من مؤلفاتٍ ألفها بعض هؤلاء المهاجرين ، وتعتبر الآن في حكم المفقود . ومن هذه المصادر المشرقية نذكر "الكامل في التاريخ" لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) ، و "وفيات الأعيان ... " لابن خلكان (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) ، و "سير أعلام النبلاء" للذهبي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) ، و "الوفاي بالوفيات" للصفدي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) .

ولقد وفرت المصادر ذات الصبغة الأدبية مادة علمية ثرة للبحث ؛ حيث جاءت هذه المصادر في غالبها تراجم لأهل العلم ، وبخاصة لرجال الأدب ، فاستطرد مصنفوها في ذكر حوادث تهمنا في دراستنا . كما حفل بعضها - أيضاً - بخطب ورسائل كانت في غاية الأهمية في تبيان الأثر السياسي والعسكري والفكري ، لعلماء العصر في ميدان الصراع ضد النصارى . فاستفدنا - مثلاً - مما كتبه ابن خاقان (ت ٥٢٩هـ / ١١٣٥م) في "قلائد العقيان ... " و "مطمح الأنفس ... " ، وابن أبي الخصال (ت ٥٤٠هـ / ١١٤٦م) في رسائله ، وابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م) في كتابه "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ، والبلوى (ت ٦٠٤هـ / ١٢٠٨م) في معلمته "ألف باء" ، وابن عميرة المخزومي (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) في رسائله المخطوطة ، وابن سعيد (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) في كتابه "المغرب في حلى المغرب" ، وابن المرابط (كان حياً سنة

٧٢١هـ / ١٣٢١م) في كتابه "زواهر الفكر ..."، وابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة". كما أفدنا كذلك مما جاء في كتاب "رسائل أندلسية" لمؤلف مجهول، وكتاب "رسائل ومقامات أندلسية"، لمؤلف مجهول أيضاً. وكان هذان الكتابان الأخيران قد نشرا من قريب لأول مرة.

أما الصنف الآخر من المصادر التي شيدت البحث فهي مصادر لم تؤول أصلاً في الأحداث التاريخية، ولا في تراجم العلماء وأخبارهم. ونعني بها المؤلفات التي صنفها علماء عصر الدراسة أو بعده في أصول الشرع الإسلامي وفروعه، فمثل هذه التواليف أفادت البحث أيما فائدة؛ حيث جَلَّتْ جوانب أساسية من جهود علماء الأندلس في ميدان الصراع ضد النصارى، وأكملت ما تخلل فصول الرسالة من نقص، وردمت ما اعتورها - أحياناً - من ثغرات. ففي مجال تصدى العلماء للحملات الفكرية النصرانية المضادة للإسلام رجعنا إلى أعمال متكاملة ما ألفها أصحابها إلا لهذا الغرض، فاستفدنا منها فائدة عظيمة، ككتاب "مقامع الصليان" لابن أبي عبيدة الخزرجي (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٧م)، وكتاب "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... المنسوب للقرطبي".

كذلك أفاد البحث من بعض ما ألفه أولئك العلماء في العقيدة والتفسير والحديث والفقه، حيث عثرنا في ثنايا صفحات هذه المؤلفات على معلومات وتعليقات كانت في غاية الأهمية لموضوعنا، فهم - مثلاً - في

تفسيرهم لآية كريمة ، أو شرحهم لحديث نبوي استطردوا - أحياناً - في الكلام عن حوادث وقعت لهم ، أو وقائع حربية مع النصارى شهدوها أو سمعوا بها ، وربما استرسلوا - أحياناً أخرى - في التعليق على ما تعابنه أمتهم من أمراض اجتماعية أو فكرية . وكمثال واضح على ذلك فقد استفدنا من مؤلفات أبي بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) مثل كتاب " العواصم من القواصم " و " أحكام القرآن " بأقسامه الأربعة ، و " قانون التأويل " في التفسير و " عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي " و " القبس في شرح موطأ مالك ابن أنس " ، وغيرها . فتعليقات ابن العربي في أطواء هذه المؤلفات واستطراداته التي تشهد بوعية بأوضاع أمته، وفقهه لواقع الأحداث، ومتابعته - عن فهم وإدراك - لما يدور من احتكاكات بين المسلمين وأعدائهم النصارى - هذه التعليقات والاستطرادات وسواها في مؤلفات آخرين غيره أفادت هذه الدراسة فائدة عظيمة .

ولقد زودتنا كتب الفتاوى بمادة علمية نفيسة ، إذ تضمنت قضايا ونوازل ذات صلة وطيدة بموضوعنا ، فمن ذلك فتاوى ابن رشد الجدد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) ، و " مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام " للقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م) وابنه محمد (ت ٥٧٢هـ / ١١٧٦م) ، و " المعيار المغرب و الجامع المغرب في فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب " للونشريسي (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٨م) الذي حوى عديداً من فتاوى علماء عصر دراستنا .

ونذكر في نهاية حديثنا عن هذا النوع من المصادر أننا حصلنا على إشارات مفيدة لبحثنا في كتابات علماء ذلك العصر في مجال الحسبة والسيرة النبوية والمغازي .

كما أفادتنا كتب الجغرافية بمعلومات عما ورد في الدراسة من أماكن وجدت حاجة للتعريف بها ، وتحديد مواقعها ؛ علاوة على أن هذه الكتب تضمنت أخباراً تاريخية انتفعنا بها في مواطن متفرقة من فصول الكتاب .

أما الدراسات الحديثة فلم ندخر جهداً للاستفادة مما كتب بالعربية عن عصر المرابطين والموحدين سواء في كتب عامة أو خاصة ، أو فيما جاء على صورة مقالات أو أبحاث . كما رجعت إلى ما تيسر من مراجع ومقالات أجنبية تمس الموضوع ، وانتفعت بها .

وفي الختام أحمد الله تعالى على ما وهبني من صحة وعزم ، وصبر وجلّد حتى أنهيت هذه الدراسة ، فهو المحمود على ذلك وغيره من نعمه التي لا تحصى ، وله المنّة من قبل أن هداني إلى موضوعها ، ويسر عليّ جمع مادتها ، وأعاني على كتابتها ، ومنّ عليّ بإتمامها ، فله الحمد والامتنان ، والفضل والشكران .

ثم إنني أنوه بفضل أستاذي الدكتور حمد بن صالح السحيباني - الذي أشرف على هذه الدراسة - ، فكان - على مدى خمس سنوات - عوناً لي على إنجازها . فأشكره على حسن توجيهه ، وحكيم نصحه ، وعلى

تواضعه الجَم ، وكرم استقباله لي في مكتبه وبيته ، فجزاه الله عني أعظم
الجزاء .

كما أشكر كل من قدم لي مساعدة أو مشورة ، وأخص منهم
بالذكر أستاذنا الأستاذ الدكتور / محمد عبد الحميد عيسى ، وأخي الدكتور /
صالح بن محمد السندي ، والأستاذ الدكتور / حمدي عبد المنعم حسين ،
وزميلي الأستاذ / حسن بن يحيى الشوكاني ، فادعوا الله أن يجازي كل
واحد منهم على ما قدم لي خير الجزاء .

وأخيراً أسأل الله سبحانه أن يثيبني - بفضله وكرمه - على ما في
هذا العمل من خير وصواب ، وأن يعفو عني - بلطفه ورحمته - عما فيه من
عثرات وأخطاء ، فحسبي أني تحررتُ واجتهدتُ ، والحمد لله أولاً وآخراً .
وصلّى الله على نبينا محمد وعلى وآله وصحبه وسلم

إيضاحات

- اكتفينا عن كلمات ترددت كثيراً في الكتاب برموز ، ف " ت " = توفي أو المتوفى ، " ج " = الجزء ، " م " = المجلد ، " ق " = القسم ، " س " = السفر ، " ط " = الطبعة .

- فيما يتعلق بكتاب " التكملة لكتاب الصلة " لابن الأبار رجعنا إلى ثلاث طبعات ؛ ١ - ط . الحسيني في جزئين ، ٢ - ط . كوديرا في جزئين ، ٣ - ط . عبد السلام الهراس في أربعة أجزاء ، فإذا عزونا إلى ط . الحسيني نكتفي بذكر اسم الكتاب . أما إذا كانت الإحالة إلى الطبعتين الأخريين فإننا نربط باسم الكتاب كوديرا أو عبد السلام الهراس . وكذلك يقال عن كتاب " صلة الصلة " لابن الزبير ، فالطبعة الأساس المعتمدة في هذا الكتاب والتي نعزو لها هي ط . بروفنسال المتمثلة في القسم الأخير من هذا الكتاب ، ولكننا استفدنا من الطبعة الجديدة التي جاءت في ثلاثة أقسام : الثالث والرابع والخامس . فإذا عزونا إلى هذه الطبعة الجديدة فيعرف ذلك بتقييدنا لها بذكر القسم " ق " .

- استخدمنا الأرقام في العزو إلى المصادر والمراجع ، وعلامة (☆) في التعريف بالمدن أو الشخصيات أو لتوضيح غامض أو لشرح مختصر أو للإحالة إلى شيء سبق ذكره ... ونحو ذلك .

التمهيد

تعريف موجز بالحياة السياسية والعلمية في الأندلس

خلال عصري المرابطين والموحدين

أ - الحياة السياسية :

لما انتشر عقد الخلافة الأموية في الأندلس ، وتفرق الناس فيها شيعاً ، وذاق بعضهم بأس بعض ، وأخذ المد النصراني يتدافع بشراسة للاستيلاء على البلاد هياً الله تعالى من أهل العُدوة المغربية مَنْ بسط سيادته على الأندلس ، واجتهد في توحيد كلمة أهلها ، ووقف شجي في حلق نصارى الممالك الإسبانية مدة زمنية غير قصيرة . وقد مثل المرابطون هذا الدور المغربي أولاً ، ثم جاء من بعدهم الموحدون .

فلقد عبر المرابطون - بقيادة سلطانهم يوسف بن تاشفين* -

☆ نشأت دولة المرابطين على أثر قدوم عبد الله بن ياسين إلى الصحراء جنوب المغرب مع زعيم المثلثين يحيى بن إبراهيم الجدالي ، حيث دعا للعودة إلى الإسلام ، ولما لم يستجب له آوى ومن تبعه إلى جزيرة هناك ، واتخذ رباطاً فيها ، وحين تجمع حوله ألف من الأشياع سماهم المرابطين ، ثم خرج من ذلك الرباط ، وأخضع قبائل المثلثين (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ط . درا المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢م ، ص ١٢٤-١٢٥) وبعد أن آلت زعامة المرابطين إلى يحيى بن عمر اللمتوني عقب وفاة يحيى بن إبراهيم غزا المرابطون مملكة غانة الوثنية سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م ، ثم اتجهوا بفتوحاتهم شمالاً نحو المغرب . ولما قتل يحيى بن عمر سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م بوج لأخيه أبي بكر بن عمر بالإمارة على المرابطين ، وفي حروبهم مع برغواطة سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م قتل داعيتهم عبد الله بن ياسين (البكري : المسالك والممالك ، تحقيق : أدريان فان ليوفن وأندري فيري ، ط . الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٩٢م ، ج ٢ ص ٨٥٩-٨٦٣ ؛ عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق سعيد أحمد أعراب ، ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ج ٨ ، ص ٨١-٨٣) وحينما توجه أبو بكر بن عمر إلى الصحراء فوض أمر المغرب إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين ، فلما رجع رأى أن شأن يوسف قد عظم فتنازل عن السلطة في المغرب عام ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م وكر عائداً مرة أخرى إلى الصحراء (مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، ط . الأولى ، دار الرشاد الحديثة ، الرباط ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٢٣-٢٨) تابع يوسف فتح البلاد فلم تأت سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م إلا والمغرب الأقصى كله وغربي المغرب الأوسط خاضعاً لسلطانه (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٣٩-١٤٤) ويحسن التنبيه هنا أن المرابطين عرفوا أيضاً بالمثلثين (ابن أبي صبيعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ط . دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ج ٣ ، ص ١٠٤) .

إلى الأندلس لموازرة إخوانهم المسلمين فيها ضد النصارى مرتين^{*}. وبعدها توافرت لدى ابن تاشفين عدد من الأسباب حملته على إسقاط مَنْ يحكمون فيها من زعماء دول الطوائف، ومن ثم إلحاقها بدولته. ولعل من أهم تلك الأسباب، ظلمهم للناس^(١)، واستفحال التنازع بينهم^(٢)، وتخاذلهم عن الجهاد^(٣)، وتهافتهم على موالاته العدو^(٤)؛ فضلاً عن كون الأندلس كافة تُعد من الثغور الإسلامية المهمة لاسيما لبلاد العدو المغربية، فسقوطها بأيدي النصارى تهديد خطير لأمن المغرب الذي كان الحكم المرابطي قائماً فيه^(٥). وقد دعم ذلك كله فتاوى العلماء الحاثّة على خلعهم^(٦).

عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس في أوائل سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م

✱ كان العبور الأول سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م فجرت معركة الزلاقة التي اندحر فيها النصارى (ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ط. دار الثقافة، بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ق ٢، ١م، ص ٢٥٤-٢٥٥، ق ٣، ١م، ص ٩٣)، أما الثاني فقد كان في سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م حيث حاصر المرابطون حصن ليط قرب مرسية في الجنوب الشرقي من الأندلس (مجهول: الحلل الموشية، ص ٦٦-٧٠) ولمعرفة تفاصيل أحداث هذين العبورين انظر (عبد الله بن بلقين: التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٥٥م، ص ١٠٢-١١٣).

(١) ابن بلقين: التبيان، ص ١٠٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٧، ١١٣.

(٣) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ٢م، ص ٧٣٤؛ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (قطعة من كتاب الإكتفاء في أخبار الخلفاء) تحقيق أحمد مختار العبادي، ط. معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١م، ص ١٠٤.

(٤) ابن بلقين: التبيان، ص ١٢٣-١٢٧؛ ابن بسام: الذخيرة ق ٢، ١م، ص ٢٤٨؛ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص ١٠٤.

(٥) محمد عبد الله عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ط. الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م، ص ٣٣٩؛ سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس - عهد يوسف بن تاشفين -، ط. الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ١١٤.

(٦) ابن خلدون: [العبور] ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، ط. الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ج ٦، ٢٤٩.

لتحقيق غرضه ، ولكنه اتجه أولاً إلى طليطلة الحاضرة الجديدة لمملكة قشتالة النصرانية* ، فلما عاث فيها وفي بعض ما حولها من قرى ومدن^(١) ، ورأى - فيما يبدو - أنه قطع الصلة بين حاكمها وملوك الطوائف المتواطئين معه كر عائداً نحو الجنوب^(٢) ، وبدأ بمملكة غرناطة** ، فاستولى على حاضرتها في شهر رجب سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م^(٣) . وبعدها استكملت القوات المرابطية إخضاع بقية أراضي هذه المملكة^(٤) .

* قشتالة كانت في أصلها تلك القلاع المقامة لحماية مملكة ليون من هجمات المسلمين ، وقد عرفت أيضاً في المصادر الأسبانية بـ CASTELLES أي القلاع . ولقد صارت هذه القلاع مملكة مستقلة بعد اتحادها في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - (أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ط . مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، ص ٧٨ ، ٢٠٩) وفي النصف الأول من القرن التالي أصبحت قشتالة تابعة للملك نافار سانشو الثالث (المسمى بالكبير) ، فمنحها لابنه فرناندو الذي ضم إليها مملكة ليون بعد وفاة أبيه سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م فاتحدت بذلك قشتالة وليون في مملكة واحدة . (عنان : دول الطوائف ، ص ٣٧٧-٣٧٨) ثم إن فرناندو قسم هذه المملكة قبل وفاته بين أبنائه ، فلما توفى سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م ، تنازع هؤلاء الأبناء فيما بينهم ، واستقر ذلك النزاع عن ولاية الفونسو السادس لعرش تلك المملكة سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م . (Jose Terrero : Historia de Espana , Barcelona , ١٩٧٢ , p. ٩٢-٩٣) هو الذي انتزع طليطلة من المسلمين سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م (ابن بسام : الذخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١٦٨) فجعلها عاصمة لمملكته (عنان : دول الطوائف ، ص ٣٩٦) .

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٣ .

(٢) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ط . دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص ٣٠٣ .

* كانت أسرة بني زيري بن مناد البربرية الصنهاجية تحكم هذه المملكة ، وقد كان آخر حكامها عبد الله ابن بلقين الذي استسلم للمرابطين . لمعرفة أخباره وأخبار أسرته مفصلة انظر (ابن بلقين : التبيان ، ص ١٦ - ١٧٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ط . الأولى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥ ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ - ٣٨٢ ؛ أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق إ . ليفي برونفسال ، ط . الثانية ، دار المكشوف ، بيروت ١٩٥٦م ، ق ٢ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦) .

(٣) الضبي : بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، ط . دار الكتاب العربي ١٩٦٧م ، ص ٤٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٤ ؛ مجهول : نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى ، نشر إ . ليفي برونفسال ، ط . المطبعة الجديدة ، الرباط ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م ، ص ٤٤ .

عاد يوسف إلى عاصمته مراكش ^(١) وشرع في حشد قواته للاستيلاء على مملكة إشبيلية* - أوسع ممالك الطوائف رقعة ، وأشدّها قوة ^(٢) - حيث وزع تلك القوات على عدد من قواده ، وأمرهم بقصد المدن المهمة منها ^(٣) ، فبدأوا هجومهم عليها في شهر شوال من سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ^(٤) ، فما زالت المدن تنهارى تحت ضرباتهم ^(٥) إلى أن أطبقوا على العاصمة إشبيلية بالحصار ، ولبنوا يحاصرونها عدة أشهر حتى دخلوها عنوة في شهر رجب سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ^(٦) . وعقب ذلك سقطت المدن الباقية من هذه المملكة بأيدي المرابطين ^(٧) .

وبُعيد اكتساحهم لمملكة إشبيلية وجه المرابطون فرقاً عسكرية إلى عدد من حكام الطوائف في الجنوب الشرقي من الأندلس ، فنجحت تلك الفرق في القضاء على أولئك الحكام والاستيلاء على أراضيهم ^(٨) . ولم يتعرض المرابطون لحاكم مملكة بطليوس المتوكل على الله

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٤ .

* كان بنو عباد العرب اللخمين يحكمون هذه المملكة ، وقد انتهى حكمهم بقبض المرابطين على آخرهم أبي القاسم محمد بن عباد الملقب بالمعتمد على الله . انظر أخبار هؤلاء في (ابن بسام : الذخيرة ، ق ٢ ، م ١ ، ص ١٣ - ٥٧ ، ابن الأبار : الحلة السرياء ، تحقيق حسين مؤنس ، ط . الأولى ، الشركة العربية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٣ م ، ج ٢ ، ص ٣٤ - ٥٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٥٢ - ١٦٤) .

(٢) عنان : دول الطوائف ، ص ٧١ .

(٣) مجهول : الحلل المشوية ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٤) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ط . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ص ٢٠٠ .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٤ - ١٥٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٦) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٢ ، م ١ ، ص ٥٢ ، ٥٦ ؛ الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤٢ .

(٧) ابن بلقين : التبيان ، ص ١٧١ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٢٠٩ .

(٨) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

ابن الأفطس* ، إذ كان يداريهم ويتظاهر بموالاتهم^(١) ، فلما تحالف مع نصارى قشتالة، وسلمهم بعض المدن الإسلامية^(٢)، قضى عليه المرابطون في سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م ، وسيطروا على جميع ما تحت يده من بلاد^(٣).

وبهذا سيطر ابن تاشفين عسكرياً على الجزء الأكبر من الأندلس، فلم يترك منها سوى مناطق أبدى من يحكمها له بالولاء ، وهي في الوقت ذاته تقف سداً في وجوه الأعداء^(٤) ، أو مناطق كان أهلها يجاهدون من يليهم من النصارى^(٥) ، فأنلف بذلك المغرب مع الأندلس - تحت رايته - في وحدة سياسية وثقى مدعمة باعتراف رسمي من قبل الخلافة العباسية بولايته عليهما، وقد تلقب بأمر المسلمين^(٦)، فاقتزن هذا اللقب باسمه ثم بأسماء من

✽ المتوكل على الله بن الأفطس هو : عمرو بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة ، وكان الحاكم الرابع لبطليوس من أسرته ، وقد تولى الحكم فيها سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م ، وأسرتة بنو الأفطس يعودون في نسبهم إلى قبيلة مكناسة البربرية على القول الراجح (ابن بسام : الذخيرة ، ق ٢ ، م ٢ ، ص ٦٤١ ؛ ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ٩٦-٩٧ ، أما مملكة بطليوس فكانت تشمل معظم أراضي غربي الأندلس (عنان : دول الطوائف ، ص ٨١) .

(١) ابن بلقين : التبيان ، ص ١٧٢ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٨٥-١٨٦ ؛ الإحاطة ، ج ٤ ، ص ٤٦ .

(٣) ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ١٠٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٥م ، ص ٥ ، ق ٢ ، ص ٤٦٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٤ ص ٤٧ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٣ ؛ مجهول : الحلل المشوية ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٥) عصام سالم سيسالم : جزر الأندلس المنسية ، ط . الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص ٢٠٦ ؛ سلامة الهرفي : دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، ط . المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ (تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط) تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ، ط . دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤م ، ص ٢٥١-٢٥٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٠ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الأنشا ، ج ٥ ، تحقيق نبيل خالدة الخطيب ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص ٢٤٩ ، ٤٥٦ .

أتى بعده من حكام الدولة المرابطية ^(١) .

وإذا كان يوسف بن تاشفين قد قصد من وراء خلعه للملك الطوائف توحيد كلمة أهل الأندلس ليقفوا صفاً متراصاً ضد النصارى ^(٢) فإنه في إطار مجاهدته لهؤلاء الآخرين قام بعملين جليلين ؛ أحدهما : تحرير ما استطاع من الأراضي الإسلامية الواقعة في قبضتهم ، فاسترد منهم بعض مدن غربي الأندلس ^(٣) ، وأعاد الحكم الإسلامي إلى جهات من شرقي البلاد ^(٤) .

أما العمل الثاني فهو استئناف حركة الجهاد الإسلامي على الحدود مع الممالك النصرانية ^(٥) ، وقد ركز على مملكة قشتالة أقوى تلك الممالك وقتذاك ، فوجه إليها حملات عديدة بقيادة نخبة من قواده فكسب النصر في أغلبها للمسلمين ^(٦) . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى هاجم المسلمون في عهده مملكة برشلونة*

(١) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٤ ، ١٢١ ، ١٣٥ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٢٢٦ .

(٣) أمين توفيق الطيبي : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ١٩٨٤ م ، ص ٢٣٣ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، ج ١ ، ١٠١ .

(٥) مجهول : الحلل الموشية ص ٨٢ .

(٦) انظر تفاصيل هذه الحملات في : ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١١١ ، ١١٣ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق إحسان عباس ، ط . الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣ م ، ج ٤ ، ص ٤٤ ، ٤٥ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٣ .

* منطقة برشلونة Barcelona تقع في ركن الأندلس الشمالي الشرقي ، وتسمى أيضاً قطلونيا (Emilio Mitre : La Espana medieval , Madrid , ١٩٧٩, p. ١١٦) وتسميتها بقطلونيا نسبة إلى إحدى القبائل القاطنة هناك (شكيب أرسلان : الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ط . دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) وقد سلبها فرنجة فرنسا من المسلمين عام ١١٨٥ هـ / ٨٠١ م) مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، ط . مدريد ، ١٩٨٣ م ، ج ١ ، ص ١٣٢) فكانت تابعة لهم فترة من الزمن ، ثم استقلت عن سلطانهم وانقسمت إلى عدة ممالك ، وكان أهمها مملكة برشلونة التي خضعت في مستهل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي لسلطة آل برنجير ، وكان حاكمها منهم أيام الأحداث المشار إليها أعلاه : رامون برنجير الثالث (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م - ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م) (أرسلان : الحلل ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧ ، ٢١٩ ؛ عنان : دول الطوائف ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ ؛ Jose Terrero: op. cit. P. ٩٠-٩١ .

وتوغلوا في أراضيها^(١).

وواضح مما سلف أن يوسف بن تاشفين قد جعل الأندلس - مذ أن ضمها إلى دولته - محط عنايته ؛ فبالإضافة إلى تفانيه في توحيدها وجهاده للعدو المتربص بها فقد حرص على تنظيم شؤونها ، فقسمها إلى ولايات^(٢) ، وعين فيها ولاية من خيرة رجاله^(٣) ؛ ثم إنه حين اختار ابنه علياً لولاية العهد قصد مدينة قرطبة ، وأجرى له فيها مراسيم العهد ، وذلك في ذي الحجة سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م^(٤) . ثم كان - أيضاً - من شروط تقديمه لولاية العهد تخصيص سبعة عشر ألف فارس للأندلس ، منهم أربعة آلاف للمرابطة في ثغورها المصاوبة للعدو ، وبقيتهم يوزعون على قواعدها الكبرى^(٥) ؛ بل بلغت عناية يوسف بأمر الأندلس حداً دفعه - وهو على فراش الموت - أن يوصي خيراً بالقرطبيين^(٦) الذين هم سكان حاضرة الأندلس وقاعدة الحكم المرابطي فيها وقتذاك^(٧) .

ولما تسنم علي بن يوسف بن تاشفين سدة الحكم في دولة المرابطين بعد وفاة والده عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م^(٨) أصبحت الأندلس على رأس أعماله ، فبمجرد أن بويغ له في المغرب عبر إليها ، فأخذ من أهلها

(١) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١١٠ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٠ .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ط . الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ م ، ق ١ ، ص ٤١٥ .

(٣) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٦ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ٢ ، ص ٥١٨ ، ٥٢١ .

(٥) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٠ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٧) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٤٧ ، ٤١٥ .

(٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ط . دار صادر ، بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ج ١٠ ، ص ٤١٧ ؛

ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٧ .

البيعة ، ورتب أمورها ^(١) وأجرى فيها جملة من التغييرات الإدارية ^(٢) ، ثم إنه فيما استقبل من أيام حكمه صرف جل جهوده في متابعة شؤونها ، ومراقبة أحوالها ^(٣) حتى أنه عبر إليها بنفسه عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م لمعالجة ما حصل من خلاف بين أهل قرطبة وواليتهم من قبله ^(٤) .

ولقد واتت الظروف علي بن يوسف وربما دفعته إلى ضم مناطق أندلسية إلى دولته لم تدخل في سلطان المرابطين من قبل ، من ذلك أن حاكم سرقسطة ☆ المستعين بالله بن هود ☆ قُتِلَ في رجب سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ، فتولى بعده ابنه عماد الدولة عبد الملك الذي أصر على مداخلته النصارى ، فعندئذ قام المرابطون بالاستيلاء على بلاده في آخر تلك السنة ^(٥) . كما أن جزائر الأندلس الشرقية (البليار) ☆☆☆ تعرضت سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م لهجوم

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤٧ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٣) الهروي : دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، ص ٦٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٥٨ ؛ مجهول : الحلل المشوية ، ص ٨٦ .

☆ سرقسطة Zaragaza تقع على الضفة اليمنى لنهر إيرو في الشمال الشرقي من الأندلس (الإدريسي : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ط. ليدن ، ١٩٦٨ م ، ص ١٩٠) وكانت قاعدة الثغر الأعلى (أبو الفداء : تقويم البلدان ، نشر رينود وديسلان ، ط . الأولى ، باريس ، ١٨٤٠ م ، ص ١٨١) وتمثل اليوم مركزاً لمقاطعة تسمى باسمها (إ . ليفي برونفيسال : سرقسطة ، دائرة المعارف الإسلامية ، تعريب أحمد الشنتاوي وآخرين ، ط . دار المعرفة ، بيروت ، ج ١١ ؛ ص ٣٦٧) .

☆☆☆ المستعين بالله هو أبو جعفر أحمد بن المؤمن ، وهو الحاكم الرابع من بني هود الذين حكموا سرقسطة في عصر دول الطوائف ، وقد كانت ولايته عليها من سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م حتى قتل عام ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م . وبنو هود هؤلاء يعودون في نسبهم إلى قبيلة جذام العربية (ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٨ ؛ ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٥٤ - ٥٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٠ - ١٧٥) .

(٥) ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ؛ ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٥٢ ، ٥٣ - ٥٤ ، ٥٥ . ☆☆☆ البليار Palears هي مجموعة من الجزر في غربي البحر المتوسط تولى مع بعضها بعضاً أرخبيلاً متسعاً تصل مساحته إلى ٤٩٠٠ كم ٢ وأهمها خمس جزر هي : ميورقة ومنورقة ويابسة وفرمتييرة وقبريرة (سياسم : جزر الأندلس ، ص ١٥) وكانت تعرف عند المسلمين باسم الجزائر الشرقية -

عاتٍ من جانب الأساطيل النصرانية المشكلة من الإيطاليين المتواطئين مع
البرشلونيين فاحتلتها بعد حصار مرير^(١)، وكان المسلمون فيها -أثناء
الحصار- قد بعثوا إلى علي بن يوسف لإغاثتهم، فوجه إليهم الأسطول
المرابطي^(٢) فما أن سمع النصارى بمقدمه حتى أخلوا الجزائر هارين^(٣)،
فدخلها المرابطون سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٦ م^(٤) ☆ .

ولقد بذل علي بن يوسف طاقته في جهاد الممالك الإسبانية، فعبر إلى
الأندلس مجاهداً أكثر من مرة^(٥)، وكان عند تسييره الحملات - لغزو تلك
الممالك - يجتهد في الاستعداد، ويبالغ في الاحتشاد^(٦)، وكان يُحرّضُ

= (ابن الأبار : الحلة ، ج١ ، ص ٢٧٠ ؛ ابن خلدون العبر ، ج٤ ، ص ٢١٠) أما اسم البليار
فالذي أطلقه عليها اليونانيون ثم سائرهم في ذلك الرومان (سيسالم : جزر الأندلس ، ص ١٦) وتعد
اليوم إحدى مديريات إسبانيا (محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ، ط ٣ . الثالثة ، دار
المعرفة ، بيروت ، ١٩٧١ م ، ص ١ ، ص ٢٤٢) .

(١) محمود علي مكّي : وثائق جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد،
٧م - ٨ ، ١٩٥٩ - ١٩٦٠ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ؛ عصام سيسالم : جزر الأندلس ، ص ٢٣٥ - ٢٤٠ ،
٢٥٤ - ٢٦١ .

(٢) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١٢٣ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٢٤٨ .

(٣) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١٢٤ ؛ ابن القطان : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار
الزمان ، تحقيق محمود علي مكّي ، ط ١ الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٠ م ، ص ٧٥ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٢ .

☆ وتذكر المصادر النصرانية أن السقوط النهائي لآخر معقل في هذه الجزر بأيدي النصارى كان في ٣ ذي
القعدة ٥٠٩ هـ (١٩ مارس ١١١٦ م) وأن المرابطين استعادوها في آخر هذا الشهر (عصام سيسالم :
جزر الأندلس ، ص ٢٦١ ، ٢٦٩) انظر دراسة ضافية موثقة عن أسباب هذا الاحتلال وظروفه
وأحداثه في (المرجع السابق ، ص ٢٢٣ - ٢٧١) .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ص ٢٤٧ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٦) يفهم ذلك من خلال رسالة كتبها إلى أهل الأندلس ، انظر ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي
الخصال ، تحقيق محمد رضوان الداية ، ط ١ الأولى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م ، ص
٦٠٥ ؛ محمود علي مكّي : وثائق جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٦٨ .

عماله وقواده في الأندلس على مواصلة الجهاد وحماية الثغور^(١) ، وربما شدد اللهجة على من انهزم منهم أمام الأعداء^(٢) ، فأفضى به الأمر - أحياناً - إلى معاقبتهم بعزلهم عن القيادة أو الولاية^(٣) .

وقد جابه أربع ممالك نصرانية ، فوفق في الانتصار عليها في مواطن ، وأخفق في مواطن أخرى ، ففي علاقته مع قشتالة استطاع جنده عام ٥٠١هـ / ١١٠٨م هزيمة جيوشها هزيمة منكرة في موقعة أُلَيْش^(٤) ، ثم تساجل الجانبان الهجوم على أراضي بعضهم بعضاً ، فركز المرابطون غزواتهم على طليطلة وما حولها^(٥) بينما وجه القشتاليون غاراتهم على قرطبة وإشبيلية وأحوازهما^(٦) .

أما المملكة النصرانية الثانية وهي مملكة أرغون^{☆☆} ، فقد انهزم

(١) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ص ٦٠٨ ؛ محمود علي مكي : وثائق جديدة ، ص ١٧٠ ؛ مجهول : رسائل ومقامات أندلسية ، تحقيق فوزي سعد عيسى ، ط . منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م ، ص ١٣١-١٣٢ .

(٢) انظر رسالة علي بن يوسف إلى أبي محمد بن أبي بكر بن سير في : حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، ص ٥١-٥٢ .
(٣) ابن الأبار : المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدي ، ط . دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، ص ٥٥ .

☆☆ أُلَيْش Ucles كانت من قواعد كورة شَنْتِيرِيَّة (مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص ٥٨) وهي إلى الشرق من طليطلة ، وتقع الآن في مديرية كُونكة تابعة لمركز تارانكون (حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي ، ص ١٩ ، وحاشية ٣) .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٦٣-٦٤ ؛ ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٤٩-٥٠ .
(٥) انظر التفاصيل في : ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٦٩-٧٠ ، ٢١٥-٢١٦ ؛ ابن عذاري : البيان ج ٤ ، ص ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥١ .

(٦) انظر تفاصيل ذلك في : ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٢٦ ؛ ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ص ٦١ ، ٨٤ ، ٨٥-٨٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ص ٤٥٢ .

☆☆ أرغون Aragon أصلها رقعة ضيقة تمتد من باب شيزروا في جبال البرتات نحو الجنوب بحذاء نافار الواقعة إلى الغرب منها (عنان : دول الطوائف ، ص ٣٧٨) وقد ظهرت بشكل إمارة صغيرة في -

المرابطون أمامها في أكثر من موقعة ^(١) ، واحتلت عدداً من المدن والحصون في شمال شرقي الأندلس ^(٢) كان أكبرها سرقسطة التي سقطت في قبضتها عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ^(٣) ، فصارت عاصمة لهذه المملكة النصرانية ^(٤) ، ثم أن الجيش الأرغوني استطاع عام ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م اختراق الأندلس في غارة سريعة حتى وصل إلى مناطقها الجنوبية ^(٥) . لكن المرابطين بعد ذلك بسنوات تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالأرغونيين عند مدينة إفراغة [☆] ، وكان هذا في سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٤ م ^(٦) .

- أواخر عصر الولاة في الأندلس (حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ط . الثانية ، الدار السعودية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٥١٩) ولقد كانت أرغون في أوائل القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي - ضمن مملكة نافار ، وحين قسم سانشو الكبير مملكته هذه قبل وفاته عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م بين أبنائه الأربعة خص ابنه غير الشرعي راميرو بأرغون . وقد نشط هذا الأخير في مد سلطانه على ما حوله من بلاد ، ثم تولى حكمها بعد وفاته عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ابنه سانشو الذي اتسعت أرغون في عهده اتساعاً كبيراً ، ثم خلفه بعد وفاته ابنه بيدرو الأول . ولما توفي عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م حكم مملكة أرغون أخوه الفونسو الأول (المحارب) (يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، ط . الثانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م ، ص ٩ ، ١١-١٧ ، ٢٤ ، ١٣٨ ؛ عنان : دول الطوائف ، ص ٣٧٨ - ٣٧٩ ، ٤٠٥-٤٠٦ . Jose Terrero : op.cit , p.124) .

(١) انظر أمثلة في : ابن بشكوال : الصلة ، ط . الدار المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٦٦ م ، ج ١ ، ص ١٤٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٨٦ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٣ .

(٣) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١١٧-١١٩ ؛ ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٣ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار) نشر إ . ليفي بروفنسال ، ط . ب . م ، ص ٩٧-٩٨ .

(٤) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ١٤٥ .

(٥) ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٦٩-٧٢ ؛ ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٩-١١٣ ؛ مجهول : الحلل ، ص ٩١-٩٧ .

☆ إفراغة Fraga تقع جنوب غرب لاردة (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٥٤ ، حاشية ٢) بينهما مسافة ثمانية عشر ميلاً وهي تربض على نهر الزيتون (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٢٤) .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٣ - ٣٤ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٣٥ ، ٢٤٣-٢٤٨ .

وبالنسبة لموقف علي بن يوسف من مملكة النصارى الثالثة : برشلونة (قطالونيا) فقد غزتها قواته أكثر من مرة ^(١) ، ولم يختلف الوضع مع المملكة الرابعة: البرتغال* التي كانت قد نشأت حديثاً إذ هاجمتها القوات المرابطية في عهده عدة مرات ، واستردت بعض المدن الإسلامية منها ^(٢) ، بل إن علياً نفسه كان قائد جيش المجاهدين في أراضيها عام ٥١١هـ / ١١١٧م ^(٣) .

وفي الوقت الذي كانت دولة المرابطين تجاهد هؤلاء النصارى ، وتدرأ خطرهم عن الأندلس نبتت في المغرب دعوة الموحدين بزعامة محمد ابن تومرت** ، واستغلظ عودها ، وأخذت تحارب المرابطين بشراسة ،

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٤ ، ١٣٨ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٠-١٦١ .
 * البرتغال : أصبح الشطر الشمالي من غربي الأندلس المنتزع من المسلمين والتابع لمملكة قشتالة - أصبح ولاية خاصة باسم البرتغال في عهد فرناندو الأول، وقد اشتقت تسميته من مدينة بورتو كالي Porto cale القائمة عند مصب نهر دويرة . ولقد تعاقب على ولايته في عهد الفونسو السادس فارسان فرنسيان هما ريمون البرجونى وهنري دي لورين ، ذاك أنهما أخلصا في حرب المسلمين ، وكافأهما الفونسو السادس بتزويجهما من ابنتيه ، وجعل الأول منهما والياً للبرتغال ، فلما توفى عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م أسند ولايتها للثاني هنري الذي لم يمكث أن صار حاكماً مستقلاً عن قشتالة لا سيما بعد وفاة الفونسو السادس عام ٥٠٢هـ/١١٠٩م ، وقد اتخذ من قلمرية عاصمة له ، ولهذا تتعته المصادر الإسلامية بـ " صاحب قلمرية " . توفي هنري عام ٥٠٦هـ/١١١٢م ولم يعقب سوى طفل صغير اسمه الفونسو هنريكيز ، فحكمت أمه تيريز البرتغال بالوصاية عليه حتى كبر واستلم الحكم عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٢٣٧-٢٤٢ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٥٢٢ - ٥٢٥) .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٢٢٨ ، ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٢٧-٢٢٨ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦١ ، ١٦٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ص ٦٤ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤٧ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٦ .

*** محمد بن تومرت من قبيلة هرغة من المصامدة البربر ، درس في المغرب والأندلس ، ثم طلب العلم في المشرق الإسلامي ، وفي سنة ٥١٠هـ/١١١٦م عاد إلى المغرب ، فما زال يتنقل بين مدنه إلى أن حل هو وأصحابه في مراكش عام ٥١٤هـ/١١٢٠م ، ثم طرد منها في السنة التالية ونزل في أغمات ، ثم مضى إلى بلاد السوس موطن قبيلته ، وهتالك ائثال عليه كثير من الأتباع ، وحينئذ ادعى أنه من نسل الحسن بن علي -رضي الله عنهما - ، وأنه المهدي المنتظر ، وسمى أتباعه الموحدين ، ثم بدأ الصراع -

فكان علي بن يوسف أن يتصدى لهذه الحركة الناهضة^(١)، ويصرف مجهودات مضاعفة لضربها، لا سيما في سنوات عهده الأخيرة، ذاك أن زعامة هؤلاء الموحدين آلت عقب وفاة ابن تومرت عام ٥٢٤هـ / ١١٣٠م إلى خليفته عبد المؤمن بن علي*^(٢)، فدخل مع المرابطين - علي مدى ثماني سنوات تقريباً - في حرب استنزافية اعتمد فيها على الغارات الخاطفة^(٣)،

- العسكري بينهم وبين المرابطين، وقد توفي عام ٥٢٤هـ / ١١٣٠م عقب هزيمة أنصاره على أيدي المرابطين في موقعة البحيرة عند مراكش. انظر أخباره في: (البليدق: أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، ط. دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١م ص ١١-٤٣؛ ابن القطان: نظم الجمان، ص ٦١-١٦٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٦٩-٥٧٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط. الثامنة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج ١٩، ص ٥٣٩-٥٥٢). أما سر تلقيب أتباعه بالموحدين فلأنه جعل من أهم أسس حركته الاعتقاد برأي المعتزلة ومن على شاكلتهم من الجهمية في نفي صفات الله عز وجل، والذي يعد عندهم توحيداً، فبسبب هذا الاعتقاد أطلق على جماعته موحدين. أما من خالفهم فمجتسماً، ولذا وصم المرابطين بالمجسمين مع أنهم مالكية على عقيدة أهل السنة والجماعة. (ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، ط. مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، م ١١، ص ٤٧٨، ٤٨٧-٤٨٨؛ درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم، ط. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ج ٣، ص ٤٣٨) وبجانب زعمه النسب العلوي والمهدية فقد ادعى العصمة، واستحل دماء من خالفه (الشاطبي: الاعتصام، تحقيق سليم بن عيد الهلالي، ط. الأولى، دار ابن عفان، الخبر، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج ٢، ص ٥٨٤) لمعرفة الأسس الفكرية لدعوته بتوسع انظر (حمد السحبياني: الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت، مجلة جامعة الإمام، عدد ٦، محرم ١٤١٣هـ، ص ٥٥٦-٥٦٩).

(١) البليدق: أخبار المهدي، ص ٣٥-٤٠؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٧٧-١٧٩؛ مجهول: الحلل الموشية، ص ١١٠-١١١.

* عبد المؤمن بن علي: يرجع إلى قبيلة كُومية من البربر الذين منهم زناتة، ومنهم من يوصل نسبه إلى قيس بن عيلان العدنانيين. كان لقاءه بابن تومرت لأول مرة في بجاية، فلازمه حتى وفاته، ثم بويع له على الموحدين من بعده - كما جاء في المتن - (ابن خلدون: العبر، ج ٦ ص ١٦٦-١٦٧) تسمى بالخليفة أمير المؤمنين وسار خلفاؤه على ذلك (ابن خلدون: المقدمة ص ٢٨٦).

(٢) البليدق: أخبار المهدي، ص ٤٣؛ ابن القطان: نظم الجمان، ص ١٧٠، ٢٠٤.

(٣) عبد الله علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، ط. دار المعارف بمصر، ١٩٧١م، ص ١١٠؛ الهري: دولة المرابطين، ص ١٢٦. انظر التفاصيل في: ابن القطان: نظم الجمان، ص ٢٢٣-٢٢٦، ٢٣٤، ٢٣٧-٢٤٠، ٢٤٩-٢٥٥؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٨٦، ١٨٧؛ ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٠٦.

فكانت النتيجة أن " وُجِّه كثير من حماة الأندلس إلى العدو ، ونُقِلَ إليها كثيرٌ من أسلحتها وعددها " (١) حتى أن تاشفين بن علي بن يوسف الذي عرف بجهاده المستميت ضد النصارى في الأندلس (٢) ولاه والده قيادة الجيوش المرابطية المقاتلة للموحدين في المغرب بعد أن بايعه بولاية العهد (٣) ، وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م (٤) .

قام تاشفين بمهاجمة معقل الموحيدين في منطقة السوس جنوب المغرب (٥) ثم حاول وقف تحركاتهم في أراضي المغربيين الأقصى والأوسط ، فلم يفلح في عرقلتهم إلا قليلاً ، إذ حاقت به الهزيمة في معظم المعارك التي خاضها معهم (٦) .

وبينما كان نجم الموحيدين يتألق بما أحرزوه من غلبة المرابطين إذ توفي علي بن يوسف بن تاشفين في رجب سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٣ م فارتنى سدة الحكم بعده ابنه تاشفين (٧) الذي فارقت طاعته عدد من القبائل المرابطية منحازة إلى خصومه الموحيدين ، وتلاحقت عليه الهزائم إلى أن انتهت حياته في

(١) مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٢٠ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ص ٤٥١ - ٤٥٣ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٢١ - ١٢٤ .

(٣) ابن الخطيب : شرح رقم الحلل في نظم الدول ، تحقيق عدنان دروينس ، ط . وزارة الثقافة السورية ، ١٩٩٠ م ، ص ١٨٧ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٢٠ ، ١٣٠ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٦٧ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٥ .

(٥) البيهقي : أخبار المهدي ، ص ٤٥ - ٤٧ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٦٣ - ٢٦٥ ؛ ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٩٨ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٠٦ .

(٦) انظر أخبار هذه الوقائع مفصلة في : البيهقي : أخبار المهدي ، ص ٤٩ - ٥٦ ؛ ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٩٩ - ١٠٠ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٠٦ .

(٧) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٥٦ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

رمضان سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٥م بسقوطه من مكان شاهق^(١) ، وعندها بويع لابنه الحدث إبراهيم في العاصمة مراکش ولكن عمه إسحاق بن علي نازعه السلطة^(٢) في الوقت الذي كان الموحدون يحتلون ما بقي من مدن المغرب الواحدة تلو الأخرى إلى أن أحرقوا بالعاصمة المرابطية ، ودخلوها بالسيف في شوال من عام ٥٤١هـ / ١١٤٧م فاستباحوا دماء المرابطين بها بمن فيهم حاكم الدولة^(٣) - كما هو فعلهم من قبل في مدن مرابطية أخرى-^(٤).

وكانت الأندلس قد اندلعت فيها الثورات ضد المرابطين باضمحلال دولتهم في المغرب ، وقد ابتداءً اندلاعها هناك قبل موت تاشفين بن علي بأشهر معدودة عندما خرجت جماعة من الصوفية - عُرفتُ بالمريدين* - على سلطان المرابطين في غربي الأندلس، وسيطرت على عدد من مدنه^(٥) . وحينها

(١) البيذق : أخبار المهدي ، ص ٥٤ - ٥٩ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٦٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٣٠ - ١٣٤ ؛ مجهول : نبذ تاريخية ، ص ٥٨ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ، ص ١٠٥ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٣٥ .

(٣) انظر التفاصيل في : البيذق : أخبار المهدي ، ص ٦٠ - ٦٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٨ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق ٠ الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكناني وآخرين ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ، ص ٢٢ - ٢٩ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٨٨ - ١٨٩ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٣٥ - ١٣٩ .

(٤) الإدريسي : صفة المغرب ، ص ٦٨ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ؛ ابن غازي : الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، ط . الثانية ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص ١٨ - ٢٧ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .
* المريدون : هم أتباع مشايخ الصوفية الذين انتشروا آنذاك في الأندلس ، وكان مركزهم مدينة المرية ، بيد أنهم كثروا في غربي الأندلس خاصة ، وقد عرف عنهم إقبالهم على كتب التصوف ورسائل إخوان الصفا وكتب الباطنية (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩) وقد كتب ابن صاحب الصلاة كتاباً عن ثورتهم بعنوان " تاريخ ثورة المريدين بالأندلس " (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٣٢) .

(٥) ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ ، ٢٠٤ - ٢٠٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤٨ - ٢٥٠ .

انفجرت الثورات عليهم في كافة مناحي البلاد ^(١) ، وقد كانت أكثرية الذين رفعوا لواء تلك الثورات من القضاة والفقهاء ، أما القلة الباقية منهم فقد كانوا من الأدباء والأعيان ، أو من القادة ذوي الأصل الأندلسي ^(٢) .

ومما يمكن رصده أن نفراً من هؤلاء المنتزين لم يستقروا في حكم مدنها غير أيام ، أو أشهر لاتتعدى العام ^(٣) ، حيث استمر بينهم التنازع لامتلاك أوفر نصيب من القرى والمدن ، فاختلفى على أثر ذلك طائفة منهم ^(٤) . كما أن غالب تلك الحركات قد افتقدت التنظيم ، وانعدم فيما بينها التنسيق ^(٥) وإن أبدى فريق من زعمائها - حيناً من الدهر - تبعيتهم الظاهرية لحركة العاصمة الأندلسية القديمة قرطبة ^(٦) . ولم يستطع المرابطون التصدي إلا لقسم محدود من هذه الحركات ^(٧) ، بل تمكنت ثلة من أولئك المتمردين تشكيل دويلات مستقلة عاش بعضها فترة قصيرة بينما عُمِّرَ بعضها الآخر طويلاً ^(٨) . وقد ارتقى أفراد منهم في أحضان النصارى لضمان البقاء في السلطة ، أو الاستعانة

(١) حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، عدد ٣ ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ص ٦٥٦ - ٦٥٧ ؛ السامرائي وزميلاه : تاريخ المغرب العربي ، ط . جامعة الموصل ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٢٧٤ - ٢٨١ .

(٣) عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٩٩ .

(٤) انظر أمثلة في : ابن الأبار : الحلقة ، ج ٢ ص ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٥) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ط . مكتبة أطلس ، دمشق ، ١٩٨٣ م ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٦) انظر أمثلة لهؤلاء في : ابن الأبار : الحلقة ، ج ٢ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ، المعجم ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٢٢٣ .

(٧) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، عبد الرحمن العجلان : الأندلس تحت حكم المرابطين ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، كلية العلوم الاجتماعية بالرياض ، ١٤٠٢ هـ ، ص ٢٥٦ .

(٨) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٢٨٠ .

بهم في مواجهة بقايا المرابطين، ثم بعد ذلك مواجهة ورثتهم الموحدين^(١).

ولقد اقتضى انتظام بلاد الأندلس برمتها في سلك الطاعة الموحدية سنوات مديدة تجاوزت عهد عبد المؤمن بن علي إلى عهود خلفائه من حكام الموحدين^(٢)، فثمة ثوار بادروا بالبيعة لعبد المؤمن بن علي عند تيقنهم أن دولة المرابطين في سبيلها إلى الانقراض^(٣) وهناك فئة من الثوار الأندلسيين لما غلبوا على أمرهم، وضائق بهم السبل عبروا إلى المغرب، وبايعوا عبد المؤمن، فمنهم من اكتفى بالبيعة وبقي في المغرب أو عاد إلى وطنه^(٤)، ومنهم من زين له العبور بقواته إلى الأندلس^(٥)، وحينئذ انهد ثلاثة من الجيوش إلى مناطق الأندلس الغربية فسيطرت عليها - بلا مشقة - قبل أشهر من سقوط مراکش عام ٥٤١هـ / ١١٤٧م^(٦) إلا أن أهل هذه المناطق - سوى القليل منهم - ما نشبوا في العام التالي أن تمردوا على الحكم الموحي فبعث عبد المؤمن إليهم جيشاً قوياً أخضعهم كرة أخرى لسلطانه^(٧). ثم ما زال يشدد ضغطه لاحتلال بقية الأندلس حتى سلمت له قرطبة أوائل عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م^(٨).

(١) ابن الأبار: الحلة، ج ٢، ص ٢٠٠؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، ص ١٢٤؛ أعمال الأعمال، ق ٢، ص ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٦٠.

(٢) عز الدين موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، ط. الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص ٤٦ - ٤٧، . Montgomery Watt, A History of Islamic Spain, New York, 1967, P. 91.

(٣) ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ٢٧، ٣٤؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٨٨.

(٤) ابن الأبار: الحلة، ج ٢، ص ٢٤٢؛ ابن الخطيب: أعمال الأعمال، ق ٢، ص ٢٥٤، ٢٦٤.

(٥) ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ٣٤ - ٣٥؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥١؛ ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣١٢.

(٦) ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ٣٥؛ ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣١٢ - ٣١٣.

(٧) انظر التفاصيل في: البيهقي: أخبار المهدي، ص ٨٦ - ٨٨؛ ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ٣٨ - ٤٠؛ ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣١٣ - ٣١٥.

(٨) ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ٤١؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٩١؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٤، ص ٣٤٧.

ومنها انطلقت السرايا لبسط السيادة الموحدية على المدن والحصون القريبة^(١)، فلم يكد عام ٥٥١هـ / ١١٥٦م ينصرم إلا وكانت غرناطة آخر معقل المرابطين في البلاد قد أعلنت الطاعة له^(٢). وبذلك سيطر الموحدون على أواسط الأندلس فضلاً عن مناطقها الغربية، فلم يبق خارجاً عن طاعتهم إلا مناطقها الشرقية وجزر البليار.

وكانت السيادة في شرقي الأندلس قد خلصت إلى محمد بن سعد ابن مردنيش[☆] (٣) الذي والى النصارى في داخل الجزيرة الإيبيرية وخارجها^(٤) وآزرهم في احتلالهم لبعض المدن الإسلامية^(٥)، وفي المقابل ناصب الموحدين العداء، وقمع بعنف الثورات المؤيدة لهم في أراضيه^(٦)، واحتل مدناً في الجنوب الأندلسي تابعة لهم^(٧)، ثم توغلت عساكره - تحت قيادته أولاً ثم بقيادة أهل ثقته لاحقاً - توغلت باتجاه الغرب، فدوخت قواعد

(١) السامرائي وزميله: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ط. جامعة الموصل، ص ٢٦٣، تاريخ المغرب العربي، ص ٢٩٨.

(٢) ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ٥٥؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٩٦. ☆ محمد بن سعد بن مردنيش تنسبه المصادر إلى أصل عربي إما إلى جذام أو إلى تجيب (ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، ص ١٢١) بينما يرجع المؤرخون النصارى المحدثون انتسابه إلى البيزنطيين القدماء في منطقة قرطاجنة (عنان: عصر المرابطين، ق ١، ص ٣٣٦) وقد تولى أمور شرقي الأندلس عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م بعد مقتل صهره ابن عياض حاكم هذه المنطقة (الضبي: بغية الملتبس، ص ٤٤؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، ص ١٢١، ١٢٦).

(٣) المراكشي: المعجب، ص ٢٧٨.

(٤) ابن الأبار: الحلة، ج ٢، ص ٢٣٣ حاشية؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، ص ١٢٤.

(٥) ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ٥٦؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٩٣.

(٦) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، نشر السيد عزت العطار الحسيني، ط. مطبعة السعادة بمصر، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥، ج ٢، ص ٤٧٧، ٥٠٩، ٥١٠. وانظر أيضاً بروفنسال: مجموع رسائل موحدية، ط. المطبعة الاقتصادية، الرباط، ١٩٤١م، ص ٣٧؛ عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط. الثالثة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ج ٢، ص ١٠٣.

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، ص ١٢٦، أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٦١.

الأندلس الرئيسية ، بل اقتحمت بعضها . وبالرغم من أن عبد المؤمن غنى بشأنه ، وحفز قواده في الأندلس على ضربه ، وبعث إليه من المغرب الحشود أكثر من مرة ، فاشتبكت مع أنصاره في وقائع ضارية إلا أنه توفي دون أن يخضد شوكة ابن مردنيش هذا أو يدفع خطره عن رواق الدولة الموحدية^(١) .

وبالنسبة لجزر البليار فإن عاملها المرابطي محمد بن علي بن غانية[☆] استقل بها^(٢) سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م^(٣) حين زال حكم المرابطين من المغرب والأندلس ، فصيرها ملاذاً للفلول المرابطية الفارة من وجوه الموحدين وغيرهم ، وقاعدة بحرية لجهاد النصاري المحدثين بها من كل صوب^(٤) . وفي عهد عبد المؤمن لم يسع الموحدون في ضم هذه الجزر ، كما لم يصطدموا مطلقاً ببني غانية ، إذ انشغلوا بشأن ابن مردنيش الذي شكلت - أيضاً - مملكته في شرقي الأندلس حاجزاً مفروضاً بين الجانبين^(٥) .

ولقد استغل النصاري هذه الفتنة في احتلال ما تيسر لهم من

(١) انظر التفاصيل في : ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، تحقيق عبد الهادي التازي ، ط . الثالثة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ص ٥٦ - ٦٨ ، ٩١ - ٩٢ ، ١٢٣ - ١٣٥ ؛ البيهقي : أخبار المهدي ، ص ٨٠ - ٨١ ؛ ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٦٣ - ٦٥ ، ٧٣ - ٧٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ ، ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

☆ محمد بن علي بن غانية المسوفي نسبة إلى مَسُوفَة إحدى القبائل المرابطية الكبرى ، وكان والده علي قد تزوج امرأة من أهل بيت يوسف بن تاشفيق اسمها غانية ، فأنجبت له يحيى ومحمداً ، فنسب إليهما - كعادة المرابطين - فعرفا بابني غانية (المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣) .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ١١٢ ، ج ٦ ، ص ٢٥٣ ، ٣٢٦ .

(٣) عصام سيسالم : جزر الأندلس ، ص ٣١٦ ، ٣١٨ .

(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ ؛ مراجع عقيلة الغناى : سقوط دولة الموحدين ، منشورات جامعة قاربنوس ، بنغازي ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ؛ سيسالم : جزر الأندلس ، ص ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣٢٠ .

(٥) سيسالم : جزر الأندلس ، ص ٣١٧ حاشية ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ .

أطراف الأندلس^(١) ، فانقضوا على بقية الثغر الأعلى ، وبسطوا سيطرتهم على بعض مدن الساحل في الشمال الشرقي من الأندلس^(٢) ، كما هاجم البرتغاليون منطقة الشمال الغربي من البلاد ، واستولوا على مدن إسلامية هناك^(٣) ، وقد شاركهم في الاستيلاء على بعضها إخوانهم الصليبيون المتجهون إلى المشرق^(٤) وبلغ استخفاف النصارى بأهل الأندلس أن كونوا حلفاء صليبياً من ممالك إسبانيا وغيرها واحتلوا مدينة المرية^(٥) - الكائنة على الساحل الأندلسي الجنوبي - عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م^(٦) .

اقتصرت نشاط الموحدين ضد النصارى - أولاً - على استرداد المرية

- (١) المراكشي : المعجب ، ص ٢٧٧ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٦ .
- (٢) ابن غالب : فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس (قطعة منه) تحقيق لطفي عبد البديع ، مطبعة مصر ، ١٩٥٦ ، ص ١٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٦ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٦٤ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٤٠ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .
- (٣) ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٢ ؛ ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الأبياري وزميله ، ط . القاهرة ، ١٩٩٣م ، ص ٢٤ ؛ ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٤٠ ، ٥٣ .
- (٤) محمود سعيد عمران : دور الحركة الصليبية في تكوين مملكة البرتغال ، ندوة الأندلس في كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ص ٨ - ١٤ ؛ الطيبي : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٣٨ ، ٢٤٠ ؛ سحر السيد عبد العزيز سالم : تاريخ بطليوس الإسلامية ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ج ٢ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .
- ☆ والمرية Almeria بناها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٤هـ / ٩٥٥م (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٣) وتمثل في إسبانيا الحديثة عاصمة للولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم (محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، ط . الثانية ، مؤسسة الحناخي ، القاهرة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، ص ٢٦٥) .
- (٥) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ط . دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٩٤ حاشية (١) .
- (٦) الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩٨ ؛ ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ١٥ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٥٢ ؛ المعجم ، ص ٢٢٨ .

عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م^(١) ، ونشوب مناوشات محدودة في التخوم بين الطرفين^(٢) ثم أظهر عبد المؤمن عناية بجهاد نصارى إسبانيا عقب توحيده المغرب كله باستكمالهم ضم إفريقية عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م^(٣) فجاز في آخر هذا العام إلى مدينة الفتح بجبل طارق التي أمر ببنائها لتكون قاعدة للجهاد في الأندلس^(٤) وبعد حوالي سنتين حشد جموعاً جرارة ، وإمكانات مضاعفة لرسم خطة لمهاجمة كافة الممالك الإسبانية ، ولكن المنية عاجلته قبل العبور إليها ، فتوفي في جمادي الآخرة سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م^(٥) بعد أن خلف مملكة واسعة الأرجاء شملت الشمال الإفريقي من المحيط الأطلسي حتى طرابلس الغرب ؛ فضلاً عن منطقة السوس جنوب المغرب الأقصى وما تم ضمه من الأندلس^(٦) .

وعندما تقلد يوسف بن عبد المؤمن زمام دولة الموحدين غُيبَ وفاة أبيه^(٧) استغرقت الأندلس من تفكيره ووقته وبجهوداته حيزاً كبيراً ، فجاز إليها إبان عهده مرتين^(٨) ، وقد استطالت مدة إقامته بها في المرة الأولى زهاء

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٢٤ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٥٦ ؛ بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ٧٤ ، ٨١ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١١١ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٥٣ - ٥٤ ، ٦١ - ٧٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٠٠ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٧٠ ، ٩٢ ؛ ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٤١ - ٢٤٥ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٦٢ ، ٦٤ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٨٤ ، ٩٢ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٢١ .

(٥) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٤٧ - ١٥٥ ، ١٦٣ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٣٠٦ ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٠٢ .

(٦) المراكشي : المعجب ، ص ٣٠٠ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٥٦ .

(٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩١ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٨٣ .

(٨) ابن أبي دينار : المونس في أخبار إفريقية وتونس ، ط . الثالثة ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٩٣ م ، ص ١٤١ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٥٧ .

خمس سنوات ^(١) ، وركز سياسته في الأندلس على ناحيتين أولاهما : الاستمرار في المواجهة مع ابن مردنيش ، والعمل على انتزاع منطقة شرقي الأندلس من قبضته ، والناحية الأخرى الجهاد ضد الممالك النصرانية .

ففيما يتصل بابن مردنيش فقد سُيرت إليه قوات موحديه من المغرب سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م ثم عززت بأخرى في السنة نفسها ، فقام الموحدون بمحاربته في عقر أراضيه إلى أن انتهوا معه إلى الاشتباك في معركة هائلة عند فحص الجلاب* ، فهزموه هزيمة شنيعة^(٢) . وعلى إثرها أخذ سلطانه في شرقي الأندلس بالانهيار^(٣) ، إذ سيطر الموحدون على بعض الحصون التابعة له^(٤) ، وانحاز نفر من خواصه إليهم^(٥) . وفي منتصف عام ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م اجتاح الموحدون بلاده بحملة كبيرة كانت قد جهزت من المغرب فثارت عليه جملة من المدن^(٦) ، وتناقل حلفاؤه النصارى عن نصرته^(٧) ، بل إن مملكة أرغون سعت إلى اقتطاع أجزاء من بلاده الشمالية^(٨) . وفي أواخر ذلك العام عبر الحاكم الموحد يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس بجيوش

(١) ابن أبي دینار : المونس ، ص ١٤١ .

* فحص الجلاب : يقع جنوب مدينة مُرسِيّة على قيد اثني عشر كيلو متراً منها (ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ ، حاشية " ١ ") .

(٢) انظر التفاصيل في : ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٩٦ - ٢٠٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدین ، ص ٨٨ - ٩٠ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ١٨ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، ٢٤٦ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ؛ أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٦) انظر تفاصيل ذلك في : ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٣ - ٣٢١ ؛ ابن عذارى : البيان ق . الموحدین ، ص ١١١ ، ١١٢ - ١١٣ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

(٧) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٥٠ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٥١ - ٥٢ .

كثيفة ، ونزل في إشبيلية ^(١) ، فانتال عليه زعماء شرقي الأندلس يبايعونه ويرحبون به ^(٢) ، وعندئذ ساءت أحوال ابن مردنيش ، فمات سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م بعد مرض ألم به . وعندها وفد أولاده إلى الحاكم الموحدى باخعين بالطاعة ^(٣) وبذلك كملت سيطرة الموحدين على الأندلس الإسلامية باستثناء جزائرها الشرقية (البليار) التي وجد حكامها بنو غانية أنفسهم وجهاً لوجه مع الموحدين بعد سقوط مملكة ابن مردنيش ^(٤) ، فعمدوا إلى مصانعة الحاكم الموحدى يوسف بن عبد المؤمن ^(٥) ، فتوفي يوسف دون أن ينشب بين الجانيين أي صدام مسلح .

وبخصوص نصارى إسبانيا في عهد يوسف بن عبد المؤمن فإنهم ما برحوا يهاجمون الأراضي الأندلسية سواء المصابقة لهم أو النائية عنهم متى ما سنحت لهم الظروف أو واتتهم الفرص ، وقد أتت أنشط تلك الهجمات وأشرسها من قبل المملكتين القشتالية والبرتغالية ^(٦) . وكان الحاكم الموحدى يوسف يؤكد للأندلسيين حرصه الشديد على جهاد عدوهم ، ودفع ضرره عنهم ^(٧) ، وقبل جوازه إلى الأندلس في المرة الأولى سخر شعراءه لدعوة

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١١٨ - ١١٩ ؛ محمود مقديش : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تحقيق علي الزواري ، ومحمد محفوظ ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م ، ج ١ ، ص ٤٦٦ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٢٢ ، ٣٧٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٧٩ ، ٣٨١ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٢١ - ١٢٢ ؛ محمود مقديش : نزهة الأنظار ، ج ١ ، ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٤) سيسالم : جزر الأندلس ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ ؛ جمعة شيخة : ثورة الميورقين وأثرها في توازن القوى بين الإسلام والنصرانية في المغرب والأندلس ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تونس ، عدد ١١٧ - ١١٨ ، عام ١٩٨١ ، ص ٩٥ .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٦) مراجع الغنای : سقوط دولة الموحدين ، ص ١٠٨ .

(٧) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٢٧٣ ، ٢٩٤ ؛ بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ١٤٠ ، ١٥٢ .

العرب ومن إليهم في الشمال الإفريقي إلى الجهاد^(١) ، كما كان لا يكف عن التحريض على الجهاد في مجالسه الخاصة كلما لاحت لذلك مناسبة^(٢) .

ولقد أشير عليه بغزو مملكة قشتالة^(٣) حينما عبر بجيش كبير إلى الأندلس عام ٥٦٦هـ / ١١٧١م^(٤) لا سيما وأن حملة عسكرية في العام السابق قد انطلقت من هذه المملكة باتجاه الجنوب مخترقة الأراضي الأندلسية ، فلم يردّها إلا البحر ، فعانت وقتلت وسبت ونهبت^(٥) . وعندئذ تحرك بجيشه أواخر عام ٥٦٧هـ / ١١٧٢ لمحاربة القشتاليين ، وقصد مدينة وبّنة* وحاصرها ، ولكنه أخفق في الاستيلاء عليها^(٦) .

وبعد فشله في غزوته تلك اكتفى يوسف بتوجيه كتائب صغيرة إلى البلاد النصرانية فاستطاعت في مواقع عديدة الانتصار على النصارى وإدخال الهلع في قلوبهم إلى درجة أن بعض حكامهم تهافتوا إلى عقد الهدنة مع الموحدين^(٧) ، ولكن ما أن قفل الحاكم الموحدى بقواته إلى المغرب عام ٥٧١هـ / ١١٧٦م حتى تنكر هؤلاء لعهودهم ، وخرقوا الهدنة واحداً بعد الآخر^(٨) ، وهبوا يعيشون في الأندلس فساداً ، فاشتبكت معهم القوات الموحدية

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٢٥ - ٣٢٩ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١١٤ - ١١٦ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإقامة ، ص ٣٤٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١١٨ .

(٥) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١١٠ .

* وبّنة Huete من أعمال كورة شنت بربّة (ياقوت : معجم البلدان ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ج ٥ ، ص ٣٥٩) وهي الآن مركز إداري في مقاطعة كُونكة إلى الغرب من مدينة كُونكة نفسها (ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ١٦٩ ، حاشية ١) .

(٦) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٩٨ - ٤١٤ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٧) مراجع الغنى : سقوط دولة الموحدين ، ص ١٢٥ ، ١٤٥ .

(٨) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٩٥ - ٩٦ .

في معارك برية وبحرية ^(١) . وحيث أن نصارى البرتغال قد شكلوا الخطر الأفدح على المسلمين بكثرة غاراتهم واتساع نطاقها ^(٢) حتى ضربوا ساحل المغرب ^(٣) فقد قصدهم يوسف بن عبد المؤمن أوائل عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م عند عبوره الثاني إلى الأندلس بجيشه ، فيمم وجهه شطر مدينة شَنْتَرِين ^(٤) * فحاصرها حصاراً شديداً ، ثم ما نَشِبَ أن أمر جيشه بالانسحاب ، فوقع اضطراب مخيف في صفوف المنسحبين فخلص النصارى إلى حاكم الموحدين يوسف ، وأصابوه بِمَقْتَلٍ ، ففُضِيَ نَجبه بعد أيام ^(٥) .

ولقد شهدت الأندلس مراسيم البيعة للحاكم الموحدي الجديد يعقوب ابن يوسف الذي تلقب فيما بعد بالمنصور ، إذ كان مرافقاً لأبيه في حملة شَنْتَرِين ^(٦) ، وكان قد عُيِّن من قبل ولياً للعهد ^(٧) ، ففور وفاة والده في الطريق بين شَنْتَرِين وإشبيلية نهض المصاحبون للحملة من أفراد أسرته وكبار الموحدين وقدموا بيعتهم له بالملك ، ثم تسارع خاصتهم وعامتهم إلى مبايعته عند حلوله إشبيلية ، ثم سار بعد ذلك عائداً إلى المغرب ^(٨) .

(١) انظر تفاصيل ذلك في : ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٣٧ - ١٣٨ ؛ ١٤٠ ، ١٤٣ ،

١٤٤ - ١٥٠ ، ١٥٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٢) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٣٠١ ؛ سحر سالم : تاريخ بطليوس ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق الموحدين ، ص ١٤٣ .

* شَنْتَرِين Santaren تربض على ضفة نهر التاجنة الشمالية (الادريسي : صفة المغرب ، ص ١٨٦ ، ١٨٩) وهي حالياً ضمن دولة البرتغال ، إلى الشمال الشرقي من لشبونة على قيد واحد وأربعين ميلاً منها . (بروفنسال : شَنْتَرِين ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج ١٣ ، ص ٣٨٣) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٥ ؛ ابن زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢١٣ - ٢١٤ ؛ محمود مقديش : نزهة الأنظار ، ج ١ ، ص ٤٦٧ .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دار صادر ، بيروت

١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، ج ٧ ، ص ٤ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٦٣ .

(٧) المراكشي : المعجب ، ص ٣٣٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٤ ، ص ٣٥٥ .

(٨) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٧١ .

وفي مطلع عهده دخل المنصور في صراع دام مع بني غانية أصحاب جزر الأندلس الشرقية الذين كانوا قد اهتبلوا ظروف وفاة الحاكم الموحدى يوسف بن عبد المؤمن وانتقال السلطة إلى ابنه يعقوب فأبحروا بقواتهم إلى ساحل العدو^(١) ، وفجروا ثورتهم العارمة ضد الموحدين في المغرب الأوسط وإفريقية، فلم يستطع المنصور كبح جماحها إلا في منتصف سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(٢) . وحينها عزم على ضم الجزائر الشرقية بالقوة ، فتابع إرسال الأساطيل إليها حتى سقطت بأيدي رجاله في السنة نفسها^(٣) ، فلم يبق منها إلا جزيرة ميورقة* التي قاومت المهاجمين ببسالة، واحتفظ بنو غانية بسيادتهم عليها^(٤) .

ولقد شغلت الأندلس وقضية المسلمين فيها مع أعدائهم النصارى - المنصور طوال عهده ، فصرح بأنه ليس في نفسه " أعظم من همها " ^(٥) ولهذا واظب على جهاد الممالك الإسبانية^(٦) ، وسُدد في النكاية

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٥ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٧٥ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، ٣٢٦ .

(٢) انظر تلك الأحداث بتفصيل في : ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٧ - ٥٠٨ ، ٥١٩ - ٥٢٢ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٦ - ٣٥٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٧٥ - ١٨١ ، ١٨٥ - ١٩٧ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٧ ، ٣٢٨ ؛ محمود مقديش : نزهة الأنظار ، ج ١ ، ص ٥٠٣ - ٥٠٤ ، ٥٠٧ - ٥٠٨ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٩٧ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٣٢ .
* ميورقة Mullorca موقعها وسط جزر البليار ، وهي الكبرى من حيث المساحة (الزهري : الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، ط . مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٨) إذ تعادل ثلاثة أرباع المساحة الكلية لهذه الجزر (عصام السيد : جزر الأندلس ، ص ١٩) .

(٤) عصام سيسالم : جزر الأندلس ، ص ٣٩٥ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٣٢ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٦٠ .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢١٦ ؛ ابن أبي دينار : المونس ، ص ١٤١ .

بها^(١) ، لحد أن ذلك الجهاد المؤزر صار ألمع عمل علق بشخصيته^(٢) . فلقد عبر إلى الأندلس عام ٥٨٦هـ / ١١٩٠م^(٣) للرد على عدوان ملك البرتغال الذي عاث في المناطق الإسلامية المتاخمة له^(٤) حتى بلغ مدينة شِلْبُ* الكائنة في الركن الجنوبي الغربي من الأندلس، واحتلها عام ٥٨٥هـ / ١١٨٩م بمعاونة الصليبيين العابرين إلى المشرق^(٥) . وقد وفق المنصور في ردع البرتغاليين في عدة وقائع ، واستطاع أن يسترجع شلب ومدناً أخرى غيرها سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م وبعدها عاد إلى المغرب^(٦) ، ثم ما لبث أن قَدِمَ إلى الأندلس للجهاد ككرة ثانية عام ٥٩١هـ / ١١٩٥م^(٧) ولكن وجهته هذه المرة كانت إلى مملكة قشتالة في الوسط^(٨) التي عادت جيوشها تستأنف الإغارة على المسلمين بعد انقضاء الهدنة الموقعة مع المنصور عقب عبوره السابق إلى الأندلس^(٩) . وقد سار المنصور بجموعه والتقى بالقشتاليين قرب حصن الأرك* في معركة

(١) المقرئ : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، ج١ ، ص ٤٤٣ .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٠٣ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٠٧ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٠١ .

☆ شِلْبُ Silves المسافة بينها وبين البحر ثلاثة أميال (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٨٠) وهي الآن مدينة صغيرة في أقصى جنوب البرتغال تشرف على نهر Arade (عنان : الآثار الأندلسية ، ص ٤٠٢) .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٦ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٦) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٠٦ ، ٢١٠ - ٢١٢ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٠٧ - ١٠٨ وانظر وصفاً لبعض ماحدث في تلك الوقائع في : بروفنسال : مجموع رسائل موحدة ، ص ٢٢٣ - ٢٢٧ .

(٧) مجهول : الحلل المشوية ، ص ١٥٩ .

(٨) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٣٠٣ .

(٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ٤ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢١٧ ، المقرئ : نفح الطيب ، ج٤ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

☆ حصن الأرك Alarcos يقع تقريباً في منتصف المسافة بين قرطبة وطليلة

(Montgomery Watt , op . cit , p.92) . وهو بمقربة من قلعة رباح (الحميري : صفة جزيرة

الأندلس ص ١٢) على أحد فروع نهر آنه ، إلى الغرب من مدينة ثيوداد ريال (عنان : عصر المرابطين

والموحدين ، ق ٢ ، ص ٢٠٠) .

حامية الوطيس انجلت عن نصر كبير للمسلمين في شعبان سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م^(١) وقد استثمر المنصور هذا النصر في القيام بغزوتين ، اخترق في الأولى المناطق الواقعة بين مملكتي قشتالة والبرتغال^(٢) ، ثم اتجه نحو أحواز طليطلة ، وكان ذلك في عام ٥٩٢هـ / ١١٩٦م^(٣) . والغزوة الأخرى كانت في العام الذي تلاه وقد تمادى المنصور في أراضي قشتالة حتى تجاوز طليطلة شمالاً . وعلى أثر ذلك قبل ما التمسته الممالك النصرانية من التهادن معه^(٤) ، وقد ذكر أنه هادن قشتالة لمدة عشر سنين ثم غادر الأندلس بعد جهاد دام مايدنو من أربع سنوات^(٥) .

هذه الضربات المتوالية التي تكبدها النصارى ، وما أعقبها من إبرام هدنة طويلة الأمد نوعاً ما بينهم وبين المسلمين ضمنت للأندلس قدراً كبيراً من الاستقرار الأمني في النصف الأول من عهد الحاكم الموحد الجديد محمد الناصر الذي تسلم زمام الملك لما توفى أبوه المنصور في ربيع الأول عام ٥٩٥هـ / ١١٩٩م^(٦) ، فكان ذلك فرصة له لاجتثاث حركة بني غانية من جذورها في جزيرة ميورقة مركز حركتهم ، حيث دفع نحوها في الأيام الأخيرة من عام ٥٩٩هـ / ١٣٠٢م أساطيل حاشدة بالرجال والسلاح^(٧) ، فاستولى

(١) الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤٥ - ٤٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١١٣ - ١١٥ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢١٨ - ٢٢٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٢٠ - ٢٢٨ .

(٢) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٣٠٥ .

(٣) انظر تفاصيل هذه الغزوة في : ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١١٥ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٣٠ ؛ بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ٢٣١ - ٢٤١ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٢٥ - ٢٢٧ ، ٢٢٨ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٣٠ .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٣٦٠ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٦٠ .

(٧) المراكشي : المعجب ، ص ٣٩٤ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٩ .

عليها في أوائل عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م^(١) بعد عملية تطهير قامت بها تلك الأساطيل لإزالة نفوذ بني غانية الذي كان قد امتد إلى بعض جزر البليار الأخرى^(٢). وبهذا يكون الناصر قد استكمل بسط السيادة الموحدية على جزائر الأندلس الشرقية.

ولقد كان الناصر كغيره ممن سبقه من أسلافه حكام الموحدين يولي الأندلس اهتماماً متميزاً، وبالأخص فيما يرتبط بشؤونها العسكرية، فكان - مثلاً - يخاطب ولايتها لتفقد الآلات الحربية، وشراء ما يُفتقر إليه منها^(٣)، ثم إنه عَلمَ بتجدد عدوان النصارى على حِمَى المسلمين فيها^(٤)، فاستنفر الناس للجهاد، فتوافد إليه المجاهدون من كل مكان، وأرسل عمال الأقاليم ما توافر لديهم من عساكر^(٥). فلما جَاوَزَ بهم البحر إلى الأندلس في أواخر عام ٦٠٧ هـ / ١٢١١ م والتحقت به جموع الأندلسيين^(٦) قصد بعض الحصون النصرانية المستظلة بسلطان قشتالة، فوفق في الاستيلاء عليها خلال عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م^(٧). وفي شهر صفر من سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م كانت المواجهة بينه وبين مملكة قشتالة^(٨) التي كانت قد نجحت في حشد النصارى من داخل إسبانيا وخارجها لقتال المسلمين^(٩)، فدارت بين

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٣٢.

(٢) ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ٢٤٠، ٢٤١؛ انظر عرضاً لبعض ما حدث في:

بروفنسال: مجموع رسائل موحدية، ص ٢٤٣ - ٢٤٧.

(٣) ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ٢٤٢.

(٤) ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ٢٥٨؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٣٣-٢٣٤؛ ابن خلدون: العبر، ص ٣٣٥.

(٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٣٤.

(٦) ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ٢٦٠؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٣٤.

(٧) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٣٥؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٧٠.

(٩) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ق ٢، ص ٢٩٤؛ عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ط.

الثانية، دار القلم، دمشق، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٤، ص ٤٩١. Montgomery Watt, op. cit, p.92.

الطرفين معركة مهولة قرب حصن العقاب[☆]، انتهت بهزيمة شنيعة للمسلمين، ومقتل جم غفير منهم^(١).

ولقد قضت العقاب على المستقبل السياسي للموحدين، فلم يستطيعوا قط النهوض من نكبتها^(٢)، ذلك أن عوامل الضعف والانحلال الكامنة في دولتهم أخذت بعد تلك الهزيمة تطفو فاقعة على السطح، وراحت تفعل فعلها المفضي بهم إلى السقوط^(٣). ومن ذلك التنافس السافر على الملك بين أسرة بني عبد المؤمن بعد مرور عقد من الزمان على وفاة الناصر عام ٦١٠هـ/ ١٢١٣م^(٤)، حيث غدت الأندلس ساحة عبّر فيها عملياً بعض المنشقين من الأسرة عن طموحهم بالمشاركة في حكم البلاد^(٥)، بل صارت - أيضاً - محضناً لحركات أفراد من بني عبد المؤمن رأوا أنفسهم الأحق بحكم دولة الموحدين، فكانت انطلاقتهم منها إلى العاصمة مراکش، وقفزهم للسلطة بعد إسقاطهم لمن يحكم فيها من أقاربهم. وقد تخلل ذلك - بالطبع - مصادمات مسلحة بين هؤلاء المتنافسين^(٦)، وضروب مكشوفة

☆ حصن العقاب : يقع بين جيان وقلعة رباح (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٣٧) وهو فوق قمة إحدى سلاسل جبال الشارات ، واسمه بالإسبانية " كسترو فرال " . وفي التواريخ النصرانية تعرف هذه المعركة بمعركة " نافاس دي تولوسا " أي عقاب تولوسا (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢) وهذا المكان اليوم يعرف بالإسم نفسه في مديرية جيان الحالية على خمسة كيلو مترات شمال شرقي لاكادولينا (ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ ، حاشية " ١ ") .

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٦٣ - ٢٦٥ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٣٨ - ٢٤٠ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٣٣٩ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٢) أشباح : تاريخ الأندلس ، ص ٣٩٩ .

(٣) عز الدين موسى : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ط . الأولى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ٧٨ ؛ السامرائي وزميله : تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٢٦ .

(٤) ابن الخطيب : شرح رقم الحلل ، ص ٢٠٣ .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٤٦ ، ٢٥٣ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٦) ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٣٨٤ .

من الاستعانة بالنصارى على بعضهم بعضاً^(١) .

ومن ناحية أخرى فإن تلك الانقسامات التي اشتعلت بين الموحدين على أرض الأندلس ، وما صحب ذلك من انصرافٍ عن شؤونها الدفاعية - قد شجعت عدداً من الشخصيات الأندلسية على الثورة ضد الدولة الموحدية^(٢) فكان في طليعة هؤلاء محمد بن يوسف بن هود* الذي ثار في شرقي الأندلس عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م^(٣) وهزم جيشين للموحدين هناك^(٤) ، وفي غضون سنتين تقريباً تمت له السيادة على أغلب بلاد المسلمين في الأندلس^(٥) . ولكنه من جانب آخر لم يوفق في مواجهاته العسكرية مع النصارى^(٦) ، كما أن سلطانه في الأندلس ما عتَم أن اهتز بظهور منافس قوي له هو محمد بن يوسف بن الأحمر** الذي سيطر على بعض المدن في وسط الأندلس ثم في

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٤٦ ، ٢٥٠ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٤٤٦ .

* ابن هود : هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي ، من ذرية بني هود الذين حكموا سرقسطة في عصر الطوائف ، وكان أول ظهوره في الصخيرات من ظاهر مدينة مرسية ، وقد تلقب بأمر المسلمين سيف الدولة ، والمتوكل على الله (ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، ط . الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م ، ج ٢ ، ص ٢٥١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ١٢٨-١٢٩ ؛ أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٦ ، ٢٧٧-٢٧٨) .

(٣) ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٧٧ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٢١٦ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٨٨ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٣٠-١٣١ .

(٦) ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥١-٢٥٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٢١٦-٢١٧ .

** ابن الأحمر : هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن حميس بن نصر الخزرجي ، يُقال أن نسبه يعود إلى سعد بن عبادة - رضي الله عنه - وقد ظهر أولاً في أرجونة مسقط رأسه ، وكان يُلقب بالشيخ والغالب بالله (ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ٩٢-٩٤ ، شرح رقم الحلل ، ص ٣٠٣ ، ٣١٩ ؛ ابن جُزى الكلبي : كتاب الخليل ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٢٢ ، ٢٣) وقد عرف بابن الأحمر ، والأحمر لقباً لوالده (ابن عذارى : البيان المغرب ، ق . الموحدين ، ص ٢٩٦) .

جنوبها^(١)، وجنح إلى مخالفة النصارى^(٢) ومع أن ابن الأحمر اعترف بطاعة ابن هود سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م^(٣) إلا أن التنافس بينهما على ملك البلاد ظل سارياً حتى وفاة ابن هود عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م^(٤). وحيث أن النصارى وبخاصة نصارى أرغون وقشتالة كانوا قد استغلوا انشقاق المسلمين وتنافسهم فاستولوا على قواعد أندلسية مهمة^(٥)، ومعظم جزر الأندلس الشرقية^(٦)، وبدا أنهم عازمون على محو الإسلام من الأندلس نهائياً - فقد اعتصم ابن الأحمر في غرناطة التي كان أهلها قد استدعوه لحكمها بعد حوالي ثلاثة أشهر من وفاة منافسه ابن هود^(٧)، فاتخذها وما جاورها ولحق بها من مناطق جنوبي الأندلس وشرقيها مملكة له^(٨)، وأظهر الطاعة الإسمية للموحدين في

(١) ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ٢٩٦؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، ص ٩٤؛ ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٢١٨.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٢١٩؛ المقرئ: نفح الطيب، ج ١، ص ٤٤٨.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٢١٧، ٢١٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٥١.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٢١٤.

كانت الممالك النصرانية في القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي - خمساً، هي: قشتالة وليون وأرغون ونافار والبرتغال، وفي وقت ضعف الموحدين ويزوغ شمس ابن الأحمر كانت بعض من تلك الممالك قد اتحدت مع بعض فأصبحت عندئذ ثلاثاً فقط هي: قشتالة وأرغون والبرتغال (محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط ٣، الثالثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص ٨٥ - ٨٨). وبجيوش مملكة قشتالة ومملكة أرغون سقطت البلاد الإسلامية المشار إليها في المتن (الحجوي: التاريخ الأندلسي، ص ٤٦٩، ٤٧١، ٥٢٥).

(٥) ابن الأبار: التكملة، ج ١، ص ١٢٠، ١٤٤، ج ٢، ص ٤٧٩؛ الحلة، ج ٢، ص ٣٠٣؛ المقرئ: نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٧٢.

(٦) ابن الأبار: التكملة، ج ١، ص ١٥٦؛ ابن سعيد: المغرب، ج ٢، ص ٤٦٧، ٤٧٠؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٧٦. وانظر: عصام سيسالم: جزر الأندلس، ص ٤٤٣ - ٤٤٥.

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، ص ٩٨، ١٣٢؛ لللمحة البدرية في الدولة النصرية، ط ٣، الثالثة، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠، ص ٤٧.

(٨) الحجوي: التاريخ الأندلسي، ص ٥١٧؛ يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ط ١، الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣، ص ٢٠.

عهد حاكمهم الرشيد* عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م ولكن حالما توفي هذا الأخير في عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م نبذ تلك الطاعة ، ولم يعد لاسم الموحيدين عقب ذلك أثر في مملكته ^(١) . ذاك أن دولتهم أخذت بالانتقال من ضعف إلى ضعف إلى أن سقطت عام ٦٦٨هـ / ١٢٦١م ^(٢) بينما صارت مملكة غرناطة الملاذ الأخير للمسلمين في الأندلس ، وظلت قائمة أزيد من قرنين ونصف من الزمان ^(٣) .

ب - الحياة العلمية :

في عموم الأحوال لا يطرأ على نمط الحياة العلمية ، في أي بلد إسلامي تغير جذري بتبدل الحكومات الإسلامية إبان القرون السالفة ؛ ذاك أن المسلمين في بلاد الإسلام في ذلك الزمان يسيرون في غالب شؤون حياتهم وفق ما أثبتَّ بينهم من مبادئ وآداب مستمدة من دينهم الإسلامي الخالد . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن نقل المسار العلمي في بلد ما من حال إلى حال لا يمكن أن يقع بسرعة خلال تلك الحقب ؛ فضلاً عن أنه ليس لدى الدول الإسلامية حينذاك إمكانات كفيلة بإجرات تغيير جوهرية للحياة العلمية في جميع الأراضي التي قد تسيطر عليها ، دع عنك المناطق البعيدة عن مركز الحكم فيها . وعلى هذا فالحركة العلمية بالأندلس في عصر المرابطين إنما هي امتداد للحركة العلمية التي كانت في عصر الطوائف ، وكذلك الحال

✽ الرشيد الموحيدي هو عبد الواحد بن أدريس (المأمون) ابن المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، تولى الحكم في غرة سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م . أما حكام الموحيدين بين الناصر والرشيد فهم على الترتيب : المنتصر يوسف بن الناصر ، ثم عبد الواحد بن المنصور ، ثم العادل بن المنصور ، ثم يحيى بن الناصر ، ثم المأمون أدريس بن المنصور (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٤١ - ٢٥٤ ؛ ابن الخطيب : شرح رقم الحلل ، ص ١٩٢ - ١٩٤ ، ٢٠٣ - ٢٠٥) .

(١) ابن عذاري : البيان ، ق ٣ ، ص ٣٤٧ ، ٣٥٧ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٤٤٦ ، ج ٤ ، ص ٣٨٤ .

(٣) الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٥١٥ ، ٥١٨ .

بالنسبة للحركة الفكرية بالأندلس في عصر الموحدين فهي امتداد لما كانت عليه في عصر المرابطين^(١). بيد أن هذا لم يمنع تميز كل عصر من هذه العصور بازدهار علوم معينة تبعاً لميل الدولة إليها دون أن يعوق ذلك استمرارية سير بقية العلوم^(٢).

فالنهضة العلمية التي عاشتها الأندلس في ظل ملوك الطوائف استمرت في مسيرتها أثناء حكم المرابطين^(٣)، بل تهيأت في عهدهم عوامل مختلفة دفعت عجلة الحركة العلمية في الأندلس إلى الأمام؛ منها الاستقرار السياسي الذي نعمت به هذه البلاد في معظم أيام المرابطين^(٤)، ومنها -أيضاً- ازدياد الصلات الثقافية بين الأندلس والمشرق نتيجة توثيق الدولة المرابطية علاقتها بالخلافة العباسية^(٥) ومنها - كذلك - تشجيع المرابطين - سواء الحكام أو الولاة أو غيرهم - للعلم، واحترامهم لطلبة العلم والعلماء^(٦)، فمثلاً يوسف ابن تاشفين الذي ضم الأندلس إلى دولته ووصف بأنه "يعظم العلماء، ويصرف الأمور إليهم"^(٧)، كما رحب في بلاطه في مراکش بالعلماء الأندلسيين في مختلف التخصصات، فانقطع إليه "من الجزيرة من أهل كل علم فحول، حتى اشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ..."^(٨). إذن فقد أتيح للحياة العلمية في الأندلس أن تزدهر في ظل

(١) عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص ٣٤٩.

(٢) عبد الله كنون: النبوغ المغربي، ج ١، ص ٧٥.

(٣) الحججي: التاريخ الأندلسي، ص ٤٥٠؛ دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص ٣٤٩.

(٤) عبد الرحمن العجلان: الأندلس تحت حكم المرابطين، ص ٢٠٨.

(٥) مصطفى الزباخ: فنون النشر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين، ط ١، الأولى، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٧م، ص ٥٩-٦٠.

(٦) حسن محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٤٢٩؛ عبد السلام شقور: القاضي عياض الأديب، ط ١، الأولى، دار الفكر المغربي، ١٩٨٣م، ص ٤٠.

(٧) ابن الخطيب: الاحاطة، ج ٤، ص ٣٤٩؛ مجهول: الحلل المشوية، ص ٨٢.

(٨) المراكشي: المعجب، ص ٢٢٧.

المرابطين ، فكان من مظاهر ذلك ما نراه في كتب الحوليات والطبقات والتراجم والبرامج من كثرة علماء ذلك العصر ^(١) ، وشمولية مباحثهم وتنوعها ووفرة تصانيفهم وفضلها على ما سواها ^(٢) .

وحيث أن المرابطين كانوا يحملون لواء بعث إسلامي إصلاح ^(٣) فقد كان من الطبيعي أن يحتفوا بالمقام الأول بالعلوم الشرعية ، ومن ثم بعلمائها وطلابها ^(٤) على أن ذلك لم يترتب عليه حجر لعقول الناس على دراسة تلك العلوم ، كما لم ينل من يدرسون علوماً غير شرعية اضطهاداً فكرياً ، إذ ظل العلماء في الأندلس على تنوع اختصاصاتهم يمارسون نشاطهم الفكري لا يعترض سبيلهم معترض ^(٥) ، لا سيما أن بعض أولئك العلماء كانت دراساتهم تتسم بالثقافة الموسوعية التي لا تقتصر على علم من العلوم ^(٦) .

وعلى هذا فإن جميع العلوم والمعارف التي كانت تدرس في الأندلس قبل المرابطين أخذت تشق طريقها في عصرهم ، مثل علوم القرآن الكريم والحديث والفقه ، والدراسات اللغوية والأدبية ، والتاريخ والجغرافيا ، والفلسفة وعلم الكلام ، والطب والرياضيات وغيرها ^(٧) . على أنه كتب لبعض هذه العلوم تميز في هذا العصر ، أو جددت عليها تغيرات ملموسة ، ففي مجال علوم القرآن - مثلاً - استوى علم التفسير على سوقه في الأندلس

(١) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٠ - ٤٣١ ؛ نهلة عبد الكريم الحرتاني : معجم الشعراء والكتاب والمرسلين في عصر المرابطين ، ط . الأولى ، دار البشير ، عمان ، الأردن ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ص ٦٠ ، ٧ .

(٢) المختار التليلي : ابن رشد وكتابه المقدمات ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، ١٩٨٨م ، ص ٦٣ ، ٥٩ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ١٣٧ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٤٠ .

(٤) الزباخ : فنون النثر الأدبي بالأندلس ، ص ٣٥ .

(٥) كنون : النبوغ المغربي ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(٦) الزباخ : فنون النثر الأدبي بالأندلس ، ص ٣٨ .

(٧) عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص ٣٨٧ ، ٤٠٥ ، ٤٢٣ ؛ العجلان : الأندلس تحت

حكم المرابطين ، ص ٢٠٩ - ٢٣١ .

أيام المرابطين^(١) ، وبلغ على أيدي كوكبة من العلماء الأفذاذ مرحلة النضج، وذلك بما وضعوا له من أسس علمية رصينة طبقوها في تواليهم الموسعة ، فصارت تلك التواليف وما ضمتها في أطوائها من قواعد ومناهج المرجعية الأساسية لمن أتى بعدهم من المفسرين^(٢) .

وفي مضمار الفقه تميز الفقه المالكي في الأندلس - إبان عصر الدولة المرابطية التي تبنت هذا المذهب - تميز بدراسات مستوعبة وفي الوقت ذاته ناقدة لما كُتب فيه قبلاً سواء في الأصول أو الشروح أو الاختصارات أو التعليقات ، فغدا الفقه المالكي بذلك " مصفى جلياً موطأ الأكناف " ^(٣) ، وثمة ظاهرة أخرى لافتة للنظر وهي أن الأندلس تفردت خلال العهد المرابطي بإنتاج العديد من كتب الأحكام أو المسائل أو الفتاوى أو النوازل ^(٤) .

وفي مجال الكتابات الأدبية برز في الفترة المرابطية شعور لدى الكتاب الأندلسيين بالتفوق المزوج بالدعوة إلى الإقلاع عن تقليد المشاركة في حقل الأدب ، والاكتفاء بالمفاخرة بالأندلس ، والإشادة بمآثر أهلها ، فباتت على أثر ذلك شخصية الأندلسيين الأدبية المتميزة ^(٥) .

(١) إبراهيم الوافي : التفسير وعلوم القرآن في الغرب الإسلامي من القرن الثاني إلى القرن الثامن الهجري، ندوة الأندلس ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٣ م ، الجلسة (٢) ، بحث (١) ، ص ٣٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٣) ابن رشد : البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة ، تحقيق محمد حجي ، ط . دار المغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ج ١ ، ص ٥ ، ١٠ - ١١ من مقدمة المحقق .

(٤) عياض : مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام ، تحقيق محمد بن شريفة ، ط . الأولى ، دار المغرب ، بيروت ، ١٩٩٠م ، ص ١١ - ١٣ من مقدمة المحقق ؛ مصطفى بنسباع : ابن الحاج التحجيبي القرطبي ومسائل يبويعه في معيار الونشريسي ، ندوة الأندلس ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض، عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، الجلسة (٦) ، بحث (٢) ، ص ٢ - ٣ .

(٥) الزباخ : فنون النثر الأدبي ، ص ٦٣ ، ٤٠٠ .

وفي الميدان الشعري عُرفت الأندلس زمن المرابطين بازدهار أحد أنواع الشعر المسمى بالموشحات ، حيث تعاصر آنذاك عدد وافر من الوشاحين المطبوعين ^(١) . وهناك نوع آخر من النظم منسوج بلغة عامة أهل الأندلس على منوال الموشحات معروف بالزجل ^(٢) بلغ في العصر المرابطي القمة من حيث التركيب اللفظي والإبداع الفني ^(٣) ، وكثرة المتعاطين له من الزجالين ^(٤) حتى وصف هذا العصر بالعصر الذهبي للزجل ^(٥) .

(١) ابن سعيد : المقتطف من أزاهر الطرف، تحقيق سيد حنفي حسنين ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٤م ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٨٢٥ .

(٣) ابن سعيد : المقتطف من أزاهر الطرف ، ص ٢٦٣ ؛ وابن خلدون : المقدمة ، ص ٦٢٥ .

(٤) عبدالعزيز الأهواني: الزجل في الأندلس، ط. معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٧م، ص ٦٤-٦٥ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٦٣ .

✽ ولقد وصم بعض الكتّابين عصر المرابطين في الأندلس بأنه عصر كسدت فيه سوق الشعر ، وتدنت فيه منزلة الشعراء ، واحتجوا بأقوال كتاب وأشعار شعراء من ذلك العصر (إميليو غرسية غومس : الشعر الأندلسي، ترجمة : حسين مؤنس ، ط . الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص ٥٦ ؛ إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، ط . الخامسة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٨م ، ص ٩٠) والحق أن ما قاله القدامى والمحدثون حول الشعر والشعراء في الأندلس زمن المرابطين إنما ينطبق على شعر التكسب والشعراء والمداحين فحسب ولا يتعداهما (عبد الحميد الهرامة : الأعمى التطيلي حياته وأدبه ، ط . الأولى المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، ليبيا ، ١٩٨٣م ، ص ١٦٧ - ١٦٨) ثم ذلك القول - أيضاً - قد لا ينطبق على هذا اللون من الشعر تمام الانطباق إلا في السنوات الأولى من حياة المرابطين في الأندلس (حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٤٥ ، عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص ٤٣١) ولئمة أسباب وراء أزمة شعراء المديح في الأندلس في الفترة المذكورة منها ؛ أن المرابطين كانوا حملة لواء الجهاد في سبيل الله ، فكانوا في أول الأمر في شغل عن الاحتفاء بشعراء من هذا الصنف الذين دأبوا على الأكل بشعرهم (عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص ٤٣١) ومنها أن حكام هذه الدولة بارتباطهم الكبير بالفقهاء وأهل العلم والفضل - وفيهم كثرة تقرر الشعر - انسد الباب بوجوه الشعراء المتملقين في مدحهم ، والذين لا يكتفون في الغالب إلا في بلاطات لا تخلو من تجاوزات شرعية (عبد السلام شقور: القضايا عياض ، ص ٥٥ - ٥٦) . وكيفما كانت الحال فهناك ظاهرة تحول في الناحية الأدبية يمكن رصدها في الأندلس إبان ذلك العصر ، وهي أن بعض الشعراء خرجوا عن صمتهم الذي التزموا به من قبل ، فأقبلوا على المدح الصادق لدولة المرابطين وحكامها (الزباخ : فنون النشر الأدبي ، ص ٥٨) . ولقد أثبتت إحدى الكتابات بدراسة توثيقية بيبليوغرافية معجمية كثرة الشعراء والكتّاب والمرسلين في الأندلس أيام المرابطين (نهلة الحرتاني : معجم الشعراء ، ص ٥٩ - ٦١) .

أما الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين فقد كانت في مرحلتها الأولى استمراراً لما كانت عليه في عصر المرابطين^(١)، فالأندلس لم تخلص كلها للدولة الموحدية بمجرد أن سقطت الدولة المرابطية في المغرب، إذ بقيت منطقة شرقي الأندلس والجزائر الشرقية سنواتٍ خارجةً عن نطاق السيادة الموحدية - كما سلف عرضه - هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن الموحدين لم يطبقوا على الأندلسيين أحكام عقيدة ابن تومرت مثلما طبقوها على أهل المغرب قبل سقوط مراكش^(٢)، بل استوعبوا في الأندلس حتى ولاية الأقاليم الذين لم يعارضوا الأفكار التومرتية - على الأقل في الظاهر^(٣) - وأبقوا النظام الإداري الساري بها قبلهم^(٤)، واستعانوا في البداية برجال الأندلس وعلمائها في مجال الكتابة والإدارة والقضاء سواء في الأندلس أو في غيرها، وكانت زمرة من هؤلاء ممن خدموا المرابطين^(٥).

غير أن الاتجاهات الفكرية للموحدين وسياستهم نحو العلماء والتعليم أخذت آثارها تظهر تدريجياً في سير الحياة العلمية في الأندلس، فالحكام الموحدون - وبخاصة الأوائل منهم - فوق أنهم معدودون من علماء العصر^(٦) فقد دعوا إلى نشر العلم بين الناس في أرجاء دولتهم^(٧)، ورعوا

(١) عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص ٣٤٩، ٣٥٤؛ حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ط . الأولى، العصر الحديث للنشر، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ٢م، ٢، ج ٢، ص ١٩٢.
(٢) عز الدين موسى: الموحدون في المغرب الإسلامي، ص ١٩٦؛ السحبياني: الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت، ص ٥٧٢.

(٣) عز الدين موسى: الموحدون، ص ١٠٤.

(٤) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ق ٢، ص ٦٤١؛ عز الدين موسى: الموحدون، ص ١٥٣.

(٥) عز الدين موسى: الموحدون، ص ١٦٣، ١٩٦.

(٦) ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ٨٠، ٨١، ١٦٤، ٢٣٥؛ المقري: نفح الطيب، ج ٣، ص ١٠٢.

(٧) ابن حبيش: الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأول الثلاثة، تحقيق سهيل زكار، ط . الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ج ١، ص ٧؛ بروفنسال: مجموع رسائل موحدية، ص ١٣٧.

علوماً جديدة لم تكن لها سوق رائجة قبل عهدهم^(١)، وعقدوا المجالس العلمية لمختلف العلوم^(٢)، وشجعوا العلماء على التأليف حيث وجدنا أسماءهم يتردد ذكرها في خطب عدد من الكتب المؤلفة خلال ذلك العصر^(٣).

ونتيجة لذلك ازداد النشاط العلمي قوة وازدهاراً أيام الموحدين، واتسعت دائرة مجالاته^(٤)، وزخرت الأندلس بكثرة كاثرة من العلماء وطلبة العلم، بحيث لم يُر مثله في هذه البلاد لا في فترة سابقة ولا لاحقة^(٥).

ولقد طرق علماء الأندلس في تدريسهم وإنتاجهم العلمي إبان العصر الموحيدي كافة المجالات العلمية المعروفة حينذاك كالعلوم الشرعية واللغة العربية والأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم البحتة والتطبيقية^(٦)، بيد أن ثمة ظواهر متعددة ذات صلة بالجانب العلمي اختص بها هذه العصر، منها احتفاظ العلوم الشرعية والأدب بمستواهما الرفيع في وقت الاضمحلال السياسي للموحدين في الأندلس، بل بلغ الأدب في تلك الفترة - على الخصوص -

(١) ابن رشد: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ط. الثانية، دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٣٥، ص ٣٦.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٢١٧، ٤٠٦؛ المراكشي: المعجب، ص ٤٢٦؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج ٣، ص ١٢٨؛ ابن فرحون: الدياج المذهب، ج ١، ص ٢٣٣.

(٣) انظر مثلاً ابن حيش: الغزوات الضامنة، ص ٥، ٦؛ السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، ط. الأولى، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ج ١، ص ٣١، ٣٤؛ الخزرجي: نفَسُ الصُّباح في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه، تحقيق محمد عز الدين المعيار الإدريسي، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ج ١، ص ١٦٣-١٦٤؛ الشريشي: شرح مقامات الحريري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ج ١، ص ١٠.

(٤) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ق ٢، ص ٦٤٧ - ٦٤٨؛ محمد المنوني: حضارة الموحدين، ط. الأولى، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٩م، ص ١٤.

(٥) حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٠٦.

(٦) العربي: الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، ط. الأولى، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٤١٦هـ، ص ٢٠٩.

مستوى عظيمًا فاق به ما قبلها من فترات . إذ الشعر والنثر عكسا بقوة وبيان ما استجاش في نفوس الأندلسيين آنذاك من أحاسيس حين تهاوت المدن الأندلسية بأيدي النصارى ، وما صاحب ذلك من محن وتفرق وفتن^(١).

ومنها تحريض بعض الحكام الموحدين على أطراح كتب الفروع المؤلفة في الفقه المالكي إلى درجة أن الحاكم الموحي الثالث المنصور أمر بإحراقها^(٢) وفي المقابل دعوتهم إلى الأخذ مباشرة من الكتاب والسنة^(٣) . وقد أثر ذلك على الحياة العلمية في الأندلس فازدهر علم الحديث فيها غاية الازدهار^(٤) ، وظهرت مؤلفات فقهية عمادها الأحاديث النبوية المستقاة من مختلف مصنفات أئمة الحديث^(٥) .

ومنها أن الطب في الأندلس بلغ أوجه زمن الموحدين^(٦) ، فبرز في عصرهم أطباء انفكوا من التقليد ، فأبدعوا في دراساتهم ، واعتمدوا في

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٦٤٩ .

(٢) ابن جزى : القوانين الفقهية ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٢٧٦ .

(٣) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٤ - ٣٥٦ .

(٤) عبد الهادي أحمد الحسيسن : مظاهر النهضة الحديثة في عهد يعقوب المنصور الموحي ، ط . مطابع

الشويخ ، تطوان ، ١٩٨٢م ، ج ١ ، ص ٧٣ ، ٢٦٦ ، ٣٠٠ ؛ المتونى : حضارة الموحدين ، ص ٣٥ ؛ فوزي

عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ط . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩١م ، ص ٥٦ .

(٥) انظر مثلاً عبد الحق الإشبيلي : الأحكام الشرعية الصغرى ، تحقيق أم محمد بنت أحمد الهليس ، ط .

الأولى ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، ج ١ ، ص ٧١ ؛ الصلاة والتهجد :

تحقيق عادل أبو المعاطي ، ط . الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ،

ص ٣٢ - ٣٣ .

(٦) آخيل جنتال بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ط . الأولى ، مكتبة النهضة

المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ص ٤٦٩ ؛ محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ،

ط . الأولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ٣٢٩ ؛ إبراهيم زعرور وعلي أحمد : معجم

أطباء المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى ، ط . مطابع الجمهورية ، دمشق ، ١٩٩٤م ، ص ١٣ ؛

عبد الهادي الحسيسن : الحركة العلمية في العصر الموحي ، مجلة دار الحديث الحسنية ، عدد (٥) ،

١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ، ص ٤٣٠ .

تشخيص الأمراض ومداواتها على الفحوصات السريرية ^(١) ، وقد ازدان ذلك العصر بطائفة من الأطباء الأندلسيين الذين تجاوزت شهرتهم آفاق العالم الإسلامي إلى العالم النصراني ^(٢) ؛ حيث ترجمت آثارهم الطبية إلى اللغات العبرية واللاتينية ^(٣) ، وبقيت تلك الآثار تدرس في جامعات أوروبا الغربية عدة قرون ^(٤) .

ومن الظواهر المرتبطة بالحركة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين دون غيره من العصور أن مؤلفات ابن تومرت كانت ضمن المؤلفات التي يدرسها طلبة العلم الأندلسيون ^(٥) ، وقد حرص الحاكم الموحد الأول عبد المؤمن بن علي على جلب طائفة من الصبيان من الأندلس إلى مراکش لأخذ علم ابن تومرت وحفظه ^(٦) ، وقد وُجدَ من رجال العلم الأندلسيين من عبّر - صراحة - عن مظاهرته للموحدين في دعوتهم ^(٧) ، بل أن بعض علماء الأندلس - بقطع النظر عن اقتناعهم أو عدمه - ساروا في مطالع خطب تواليفهم على نسق الرسائل الموحدية الرسمية التي تؤكد في افتتاحياتها

(١) ابن زهر : التيسير في مداواة والتدبير ، تحقيق ميشل الخوري ، ط . الأولى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص : ط من مقدمة المحقق .

(٢) محمد العربي الخطابي : الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨ م ، ج ١ ، ص ٢٣ ، ٢٨٤ .

(٣) ابن رشد : رسائل ابن رشد الطبية ، تحقيق جورج قنوت وسعيد زايد ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧ م ، ص ٢٠ من مقدمة المحقق ؛ محمد العربي الخطابي : الطب والأطباء في الأندلس ، ص ٢٨٤ ، ٣٢٩ .

(٤) ابن زهر : التيسير ، ص : ح ، ل من مقدمة المحقق .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٣٦٩ .

(٦) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٧) ابن حبيش : الغزوات الضامنة ، ج ١ ، ص ١٠ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٠١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٣٢ ، ٣٠٤ .

على ما ادعاه ابن تومرت من العصمة والمهدية ^(١) ، فنصوا فيها - بعد الحمدله والتصلية - على الترضي - كما زعموا - عن "الإمام المعصوم ، والمهدي المعلوم" ^(٢) . وإذا تركنا ما ضمنه هؤلاء في خطبهم جانباً فإننا نرى مجموعة من البدع التومرتية المتعلقة بأحكام العبادات تسربت - عن طريق التعليم وغيره - إلى الأندلسيين ، فظلوا يعملون ببعضها حتى بعد انقراض دولة الموحدين بزمان بعيد ^(٣) .

(١) انظر مثلاً ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٢٠٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ .
 (٢) انظر ابن حبيش : الغزوات الضامنة ، ص ٤ ؛ الشريشي : شرح مقامات الحريري ، ج ١ ، ص ٣ .
 (٣) الشاطبي : الاعتصام ، ج ١ ، ص ٣٢٧ ، ج ٢ ، ص ٥٥٦ .

الفصل الأول

العلماء المشاركون في الصراع

مع النصارى ومنزلتهم العلمية والاجتماعية

إن جهود علماء الأندلس في ميدان الصراع ضد النصارى إذا نُظر إليها نظرة شمولية - أكبر من أن تحصر ، وأطول من أن تستوعب ، فشطر منها صريح في كونه موجهاً نحو ذلك الميدان ، كالدعوة إلى الوحدة لمجابهة الأعداء النصارى ، والتحريض على قتالهم ، وجهادهم بالأنفس والأموال ، والانبراء لحملاتهم الفكرية المناهضة للإسلام ، والتصدي لما تسلل إلى المجتمع الإسلامي من عاداتهم وتقاليدهم إلى غير ذلك . وشطر آخر من تلك الجهود لم يوجه أصلاً صوب ذلك الميدان ، بيد أن لها من الآثار القريبة والبعيدة المنعكسة عليه ما لا يمكن أن يُنكر ، فكل من يقاوم الجهل المتفشى بين أفراد الأمة ، أو ييث العلم والمعرفة في مختلف فئاتها ، أو يسعى لرفع الوعي بين خاصتها وعامتها ، أو يجتهد في تحصينها من اخترام الصف ، أو يدفعها للأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية . كل هذه الجهود وما شاكلها - وإن لم يُصرح بأنها موجّهة ضد النصارى - فإنها في الحقيقة دعم لكيان المسلمين في الأندلس المستهدفين من جانب أولئك النصارى المجاورين ، فهي بهذا المفهوم تصب في النهاية في ميدان الصراع مع النصارى .

وهذه الدراسة - بحول الله تعالى - ستركز فقط على الجانب الظاهر من مواجهة علماء الأندلس للنصارى في عصري المرابطين والموحدين ، حيث أن جمهرة كبيرة منهم شاركت في تلك المواجهة بنشاطات ملموسة ، وإسهامات مجدية ، وجهود مؤثرة سواء كان ذلك في المجال السياسي أو العسكري أو الفكري ، وقد تنوعت مشارب أولئك العلماء واتجاهاتهم ، فكان فيهم المقرئون والمفسرون ، والفقهاء والمحدثون ، وعلماء اللغة والأدباء والشعراء ، والخطباء وأئمة المساجد ، والعباد والزهاد . وقد كانوا من بقاع متفرقة من البلاد الأندلسية .

أولاً : مشاهير العلماء المشاركين في ميدان الصراع مع النصارى في عصري المرابطين والموحدين :

إن طائفة من العلماء المسهمين في ميدان الصراع ضد النصارى إبان عصري المرابطين والموحدين يعدون من أعلام العصر المرموقين ، ومن رجال الفكر المشهورين كأبي علي الصديقي ، وابن رشد الجدي ، وأبي محمد بن عطية وأبي بكر بن العربي ، وابن رشد الحفيد ، وأبي الربيع الكلّاعي ، وابن الأبار ، ولذا فكتب التراجم الأندلسية احتفت بهم ، فوصفت حياتهم ، ودونت أخبارهم ، ورصدت تحركاتهم . وحيث أن هؤلاء سيرد ذكرهم في كثير من زوايا الدراسة ، فمن المناسب التعرف على أبرز معالم حياتهم ، وأهم ملامح شخصياتهم .



فأبو علي الصديقي الذي كان من المجاهدين في سبيل الله ضد النصارى^(١) هو حسين بن محمد بن فيرة بن حيون بن سُكْرَة*

(١) عياض: ترتيب المدارك، ج٨ ، ص ١٩٤؛ ابن الأبار: التكملة ، ج١ ، ص ٤٣٣ ، المعجم، ص ٣٧ .
 قال ابن فرحون أن اسم " فيرة " معناه الحديد بلغة العجم ، وحيون اسم مصغر من يحيى (الديباج المذهب ، ج١ ، ص ٣٣٢) والظاهر أن ابن فرحون جانب الصواب فيما قال عن حيون . فالأقرب أن أصل الاسم حيى ، وأضيفت إليه واو ونون ، فصار حيون ، حيث أن الأندلسيين تعودوا على زيادة الواو والنون إلى الاسم بقصد التفخيم (ابن الخطيب : الاحاطة ، ج٤ ، ص ٣٨) وذلك بأثر من لغة أهل البلاد ، إذ أن المقطع الأسباني un أو on دال عندهم على الفخامة والتعظيم ، وقد أدخل على أسماء أندلسية كثيرة (العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٧٠) . أما اسم سُكْرَة فهو مؤنث سكر (المقرئ : أزهار الرياض ، ج٣ ، ص ١٥١) ، وأما الصديقي فيظهر أنه نسبة إلى قبيلة الصدف العربية التي يُنسب إليها كثير من العلماء (السمعاني : الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي ، ط . الأولى ، دار الجنان ، بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ج٣ ، ص ٥٢٨ - ٥٣٠) لكن الذي يثير الارتباك في انتساب أبي علي إلى العرب تسمى جده باسم عجمي إذ عرف عن عرب الأندلس اعتزازهم بأسمائهم العربية أيما اعتزاز ، فهل كان صديقاً بالولاء ؟

الصدفي^(١) ، يعرف بابن سكرة^(٢) ، وأيضاً بابن الدراج^(٣) ، وقد تلحق بعض المصادر باسمه لقب السرقسطي^(٤) ، لأن أصله من إقليم سرقسطة حيث كانت أسرته تقطن قرية " منزل محمود " القرية من حاضرتها سرقسطة، ثم نزلت إلى تلك الحاضرة، فولد فيها أبو علي نحو عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، وتعلم على مشايخها^(٥) ورغبة منه في طلب العلم قصد في شرقي الأندلس مدينة بلنسية^{*}، ومدينة المرية فسمع من كبار علمائهما^(٦). ولما صار عمره حوالي ستة وعشرين عاماً رحل إلى المشرق ، حيث خرج من الأندلس للحج في محرم سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م عن طريق البحر^(٧) ، فحج في العام نفسه ، ولقي بمكة عدداً من العلماء سواء من أهلها أو من الطائرين

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٤٤ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٣٧٦ ؛ المقرئ : أزهار الرياض في أخبار عياض ، ط . صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة ، الرباط ، ١٩٧٨م ، ج ٣ ، ص ١٥١ .

(٢) عياض : الغنية ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ص ١٩٣ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ١ .

(٤) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، تحقيق محمد أبو الأحنان ومحمد الزاهي ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ص ٩٩ ؛ ابن فرحون : الدياج المذهب ، ج ١ ، ص ٣٣٠ .

(٥) عياض : الغنية ، ص ١٩٣ .

* بلنسية Valencia هي حاضرة الكورة المسماة باسمها (ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ١٦) تبعد عن البحر حوالي ثلاثة أميال (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩١) تعد حديثاً من مدن إسبانيا المهمة (علي إسلام باشا : إسبانيا والأندلس ، ط . مطبعة مصر ، ص ٩٦ ، عيسى الناعوري : في ربوع الأندلس ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص ١٤٩) .

(٦) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٤٤ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ١٥١ ؛ نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

(٧) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

عليها . ثم سار إلى العراق فدخل البصرة ثم واسط وقد التقى بمشايخ هاتين المدينتين ، وبعدها حل ببغداد في جمادي الآخرة سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م ، فأقام بها خمس سنوات كاملة ، سمع في غضونهما من علمائها ، ومن القادمين عليها أيام كونه بها^(١) ثم غادرها إلى دمشق فكان بها عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م^(٢) ، ومنها إلى مصر فأنهى به المطاف إلى الإسكندرية ، إذ نراه بها سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م^(٣) ، ثم عاد إلى الأندلس ، فوصلها في صفر سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م^(٤) .

وقد ذكر تلميذه ابن عطية (ت ٥٤١هـ / ١١٤٧م)^(٥) أنه استفاد من علماء الإسكندرية ومصر قبل وصوله إلى مكة ، فقال عنه " وكتب في طلوعه بالإسكندرية ومصر ... عن جماعة ، وبلغ مكة ... " كما ذكر تلميذه الآخر القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م)^(٦) أنه التقى بشيوخ إفريقية ، وأشار إلى دخوله مدينة سبتة مرتين بقوله " ودخل بلدنا كرتين ... " ^(٧) . وقد كانت الأولى منهما عند عودته إلى الأندلس من تلك الرحلة المشرقية ، فلم يلبث بها إلا يسيراً " لفرط استعجاله " ^(٨) .

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٤٤-١٤٥ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج ٣ ، ص ١٥١-١٥٢ .

(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، نشرته -مخطوطاً- مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، ١٤٠٧هـ ، ج ٥ ، ص ١٢٥ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٠٢ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٤٤ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، مدريد ، ١٨٨٧م ، ج ٢ ، ص ٦٠٨ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج ٣ ، ص ١٥٢ ؛ نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٩١ .

(٥) فهرس ابن عطية ، ص ٩٩ .

(٦) الغنية ، ص ١٩٣ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٨) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٤ ، ٥٣ .

ولعلنا نحاول على ضوء ما مضى من عرض وأقوال أن نرسم حلقة متكاملة لخط سير رحلة أبي علي الصديقي إلى المشرق التي دامت تسع سنوات وشهراً وأياماً . يبدو أن أبا علي أبحر من مدينة المرية الأندلسية لسببين : أولهما : إنه كان قد ارتحل إليها - كما مر - لطلب العلم ^(١) . وثانيهما : أن المرية كانت منفذاً رئيساً لأهل شرقي الأندلس ، فهي كما وصفها الجغرافيون الأندلسيون " باب الشرق " ^(٢) . ومن المرية - يبدو - أنه انطلق رأساً عن طريق البحر إلى الإسكندرية فلم يمر في خط ذهابه بإفريقية التي ورد التقاؤه بعلمائها، وأخذ العلم عنهم في رحلته تلك ^(٣) . وحلوله الإسكندرية في طريقه إلى الحج لا إشكال فيه، إذ صرح تلميذه ابن عطية بذلك، كما سلف ذكره ^(٤) ، أما كوننا نرجح انطلاقه بحراً من المرية صوب الإسكندرية مباشرة فلأن رحلته إلى المشرق كانت في البحر ^(٥) ، ومن عادة بعض حجاج البحر الأندلسيين الانطلاق رأساً إلى الإسكندرية ، فلا تستغرق رحلتهم في الغالب - إذا سلمت من الأخطار - سوى ثلاثين يوماً ^(٦) . فهو أسرع الطرق لبلوغ الهدف ، وطلبة العلم الأندلسيين إذا أرادوا الحج تراهم يسلكون أخصر الطرق إلى الحجاز ، ولا يعرجون على أي مناطق تباعدتهم عن هدفهم الأسمى الذي تتشوق إليه أفئدتهم ، فإذا ما قضوا الفريضة صار عندهم متسع من الوقت للتعريج عن بعض المدن الإسلامية المعروفة بازدهار

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

(٢) ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ١٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

(٣) عياض : الغنية ، ص ١٩٣ .

(٤) فهرس ابن عطية ، ص ٩٩ .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

(٦) علي أحمد : الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع

الهجري ، ط . الأولى ، دار طلاس ، دمشق ، ١٩٨٩ م ، ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٤ .

العلم ، ووفرة العلماء ^(١) ، وهذا ما فعله أبو علي الصديفي الذي عدل إلى العراق بعد حجه ، ثم رحل إلى الشام ، ثم إلى مصر ^(٢) ، ومنها - فيما يظهر - يمم وجهه شطر إفريقية ^(٣) ، وربما أنه انطلق منها واتجه إلى مدينة سبتة التي جاء النص صريحاً في دخوله إليها عند عودته من المشرق ^(٤) ، ولعل سيره كان في الطريق البحري المحاذي لساحل الشمال الإفريقي ^(٥) ، إذ لو سلك الطريق البري لسجلت المصادر استفادته من علماء مدن مشهورة بالعلم تربض على هذا الطريق . ومن سبتة عبر أبو علي الصديفي إلى الأندلس ^(٦) . ولم يرجع أبو علي إلى بلده سرقسطة عند أفوله إلى الأندلس من رحلته المشرقية ، بل نزل في مدينة مُرْسِيَّة* واستوطنها ، فطفق يدرس الناس في جامعها ^(٧) .

ولقد برع أبو علي الصديفي بالحديث وعلومه ^(٨) ، وكان بجانب

(١) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ط . الثانية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ٤٣٢ ؛ علي أحمد : الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ، ص ٢٥٤ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٤٤-١٤٥ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج ٣ ، ص ١٥١-١٥٢ .

(٣) عياض : الغنية ، ص ١٩٣ .

(٤) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٣ ، ١٠٢ .

(٥) علي أحمد : الأندلسيون والمغاربة ، ص ١٢٠ .

(٦) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٣ .

* مُرْسِيَّة Murcia قاعدة كورة تدمير في شرقي الأندلس ، تبعد عن البحر أربعين ميلاً (الإدريسي :

صفة المغرب ، ص ١٩٤ ، ١٩٥) ، والطريق البري بينها وبين المرية طوله نحو مائة وخمسة وثلاثين ميلاً

(الإدريسي : أنس المهج وروض الفرج ، مخطوط حكيم أوغلي رقم ٦٨٨ ، مكتبة السلیمانيّة في

إستانبول ، نشره بالتصوير الفوتوغرافي معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، فرانكفورت ، ورقة

(١٥١) ومرسية اليوم من المدن الكبرى في إسبانيا (الناعوري : في ربوع الأندلس ، ص ١٤١) .

(٧) ابن بشكوال: الصلة، ج ١، ص ١٤٥؛ المقرئ: أزهار الرياض، ج ٣، ص ١٥٢؛ نفح الطيب، ج ٢، ص ٩١.

(٨) عياض : ترتيب المدارك ، ج ٨ ، ص ١٩٣ ؛ الغنية ، ص ١٩٤ ، الضبي : بغية الملتبس ، ص ٢٦٩ .

ذلك " عالماً بالقراءات " ^(١) ، " إماماً بالفقه " ^(٢) لديه معرفة بالأدب ^(٣) .
 وحينما قُلت قضاء مرسية قَبْلَه على كره منه سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م ، ولكنه لم
 يلبث أن استعفى منه فلم يُعَفَ ، فتواری عن الأنظار عدة شهور من آخر سنة
 ٥٠٧هـ / ١١١٣م ^(٤) وأوائل السنة التالية حتى أعفى من ذلك المنصب ^(٥) .
 ولما طُلبَ منه أن يلى القضاء في إشبيلية تمنع وأبى ^(٦) ، وقد اجتهد في بث
 العلم ونشره سواء في مرسية ^(٧) أو في غيرها ^(٨) إلى أن قتل في معركة مع
 النصارى في ربيع الأول سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م ^(٩) .



وابن رشد الجلد الذي كانت له مساع متميزة في الحفاظ على الوفاق
 بين أهل الأندلس والمرابطين للوقوف صفاً متراصاً في وجوه النصارى ^(١٠) ،

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م ، ج٤ ، ص ١٢٥٣ .

(٢) ابن فرحون : الدياج المذهب ، ج١ ، ص ٣٣٠ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١٩ ، ص ٣٧٧ .

(٤) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٠٦ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج٣ ، ص ١٥٣ ؛ نفع الطيب ، ج٢ ، ص ٩٢ .

(٥) محمد بن عياض : التعريف بالقاضي عياض ، تحقيق محمد بن شريفة ، ط . الثانية ، وزارة الأوقاف

والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص ٧-٨ .

(٦) عياض : الغنية ، ص ١٩٤ .

(٧) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص ١٤٥ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١٩ ، ص ٣٧٨ .

(٨) ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ٤٣٣ ، ج٢ ، ص ٤٧٢ ، ٩٣٣ ؛ المعجم ، ص ٣٧ ، ٥٣-٥٤ ،

٦٦ ، ٩٥ ، ١٠٢ .

(٩) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص ١٤٦ .

(١٠) ابن رشد : الجامع من المقدمات ، تحقيق المختار التليلي ، ط . الأولى ، دار الفرقان ، عمّان ،

١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص ٣٠ من مقدمة المحقق .

كما كان له الأثر الأكبر في معاقبة بعض النصارى الأندلسيين المتآمرين على المسلمين مع إخوانهم في الممالك النصرانية المجاورة ^(١) ، فهو أبو الوليد محمد ابن أحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن رشد ^(٢) . ويظهر أن أصله من غير العرب ، فتلامذته الذين ترجموا له سردوا سلسلة نسبه دون أن يصلوه بأي قبيلة عربية ^(٣) ؛ بل قيل إنه " لا يعرف له نسب في قبائل الأندلس " ^(٤) ، فضلاً أن ثمة من ينسبه إلى بني إسرائيل ^(٥) .

ولقد كانت أسرته تقطن سرقسطة ^(٦) ، ثم استوطنت بعد ذلك قرطبة ^(٧) ، لعل أبا الوليد ولد بهذه الأخيرة، حيث كانت ولادته عام ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ^(٨) .

(١) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٧٢-٧٣ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص ١١٤ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٠-٩١ .

(٢) توصل إلى سلسلة نسب ابن رشد الجدة هذه من خلال النظر في نسب والده أحمد (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ١ ، ق ١ ، ص ٢٨) وفي نسب حفيده أيضاً (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ق ٦ ، ص ٢١-٢٢) ولقد أورد المقرئ هذا العمود النسيبي إلا أنه جعل اسم جد والده أحمد ، فقال : محمد بن أحمد بن أحمد بن أحمد ... (المقرئ : أزهار الرياض ، ج٣ ، ص ٥٩) .

(٣) انظر مثلاً : عياض : الغنية ، ص ١٢٢ ، ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص ٥٧٦ .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٦ .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٦) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص ٥٧٦ (جاء ذلك في هامش الأصل) .

(٧) لم تصرح المصادر بذلك ، ولكن يفهم استيطان بيت ابن رشد قرطبة من قديم بدمغ والد ابن رشد بالقرطبي (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ١ ، ق ١ ، ص ٢٨) إضافة إلى أنه قد ورد نص يصرح بوجود مدفن في مقبرة عباس بشرقي قرطبة لسلف ابن رشد الجد (ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، تحقيق المختار التليلي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ج٣ ، ص ١٥٢٥) مما يعني قدم استقرار أسرته في قرطبة .

(٨) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج٣ ، ص ١٥٢٦ ، ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص ٥٧٧ .

ثم درس على شيوخها ^(١) ، ولم يثبت - طبقاً للمصادر المتوافرة - خروجه منها لطلب العلم سواء داخل الأندلس أو خارجها كفعل بعض طلبة العلم القرطبيين الذين ينتقلون من أجل تلك الغاية بين المدن الأندلسية أو حتى يرحلون إلى المشرق ^(٢) .

نال ابن رشد علماً واسعاً في كثير من العلوم المعروفة في زمنه ، وقد غلبت عليه الدراسة أكثر من الرواية ^(٣) ، فصار " فقيهاً عالماً حافظاً للفقهاء ، ... عارفاً بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه ، بصيراً بأقوالهم واتفاقهم واختلافهم ، نافذاً في علم الفرائض والأصول " ^(٤) . كما أصبح بجانب ذلك ذا تفوق بالحديث ، ومعرفة باللغة ، ومشاركة بالتفسير والتاريخ ^(٥) .

ابتدأ ابن رشد التدريس وشيوخه ما زالوا على قيد الحياة ، فاجتهد بالتعليم ، وبذل عطاءً مضاعفاً في بث علمه الذي يحمله ، فقصده الطلبة من كل ناحية ، وتكاثروا حوله ^(٦) .

ولقد أسند إليه القضاء بقرطبة في جمادي الأولى سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، فصار قاضي الجماعة بها ، وصاحب الصلاة في مسجدتها

(١) عياض : الغنية ، ص ١٢٣ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٢) المختار التليلي : ابن رشد وكتابه المقدمات ، ص ١٤٩ .

(٣) عياض : الغنية ، ص ١٢٢ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج ٣ ، ص ٦٠ . وقد نقل الذهبي

نص ابن بشكوال ، وأسقط منه بعض الكلمات (سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٥٠٢ ؛ تاريخ

الإسلام " حوادث ووفيات المشاهير والأعلام " (٥٠١-٥٢٠ هـ) ، تحقيق : عمر تدمري ، ط .

الأولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م ، ص ٤٤٤) .

(٥) ابن رشد : الجامع من المقدمات ، ص ٢٤ من مقدمة المحقق .

(٦) المختار التليلي : ابن رشد وكتابه المقدمات ، ص ٢٢٧-٢٣١ .

الجامع^(١) ، وبعد مضي أربع سنوات أعفي منه بناء على رغبته^(٢) ، وذلك في سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م^(٣) . وقد كان من جملة الأعذار التي قدمها ابن رشد لطلب الإعفاء من القضاء التفرغ لاستكمال ما شرع فيه من مؤلفات، حيث قضى بقية عمره في التأليف^(٤) ، وإسماع ما ألفه^(٥) ، " ونشر كتبه ... ومسائله "^(٦) إلى أن توفى في شهر ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م بعد مرض أضجعه أزيد من أربعة أشهر^(٧) .

ولقد خلف ابن رشد كثيراً من المصنفات في فنون مختلفة من العلم^(٨) ، إلا أن غالبها كان في الفقه وما يتصل به^(٩) ، ككتاب المقدمات والمهديات...^(١٠) وكتاب البيان والتحصيل ... وغيرهما^(١١) .



-
- (١) ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٩ .
 - (٢) ابن رشد : البيان والتحصيل ، جـ ١ ، ص ٣٠ ، ٣١ .
 - (٣) عياض : الغنية ، ص ١٢٣ .
 - (٤) ابن رشد : البيان والتحصيل ، جـ ١ ص ٣٠-٣١ ، ٣٢ .
 - (٥) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ ٣ ، ص ١٥١٨ ، ١٥٢٤ (ذكر ذلك تلميذه جامع فتاويه أبو الحسن ابن الوزان المتوفي سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) .
 - (٦) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ص ٥٧٧ .
 - (٧) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ ٣ ، ص ١٥٢٤ (ذكر ذلك أيضاً ابن الوزان) ؛ النباهي : المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، ط . دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ص ٩٩ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، جـ ٣ ، ص ٦١ .
 - (٨) عياض : الغنية ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .
 - (٩) ابن رشد : الجامع من المقدمات ، ص ٣٤ من مقدمة المحقق .
 - (١٠) وقد طبع هذا الكتاب أكثر من مرة .
 - (١١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٥٧٧ ؛ عياض : الغنية ، ص ١٢٢ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام " حوادث ٥٠١-٥٢٠هـ " ، ص ٤٤٤ . وانظر : ابن دحية : المطرب في أشعار أهل المغرب ، ص ٢١٠ ؛ ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، نشر فرانيسكو كوديرا ، ط . الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٢٤٣ ، ٢٦٦ ؛ الفلاني : قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر ، تحقيق عامر صيري ، ط . الأولى ، دار الشروق ، جده ، ١٩٨٤ ، ص ١٦٥ .

أما أبو محمد بن عطية المكثّر من الخروج في الجيوش المرابطة لقتال النصارى^(١) ، والمسهّم بقلمه في الجهاد ضدهم^(٢) ، فهو عبد الحق بن أبي بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام ابن عطية بن خالد بن عطية المحاربي[☆] ، وعطية هذا الأخير هو أول داخل للأندلس من أسرة أبي محمد بن عطية^(٣) ، وقد كان ذلك زمن الفتح^(٤) ، فاستقر هو وذريته من بعده في غرناطة^(٥) ، حيث ولد بها - فيما يبدو - عبد الحق ، فكان مولده عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م^(٦) .

تلقى عبد الحق العلم في مسقط رأسه على يد والده أبي بكر غالب^(٧) الذي كان من العلماء المبرزين^(٨) ، وكذلك على أيدي علماء آخرين

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧١ .

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، تحقيق حسين يوسف خربوش ، ط . الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، مكتبة النار ، عمّان ، ج ٣ ، ص ٦٦٦-٦٦٩ .

☆ وبنو محارب الذين ينتسب إليهم ابن عطية هم من أبناء قيس بن عيلان بن مضر (ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ٦٠) ومضر من ولد معد بن عدنان (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ٢٥٩ ، ٤٨١) .

(٣) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ٥٩-٦٠ ؛ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق المجلس العلمي بفاس وغيره ، ط . مكتبة ابن تيمية ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، ج ١ ، ص ١ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٦٩-٢٧٠ .

(٤) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ٦٠ ؛ عياض : الغنية ، ص ٢٥٣ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٢٧ ، ج ٣ ، ص ٥٣٩ ؛ ابن فرحون : الدياج المذهب ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

(٦) الضبي : بغية الملتبس ، ص ٣٨٩ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧٢ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٥٤١ .

(٧) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٩-٧٧ .

(٨) عياض : الغنية ، ص ٢٥٤ ، ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٥٨ .

سواء من غرناطة عينها ^(١) ، أو من المارين عليها من العلماء الأندلسيين ^(٢) ، أو من العلماء الواردين إليها من خارج الأندلس ^(٣) . ولم ينقع غلة نهم أبي محمد بالعلم ماتلقاه في غرناطة ، فارتحل في سبيل تحصيله إلى عدد من المدن الأندلسية كقرطبة ^(٤) وإشبيلية ^(٥) ومُرْسِيَّة ^(٦) وبلنسية ^(٧) وجيان ^(٨) .

وبحرصه على التعلم منذ الصغر ^(٩) ، وبذكائه وفطنته وإدراكه ، وبتعاهد والده له ^(١٠) ، اتسعت معارفه ، واكتسب جملة متنوعة من العلوم ^(١١) ، فأصبح " فقيهاً عالماً بالتفسير والأحكام والحديث والنحو والأدب واللغة ^(١٢) " ، وفوق ذلك كانت " له يد في الإنشاء والنظم والنثر " ^(١٣) ، إذ كان هو نفسه شاعراً مجيداً ، وأديباً بارعاً ^(١٤) .

(١) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ١٠١ ، ١١٨ ، ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٣٩ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧٠ .

(٣) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ٩٤ ، ١٤١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٢١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٠٠ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧٠ .

(٧) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ١٠٩ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٩) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٣ ، ص ٦٥٦ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٥٥٨ .

(١٠) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٥٨٨ .

و قد ظل غالب يُعنى بابنه عبد الحق ويوجهه حتى في المرحلة التي أمسى فيها هذا الابن يقوم بالتأليف

(الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤٤١) .

(١١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ .

(١٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٥٣٩ .

(١٣) السيوطي : طبقات المفسرين ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ،

ص ٥٠ .

(١٤) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٣ ، ص ٦٥٦ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٠٩ .

نُصِبَ عبد الحق قاضياً لمدينة المرية ^(١) ، وكان ذلك في عام ٥٢٩هـ / ١١٣٤م ^(٢) ، وقد ظل في هذا المنصب سنوات متوخيّاً العدل، ناشداً للحق ^(٣) ومع أن المصادر المتوافرة لم تصرّح بعدد تلك السنوات إلا أن ثمة نصاً يؤكد على أنه في عام ٥٣٨هـ / ١١٤٣م ما زال على رأس عمله في قضاء المرية ، ذاك أن أحد تلامذته قد انتسخ فهرسته في ربيع الآخر من ذلك العام ، وقرأه عليه - وهو قاض - في تلك المدينة ^(٤) ، والظاهر أن ولاية ابن عطية لخطبة القضاء في المرية قد تجاوزت عام ٥٣٨هـ / ١١٤٣م ، فقد ورد أن أهل هذه المدينة شكوه - بصفته قاضياً لهم - على عبد المؤمن بن علي الموحدي (٥٢٤هـ / ١١٣٠م - ٥٥٨هـ / ١١٦٣م) لما قدم وفدهم إليه في المغرب ^(٥) ، ومعلوم أن أول وفد أندلسي قابل عبد المؤمن ، وأظهر الطاعة له كان في أوائل سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م ، ثم أخذت الوفود الأندلسية تترى على الموحدين طائفة لهم ^(٦) . ولا يُستبعد أن يكون وفد المرية - المار ذكره آنفاً - ممن بادر بالقدوم على زعيم الموحدين مما يعنى أن عبد الحق بن عطية لبث قاضياً على المرية إلى عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م ، وربما أن فترة ولايته على

(١) ابن الأبار: المعجم، ص ٢٧٠؛ ابن جزى: كتاب الخيل، ص ٢٤٢؛ السيوطي: طبقات المفسرين، ص ٥٠ .

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٥٨٨؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٣، ص ٥٣٩؛

النباهي: المرقبة العليا، ص ١٠٩ .

(٣) ابن الزبير: صلة الصلة، تحقيق إ.ليني بروفنسال، ط . مكتبة خياط، بيروت، ص ٣؛ ابن

فرحون: الدياج المذهب، ج ٢، ص ٥٧ .

(٤) ابن عطية: فهرس ابن عطية، ص ٤٨ .

(٥) الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط . الثانية، المكتبة العتيقة،

تونس، ١٩٦٦م، ص ٩ .

(٦) ابن عذاري: البيان، ق . الموحدين، ص ٣٤-٣٥ .

قضائها لم تتعد الأشهر الأولى منه ، إذ أننا نراه في صدر الثورة على المرابطين في الأندلس يقصد صهره أبا عبد الرحمن بن طاهر* في مرسية^(١) ، بعد أن قُلد خطة القضاء فيها ، ولكنه صُد عن دخولها ، ليس هذا وكفى بل أجبر على التوجه إلى مدينة لُورقة** فسكنها حتى وفاته^(٢) .

والذي يبدو مقبولاً ألا يكون خروج أبي محمد بن عطية إلى مرسية بعد صدور الأمر بتقليده القضاء فيها إلا في الفترة التي كان فيها صهره ابن طاهر حاكماً عليها والممتدة فقط من أواخر شهر ربيع الأول إلى العاشر من جمادي الأولى من سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م^(٣) ، بل من المرجح أن مسيرة ابن عطية إلى مرسية لم تكن إلا في آخر فترة حكم صهره لها ، بدليل أنه حيل بينه وبين دخولها ، مما يشير إلى أن السلطة في مرسية قد انتزعت من

* أبو عبد الرحمن بن طاهر : هو محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسي ، من أسرة معروفة برئاستها في مرسية ، يعد من جملة علماء الأندلس (ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق عبد السلام الهراس ، ط . دار المعرفة ، الدار البيضاء ، جـ ٢ ، ص ٤٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ٣٣٨) ولله أهل مرسية أمرهم أواخر عهد المرابطين عقب مقتل زعيمهم أبي جعفر الخشتي ، فظل يحكم مرسية فترة تدنو من شهرين ، حيث سلمها لابن عياض ، وقد توفي في مراكش عام ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م (ابن الأبار : الحلة ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠-٢٣٣) وكان قد أظهر خضوعه للموحدين ، وكتب مقالة يقرر فيها صحة دعاوى ابن تومرت (ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٠١-١٢٢)

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧٢ .

** لُورقة : Lorca تقع إلى الجنوب الغربي من مرسية (ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٤١٢ ، حاشية ٥) . بمسافة تقدر بحوالي أربعين ميلاً (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩٦ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٧) .

(٢) ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٣ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٥٤١ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٠٩ ؛ ابن فرحون : الدياج المذهب ، جـ ٢ ، ص ٥٨ .

(٣) ابن الأبار : الحلة ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

ابن طاهر* .

وما نخلص إليه هنا ان عبد الحق بن عطية بقي قاضياً على المرية - فيما يظهر - أكثر من عشر سنوات ، وذلك من سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤م إلى جمادى الأولى من سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥م .

ولقد كان ابن عطية يقوم بالتدريس بجانب ولايته القضاء في المرية^(١) ، بل إنه استمر يقدم هذه الخدمة الجلية لطلابه وهو في الطريق إلى مرسية^(٢) . ولا ريب أن من كانت هذه حاله في الطريق ألا يترك التدريس بعد أن ألزم سكنى لورقة ، حيث توفي بها في رمضان سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧م على القول الصحيح^(٣) .

اعتمد عبد الوهاب فايد على نص يشير إلى أن ابن رزين قرأ على ابن عطية فهرسته في المرية في آخر سنة ٥٤٠ هـ ، ومما جاء في ذلك النص حسبما نقله عبد الوهاب فايد " قرأ جميعها على مؤلفها ... وذلك في المرية في عشرين من شهر ذي حجة أربعين وخمسمائة ... " (منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم ، ط . الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م ، ص ٧٥) وبسبب هذا النص راح عبد الوهاب يضع عدة احتمالات لتوجه ابن عطية إلى مرسية بعد ذلك التاريخ الذي كانت فيه سلطة صهره ابن طاهر قد زالت عن تلك المدينة ، ثم اجهد نفسه في البحث عن الشخص الذي ولى ابن عطية قضاء مرسية في تلك الظروف العصية (المرجع السابق ، ص ٧٦-٧٧) ولكن بالرجوع إلى النسخة المحققة من فهرس ابن عطية نرى النص هكذا " قرأ جميعها على مؤلفها ... وذلك في الموفى عشرين من شهر ذي حجة أربعين وخمسمائة ... " (فهرس ابن عطية ، ص ٤٩) . فليس فيه - كما نرى - أدنى إشارة إلى المرية ، مما يعني أنه قد قرأ عليه بعد خروجه من المرية ، إذ مازال تلامذته يقرأون عليه حتى بعد أن صُد عن دخول مرسية (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٦٢) وبهذا يزول الإشكال وتناسق الروايات مع الأحداث كما أثبتناه في المتن .

(١) ابن عطية : فهرس ابن عطية ص ٤٨ ؛ ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ٤٣٧ ؛ الضبي : بغية الملتبس : ص ٣٨٩ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٨٩ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٦٢ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧٢ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٣ .

✠ يختلف في وفاة ابن عطية ، فقليل غير ما ذكرنا في المتن أنها كانت في سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٨م -

ترك أبو محمد* وراءه من التصانيف كتاباً بالتفسير سماه المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، وكتاباً فيما رواه عن شيوخه طبع بعنوان فهرس ابن عطية .



وأبو بكر بن العربي المشارك زمن المرابطين في الصراع ضد النصاري تارة باللسان ^(١) وتارة أخرى باللسان ^(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري ^(٣) ، نسبة إلى قبيلة معافر المنسوبة إلى قحطان ^(٤) . ولد في موطن أسرته إشبيلية في شعبان سنة

= (ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٣٨٧) ، وقيل في سنة ٥٤٦هـ / ١١٥٢م (ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٥٤١) لكن ابن الأبار يأخذ بسنة ٥٤١هـ / ١١٤٧م لأنها كما يشير " قول ابن حميد وابن عباد وغيرهما وهو الصحيح " (المعجم ، ص ٢٧٢) .

☆ حكي الزركشي (الذي كان حياً في أواخر القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي) عن بعض أشياخه أن أهل المرية لما وفدوا على عبد المؤمن بن علي في المغرب رموا قاضيهم أبا محمد بن عطية بالزندقة ، فرد عليهم بعض الأدباء الحاضرين ما ألصقوه به بيتين من الشعر (تاريخ الدولتين ، ص ٩) وهذه التهمة التي قيل أن أهل المرية قذفوا بها قاضيهم لا نرى لها وجوداً في المصادر القريبة من عصر ابن عطية ، ولا حتى المعنية بترجمة حياته ، فضلاً عن أن ما خلفه من تفسير يشهد ببراءته منها ، فقد أشاد شيخ الإسلام ابن تيمية بتفسير ابن عطية بقوله " وتفسير ابن عطية وأمثاله اتبع للسنة والجماعة ، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ... " (مقدمة في أصول التفسير ، تحقيق محمود نصار ، ط . مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٨٨م ، ص ٨٩-٩٠) كما أثنى عليه خيراً في موضع آخر (المصدر السابق ، ص ١١٠) .

(١) ابن العربي : أحكام القرآن ، ط . دار المعرفة ، بيروت ، ٢ ، ص ٩٥٥ .

(٢) ابن العربي : قانون التأويل ، تحقيق محمد السليمان ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٠م ، ص ١٣٩ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٥ ؛ التكملة ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ ، ٣٥٠ ، ٤٤٣ .

(٣) الضبي : بغية الملتبس ، ص ٩٢ .

(٤) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٨ - ٤١٩ ، ٤٨٥ .

٤٦٨هـ/١٠٧٥م^(١)، وتربى في حجر والده أبي محمد^(٢) الذي كان من رجال دولة بني عباد^(٣)، حيث هيا له أسباب طلب العلم، فمنذ أن آنس منه إدراكاً خصص لتدريسه المعلمين الأكفيا، وكان أبو بكر من طرفه مقبلاً على العلم والمعرفة يستثمر باقي وقته في المطالعة والمذاكرة والتقيد^(٤)، وحضور مجالس العلماء^(٥)، وحين بلغ السابعة عشرة من عمره^{*} رحل مع أبيه إلى المشرق عقيب سقوط الدولة العبادية على أيدي المرابطين، حيث خرج من إشبيلية في مستهل ربيع الأول عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م^(٦)، فلما وصل ميناء المرية غادر الأندلس بجزاً إلى المغرب الأوسط (الجزائر)، فتابع سيره على المدن الساحلية طوراً والبحر وطوراً آخر بالبر حتى حل بالمهدية في إفريقية، ومنها ركب البحر قاصداً مصر^(٧)، ولعله حينما قال "كنا في

(١) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢، ص ٥٩١، النباهي: المرقبة العليا، ص ١٠٦.

(٢) انظر: ترجمته في: ابن بشكوال: الصلة، ج ١، ص ٢٨٨-٢٨٩؛ الضبي: بغية الملتبس، ص ٣٣٧؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ١٣٠.

(٣) ابن خاقان: قلائد العقيان، ق ٣، ص ٦٩٢؛ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق محمد علي شوابكة، ط. الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٢٩٧؛ عياض: الغنية، ص ١٣٣ - ١٣٤؛ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج ٢، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٤) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٦٩-٧٤.

(٥) المصدر السابق، ص ٧٦-٧٧.

* صرح ابن العربي أنه حين رحل إلى المشرق كان "ابن ستة عشر عاماً" (سراج المريدين في سبيل المهتدين، مخطوط دار الكتب المصرية، رقم ٢٠٣٤٨ ب، ورقة ٢٤٠ ب) ولكنه في المصدر نفسه ذكر أن رحلته ابتدأت عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م (سراج المريدين، ورقة ١٥٢ أ) كما أنه هو الذي أخبر أحد تلامذته بولادته سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م (ابن بشكوال: الصلة، ج ٢، ص ٥٩١). بمعنى أنه في العام السابع عشر من عمره عند خروجه إلى المشرق.

(٦) ابن فرحون: الديباج المذهب، ج ٢، ص ٢٥٣؛ المقرئ: أزهار الرياض، ج ٣، ص ٦٢، ٦٣.

(٧) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٨٠-٨٤.

رمضان سنة ٤٨٥ هـ في البحر^(١) كان يعني رحلته تلك من المهدية إلى مصر . لكنه اضطر هو من معه للنزول على إحدى القبائل العربية الساكنة بين إفريقية ومصر بعد نجاتهم من الغرق على إثر تحطم سفينتهم التي كانت تقلهم . ومن مضارب هذه القبيلة توجه براً إلى مصر^(٢) ، فكان بالإسكندرية في شوال من ذلك العام^(٣) ثم ذهب إلى القاهرة ، فنراه بها في ذي الحجة من العام نفسه^(٤) ، وبعدها ارتحل إلى بيت المقدس^(٥) ، وبما أنه بقي في مصر ثمانية أشهر^(٦) ولم يكن قد وصل إليها - فيما يظهر - قبل رمضان أو قبل شوال الذي صرح بوجوده بها - كما مر ذكره - فإن حلوله ببيت المقدس سيكون في ربيع الثاني أو جمادي الأولى من العام التالي ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م فأقام بها ثلاث سنوات^(٧) ، وبعد ذلك ذهب إلى دمشق^(٨) ، فكان بها في جمادي الآخرة سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م^(٩) ، ثم غادر دمشق إلى العراق في شعبان من السنة ذاتها ،

(١) ابن العربي : عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي ، ط . دار أم القرى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ج٣ ، ص ٢١١ .

(٢) ابن العربي : قانون التأويل ، ص ٨٥-٨٩ .

(٣) ابن خيّر : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ٢٤٣-٢٤٤ .

(٤) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ٥٦ أ .

(٥) ابن العربي : قانون التأويل ، ص ٩١ ؛ العواصم من القواصم ، تحقيق عمار طالبي ، ط . الأولى ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م ، ص ٤٥ .

(٦) ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص ٤٥ .

(٧) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق ٣ ، ص ١١٨٨ ، ق ٤ ، ص ١٥٩٦ .

(٨) ابن العربي : قانون التأويل ، ص ١٠٤ ؛ العواصم من القواصم ، ص ٥٦ ؛ ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط . الأولى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٠ هـ /

١٩٩٠ م ، ج ٢٢ ، ص ٣٢٦ .

(٩) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ٧٣ أ-ب .

فدخل بغداد ^(١) وظل بها إلى ذي القعدة حيث قصد مكة للحج ^(٢) ،
وقد أدى الفريضة في تلك السنة ^(٣) ، ثم زار مدينة الرسول ﷺ ^(٤) ، وبعدها
عاد كرة أخرى إلى العراق ^(٥) ، فكان في بغداد سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م ^(٦)
فلبث فيها حوالي عامين ^(٧) . وبعد ذلك قرر الرجوع إلى الأندلس ، فخرج في
طريقه إليها على دمشق ^(٨) ، ثم خرج منها عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م ^(٩) إلى
بيت المقدس فحل به في محرم سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م ^(١٠) وبعدها توقف مدة
في الإسكندرية ، وهناك توفي والده في أول سنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م ^(١١) ،
ثم واصل سيره غرباً ، فنراه في إفريقية سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م ^(١٢) ، وفي
السنة التالية ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م كان مروره بتلمسان في المغرب الأوسط ،

(١) ابن العربي : قانون التأويل ، ص ١٠٧-١٠٨ .

(٢) ابن العربي : عارضة الأحوزي ، ج ٤ ، ص ٤٩ .

(٣) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ١٠٠ أ ، ٧٤ أ ؛ عارضة الأحوزي ، ج ٤ ، ص ١١٠ ، ١٥٣ .

(٤) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ١٠٣ أ ؛ عارضة الأحوزي ، ج ٧ ، ص ٢٠٠ ؛ ابن خير : فهرسة

ما رواه عن شيوخه ، ص ١٦٣ .

(٥) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ١٠٠ أ .

(٦) ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص ٢٤ .

(٧) ابن العربي : رسائل أبي بكر بن العربي ، تحقيق عصمت عبد اللطيف دندش (ملحقة بكتاب دور

المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا للمحققة ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،

١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) ، ص ١٨٨ .

(٨) ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ، ج ٢٢ ، ص ٣٢٦ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٩) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ١٥ ، ورقة ٥٥٤ .

(١٠) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق ٣ ، ص ١٢٥٢ ، ق ٤ ، ص ١٥٩٧ .

(١١) عياض : الغنية ، ص ١٣٥ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٠٦ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ،

ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(١٢) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ٨٧ أ .

وبفاس في المغرب الأقصى^(١) . وقبل اجتيازه إلى الأندلس دخل سبتة^(٢) ، واستمر في مسيره حتى انتهى به المطاف أخيراً إلى بلده إشبيلية^(٣) التي وصلها في غضون عام ٤٩٥هـ / ١١٠٢م^(٤) . ☆

وهكذا قفل أبو بكر بن العربي من رحلته المشرقية التي دامت عشر سنوات أو تزيد☆☆ ، فكانت - فضلاً عما تخللها من نشاط سياسي سنعرض له إن شاء الله في حينه - رحلة علمية من مبدئها إلى منتهاها^(٥) ، أُتيح له فيها أن يلتقى بجمهور كبير من علماء العصر^(٦) ، فلازم طائفة منهم ، وقد كان على رأس هذه الطائفة أبو حامد الغزالي^(٧) (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م) ،

(١) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ٢٣٨ ب .

(٢) عياض : الغنية ، ص ١٣٥ .

(٣) ابن فرحون : الدياج المذهب ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ .

(٤) ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص ٢١٤ ؛ عياض : الغنية ، ص ١٣٥ .

✳ يذكر العماد الأصفهاني أن عودة ابن العربي إلى الأندلس كانت في سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م (خريدة القصر و جريدة العصر ، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، ط . دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٩م ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٢٢٠) وهذا ليس له نصيب من الصحة ، لأنه يعارض أقوال ابن العربي نفسه التي دونها عن رحلته .

✳ هذه المدة التي أمضاها في رحلته تتضح جلية من التمعن في تاريخ مغادرته الأندلس ورجوعه إليها ، ولكن مما يدعم ذلك تأكيداً لأحد تلامذته على بقائه في رحلته عشر سنوات (الضبي : بغية الملتبس ، ص ٩٣) وفي حديثه عن نفسه ذكر أنها نحو الأحد عشر عاماً (سراج المريدين ، ورقة ٢٤٠ ب) .

(٥) ابن العربي : الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم ، تحقيق عبد الكبير العلوي المدغري ، ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ج ١ (الدراسة) ، ص ٢٤ .

(٦) عياض : الغنية ، ص ١٣٤ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٠ ، ص ١٩٨-١٩٩ .

(٧) ابن العربي : قانون التأويل ، ص ١١٢ ؛ العواصم من القواصم ، ص ٢٤ ؛ رسائل أبي بكر بن العربي ، ص ١٩٥ ، ٢٠٣ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج ٤ ، ص ١٣ .

وأبو بكر الطرطوشي*^(١) (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م) ، كما نقل إلى الأندلس مجموعة من مصنفات المشاركة التي كان من جملتها كتب لم يسبقه أحد من الأندلسيين إلى نقلها^(٢) ، دع عنك تعرفه عن كتب أثناء هذه الرحلة " على آراء الفرق والمذاهب المنتشرة في البلدان التي زارها ، كما اكتسب أساليب جديدة في المناظرة والجدل " ^(٣) .

اشتغل ابن العربي حالما حلَّ ببلده بالتدريس والوعظ والتأليف^(٤) ، ثم ما برح أن قدّم للشورى فيها سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م^(٥) ، وفي منسلخ جمادي الآخرة سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م صدر مرسوم بتوليته قضاء

* أبو بكر الطرطوشي هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الطرطوشي ، أصله من طرطوشة في الأندلس ، فهاجر إلى المشرق عام ٤٧٦هـ/١٠٨٣م واستقر آخر حياته في الإسكندرية ، حيث توفي بها (ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٥-٥٧٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٥) .

(١) لازمه أولاً في بيت المقدس انظر : (ابن العربي : قانون التأويل ، ص ٩٢-٩٣ ؛ سراج المريدين ، ورقة ٥٦) ، ثم كان لقاءه به ثانية في الإسكندرية . انظر (ابن العربي : رسائل ابن العربي ، ص ٢٠٤ ؛ عياض : الغنية ، ص ١٣٥) .

(٢) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ٢٣٨ - ٢٣٩ ب ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٩١ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط . دار النشر فرانز شتاينز بقيسبادن ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ ؛ المقري : أزهار الرياض ، ج ٣ ، ص ٦٢-٦٣ .

(٣) ابن العربي : الناسخ والمنسوخ ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(٤) عياض : الغنية ، ص ١٣٥ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٠٦ ؛ المقري : أزهار الرياض ، ج ٣ ، ص ٦٤ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٤٢ .

إشبيلية^(١) ☆ ، فقام به أجمل قيام^(٢) إلى أن صرف عنه - فيما يبدو - بعد أقل من سنتين ☆☆ ، فألحق بقرطبة مدة^(٣) ، ثم فاء إلى بلده إشبيلية نزلة أخرى ☆☆☆ فكانت جموع طلاب العلم يتواردون عليه سواء في قرطبة أو إشبيلية^(٤) حيث

(١) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص٩٢-٩٣ ، ٥٨ ، وانظر : ابن القطان : نظم الجمان ، ص٢٣٤ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج٣ ، ص٦٤ .

☆ حاد عمار الطالبي عن الصواب حين جعل سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م هي السنة التي ولي فيها ابن العربي قضاء إشبيلية (آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ، ط . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٤م ، ج١ ، ص٦٢) .

(٢) ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص٢٩٧ ؛ أحكام القرآن ، ق٣ ، ص١٤٥١ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص١٠٥-١٠٦ .

☆☆ المصادر المتوافرة لا تذكر بالتحديد المدة التي أمضاها ابن العربي في قضاء إشبيلية ، ولكن ابن عذاري يذكر في سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م ثورة السفلة في إشبيلية عليه (البيان، ج٤، ص٩٣-٩٤) وقد أشار المقرئ أن ابن العربي خرج إلى قرطبة بعد أن ثارت عليه العامة في إشبيلية ، ونهبوا داره ، " وكان ذلك في عيد أضحي " (نفع الطيب، ج٢، ص٢٧) فلعل الثورة التي ذكرها ابن عذاري هي عينها التي أشار إليها المقرئ ، فتكون ولاية ابن العربي القضاء من آخر جمادي الثانية عام ٥٢٨هـ / ١١٣٤م حتى عيد الأضحى عام ٥٢٩هـ / ١١٣٥م أي سنة وستة أشهر تقريباً. ومن المستغرب أن ينسب محمد عبدالله ولدكريم إلى ابن عذاري القول بأن الذي مضى على ابن العربي في القضاء سنة وأشهر (ابن العربي : القبس في شرح موطأ مالك بن أنس ، تحقيق محمد عبدالله ولد كريمة ، ط. الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، ج١، ص٢٤ من مقدمة المحقق) قارن بين عبارته وبين ما جاء في (سعيد أعراب : مع القاضي أبي بكر بن العربي، ط. الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص٨٧) .

(٣) الضبي : بغية الملتمس ، ص٩٤ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص٢٩١ ؛ المعجم ، ص٦٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٧٤ ؛ المقرئ : نفع الطيب ، ج٢ ، ص٢٧ .

☆☆☆ لا ندري متى كان بالتحديد عودة ابن العربي إلى بلده ، ولكننا نراه بداره بقرطبة في بحر سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م (ابن العربي : القبس ، ج١ ، ص٧٥ حاشية ١) ثم نجده في السنة التالية مستقراً في بلده إشبيلية (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق٢ ، ص٥٢٩) .

(٤) عياض : الغنية ؛ ص١٣٦ ؛ ابن خيم : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص٢٤٣ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٥٩١ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص٩٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق٢ ، ص٥٢٩ ، التحجبي : برنامج التحجبي ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ١٩٨١م ، ص٤٧ ، ٩٠ .

أمضى بقية أيام عمره في "نشر العلم وتدوينه" ^(١) ، وكانت وفاته على مقربة من مدينة فاس بالمغرب في شهر ربيع الثاني عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م عقب صدره إلى الأندلس من لقائه بزعيم الموحدين عبد المؤمن بن علي في مراكش ^(٢) ☆ .

ولقد كان ابن العربي "فهماً نبيلاً فصيحاً حافظاً أديباً شاعراً ... " ^(٣) ، "وكان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها" ^(٤) ، وقد صنف في علوم القرآن والحديث والفقه والأصول والنحو والأدب والتاريخ ^(٥) ، فترك وراءه مكتبة فخمة من المؤلفات نذكر منها أنوار الفجر في التفسير ، ويعد من أوسع مؤلفاته ^(٦) ، وكتاب المشكلين مشكل القرآن والسنة ، وملجئة المتفقهين إلى معرفة غوامض النحويين ، والناسخ والمنسوخ ، وأحكام القرآن ، وعارضة الأحوزي بشرح صحيح الترمذي ، والقبس في شرح موطأ مالك بن أنس ، والعواصم من القواصم ^(٧) ، وهذه الكتب الخمسة الأخيرة كلها مطبوعة.



(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص ٢٠٠ .

(٢) عياض : الغنية ، ص ١٣٥ ؛ وانظر : مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

☆ قيل إن أبا بكر بن العربي مات مسموماً (النباهي : المرقبة العليا ، ص ٩٥ ؛ ابن غازي : الروض المتهون ص ٢٧) .

(٣) عياض : الغنية ، ص ١٣٥ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص ٥٩١ ؛ ابن فرحون : الدياج المذهب ، ج٢ ، ص ٢٥٤ .

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص ٢٠١ ، تذكرة الحفاظ ، ج٤ ، ص ١٢٩٦ .

(٦) ابن العربي : القبس ، ج٣ ، ص ١٠٤٧ - ١٠٤٨ ؛ ابن فرحون : الدياج المذهب ، ج٢ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٧) المقرئ : أزهار الرياض ، ج٣ ، ص ٩٤ - ٩٥ ؛ نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٣٥ - ٣٦ .

وابن رشد الحفيد الذي كان من المحرضين على الجهاد في سبيل الله^(١)،
والنافرين بأنفسهم مع جيوش دولة الموحدين لقتال القوى النصرانية^(٢)، هو
أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد^(٣)، ومحمد الأخير هو
أبو الوليد بن رشد الجد^(٤) المعروف به من قبل - وواضح الآن أن لقبى الجد
والحفيد وضعاً للتمييز بين الاثنين، فكلاهما اسمه الثنائي محمد بن أحمد،
وكلاهما - أيضاً - يُكنى بأبي الوليد.

ولد ابن رشد الحفيد بقرطبة^(٥) في آخر حياة جده المتوفي في ذي
القعدة سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م^(٦) فقبل أن مولده قبل وفاة جده بأشهر^(٧)،
وقيل بل قبلها بشهر واحد فقط^(٨).

تعلم ابن رشد الحفيد على أيدي علماء بلده، واستفاد من غيرهم^(٩)،
فدرس الفقه والأصول^(١٠)، وسمع الحديث^(١١)، وأخذ حظاً وافراً من

(١) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ص ٦، ص ٢٤.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٤٠٥.

(٣) الضبي: بغية الملتبس، ص ٥٤.

(٤) النباهي: المرقبة العليا، ص ١١١.

(٥) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٣، ص ١٢٢.

(٦) النباهي: المرقبة العليا، ص ٩٩.

(٧) ابن الأبار: التكملة، ج ٢، ص ٥٥٥؛ المنذري: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد

معروف، ط. الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١، ج ١، ص ٣٢٢.

(٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٣٠٧؛ العير، ج ٣، ص ١١١؛ ابن فرحون: الدياج

المذهب، ج ٢، ص ٢٥٩.

(٩) ابن الأبار: التكملة، ج ٢، ص ٥٥٤؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج ٣، ص ١٢٢؛ ابن

عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ص ٦، ص ٢٢.

(١٠) ابن الأبار: التكملة، ج ٢، ص ٥٥٤؛ ابن فرحون: الدياج المذهب، ج ٢، ص ٢٥٧.

(١١) الذهبي: العير، ج ٣، ص ١١١.

اللغة والأدب^(١) ، وعُني بالطب^(٢) ، وأقبل على علم الكلام والفلسفة^(٣) .

قُلْد ابن رشد خطة القضاء في إشبيلية^(٤) ، ولا تحدد المصادر الموجودة بين أيدينا السنة التي قُلْد فيها ، ولكنه في كتابه " بداية المجتهد ونهاية المقتصد " وهو يتحدث عن فراغه من أحد أجزاءه في جمادي الأولى من عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م أشار إلى أنه قد شرع في تأليف ذلك الكتاب " منذ أزيد من عشرين عاماً أو نحوها " ^(٥) ، وقد ذكر بعض المترجمين لحياته أن تصنيفه " بداية المجتهد " ابتدأ حين كُلف بالقضاء ^(٦) ، وهذا يُلهم أن تعيينه على قضاء إشبيلية في حدود سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م أو قبلها بقليل . وفي سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م عُيّن طبيباً لدى الموحدين في مراكش ^(٧) ، ثم ولي قضاء قرطبة في شعبان من السنة التالية ^(٨) ، فبقي يشغل ذلك المنصب إلى أن جرد منه مغضوباً عليه☆☆ عام ٥٩٣هـ / ١١٩٦م ^(٩) حيث أخرج من قرطبة في

(١) ابن الأبار : التكملة، ج ٢ ، ص ٥٥٤؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٢ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء، ج ٣ ، ص ١٢٢ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٣٠٨ .

(٣) الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ١١٠ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج ٣ ، ص ١٢٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ص ٦، ص ٢٢ .

(٥) ابن رشد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ط . السادسة ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ج ١ ، ص ٣٨٠ .

(٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٢ .

(٧) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٠٧ .

(٨) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٥٦ .

☆ وذكر الزركشي أن تعيين ابن رشد على قضاء قرطبة كان في سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م (تاريخ الدولتين، ص ١٤) .

☆☆ ستعرض لسبب ذلك عند الحديث عنه في المنزلة الاجتماعية للعلماء الآتية بعد .

(٩) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٥ .

حالة مهينة ^(١) ، وألزم الإقامة الإجبارية في قرية قريبة من قرطبة يقطنها اليهود ^(٢) ، بيد أن ذلك لم يطل كثيراً ، إذ صدر العفو عنه - فيما يظهر - في مطلع عام ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ^(٣) ، واستدعى مكرماً إلى مراکش ، فلم يعيش عقب ذلك إلا يسيراً إذ أثقله المرض فتوفي [☆] في صفر من تلك السنة في رواية ، وفي ربيع الأول في رواية أخرى ^{(٤) ☆☆} .

أما ما خلفه من آثار علمية فقد عُرف ابن رشد باستغلاله ساعات عمره منذ أن عقل بالقراءة والبحث ^(٥) ، فسود - " فيما صنف وقيد وألف وهذب واختصر نحواً من عشرة آلاف ورقة " ^(٦) ، وقد تنوعت موضوعاتها بين الفقه والعقيدة والطب والفلك والفلسفة ^(٧) . ويمكن تقسيم آثاره بشكل عام إلى قسمين ؛ أحدهما: شرح لكتب الأقدمين ، والآخر صنفه هو بنفسه ^(٨) .

-
- (١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٨٥ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ، ص ١٠٥ .
 (٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ٣ ، ص ١٢٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ، ص ١٠٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٦ .
 (٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ٣ ، ص ١٢٤ .
 ☆ ثمة رواية تقول أن ابن رشد توفي محبوساً بداره في مراکش (الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٣٠٩ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٢ ، ص ١١٥) .
 (٤) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٥ .
 ☆☆ دُفن ابن رشد أولاً في مراکش ، ثم نقل رفاتة إلى مسقط رأسه قرطبة فدفن بها (ابن عربي : الفتوحات المكية ، تحقيق عثمان يحيى ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ / ١٩٣٢ م ، ج ٢ ، ص ٣٧٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٣١) .
 (٥) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٣٠٨ .
 (٦) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .
 (٧) بالنسبة : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٣٥٦ - ٣٥٨ ؛ ماجد فخري : ابن رشد فيلسوف قرطبة ، ط . الثالثة ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص ١٢ .
 (٨) عبد الرحمن عميرة : الفلسفة الإسلامية بين التقليد الابتكار ، ط . مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص ١١٥ .

من مؤلفاته الكثيرة* نكتفي بذكر الآتي : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، والكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ... ، وتهافت التهافت وكتاب الترياق ، تلخيص الخطابة، وهذه الكتب كلها مطبوعة**.



وأبو الربيع الكلاعي الباذل مهجته في سبيل الله ، والمتصدر صفوف المسلمين عند قتالهم النصارى^(١) هو سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان بن أحمد بن عبد السلام^(٢) ، ويعرف بابن سالم الكلاعي*** الحميري^(٣) . ولد أبو الربيع - كما أخبر هو عن نفسه - في مستهل رمضان سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٠م. مُرْسِيَّة^(٤) في شرقي الأندلس^(٥) . وبعد إتمامه

☆ انظر : أسماء مؤلفات ابن رشد في برنامجه المنشور في (أرنست رينان: ابن رشد والرشدية، ترجمة عادل زعير ط. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٤٥٦-٤٥٧) ولقد تمكن جمال الدين العلوي من ذكر مائة وثمانية من مؤلفات ابن رشد ، ثم حاول ترتيب الموجود منها حسب زمن التأليف مع تعريف بها في كتابه (المتن الرشدي ، ط . الأولى ، دار توبقال ، الدار البيضاء ١٩٨٦م ، ص ١٤ - ٤٥ ، ٤٩ - ١٢٣) .

☆☆ لمعرفة الذي كُتب بالعربية حديثاً عن ابن رشد حتى حوالي سنة ١٩٧٤م . (انظر صبيح صادق : ما كُتب عن ابن رشد في المراجع العربية الحديثة ، مجلة المورد ، ٣م ، عدد ٢ ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ص ٢٧٧-٢٨٦) . وقد أعطى فكرة موجزة عن كل مرجع ذكره .

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٤ ، ص ٢٩٥ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص ٨٣ .

☆☆☆ الكلاعي : نسبة إلى كلاع الذي هو من ذرية حمير بن سبأ بن يشجب بن قحطان (الأشرف بن رسول : طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ؛ تحقيق ستر ستين ، ط . الثانية ، دار الكلمة ، صنعاء ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ، ص ٥٠ ، ٧٦) .

(٣) ابن فرحون : الدياج المذهب ، ج١ ، ص ٣٨٥ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٤ ، ص ٢٠٣ .

(٥) أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ١٧٨، ١٧٩ ؛ المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٦٦ .

عامين من عمره هاجرت أسرته إلى بلنسية ^(١) الكائنة إلى الشمال من مرسية ^(٢) ، فنشأ بها ^(٣) ، وتعلم على شيوخها ^(٤) ، وأخذ من العلماء الوافدين إليها ^(٥) . ورغبة في زيادة العلم والمعرفة تجول في بلاد الأندلس والمغرب ^(٦) . فارتحل إلى عدد من المدن في شرقي الأندلس وجنوبيها وغربيها، كما رحل إلى سبتة في العدو المغربية ^(٧) ، فكان بها عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م ^(٨) . ومن الملاحظ أن المصادر التي نملكها لا تحدد بالضبط التاريخ الذي ابتدأ فيه جولته تلك ، ولا المدة التي انفقها فيها . وبالنظر إلى الإشارات المتفرقة عن حياة أبي الربيع العلمية نراه قد خرج من بلده بلنسية عام ٥٨٧هـ/١١٩١م ^(٩) ، ومن المؤكد أن خروجه هذا - في سبيل طلب العلم - لم يكن الأول ؛ إذ نراه قد نزل شاطبة عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م ^(١٠) ، كما أنه دخل إشبيلية قبل شوال من عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م ^(١١) ، ودخل

-
- (١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٨٩ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٩ .
 (٢) كريم عجيل حسين : الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ، ص ٦١ .
 (٣) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٩ .
 (٤) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٧٠٨ ؛ المنذري : التكملة لوفيات النقلة ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ١٣٥ .
 (٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٤ ، ص ٨٤ .
 (٦) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٩ .
 (٧) المنذري : التكملة لوفيات النقلة ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ١٣٨ ؛ تذكرة الحفاظ ، ج ٤ ، ص ١٤١٩ .
 (٨) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٨٧٠ .
 (٩) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٧٦ .
 (١٠) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٠٣ .
 (١١) ذاك أن أبا الربيع قد قرأ بها على أبي بكر بن الجدد المتوفى سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م (ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٤ ، ص ٣٠٢) وبالتحديد في شهر شوال من تلك السنة (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٤٣) .

مرسية قبل صفر من عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م^(١) . ومن المقطوع به وجوده في بلده بلنسية عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(٢) . فربما أن خروجه منها لأول مرة كان في هذه السنة الأخيرة أعني ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، أي لما كان له من العمر ثمانية عشر ربيعاً ، فبدأ بمدينة مرسية القرية التي سبق ذكر دخوله لها قبل صفر سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م .

وعلى أي حال بلغ أبو الربيع الإمامة في الحديث ، فأصبح حافظاً له ، بصيراً بطرقه عارفاً بالجرح والتعديل^(٣) ، كما برع في علوم القرآن والتجويد^(٤) وهو بجانب ذلك كاتب بليغ، وشاعر مجيد، وخطيب مفوه^(٥) .

ولقد مر عليه زمن تولى فيه خطة الكتابة في بلنسية* ، وكان ذلك في شببته^(٦) . وفي المدينة ذاتها قُدمَ للقضاء مدة "فسار في أحكامه بأجل مسيرة وأحمد طريقه من العدل والتثبت والفضل"^(٧) . كما أتت عليه

(١) حيث أنه قرأ بها على أبي القاسم بن حُبَيْش المتوفى في صفر من سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م (ابن الخطيب: الإحاطة ، ج٤ ، ص ٣٠٢) .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ٨٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص ٨٤ .
(٣) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٧٠٨ ؛ الرعيي : برنامج شيوخ الرعيي ، تحقيق إبراهيم شبوح ، ط . مديرية إحياء التراث القديم ، دمشق ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م ، ص ٦٦-٦٧ ؛
الكشي: فوات الوفيات ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤م ، ص ٨٠ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢٣ ، ص ١٣٧ ؛ تذكرة الحفاظ ، ج٤ ، ص ١٤١٨ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص ٨٥ .

* ذكر ابن مُسَدَّى أنه "نُـدب لديوان الإنشاء فاستعفى" (الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢٣ ، ص ١٣٧ ؛ تذكرة الحفاظ ، ج٤ ، ص ١٤١٨) .

(٦) ابن الأبار : إعتب لكب ، تحقق صالح الأشر ، ط . مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م ص ٢٤٩ .
* ترجع الباحثة ثرياً هي أن شغله لمنصب الكتابة في بلنسية كان قبل سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م التي كان فيها منفياً عن تلك المدينة (أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي "حياته وآثاره" ، ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ص ١٠٩) .

(٧) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٩ .

أوقات اعتلى فيها منبر الخطابة بمسجدها الجامع ^(١) .

ظل أبو الربيع الكلاعي يؤدي مهمته العلمية من إسماع للطلاب المتكاثرين على دروسه ^(٢) ☆ ، وتصنيف للمؤلفات المختلفة الفنون ^(٣) . إلى أن فُقدَ في قتال النصارى في ذي الحجة من سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م ^(٤) . ولأبي الربيع عدد كبير من المصنفات ، سجل عناوين معظمها بخط يده قبل وفاته في رسالة له لأحد طلابه ^(٥) ، وأوردها - فيما بعد - بصورة وافية من كتب عن حياته من تلامذته وغيرهم، منها : مصباح الظلم من حديث رسول الله ﷺ ، وجنى الرطب في سنى الخطب ، الامثال لمثال المبهج في ابتداع الحكم واختراع الأمثال ، وبرنامج مروياته ، وديوان شعره ^(٦) ، وكتاب الإكتفاء في

(١) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٧٠٨ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج١٥ ،

ص ٤٣٣ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٩ ؛ ابن فرحون : الدياج المذهب ، ج١ ، ص ٣٨٥ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص ٨٥ .

☆ حين رثاه أحد تلامذته بعد موته قال متحسراً عليه :

وعن يُخرج طالب العلم الذي ما أعملت إلا إليه ركابه

(البلفيقي : المقتضب من تحفة القاد ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط . الثانية ، مطبعة نهضة مصر ،

القاهرة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص ٢٠٤) .

(٣) مما يدل على استمراره في التأليف حتى وفاته أنه كتب لأحد تلامذته في رجب عام ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م

قائمة بمؤلفاته ، وسأل الله أن يتم كتاباً يولفه في الصحابة وأكابر التابعين (الرعيي : برنامج شيوخ

الرعيي ، ص ٦٧-٦٨) فتوفى قبل أن يتمه (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ،

ص ٨٦) .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٧٠٩ ، البلفيقي : المقتضب من تحفة القاد ،

ص ١٩١ .

(٥) الرعيي : برنامج شيوخ الرعيي ، ص ٦٧-٦٨ .

(٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص ٨٥-٨٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٤ ،

ص ٢٩٦-٢٩٧ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج٤ ، ص ٤٧٥ .

مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء* . وهذا الكتاب الأخير مطبوع .



أما ابن الأبار- الذي عايش بنفسه سقوط قواعد أندلسية كبرى بأيدي النصارى^(١) ، وخف مستصرخاً حكام إفريقية لإنقاذ المسلمين في الأندلس من الهجمة النصرانية الضارية^(٢) - فهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله* ابن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي*^(٣) الشهير بابن الأبار البلسي^(٤) . ولد بمدينة بلنسية^(٥)

☆ وقفت ثرياً لدى عند مؤلفات أبي الربيع ، فعرفت بما استطاعت أن تعثر عليه منها تعريفاً وافياً ، وقد تكلمت أولاً عن مؤلفاته في الأدب ، ثم مؤلفاته في الفقه ، ثم مؤلفاته في التاريخ ، ثم مؤلفاته في الحديث ، ثم شعره ، ثم رسائله (أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي ، ص ١٣٥-٣١٢) .
(١) ابن الأبار : درر السمط في خير السبط ، تحقيق عز الدين موسى ، ط . الأولى ، دار الغرب ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص ١٢ من المقدمة .

(٢) ابن خليل : اختصار القدرح المعلى في التاريخ المحلي لابن سعيد ، تحقيق إبراهيم الأياري ، ط . الثانية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص ١١٩ .

☆☆ سمي ابن سعيد والد ابن الأبار بعبد الرحمن (رايات الميرزين وغايات المميزين ، تحقيق محمد رضوان الداية ، ط . الأولى ، دار طلاس ، دمشق ١٩٨٧م ، ص ٢٠٥) وهذا وهم من ابن سعيد ، فابن الأبار نفسه ترجم لوالده في باب عبد الله (التكملة ، ج ٢ ، ص ٨٨٨) .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٥٣ ؛ الغريبي : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق عادل نويهض ، ط . الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩م ، ص ٣٠٩ .
☆☆ والقضاعي نسبة إلى قضاة التي اختلف النسابون بين مرجعها إلى عدنان أو إلى قحطان (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٤٠) انظر قولاً للسهيلي في سبب هذا الاختلاف (القلقشندي : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق إبراهيم الأياري ، ط . الثانية ، دار الكتب الإسلامية ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ٤٢)

(٤) ابن خليل : اختصار القدرح المعلى ، ص ١١٩ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٧٥ .

في شرقي الأندلس ، وذلك في أحد شهري ربيع عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م^(١).
نشأ أبو عبد الله بن الأبار في بيت والده الذي كان من رجال العلم في
الأندلس^(٢) ، فأشرف ذلك الوالد إشرافاً مباشراً على تربيته وتعليمه ، فكان
يسمعه فنون العلم ، ويأخذه معه إلى منتديات العلماء ، ويختبر بين آونة
وأخرى حفظه^(٣) . وكان هو من طرفه يلتقي بالعلماء في مجلس والده^(٤)
وفي مجالس أخرى^(٥) . وكان يتردد على حلقات الدروس في المساجد^(٦) .
كما سعى للإفادة من العلماء الزائرين لبلمسية^(٧) . ثم إنه جال بعد ذلك في
بلاد الأندلس^(٨) . ففي أثناء حديثه على العلماء الأندلسيين جاء عرضاً ذكر
عدد من المدن التي دخلها مثل دَائِيَّة* وإشبيلية وبطليوس ، ففيما يتعلق
بإشبيلية فقد أفصح عن أخذه من العلماء فيها في عدة مواضع^(٩) ، بل نص

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٨٨٩ ؛ المعجم ، ص ٨١ ، ١٤٤ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٨٨٩ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٩٧ ، ٨٨٢ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٣ ، ج ٢ ، ص ٥٨٧ ، ٥٩٣ ، ٥٩٦ ، ٦٠١ ، ٦٢١ ، ٦٢٧ ؛

الحلة ، ج ٢ ، ص ١٠٢-١٠٣ ؛ المعجم ، ص ١٠٨ ، ١١٢ .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٩٤ .

(٧) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٦ ، ج ٢ ، ص ٥٩٩ ، ٦١١ ، ٧١٤ .

(٨) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٣٣٦ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٣٥٦ ؛

الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٠٤ .

* دَائِيَّة Denia من أعمال كورة بلمسية على ضفة البحر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٣٤)

تقع إلى الجنوب من بلمسية القاعدة (الزهري : الجغرافية ، ص ١٠٣) بينهما مسافة مقدارها خمسة

وستون ميلاً تقريباً (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩٢) وهي الآن بلدة صغيرة عتيقة الطراز في شرقي

إسبانيا (عنان : الآثار الأندلسية ، ص ١٤٦) .

(٩) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١١٧ ، ٢٢٢ ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦١٦ ، ٦١٩ ، ٦٢٣ ، ٦٢٧ ، ٩٤٢ .

على أن توجهه إليها كان في رمضان عام ٦١٦هـ / ١٢١٩م ^(١) وأن صدوره عنها كان أيضاً في رمضان عام ٦١٩هـ / ١٢٢٢م ^(٢) ، وأما بطليوس فقد أكد على وجوده بها في ربيع الأول سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م ^(٣) وفي جمادي الأولى من السنة ذاتها ^(٤) . وبالنسبة لدانية فقد زارها قبل عام ٦١٨هـ / ١٢٢١م ^(٥) .

وبالعودة إلى النصوص المتوافرة لدينا عن سماعه من العلماء في بلده بلنسية نراه موجوداً بها عام ٦١٥هـ / ١٢١٨م ^(٦) ☆ . فلعل خروجه منها في هذا العام عينه ، أي بعد أن أتم عشرين سنة من عمره تقريباً ، فتوجه أولاً إلى دانية غير البعيدة من بلنسية ^(٧) ، وبعدها يعم وجهه شطر إشبيلية التي حدد لنا مسيره إليها - كما مر - في رمضان سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م وغير بعيد أنه خرج من إشبيلية - التي نراه فيها حتى جمادي الآخر من عام ٦١٨هـ / ١٢٢١م ^(٨) - إلى بطليوس التي نبأنا بمقامه بها في ربيع الأول

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ١١١ ، ١١٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج١ ، ص ١١٣ .

(٣) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٨٩٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٤ ، ص ١٨٠ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ٣٣٩ .

(٥) ذاك أنه لقي أحد العلماء فيها ، وقد توفي هذا العالم عام ٦١٨هـ / ١٢٢١م (ابن الأبار : التكملة ، ج٢ ، ص ٦٠٧) .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ٢٧١ .

☆ وانظر تصريحه بوجوده في بلنسية قبل سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م في (ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ٣١٧ ، ج٢ ، ص ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦١١) .

(٧) ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ١٦ .

(٨) عرفنا وجوده بها حتى ذلك التاريخ لأنه حضر جنازة أحد علماء إشبيلية المتوفي في السنة المذكورة أعلاه (ابن الأبار : التكملة ، ج٢ ، ص ٦٠٦) وقد كانت وفاة ذلك العالم في شهر جمادي الأولى من تلك السنة (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٤٠٦) .

وجمادي الأولى من سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م - كما سبق - ، وعند نكوصه منها مر على إشبيلية فكان رحيله من هذه المدينة في رمضان من سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م مثلما أخبرنا هو عن نفسه . فعاد إلى موطنه بلنسية ، ومن ثم نجده مستقراً بها عام ٦٢١هـ / ١٢٢٤م^(١) .

ولقد شغل ابن الأبار خطة الكتابة في مدينة بلنسية^(٢) ، فلما لجأ إليها أبو زيد بن أبي عبد الله الموحدى* إلى نصارى أرغون بعد أن غلبه على بلنسية أبو جُمَيْل زيان بن مردنيش** في صفر سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م^(٣) ، صحبه ابن الأبار إلى هناك ، ولكنه سرعان ما عاد إلى بلاد الإسلام^(٤) ، فكان

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ٢٤٤ ، ١٦٨ .

(٢) ابن خلدون : العمر ، ج٦ ، ص ٤١٨ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج٣ ، ص ٢٠٥ ، نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٥٨٩ - ٥٩٠ .

* وأبو زيد هو عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن بن علي (ابن سعيد : المغرب ، ج٢ ، ص ٣٠٣ ؛ ابن خلدون : العمر ، ج٤ ، ص ٢١٤ ، ٢١٦) وقد ولي حكم بلنسية عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م (ابن خلدون : العمر ، ج٤ ، ص ٢١٤) ولم يعيش إلا يسيراً بعد لجوئه إلى النصارى (ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٨٩) وانظر تعقيماً على بعض المؤرخين الذين تعرضوا لحياته في (محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ، ط . المركز الجامعي للبحث العلمي بجامعة محمد الخامس ، ١٩٦٦م ، ص ٩٠ حاشية ١) .

** وأبو جُمَيْل هو زيان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش ، فجده أبو الحجاج يوسف هو أخو محمد بن سعد بن مردنيش المعارض للموحدين ، وكان قد انشق على أخيه ودخل في طاعة الموحدين ، فولوه بلنسية وجهاتها حتى وفاته . وأما والده مدافع فقد مات شاباً في إحدى المعارك مع النصارى (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٧١-٢٧٢) قال أمر أبي جميل زيان إلى أن أصبح من بطانة والي بلنسية الموحدى أبي زيد إلى أن انتقض عليه سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م (ابن خلدون : العمر ، ج٤ ، ص ٢١٤) .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٤) ابن خلدون : العمر ، ج٦ ، ص ٤١٨ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج٣ ، ص ٢٠٥ ، وانظر جمعة شيخة : القيمة الوثائقية لديوان ابن الأبار ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٢ ، ذو القعدة ١٤٠٩هـ ، ص ٤١-٤٣ .

في إشبيلية في رمضان عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م^(١)، فقدم شاطبة وأقام بها أياماً^(٢)، ثم قصد - فيما يبدو - بلده بلنسية^(٣). وبعد ذلك كلف بقضاء دانية عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م، بيد أنه لم يلبث أن استعفى منه فأعفي^(٤)، فأصبح -بعدها- من كتاب أبي جميل زيان صاحب بلنسية^(٥). وعقب سقوط بلنسية بأيدي النصاري صفر عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م أثر ابن الأبار استيطان إفريقية^(٦)، وقد انتهت حياته فيها بالقتل في محرم عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م^(٧).

كان ابن الأبار "محدثاً كثيراً... ذاكراً للتواريخ على تباين أغراضها، مستبحراً في علوم اللسان نحواً ولغة وأدباً، كاتباً بليغاً، شاعراً مفلحاً مجيداً"^(٨)، اهتم بالتأليف، فكتب مصنفات أربت عن الخمسين^(٩)، وقد تركزت في

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج٢ ، ص ٦٤٣ ، ٦٢٩ . وقد كان في مدينة وادي آش في شوال من العام نفسه ٦٢٦هـ/١٢٢٩م (المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٥٠) .

(٢) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦٢٩ .

(٣) ذاك أنه لما أقام بشاطبة أياماً أسمع أحد أقرانه المسمى محمد بن إسماعيل بن حميس الجمحي والتوفي عام ٦٢٩هـ/١٢٣١م بعض شعره ، ثم صرح بأنه سمع هو من محمد المذكور بعد صحبة تمت بينهما في بلنسية (ابن الأبار : التكملة ، ج٢ ، ص ٦٢٩ ؛ وانظر ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ١٢٨) وهذا يعني أن ابن الأبار قد دخل بلنسية وعاش بها قبل عام ٦٢٩هـ/١٢٣١م .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ج٢ ، ص ٩٠٠ ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٦٠٦ .

(٥) ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٤١٨ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج٣ ، ص ٢٠٥ ؛ نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٥٩٠ .

(٦) ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٣٨٨ ، ٤١٨ ، الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٨ .

(٧) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٧٥ ؛ الكشي : فوات الوفيات ، ج٣ ، ص ٤٠٥ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٤١٩ ؛ الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٣٥-٣٦ .

(٨) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٥٨ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٢٥٩ .

أربعة فنون رئيسة ، هي : الحديث والتراجم والتاريخ والأدب ^(١) ، ومن هذه المصنفات نذكر : المورد السلسل في حديث الرحمة المسلسل ، الأربعون حديثاً ... ^(٢) ، درر السمط في أخبار السبط* ، التكملة لكتاب الصلة ، المعجم في أصحاب الإمام أبي علي الصديقي، الحلة السيرة في أشعار الأمراء** ، وإعتاب الكتاب وديوان شعره . وهذه الستة الأخيرة جميعها قد طبعت .



وهكذا عرضنا بإيجاز مركز سير حياة سبعة من أعلام علماء الأندلس سنراهم في الفصول القادمة على رأس المشاركين في الصراع مع النصارى في زمن المرابطين والموحدين . وبجانب هؤلاء سنتعرف - إن شاء الله - على حشد كبير من إخوانهم العلماء وطلبة العلم الذين أسهموا معهم في الميادين المختلفة لذلك الصراع ، وذلك حينما تمر أسمائهم في تضاعيف هذا الكتاب .

(١) رشاد الإمام : ابن الأبار وعصره في تونس ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٢ ، ذو القعدة ١٤٠٩ هـ ، ص ٢٨ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٥٨ .
 ✧ يقول الذهبي : " ولقد رأيت لأبي عبد الله الأبار جزءاً سماه (درر السمط في خير السبط عليه السلام) يعني الحسين بإنشاء بديع يدل على تشيع فيه ظاهر ، لأنه يصف علياً عليه السلام بالوصي ، وينال من معاوية وآله ، وأيضاً رأيت له أوهاماً في تيك الأربعين ... " (سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٣٣٨) .
 ✧ هكذا جاء عنوانه في بعض المصادر (الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٣٥٦ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٩٢) وجاء عنوانه في مصادر أخرى بصيغة : الحلة السيرة في شعراء الأمراء (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٥٩) ومن المستغرب أن حسين مؤنس لجأ إلى الحدس لإضافة الكلمتين الأخيرتين من العنوان رغم أن المصادر نصت عليهما كما هو مشاهد (ابن الأبار : الحلة ، ج ١ ، ص ٥١ من الدراسة) .

ثانياً : المنزلة العلمية للعلماء المشاركين في الصراع مع النصاري :

لا مرء أن رجال العلم المشاركين في مجابهة النصاري في عصر المرابطين والموحدين لم يكونوا كلهم على درجة واحدة في العلم ، ولا في مستوى متقارب من الثقافة ، فثمة تفاوت بينهم - كغيرهم من الناس - في مداركهم العقلية ، وفي مقادير ما تهيأ لهم من علوم ومعارف ، ففيهم الكبير والصغير ، والعالم والمتعلم ، والمجتهد والمقتصد ، لكن نقرأ من هؤلاء بلغوا في زمنهم منزلة علمية سامقة بزوا فيها غيرهم ، وتفوقوا على من سواهم . ولقد كان لتلك المنزلة العلمية التي بلغوها مظاهر مختلفة يمكن رصدها خلال التأمل في تراجم حياتهم ، والنظر في تراثهم . ولعلنا نكتفي بإيراد أمثلة على تلك المظاهر ، مراعين - بقدر الطاقة - أن تكون أمثلة شاملة لعصر الدراسة بأسره .

فمن خلال كلام مَنْ كتب عنهم - سواء ما جاء على لسان من عرفهم عن كتب ممن عايشهم ، واختلف إلى حلقات دروسهم ، وتردد على مجالسهم أو ممن عُنِيَ بأخبارهم وهو ليس ببعيد عن الفترة التي ينتمون إليها - من خلال كلام هؤلاء يتجلى مقامهم العلمي بين معاصريهم . فأبو علي الصدي (ت ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م) وُصف بأنه من العلماء العاملين ^(١) ، وأنه من أجل شيوخ العصر ^(٢) ، وقد حلي اسمه بالفقيه الإمام الحافظ ^(٣) ، و " القاضي العدل الحافظ " ^(٤) ، فكان " علماً يناصي الأعلام " ، كما عده بعض الذين

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص ١٤٥ .

(٢) عياض : الغنية ، ص ١٩٤ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص ١٤٥ .

(٣) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ٩٩ .

(٤) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج٣ ، ص ١٥٢٢ .

ترجموا له ^(١) . أما ابن رشد الجد (ت ٥٢٠ هـ / ١٢٦ م) فقد عُرف بـ " الإمام العلامة " ^(٢) ، وقال عنه أحد تلامذته " طود علم ، وإنسان فضل وحلم ، وكوكب ذكاء وفهم ، وواحد جلاله وديانة ، وفذ رجاحة وأمانة " ^(٣) . ولقد نعت أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) على لسان أحد تلاميذه بـ " الإمام العالم المستبحر " ^(٤) ، وقال عنه في موضع آخر : " الإمام ... المحدث المتقن الحافظ " ^(٥) ، وبالعالم أديب معاصر له في وصفه بقوله عنه : " الفقيه الأجل الحافظ ... علم الأعلام " ^(٦) ، " الظاهر على الأتراب ، الباهر الألباب " ^(٧) . وكذلك فإن أبا عمر ابن عات النفزي* الذي لقي حتفه في جهاد النصارى عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م ^(٨) قد وُشي اسمه بـ " الإمام الحافظ البار " ^(٩) ،

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٥٠١ .

(٣) ابن رشد : فتاوي ابن رشد ، ج ٣ ، ص ١٥٢٥ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٩٠ .

(٥) ابن العربي : عارضة الأحوذى ، ج ١ ، ص ٢ .

(٦) ابن خاقان : مطمح الأنفس ، ص ٢٩٧ .

(٧) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٣ ، ص ٦٩٢ .

* هو أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزي (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١٠١)

نسبة إلى نفزة إحدى قبائل البربر الذين يرجعون في أصولهم إلى البتر (مجهول : نبذ تاريخية ، ص ٧٦)

وهو من أهل مدينة شاطبة ، وكان مولده في شوال عام ٥٤٢ هـ / ١١٤٨ ، وقد أخذ العلم عن علماء بلده

الأندلس وعن علماء المشرق لما رحل إليهم وأدى فريضة الحج ، وله عدد من المؤلفات منها : النزهة في

التعريف بشيوخ الجهة ، وريحانة النفس وراحة الأنفس في ذكر شيوخ الأندلس (ابن الأبار : التكملة ،

ج ١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل التكملة ، س ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٦ - ٥٦٢) .

(٨) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٩) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ١٣ .

و"الحافظ الإمام الثقة" ^(١) فهو "أحد الحفاظ للحديث" ^(٢) بل "من أكابر المحدثين الجللة الحفاظ المسندين للحديث والآداب بلا مدافعة" ^(٣) . وأبو الربيع الكلاعي (ت ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م) جاءت أقوال معاصريه مبينة فضله العلمي. يمثل قول بعضهم عنه "بقية الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقي" ^(٤) ، وقول آخر "أجل من كان بقي من الأعلام الأكابر" ^(٥) ، ولما عرض له ابن سعيد ^(٦) قال عنه "من ... أعلام العلماء المشهورين في عصرنا" ، وصور حاله أحد الذين التقوا به بقوله "لم ألق مثله جلاله ونبلاً ، ورياسة وفضلاً ، كان إماماً مبرزاً في فنون من منقول ومعقول ، ومنتشور وموزون" ^(٧) .

ومن ناحية أخرى فإن عدداً من أهل العلم المسهمين في جهاد النصاري أيام المرابطين والموحدين كانوا قد تربعوا على كرسي الصدارة العلمية في العلوم والمعارف التي تخصصوا فيها ، بحيث صار الواحد منهم في مجال تخصصه مرجعاً علمياً لعلماء زمانه ، يعتمدون أقواله ، ويفضلون آراءه ، يأخذون بفتاويه ، ويهرعون إليه فيما أشكل عليهم من مسائل ، ويحكمونه

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٤ ، ص ١٣٨٩ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ١٠١ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل التكملة ، س١ ، ق٢ ، ص ٥٦٠ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج١ ، ص ٢٣٢ ؛ وانظر : المقرئ : نقح الطيب ، ج٢ ، ص ٦٠٢ .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل التكملة ، س٤ ، ص ٨٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٤ ، ص ٢٩٥ .

(٥) الرعيي : برنامج شيوخ الرعيي ، ص ٦٧ .

(٦) المغرب ، ج٢ ، ص ٣١٦ .

(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢٣ ، ص ١٣٧ .

فيما شجر بينهم من اختلاف . فأبو علي الصدي (ت ٥١٤هـ / ١١٢٠م)
 " كان عارفاً بالحديث ، قائماً به ، حافظاً لأسماء الرجال ، عارفاً بقويهم
 وضعيفهم " ^(١) ، ولذا " حاز الرياسة في هذا الفن " ^(٢) بل انفرد - وهو في
 الرابعة والأربعين من عمره تقريباً* - " بالإمامة في الحديث بالأندلس " ^(٣) ،
 فصار في وقته " إمام المحدثين بالأندلس " ^(٤) . وهذا ابن رشد الجدل المتوفى سنة
 ٥٢٠هـ / ١١٢٦م " كان حافظاً للفقهاء ، مقدماً فيه على أهل عصره " ^(٥) ، فهو
 " أفقه أهل الأندلس في وقته " ^(٦) ، بل غدا " زعيم فقهاء وقته بأقطار الإندلس
 والمغرب ومقدمهم " ^(٧) ، فاستحق لقب " شيخ المالكية " ^(٨) ، ولذا " كان إليه
 المفزع في المشكلات " ^(٩) ، فكانت الاستفسارات العلمية والاجتماعية
 وغيرها تصل إليه في قرطبة للإجابة عنها سواء من قبل علماء الأندلس ^(١٠) ،

(١) عياض : الغنية ، ص ١٩٤ .

(٢) عياض : ترتيب المدارك ، ج ٨ ، ص ١٩٤ (الملاحق ، مختصر المدارك لابن حمادة تلميذ القاضي
 عياض) .

* عرفنا أنه كان في الرابعة والأربعين من عمره لما انفرد بإمامة الحديث ، لأن انفراده بها حدث بعد وفاة
 أبي علي الغساني سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٥م (ابن الأبار : المعجم ، ص ٨٠) ومولده - كما سبق - عام
 ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ٧٩ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣١٠ .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ .

(٦) الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث سنة ٥٢٠هـ) ، ص ٤٤٤ .

(٧) عياض : الغنية ، ص ١٢٢ .

(٨) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٥٠١ ، ج ٢١ ، ص ٣٠٧ .

(٩) عياض : الغنية ، ص ١٢٢ .

(١٠) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ١ ، ص ١٤١ ، ١٦٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٣٢٥ ،

٣٤٩ ، ٥٦١ ، ٥٦٧ ، ج ٢ ، ص ٨٧٣ .

أو من طرف علماء المغرب^(١) ، أو من جانب حكام ذلك الزمان وولاتهم^(٢) ؛ فضلاً عن ورودها إليه من عامة أهل الأندلس والمغرب^(٣) . ومن الناس من قدم إلى قرطبة من بعض مدن الأندلس لطرح الأسئلة عليه كفاحاً^(٤) . وأبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) ممن انتهت إليه رئاسة علم المالكية عقب وفاة ابن رشد الجد^(٥) ، فكان "عالم أهل الأندلس وسندهم"^(٦) ، بل صار "إمام وقته"^(٧) فكان أحد الذين بلغوا "رتبة الاجتهاد"^(٨) . وابن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) قيل عنه إنه كان في عصره "أوحد في علم الفقه والخلاف ... متميزاً في علم الطب"^(٩) ، فكان "يفزع إلى فتواه في الطب ، كما يفزع إلى فتواه في الفقه"^(١٠) كما حاز رئاسة الفلسفة في وقته^(١١) "فكانت له فيها الإمامة دون أهل

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج١ ، ص ١٧٥ ، ٢٦٢ ، ج٣ ، ص ١٤٦٢ ، ١٤٧٥ .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج٢ ، ص ٨٠٢ ، ١٠١٥ ، ١٠٢١ ، ١٠٦٠ ، ١٢٢٣ ، ١٤٢٣ ؛ وانظر : إحسان عباس : نوازل ابن رشد ، مجلة الأبحاث ، الجامعة الأمريكية ببيروت ، ١٩٦٩م ، السنة ٢٢ ، ج٣ و ٤ ، ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ .

(٣) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج١ ، ص ٦٢٩ ، ج٢ ، ص ٧٤٠ ، وانظر : ص ٦١ من مقدمة المحقق (٤) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج٢ ، ص ١٢٦٠ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص ١٧٠ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج١ ، ص ١٨٥ .

(٦) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ١٤١ .

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق فهد محمد شلتوت ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١م ، ج٥ ، ص ٣٠٢ .

(٨) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢ ، ص ٢٠١ ؛ السيوطي : طبقات المفسرين ، ص ٩١ ؛ الداودي : طبقات المفسرين ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ج٢ ، ص ١٦٩ .

(٩) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج٣ ، ص ١٢٢ .

(١٠) ابن الأبار : التكملة ، ج٢ ، ص ٥٥٤ .

(١١) ابن سعيد : المغرب ، ج١ ، ص ١٠٤ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢١ ، ص ٣٠٧ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج٣ ، ص ١٨٥ .

عصره " ^(١) . وهذا أبو الربيع الكلاعي (ت ٦٣٤هـ / ١٢٥٩م) آلت إليه الإمامة في علم الحديث في زمنه ، فتصدر علماء عصره في هذا العلم وما يتصل به من فنون ، فكان حسب وصف أحد تلاميذه " إماماً في صناعة الحديث ، بصيراً به ، حافظاً حافلاً عارفاً بالجرح والتعديل ، ذا كراً للمواليد والوفيات ، يتقدم أهل زمانه في ذلك وفي حفظ أسماء الرجال خصوصاً من تأخر زمانه وعصره " ^(٢) .

ولقد وصل فريق من العلماء المشاركين في مجابهة النصارى في زمن المرابطين والموحدين إلى خطط شريفة في الأندلس لا يصل إليها إلا من كان علمه يؤهله للقيام بشؤونها ، كخطة القضاء في الحواضر خاصة ، وخطة الصلاة والخطبة في جوامع تلك الحواضر ، فبالنسبة للقضاء فقد كان في الأندلس " عند الكافة من أسنى الخطط " ^(٣) ، ولا سبيل إلى تسمي أحد من العلماء الأندلسيين باسم قاضي إلا حين يتقلد القضاء في مدينة كبيرة ^(٤) ، وقبل ذلك - وهذا هو الأهم فيما نحن بصدده - أنه لا يستقضى إلا إذا توفرت فيه شروط على رأسها " علمه بالسنة والآثار ووجه الفقه " ^(٥) . أما خطة الصلاة والخطبة فكانت أحياناً تلحق بالقضاء ، فيكون القاضي هو صاحب الصلاة والخطبة في موضعه ^(٦) . وتارة تبقى تلك الخطة مفصولة عن القضاء فيتولاها - حينئذ - أحد العلماء

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٧٠٨ .

(٣) النباهي : المرقبة العليا ، ص ٢ .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢١٨ .

(٥) النباهي : المرقبة العليا ، ص ٢٠ .

(٦) انظر مثلاً : ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٨٦ .

المرزبن^(١) . فمن الذين وصلوا إلى خطة القضاء في الحواضر الأندلسية من العلماء المجاهدين للنصارى في فترة الدراسة - غير من عرفنا بهم سلفاً ، وأوماناً إلى تقلدهم هذه الخطة فقط أو خطة الصلاة والخطابة أو كليهما معاً - نذكر أبا عبد الله بن حمدين* (ت ٥٠٨هـ / ١١١٤هـ) الذي ظل في منصب قاضي الجماعة في قرطبة - وهو من المناصب القضائية العليا في دولة المرابطين^(٢) - حوالي ثماني عشرة سنة^(٣) . وأبا عبد الله ابن الفراء** (ت ٥١٤هـ / ١١٢٠م) الذي ولي القضاء في مدينة

(١) يتضح ذلك لمن تأمل تقويم كتب الرجال الأندلسية للعلماء الذين شغلوا مثل هذه الخطة في عصر الدراسة . انظر (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٥١ ، ٥٥ ، ٩٢ ، ج ٢ ، ص ٥١٩ ، ٥٣٥ ، ٦٠٢ ؛ المعجم ، ص ٢٩٥ ، ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٤ ، ص ١٩٥ ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ١٢ ، ق ٢ ، ص ٤٩٣ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٥) ومما يدل على أن إسناد تلك الخطة لا يكون إلا للمرزبن من العلماء كون أحد رجال العلم استصغر نفسه عن القيام بها في جامع غرناطة رغم أنه يعد من كبار العلماء (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٨٤) .

✽ وابن حمدين هو محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي ، ولد عام ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م ، وكان حافظاً ذكياً أديباً شاعراً لغوياً أصولياً . ولي قضاء الجماعة بقرطبة عام ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م حتى وفاته سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م . انظر أخباره في (ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ١١١ ؛ عياض : الغنية ، ص ١١٦-١١٧ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٠ ؛ الضبي : بغية الملتبس ، ص ١١٣ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧٣-٧٤) ، أما عن مشاركته في الجهاد فانظر (ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧٠) .

(٢) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ط . الأولى ، دار السلمي ، الدار البيضاء ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م ، ج ١ ، ص ٢١٦ ؛ حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣٦٧ .

(٣) عياض : الغنية ، ص ١١٦ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٠ .

✽ وابن الفراء هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن زكريا ، كان من أهل الفقه والفضل والزهد والورع (ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٢ ؛ الضبي : بغية الملتبس ، ص ١٤٦) وقد خرج لمحاربة النصاري فقتل في عام ٥١٤هـ / ١١٢٠م (ابن الأبار : المعجم ، ص ٤) .

مدينة المريّة^(١) ، وإبراهيم بن أحمد الأنصاري* (ت ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) الذي تنقل في ولاية القضاء بجهات شتى ، كانت جزيرة ميورقة آخرها^(٢). أما الذين خولهم علمهم للقيام بالصلاة والخطابة في حواضر الأندلس من العلماء المجاهدين فنشير إلى علي بن عبد الله الأنصاري الخزرجي** (ت ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م) الذي ولي الصلاة والخطبة بجامع غرناطة^(٣). ومحمد بن حسن الأنصاري*** (ت ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) الذي أسندت إليه الصلاة والخطبة في جامع مدينة مالقة^(٤)

(١) ابن بشكوال : الصلاة ، ج ٢ ، ص ٥٧٢ ؛ الضبي : بغية الملتبس ، ص ١٤٦ .
* والأنصاري هذا هو إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري ، واشتهر بالغرناطي ، كان أديباً ، عارفاً بالفقه حافظاً له ، قتل عام ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م في جهاد النصارى (النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٦-١١٧) .

(٢) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٦ .
* أبو الحسن علي بن عبد الله بن ثابت بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي من ذرية عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، كانت له رحلة إلى الحج في سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م ، وكان من جلة المقرئين المجودين ، ذا حظ وافر من رواية الحديث ، وكان أيضاً من الفقهاء ، توفي في ذي حجة عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م (الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤٢٣-٤٢٤ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٦٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٢٢٠-٢٢٥ ؛ ابن الزبير : صلة الصلاة ص ٨٦-٨٧ ؛ ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ، نشر ج . برجستراسر ، ط . الثالثة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ج ١ ، ص ٥٥٢-٥٥٣) .
انظر مشاركته في جهاد النصارى في : ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٢٢٢) .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٩٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٢٢٢ .
* أبو عبد الله محمد بن حسن بن محمد الأنصاري يعرف بابن صاحب الصلاة وأيضاً بابن الحاج ، له رحلة إلى المشرق ، وكان فقيهاً حافظاً ، محدثاً ضابطاً ، مقرئاً متفتناً ، وقد قتل في جهاد النصارى عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٨٥ ، ابن عبد الملك المراكشي : الذيل

والتكملة ، س ٦ ، ص ١٦٦-١٦٨ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٥) .

(٤) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٥ .

وعبد الملك بن إبراهيم العبدري* (ت ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م) الذي خطب بجامع بلده ميورقة نحو عشرين عاماً^(١).

ولقد كان عدد من العلماء الذين جاهدوا النصارى في عصر البحث - أينما حلوا - مثابة للمتعلمين ، ومقصداً للمتطلعين إلى التفقه في الدين ، أو الاستفادة من علم بعضهم المتسع إلى سائر فنون العلم والمعرفة الشائعة في ذلك الحين ، فترى طلاب العلم يتثالون عليهم - بكثرة - من كل مكان ، ويزدحمون على حلقات دروسهم ، ويواظبون على حضور محاضراتهم . من ذلك أن الإقبال على دروس أبي علي الصدي (ت ٥١٤هـ / ١١٢٠م) كان كبيراً من جانب الطلاب - وهو لم يصل بعد إلى بلده الأندلس من رحلته الشرقية ، فعند حلوله في سبتة بالمغرب لازمه الناس في جامعها ليلاً ونهاراً لسماع أحد كتب الحديث التي كانت تقرأ عليه ، فكانوا - من حرصهم على ملازمته - يبيتون بمقصورة الجامع إلى أن كملت قراءة ذلك الكتاب^(٢). ولما وصل إلى مرسية في الأندلس اعتزت بوجوده فيها ، وصارت رتبها عالية بين المدن ، فاحتشد أهلها للدراسة عليه ، وتنافس كبرائهم في الأخذ عنه^(٣). وقد اغتتم أهل المرية إقامته عندهم سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م حين فر من قضاء مرسية " فسمعوا في تلك المدة عنه سماعاً كثيراً "^(٤) ، ومن

* أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن هارون العبدري ، كان مقرئاً مجوداً ، مشاركاً في العربية ، قتل في حرب مع النصارى سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٢٠ ،

ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ١٢)

(١) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٢٠ .

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٣ - ٥٤ ، ١٠٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٣-٢٤٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

ناحية أخرى كان أبو علي محط أنظار دابة العلم في الأندلس قاطبة ، ولذا " رحل الناس من البلدان إليه ، وكثر سماعهم عليه " (١) ، " وكثر الأخذ عنه " (٢) حتى أن بعض شيوخه الذين كان قد تعلم على أيديهم قبلاً هبوا يأخذون ، ويكتبون رواياته ، فصار بذلك شيخاً لهم (٣) . كما أن بعض أبناء حكام زمانه لازموه ، وسمعوا منه كثيراً (٤) . ولقد استقطب - أيضاً - ابن رشد الجلد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦هـ) جموع طلاب العلم وبخاصة في مجال الفقه الذي كان مبرزاً فيه ، فتوافدوا عليه من كل ناحية لينهلوا من علمه (٥) ، وقد صور القاضي عياض (٦) (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م) ما لقيه شيخه ابن رشد من قبول لدى الأندلسيين بعارة وجيزة فقال " وإليه كانت الرحلة للتفقه من أقطار الأندلس إلى أن توفي " . وكذلك أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) لما انكفأ من رحلته المشرقية إلى بلده إشبيلية كانت " النفوس إليه متطلعة ، ولأنبائه متسمعة " (٧) ، فتقاطر الطلاب على دروسه من كل حذب وصوب ، حيث " رُحِلَ إليه للسمع " كما يقول أحد تلامذته (٨) ، فحفلت حلقاته العلمية - سواء في إشبيلية أو في قرطبة عند إقامته فيها فترة من الزمن -

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص ١٤٥ .

(٢) عياض : الغنية ، ص ١٩٤ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ١ ، ٨٠ ، ٨١ .

(٤) ابن الأبار : المعجم ، ص ٣١٢ .

(٥) ابن رشد : البيان والتحصيل ، ج١ ، ص ١٦ ؛ وانظر : المختار التليلي : ابن رشد ، ص ٢٣١ - ٢٣٣ .

(٦) الغنية ، ص ١٢٣ ؛ وانظر : ابن فرحون : الدياج المذهب ، ج٢ ، ص ٢٤٩ .

(٧) ابن خاقان : مطمح الأنفس ، ص ٢٩٨ ؛ وانظر : قلائد العقيان ، ق ٣ ، ص ٦٩٣ .

(٨) عياض : الغنية ، ص ١٣٥ .

بطلاب العلم الذين رحلوا إليه من أنحاء الأندلس والمغرب ^(١) ، فكانت بعض مجالسه لا تكاد تنقطع في الليل دء عنك النهار ^(٢) . والمتوقع أن أبا الريع الكلاعي (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) كان يلقي دروسه في جامع بلنسية ^(٣) فكانت الرحلة إليه في عصره ^(٤) ، حيث أن طلاب العلم - من أماكن مختلفة - ^(٥) كانوا يتنافسون في الأخذ عنه ^(٦) .

ولقد وفق نفر من العلماء الأندلسيين المجاهدين للنصارى إبان حكم المرابطين والموحدين - لكتابة مؤلفات - داخل إطار اهتماماتهم - تميزت بعمق الفكرة ، وقوة الحجة ، وسلامة الترتيب ، وجودة التصنيف ، وحسن العرض ، وتحقيق الغرض ، مما جعلها تروج بين الناس في زمانهم ، فتسمو - وقتئذٍ - ربتهم ، وتعلو منزلتهم . ودونك بعض الأقوال المتفرقة لطائفة ممن ترجموا لهؤلاء العلماء - وكانوا قد عاشوا في عصرهم أو بعده بقليل - ، قوموا فيها - عن دراية ومعرفة - بعض تلك المؤلفات ، ومدى ذبوعها بين معاصريها . فقد قال أحد المعاصرين لابن رشد الجء (ت ٥٢٠هـ / ١٢٦١م) عن كتابه " البيان والتحصيل " إنه " تأليف لم يسبق أحد من

(١) ابن العربي : الناسخ والمنسوخ ، ج١ ، ص ٢٦ ، ١٣٥-١٩٠ من دراسة المحقق .

(٢) الضبي : بغية الملتبس ، ص ٩٤ .

(٣) حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ١٠٨ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٧٠٩ .

(٥) يفهم هذا من استعراض أسماء مَنْ درسوا على يديه . انظر (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٤ ، ص ٨٤-٨٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٤ ، ص ٢٩٦) وكذلك ممن ذكروا أنهم التقوا به وهم ليسوا من أهل بلنسية (الرعيي : برنامج شيوخ الرعيي ، ص ٦٧ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢٣ ، ص ١٣٧) .

(٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٤ ، ص ٨٥ .

العلماء إلى مثله " (١) . وقال آخر عن كتابه " المقدمات " بأنه " مقدمات في الفقه فسر فيها مذهب مالك - رحمه الله - بأبلغ حجة وأوضح معنى " (٢) . وعن كتاب " المحرر الوجيز ... " لابن عطية (ت ٥٤١هـ / ١١٤٧م) قال عنه معاصر لمؤلفه " لم يوضع مثله ألبتة " (٣) ، وقال معاصر - أيضاً - بعد أن وصفه بالضخامة إنه " أربى على كل متقدم " (٤) ، ووصفه ابن الأبار (٥) بأنه " جليل الفائدة ، كتبه الناس كثيراً " . وقال آخر " أحسن فيه وأبدع ، وطار بحسن نيته كل مطار " (٦) . وقيل عن كتاب أبي محمد الرشاطي* (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م) الموسوم بـ " اقتباس الأنوار والتماس

(١) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٧٤ حيث نقل كلام ابن الصيرفي المتوفي سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م صاحب كتاب " الأنوار الجلية في محاسن الدولة المرابطية " .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٧٤ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص ٣٨٦ رقم ١ من هامش الأصل والقائل هو أبو العباس بن مطاوع .

(٤) الضبي : البغية ، ص ٣٨٩ والقائل أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد شيخ الضبي .

(٥) المعجم ، ص ٢٧٢ .

(٦) ابن فرحون : الديباج ، ج٢ ، ص ٨٥ ؛ الداودي : طبقات المفسرين ، ج١ ، ص ٢٦٦ .

* والرشاطي هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن علي بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمي ، ولد بأوريولة في جمادى الآخرة عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م ، ثم نقل صغيراً إلى المرية فسكنها وعُد من أهلها ، له عناية كبيرة بالحديث والرجال والتواريخ ، وقد ترك عدداً من المؤلفات منها : اقتباس الأنوار ، والإعلام بما في كتاب المؤلف والمختلف للدارقطني من الأوهام . وقد قتل في جهاد النصارى (ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص ٢٩٧ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٤٥ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٢٧-٢٣٣ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، تحقيق عبد السلام المهراس وسعيد أعراب ، ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ق ٣ ، ١٠١ - ١٠٢ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٠ ، ص ٢٥٨-٢٦٠) ولمعرفة سبب تلقيبه بالرشاطي انظر (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٧٩ ، الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق علي شيري ، ط . دار الفكر ، بيروت ١٩٩٤م ، ج ١٠ ، ص ٢٦٣) .

الأزهار في أسماء الصحابة ورواة الأخبار " (١) " لم يسبق إلى مثله ، واستعمله الناس " (٢) . وفي كتابات ابن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) في مجال التفسير قال أحدهم لما عرض لترجمته " وفسر القرآن المجيد ، فأتى بكل بديع " (٣) . وأما كتاب " بداية المجتهد ونهاية المقتصد " لابن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) فقد قيل عنه " لا يُعلم في زمنه أنفع منه ، ولا أحسن مساقاً " (٤) .

وهكذا حسب العرض المنقضي - آنفاً - قدمنا لوحة متعددة الصور حكمت المنزلة العلمية التي كان يتمتع بها جماعة العلماء الأندلسيين المشاركين في الصراع ضد النصارى إبان عصر سيطرة المرابطين والموحدين على الأندلس .



(١) نُشِرَ لإميليو مولينا وخايننتو بوسك بيلا ما يخص الأندلس من هذا الكتاب ومعه أيضاً ما يخص الأندلس من مختصره لابن الخراط (ت ٥٨١هـ / ١١٨٦م) تحت عنوان " الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار " ، ط. المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربي ، مدريد ، ١٩٩٠م .

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٢٢ . وانظر ما قاله - أيضاً - الضبي : بغية الملتبس ، ص ٣٤٩ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٠ ، ص ١٩٩ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ . وانظر : ابن فرحون : الدياج ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

ثالثاً : المنزلة الاجتماعية للعلماء المشاركين في الصراع مع النصارى :

إن المجتمع الإسلامي - بمختلف فئاته - ينظر إلى العلماء نظرة نابعة بالدرجة الأولى - مما أصَّله الإسلام في النفوس من مكانة ، وما صنعه لهم في القلوب من مهابة ، ثم تزدان تلك النظرة حين يخدم أولئك العلماء الأمة في مصالحها، ويشاركونها فيما يساورها من هموم، ويكونون لساناً ناطقاً بأسمها إذا ما ألت بها الخطوب، ويهبون للدفاع عنها وعن دينها عند حلول الأخطار.

ومجتمع المسلمين في الأندلس إبان عصر المرابطين والموحدين - كغيره من المجتمعات الإسلامية - انطلق في تعامله مع علمائه المشاركين في الصراع مع النصارى وفق ما يكتنه لهم من تقدير كبير مبني على منزلتهم المكفولة في الإسلام ، وأثرهم المتشعب في أكثر من ناحية في ذلك المجتمع . فإخوانهم من العلماء وطلبة العلم كانوا - كدأب علماء المسلمين في علاقتهم مع بعضهم بعضاً في كل عصر ومصر - يحملون لهم الاحترام والإجلال* ، ولعل ذلك يبرز في الجمل والعبارات المستخدمة في مخاطبتهم عبر رسائل إخوانية مسبوكة بأقلام أقرانهم^(١) ، أو من خلال أبيات شعرية أنشأها شعراء معاصرون

☆ يقول أبو الربيع الكلاعي (ت ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م) " إن العلماء هم آباؤنا الأقدمون وهداتنا المتقدمون ، بأنوارهم نسري فنبصر ونستبصر ، وإلى غايتهم نجري ، فطوراً نصل وأطواراً نقصر ، فلهم دوننا قصبُ السبق ، ولهم علينا في كل الأحوال أعظم الحق ، إذا أصابوا اعتمدنا ، وإذا أخطأوا استفدنا ، وإذا أفادوا استمددنا ، فجزاهم الله عنا أفضل الجزاء ، ووفقنا لتوفية حقوق الأئمة والعلماء " (الإكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ط . مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م ، ج ١ ، ص ٢٦٩) .

(١) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٩٣ ، ١٨٣-١٨٦ .

لهم^(١) ، أو حين ترد أسماؤهم - عرضاً - في مؤلفات أصحاب لهم^(٢) . وأمر آخر يختص بهم - دون سواهم - ، وهو أن بعض من قتل منهم في موقعة مع النصاري تعود إخوانه وتلاميذه على تلقيبه بالشهيد^(٣) ، تفائلاً باستشهاده في سبيل الله ، وحضاً لغيره على اقتفاء فعله ، وتجسداً لمنزلته السامية عندهم . على أن هؤلاء العلماء تظهر منزلتهم الاجتماعية في زمنهم بشكل ساطع عند فئتين من فئات المجتمع الأندلسي آنذاك ، إحداهما : الفئة الحاكمة من المرابطين ثم من الموحيدين . والأخرى : عامة الناس .

وبالنسبة للمرابطين فقد كانوا - كما سبق -^(٤) يحترمون العلماء ، ويعلمون منزلتهم ، ويرفعون من قدرهم ، ويقبلون شفاعتهم ، ولا يقطعون برأي - في الغالب - إلا بعد استشارتهم^(٥) . وإذا كان هذا حالهم من العلماء عامة فإن للمشاركين في الجهاد ضد النصاري منهم أكبر حظ ، وأوفر نصيب . فقااضي الجماعة أبو عبد الله بن حمدين (ت ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م) كان مقرباً للمرابطين " حاز في المكانة لديهم ما لم يحزه غيره ممن سلف"^(٦) ، حيث أعطاه يوسف بن تاشفين سلطات واسعة النطاق في بلده الأندلس ، منها قوله له في رسالة بعث بها إليه " وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضييه ، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضييه ... والعمال والرعية كافة سواء في الحق ، فإن شكت إليك بعامل ،

(١) الرعيئي : برنامج شيوخ الرعيئي ، ص ٢١١ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٤٥٩ .

(٢) ابن عبد الغفور الكلاعي : لإحكام صناعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس ، تحقيق محمد رضوان الداية ، ط . الثانية ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ١٦٢ ، ١٨٨ .

(٣) عياض : الغنية ، ص ١٩٣ ؛ الرعيئي : برنامج شيوخ الرعيئي ، ص ١٤ ، ٦٦ .

(٤) انظر : التمهيد من هذا الكتاب .

(٥) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٤ ، ص ٣٤٩ .

(٦) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧٤ .

وجنح عندك ظلمه لها - ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله - فاعزله ، وإن شكا العامل من رعية خلافاً في الواجب فاشكه منها ، وقومها له ... " (١) . وكان - أيضاً - أبو علي الصدي (ت ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م) رفيع الدرجة عند المرابطين ، فهم قد ألحوا عليه لتولي قضاء مرسية ، فتقلده كارهاً - كما عرضناه سلفاً* - . فلما فر منه وغاب عن الأنظار ، ورأوا أنهم كلفوه فوق احتماله تركوه لحاله ، فأصدر قاضي العاصمة المرابطية (٢) في عهد يوسف بن تاشفين أمره بإعفائه من القضاء (٣) ، فلم يؤثر موقفه هذا على منزلته لديهم ، وقدره عندهم ، إذ نرى علي بن يوسف ينوه بفضله في أكثر من مناسبة (٤) ، بل فكر أن يستأثر به في مراکش ، ولم يمنعه من ذلك إلا خشيته من مخالفة رغبة أبي علي ، وإشفاقه من حرمان تلاميذه وألأفه منه ومن علمه، فضلاً عن اطمئنانه على سمو منزلته، وعلو مقامه بمرسيه في ظل ولاية أخيه أبي إسحاق (٥) إبراهيم بن يوسف** الذي كان أحد الدارسين

(١) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق ٢ ، ج ١ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

** وذلك من حديثنا عن مشاهير العلماء في أوائل هذا الفصل .

(٢) واسم هذا القاضي : أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي (عياض :

الغنية ، ص ٢١٥ - ٢١٦ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٢١٤) .

(٣) ابن عياض : التعريف بالقاضي عياض ، ص ٧ - ٨ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٢١٤ .

(٤) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .

** وأبو إسحاق : إبراهيم بن يوسف بن تاشفين يعرف بابن تعيشت نسبة إلى أمه ، ولى لأخيه على

مرسية سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م ، ثم انتقل إلى ولاية إشبيلية (ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٤ - ٥٥)

وذلك في عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م . ثم عزل عنها عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م (ابن الأبار : التكملة ، ط .

كوديرا ، ج ٢ ، ص ٥٦٧ ؛ ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ، ص ١٠٦) وقد شارك فيما بعد في

محاربة الموحدين (ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ، ص ٨٥) .

على يديه ، المستفيدين من علمه ^(١) . ومع ذلك كله بقى علي بن يوسف يُذكر أخاه بالواجب عليه تجاه الشيخ " من المحافظة على فضله ، والتمسك بحبله ، والرغبة في قربه ، والاقتباس من علمه ... ^(٢) " كيف وهو لإمارته المباركة جمال ، ولملكه العالي تمام وكمال ، وإنه لتمد نحوه الأعناق ، وتفتقر إليه العراق ، وتضرب إلى علمه الأكباد ، وتشتاق لشخصه البلاد ^(٣) . ولذا أصبحت لأبي علي مكانة مميزة عند أبي إسحاق بن يوسف ، فكان يمضي شفاعته الحسنة إذا شفع لمحتاج حتى بعد أن انتقل من حكم مرسية - موطن أبي علي - إلى حكم إشبيلية كشافته " في رد أملاك أبي محمد بن العربي * - المعتقلة إلى ابنه أبي بكر ... ^(٤) والتي كانت - فيما يبدو - قد استصفيت عقب سقوط دولة بني عباد بأيدي المرابطين بصفته أحد وزراء تلك الدولة ^(٥) . وكذلك لقي ابن رشد الجدل (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) حظوة كبرى لدى المرابطين فقد ولى قضاء الجماعة بقرطبة ما يدنو من أربعة أعوام ^(٦) ، وصاحبُ هذا المنصب في الدولة المرابطية يتمتع بمقام علي ، وقدر

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٥ .

(٢) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٥٠٤ - ٥٠٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٠٥ .

هو عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي المعافري ، من أهل إشبيلية ، ولد عام ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م .

كان من أهل الآداب واللغة والكتابة والبلاغة . توفي بمصر في محرم عام ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م

(ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ؛ الضبي : بغية المنتم ، ص ٣٣٧ ؛ الذهبي :

سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ١٣٠ - ١٣١) .

(٤) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٥ .

(٥) سعيد أعراب : مع القاضي أبي بكر بن العربي ، ص ١٢ .

(٦) ابن رشد : البيان والتحصيل ، ج ١ ، ص ٣٠ .

جلي^(١) . وإذا كان ابن رشد أصلاً غير متهافت على ذلك المنصب ، غير راغب بالبقاء فيه لأنه يراه امتحاناً ، ويسأل الله تعالى الراحة من أعبائه ، فهو مدة عمله فيه " تحت إشفاق شديد ، و كرب عظيم " ^(٢) ، وكان يلح على حاكم المرابطين نفسه علي بن يوسف بن تاشفين أن يخلصه منه ^(٣) . فإذا كان ذلك كذلك فإن مكانته عند المرابطين لم يكن مبعثها ولايته منصب قاضي الجماعة بقرطبة فحسب ، ولكنها كانت فوق ذلك ، ولذا فإن إعفائه من منصبه هذا - والذي تم بطلب لحوح منه - لم ينقص من تلك المكانة ، بل " زاد جلالة ومنزلة " ^(٤) فصات العيون تتجه إليه لما اشتهر من مكانته " عند ولاة الأمر... واحترامهم جانبه ، وإجلالهم إياه ، وقبولهم شفاعاته ، والوقوف عند آرائه وإشاراته " ^(٥) . فكان علي بن يوسف بن تاشفين حاكم الدولة ينصت لأقواله ، ويتقبل آراءه ، ويأخذ باقتراحاته فيما يخص شؤون الدولة المرابطية عامة وشؤون الأندلس خاصة ^(٦) . ولقد كان أبو بكر ابن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) من المتصلين بأولى الأمر من المرابطين ، الداخلين عليهم في مجالسهم ^(٧) ☆ ، فصارت له عندهم وجاهة ، فهو - مثلاً - عقب تبيان الحق لأحد الأمراء أصبح مقدماً عنده حتى قال ابن العربي

(١) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣٦٧ ؛ إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ص ٢١٦ ؛ المختار التليبي : ابن رشد ، ص ١٠٥ .

(٢) ابن رشد : البيان والتحصيل ، ج ١ ، ص ٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٤) عياض : الغنية ، ص ١٢٣ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٣٠٨ .

(٦) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٠ ، ٩٨ .

(٧) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٢٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ٢ ،

ص ٦٦٦ .

☆ ولقد كان دخول ابن العربي على السلاطين بهذا الشكل مدعاة للطعن فيه (الذهبي: سير أعلام النبلاء-

"فوالله ما توقفت لي عنده بعد ذلك حاجة" ^(١) ، كما كان مكين القدر لدى الأمير المرابطي سيئر ابن أبي بكر* حاكم موطنه إشبيلية لدرجة أنه كان يجرو على تكليمه للتوسط لدى الآخرين من الناس من أجل تخليص حوائجه ^(٢) .



ولقد تمتع العلماء في ظل الدولة الموحدية بمنزلة كريمة ^(٣) ، فكان الحكام الموحدون يؤثرونهم على غيرهم ، فيستقدمونهم إلى العاصمة مراکش ^(٤) ، ويحرصون على مجالستهم والاستفادة منهم ^(٥) ، ويعمدون إلى تقريبهم ومشاورتهم ^(٦) . ولا جرم أن العلماء الأندلسيين المشاركين في

= جـ ٢٠ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢) وقد أقر ابن العربي بمدخلته لحكام زمانه ، ولكنه برر ذلك بالضرورة ، فهو صاحب ضياع مدفوع إلى معرفة الأمير ليمنع امتداد الأطماع إليها ، وسبب آخر ذكره وهو خوفه من حساده من أهل العلم أن ينسبوه عند الحكام إلى بدعة أو تخطيط (ابن العربي : قانون التأويل ، ص ٣٦٣ ؛ وانظر ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٨٥ - ١٨٦) .

(١) ابن العربي : القبس ، جـ ٣ ، ص ١١٣٧ .

✧ سيئر بن أبي بكر أحد قادة المرابطين الكبار الذين شاركوا في الزلافة ، وحين قرر يوسف بن تاشفين القضاء على حكام الطوائف أو كل إليه أمور القيادة في الأندلس ، فتمكن سير من إسقاط مملكة بني عباد في إشبيلية (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥) وحينذاك ولي حكمها في رجب سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ، فكان أول حكامها من المرابطين ، فاستمر فيها إلى وفاته في آخر سنة ٥٠٧هـ / ١١١٤م (ابن عذارى : البيان ، جـ ٤ ، ص ١٠٥ ، ٥٦) .

(٢) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق ٤ ، ص ١٦٣٣ .

(٣) حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس - عصر المرابطين والموحدين ، ط . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٠م ، ص ٣٣٩ ؛ التنوني : حضارة الموحدين ، ص ١٤ ، ١٦ .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص ٢٦٩ ، ٣١١ ، ٣١٤ .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٠٥ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢١٦ .

الجهاد ضد النصارى سيحظون بمثل تلك المنزلة كغيرهم من العلماء ، فابن رشد الحفيد (ت ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م) " تأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة " ^(١) ، حيث أن حاكم الموحدين يوسف بن عبد المؤمن المولع بالفلسفة ^(٢) دعاه إلى تلخيص آثار أرسطو وتقريب أغراضها فامثل ^(٣) ، فصار بذلك مقرباً لديه لدرجة أن هذا الحاكم ولى ابنه أبا يحيى * على حكم قرطبة بالذات نزولاً عن رغبة أبي الوليد بن رشد ^(٤) . ولما آل حكم الدولة الموحدية من بعده إلى ابنه الآخر يعقوب بن يوسف (المنصور) ظل ابن رشد على منزلته ^(٥) ، فكان " مكيناً عند المنصور ، وجيهاً في دولته " ^(٦) يرشح أصحابه لشغل الوظائف الحكومية ، وينهض بهم ^(٧) ، بل بلغ من تقدير المنصور له أن أجلسه في إحدى المناسبات عام ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م في موضع أعلى من مجلس أحد كبار الموحدين من أصحاب مؤسس الدولة عبد المؤمن بن علي ^(٨) . وفوق ذلك

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٣١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣١٥ .

* أبو يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن ، ولاء والده على قرطبة سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٥٦ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢٤) ويبدو أنه بقى يحكمها في عهد أخيه المنصور ولكنه طمع في حكم الدولة الموحدية حين مرض أخوه المنصور ، فلما أبلى هذا الأخير من مرضه بادر بقتله (المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٧ - ٣٥٨) ويظهر أن ذلك كان في سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢١٣) .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٥٦ .

(٥) من الملاحظ أن ابن رشد استمر في شرح مؤلفات أرسطو في عهد المنصور كما يتضح من تواريخ تلك الشروح . انظر (جمال الدين العلوي : المتن الرشدي ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ٣٠) .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ٣ ، ص ١٢٣ .

(٧) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٧٦ .

(٨) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ٣ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

قيل إن الكُفَّةَ رفعت بينهما ، فكان ابن رشد إذا تكلم مع المنصور في شيء من العلم خاطبه - بعيداً عن الألقاب السلطانية - كما لو كان يخاطب أحد زملائه ^(١) . لكن تلك المنزلة التي سُدَّ بها ابن رشد في ظل المنصور لم تدم ، إذا افتقدها عام ٥٩٣هـ / ١١٩٧م بعد اتهامه باخلافات في عقيدته* والتي على ضوءها أصدر المنصور مرسومه في حق ابن رشد وشيعته** والذي جاء فيه ما نصه " ... اللهم إن دينك هو الحق اليقين ، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين ، وهؤلاء قد صدفوا عن آياتك ، وعميت أبصارهم وبصائرهم عن

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ٣ ، ص ١٢٥ .

* الأمثلة التي صرحت بها المصادر التاريخية - المتوافرة لدينا - على انحراف ابن رشد تتمثل في : إنكاره وجود قوم عاد (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٩) وقوله حكاية عن بعض الفلاسفة إن الزهرة أحد الآلهة (المراكشي : المعجب ، ص ٨٥ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٣١٧) على أن شيخ الإسلام ابن تيمية رد في عدد من مؤلفاته على أقوال ابن رشد المبثوثة في كتبه وبخاصة ما جاء في : فصل المقال ، والكشف عن مناهج الأدلة ، وتهافت التهافت ، فكان من أبرز ما أخذه عليه ما يلي : ١ - نفيه لصفات الله عز وجل . ٢ - عدم إثباته لله تعالى كلاماً . ٣ - إنه من الذين يقولون بأن الأنبياء أخبروا عن الأشياء الغيبية بأمر غير مطابقة للأمر نفسه . ٤ - تعصبه للفلاسفة عامة ولأرسطو خاصة . ٥ - ادعاؤه بأن أنبياء الله هم للطبقة الجماهيرية من الناس أما الفلاسفة فهم للطبقة العالمة من الناس . (الطبرلاوي محمود سعد : موقف ابن تيمية من فلسفة ابن رشد ، ط . الأولى ، مطبعة الاستقامة ، مصر ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م ، ص ٧٥ - ٧٩ ، ٨٥ - ٨٦ ، ١٠٢ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢١) انظر ما يقوله ابن رشد عن المعاد في : الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ، ط . الثانية ، دار العلم للجميع ، ١٣٥٣هـ / ١٩٣٥م ص ١٥٤ - ١٥٥ ؛ تهافت التهافت ، تحقيق محمد العربي ، ط . الأولى ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ١٩٩٣م ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧) .

** كان نفر من معاصري ابن رشد قد تتبعوا كتاباته ، فألفوا فيها ما يقدح في عقيدته ، فرفعوها إلى المنصور في مراكش عام ٥٩٠هـ / ١١٩٤م ، ولكنه لم يلتفت إليها آنشد ، فلما قدم إلى قرطبة سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٧م رفعوها له كرة أخرى ، فعقد مجلساً في جامع قرطبة لحاكمه ابن رشد ، فأصدر مرسومه المولماً إليه في المتن (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٥ - ٢٦) .

بيناتك ...^(١) ثم أشار إلى الحكم الذي صدر فيهم بقوله " ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلحام بالسيف في مجال ألسنتهم ، والإيقاظ بحده من غفلتهم وسنتهم ، ولكنهم وقفوا بموقف الخزي والهون ... " ^(٢) فلم يُدراً عنه حد القتل إلا بشبهة ما يظهر من إسلامه ^(٣) . ولقد خاض الرواة والمؤرخون في أسباب نكبة ابن رشد ومن ثم فقدانه لمكانته المرموقة في الدولة الموحدية ، فذكروا أن ما أعلن في المرسوم -المر ذكره- يخفي وراءه أسباباً أخرى كانت هي الدوافع الحقيقية للمنصور حينما أوقع بابن رشد ، كاختصاصه بأخي المنصور أبي يحيى ^(٤) الطامع في حكم الدولة ^(٥) ، وكذلك عدم استخدامه أسلوب المجاملة مع المنصور عند كلامه معه ^(٦) أو في بعض مؤلفاته ^(٧) .

ومهما يكن من أمر* فقد قيل إنه بعد شهادة عدد من أعيان إشبيلية

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) يقول ابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) في ذلك :

وقد كان للسيف اشتياق إليهم ولكن مقام الخزي للنفس أقتل
وآثرت ذرة الحد عنهم بشبهة لظاهر إسلام ، وحكمك أعذل

(ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٣١) .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٦ .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٧ .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ٣ ، ص ١٢٥ .

(٧) المراكشي : المعجب ، ص ٣٨٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٣١٧ .

* ناقش عدد من الكتاب المحدثين أسباب نكبة ابن رشد ، انظر : رينان : ابن رشد والرشدية ، ص ٣٩-٤٤ ؛ العقاد : ابن رشد (ضمن المجموعة الكاملة ، ط . الأولى ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٨ م ، ج ٩) ص ٣٨٠ - ٣٨٥ ؛ التليسي : ابن رشد ، ص ١٠٩ - ١١١ ؛ العربي : الحياة العلمية في الأندلس ، ص ٦٦ - ٧٠ .

بخلاف ما نُسب إليه عفا عنه المنصور سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩م^(١) ودعاه إلى مراکش، فعادت منزلته إلى سابق حسنها ، ولكنه توفي بعيد ذلك بقليل^(٢). وكان أبو عمرو بن عات النفزي (ت ٦٠٩هـ / ١٢١٢م) عظيم المنزلة لدى حكام الموحدين . حيث " كان الأمراء من آل عبد المؤمن يخاطبونه ويعتمدون رأيه ومشورته في مصالح بلده شاطبة وأهلها ثقة بدينه ، وركوناً إلى نصيحته " ^(٣) . كذلك فإن أبا الربيع الكلاعي (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) كان كبير القدر عند حكام بلده بنسية ، حيث " لم يزل في السيادة ، مشاهد الزيادة " ^(٤) فكان هؤلاء الحكام يجعلونه المتكلم عنهم في المجالس ، وإذا ما أرادوا تبيان أمر من الأمور للناس أو كلوا إليه ذلك ^(٥) . وابن الأبار (ت ٦٥٨هـ / ١٢٩٥م) بلغ من الحظوة والتقدير والثقة لدى حاكم بنسية أبي جُميل زيان ^(٦) درجة أهله ليكون رسوله المميز في سفاراته الدبلوماسية إلى قادة الدول ^(٧) ، وكاتبه المعتمد في تحرير اتفاقياته السياسية المعقودة بينه وبين غيره من الحكام ^(٨) .



(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٣٨٥ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٥ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٠ .

(٤) ابن الأبار : إعتاب الكتاب ، ص ٢٥١ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٧٠٨ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ،

ص ١٣٦ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ١٥ ، ص ٤٣٣ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٩ .

(٦) عبدالعزيز عبد المجيد: ابن الأبار حياته وكتبه، ط. المطبعة الحسنية، تطوان ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، ص ١٤٣.

(٧) الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٣١١ .

(٨) ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

أما منزلة العلماء المشاركين في الصراع ضد النصارى لدى عامة الناس فتتجسم في عدة ظواهر ، منها أن عدداً منهم كانت كلمتهم عند الناس مسموعة، وأوامرهم مطاعة ، فمثلاً حينما همّ العامة في عصر المرابطين بانتزاع المباع من الأموال المغصوبة ، وردّه إلى بيت مال المسلمين بالقوة بناءً على فتوى أحد العلماء تصدى لهم أبو عبد الله بن حمدين (ت ٥٠٨هـ/ ١١١٤م) ومنعهم من تنفيذ ما هموا به، فانصاعوا لأمره، ووقفوا عند قوله ^(١) . وكذلك لما اشتعلت الفتنة بين أهل قرطبة والمرابطين عام ٥١٤هـ/ ١١٢٠م واقتحم العامة قصر الوالي*تصدر ابن رشد (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) العمل على إيقاف هؤلاء العامة ، وردع المعتدي منهم ^(٢) .

ومما يجسد منزلتهم الاجتماعية لدى العامة أن منهم من منحه الناس الثقة ، فكانوا يقصدونه - بلا تردد أو وجل - إذا حزبه أمر ، أو انتابتهم ضائقة ، أو عضتْهم مظلمة . فابن رشد الجد (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) " كان الناس يلجأون إليه ويعولون في مهماتهم عليه " ^(٣) ، من ذلك قيام أحد

(١) البرزلي : جامع مسائل الأحكام لمانزل بالقضايا من المفتين والحكام ، ميكروفيلم جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ، رقم ١٠٧٩٠ ، ج ٤ ، ورقة ٢ ب .

هو يختلف في سبب هذه الفتنة فقليل إن أحد عبيد أبي بكر بن رواد عامل قرطبة المرابطي أمسك بامرأة قرطبية فاستغاثت بالناس فأغاثوها ، فجرت الفتنة (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٥٨) وقيل إن وقوع تدافع بين الحشم والناس في احتفال عسكري أفضى إلى اشتباك بين الطرفين (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٨٢) نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان المغرب عشر عليها عنان) .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٨٢) نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان المغرب) .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

الأندلسيين بالتوجه إليه لرفع ظلم أحد الولاة ، ومبادرة ابن رشد بمساعدته إلى أن تم له ما أراد ^(١) . وكذلك فإن أبا الربيع الكلاعي (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) كان " نفاعاً بجاهه وماله وعلمه " ^(٢) ، وهذا يوحي أن الناس كانوا يعتمدون إليه في كثير من الأحيان لإصلاح أحوالهم ، وجلب منافعهم .

ومما يعكس مكانة العلماء المجاهدين للنصارى لدى العامة في زمن الدراسة تسارع جمهور الناس للالتفاف حول هذا العالم أو ذاك إذا ما استنفروهم لتأدية واجب ، أو استصرخهم لجهاد عدو ، وقد حصل مثل هذا لأبي علي الصديقي (ت ٥١٤هـ / ١١٢٠م) الذي كان له أثره البالغ في حشد المجاهدين في إحدى غزوات المرابطين في شرقي الأندلس ^(٣) ومثله التفاف الناس حول أبي الربيع الكلاعي في شرقي - أيضاً - أيام ضعف الدولة الموحدية ^(٤) وخروجهم معه بكثرة لجهاد النصارى الذين كانوا قد استأسدوا على المسلمين في تلك المنطقة ^(٥) .

ولعل حزن العامة على بعض العلماء المشاركين في الصراع ضد النصارى عند موتهم ، وكثرة المشيعين لهم ، وازدحامهم على جنازتهم من أسطع الدلائل على منزلتهم لدى أولئك العامة . فأبو عبد الله بن حمدين حين توفي عام ٥٠٨هـ / ١١١٤م " حزن الناس عليه ، وكان محبباً لديهم ... " ^(٦)

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٣٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤ ، ص ٨٨ .

(٣) حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٩٤ .

(٤) محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ، ص ٦٩ .

(٥) حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ .

(٦) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧٤ .

وابن رشد الجد لما توفي عام ٥٢٠هـ/١١٢٦م "شهدته جمع عظيم من الناس، وكان الثناء عليهم حسناً جميلاً" ^(١)، وقال أحد تلاميذه عنه يوم دفنه "وكان مشهده حفيلاً، والتفجع عليه جليلاً، لم ير أحد من أهل زماننا مشهداً أكثر تولهاً وتفجعاً منه" ^(٢). وكذلك أبو عبد الله بن قاسم الأنصاري* حينما توفي عام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م "حضر جنازته الخاصة والعامه، وازدحموا على نعشه حتى كسروه ... " ^(٣).



وصفوة القول أن العلماء الأندلسيين المشاركين في الصراع مع النصارى أيام المرابطين والموحدين بلغوا منزلة رفيعة في مجتمعاتهم، وقد لمسنا ذلك واضحاً من خلال طيب معاملة الحكام والأمراء والولاة لهم. وكذلك من خلال التفاف عامة الناس حولهم، وانقيادهم لأوامرهم، والنزول على أحكامهم وآرائهم.

(١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٥٧٧ .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ ٣ ، ص ١٥٢٥ .

* هو محمد بن عبد الله بن محمد بن خلف بن قاسم الأنصاري ، من أهل بلنسية ، ولد في رمضان عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م ، كان عارفاً بالتفسير ، ذا حظ في النظم والنثر ، وله من المؤلفات : بغية النفوس الزكية في الخطب الوعظية " و " نسيم الصبا " ، توفي في رجب عام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م ؛ انظر أخباره في (ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٦٥١-٦٥٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٣٠٤-٣٠٥) . أما جهوده في جهاد النصارى : فانظر المصدرين السابقين أيضاً .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٦٥٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ،

رابعاً : أثرهم العلمي في المجتمع :

تفاوت العلماء المسهمون في الجهاد ضد النصارى إبان عصر المرابطين والموحدين كغيرهم من العلماء - تفاوتوا فيما بينهم في أثرهم العلمي في المجتمع ، وذلك تبعاً لتباين مستوياتهم العلمية ، ودرجة مخالطتهم للناس ، وحرصهم على نشر العلم بينهم ، وملامسة كتاباتهم وأحاديثهم لحاجيات المجتمع واهتماماته . ولقد تنوعت القنوات التي عن طريقها أثر هؤلاء العلماء في مجتمعاتهم . فكان أهمها ما يلي :

أولاً : الخطابة ، حيث تولى مجموعة منهم الخطبة في جوامع بلدانهم - كما سبق الإشارة إلى أمثله على ذلك - وقد استطالت مدة ولاية بعضهم للخطبة في بلده ^(١)، فوصلت - في بعض الحالات - نحواً من عشرين سنة ^(٢) . ولا ريب أن الخطباء سيتطرقون في خطبهم تلك - كما هو معلوم - إلى ما يهم الناس في أمور دينهم ودنياهم ^(٣) .

ثانياً : التدريس ، فقلما نجد واحداً من العلماء المشاركين في الجهاد لم

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٨٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ١ ، ق ١ ، ص ٣٤٥ ، س ٦ ، ص ١٦٨ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ١ ، ص ٦٢٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ١٢ .

(٣) انظر أمثلة لخطب ذلك العصر في : ابن عبد الغفور الكلاعي : إحكام صنعة الكلام ، ص ١٧٦-١٧٨ ، ص ٢٣٧-٢٣٩ ؛ ابن عياض : التعريف بالقاضي عياض ، ص ٨٤-٨٧ ؛ ابن الرابط : زواهر الفكر وجواهر الفقر ، تحقيق حسن إفليفل ، رسالة دكتوراه ، كلية الفلسفة والآداب ، جامعة غرناطة ، إسبانيا ، ١٩٩٢ م ، ق ٢ ، ص ٢٧٧-٢٨٩ ، ٣٨٧ - ٣٨٩ .

يزاول هذه الوظيفة ، سواء في المساجد أو غيرها ^(١) . ولعل الحلقات العلمية الخاصة أو العامة التي عرفت بها مساجد الأندلس ^(٢) هي أكثر مجالات التدريس أثراً في المجتمع .

ثالثاً : التأليف ، فكثير من أولئك العلماء خاض في ميدان التأليف - كما مر ذكر شيء منه في التعريف ببعضهم - ، فمنهم المستقل ، ومنهم المستكثر حتى أن أحدهم أملى في التفسير فقط ثمانين ألف ورقة ^(٣) وقد غطت تلك المصنفات مستويات أكبر قطاع ممكن من المجتمع ، إذ قسم منها صُنف للمتخصصين ^(٤) ، وقسم ثان ألف لشرح مسائل غمض فهمها على الدارسين ^(٥) وقسم ثالث جُمع ليكون في متناول عامة الناس ^(٦) .

ولقد أبدى معظم العلماء المشاركين في الجهاد نشاطاً منقطع القرين في نشر العلم بين مواطنيهم الأندلسيين ^(٧) ، فنرى بعضهم يسعى للتخلص

(١) انظر على سبيل المثال : ابن الأبار : المعجم ، ص ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٢١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٩٨ ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٦٦ .

(٢) العربي : الحياة العلمية في الأندلس ، ص ١٠٦ ، ١٠٨ .

(٣) ابن العربي : القيس ، ج ٣ ، ص ١٠٤٧-١٠٤٨ .

(٤) أملى أبو بكر بن العربي في سورة واحدة من قصار المفصل مائة وثمانين مجلساً (أحكام القرآن ، ق ٤ ، ص ١٩٧٤) .

(٥) ابن عطية : المحرر الوجيز ، ج ١ ، ص ٣ .

(٦) ابن رشد : البيان والتحصيل ، ج ١ ، ص ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ؛ ابن العربي : عارضة الأحوذى ، ج ١ ، ص ٣ .

(٧) الكلاعي : الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، ج ١ ، ص ٣ ، ٢ .

(٨) انظر مثلاً : ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٧٤٨ ، والتكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٥٥٥ ،

٦٣٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٨٩ ، س ٤ ، ص ٨٥ ، ٢٢٢ ،

س ٦ ، ص ١٦٨ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٠ ، ص ٢٠٠ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٧ .

من الأعمال الرسمية ويتفرغ لهذا الغرض النبيل ^(١) ، بل ثمة علماء منهم جردوا أنفسهم للعلم وإشاعته بين الناس ، فأحمد بن محمد الخشني* (ت ٦١١هـ / ١٢١٤م) على سبيل التمثيل " كان من أحرص الناس على طلب العلم وتعلمه وبثه ونشره " ^(٢) . ولقد حُكِيَ من حرص أبي علي الصديقي على إيصال العلم إلى تلاميذه أنه أيام اختفائه عن القضاء في مرسية - علم بمقدم تلميذه عياض (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م) فعزم على إشعاره بموضع من الأندلس لا يؤبه لكونه فيه ، فيخرج إليه هناك ، ويعطيه ما يطلبه من علم ^(٣) . كما ذكر أن أبا بكر ابن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) حين أقام في قرطبة فترة من الزمن - أذن لتلاميذه أن يبيتوا معه في بيته ^(٤) ، وما ذاك إلا لحرصه على استغلال كل ما يملك من وقت لإفادتهم ؛ بل من شدة اعتنائهم بنشر العلم بين الناس أن بعضهم كان يغتنم خروجه إلى الجهاد في سبيل الله ، فيدرس في المناطق التي يمر عليها في طريقه ^(٥) .

وعلماء يمثل هذه المهمة المتقدمة في خدمة العلم ونشره سيكون - قطعاً -

(١) ابن رشد : البيان والتحصيل ، ج ١ ، ص ٣٠ ، ٣١ ؛ عياض : الغنية ، ص ١٩٤ .

* هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الخشني ، من أهل قرطبة ، ويعرف أيضاً بالآجري نسبة إلى حصن قريب منها ، له رحلة إلى الحج ، وقد برع في الحديث ، وتوفي في صفر عام ٦١١هـ / ١٢١٤م . انظر أخباره في (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١٠٣-١٠٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٩٧-٣٩٨) أما مشاركته في الجهاد فانظر (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٩٨ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٩٨ .

(٣) ابن عياض : التعريف بالقاضي عياض ، ص ٨ .

(٤) الضبي : بغية الملتبس ، ص ٩٤ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ، ٣٥٠ ، ٤٣٣ ، ج ٢ ، ص ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٩٣٣ . المعجم ، ص ٣٧ ،

٦٧ ، ٩٦ ، ١٢١ ، ٢٠٦ ، ٢٩٨ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٥٧٧ .

أثرهم العلمي في المجتمع عريضاً ومتجذراً . على أن المصادر - في الواقع - لاتصرح بشكل مباشر عن ذلك الأثر اللهم إلا بمثل قولها عن أحمد بن محمد الأنصاري* (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) "نفع الله بتعليمه خلقاً كثيراً" ^(١) ، أو قولها عن انتفاع المجتمع بكتاب "اقتباس الأنوار ... الذي صنفه أبو محمد الرشاطي (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م) "واستعمله الناس ... " ^(٢) ، ولكن يارجاع البصر في المصادر كرة أخرى ، وإجالة الفكر فيما كتب عنهم بخاصة ، وما دُوّن عن الحياة العلمية في العصرين المرابطي والموحدي بعامة يتجلى أثرهم العلمي في مجتمعاتهم من خلال عدة جوانب ، من أبرزها :

١ - تذكر المصادر عن جمع من رجال العلم المشاركين في الصراع ضد النصاري تصدرهم في بلدانهم لتدريس مواد علمية معينة ، فعلي بن عبد الله الأنصاري (ت ٥٣٩هـ / ١١٤٥م) من أهل غرناطة "تصدر ... لإقراء القرآن في بلده" ^(٣) . وعلي بن أحمد العبدري** (ت ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م) "تصدر في ميورقة" لإقراء القرآن ^(٤) . وأحمد بن محمد الخشني (ت ٦١١هـ /

* وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن موسى الأنصاري ، كان خيراً فاضلاً ، وقد قتل في حرب مع النصاري سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٧١) .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٧١ .

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٢٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٩٥ .

** هو أبو الحسن علي بن أحمد العبدري ، ويعرف بالمطرقة ، من أهل ميورقة ، له رحلة إلى الحج ، وقد توفي - وهو مأسور عند النصاري - بعيد صفر من سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ١٨٣) .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ١٨٣ .

١٢١٤م) كان في قرطبة " يُقرئ القرآن ، ويُسمع الحديث " ^(١) . ومحمد بن عبد النور السبائي * (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) من أهل إشبيلية " تصدر ببلده لإقراء القرآن وإسماع الحديث " ^(٢) . وعبد الملك بن إبراهيم العبدري (ت ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م) تصدر في ميورقة " لإقراء القرآن وتدريس النحو " ^(٣) . وأحمد بن محمد الطرسوني * (ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) كان يدرس في مرسية " الفقه والعربية والأدب " ^(٤) . ومن المعلوم أن القرآن والحديث والفقه والعربية والنحو والأدب - المنصوص عليها في النقول الفاتنة - تعد من المعارف الأساسية في العملية التعليمية الأندلسية ^(٥) والتي قلما يستغنى عن

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٩٨ .

* هو : أبو بكر محمد بن عبد النور بن أحمد السبائي الإشبيلي ، ولد في رجب عام ٥٥٣هـ / ١١٥٩م ، وكان من المعتنقين بالقرآن وعلومه والحديث ، وقد توفي في قتال النصاري في ربيع عام ٦١٤هـ / ١٢١٧م انظر أخباره في (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٩٦ ؛ الرعيي : برنامج شيوخ الرعيي ، ص ١٤ - ١٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٤١١ - ٤١٣ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق بشار عواد معروف وزميله ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، الطبعة الثالثة والستون ، ص ٢٠٦) .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٩٦ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ١٢ .

* أبو القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل الطرسوني ، من أهل مرسية ، ولد عام ٥٥٠هـ / ١١٥٥م ، له بجانب اهتمامه بالفقه والعربية والأدب مشاركة في الطب والشر والنظم ، وقتل في إحدى المعارك مع النصاري في رجب سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١١٣ ؛ السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط . المكتبة العصرية ، بيروت ، ج ١ ، ص ٣٦٣) وقد وردت ترجمته باختصار في (الرعيي : برنامج شيوخ الرعيي ، ص ١٦٣ ؛ وابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٤ ، ٣٩١ - ٣٩٢ ، ٤٠٠) .

(٤) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٣٦٣ .

(٥) إبراهيم العكش : التربية والتعليم في الأندلس ، ط . الأولى ، دار الفيحاء - دار عمار ، عمان ، الأردن

١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ١٩٠ - ١٩١ ، ٢٢٢ .

تعلمها المسلم دع عنك من يرنو ببصره لأن يصبح مستقبلاً في زمرة العلماء أو حتى المتعلمين . وحيث أن هؤلاء العلماء قد آلت لهم الصدارة في إقراء تلك المواد العلمية في مدن مختلفة من الأندلس والذي يعنى من زاوية أخرى تبرزهم في تدريسها ، فمن المنتظر أن يُقبل عليهم الناس - صغيرهم وكبيرهم - ليسمعوا منهم ، ويقرأوا عليهم ، وينهلوا من علمهم ، يشهد بذلك ابن الأبار ^(١) في قوله عن عبد الملك بن إبراهيم العبدري المار ذكره قبل قليل " أخذ عنه عامة أهل بلده " . وبهذا يتبين جانب من جوانب الأثر العلمي لأولئك العلماء وسط المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها .

٢ - نسب إلى عدد من العلماء المشاركين في الجهاد كثرة كاثرة من التلاميذ سواء من أخذ عنهم مباشرة أو بطريق غير مباشر* ، فعلى سبيل المثال استطاع ابن الأبار ^(٢) تسجيل أخبار خمسة عشر وثلاثمائة ممن سمعوا من أبي علي الصديفي (ت ٥١٤هـ / ١١٢٠م) أو روا عنه ، وهم - حسب تعبيره - " بين صاحب في الأخذ عنه راغب ، وتلميذ على السماع منه راتب " ^(٣) وقد كانوا من شمالي الأندلس ^(٤) وشرقيها ^(٥)

(١) التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٢٠ .

✶ قدر عياض وجوه الأخذ عن الشيوخ والرواية عنهم بثمانية ضروب ، هي : السماع من لفظ الشيخ ، القراءة عليه ، المناولة ، الكتابة ، الإجازة ، إعلام الطالب بأن هذه الكتب روايته ، وصيته بكتبه له ، الوقوف على خط الراوي فقط (الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط . الثانية ، دار التراث ، القاهرة ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ص ٦٨) .

(٢) المعجم ، ص ط ، ٣٣٤ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٤٤ ، ٢١٤ ، ٣٢٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣ ، ٦ ، ٩ ، ٣٧ ، ٥٨ ، ٧٠ ، ٩٩ ، ١١٨ .

ووسطها^(١) وغربها^(٢) وجنوبها^(٣). كذلك تمكن عبد الكبير المدغري^(٤) من تقييد أسماء أربعة وخمسين ومائتين كلهم سمع من أبي بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ/١١٤٨م) أو روى عنه، وقد كانوا أيضاً من أماكن متفرقة من البلاد^(٥). ومن المتفق عليه أن هؤلاء التلاميذ المتوزعين على المدن الأندلسية صاروا في عداد علماء الأندلس أو على أقل تقدير من كبار طلبة العلم فيها، ولولا أنهم كانوا كذلك لما عنت كتب التاريخ والتراجم والفهارس وغيرها بهم، فدونت أسماءهم وحفظت أخبارهم، وبعض العلماء - موضوع الدراسة - شاهد مقنع على ذلك، فأبو محمد بن عطية (ت ٥٤١هـ/١١٤٧م) تلميذ لأبي عبد الله بن حمدين (ت ٥٠٨هـ/١١١٤)^(٦)، وكذلك لأبي علي الصدي (ت ٥١٤هـ/١١٢٠م)^(٧). وأبو الريح الكلاعي (ت ٦٣٤هـ/١٢٣٧م) تلميذ لأبي الوليد بن رشد الحفيد^(٨) (٥٩٥هـ/١١٩٨م). وابن الأبار (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٩م) تلميذ لأبي الريح الكلاعي^(٩) المتقدم ذكره، وقد لازمه أزيد من عشرين عاماً^(١٠).

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٥ ، ١٩١ ، ١٦٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ ، ٦٩ ، ١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٨٨ ، ٢٦٢ ، ٣١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ١٥٤ .

(٤) ابن العربي : الناسخ والمنسوخ ، ج ١ (الدراسة) ، ص ١٩٠ .

(٥) انظر مثلاً : ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٧٤ ، ١٠٦ ، ٤٢٧ ، ج ٢ ، ص ٤٦٨ ، ٨٢٠ .

(٦) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ١١١ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

(٨) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ ؛ التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٧٠٨ .

(٩) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٦ ، ٧ ؛ التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٧٠٩ .

(١٠) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٥٣ ؛ الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٣١٠ .

٣ - ولا مشاحة أن ما يُقرأ على العلماء أو يُروى عنهم من مصنفات له أثره العلمي والثقافي في المجتمع، ويزداد هذا الأثر تبعاً لنوعية تلك المصنفات وكثرتها ورواجها بين المتعلمين ، فعلى سبيل المثال أخصي ما قرىء على ابن أبي علي الصديفي (ت ٥١٤هـ / ١٢٠م) أو سُمع منه في حلقات دروسه بحوالي ستين مصنفاً^(١) ، وكان فيها ما يعد معتمداً في مجاله ، أو فريداً في بابيه ، أو متميزاً في موضوعه، وقد شملت تلك المصنفات علوم القرآن^(٢) ، والحديث وعلومه^(٣) ، وأصول الفقه^(٤) ، والسيرة^(٥) ، والتاريخ والتراجم^(٦) ، والأدب^(٧) والأخلاق^(٨) . ومثله أبو بكر ابن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) الذي دُرست عليه في مجالسه العلمية مصنفات كثيرة في فنون مختلفة ، فكان شطر منها من تأليفه^(٩) حتى أنه أُملى بعضها بالفعل في تلك المجالس^(١٠) .

(١) ابن الأبار : المعجم ، نشر فرانسيسكو كوديرا ، ط . مدريد ١٨٨٥م ، ص VII ، VIII .

(٢) انظر مثلاً : عياض : الغنية ، ص ١٩٦ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٣٥ ، ٨٢ ، ٢٥٠ .

(٣) انظر أمثلة في : ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ١٠٠ ، ١٠١ ؛ عياض : الغنية ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ ،

١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ١٠٦ ،

١٤٥ ، ١٦٤ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٨٦ .

(٤) عياض : الغنية ، ص ١٩٧ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٣٠٧ .

(٥) عياض : الغنية ، ص ١٩٦ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٨ ، ٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٦٨ .

(٦) عياض : الغنية ، ص ١٩٩ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٣١ .

(٧) عياض : الغنية ، ص ١٩٩ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧٧ .

(٨) عياض : الغنية ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٨ ، ٢٢ ، ٦٢ ، ١١٢ ، ٢٥٠ .

(٩) عياض : الغنية ، ص ١٣٦ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٩١ ؛ ابن خيّر : فهرسة ما رواه عن

شيوخه ، ص ١٦٦ ، ١٧٥ .

(١٠) ابن العربي : قانون التأويل ، ص ٣٦١ ؛ القيس ، ج ٣ ، ص ١٠٤٧ - ١٠٤٨ ؛ الضبي : بغية

الملتبس ، ص ٩٣ ، ١٣٢ .

أما الشطر الآخر فقد كان من تأليف غيره^(١)، ولعل معظمها مما أدخله هو بنفسه إلى الأندلس^(٢)، حيث "أدخل ... إسناداً عالياً، وعلماً جماً"^(٣)، بل إن منها ما انفرد به ابن العربي^(٤)، فلم يدخله إلى هذه البلاد "أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق"^(٥). ولقد اشتهر عن أبي عمر بن عات النفري (ت ٦٠٩هـ / ١٢١٢م) تركيزه على تدريس مصنفات فرع معين من الدراسات القرآنية وهو القراءات^(٦). كما سعى أبو الربيع الكلاعي (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) إلى تزجية مصنفاته بين طلبة العلم، فأحد تلامذته يقول عنه "وكان يكاثني ويبعث إلي بتواليقة"^(٧)، بل بلغ من حرص أبي الربيع على توفير مؤلفاته لطلبته أن أرسل غير ما مرة إلى ذلك التلميذ نسخاً أصلية منها^(٨).

٤ - وثمة علماء مشاركون في الجهاد ضد النصاري لهم جهودهم في إثراء علوم تخصصوا فيها، وبذلوا صفوة أعمارهم في سبيلها، فكانت لبعضهم آراء واجتهادات فرضت نفسها بين معاصريهم من العلماء والمتعلمين، وأمست مشهورة من بعدهم، يُركن إليها، ويأخذ بها، فأبو الوليد بن

(١) عياض: الغنية، ص ١٣٥، ١٣٦؛ ابن خير: فهرسة ما رواه عن شيوخه، ص ٤٧، ١١٧، ١٦١،

١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٨، ١٨٦، ٣٦٥، ٣٧٠، ٤١٠، ٤٥٥.

(٢) ابن العربي: سراج المريدين، ورقة ٢٣٨ب - ٢٣٩أ.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٢٠٠.

(٤) ابن العربي: عارضة الأحوذى، ج ٣، ص ٢٦٤، ج ٩، ص ١٤٩.

(٥) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢، ص ٥٩١؛ ابن فرحون: الدياج المذهب، ج ٢، ص ٢٥٤؛ وانظر:

المقري: أزهار الرياض، ج ٣، ص ٦٢-٦٣.

(٦) الرعي: برنامج شيوخ الرعي، ص ١٥، ١٦.

(٧) المصدر السابق، ص ٦٧.

(٨) المصدر السابق، ص ٦٧، ٦٨.

رشد الجد (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م) - مثلاً - "قرب ... مذهب الإمام مالك تقريباً لم يسبق إليه" ^(١) ، فلقد اطلع على كل ما كتب قبله في المذهب من متون وشروح واختصارات وغيرها ، ونقده نقد الفقيه المجتهد في نطاق المذهب المالكي ، وحرره بأسلوب واضح يدركه "المبتدي والشادي" ^(٢) ، فكان ذلك مدعاة لإقبال الفقهاء والتلاميذ في عصره على كتاباته ، واستمر هذا الإقبال عليها في العصور التالية ^(٣) ، حتى لم يعد للكتب الفقهية المالكية قبله من العناية في فهارس فقهاء الغرب الإسلامي فيما بعد القرن السادس الهجري الذي عاش في أوائله ابن رشد - مثلما كان لها من العناية في الفهارس السابقة ^(٤) .

كما أن لبعضهم أثر في دفع حركة معارف لم تكن قبلهم تحظى باهتمام واسع من قبل طلاب العلم في الأندلس ، كما هو شأن ابن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ/١١٩٨م) - مثلاً - في الفلسفة ، إذ صرف همهته إليها بتشجيع من الحاكم الموحد يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨هـ/١١٦٣م - ٥٨٠هـ/١١٨٤م) ^(٥) فاعتنى بكتب أرسطو المنطقية والفلسفية ^(٦) ، فتناول ما استطاعه منها ^(٧) فلخصها

(١) التبكي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، نشر عبد الحميد الهرامة، ط . الأولى ، كلية الدعوة

الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٩م، ص ٤٧٥؛ المقرئ: نفع الطيب، ج ٥، ص ٣٤٦ .

(٢) ابن رشد: البيان والتحصيل، ج ١، ص ١٠ من مقدمة المحقق .

(٣) التليي: ابن رشد، ص ٤٢٠ .

(٤) ابن رشد: البيان والتحصيل، ج ١، ص ٥ من مقدمة المحقق .

(٥) المراكشي: المعجب، ص ٣١٥ .

(٦) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، س ٦، ص ٢٩ .

(٧) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، ط . الخامسة، دار النهضة

العربية، بيروت، ١٩٨١، ص ٣٨٥ .

وشرح أغراضها ^(١) ، فكانت شروحه لها من أوفى الشروح ^(٢) . وبجانب ذلك كانت له شروح ومؤلفات فلسفية أخرى ^(٣) لا يقل عددها عما تناوله من كتب أرسطو ^(٤) . ويبدو أن ابن رشد نال شهرة بين معاصريه - حتى خارج الأندلس - بصفته متخصصاً بالفلسفة ^(٥) . وقد وصلت مؤلفاته فيها إلى أيدي الناس ^(٦) ، وسار في ركابه عدد من التلاميذ ^(٧) * . ومن ناحية أخرى كان لابن رشد الحفيد - أيضاً - تأثير ملموس في تطور علم الطب في الجانب النظري ، ذاك أنه بتلخيصاته النقدية لمؤلفات الإغريق الطبية مهّد السبيل لفهم ما ورد فيها من نظريات ، ثم ألقي نظرة فاحصة على أقاويلهم " في كثير من المسائل الطبية ، وأبدى فيها رأياً مخالفاً ، أو رسم لبعضها منهجاً جديداً ... " ^(٨) .



(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣١٦ .

(٢) ماجد فخري : ابن رشد فيلسوف قرطبة ، ص ٣ .

(٣) بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٣٥٧ .

(٤) جمال الدين العلوي : المتن الرشدي ، ص ١٣٨ ، ١٦٧ .

(٥) رينان : ابن رشد والرشدية ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

Cristobal Cuevas : el pensamieto del Islam, Madrid , ١٩٧٢ , P. ٢٣٠ .

(٦) يفهم هذا من قول المراكشي " وقد رأيت أنا لأبي الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم ... " (المعجب ، ص ٣١٥ - ٣١٦) .

(٧) بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٣٦٣ .

* ولقد لوحق تلامذة ابن رشد حين وقعت نكته ، فتفرقوا أيدي سباً (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٦ ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٧٦) .

(٨) محمد العربي الخطابي : الطب والأطباء في الأندلس ، ج ١ ، ص ٣٢٩ .

وهكذا عبر الصفحات الماضية عشنا مع العلماء المشاركين في الصراع مع النصارى زمن المرابطين والموحدين ؛ فتعرفنا - عن قرب - على الحياة الشخصية لطائفة منهم ، ثم تطرقنا لمكانتهم العلمية في عصرهم ، وبعدها دلفنا إلى مكانتهم التي تمتعوا بها بين معاصريهم . وأخيراً عرضنا لأثرهم العلمي في المجتمع الذي تربوا في أحضانه ، وتعاملوا فيه مع أفرادهم .

الفصل الثاني

أثر العلماء السياسي في مواجهة النصاري

استشعر نخبة من علماء الأندلس في عصري المرابطين والموحدين مسؤوليتهم حيال المد النصراني المتدافع نحو الديار الأندلسية ، والذي بات خطره يهدد نواحي كثيرة منها صباح مساء ؛ فعلاوة على جهودهم في تدريس علوم أعتاد طلاب المسلمين أن يتلقوها من العلماء في كل زمان ، وكذلك انشغالهم في قضايا المجتمع العادية - فقد سخرُوا قسطاً كبيراً من اهتمامهم لمواجهة الخطر النصراني ، وذلك بالتفكير في أنجع السبل لكبح جماحه ، والتخطيط المتوالي لمقاومته ، والعمل الدؤوب من أجل الوقوف في وجهه . وقد أخذ هذا الاهتمام من بعضهم كل مأخذ ، فطغى على أحاديثهم وكتاباتهم وتحركاتهم . ويمكن إجمال الأثر السياسي لهؤلاء العلماء في مواجهة النصارى إبان ذلك العصر في نقاط ثلاث هي :

- أولاً : أثرهم في الدعوة لمواجهة العدوان النصراني على الأندلس .
- ثانياً : أثرهم في الحفاظ على وحدة الأندلس أمام الخطر النصراني .
- ثالثاً : أثرهم في الاستنجاد بالدولة الحفصية لإيقاف الزحف النصراني في الأندلس .

أثر العلماء في الدعوة لمواجهة العدوان النصراني على الأندلس :

من المعلوم أن الأندلس " ثغر من ثغور المسلمين " ^(١) . فالمسلمون فيها كانوا في احتكاك دائم مع النصارى ^(٢) ، يشتد في فترات ، ويخف في أخرى . وقد غدا الطول والحول في عصر الطوائف للنصارى ، فاستأسدوا على المسلمين " وَكَلَبَ دَاوَهُمْ فِي كُلِّ إِقْلِيمٍ " ^(٣) ، " وصار لهم أقصى بلاد المسلمين مرتعاً " ^(٤) ، وأمسى لاهمَّ لهم " إلا استرجاع البلاد والأقطار ... وافتتاح القلاع ، والاستيلاء على الثغور ، تارة في سبيل المشاركة والاستجارة ، وتارة في سبيل المسالبة والمشاركة ، وتارة بالغلاب والمنازلة " ^(٥) . ومع أن المرابطين لما جاءوا إلى الأندلس تصدوا للإعتداءات النصرانية عليها إلا أن النصارى تربصوا بالأندلسيين الدوائر في عصر دولة المرابطين ، فاحتلوا بقاعاً متفرقة من البلاد . وكذلك الشأن في عصر الموحدين ، إذ وقف هؤلاء الأخيرون - بقدر وسعهم - أمام العدوان النصراني على الأندلس ، ولكن النصارى من جانبهم - أيضاً - استغلوا الفرص في ذلك العصر لاقتطاع الأراضي الإسلامية ، وحالما أخذت دولة الموحدين في الاضمحلال انطلق

(١) الحميدي : جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط . الثانية ، دار الكتب الإسلامية ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ق ١ ، ص ٣٦ .

(٢) ابن هذيل : تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس ، مخطوط م . نهيل (الدار البيضاء) نشر بالتصوير الفوتوغرافي لويس مرسى ، باريس ، ١٩٣٢ ، ورقة ١٠ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٢ ، م ١ ، ص ٢٤٨ .

(٤) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٨٩ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤١ .

النصارى في عدوانهم النَّهم على المدن الأندلسية ، فأسقطوا العديد منها ^(١) .
وما لا شك فيه أن تلك الانتهاكات العدوانية للأراضي الإسلامية من طرف
النصارى ، وما نجم عنها من تهاورٍ لكثير من الحصون والقرى والمدن في
أيديهم قد شهد أحداثها علماء الأندلس كغيرهم من الأندلسيين ، وعاشوا
مآسيها ، وتجرعوا آلامها . ولذلك هبوا - مدفوعين - بما أحدثته تلك
المشاهد في نفوسهم من أحاسيس ، وبما وهبهم الله من وعي لتدابير الأعداء ،
وسير لمكائدهم ؛ وكذلك بما يدركونه من واجب عليهم تجاه دينهم وأمتهم
- هبوا يستنفرون الناس ، ويستنهضون الهمم ويلهبون المشاعر ، ويستثيرون
الحماس ، ويذكرون جذوة الإيمان في القلوب لمجاهدة ذلك العدو، والتصدي
لأعماله العدوانية ، وغاراته التخريبية، ومخططاته التوسعية . وحين أوماً
المقرى ^(٢) إلى احتلال النصارى أراضي المسلمين في الأندلس أردف قائلاً :
ولم يزل العلماء والكتّاب والوزراء يحركون حميات ذوي البصائر والأبصار ،
ويستنهضون عزماتهم من كل الأمصار . وبالعودة إلى المصادر ذات الصلة
بعصر الدراسة سواء ما كان منها آثاراً خاصة بعلماء الأندلس في ذلك
العصر، أو ما كان معنياً بسيرهم ككتب التراجم والتاريخ والأدب وغيرها -
بالعودة إليها ، وتعقب ما يمكن اعتباره دعوة من جانب أولئك العلماء
لمواجهة النصارى في عصر المرابطين والموحدين فخرج بجملته متنوعة من
الأساليب والمناشط ، منها إصدار فتاوى تكشف للأندلسيين
ومن جاورهم وجوب جهاد العدو النصراني ، وأنه أكد عليهم من الحج إلى

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٢٧-٢٨ ؛ نهاية الأندلس ، ص ٧٥ .

(٢) أزهار الرياض ، ج ١ ، ص ٦٣ .

بيت الله الحرام . فابن حمدين (ت ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م) " أفتى ... في رجل قادر على الحج بجسمه وماله ، وإنه إن كان من الأندلس أو قطر بجاور لها - وهو قادر على الجهاد - أنه أكد عليه من الحج " ^(١) ، وقد أفتى ابن رشد الجد (ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) أن الجهاد لأهل الأندلس في زمنه أفضل من حج الفريضة الذي لا يتوفر فيه - آنذاك - شرط الوجوب حسب رأيه ، لأن الوصول إلى مكة بأمان - كما يرى - غير حاصل في ذلك الزمان ^(٢) . ثم إنه لما فاضل بين جهاد الأندلسيين للعدو وبين حج النفل من جهة وحج الفريضة من جهة أخرى - إن كانت السبيل مأمونة - أفتى أن الجهاد لحاج النفل " أفضل لما ورد فيه من الفضل العظيم " ^(٣) أما حاج الفريضة من الأندلسيين فإنه إن سقط فرض الجهاد على الأعيان بقيام مَنْ قام به " فيتخرج ذلك على الاختلاف في الحج هل هو على الفور أو على التراخي " ^(٤) أما في المكان الذي يتعين فيه الجهاد " على الأعيان فهو أفضل من حج الفريضة " ^(٥) ☆ .

وغير خافٍ أثر فتاوى العلماء في المجتمع الإسلامي لاسيما إذا صدرت من كبار علماء العصر، إذ يتلقفها الصغير والكبير ، ويأخذ بها العالم والجاهل ويتبلغها القاصي والداني . ففتاوى ابن حمدين وابن رشد في الجهاد

(١) الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م، ج ١، ص ٤٣٣

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٢ ، ص ١٠٢٣ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

☆ انظر نص الفتوى في ملاحق هذا الكتاب .

- وهما من كبار علماء الأندلس كما سلف معرفته - ينتظر أن يتسامع الناس بها ، فتشيع بين جمهورهم ، وتحرك سواكن قلوبهم لمواجهة النصارى .
وحيث أن فتاوى ابن رشد في الجهاد الآتفة الذكر صدرت منه رداً على سؤال من حاكم المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين ^(١) (٥٠٠هـ / ١١٠٦م - ٥٣٧هـ / ١١٤٢م) فمن المتوقع أن تتبنى الدولة المرابطة تلك الفتاوى ، فيكون انتشارها في البلاد أكبر ، ووقعها في النفوس أعظم .

ومما يندرج في نشاط العلماء للوقوف في وجه النصارى في تلك الفترة تخصيص دروس في المساجد للتحريض على جهادهم ، فهذا ابن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) يحكي عنه أحد تلامذته فيقول " سمعت كلامه بالمسجد الجامع من قرطبة ، وهو يحض الناس على الجهاد والغزو في سبيل الله ويورد ما جاء في فضله في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ بلسان طلق ، وإيراد مستحسن " ^(٢) . كما أن بعض علماء العصر طعموا الخطب التي تعودوا أن يُسمعوها الناس في الأعياد وغيرها - طعموها بالآثار الحاضرة على مجالدة العدو ^(٣) ، إضافة إلى أن بعض أئمة المساجد - لا سيما في العصر الموحدى - كانوا يستغلون احتشاد جماهير المصلين عندهم في المواسم ، فيحرصون على شحن النفوس بقضية الصراع ضد النصارى . بمثل قول أحدهم في الدعاء " اللهم إنك تعلم انقطاعنا بين عدانا ، وغربتنا في أرض قد راع الشرك فيها حِمَانًا... فتداركنا بنصر يعز دينك الحنيفي ويعليه ، وخذ بثأرنا من عدو يريد أن يطفئ نورك من أقطارنا ويخفيه ، ولا تسلط على أهل

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ ٢ ، ص ١٠٢٢ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٤ .

(٣) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٥٧٨-٥٧٩ .

التوحيد أهل التثليث ... " ^(١) ... " ولا تُخْلِ من ملتنا الشريفة مصلى ولا مسجداً ، ولا تُضَيِّع منا ركعاً لك في هذه البيوت المرفعة وسجداً... " ^(٢) إلى أن يقول " اللهم حسن في هذه البلاد أحوالنا ، وأحرس ربوعنا وجلالنا ، ولا تسلط علينا عدواً يستبيح ذِمَّارنا ، ولا تُورِّث الكفر بعد الإيمان أرضنا وديارنا... " ^(٣) . وثمة علماء من ذلك العصر عمدوا إلى أفراد بعض الخطب التي لا غرض لها سوى التحريض على مقاومة الأعداء والحث على مجاهدتهم، كما فعل أبو عبد الله بن أبي الخصال * (ت ٥٤٠ هـ / ١١٤٦ م) الذي خصص خطبة لمثل هذا الغرض ، ومما جاء فيها " ألا تستوحشون لتباريح العصر ، وركود ريح النصر ، وتداعي أمم الكفر ، وإجفاننا عن مقاومتهم ... ألا نُقلع عن الذنوب التي قَتَّت في أعضادنا وقضت باهتضامنا

(١) ابن المرباط : زواهر الفكر وجواهر الفقر ، ق ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٨ .

✽ وابن أبي الخصال هو محمد بن مسعود بن [طيب] بن فرج بن خلصة بن أبي الخصال الغافقي ، ولد في قرية فر غليط من شقورة عام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م . وسكن قرطبة ، وكان متفتناً في كثير من العلوم ، لكنه نبغ في اللغة والآداب والكتابة والخطابة والشعر ، فكان من أعلام عصره في البلاغة ، وقد خدم المرابطين ، فصار من كبار كتابهم ، ولقب بذي الوزارتين ، قتل في ذي الحجة عام ٥٤٠ هـ / ١١٤٦ م في فتنة قرطبة عند انقراض دولة المرابطين . وقد خلف عدداً من المصنفات والرسائل ، منها رسائله المطبوعة . انظر عن حياته وآثاره (ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٢ ، ص ٥١٨ - ٥٣٧ ؛ ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، ص ٧٨٦ - ٨٠٩ ؛ ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ٣٨٦ ، ٤١٨ - ٤٢١ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٨٨ - ٥٨٩ ؛ العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ ؛ الضبي : بغية الملتبس ، ص ١٣١ ؛ ابن دحية : المطرب ، ص ١٨٧ - ١٨٩ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٢٣٧ - ٢٤١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ - ٤١٨ ؛ مجهول : الدرر النيرة في أخبار الجزيرة ، مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس ، رقم ١٨٦٢١ ، ورقة ٢٥٥ ب - ٢٥٨ ب) .

واضطهادنا.... إلى أن يقول " فاستقيّلوا -رحمكم الله- عِثَارَكُمْ، واستقبلوا عدوكم، وخذوا ثاركم...." (١) .

ومما يحسب في عداد مجهودات علماء الأندلس لمواجهة العدوان النصراني ، وتقوية العزائم لدفعه - تصنيف كتب تتعلق بالجهاد في الإسلام ، وما يرتبط به من أحكام ، ككتاب " الترغيب في الجهاد " لأبي عبد الله التحيي ☆ (٢) (ت ٦١٠هـ / ١٢١٣م) وقد أتى وصفه بأنه مجلد متوسط (٣) ، يحوي خمسين باباً (٤) . وكتاب " الإنجاد في الجهاد "☆☆ لأبي عبد الله بن أصبغ المعروف بابن المناصف (٥) ☆☆☆ (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٣) الذي ندبه

(١) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٥٢٨ .

☆☆ وأبو عبد الله هذا هو محمد بن عبد الرحمن بن علي التحيي ، من أهل لقنت في كورة مرسية ، ولد حوالي عام ٥٤٠هـ / ١٠٤٨م برع في الحديث . وكان قد رحل إلى المشرق ، وعندما قتل من رحلته تلك سكن تلمسان بالمغرب ، وبها توفي في جمادى الأولى سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م ، له مجموعة من المؤلفات غير كتابه في الجهاد منها : كتاب الفوائد ، كتاب مناقب السبطين (السهيلي : جذوة المقتبس ، مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٦٤٩/تاريخ ، ورقة ٢٦ ب ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٨٨-٥٩١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٣٥٢-٣٥٧ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٦٠-١٦١ ؛ محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، ط . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ص ١٧٢-١٧٣) .

(٢) السهيلي : جذوة المقتبس ورقة ٢٦ ب ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٨٩ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٣٥٧ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ - ص ٥٨٩ .

☆☆ ورسم أيضاً عنوان هذا الكتاب بـ " الإنجاد في أحكام الجهاد " (الرعيي : برنامج شيوخ الرعيي ، ص ١٢٩) وكذلك بـ " الإنجاد في أبواب الجهاد " (الصديق بن العربي ، فهرس مخطوطات ابن يوسف بمراكش ، ط . الأولى ، دار الغرب ، بيروت ، ١٩٩١م ، ص ١٩٥) كما سمي أيضاً بـ " الاتحاد في أبواب الجهاد " (التنبكي : نيل الابتهاج ، ص ٣٧٩) .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٦١١ .

☆☆ وابن المناصف هو محمد بن عيسى بن أصبغ الأزدي ، كان والده قد خرج من قرطبة أثناء إخلال دولة المرابطين ، فاستوطن إفريقية ، فولد بها ابنه محمد هذا في رجب سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٦١١) كان فقهياً جانحاً إلى الاجتهاد يميل إلى المذهب الشافعي (ابن -

إلى تأليفه - حينما كان قاضياً في بلنسية - أحد ولاة الموحدين ^(١) فجاء كتابه هذا " في أبواب الجهاد، وتفصيل فرائضه وسننه، وذكر جمل من آدبه ولواحق أحكامه " ^(٢) ، فكان كتاباً مفيداً[☆] ، " استوعب فقه الجهاد " ^(٣) . وكذلك كتاب " بغية المرتاد في التعريف بسنة الجهاد " لأبي القاسم بن الطليسان^{☆☆} ^(٤) (ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م) . ويبدو أن هذه المصنفات قد كتب لها الذبوع بين الناس في ذلك الحين ، إذ أن مصنفها كانوا من العلماء

- عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٨ ، ق ١ ، ص ٣٤٦) وكان قد انتقل إلى تلمسان ، ثم ولى القضاء في بلنسية ، وبعدها في مرسية ، ثم ألزم سكنى قرطبة ، واستقر أخيراً في مراكش ، وبها توفي في ربيع الأول عام ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م) ، وله عدة مؤلفات منها - بجانب كتاب الإنجاد - كتاب تنبيه الحكام على مآخذ الأحكام ، وهو مطبوع (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٦١١ - ٦١٢ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة س ٨ ، ق ١ ، ص ٣٤٥ - ٣٥٠ ؛ التنبكي : نيل الابتهاج ، ص ٣٧٩ ؛ محمد مخلوف : شجرة النور ، ص ٣٧٩) .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٨ ، ق ١ ، ص ٣٤٨ . وانظر : محمد إبراهيم الكتاني : أبو عبد الله ابن المناصف المجتهد المغربي ، مجلة الباحث ، السنة الأولى ، م ٢ ، ١٩٧٢ م ، ص ٣٢ .
(٢) الكتاني : أبو عبد الله ابن المناصف ، ص ٣٢ .
☆☆ للتعرف باختصار على كتاب الإنجاد ، انظر : الكتاني : المرجع السابق ، ص ٣٥ - ٣٦ .
(٣) التنبكي : نيل الابتهاج ، ص ٣٧٩ .

☆☆ أبو القاسم بن الطليسان هو القاسم بن محمد بن أحمد الأنصاري الأوسي ، من أهل قرطبة ، ولد عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م كان ميرزاً في الحديث بجانب عنايته بعلوم أخرى . وحين سقطت قرطبة بأيدي النصارى هاجر إلى مالقة ، وبها توفي في ربيع الآخر سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م . وقد خلف عدداً من المؤلفات ، نذكر منها غير كتابه في الجهاد كتاب ما ورد من تغليظ الأمر على شربة الخمر ، وكتاب المنن على قاري الكتاب والسنن (السهيلي : جذوة المقتبس ، ورقة ٢٧ ؛ الرعييني : برنامج شيوخ الرعييني ص ٢٧ - ٣٠ ؛ ابن الأبار : التكملة : ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٧٠٣ - ٧٠٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٥٥٧ ، ٥٦٦ ؛ التنبكي : نيل الابتهاج ، ص ٣٦١) .

(٤) التحيبي : برنامج التحيبي ، ص ٢٣٦ .

الذين يتقاطر طلاب العلم الأندلسيون على دروسهم^(١) ، بل إن صاحب كتاب " الإنجاد " قد سعى إلى نشر كتابه بين أهل العلم عن طريق الإهداء^(٢) ، بينما كان كتاب " بغية المرتاد " يقرأه طلاب العلم ويتداولونه بعد سنين طويلة من وفاة مؤلفه^(٣) . وكل هذا يوحى بروج مثل هذه الكتب بين الأندلسيين .

ومما لا شك فيه أن من الأهداف الرئيسة لهؤلاء العلماء - لما صنفوا كتبهم الآنف الذكر - تحريض الناس على الجهاد في سبيل الله ، وتذكيرهم بواجب النهوض به ومخاطر القعود عنه ، وما أعده الله سبحانه للقائمين به من جزيل الثواب ، وعظيم التكريم . وهذه الأغراض السامية هي التي ينشدها عادة علماء المسلمين في التأليف عن الجهاد ، وبخاصة في العصور التي يتكالب فيها الأعداء على المسلمين^(٤) .

وبالإضافة إلى هذه المؤلفات الخاصة بالجهاد وفضله فإن بعض علماء الأندلس الذين ألفوا في تفسير القرآن أو شروح السنة النبوية قد توقفوا عند بعض الآيات أو الأحاديث الخاصة بالجهاد، فعنوا ببيانها، ووسعوا مدلولاتها^(٥)

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ٢ ، ص ٥٦٥ ، س ٦ ، ص ٣٥٦ ؛ س ٨ ، ق ١ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٢) الرعييني : برنامج شيوخ الرعييني ، ص ١٢٩ .

(٣) التحيبي : برنامج التحيبي ، ص ٢٣٦ . الوادي آشى : ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوى الوادي آشى ، تحقيق : عبد الله العمراني ، ط . الأولى ، دار الغرب ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٢٥٠ .

(٤) محمد خير هيكل : الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ، ط . الأولى ، دار البيارق ، بيروت ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، ج ٢ ، ص ٨٤٢ - ٨٤٣ .

(٥) انظر مثلاً : ابن برجان : تفسير ابن برجان (قطعة منه) مخطوط مكتبة عزيزة الوطنية بالجامع الكبير كتاب رقم ٩٧ ، ورقة ١ ، ٢ ، ٤٥ ؛ ابن عطية : المحرر الوجيز ، ج ٢ ، ص ١٥٩ ، ٢٤٦ -

وأحياناً مثلوا لتوضيحها بواقعهم الذي شاهدوه^(١) ، أو بما جرى لهم شخصياً في ميدان القتال مع النصارى^(٢) . ولعلنا لا نكون في الخيال مغرقين إذا قلنا أن ما حبره هؤلاء في كتبهم لا بد أنه كان صدى لما يتفوهون به في دروسهم ومحاضراتهم ومجالسهم من أقوال حول الجهاد والتي سيكون لها كبير الأثر في مَنْ يُصغى إليها .

وشيء آخر يمكن أن يلحق بهذا الاتجاه ، وهو ما سلكه أبو الحجاج البلوى[☆] (ت ٦٠٤ هـ / ١٢٠٨ م) في كتابه الموسوم بـ "ألف باء"^{☆☆} الذي يُعد معلمة "جامعة لفنون الثقافة العامة"^(٣) ، فهو في كتابه هذا^{☆☆☆} - فوق

- ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ج ٤ ، ص ١٧١ - ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٩٣ ، ٢٢٢ ، ج ٨ ، ص ٧ - ٨ ، ١٠٣ ، ٢٨٢ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ؛ ابن العربي : أحكام القرآن ، ق ١ ، ص ١٠٢ - ١٠٦ ، ١١٠ ، ١٤٦ ، ٤٥٨ ، ق ٣ ، ص ١١٧١ - ١١٧٢ ؛ عارضة الأحوزي ، ج ٨ ، ص ١٦٥ - ١٦٨ ؛ القبس ، ج ٢ ، ص ٥٨٤ - ٥٩٠ .

(١) انظر على سبيل المثال : ابن عطية : المحرر الوجيز ، ج ٨ ، ص ٢١٣ ، ج ١٥ ، ص ٥٠٤ ؛ ابن العربي : أحكام القرآن ، ق ١ ، ص ٥٠٩ .

(٢) انظر ما ذكره ابن العربي عن نفسه في : أحكام القرآن ، ق ٢ ، ص ٨٧٣ ، ٩٥٥ ، ق ٤ ، ص ١٧٠٨ ؛ عارضة الأحوزي ، ج ٨ ، ص ١٧٥ .

☆ وأبو الحجاج هو يوسف بن محمد بن عبد الله البلوى المالقي ، ويعرف بابن الشيخ ، ولد عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م ، له رحلة إلى المشرق ، وكان مبرزاً في اللغة والأدب ، وقد شارك بنفسه في الجهاد ، وتوفي في رمضان ٦٠٤ هـ / ١٢٠٨ م وقد ألف غير كتاب "ألف باء" كتاب التكميل . (المنذري : التكملة ، ج ٢ ، ص ١٤٧ ؛ ابن الأبار : التكملة ، تحقيق الهراس ، ج ٤ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٢١٧ - ٢٢٠ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٤٧٩) .

☆☆ للتعرف على منهج البلوى في كتابه هذا . انظر : رضا عبد الجليل الطيار : الدراسات اللغوية في الأندلس ، ط . دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ م ، ص ٥٨ - ٦٠ .

(٣) بالثبوت : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ١٧٩ .

☆☆☆ رجع البلوى إلى أكثر من سبعين كتاباً في تأليفه (عبد الله خالص : كتاب ألف باء ، مجلة المقتبس ، ٧٠ ، ج ٥ ، سنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م ، ص ٣٦٤) .

عرضه لجوانب متعددة من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته وسير أصحابه ^(١) والتي تعتبر في حد ذاتها تذكيراً للأمة بماضيها المتألق الذي يحملها على الاندفاع لمواجهة الأعداء - فهو فوق ذلك غنى بالكلام عن الجهاد في سبيل الله وما يتصل به من سلاح وخيل ونحوهما ^(٢) ، وأكد أنه قد " جاء في فضل الجهاد ما تنقطع دونه الأكباد " ^(٣) وفي شرحه لقول النبي ﷺ : " ليس من اللهو إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه " ^(٤) ^(٥) سخره لإبراز أهمية الجهاد ، والحث عليه ، وقال في ختام الشرح : " فانظر ... في أي موطن اللهو مباح ، وأي شيء منه عليه الصلاة والسلام أباح ، أباح والله منه تعليم الخيل المعدة للقتال ، وتعليم الرمي بالقسي والنبال ، وملاعبة الأهل للتوالد والانتسال ، وهذه كلها خلال خلال لا يقوم بها إلا الأبطال من الرجال ، حض فيه عليه الصلاة والسلام على الجهاد الذي هو متماد مع كل بر وفاجر إلى يوم التناد ،

(١) انظر مثلاً : البلوى : ألف باء ، ط . الثانية ، عالم الكتب ، بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ج ١ ، ص ٥٢ - ٥٣ ، ٨٩ - ٩١ ، ١٤٨ - ١٥٠ ، ٢٢٢ - ٢٢٥ ، ٤١٤ - ٤١٩ ، ٤٣٤ - ٤٤٥ ، ٥٣٨ - ٥٤٠ ، ج ٢ ، ص ٩١ ، ١٠٩ - ١١٢ ، ١٥٥ - ١٥٦ ، ٢٢٨ - ٢٣٤ ، ٤١٨ - ٤٢٠ ، ٥٢١ - ٥٢٤ ، ٥٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥١٦ ، ٥٢١ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥١٩ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥١٦ .

(٥) انظر روايات للحديث في : أحمد : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، إعداد مجموعة من الباحثين ، إشراف سمير طه المجذوب ، ط . الأولى ، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، ج ٤ ، ص ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ . ولعرفة درجة صحته ، انظر : ابن قيم الجوزية : الفروسية ، تحقيق : مشهور بن حسن ابن سلمان ، ط . الأولى ، دار الأندلس ، حائل ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، ص ١١٧ ، حاشية " ٢ " .

ونذب فيه إلى الرمي بالسهام الذي فيه من الأجر أوفر السهام ، ودعا إلى ملاعبة النساء لإيجاد الأولاد المظهرين للاجتهاد في الجهاد ^(١) . ولم يكتف أبو الحجاج البلوى بذلك ، بل صنع قصيدة مطولة في الجهاد ، أبياتها تربو عن المائة ^(٢) . وقد ساق لنا منها عدة أبيات ^(٣) . ففي التحريض على الخروج للغزو ، يقول :

ولا حبذا خفق البنود	ولبس السابغات من الحديد
ومشى في المهامة** والفيافي	إلى أرض الأعادي بالجنود
ألا يا صاح هذا الغزو فانهض	إليه فذا من الرأي السديد
وقوسك خذْ، ونبلك ثمّ واخرج	ولا تُرين في القوم القعود
وكن بالرمي مغتبطاً وفاخر	به فكأنه سعد السعود
ألم تسمع أعدوا ما استطعتم	لهم من قوة قول الودود
وفسرها النبي الرمي فاعلم	وكرره لمعناه العتيد

إلى أن يقول :

فشمّر عن ذارعك وارم حتى تكسر في الرماية كل عود^(٤)

(١) البلوى : ألف باء ، ج ٢ ، ص ٥٢١ .

** تأمل مدى اهتمام البلوى في شؤون الجهاد ، بحيث جعل ملاعبة النساء وسيلة لإيجاد الأولاد الذين يقومون بحق الجهاد في سبيل الله ، وانظر - أيضاً - ما قاله قبل ذلك في المعنى نفسه (ألف باء ، ج ٢ ، ص ٥١٨) .

(٢) البلوى : ألف باء ، ج ٢ ، ص ٥٢٠ .

(٣) البلوى : ألف باء ، ج ٢ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ ، ٥٢٠ .

*** المهامه جمع مهمّة ومعناها : المفازة البعيدة أو البلد المقفر (الزبيدي : تاج العروس ، ج ١٩ ، ص ٩٦) .

(٤) البلوى : ألف باء ، ج ٢ ، ص ٥٢٠ .

وإذا علمنا أن هذه القصيدة نشرها البلوى في أكثر من كتاب له ^(١)، كما أن كتابه "ألف باء" أصلاً كان "يجمع أطراف ثقافة أوساط الناس في عصره، ويجعلها في متناول قارئه" ^(٢) إذا علمنا ذلك تخيلنا مقدار ما قد يحدثه كلامه عن الجهاد من أثر في تهيج الأندلسيين لمواجهة الأعداء*.

ولعل من الأساليب التي أخذ بها علماء الأندلس لاستثارة حماس الناس، وحفزهم للتضحية في سبيل الوقوف في وجه العدوان النصراني - هو عرضهم - نثراً أو شعراً - أحداث سقوط مدن أندلسية عايشوا سقوطها، أو شهدوا سقوطها بأنفسهم، وما صاحب ذلك من جرائم شنيعة، وأفعال ذنيئة اقترفها النصارى في حق المسلمين ^(٣)، فابن علقمة** (ت ٥٠٩هـ/١١١٦م)

(١) البلوى: الف باء، ج ٢، ص ٥٢٠.

(٢) بالثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٧٩.

* ثمة عدد من الشعراء المعاصرين لزمان البحث أنشدوا قصائد في شخصيات سياسية من الحكام والأمراء، وضمنوها دعوة تلك الشخصيات للجهاد. انظر أمثلة في: (ابن خاقان: قلائد العقيان، ج ٣، ص ٦٥٨ - ٦٥٩؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٩٥ - ٩٨، ١٠٢ - ١٠٥؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، ص ٣٩٣، ج ٤، ص ٤١١ - ٤١٥؛ الإحاطة "نصوص جديدة لم تنشر" تحقيق: عبد السلام شقور، ط. مؤسسة التغليف والطباعة والنشر، تطوان، ١٩٨٨م، ص ١٨٩ - ١٩٠؛ المقرئ: نفح الطيب، ج ٣، ص ٣٤٥، ج ٤، ص ٤٧٨) وحيث أن تلك القصائد الشعرية غير مقصورة على الدعوة للجهاد أو ربما أنها لم تُنشأ في الأصل للدعوة إلى الجهاد - فقد آثرنا إغفالها وعدم الاستشهاد بشيء منها.

(٣) محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ط. دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م، ص ٣١٧.

** ابن علقمة هو أبو عبد الله محمد بن خلف بن الحسين الصدي، من أهل بلنسية، ولد عام ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م. وكان ينتحل الكتابة وقرض الشعر، توفي في شوال سنة ٥٠٩هـ / ١١١٦م. (ابن الأبار: التكملة، ج ١، ص ٤١١ - ٤١٢؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ص ٦، ص ١٨٤).

صنف كتاباً في تغلب النصارى على بلنسية عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م^(١) ، " وهو ممن شهد الوطن " ^(٢) ، وقد سماه " البيان الواضح في الملم الفادح " ^(٣) صور فيه ما جرى لأهلها من أهوال ^(٤) بأسلوب " يكي القارئ ، ويذهل العاقل " على حد قول أحد المؤرخين ^(٥) . وقد تناقله الأندلسيون في وقته ، ثم ظل متداولاً بينهم يرويه الخلف عن السلف حتى أن بعض كتاب القرن السابع الهجري حرصوا على الاقتباس منه ^(٦) . ثم إن اثنين ممن شاركوا في جهاد النصارى مشاركة ميدانية كانا ممن حدثا بالكتاب ، وهما ابن عات النفزي (ت ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م) وأبو الربيع الكلاعي (ت ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م) ^(٧) . وتداول هذا الكتاب بين الناس ، وروايته عمن قام بالجهاد دليل مقنع - فيما يبدو - على أثره في إشعال حرارة الحماس ، وإذكاء روح الفداء بين

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٠٤ ؛ وانظر : التمهيد من هذه الرسالة .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٣ ، ص ٣٠٦ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٤١٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ١٨٤ .

(٤) بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ١١٦ ، ٣٠٥ ؛ حامد كساب عياط : أدب الجهاد في الأندلس في عصر المرابطين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، الجامعة الأردنية ، ١٩٨٣ ، ص ١٥٣ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ ، ج ٤ ، ص ١٤٨ ، لمعرفة مزيد من المعلومات على هذا الكتاب ، انظر : كريم عجيل حسين : الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية ، ص ٤٦٩ - ٤٧٣ .

(٦) ابن الأبار : التكملة ج ١ ، ص ٤٠٤ ، ٤١٢ .

☆ وما هو خليق بالذكر أن الذين ألفوا المدونة العامة الأولى لإسبانيا المسماة تاريخ إسبانيا العامة ترجموا كتاب ابن علقمة إلى الإسبانية ، وأدخلوه ضمن هذه المدونة العامة . (حسين مؤنس : السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، م ٣ ، عدد ١ ، مايو ١٩٥٠ ، ص ٥٧ حاشية "١" ؛ حسن الوراقلي : ياقوتة الأندلس ، ط. دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٤ م ، ص ٥٩) ، ولكن كثيراً من نصوصه المترجمة إلى الإسبانية ترجمت ترجمة غير آمنة (الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٣٧٨) .

(٧) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

أهل الأندلس لمجابهة أعدائهم . ومما يشابه في موضوعه كتاب " البيان الواضح " - المتقدم الذكر - ما سطره يراع الكاتب ابن المطرّف بن عميرة المخزومي* (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) عن أحداث سقوط جزيرة ميورقة بأيدي النصارى في صفر عام ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م^(١)، وذلك في كتاب له سماه المقرئ^(٢) " تاريخ ميورقة " حيث دججه ابن عميرة - كما تقول المصادر - " في كائنة ميورقة " ^(٣) أو " في كائنة ميورقة ، وتغلب الروم عليها " ^(٤) ومن

☆ أبو المطرف هو أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن أحمد بن عميرة المخزومي ، شكك بعضهم في نسبته إلى مخزوم (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ١٥٠ - ١٥١) ولد في شقر وقيل في بلنسية في رمضان عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م . تفنن في كثير من العلوم لكنه مال إلى الأدب ، وعُد من كبار مجيدي النظم ، أما الكتابة فكان إمامها في عصره . وقد كَتَبَ لعدد من أمراء شرقي الأندلس ، ثم انتقل إلى العدو وكتب لحكام الموحدين في مراكش ، ثم تنقل في المدن المغربية حتى انتهى به المطاف عند السلطان الحفصي في إفريقية . وتوفي في تونس في ذي الحجة عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م على القول الراجح . ومما تجدر الإشارة إليه أنه تقلب في قضاء عدد من المدن الأندلسية والمغربية ، وقد خلف كماً هائلاً من الرسائل والأشعار ، وله عدد من المؤلفات . انظر ترجمته في : (ابن عميرة : رسائل أبي المطرف بن عميرة ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ، رقم ٥٢٣٢ ، ورقة ٦٧ - ٧٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ١٥٠ - ١٨٠ ؛ الغريبي : عنوان الدراية ص ٢٩٨-٣٠٢ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٧٣ - ١٨٠ ؛ ابن فرحون : الدياج المذهب ، ج ١ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٣١٩ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣١٣ - ٣١٧ ؛ ابن خليل : اختصار القدر المعلق ، ص ٤٢ - ٥٢) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، الحلة ، ج ٢ ، ص ٣١٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٧ ، ص ١٩ .

(٢) نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٦٩ .

(٣) ابن فرحون : الدياج المذهب ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ١٧٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٧٨ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

المرجح أنه ألفه عقب سقوط تلك الجزيرة مباشرة* ، فقصده من ذلك شرح ظروفها حينما هاجمها النصارى ، ثم بيان ما ارتكبه هؤلاء الغزاة في حق أهلها من القسوة والعنف والتنكيل ، وكأنه " أراد بعمله هذا أن ينبه الناس إلى الخطر الذي يهدد كيانهم ويدفعهم إلى الاستعداد والاحتياط لأنفسهم قبل فوات الأوان " (١) ويروى أن ابن عميرة احتفل بهذا الكتاب من حيث الأسلوب (٢) ، فلعله أراد بذلك - فيما يظهر - " أن يثير حماس الأندلسيين ، وينبهمهم من غفوتهم " (٣) ☆☆ .

وثمة علماء أندلسيون رثوا بالشعر الأندلس بصفة عامة ، أو مدناً معينة

☆ أكد بعض الكتاب أن ابن عميرة كان قاضياً لميورقة قبيل سقوطها ، فشهد بأمر عينة فصول مأساتها (ابن الأبار : الحلة ، ج ١ ، ص ٣١ من مقدمة المحقق ؛ عصام سيسالم : جزر الأندلس المنسية ، ص ٤١٢ ، ٥٣٧ ، ٥٤٨) وبالرجوع إلى المصادر المتوافرة لا نجد ذكراً لهذه المعلومة ؛ بل إن الذي ذكرته المصادر قاضياً لميورقة قبيل سقوطها إنما هو محمد بن أحمد بن عبد الودود البكري (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٦٢٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٧) .

(١) محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ، ص ٢٨٨ .
(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ١ ، ق ١ ، ص ١٧٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٣) محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ، ص ٢٨٩ .
☆ وهناك رسائل قصيرة كتبها علماء في عصر الدراسة عند سقوط المدن ، ولكنها كانت رسائل شخصية بعثوها إلى القادة أو إلى إخوانهم ، فلم تكن موجهة - أصلاً - إلى الناس ، وربما أن هؤلاء الآخرين لم يطلعوا عليها إلا بعد زمن . ومن هذه الرسائل رسالة كتبها أبو محمد بن عطية (ت ٥٤١هـ / ١١٤٧م) عن سقوط ميورقة بأيدي النصارى عام ٥٠٨هـ / ١١١٤م خاطب بها أحد رجال الدولة المرابطية (ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٣ ، ص ٦٦٦-٦٦٩) ورسالة كتبها ابن عميرة المخزومي (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) إلى صاحبه ابن الأبار (ت ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م) في حادثة سقوط بلنسية عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٤٨-٤٩ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٩٠-٤٩٦) ثم رسالة ابن الأبار التي أحاب عنها ابن عميرة في الغرض نفسه (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٥٢-٥٤ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٩٨-٤٩٩) .

منها بصفة خاصة ^(١) ، فكانت استجاشة عواطف المسلمين وشد عزائمهم لمواجهة العدو النصراني إحدى المقاصد التي استهدفها أولئك العلماء الشعراء في قريضهم الذي نظموه في ذلك الغرض ^(٢) . فإبراهيم بن فرقد* (ت ٥٧٢هـ / ١١٧٦م) بكى الأندلس بقصيدة طويلة بقي منها :

ألا مسعدٌ منجز ذو فِطْن	يكي بدمع معين هَـتِن
جزيرة أندلس حسرة	ألا غالب من حقود الزمن
ويندب أطلالها آسفاً	ويرثي من الشعر ما قد وهن
ويكى الأيامي ويكى اليتامى	ويكى الحمام ذوات الشجن
ويشكو إلى الله شكو شج	ويدعوه في السر ثم في العلن
وكانت رباطاً لأهل التقى	فعادت مناطاً لأهل الوثن
وكانت معاذاً لأهل التقى	فصارت ملاذاً لمن لم يَدِن
وكانت شجى في حلوق العدا	فأضحى لهم ما لها محتجن ^(٣)

فهذه الأبيات التي اشتهرت بين الأندلسيين ^(٤) وإن كان طابعها

(١) فوزي سعد عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ١٨١ ؛ عبد الله الزيات : رثاء المدن في

الشعر الأندلسي ، ط. الأولى ، جامعة قاريونس ، بنغازي ، ليبيا ، ١٩٩٠م ، ص ١٣٤ .

(٢) منجد مصطفى بهجت : الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد ملوك الطوائف والمرابطين ،

ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م ، ص ٣٢٢ ؛ عبد الله الزيات : رثاء المدن

، ص ٤٣٣ .

* وابن فرقد هو أبو إسحاق إبراهيم بن خلف بن محمد بن الحبيب بن فرقد القرشي العامري ، من أهل

مورور ، ولد عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ، وسكن إشبيلية ، وقد كان محدثاً فقيهاً شاعراً كاتباً ، له عدة

توالت ، وتوفي في محرم سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١٥٣ ؛ وابن

الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٧) .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

العام رثاء الأندلس فإنها تحمل في طياتها دعوة قوية للتصدي للخطر النصراني ، " فإن فيها ثروة عاطفية حقة قادرة على إثارة المشاعر ، وحفز الهمم ، يظهر ذلك في الوصف المؤثر لأوضاع المسلمين ... وقد أحرق العدو بهم ، والمقارنة بين حالها أيام قوة المسلمين وحالها بعد ضعفهم ، وإبراز خطر الأعداء على التراث الإسلامي ، وجماعة المسلمين الذين قُتل كثير منهم فكثير الأيامى واليتامى ، وأصبحت البلاد ملاذاً للكفار بعد ما كانت عامرة بأهل الإيمان " ^(١) . وفي قصيدة لأبي المطرّف بن عميرة ^(٢) - المار ذكره قبل قليل - رثى بها إحدى المدن الأندلسية جاء فيها :

وهم * حربٌ لنا وهم وشَل سألَمَه الوردون فاستبحرُ
وإنا لَنرجو للدهر فيئةً مَنْ أنابَ مما جناهُ واستغفرُ
ونرقبُ الكرةَ التي أبداً بها على الرومِ لم نَزَلْ نُخبرُ

ففي الأبيات السالفة هوّن ابن عميرة من شأن العدو النصراني ، فأكد أنه ليس بذي قوة لولا ما حصل من جانب المسلمين الذين تخاذلوا عن لقاءه ، وتهافتوا على مسالته ، فتوسع على حسابهم ، ثم بين أن نصرهم على العدو ليس ببعيد المنال إذا هم أنابوا إلى ربهم واستغفروه ، لا سيما وأنهم يملكون وعداً ربانياً بالنصر المؤزر على الروم (النصارى) . فكأنه أراد بذلك كله أن يعيد الثقة إلى أفئدة المسلمين ، ويزرع الأمل في نفوسهم ، ويستنفّرهم

(١) شفيق محمد الرقب : شعر الجهاد في عصر الموحدين ، ط . مكتبة الأقصى ، عمّان ، ١٩٨٤ م ، ص ٢٢١ .

(٢) رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ١٦ .

* جاء في مخطوط آخر لرسائل ابن عميرة لفظ " والروم " بدلاً من الضمير " وهم " (محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة ، ص ٢٣٢) .

لمواجهة الاحتلال النصراني .

ومما يغلب عن الظن أن إبراز فضائل الأندلس وخصائص سكانها في مؤلفات كتبها بعض رجال العلم في الأندلس في الفترة التي ندرسها كان من أهدافه إيقاظ الأندلسيين ، وتأجيج مشاعرهم نحو بلادهم المهددة من قبل النصارى . فابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م) حشد في كتاب - لا وجود له بين أيدينا الآن* - أحاديث وأثراً في فضل الأندلس على غيرها من الأقطار^(١) . بل الملفت للنظر أن الضبي (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م) لما اقتبس أخبار فتح الأندلس من أحد المؤرخين السابقين على عصره - خرج عن الاقتباس^(٢) وراح يثبت بكلام مسهب أن الأندلس هي المعنية بما جاء في أحد الأحاديث الصحيحة التي قالها الرسول ﷺ في غزو البحر^(٣) ، حتى خلاص في النهاية أن للأندلس فضلاً " لا يشاركها غيرها فيه " ^(٤) .

ومن صور الاستنفار لمواجهة النصارى في زمن البحث إبراز العلماء لماضي الأمة المجيد^(٥)، وعلى الخصوص ما يتصل بعصر النبي ﷺ والصحابة

* قال حاجي خليفة : " ولابن بشكوال تاريخ صغير للأندلس " (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ط . دار العلوم الحديثة ، بيروت ، ١م ، ص ٢٨٦) . فهل هذا هو الكتاب الذي ذكر فيه فضائل الأندلس ؟ انظر : حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ٢٨٥ ، ٢٩٤ .

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٤ ، وحاشية "٢" ؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ج ١ ، ص ١٥ .

(٢) قارن بين ما أورده الحميدي - وهو المؤرخ الذي نقل منه الضبي - (جذوة المقتبس ، ق ١ ، ص ٣١) وبين ما أنشأه الضبي نفسه (بغية الملتبس ، ص ٢) .

(٣) الضبي : بغية الملتبس ، ص ٢ - ٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٥) أبو الحجاج البياسي : الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام ، تحقيق شفيق حاسر -

الكرام رضي الله عنهم ، وذلك بالكتابة عنه ، وإذاعته بين الناس ^(١) ، فالرعيل الأول من هذه الأمة ضربوا أروع الأمثلة في العزة والشجاعة إزاء أعداء الملة ، وقدموا دماءهم رخيصة في سبيل نشر هذا الدين ، والذود عن حياضة . فذيع مثل هذا بين الأندلسيين سيفجر - بلا شك - روح التضحية والفداء ، ويجرّكهم لمحاكاة فعل أولئك السلف ، والاقتراء بهديهم ، وترسم خطاهم ، وساعتئذ تنقدح العزة الإسلامية فيهم ، ويهبوا لمقاتلة الذين يلونهم من النصارى . فتأمل ما وضعه أبو الريح (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) في اعتباره عند تأليفه لكتاب عن الرسول ﷺ ومغازيه ومغازي خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم ، فقد قال بعد ذكره قصده الأول من التأليف - وهو وجه الله تعالى - " القصد الثاني متوفر على إظهار الرغبة في إيناس الناس بأخبار نبيهم ﷺ وعمارة خواطرم بما يكون لهم في العاجل والآجل أنفع وأسلم ... ولا أحسن بعد كتاب الله ... من أخبار رسول الله ﷺ التي بالوقوف عليها توجد حلاوة الإسلام ، ويُعرف كيف تمهدت السبل إلى دار السلام " ^(٢) ثم يضيف قائلاً " فإنه لا يخلو الحاضرون ^(٣) لهذا الكتاب من أن يسمعوا ما صنع الله لرسوله في أعداء تنزيله ، فيستجزّلوا ثواب الفرح بنصر الله ، أو يستمعوا ما امتحنه الله به من الحن ... فيعتبروا بعظيم ما لقيه من شدائد الخطوب ، ويصطبروا لعوارض الكروب ، تأديباً بآدابه ، وجرياً في

- أحمد ، ط . الأولى ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ج ١ ، ص ٨٠ من مقدمة المحقق .

(١) حسين مؤنس: شيوخ العصر ، ص ١٠٥ ؛ العربي : الحياة العلمية في الأندلس ، ص ٣٢٥ ، حاشية "٣" ،

ص ٣٩٢ ؛ الحسين : مظاهر النهضة الحديثة في عهد يعقوب المنصور الموحد ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

(٢) الكلاعي : الاكتفاء في مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء ، ج ١ ، ص ٥ .

(٣) في طبعة أخرى " الناظرون " . الكلاعي : الاكتفاء ، ج ١ ، ص ٦ ، حاشية "١" .

الصبر على ما يصيبهم، والاحتساب لما ينوبهم على طريقة صبره واحتسابه " (١)
ثم يعقب على ذلك بقوله "وتلك غايات لن نبليغ عَفْوَهَا بجهدنا ، ولن نصل
أدانيها بنهاية رَكْضِنَا وَشِدَّتِنَا ، وإنما علينا بذلُ الجهد في قصد الاهتداء ... " (٢) .
كذلك ابن حُبَيْش* (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م) لما أَلَفَ - بأمر من أحد حكام
الموحدين* - كتاباً عن غزوات الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوّل رضوان الله
عليهم أوماً إلى أن هؤلاء الخلفاء "قد توالّت في أيامهم الغزوات والفتوح
الخطيرة ، واستولى تغلبهم على أصقاع طوائف الشرك والكفر وبلادها الدانية
والشطيرة، واطفؤوا مجدهم واجتهادهم نيران الكفرة الطغاة المستطيرة... " (٣)
ثم أفصح عن الغاية التي كان يتوخاها من جمع أخبار تلك الغزوات وهي "أن
تنبعث الهمم الأبية من مكانسها ، وتتجرد العزائم القوية من ملابسها ، وتُجتنى
العواقب الرضية من مغارسها ، وتعلّى المراتب العلية من مدارجها ومراقبها ،
وتمتاح الآراء المصيبة من فرضها ومساقبها ، فيُحتذى ذلك الحذو، ويمثّل ذلك
المثال، ويدرك بعون الله وتأييده ذلك المدرك ، ويُنال بنصره وإنجاز

(١) الكلاعي : الاكتفاء ، ج ١ ، ص ٦ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

✽ وابن حُبَيْش هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري ، ولد بالمريّة عام
٥٠٤هـ / ١١١٠م . ولما تغلب النصاري عليها سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م خرج منها إلى مُرْسِيّة ، ثم سكن
جزيرة شُقَر ، فتولى بها القضاء والخطابة ، برع في علم الحديث ، وكانت له اهتمامات في علوم
أخرى. توفي بمِرسية في صفر عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م ، وقد ترك عدة مصنفات (المنذري : التكملة ،
ج ١ ، ص ٧٩-٨١ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٥٧٣ - ٣٧٥ ؛ الذهبي :
سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ١١٨ - ١٢١) .

✽✽ هذا الحاكم هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨هـ / ١١٦٣م - ٥٨٠هـ / ١١٨٤م) (ابن

حبيش : الغزوات الضامنة ، ج ١ ، ص ١) .

(٣) ابن حبيش : الغزوات الضامنة ، ج ١ ، ص ٧ .

وعده مثل ذلك المثال ... " (١) .

ويلاحظ أن التأليف عن عصر النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عنهم أصبح سمة مميزة من سمات ذلك العصر ؛ حيث صنفّت مجموعة من الكتب والقصائد في سيرة النبي ﷺ ومغازيه (٢)، ونبوته (٣)، وشمائله (٤)، ومعجزاته (٥)، وفي مدحه (٦) وأزواجه وأهل بيته وأصحابه (٧)، وفي فضائل الصحابة ومغازيهم (٨) .

ومن المتوقع أن يكون لمثل هذه المصنفات أثر في إنهاض الناس لجهاد النصارى ، لا سيما وأن الحكام في ذلك الزمان اهتموا بهذا اللون من التصنيف ، فأمرّوا العلماء بالتأليف فيه (٩) ، وشجعوا على الكتابة

(١) ابن حبيش : الغزوات الضامنة ، ج١ ، ص ٨ .

(٢) الرعيبي : برنامج شيوخ الرعيبي ، ص ٥٢ ، ٦٧ ، ١٥٢ ؛ السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق : فرانز روزنثال ، ترجمة صالح العلي ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م ، ص ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٨ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ١٩٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٣٠ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٩٠ ، ١٢١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ج٤ ص ٨٦ ، ١٧٥ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ٢٨٨ ، ص ٦ ، ص ١٩ ؛ الوادي آشي : برنامج الوادي آشي ، تحقيق محمد محفوظ ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، أثينا ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ص ٢٢٤ .

(٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ٣٧٢ ، ص ٦ ، ص ٣٦١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ٤٩٠ ، ج٣ ، ص ٥١٩ .

(٧) حياة قارة : رائية أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي البننسي ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٩٨ ، محرم ١٤١٤هـ / يوليو ١٩٩٣م ، ص ١١٢ .

(٨) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٤١٨ ؛ الرعيبي : برنامج شيوخ الرعيبي ، ص ٦٤ .

(٩) ابن حبيش الغزوات الضامنة ، ج١ ، ص ٧ .

عنه ^(١) . كما صارت كتب المغازي - مثلاً - تُقرأ في مجالس بعضهم ^(٢) . فضلاً عن كون بعض تلك الكتب قد قُدر لها الانتشار بين أفراد الجماعة الأندلسية ^(٣) .

ومن ناحية أخرى فإن فريقاً من أهل العلم الأندلسيين - حرصاً منهم فيما يظهر - على شحن الناس لحرب النصارى عادوا يقلبون صفحات التاريخ الأندلسي ، وينوهون في كتاباتهم بأسلافهم الذين كانت لهم وقائع مشرفة أيام الفتح والدولة الأموية ضد أولئك الأعداء ^(٤) ، حيث صاروا يستعيدون ذكرى "موسى بن نصير وطارق ، ومن بعدهما من ملوك الأندلس الذين راعت العدو الكافر منهم طوارق" ^(٥) .

وعلى صعيد آخر فالمظنون أن إشاعة أخبار انتصارات المسلمين في الشام على النصارى الصليبيين بين أهل الأندلس كان طريقة من طرق العلماء في ندب الناس على مجابهة نصارى إسبانيا والتصدي لهم ، فعلماء الأندلس تابعوا الصراع الدائر بين المسلمين والنصارى هناك ^(٦) ، وشارك بعضهم فيه ^(٧) ، كما عمد بعضهم إلى نقل أنباء الأعمال العسكرية الناجحة التي أخذت تُرجَّح كفة المسلمين على عدوهم في تلك الديار قبل فتح

(١) السهيلي : الروض الأنف ، ج١ ، ص ٣٤ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ٣٧٥ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٥٧٥ ؛ الوادي آشي : برنامج الوادي آشي ، ص ٢١٩ .

(٤) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٥١ ، المقرئ : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٣٠٧ .

(٥) المقرئ : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٣٠٥ .

(٦) ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص ٣٧٢ ، القبس ، ج٢ ، ص ٧٩٦ - ٧٩٧ .

(٧) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٧٣٧ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٢١٨ .

وانظر : علي أحمد : الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ، ص ٩٨ ، ٣٠٢-٣٠٧ .

بيت المقدس^(١) ، فلما تم فتحه عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م على يد صلاح الدين الأيوبي^(٢) ابتهج المسلمون في الأندلس كسواهم من المسلمين^(٣) . ويلاحظ أن العلماء الأندلسيين احتفوا بأخبار ذلك الفتح بشكل لافت للنظر ، فتداولوا - مثلاً - كتاباً غطى تلك الأخبار بدقة ، وهو كتاب " الفتح القسي في الفتح القدسي " لعماد الدين الأصفهاني* (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠١م)^(٤) ، فاختصروه كفعل ابن القطان** (٦٢٨هـ / ١٢٣١م) في " تقريب الفتح

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ص ٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ . ورحلة ابن جبير هذه هي رحلته الأولى من بين ثلاث رحلات قام بها (أغناطيوس كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م ، ص ٣٣٣ ؛ حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧) وقد بدأت في شوال ٥٧٨هـ / ١١٨٣م وانتهت في محرم ٥٨١هـ / ١١٨٥م (ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٣١٩ ، ٧) .

(٢) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، ط . الأولى ، المطبعة الخيرية بمصر ، ١٣٢٢هـ ، ص ٤٧ ، ١٠ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٠٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ .

* والأصفهاني هو أبو عبد الله عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني الكاتب ، ولد بأصفهان سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م . وقدم بغداد ، وبعد ذلك انتقل إلى دمشق والتحق بخدمة نورالدين محمود ، ثم من بعده صلاح الدين الأيوبي . وقد عُرف بالفقه والأدب ، وبرع في النظم والنثر . وتوفي في رمضان عام ٥٩٧هـ / ١٢٠١م . وله عدة مؤلفات منها خريدة القصر ، والفتح القسي (المنذري : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ١٤٧ - ١٥٣ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٣٤٥ - ٣٥٠) .

(٤) محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ، ص ٢٨٨ .

** وابن القطان هو أبو الحسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي ، أصله من قرطبة ، استقر بالمغرب وصار من المقررين إلى حكام الموحدين . وكان بارزاً في الحديث وعلومه . وصنف كثيراً من المصنفات ، وتوفي في ربيع الأول عام ٦٢٨هـ / ١٢٣١م (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص -

القسى " ^(١) وابن الأبار (ت ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م) في " الوشي القيسى في اختصار الفتح القسى " ^(٢) . كما نسخ على منواله من حيث اللفظ والأسلوب ابن عميرة المخزومي (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) كتابه عند سقوط ميورقة ^(٣) الذي سبق أن أشرنا إليه .

ويبدو أن سر اهتمام هؤلاء العلماء بكتاب الفتح القسى بالذات لأنه يصور عودة الإسلام إلى بيت المقدس وما حوله بعد الاحتلال النصراني ، أو كما عبر عنه مؤلفه " هجرة الإسلام إلى القدس ثانية " ^(٤) ، فكأنهم أرادوا زرع التفاؤل في نفوس الأندلسيين ، ودفعهم - حكماً ومحكوماً - لانتهاج ما فعله إخوانهم في الشام ضد النصارى ، ليكتب لهم النصر مثلما كتب لهم .

وهكذا - فيما فات من كلام - تعرفنا على ما بذله العلماء من مجهودات ، وما أنفقوه من أوقات في سبيل تحشيد طاقات جماعة المسلمين في الأندلس لجهاد النصارى ، والتصدي لزحفهم المتنامي ، وانتهاكاتهم الوحشية ، وغاراتهم المسعورة على الأراضي الأندلسية .

- ص ٦٨٦-٦٨٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٨ ، ق ١ ، ص ١٦٥ - ١٩٥ ؛

ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٣١ - ١٣٢ ؛ التبيكي : نيل الابتهاج ، ص ٣١٧) .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٨ ، ق ١ ، ص ١٦٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦ ، ص ٢٥٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١ ، ق ١ ، ص ١٧٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٤) العماد الأصفهاني : الفتح القسى ، ص ٥ .

ثانياً : أثر العلماء في الحفاظ على وحدة الأندلس أمام الخطر النصراني :

إن بقاء الحكم الإسلامي في الأندلس - بصفة خاصة - مرهون في غالبه - بعد إرادة الله سبحانه - بوحدة كلمة سكانها من المسلمين ، وائتلافهم فيما بينهم ، وتراص صفوفهم ، وتباعدهم عن الخلاف والتشردم ، والتنازع والتشتت . فأى خلل في ذلك يُعرض بلادهم للتهديد النصراني الماحق ، المتمثل بالقوى النصرانية المصابقة لهم ^(١) من جهة ، والجماعات النصرانية القاطنة معهم في الداخل من جهة أخرى . وقد وعى علماء الأندلس المخلصون هذه المعادلة ، فتشبثوا بالوحدة ، واستماتوا في الحفاظ عليها ، وسلكوا شتى الطرق المفضية لإرساء أركانها ، وتثبيت أسسها . ولقد ظهر أثرهم في هذا المجال بشكل جلي زمن المرابطين والموحدين الذي " في كنفهما عاشت الأندلس زهاء قرن ونصف مشمولة بوحدة رَبطتها سياسياً وعسكرياً بأقطار العدو المغربية ، بل وربطتها - وهذه في بعض الفترات - روحياً بالخلافة السنية في المشرق " ^(٢) . ففى سبيل وحدة البلاد في مواجهة النصارى وضع علماء الأندلس أيديهم بأيدي حكام المرابطين ثم من بعدهم حكام الموحدين ، فالتفوا حولهم ، وناصروهم في سيطرتهم على البلاد ، وارتبطوا بخدمتهم ، ومحضوا النصيحة لهم ، وأثنوا عليهم خيراً في مجالسهم وكتاباتهم ، وزكوا نهجهم في الحكم ، وكانوا يعتقدون جازمين أن الله قيضهم لكبد العدو النصراني ، وتوهين كيده ، واستنقاذ المسلمين في الأندلس من عدوانه .

(١) ابن بلقين : التبيان ، ص ١٠٦ .

(٢) حسن الوراكلي : التراث الأندلسي وسؤال الوحدة ، ندوة الأندلس في مكتبة الملك عبد العزيز العامة

بالرياض عام ١٤١٤ هـ ، جلسة ٢١ ، بحث (٣) ، ص ٣ .

أ - أثرهم في وحدة الأندلس في عصر المرابطين :

انعدمت وحدة الأندلس بقيام دول الطوائف ، حيث تنازع حكام تلك الدول أراضي البلاد ، وتنافسوا السلطة عليها ^(١) . فجعل الله بينهم " من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات ، والعشائر المتغايرات ، فلم تتصل لهم في الله يد ، ولا نشأ على التعاضد عزم " ^(٢) ، وظلت الأندلس ترزح تحت نير هؤلاء الحكام ممزعة الأرجاء ، مبددة النظام ، متشعبة الأهواء " إلى أن جمع الله الكلمة ، ورأب الصدع ، ونظم الشمل ، وحسم الخلاف ، وأعز الدين ، وأعلى كلمة الإسلام ، وقطع طمع العدو بيمن نقيبهم أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ... " ^(٣) .

ولا خلاف أن توحيد الأندلس تحت راية المرابطين ومن ثم المحافظة عليه وتعاহده ودعمه لم يكن لينتظم بمنأى عن نظر العلماء الأندلسيين ومشورتهم ، فهم كغيرهم من علماء المسلمين يقفون - قبل كل شيء - في طليعة ولاية الأمر ^(٤) المنوط بهم رعاية شؤون الأمة . وتفقد أحوالها ، والحفاظ على مصالحها . كما أن للعلماء عند زعماء المرابطين - على وجه الخصوص - صوتاً مسموعاً ، ورأياً معتبراً . وسوف نستجلي نشاط هؤلاء العلماء في هذا الجانب من خلال المحاور الثلاثة الآتية :

(١) حمد السحياني : جهود مفكري الأندلس لإصلاح الوضع السياسي في عصر ملوك الطوائف (بحث غير منشور) ص ١٣ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤٤ .

(٣) المراكشي : المعجب ، ص ١٤٧ .

(٤) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق ١ ، ص ٤٥٢ ؛ عارضة الأحوذى ، ج ٧ ، ص ٩٣ .

١ - وقوفهم في صف المرابطين لاتمام توحيد الأندلس :

كان العلماء الأندلسيون على رأس الذين تبنا - بحرارة - دعوة المرابطين لاستنقاذ الأندلس من براثن النصارى ^(١) ، ثم إنهم بعد ذلك أفتوا ليوسف بن تاشفين بجواز خلع مَنْ تخاذل من حكام الطوائف عن الجهاد ، أو مَنْ ثبت تورطه منهم في مداخلة النصارى ^(٢) ، كما أفتوه " بقتالهم إن امتنعوا " ^(٣) . وكان دافعهم إلى ذلك كله تشوفهم إلى اتحاد كلمة المسلمين في الأندلس ومن ثم القيام بواجب الجهاد ضد الأعداء ^(٤) .

واتكأ على فتوى العلماء هذه قضى ابن تاشفين خلال عامي ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م و ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ^(٥) على أولئك الحكام واحداً بعد الآخر - كما سبق معرفته * - ولم يُبقِ منهم في بادي الأمر إلا مَنْ ظَهَرَ أوتظاهر بأنه مؤيد لسياسة الوحدة مع المرابطين ، مخلص لقضية الجهاد ضد النصارى كحال حاكم مملكة بطليوس المتوكل على الله بن الألفطس ^(٦) ، وحاكم مملكة سرقسطة المستعين بالله بن هود ^(٧) . وحينما تغير الموقف ضد الوحدة في هاتين المملكتين كان العلماء - أيضاً - على رأس من أوعز

(١) عياض : ترتيب المدارك ، ج٨ ، ص١٢٧ ؛ ابن الأبار : الحلة ، ج٢ ، ص٩٩ ؛ ابن الخطيب : أعمال

الأعلام ق٢ ، ص٢٤٥ ؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق أحمد كمال زكي ، ط . الهيئة

المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠م ، ج٢٣ ، ص٤٥٤ .

(٢) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص١٠٧ .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج٤ ، ص٣٧٣ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٣ ، ص٢٥٠ .

(٥) ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص٩٤ .

✽ انظر : التمهيد من هذا الكتاب .

(٦) ابن بلقين : التبيان ، ص١٧٢ .

(٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٧٣ ؛ مجهول : الحلل الوشية ، ص٧٤ ، ٧٥ .

للمرابطين في ضمهما بالقوة إلى حيز الدولة المرابطية . فبالنسبة للمتوكل على الله بن الأفطس فإنه ما لبث في فترة الدراسة أن اتصل بملك قشتالة الفُنش^(١) (الفونسو السادس)[☆] وتحالف معه سراً ضد المرابطين^(٢) ، بل وصل به الأمر أن تخلى له عن مدينة شنترين^(٣) إحدى المدن الكبرى في غربي الأندلس^(٤) يقول ابن الخطيب^(٥) فيه " وعندما مكّن العدو من شنترين انخرقت عنه الرعية ، واتصل عليه الحمل ، وضاعت الصدور ، وراسل أهل بطليوس المرابطين ، فوصلتها الجيوش ، وفتح الناس الأبواب ، فدخل القوم عنوة ، وقبض على المتوكل ... " ^{☆☆} وكان ذلك في صدر سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م^(٦) .

ومع أننا في المصادر التي بين أيدينا نفتقر إلى خبر ينص صراحة على قيام علماء الأندلس بالدعوة إلى إنهاء سلطان المتوكل على الله بن الأفطس

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٤٦٧ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ص ١٨٥ ؛ الإحاطة ، ج ٤ ، ص ٤٦ .

☆ الفونسو السادس : Alfonso ٧١ ترسم المصادر الإسلامية اسمه تارة بـ " إلفونش " (ابن بسام : الذخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١٦٣) وتارة أخرى بـ " ألفنش " (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٧٦) تفرد بالحكم في مملكة قشتالة عام ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م . وهو الذي اتخذ طليطلة بعد احتلالها حاضرة لمملكته ، وقد استمر في الحكم حتى وفاته عام ٥٠٢هـ / ١١٠٩م (أشباح : تاريخ الأندلس ، ص ٢٢ ، ٦٠ ، ١٣٥ ، Jose terrero : op.cit ., p.٩٣-٩٤)

(٢) ابن بلقين : التبيان ، ص ١٧٢ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٨٦ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، م ١ ، ص ١٩ .

(٥) أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٨٦ .

☆☆ ساق ابن الخطيب في مؤلف آخر كلاماً شبيهاً بما قاله هنا ، لكنه جعل المدينة التي تخلى عنها المتوكل على الله لحاكم قشتالة هي مدينة الأشبونة " لشبونة " . (الإحاطة ، ج ٤ ، ص ٤٦-٤٧)

(٦) ابن الأبار : الحله ، ج ٢ ، ص ١٠٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ،

عن بطليوس إلا أن لدينا قرائن نكاد نجزم معها بأنهم كانوا مضطلعين بتلك العملية ؛ منها إن ابن الأفطس قد ارتكب عملاً مستشنعاً ، ألا وهو تحالفه مع النصاري في الوقت الذي كان يظهر فيه الطاعة للمرابطين القائمين " بدعوة الحق ، ونصرة الدين " ^(١) ، ومن المنتظر - والحالة هذه - أن يطبق ابن تاشفين عليه فتوى علماء الأندلس في حق حكام الطوائف الصادرة قبل بضع سنوات والتي استند عليها في إسقاط ممالكهم . ويلاحظ أن ابن الكردبوس ^(٢) حين ساق تفاصيل تلك الفتوى ، وذكر قضاء المرابطين على ابن عباد وأن قائد المرابطين حاصر إشبيلية قال " وخلع ابن عباد منها ، ثم خلع ابن الأفطس من بطليوس " فهو لم يفصل - كما ترى - بين عملية خلع الاثنين مما يعني عنده أن ابن تاشفين اعتمد في خلع لابن الأفطس على فتوى العلماء المنوه عنها فيما تقدم .

وقرينة أخرى ، وهي أن أهل بطليوس لما نما إليهم خبر ارتقاء ابن الأفطس في أحضان النصاري اشتد نكيرهم عليه ، ودعوا المرابطين للتخلص منه ، وبعبارة ابن الخطيب المار ذكرها قبل قليل " وراسل أهل بطليوس المرابطين " ، وأمر خطير كهذا ، ذو صلة بمستقبل بطليوس ، وله خلفيات تتعلق بأحكام شرعية ، لا ريب أن للعلماء أثراً حاسماً فيه ، فلا بد أنهم كانوا في مقدمة الداعين للمرابطين للقضاء على ابن الأفطس ، وإلحاق مملكته داخل رواق الدولة المرابطية .

أما المستعين بالله بن هود فبالرغم من أنه كان يركن إلى النصاري

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٢ ، ص ٩٦٥ ؛ مجهول : الحلل المشوية ، ص ١٤٠ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ص ١٠٦-١٠٧ .

المجاورين^(١) ويسدي لهم المعونة أحياناً^(٢) ، كما أنه في بعض المواطن تشاقل عن نصرته إخوانه المسلمين المتعرضين للحصار والقتل من طرف النصارى^(٣) إلا أن يوسف بن تاشفين تركه يحكم مملكته^(٤) "إثارةً للعافية ، وإبقاءً على وحدة الجهود، ورغبة في إيجاد نوع من الجبهة الإسلامية المتحدة"^(٥)، وبخاصة أنه ظل يُسدي ولاءه للمرابطين من جانب^(٦) ، ويقوم - أحياناً - بواجب الجهاد في سبيل الله من جانب آخر^(٧) ؛ يضاف إلى ذلك أمر خاص بالمرابطين أنفسهم وهو أنهم - وقتذاك - لم يُخضعوا بعد منطقة شرقي الأندلس التي كانت تحول بينهم وبينه^(٨) ، الأمر الذي يجعل تصفية سلطته - على ما يظهر - مخوفة بالمخاطر ، غير مضمونة النتائج . وموت المستعين بالله عام ٥٠٣هـ / ١١١٠م^(٩) كانت أملاك المرابطين في الأندلس قد زاحمت مملكة سرقسطة التي استشرَف أهلها - آنذاك فيما يبدو - الانضمام إلى المرابطين لحمايتهم من القوى النصرانية^(١٠) ، فصاروا أكثر صرامة مع حاكمهم الجديد

(١) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١١٠ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٧٥ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٣ .

(٥) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣٢٠ .

(٦) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٢ ، م ٢ ، ص ٥٤٦ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ ؛

مجهول : الحلل الموشية ، ص ٧٤ ، ٧٦ .

(٧) الطرطوشي : سراج الملوك ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ، ط . الأولى ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة

١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ج ٢ ، ص ٦٨٥ ؛ ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١١٣ ، ١١٧ ؛

ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٨) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٢٣٤ .

(٩) ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

(١٠) حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي ، ص ١٨ .

عماد الدولة عبد الملك بن المستعين بالله إزاء النصارى ، فلم يرضوا بولايته عليهم إلا بعد " ما اشترطوا عليه ألا يستخدم الروم ، ولا يتلبس بشيء من أمرهم " ^(١) . ثم بعد ذلك لم يفِ عماد الدولة بن المستعين بالشرط الذي ألزمه نفسه من طرح الروم وتركهم ، فعزم على مداخلتهم " ^(٢) ، بل " تلبس بملك قشتالة ، وأنكر الناس ذلك " ^(٣) فاتصلوا بالمرابطين ، واستدعوه للسيطرة على سرقسطة ، حيث فتح أهل المدينة أبوابها للمرابطين ^(٤) ، فامتلكوها في آخر سنة ٥٠٣هـ / ١١١٠م بعد طرد عماد الدولة منها ^(٥) .

وظاهر الحال أن علماء الأندلس شاركوا بمشورتهم وتديبرهم في ضم المرابطين لسرقسطة في عهد علي بن يوسف بن تاشفين . قال ابن سعيد ^(٦) " ونشأت نشأة من الفقهاء والمرابطين امتدت أيديهم وآمالهم ، وزينوا لعلّي ابن يوسف أخذ بلاد الثغر من عماد الدولة " ، فالفقهاء - بلا ريب - هم الذين قالوا لعلّي بن يوسف بن تاشفين عن بلاد ابن هود " الشرع يدعوك أن تسعى في أخذ تلك البلاد منهم ، لكونهم مسالين للروم " ^(٧) . ومع أن ابن سعيد في كلامه المتقدم لم ينص على أن أولئك الفقهاء كانوا أندلسيين إلا أننا نكاد نقطع بأن كلهم أو بعضهم أندلسيون لأمرين :

(١) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٥٣ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٥ .

(٤) ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ؛ ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٥٤ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٥ .

(٦) المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٣٨ .

(٧) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٨ .

أحدهما : كون فقهاء الأندلس تبوأوا لدى علي بن يوسف بن تاشفين مقاماً رفيعاً^(١) ، وعلى رأسهم أبو عبد الله بن حمدين (ت ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م) - أحد المشاركين في الجهاد - الذي تولى علي بن يوسف الحكم في الدولة المرابطية وهو يشغل منصب قاضي الجماعة ، فكان علي " لا يخالفه في شيء " ^(٢) .
وثانيهما : أن السيطرة على مملكة بني هود مسألة أندلسية بالدرجة الأولى ، ولن يجزئ علي بن يوسف على الخوض فيها ما لم يجد مؤيداً له من فقهاء الأندلس .

ومهما يكن من أمر فإذا كان ما سبق يمكن أن يقال في حق علماء الأندلس بعامة تجاه مملكة بني هود فإن أثر علماء سرقسطة في ضمها إلى الدولة المرابطية لا شبهة فيه ، فاشتراط أهل سرقسطة على عماد الدولة بن هود معاداة النصارى أولاً ، ثم استدعاؤهم المرابطين للسيطرة على البلد ثانياً لن يتم - بالتأكيد - بدون تدبير علماء سرقسطة أنفسهم أو حتى موافقتهم على أقل تقدير .

وعلى صعيد آخر فما حدث في بلنسية أيام يوسف بن تاشفين يمكن أن يدخل في إطار وقوف علماء الأندلس في صف المرابطين من أجل توحيد أجزاء البلاد . ذلك أن الحكم فيها قد آل للقادر بالله بن ذي النون* في

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٢٣٥ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧٤ .

* القادر بالله هو يحيى بن إسماعيل بن المأمون يحيى بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون الهواري (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٤٣) وهواري نسبة إلى هواره إحدى قبائل البربر البرانس (ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ١٨٥) ولقد تولى القادر بالله الحكم في مملكة طليطلة بعد وفاة جده المأمون في آخر عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٨-١٧٩) انظر أخباراً موسعة عن عهده في (ابن بسام : الذخيرة ، ق ٤ ، ١ م ، ص ١٤٩-١٦٩) .

أواخر عام ٤٧٨هـ/١٠٨٦م^(١) حيث دخلها تحت حراب جيش حلفائه نصارى قشتالة^(٢) الذين كان ملكهم الفنش (الفونسو السادس) قد وعده بحكمها طبقاً لاتفاق سري بينهما تخلى بموجبه القادر بالله عن طليطلة^(٣)، فسقطت بيد الفنش (الفونسو السادس) في محرم سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م^(٤). ولقد صار القادر بالله يحكم بلنسية بحماية قوة نصرانية من قشتالة^(٥)، فلما غادرت هذه القوة بلنسية^(٦) لم ينشب القادر بالله أن وقع تحت حماية القائد النصراني المرتزق القمبيطور^(٧) ☆، ويظهر أن ذلك كان

(١) مجهول : نص في أخبار دول ملوك الطوائف (ملحق في : ابن عذاري : البيان ، ج٣) ص ٣٠٤ .

(٢) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٨٦ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٨٢ .

(٣) ابن بلقين : التبيان ، ص ٧٧ ، ١٥٣ ، ١٧٣ ؛ ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ١ ، ص ٩٣ ؛ ابن

الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٨٤ ؛ مجهول : نص في أخبار دول ملوك الطوائف ، ص ٣٠٤ .

(٤) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٣٥ ، المقرئ : نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٤ .

(٥) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٨٦ .

(٦) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ١ ، ص ٩٣ ؛ ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٩٢ .

(٧) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ١ ، ص ٩٥ .

☆ القمبيطور Campeador اسمه الأصلي رود ريجودياث دي بيبار (عنان : دول الطوائف ، ص ٢٣٢)

ويأتي رسم اسمه في المصادر الإسلامية بـ "لذريق" أو "رذريق" (ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ١ ،

ص ٩٥) وهي الكتابة العربية لاسم رودريجيو الطاهر مكى : ملحمة السيد ، ط . مطابع دار الشؤون

الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩١م ، ص ١٢٨) ويرسم فيها آونة أخرى بـ "الكنبيطور" (ابن بسام :

الذخيرة ، ق ٣ ، م ١ ، ص ٩٥) أو الكبيطور (ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٣١) أو القمبيطور (ابن

الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٩٩) أو القنيطور ومعناه صاحب الفحص (مجهول : نص في أخبار دول

ملوك الطوائف ، ص ٣٠٥) يقابله في المصادر اللاتينية قائد الغارات في بلاد الأعداء (حسين مؤنس : السيد

القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، ص ٤٤) وقد يأتي اسمه في المصادر النصرانية باسم السيد . ولد في قشتالة ،

فصار من أشهر فرسانها في عهد فرناندو الأول ، ثم غدا في عهد ابنه سانشو قائد جيوشها ثم نفى عن

قشتالة في عهد الفونسو السادس الابن الثاني لفرناندو ، فاتجه إلى شرقي الأندلس ، فعمل تارة في خدمة

بني هود ، وتارة أخرى لحسابه الخاص ، وقد عاد في بعض الفترات إلى طاعة الفونسو السادس ، وقد

احتل بلنسية عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ، فحكمها حتى وفاته عام ٤٩٣هـ/١٠٩٩م . انظر تفاصيل حياته -

سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م^(١) . وقد تكفل له القادر بالله كفاء ذلك دفع مائة ألف دينار في العام^(٢) ، فأمسى القمبيطور يعد بلنسية " له طاعة ، والقادر بها عامله " على حد تعبير ابن الكردبوس^(٣) . وبسبب ذلك بلغت أحوال بلنسية تحت مظلة الحماية النصرانية غاية في السوء صورها أحد المؤرخين بدقة فقال عن القمبيطور " أخذ بمخنق بلنسية ، وألقى زورّه عليها ، يجبى رعيّتها ، ويستغلها حاضرة وبادية ، وقد استضعف ... ابن ذي النون ، ملكها المشنوم "^(٤) . أما عن أعمال القادر بالله نفسه في بلنسية " فقد أحدث أحداثاً ، وغير أحكاماً ، وأظهر منكرات كثيرة "^(٥) .

ومن المؤكد أن أهل بلنسية تبرموا أقصى التبرم بحكم القادر بالله ، إذ تولى عليهم بمعونة النصارى ، وجعل أمن المدينة بأيدي النصارى أيضاً ، وأرهبوا بالضرائب ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قام القادر بتدابير انتهك فيها الحرمات بشكل سافر . إذن فلا عجب أن يسعى البلنسيون للخلاص مما ابتلوا به متى وجدوا نهضة ، أو سنحت لهم فرصة . وبما أن المرابطين الذين كانوا دعاة إصلاح مثلما كانوا دعاة جهاد^(٦) - كانوا قد

- في (حسين مؤنس : السيد القمبيطور ص ٤٣ - ٧٧ ؛ الطاهر مكي : ملحمة السيد ، ص ٨٣ - ١٤٩ ؛

ستانلي بول : العرب في إسبانيا ، تعريب علي الجارم ، ط . دار المعارف ، مصر ، ص ١٧٥ - ١٨٥ ؛

(Jose terrero : op. cit. , p. ٩٤-٩٨)

(١) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٢٣٥ .

(٢) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١٠٠ ، ١٠٣ .

(٣) تاريخ الأندلس ، ص ١٠٠ .

(٤) ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٣١ .

(٥) مجهول : نص في أخبار دول ملوك الطوائف ، ص ٣٠٥ .

(٦) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣٠٠ ، محمد عبد الهادي شعيرة : المرابطون - تاريخهم السياسي ،

ط . الأولى مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٩ م ، ص ١٣٣ .

شرعوا في توحيد أجزاء البلاد فإن اقترابهم من تخوم بلنسية ^(١) كان أكبر محرك للبلنسيين للتخلص من القادر وحكمه الويليل، والانضمام إلى الوحدة الجديدة تحت راية الدولة المرابطية. فبمجرد أن انشغل القمبيطور عن مدينتهم بمهمة عسكرية في شمال شرقي الأندلس ^(٢) اتفق أهل الحل والعقد في بلنسية، وعلى رأسهم القاضي جعفر بن حَجَّاف* وصاحب الأحكام ابن واجب** على الاتصال بالمرابطين ^(٣). وثمة روايتان، الأولى تقول إن ابن جحاف نهد بنفسه إلى القائد المرابطي محمد ابن عائشة*** في دانية التي لا

(١) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١٠٣ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٢) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١٠٣ ؛ ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٣١ .

* جعفر بن جحاف : هو أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن جحاف ، تولى الأحكام ثم القضاء في بلنسية ، ثم أسندت له ولاية بلنسية على إثر استدعاء البلنسيين قوة مرابطية ، والتخلص من حاكمها القادر بالله بن ذي النون حليف القمبيطور عام ٤٨٥هـ / ١٠٩٢ ، وقد ظل يحكم المدينة حتى سقطت بيد القمبيطور بعد حصار مرير ، ثم أقدم هذا الأخير على قتله حرقاً في جمادى الأولى سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥ م (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٣٩-٢٤٠) انظر مزيداً من أخباره في : ابن بسم : الذخيرة ، ق ٣ ، م ١ ، ص ٩٥-٩٩ ؛ الضي : بغية الملتبس ، ص ٢٥٧ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٠٣-٢٠٥ ؛ مجهول : نص في أخبار دول ملوك الطوائف ، ص ٣٠٥-٣٠٦ .

** ابن واجب : اكتفى ابن عذاري عند ذكره له بقوله " ابن واجب صاحب الأحكام " فلم يخبرنا باسمه الأول (البيان ، ج ٤ ، ص ٣١) ولقد ذكر ابن بشكوال عالم من بني واجب كان يتولى أحكام بلنسية اسمه عمر بن محمد بن واجب ، لكن وفاته كانت في شعبان عام ٤٧٦هـ / ١٠٨٣ م (الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٠٣) وهذا يعني أنه توفي قبل الأحداث المذكورة في المتن . وهناك عالم آخر من بني واجب في بلنسية معاصر لتلك الأحداث هو محمد بن واجب بن عمر بن واجب ، ولد عام ٤٤٦هـ / ١٠٥٥ م وتولى القضاء في بلنسية ، وكانت وفاته في آخر عام ٥١٩هـ / ١١٢٥ م (ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٥) فعلى الثاني هذا هو المعنى في نص ابن عذاري . وقد حزم بعض الباحثين - بلا تحفظ - أن هذا الثاني هو ابن واجب الذي ذكره ابن عذاري مجرداً من كنيته واسمه الأول (غير زكريا سليمان يومي : دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦ م ، ص ١٤٤) .

(٣) ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٣١ .

*** محمد بن عائشة : هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين (ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٤) ونسبته إلى أمه عائشة من العادات الدائنة عند المرابطين (التويري : نهاية الأرب ، ج ٢٤ ، ص ٢٦٥) كان والده -

تبعد سوى خمسة وستين ميلاً عن بلنسية ^(١) ، ودعاه لدخول بلدهم بلنسية ؛ ولأن ابن عائشة لم يكن - وقتها - قادراً على مغادرة موقعه - ربما لاعتبارات عسكرية - فقد بعث فوراً مع ابن جحاف كتيبة من الجند عليها أحد القادة نيابة عنه ^(٢) . والأخرى تقول إن ابن عائشة أرسل تلك الكتيبة من مُرسية بعد أن اتصل به أهل بلنسية ، فلما وصل قائد الكتيبة " خرج القاضي ابن جحاف والفقهاء لتلقيه وإدخاله البلد " ^(٣) . وعلى أي حال فبحلول تلك القوة المرابطة في بلنسية حاول القادر بالله بن ذي النون الفرار ، ولكن تم القبض عليه ، وقتل في رمضان عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ^(٤) ، فأسند أهل بلنسية أمرهم إلى القاضي ابن جحاف ^(٥) بعد أن صارت مدينتهم تابعة رسمياً للمرابطين ^(٦) . وقد صرح ابن جحاف بذلك في كتابه إلى القمبيطور الذي أقبل إلى بلنسية مسرعاً عندما لامس سمعه نبأ مقتل حليفه القادر ، وطالب ابن جحاف المؤن الكائنة في الحصون المحدقة بالمدينة ، حيث قال " أن البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين " ^(٧) .

- يوسف قد نصبه والياً على مرسية (ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٤) فكانت له جهوده النشطة في ضم عدد من مدن شرقي الأندلس إلى الدولة المرابطة (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١٠١-١٠٢) ولقد بقى والياً على مرسية إلى أن اشترك في جهاد نصارى برشلونة عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م فاعتل بصره على إثر ذلك ، ثم لم يلبث أن فقد بصره تماماً ، فاستدعاه أخوه علي بن يوسف إليه في مراكش (ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٤) .

(١) الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩٢ .

(٢) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١٠٣ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٨٢ .

(٤) ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٣١-٣٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٨٢ ، ٢٠٣ .

(٥) مجهول : نص في أخبار دول ملوك الطوائف ، ص ٣٠٥ .

(٦) مجهول : الدرر الثيرة في أخبار الجزيرة ، ورقة ١١٠ أ .

(٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٠٣ .

وبصرف النظر عما حدث بعد ذلك في بلنسية فإنه قد استبان لنا فيما مضى أثر نفر من العلماء في دعوة المرابطين لدخول بلنسية في تلك الحقبة ، ومن ثم نظمها في سلك الوحدة المرابطية المتنامية .

٢ - نشاطهم في دعم وحدة الأندلس تحت حكم المرابطين :

ومثلما كان لعلماء الأندلس الأثر الملموس في وحدة بلادهم تحت علم الدولة المرابطية فإن مسلكهم المتناغم مع حكام المرابطين فيما بعد كان من أفعال الدعائم لتلك الوحدة وتماسك أجزائها أمام العدو النصراني المستوفر لضرب المسلمين . فالعلماء الأندلسيون ألقوا في المرابطين الصفات التي طالما استشفروا إليها ، وتمنوا وجودها في حكامهم لانتشال البلاد من الانحدار الذي كانت تُهطعُ نحوه ، والتفسخ الذي كانت تمن من وطأته . فهؤلاء المرابطون - كما وصفهم أحد المؤرخين " أمة جديدة الإسلام ، شديدة الاعتزام ، مظهرة للقيام بالحق ، مجاهدة من زاغ عن الشريعة " ^(١) . ولذا فلا عجب أن يتمسك علماء الأندلس - وبخاصة من لهم ثقلهم في المجتمع - بجبل الدولة المرابطية ، ويسيروا في ركابها ، ويحرصوا على بقاء حكم الأندلس بعهدتها . وثمة بينات متنوعة تشهد بذلك ، منها أن كثيراً منهم ارتبط بجهاز الحكم المرابطي في الأندلس ، وذلك عن طريق شغلهم خططاً دينية شرعية سواء بتكليف صريح من حكام الدولة ، أو بشغلهم أياها على الأقل أثناء الفترة المرابطية ^{*} . كذلك كان العديد منهم ذا صلة وطيدة ،

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤٥ .

* انظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

أو علاقة حسنة بالحكام المرابطين* ، وقد تفاعل الجميع في قضية الجهاد ضد النصارى ، فكان العلماء الأندلسيون يخرجون إلى ساحات الوغى مصاحبين آونة حاكم الدولة المرابطية نفسه^(١) ، وآونة أخرى بصحبة الولاة أو القادة^(٢) .

وعلى مستوى آخر فإن بعض العلماء لم يقتصر على ما مضى بل راح يث الدعاية للمرابطين في أوساط المجتمع الأندلسي ، وذلك بالثناء عليهم ، وتزكية حكمهم ، أو إطراء بعض زعمائهم ؛ ففي إجابة ابن رشد الجد (ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) عن سؤال خاص باللثام الذي كان المرابطون لا ينفكون عن لبسه قال إن المرابطين " قاموا بدعوة الحق ، ونصرة الدين " ^(٣) فحين يلتزمون بذلك اللثام " تظهر كثرتهم ، ويتوفر في أعين الناس عددهم " ^(٤) وهذا " غيظ للمشركين ، وعز للمسلمين ، لأنهم حماتهم الذابون عنهم والمجاهدون دونهم " ^(٥) . كما امتدح أيضاً أبو بكر العربي (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) في كتابه " عارضة الأحوذي في شرح سنن الترمذي " ^{***}

☆ انظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

(١) ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ٤ ، ٥ ، ٥٧ ؛ السنخاري : الإعلان بالتوبيخ ، ص ٥٩-٦٠ .

(٣) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٢ ، ص ٩٦٥ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

☆ وقد نُقل عنه وصفه للمرابطين بأنهم " حماة الدين " (عثمان بن فودي : نجم الإخوان يهتدون به بإذن الله تعالى في أمور الزمان ، مخطوط مجموعة صكت ، مجلد ١ ، مظهروف رقم ١ ، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا ، جامعة أحمدويللو ، زاريا ، نيجيريا . ورقة ٤٧) .

☆☆ في المطبوع من كتاب " عارضة الأحوذي " لابن العربي لا يوجد النص المذكور في المتن . لكن المتأمل للكتاب يخال الأبواب الأخيرة من كتاب الزهد في سنن الترمذي قد سقط شرحها من كتاب العارضة ، فلم يكن لها أثر في الأصول التي أعتد عليها في نشر الكتاب (ابن العربي : عارضة الأحوذي ، ج ٩ ، ص ٢٢٥) فهل يا ترى ما قاله ابن العربي عن المرابطين يقع ضمن هذا المقطع الذي ضاع من الكتاب ؟

المرابطين ، فقال " المرابطون قاموا بدعوة الحق ، ونصرة الدين ، وهم حماة المسلمين الذابون عنهم ، والمجاهدون دونهم ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم ولا وسيلة إلا واقعة الزلافة ... لكان ذلك من أعظم فخرهم ، وأربح تجرهم " ^(١) . ولقد أثنى أبو محمد بن عطية (ت ٥٤١هـ / ١١٤٧م) على المرابطين ، واتخذ من اللثام الذي كانوا يستخدمونه أداة لذلك الثناء ، فطور معنى اللثام لديهم ، حيث أعطاه " وظيفة الكمامة للزهرة أيام السلم والرخاء لكنه يتحول إلى جلد أفعى أوقات الحرب والشدة " ^(٢) ، فقال :

إذا لُثِّمُوا بِالرِّيطِ خِلَتْ وجوههم أزاهير تبدو من فتوق كمام

وإن لُثِّمُوا بالسابرية أبرزوا عيون الأفاعي في جلود الأراقم *** ^(٣)

ولقد أثنى أبو عبد الله بن الحاج *** (ت ٥٢٩هـ / ١١٣٤م) على

عامل المرابطين على إشبيلية سيئر بن أبي بكر ***** خيراً ، فأشاد بجهاد

(١) مجهول : الحلل المشوية ، ص ١٤٠ .

(٢) السعيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، ص ١٠٧ .

☆ الريط : جمع ربطة ، وهو كل ثوب لين رقيق (ابن دحية : المطرب ، ص ٩١ ، حاشية ٣) .

☆☆ السابري : درع دقيقة النسج محكمة ، تنسب إلى سابور الفارسي (الزبيدي : تاج العروس ، ج ٦ ، ص ٤٩٢) .

☆☆☆ الأراقم : بمعنى الحيات (البلوى : ألف باء ، ج ٢ ، ص ٥٠١) .

(٣) ابن دحية : المطرب ، ص ٩١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٤ ، ص ٩ .

☆☆☆☆ أبو عبد الله بن الحاج هو محمد بن أحمد بن خلف بن لب بن بيطير التجيبي ، قاضي الجماعة في قرطبة . كان من حلة الفقهاء وكبار العلماء ، بصيراً بالفتوى ، رأساً في الشورى ، معتباً بالحديث والآثار والأنساب واللغة والشعر والسير والأخبار . وقد ولي قضاء الجماعة في قرطبة مرتين ؛ حيث قتل وهو على رأس عمله في القضاء في صفر سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م ، وذلك بجامع قرطبة أثناء سجوده في الصلاة (عياض : الغنية ، ص ١١٧ - ١٢٢ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٨٠ - ٥٨١ ؛ الذهبي : سير

أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٦١٤ - ٦١٥ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج ٣ ، ص ٦١ - ٦٢) .

☆☆☆☆ سبق التعريف به في الفصل الأول .

للأعداء ، وقد تضمن هذا الشاء تزكية للدولة المرابطية ، ودعاءً بالجزاء الأوفى لحكامها ، حيث قال عن سير " وكان رحمه الله من نصحاء هذه الدولة المباركة ، وصدرًا من أوليائها ، شد الله أزرها ، ورفع في الخير والتقوى علمها - مع ما كان عليه فيما اتصل بنا - من التوسع بالأجناد ، ومن آثاره الواضحة في الجهاد . والله يجعل ذلك في ميزان أمير المسلمين وناصر الدين ، ونوراً بين يديه وعن يمينه يوم ميغاده بفضل الله تعالى ورحمته " (١) .

وشهد أبو بكر بن العربي (٢) (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) لسير بن أبي بكر هذا بالعدل فقال " كان ببلدنا أمير يقال له سير بن أبي بكر ، فكلّمته أن يسأل لي رجلاً حاجة ، فقال لي : أما علمت أن طلب السلطان الحاجة غصبٌ لها . فقلت : أما إذا كان عدلاً ، فلا " ☆ .

ولا يغرب عن البال أن المديح والإطراء قد تهطل بغزارة على المرابطين وحكامهم من قبل جمهرة كبيرة من أرباب الألسنة والأقلام المعاصرين لهم في الأندلس كالكتاب والأدباء (٣) والشعراء (٤) والمؤرخين (٥) ونحوهم ، ولكننا آثرنا ألا نتكأ عليهم ، لأن أقوالهم في أولئك المرابطين ومن

(١) الونشريسي : المعيار المغرب ، ج٩ ، ص ٦١٣ .

(٢) أحكام القرآن ، ق ٤ ، ص ١٦٣٣ .

☆ ولقد أنشأ أبو محمد بن عطية (ت ٥٤١هـ / ١١٤٧م) قصيدة مدّح بها عبد الله بن مزدي أحد قادة وعمال الدولة المرابطية (الضي : بغية الملتبس ، ص ٣٩٠-٣٩١) .

(٣) انظر مثلاً : ابن خاقان : فلائد العقيان ، ق ١ ، ص ٤٥ ؛ ابن بسم : الذخيرة ، ق ٢ ، م ١ ، ص ٢٥٥ ؛ ق ٢ ، م ٢ ، ص ٥٤٧ ، ٦٦٠ ؛ ق ٤ ، م ١ ، ص ١٦٩ .

(٤) انظر على سبيل المثال : ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٤٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٤ ، ص ٣٥٣ ، ٤١١ .

(٥) انظر مثلاً : ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ ، ج ٤ ، ص ٣٤٩ .

ينتمي إليهم - وإن طابقت الواقع أحياناً - فإنه لا يطمئن إليها بحال من الأحوال كالأطمئنان إلى ما قاله فيهم علماء الدين الموقعون عن رب العالمين. فعلماء الدين عامة عرفوا عند المسلمين بترفهم - إلا فيما ندر - عن مديح السلاطين ، والتهالك في إطرائهم بخلاف حال غيرهم ^(١) . وحيث أن ابن رشد وابن الحاج وابن عطية وابن العربي الذين سقنا أقوالهم قبل قليل كانوا من أعلام العصر في العلم الشرعي فإن ما تفوهوا به في حق المرابطين وحكامهم سيكون له أكبر الأثر في التفاف الجماعة الأندلسية حول الدولة المرابطية ، ودعم وحدة الأندلس تحت رايته ، وبخاصة إذا توقعنا أن ما أثبتته أولئك الأعلام في مصنفاتهم من إطراء وثناء على المرابطين ما هو إلا صدى لما كانوا يرددونه عنهم في دروسهم ومجالسهم الخاصة والعامة .

وشيء تبناه علماء الأندلس ، وكان له أثره البالغ في إضفاء الشرعية على دولة المرابطين ، وبالتالي في دعم وحدة البلاد تحت سلطانهم ، وهو حضهم يوسف بن تاشفين على الاتصال بالخلافة العباسية ، وطلبه منها الاعتراف بحكمه رسمياً على بلاد المغرب والأندلس * . فلقد ورد أن " الفقهاء

(١) عبد الله كنون : أدب الفقهاء ، ط . دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٨ م ، ص ١٢١ ،

١٢٢؛ منير الدين أحمد : تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس

الهجري ، ترجمة سامي الصقار ، ط . دار المريخ ، الرياض ١٩٨١ م ، ص ١١٦ .

✳ وما هو خليف بالبيان هنا معرفة أن المرابطين دعوا للعباسيين منذ وقت مبكر ، يدل على ذلك دينار مرابطي ضُرب في سجل ماسة سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م كُتب على ظهره " الإمام عبد الله أمير المؤمنين " التي تعني الخليفة العباسي (عبد رب النبي بن محمد: مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا والأندلس ، رسالة ماجستير في كلية الشريعة بمكة المكرمة عام ١٣٩٨ هـ - ١٣٩٩ هـ ، ص ٢١ ، ٢٩ ؛ ريتشارد بلانت : النقود العربية والإسلامية ، تعريب بسام سروج وإبراهيم سروج ، ط. الأولى ، مكتبة السائح ، سوريا ١٩٩٤ م ، ص ٦٤) ومن يقول بأن المقصود بهذا اللقب هو داعية المرابطين عبد الله -

بالأندلس قالوا لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين : إنه لا تجب طاعتك على المسلمين حتى يكون لك عهد من الخليفة »^(١) . وكان ذلك بعد سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م* فأرسل يوسف إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله☆☆ فجاء الرد منه☆☆☆ بالاعتراف والتقليد^(٢) ، فأصبح يوسف في نظر أهل الأندلس -آنئذ- الداعي الأكبر للخلافة العباسية في الغرب الإسلامي^(٣) الذي ينبغي الانتظام في طاعته، والانضواء تحت لوائه. ولم يقف علماء الأندلس عند دعوة ابن تاشفين للحصول على تقليد من الخلافة بشرعية ولايته على المغرب والأندلس بل وصل أحدهم - وهو أبو محمد بن العربي

- ابن ياسين المتوفي سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م لاجحة له ، لأن هذا اللقب استمر في مسكوكات المرابطين بعد اعتراف الخلافة العباسية رسمياً بالمرابطين (عبد رب النبي بن محمد : مسكوكات المرابطين ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ؛ حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣٣٥ ؛ إحسان عباس : الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق ، مجلة الأبحاث ، السنة ١٦ ، ج ٢ ، حزيران ١٩٦٣ م ، ص ٢٢٤-٢٢٥) .

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٤ ، ص ٢٧٢ .

☆ ذكر ابن الأثير أن مشورة علماء الأندلس على يوسف للاتصال بالخليفة العباسي كانت بعد عودته إلى مراکش من موقعة لبيب في الأندلس (الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٥٥) وموقعة لبيب كانت في ربيع الأول عام ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٢) .

☆☆ تولى المقتدي بأمر الله الخلافة في شعبان عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م وتوفي في محرم عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م انظر أخباره في (ابن العمراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي ، ط ٢ . الثانية ، دار العلوم ، الرياض ١٩٨٢ م ، ص ٢٠١-٢٠٥) .

☆☆☆ وما يذكر هنا أن عتيق بن عمران الربيعي السبتي لما حل بالإسكندرية عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م وُجدت معه كُتب من المقتدي بأمر الله إلى يوسف بن تاشفين ، فقتله أمير الجيوش (ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ١١ ، ورقة ٦٤ ؛ ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ، ج ١٦ ، ص ٧١) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٥٥ .

(٣) إبراهيم حركات : النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ، ط ٢ . مكتبة الوحدة العربية ، الدار البيضاء ، ص ٥١ .

(ت ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م) وبصحبه ابنه أبو بكر (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) إلى المشرق ^(١) ، وحصل من الخليفة العباسي المستظهر بالله* على مرسوم حرر في رجب عام ٤٩١هـ / ١٠٩٨م يشيد فيه بولاء يوسف للخلافة العباسية ، وإخلاصه في الاعتصام بجلها ^(٢) ☆☆ . وبعد التنويه بجهاده للكفار جاء فيه " فهذا هو الواجب اعتماده الذي يقوم به من الشرع عماده ، ويؤلف شمل من في جملته من الأجناد على الطاعة الإمامية التي هي العروة الوثقى ... " ^(٣) . ولقد عمل أبو محمد بن العربي على تعضيد مرسوم الخليفة ، فاجتمع في بغداد بأبي حامد الغزالي ^(٤) (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م) فأطلعه على أوضاع الأندلس قبل يوسف بن تاشفين ثم أوضاعها بُعيد شروعه في القضاء على ملوك الطوائف ^(٥) ، ويسترعى الانتباه هنا أنه عمِدَ إلى استفتائه في مسألة ذات مساس كبير بوحدة الأندلس تحت سلطان المرابطين ، حيث سألَه عن الحكم الشرعي في طائفة من رؤساء ثغر الأندلس الشرقي ، حالفوا النصاري،

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

☆ تولى المستظهر بالله الخلافة في محرم عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ، وتوفى في ربيع الأول عام ٥١٢هـ / ١١١٨م انظر أخباره في (ابن العبراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٦-٢٠٩) .

(٢) ابن العربي : رسائل أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ، ص ١٩٠-١٩١ .

☆☆ اختلف في مبتدأ رحلة أبي محمد بن العربي وابنه أبي بكر إلى المشرق بين كونهما رحلا عن الأندلس إلى المشرق خوفاً من تغير الأوضاع بعد استيلاء يوسف بن تاشفين عليها (ابن خاقان : مطمح الأنفس ص ٢٩٨) وبين كونهما قاما بها ابتداءً بتوجيه من يوسف بن تاشفين (ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٠) انظر مناقشة لهذا الاختلاف في : (إحسان عباس : الجانب السياسي من رحلة ابن العربي ، ص ٢١٩-٢٢٨ ؛ أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ص ١٠٢-١٠٤) .

(٣) ابن العربي : رسائل أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ، ص ١٩١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٩٥-١٩٦ .

وتلكأوا في الدخول في بيعة يوسف بن تاشفين ، بحجة أنه لا جهاد إلا مع إمام من قريش أو نائبه ، وابن تاشفين لم يثبت لديهم رسمياً ارتباطه بالخلافة العباسية ليصبح بمثابة نائب عن الإمام القرشي ^(١) ، فكان مما جاء في فتواه " إذا نادى الملك المستولي بشعار الخلافة العباسية وجب على كل الرعايا والرؤساء الإذعان والانقياد ، ولزومهم السمع والطاعة ، وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الإمام ، ومخالفته هي مخالفة الإمام ، وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة فحكمه حكم الباغي " ^(٢) ، ثم أوضح ما يراه في أولئك الرؤساء فقال " فيجب على الأمير [يوسف] وأشياعه قتال هؤلاء المتمردين على طاعته لاسيما وقد استنجدوا بالنصاري " ^(٣) إلى أن يقول " فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المستمسك بطاعة الخلافة العباسية ... " ^(٤) . وبجانب ذلك ظفر أبو محمد بن العربي على رسالة من الغزالي موجهة إلى يوسف بن تاشفين فيها تزكية له ، وإشادة بجهاده وعدله ^(٥) . ومن الملاحظ أنه قد حلي اسمه فيها بـ "جامع كلمة الإسلام" ^(٦) مرة ، " وجامع كلمة المسلمين " ^(٧) مرة أخرى . حمل أبو محمد كل هذه المكتوبات ، وتوجه - ومعه ابنه أبو بكر - إلى الأندلس ، ولكنه

(١) ابن العربي : رسائل أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ، ص ١٩٦-١٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٠٠-٢٠٤ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

مات في مصر سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م^(١) فاحتفظ بها ابنه أبو بكر بن العربي، وأضاف إليها رسالة كتبها في الإسكندرية أبو بكر الطرطوشي (ت. ٥٢٠هـ/١١٢٦م) إلى يوسف بن تاشفين، وكان بإيعاز من أبي بكر بن العربي نفسه، وقد تضمنت نصيحة مطولة ليوسف، وتحريض له على مواصلة جهاد الأعداء^(٢). والظاهر أن أبا بكر بن العربي لما فاء إلى بلاده اجتهد في إيصال تلك الكتابات والرسائل إلى يوسف بن تاشفين*، ولابد أن هذا حرص على نشرها بين أهل الأندلس لما فيها من تأييد له، وتأصيل لولايته على المغرب والأندلس، ودحض لدعاوى المناوئين لحكمه من بقايا حكام الطوائف ومناصريهم، فكتاب الخليفة - مثلاً - ثبت لدينا أن الناس تناقلوه فيما بينهم^(٣). وإذا كان كتاب الخليفة قد أذيع بين الناس فمن باب أولى أن ينشر ابن تاشفين فتاوى ورسائل أبي حامد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي المؤيدة له ولقومه المرابطين والتي جلبها من المشرق أبو بكر بن العربي الأندلسي. فهذان العالمان كانت لهما منزلة علمية مرموقة في بلاد المسلمين^(٤) لاسيما الغزالي الذي طبقت شهرته الآفاق^(٥). ولذا فإن أقوالهما في يوسف ستكون - حتماً - محل إجلال علماء الأندلس والعامّة،

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص ١٣١.

(٢) ابن العربي: رسائل أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي، ص ٢٠٤ - ٢١٧.

* حزم سعيد أعراب - دون استناد على نصوص بينة - بأن ابن العربي دخل مراکش، وقابل فيها يوسف ابن تاشفين شخصياً، وأعطاه ما يحمله من رسائل تخصه (مع القاضي أبي بكر بن العربي، ص ٧٦-٧٧).

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٢٥٠.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص ١٠، ٦٢.

(٥) ابن العربي: رسائل أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي، ص ١٩٥.

وفي ذلك دعم كبير لوحدة الأندلس ، واتفاق كلمة أهلها على الحكم المرابطي ، ومن ثم وقوفهم صفاً متراساً في مجابهة الأعداء النصارى .

٣ - وقوفهم ضد الأعمال المؤدية إلى تفتيت الوحدة :

وبما أن علماء الأندلس كانوا من أكبر الداعين إلى الوحدة في بلادهم عند انتشارها شيعاً وأحزاباً ، ثم أعانوا على نظم حلقاتها حلقة حلقة تحت السلطة المرابطية - فمن الطبيعي أن نراهم يتعهدون تلك الوحدة التي أضحي أهل الأندلس يرفلون في خيرها ، ويتقبلون في جوانحها ، فيؤكدون في المناسبات على الناس بوجوب طاعة أولي الأمر القائمين بحقوق الله ، والوفاء بعهدهم ^(١) ، والدعوة إلى الإبقاء على حكمهم القائم بالأندلس ، وعدم القدح فيه وإن ظهر منهم تقصير في بعض الأمور ^(٢) . كما كانوا - أيضاً - يحذرون من شق عصا الطاعة ، ومفارقة الجماعة ^(٣) . وقد تصدوا لكل ما يفتت الوحدة ، ويفرق الأمة ولو كان أمراً محدوداً ، فمثلاً ابن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) مَنَعَ من بناء مسجد رأى أن الهدف منه تشتيت الكلمة، فعندما ذكر رأي الفقهاء القائلين بأن لا صلاة في مسجد واحد جماعتين علق بقوله " وذلك أن الجماعة إنما شُرِّعتْ في الصلاة لتأليف القلوب، وجمع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، والتشاور في أمور الإسلام ، فلا تكون إلا واحدة ، ولو طرق فيها إلى التبعض والتثنية لأفسد هذا النظام، وتنافرت القلوب ، واختلفت الكلمة ... " ^(٤) إلى أن يقول " ولذلك منعنا

(١) الكلاعي : إحكام صناعة الكلام ، ص ١٧٦ .

(٢) ابن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، تحقيق عصمت دندش ، ط . الأولى ، دار

الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٣م ، ص ٢١٣ .

(٣) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٥٧٨ .

(٤) ابن العربي : القبس ، ج ١ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

من بنيان مسجد آخر يقصد به تفريق الكلمة ، وتشيت الجماعة " (١) .

ولقد وقف قاضي الجماعة في قرطبة أبو عبد الله بن حمدين (ت ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م) موقفاً متصلباً ضد محاولة انشقاقية على الحكومة المرابطية خطط لها والي قرطبة أبو عبد الله بن الحاج* في مطلع عهد علي بن يوسف بن تاشفين بتلكوه عن إرسال البيعة له (٢) . حيث أن ابن الحاج هذا منذ أن عَلمَ باشتداد المرض بيوسف بن تاشفين عام ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م (٣) يَبْتَ النية للامتناع عن البيعة من بعده بالحكم لابنه علي ، فحشد في قرطبة ما استطاع من مؤيدين له في مشروعه ، واستشار قاضي الجماعة ابن حمدين فيما دَبَّرَ له ، ولكن ابن حمدين ما استساغ فعله رغم ما وجده من ضغوط من جانب ابن الحاج وشيعته ، بل إنه طفق بكل ما أُوتي من طاقة لنقض ما أبرمه ابن الحاج (٤) ☆☆ ، فأنتهى الأمر بالقبض عليه ، وإفساد

(١) ابن العربي : القبس ، ج١ ، ص ٢٠٥ .

☆ وابن الحاج هو أبو عبد الله بن الحاج داود اللمتوني كان من قادة المرابطين الذي أعانوا يوسف بن تاشفين في ضم الأندلس ، كما خاض معارك مهمة ضد النصارى (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٩٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩) وقد ولي قرطبة حتى جرت نكبته بعد حركته المذكورة أعلاه ، ثم عفا عنه علي ابن يوسف بعد ذلك (ابن الأبار : المعجم ، ص ١٣٨ ؛ مجهول : الدرر النيرة في أخبار الجزيرة ، ورقة ٨٣) وولاه مدينة فاس في سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م ، ثم نقله بعد ستة أشهر إلى ولاية سرقسطة (ابن الأبار : المعجم ، ص ١٣٨ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٩ ، ١٦٠) وقد لقي ربه في موقعة مع النصارى سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م (المعجم ، ص ١٣٨ ؛ ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٦١ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٠ - ١٦١) ونشر إلى أن محمد الطاهري تعرض لحياته في مقال له بعنوان : حول ابن أبي الخصال ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٦٦ ، محرم ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٨٥ - ٨٧ .

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٣٨ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٤٥ .

(٤) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٣ ، ص ٦١١ .

☆ نلفت الانتباه إلى أن محقق " قلائد العقيان " ظن خطأ أن ابن الحاج المشار إليه في المتن هو أبو الحسن

جعفر بن الحاج (ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٣ ، ص ٦١١ ، حاشية ٣ ، ق ٢ ، ص ٤٠٠) .

تدبيره ^(١) ، وواضح أن تصدى ابن حمدين لابن الحاج ، وسعيه الجازم لإحباط حركته * ينم عن إدراك لخطورتها على وحدة الدولة المرابطية ، سيما وأن مسألة الحكم بعد يوسف قد بُتَّ فيها في آخر عام ٤٩٦هـ / ١١٠٣م بالبيعة لعلّي بن يوسف بولاية العهد ^(٢) ، وموافقة أهل المغرب والأندلس عليها في حينه ^(٣) ، علاوة على كون علي في مرض والده كان يدير شؤون الدولة ^(٤) . ثم إن الأندلس ستتضرر بهذه الحركة أكثر من غيرها، إذ لو كتب لها الانبعاث فستكون بؤرتها قرطبة ، وبما أن هذه الأخيرة كانت يومذاك مركز الحكم المرابطي في الأندلس ^(٥) فمن المنتظر أن لا ينحصر لهيب الحركة عليها، بل سيتجاوزها إلى بقية المدن الأندلسية ، وغير خاف ما قد يُسفر عن ذلك من تشرذم وضعف أمام العدو النصراني المتربص بالبلاد.

وقد كان لابن رشد الجد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) أثر متميز في التصدي لحركتين أوشكتا أن تحدثا انفلاتاً في وحدة الأندلس إبان الحكم المرابطي ، إحداهما فتنة قرطبة الحادثة في آخر سنة ٥١٤هـ / ١١٢١م ^(٦) وملخصها أن الناس خرجوا في عيد الأضحى متفرجين ، فأمسك أحد عبيد والي قرطبة المرابطي ** بامرأة ، فاستغاثت بمن حولها ، فأغاثوها فوقع بين

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٣٨ .

* أشار الأصفهاني إلى موقف ابن حمدين من هذه الحركة (خريدة القصر ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٥٠٧) .

(٢) ابن أبي زرع : الأئيس للطرب ، ص ١٥٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ٥٢١ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٧٨ .

(٣) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١١٣ ؛ ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٤٢-٤٣ ؛

ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ٥٢٠ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٧٩ .

(٤) سلامه الهرفي : دولة المرابطين ، ص ٦٨ .

(٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٤١٥ ؛ الحجّي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٤٩ .

(٦) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٨٢ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان) .

* اختلقت المصادر في تسمية هذا الوالي ، فهو أبو بكر يحيى بن رواد (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ،

ص ٥٥٨) أو أبو بكر يحيى بن داود (النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٤ ، ص ٢٧٤) أو أبو يحيى بن

رواد (مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٦) .

الجند وأهل قرطبة فتنة دامت طوال النهار، وحينئذ اجتمع الفقهاء والأعيان بالوالي، وطلبوا منه قتل مَنْ تسبب في الفتنة، ولكنه أبى واستعد لقتالهم من الغد*، فجرى بين الجانبين اشتباك هُزم فيه الوالي، وفر من القصر الذي أنتهب على إثر ذلك^(١). وثمة رواية أخرى تشير إلى أن ما وقع في عيد الأضحى من تجمع كان للتفرج على تجربة لمجانيق وآلات حربية اكتملت صناعتها، حيث خرج الوالي وجنده، وخرج بخروجهم جم غفير من الناس "فكثر التدافع والتزاحم، ودُهِمَ الحشم". وفي تلك الأثناء هاجم لفيف من العامة قصر الوالي، فاقتحموه وانتهبوا ما فيه^(٢). ويتراءى لنا أنه لا تعارض بين الروایتين فكل واحدة منهما تكمل الأخرى، فما أغفلته هذه كشفته تلك. ويمكن الجمع بينهما أن الوالي وجنده وأهل قرطبة خرجوا يوم عيد الأضحى للتفرج على تلك المجانيق، وفي وسط الزحام وقع التحرش بتلك المرأة، وساعتها استغل الرعاع ذلك في السطو على القصر ونهبه.

وعلى أي حال فما يهمنا معرفته هنا على وجه الخصوص أن ابن رشد تدخل لتدارك الموقف إذ "ركب ... في أعلام الفقهاء، فردع العامة، وقمع السفلة"^(٣). فكأنه أراد بذلك أن يضع حداً للتجاوزات التي ارتكبتها الدهماء من الناس، وأعظمها اجتراؤهم على انتهاك قصر الحكم في المدينة الذي يمثل السلطة المرابطية. تلك السلطة التي جمع الله بها شمل الأندلسيين بعد فرقة، فأمنوا بعد خوف، وعزوا بعد ذلة. والملاحظ أن القرطبيين لم

* وصم النهي والى قرطبة بالظلم (تاريخ الإسلام - حوادث ووفيات ٥٠١-٥٢٠هـ -، ص ٢٩١).

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٥٨ ؛ التويري : نهاية الأرب ، ج ٢٤ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٢ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان) .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٢ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان) .

ينبذوا الطاعة المرابطية* بالرغم من فرار الوالي والمرابطين من بلدتهم . ولعل السبب في ذلك هو قيام ابن رشد ومعه العلماء والأعيان بإعادة النظام إلى أرجاء المدينة ، ومن ثم إمساكهم بزمام الأمور حتى جواز حاكم الدولة علي بن يوسف بن تاشفين غاضباً إلى الأندلس بحشود كثيفة ^(١) في شهر يبيع الأول عام ٥١٥هـ / ١١٢١م ^(٢) لمعالجة ذلك الوضع المتأزم . وهنا يبرز ابن رشد ككرة أخرى على مسرح الأحداث عند إحاطة القوات المرابطية بقرطبة ، حيث قابل علي بن يوسف وأبان له الحقيقة ، ورد علي من اعتبر فعل أهل قرطبة اجتراءً وعصياناً وضلالاً ^(٣) ، وأكد أنهم لم يشقوا عصا ، ولا نكثوا بيعه ^(٤) . وإنه كان من واجب الوالي ليتحاشى ما حدث " أن يعاقب المذنب من عبيده " ^(٥) . ولما طالبه علي بن يوسف بمحصر مثيري الشغب رد عليه بقوله " ليس لنا قدرة على حصرهم ، وإنما يحصرهم صاحب الأمر " ^(٦) . وقد حُلّت الأزمة وعادت الأمور إلى مجاريها باتفاق يقضي بتعويض المرابطين عما نهب منهم ^(٧) .

وهكذا نرى ابن رشد وقف مند البداية موقفاً صارماً من الغوغاء

* جاء ذلك على لسان ابن رشد كما سنرى بعد قليل .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٥٨ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٦ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٤ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان) .

(٤) ابن رشد : مسائل ابن الوليد بن رشد ، تحقيق محمد الحبيب التيجاني ، ط . الثانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، ج ١ ، ص ٣٢ من مقدمة المحقق (نقلاً عن مجهول : طبقات المالكية) .

(٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٤ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان) .

(٦) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٤ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان) .

(٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٥٨ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٧ .

الذين اعتدوا على مركز الحكم المرابطي في المدينة ، فكان هذا سبباً في تلافي ما كان ينتظر حدوثه في قرطبة من فوضى واضطراب قد يمتد إلى مدن أخرى ، فينفرط عقد الوحدة في الأندلس ، ثم توج ذلك كله بمساعيه الحميدة في الصلح بين أهل قرطبة وعلي بن يوسف " حقناً لدماء المسلمين ، وتأليفاً لجماعتهم ، وإعادة لجو الانسجام بين السلطة العليا والقرطبيين " (١) .

أما الحركة الأخرى التي كادت تعصف بوحدة الأندلس ، وكان لابن رشد أثر ملموس في معالجة آثارها فهي خيانة أهل الذمة من نصارى غرناطة وغيرها للمسلمين باتصالهم سراً بابن ردمير (الفونسو الأول أو المحارب) * حاكم مملكة أرغون النصرانية المجاورة من الشمال الشرقي لدولة الإسلام في الأندلس (٢) ، ودعوتهم آياه لغزو الأندلس واحتلال غرناطة على الخصوص (٣) حيث " توالى عليه كتبهم ، وتواترت رسائلهم ملحة بالاستدعاء ، مطمعة في دخول غرناطة " (٤) ، ولما أبطأ عليهم أغروه بكتاب ضمّنوا له فيه التحاق إثني عشر ألفاً من أنجاد مقاتليهم بجيشه عند حلوله غرناطة ، وقد سجلت أسماؤهم في ذلك الكتاب ، وذكروا له - أيضاً - أن

(١) المختار التليلي : ابن رشد ، ص ٢٢٢ .

* الفونسو الأول (المحارب) Alfoso el Batalladar تولى حكم أرغون بعد وفاة أخيه بيدرو الأول عام ١١٠٤هـ/١١٠٤م ، وقد اتسعت مملكة أرغون في عهده ، واستمر يحكمها حتى وفاته عام ١١٢٩هـ/١١٣٤م (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ١٣٨ ، ١٦٥ - ١٦٦ ؛ ١٢٤ p. cit. - Jose terrero: op. cit. ١٢٥) وتسمية المصادر الإسلامية ابن رُدمير (ابن هشام اللخمي : المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ص ١٧٢ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٨) أو ابن ردمير ، وقد نُعت بأنه من أكثر ملوك النصارى " تجرداً لحرب المسلمين " (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٤) .

(٢) عنان : دول الطوائف ، ص ٤٠٦ .

(٣) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩١ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

كثيرين غير هؤلاء ينتظرون شخوصه عندهم للانضمام إليه^(١). وإزاء هذا الإغراء الممزوج بالإلحاح من قبل نصارى غرناطة* تجهز الفونسو المحارب في قوة مختارة من رجاله ، وانطلق في غارة بعيدة العمق في بلاد المسلمين ، حيث خرج من مملكته في منسلخ شعبان عام ٥١٩هـ/ ١١٢٥م^(٢) ، واجتاز مناطق شرقي الأندلس ، ثم دخل المناطق الجنوبية حتى وصل غرناطة ، فألقى القوات المرابطية من الأندلس والمغرب قد أحذقت بها فلم يصنع فيها شيئاً رغم تسلل النصارى منها إليه ، وإمدادهم له بالأقوات ، ولذا استمر في مسيره إلى أن بلغ البحر في الجنوب ، ثم كر راجعاً فمر بغرناطة نزلة أخرى ، وبعدها انكفاً عائداً إلى بلاده^(٣). وقد أخذت منه تلك الغارة** حوالي ستة أشهر***. ورغم وقوع مناوشات بينه وبين الجيوش التي كانت تطأ أذياله أينما حل طوال غارته إلا أنه لم يستطع احتلال أي مدينة أندلسية ، وإن خَلَفَ في بعض المناطق خراباً في الأرض ، وفزعاً بين السكان^(٤).

ولا جرم أن فيما فعله أهل الذمة من النصارى الأندلسيين - وبخاصة

(١) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٦٩ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص ١٠٩ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩١ .

* كان على رأس من تولى كبر دعوة حاكم أرغون لاحتلال غرناطة أحد كبار رجال الدين النصارى فيها ويدعى بابن القلّاس (ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص ١٠٧ ، ١١٠) .

(٢) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩١ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٧٠-٧٢ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص ١٠٩-١١٣ .

** أشارت المصادر المشرقية إلى هذه الغارة (ابن الأثير : الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٣١ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام " حوادث ووفيات ٥٠١-٥٢٠هـ " ، ص ٣٠٧) .

*** جاء في بعض المصادر أن تلك الغارة استغرقت سنة وثلاثة أشهر (مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٧) ولكن الصحيح أنها لم تستغرق سوى ستة أشهر ، وقد تزيد أياماً (ابن رشد : فتاوى ابن رشد ،

ج٣ ، ص ١٥١٨ ، ١٥٢١) .

(٤) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٦-٩٧ .

نصارى غرناطة - من دعوة للفونسو المحارب لغزو الأندلس ، ومساعدة له ، وانضمام إلى جنده* فضلاً عن تنبيهه " على المرشد التي تضر المسلمين وتنفعه " ^(١) لا جرم أن في ذلك ضربة لكيان الجماعة الإسلامية في الأندلس ، وزعزعة لحبل أمنها ، وخلخلة لنظام وحدتها ، وهذا كله يخالف ما كان ينبغي أن يلتزم به هؤلاء النصارى المعاهدين من واجبات تجاه المسلمين في الأندلس ودولتهم وفقاً لعقد الذمة الذي صاروا بموجبه من أهل دار الإسلام ^(٢) .

هذه النازلة التي ترتب عليها تضعضع وحدة البلاد أشغلت بال ابن رشد الجدل لدرجة أنه انقطع عن التدريس وقتها لمتابعة فصولها أولاً بأولاً ^(٣) . ورثما انقضت خف بنفسه إلى حاكم المرابطين في مراكش ، وتجشم العبور إلى العدو ^(٤) رغم أن سنى عمره آنذاك قد خائفت السبعين ^(٥) ؛ فخرج

☆ يذكر بعض المؤرخين أن غارة الفونسو المحارب في العمق الأندلسي كان يرمي منها حمل نصارى الأندلس المستعربين على الهجرة إلى بلاده التي كانت بحاجة إلى من يُعمرها (أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٢٤٣ ؛ هشام أبو رميلة : علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس ، ط . الأولى ، دار الفرقان ، عمّان ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٣٥٥ ؛ W.Montgomery . watt : op.cit., p.86 .)

(١) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٢ .

(٢) يوسف القرضاوي : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، ط . الثانية ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م ، ص ٧ .

(٣) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج٣ ، ص ١٥١٨ ، ١٥٢١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥٢١ .

(٥) ذاك أن ابن رشد ولد عام ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م (ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص ٥٧٧) وكان عبوره هذا إلى العدو في أوائل سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م كما في المتن .

متوجهاً إلى مراکش أوائل ربيع الأول سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م^(١) ، ولما وصل إلى أمير المسلمين علي بن يوسف " استوعب في مجالس عدة إيراد ما أزعجه إليه " ^(٢) حيث " بين له أمر الأندلس ، وما بليت به من معاهدتها ، وما جروه إليها ، وما جنوه عليها من استدعاء ابن ردمير ، وما في ذلك من نقض للعهد والخروج عن الذمة " ^(٣) . ولرتق ما أنفتق من صدوع في كيان الأندلس ، ولضمان عدم تكرار مثل تلك الهجمة الغادرة ولتقوية الجبهة الداخلية للبلاد أفتى ابن رشد علي بن يوسف - أولاً - بتغريب نصارى الأندلس المتعاونين مع حاكم أرغون ، وإجلالهم عن أوطانهم ^(٤) ، " وقال * وهو أخف ما يؤخذون به " ^(٥) . ثم اقترح ثانياً على علي بن يوسف أمرين آخرين أحدهما: عزل أخيه أبي طاهر تميم بن يوسف * عن ولاية الأندلس ^(٦) ، إذ وقعت الغارة النصرانية أثناء ولايته . والآخر العناية بأسوار المدن المغربية والأندلسية بالبناء

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج٣ ، ص ١٥٢٣ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ١٦٠ .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج٣ ، ص ١٥٢٣ - ١٥٢٤ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٩٩ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٧٢ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص ١١٤ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٠ ، ٩٧ .

* انظر كلاماً لابن رشد عن الحكم فيمن نقض العهد من أهل الذمة (البيان والتحصيل ، ج٢ ، ص ٦١٠-٦١١) .

(٥) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٦٠ .

* أبو طاهر تميم بن يوسف بن تاشفين ، تقلب في ولاية عدد من المدن المغربية والأندلسية زمن أخيه علي كفرنطة وتلمسان وإشبيلية وفاس (ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٨٢ ، ٨٣ ؛ ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ١٠٦) ولما أغار الفونسو المحارب على الأندلس كان تميم الحاكم العام لها ، ومستقره غرناطة (مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٣) ولما صرف عن الأندلس ولي مدينة فاس (ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٨٣) وقد كانت له جهود في جهاد النصارى في الأندلس (ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٥٠) ومحاربة الموحدين في المغرب (مجهول : الحلل الموشية ، ص ١١٢) .

(٦) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٨ .

أو التعزيز^(١) ، ولقد تلقى علي بن يوسف بالقبول ما أوصى به ابن رشد* الذي ثاب إلى وطنه في أواخر جمادي الأولى من السنة نفسها^(٢) فغَرَّبَ النصارى الناكثين بالعهد إلى العُدوة المغربية* في رمضان من تلك السنة^(٣) ، وفي رمضان أيضاً عَزَلَ أخاه تيمماً عن ولاية الأندلس^(٤) ، كما صدرت الأوامر بتفقد الأسوار ، وقد بادر عدد من ولاية المدن في الأندلس في بناء أسوار مدنها أو تجديدها^(٥) . وتلك إجراءات نُفِذت - بلا شك - لتوثق عرى الوحدة في الأندلس ، ولتُحْكَم روابط الاتحاد مع الدولة المرابطية في المغرب .

ولاغرو أن الاختلاف الفكري المفضي إلى الجدل والخلاف لا يقل

(١) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٧٣ .

* كتب علي بن يوسف كتاباً إلى أهل الأندلس يشير فيه إلى وفادة ابن رشد عليه ، ويؤكد لهم اهتمامه البالغ بالنود عنهم (ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٦٠٣-٦٠٤ ؛ عمود علي مكي : وثائق جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٦٧) .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج٣ ، ص ١٥٢٤ .

* ومن الملاحظ أن بعض النصارى المنقولين من الأندلس إلى المغرب تقدموا لحاكم المرابطين باستفسارات حول أملاك لهم في الأندلس ، فعرضها هذا على علماء الأندلس عام ٥٢١هـ / ١١٢٧م (الونشريسي : المعيار العرب ، ج٦ ، ص ٥٦ - ٥٧) وجاء في سؤال للقاضي عياض تصريح بإجلاء جماعة من النصارى ، وتبين من جوابه أنهم من نصارى الأندلس (مذاهب الحكام ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ؛ الونشريسي : المعيار العرب ، ج٧ ، ص ٧٣ ، ٧٤) ويذكر أن ألوفاً كثيرة من هؤلاء النصارى - وبخاصة الذين عاشوا بمراكش - قد عادوا إلى الأندلس في أوائل عصر الموحدين ، بينما أعلنت جماعات منهم إسلامها ، واندمجوا في المجتمع الإسلامي (رضوان البارودي : أضواء على المسيحية والمسيحيين في المغرب في العصر الإسلامي ، ط . دار الفكر العربي ، ١٩٩٠م ، ص ٣٧ ، ٤٠) .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٧٣ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص ١١٤ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٧٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٧٣ - ٧٤ .

خطورة على الجماعة من التنازع السياسي ، بل ربما كان في بعض الأحيان أساساً أو مبعثاً ينطلق منه ذلك التنازع . ولكون الأندلس - كما مر ذكره - ثغراً من ثغور المسلمين ويعيش بين جوانحها أعداد عظيمة من النصارى ، بمعنى أنها تواجه أعداءها وخصوم عقيدتها كل حين فإن علماء الأندلس - على مر العصر الإسلامي كله - ظلوا يتمسكون بمذهب الإمام مالك في المجال الفقهي^(١) ، وبما يروونه مذهباً لأهل السنة والجماعة في المجال العقدي^(٢) ، فوقفوا بالمرصاد لكل من يعارض ذلك ، سداً لأبواب الخلاف وما قد يجره من فتن ، ووقاية للوحدة الإسلامية في هذا الثغر القصي من أي تصدع أو انفلات^(٣) ، قد يؤدي إلى اجتثاث شجرة الإسلام منه^(٤) . وانطلاقاً من هذا المبدأ فإنه حالما انتشر في الأندلس كتاب " إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) أصدر علماء قرطبة برئاسة قاضي الجماعة أبي عبد الله بن حمدين (ت ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م) فتوى بإحراقه^(٥) في أوائل عهد الحاكم المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين* باعتباره من كتب

(١) حسين مؤنس : صورة الأندلس ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، م ١٤ ، عام ١٩٦٠ م ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) حسين الوراكلي : التراث الأندلسي وسؤال الوحدة ، ص ٢٠ .

(٣) حسين مؤنس : صورة الأندلس ، ص ٤٤ . وانظر ما قاله محمود علي مكّي في تقديمه لكتاب (ابن سهل : ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس " مستخرجة من الأحكام الكبرى " تحقيق

محمد عبد الوهاب خلاف ، ط . الأولى ، المركز العربي الدولي للإعلام ، القاهرة ، ١٩٨١ م ، ص ٧) .

(٤) محمد اليعقوبي البدراوي : إحراق كتاب الإحياء في الغرب الإسلامي ، مجلة المناهل ، العدد ٩ ، السنة ٤ ، رجب ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ، ص ٣١٢ .

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ، ص ٥٩ ؛ الونشريسي : المعيار المغرب ، ج ١٢ ، ص ١٨٥ ؛ مجهول : الحلل المشوية ، ص ١٠٤ .

* أكد ابن القطان أن فتوى الإحراق صدرت عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م (نظم الجمان ، ص ٧٠) بينما -

البدع^(١) المشوشة لعقائد الناس ، المشتتة لكلمة الجماعة^(٢) ، المبعدة عن الكتاب والسنة^(٣) . وحال صدور الفتوى يُوشر العمل بها في قرطبة وغيرها^(٤) . وغالب الظن أن الإفتاء في إحراق كتاب مثل " إحياء علوم الدين " ولعالم شهير كأبي حامد الغزالي عُرف قبلاً عند حكام المرابطين وعلماء الأندلس والمغرب لن تصدر إلا بعد قراءة مستوعبة لفصوله، ودراسة مستوفية لمقاصده. ومع أننا لا نملك حتى الآن نص الفتوى التي لا بد أنها شرحت مبررات الإحراق لكن لحسن الحظ نُقل إلينا شذرات من كلام ابن حمدين* يبين فيها ما يراه في

- أكد الونشريسي أن ذلك كان عام ٥٠٧هـ / ١١١٣م (المعيار المغرب ، ج٢ ، ص ١٨٥) وأما ابن عذارى فقد نقل الخبر عن ابن القطان ، ولكنه لم يبين التاريخ الذي ذكره هذا الأخير ، بل ساق الخبر بعد حوادث سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م (البيان ، ج٤ ، ص ٥٩) ولقد رجح محمد القبلي أن سنة الإحراق هي ٥٠٧هـ / ١١١٣م واحتج بأن ابن عذارى عُرف باعتماده الطريقة الحولية في تسجيل الحوادث مع توخي الدقة . وتساءل هل معنى أن ابن عذارى كان يعرف رواية أخرى تنص على أن سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م هي التي جرى فيها الإحراق ، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليها ساعة تصنيف الخبر ؟ كما توقف عند رواية ابن القطان القائلة بأن الإحراق حدث سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م وتساءل - أيضاً - هل تأثرت بالدعاية الموحدية التي كانت ترمي إلى " توطئ حدث الإحراق قبل وفاة الغزالي سنة خمس وخمسمائة ليستقيم النسق الرسمي القائم على دعاء مؤلف الإحياء على المرابطين بسبب فعلتهم ، ولقائدهم ... ابن تومرت " ؟ وأخيراً دعا إلى ضرورة التحفظ بالنسبة لأطروحة الإحراق قبل وفاة الغزالي (مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط ، ط . الأولى ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٧م ، ص ٣٠ ، وحاشية "٢٢") .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١٩ ، ص ٣٣٢ ؛ حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، ص ١١٣ .

(٢) الونشريسي : المعيار المغرب ، ج٢ ، ص ١٨٧ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ١٧٤ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧١ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١٩ ، ص ٣٢٧ .

* ألف ابن حمدين رسائل في الرد على أبي حامد الغزالي كانت تُقرأ عليه (ابن عطية : فهرس ابن عطية ،

ص ١١٢ ؛ عياض : الغنية ، ص ١١٦ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١٩ ، ص ٤٢٢) .

كتاب الإحياء من خطر على عقيدة أهل السنة والجماعة في الأندلس ، ففي معرض تحذيره من رسالة أنشأها أحد الصوفية المتعصبين لكتاب الإحياء ، وصف أبا حامد بـ " إمام بدعتهم " ^(١) ثم تساءل موضحاً حال أبي حامد بقوله " فأين هو من شُنع مناكيره ، ومضاليل أساطيره المبينة للدين ؟ " ^(٢) ثم أضاف " وزعم أن هذا من علم المعاملة المفضي إلى علم المكاشفة الواقع بهم على سر الربوبية الذي لا يُسفر عن قناعه ، ولا يفوز باطلاعه ، إلا مَنْ تمطى إليه تَبَج ضلالته التي رفع أعيلامها ، وشرّع أحكامها " ^(٣) ثم أشار إلى ما نادى به أبو حامد للوصول إلى هذه المكاشفة ، وعقّب عليه بقوله " فهو يقول : ذروا ما كان السلف عليه ، وبادروا ما أمركم به " ^(٤) . ولعل أبا بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) وهو الأندلسي الذي هاجر إلى المشرق ثم استقر بمصر ، وبقي على اتصال بالأندلس وعلمائها ^(٥) - لعله جلى لنا سبب فتوى علماء قرطبة بإحراق الإحياء* ، كما كشف لنا ما يمثلته

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٣٣٢ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) مخلوف : شجرة النور ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

* ومن عجب أن عديداً من الكُتّاب المحدثين أعرضوا عن السبب العقدي الذي عوّل عليه فقهاء قرطبة في فتوَاهم بإحراق الإحياء والذي أيدهم عليه بعض معاصريهم من العلماء كالطرطوشي والمازري (الذهبي: تاريخ الإسلام، " حوادث ووفيات ٥٠١-٥٢٠هـ " ، ص ١٢٠-١٢٢ ؛ سير أعلام النبلاء، ج ١٩ ، ص ٣٣٠ - ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ - ٣٤٢ ، ٤٩٤-٤٩٦) وجزموا بأسباب بنوا غالبها على التخمين كجعلهم أحد الأسباب الرئيسة في فتوى الإحراق كون الغزالي في كتابه الإحياء قد شن حملة شعواء ضد الفقهاء (عبد الوهاب فايد : منهج ابن عطية في تفسير القرآن ، ص ٣٩ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٧٩ ؛) بنهرت دوزي : المسلمون في الأندلس ، ترجمة حسن حبشي ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥م ، ج ٣ ، ص ١٦١) وقد تكلف بعض هؤلاء -

ذلك الكتاب من خطر على عقيدة الأندلسيين ، ووحدة كلمتهم - وذلك في سؤال طرَحَ عليه بهذا الشأن . فكان مما قاله عن الغزالي وإحيائه " شحن كتابه بالكذب على رسول الله ﷺ فلا أعلم كتاباً على بساط الأرض في مبلغ علمي أكثر كذباً على رسول الله ﷺ منه ، سبكه بمذاهب الفلاسفة ، ومعاني رسائل أخوان الصفا ، وهم قوم يرون النبوءة اكتساباً " ^(١) ، "وزعموا أن المعجزات حيل ومخاريق" ^(٢) . إلى أن قال إن الغزالي في كتابه هذا " يسوق الكلام سوقاً يُرعد فيه ويُبرق ، ويمني ويشوق حتى إذا تشوفت له النفوس قال هذا من علم المعاملة ، وما وراءه من علم المكاشفة ، ولا يجوز تسطيره في الكتاب ، أو يقول : وهذا من سر القدر الذي نهينا عن إفشائه " ^(٣) . ويعلق الطرطوشي على ذلك بقوله : " وهذا فعل الباطنية وأهل الدغل والدخل في دين الله يستغل الموجود ، ويكلف النفوس بالمفقود " ^(٤) . ويقدم لنا النتيجة

- الكتاب لإثبات هذا السبب بنقل نصوص من الإحياء تؤيد وجهة نظرهم (بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٥٣ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص ٦٥٨ - ٦٥٩ ؛ أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ؛ حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٤٥٢) ولقد رمى بعضهم فقهاء المرابطين بالتزمت والجهل وحرابة الفكر لإحراقهم الإحياء (أبو العلاء عفيفي : أبو القاسم بن قسي وكتابه خلع النعلين ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١١م ، سنة ١٩٥٧م ، ص ٥٣ ؛ السعيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، ص ٦٣) ولا يستبعد أن هؤلاء جميعاً تأثروا في رأيهم هذا بما كتبه مؤرخو الموحدين الساخطون على المرابطين (ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧١) أو بما كتبه مؤيدو أبي حامد الغزالي (التادلي : التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي ، تحقيق أحمد توفيق ، ط . الأولى ، دار النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ ، ص ٣٦ ، ٩٦ ، ١٤٥ ، ١٦٩ ؛ ابن أبي دینار : المؤنس ، ص ١٣٣) .

(١) الونشريسي : المعيار المغرب ، ج ١٢ ، ص ١٨٦ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٣٣٤ ، ٤٩٥ .

(٣) الونشريسي : المعيار المغرب ، ج ١٢ ، ص ١٨٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

التي تحُصل من جراء ذلك بقوله " فهو تشويش لعقائد القلوب ، وتوهين لما عليه كلمة الجماعة " ^(١) ثم أخيراً يبين وجهة إحراقه مدعماً ذلك بما أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم من إحراق المصاحف المخالفة للمصحف العثماني ^(٢)؛ لأن فيه حسماً للاختلاف والتقاتل ، فقال " فإنه إن ترك انتشر بين ظهور الخلق، ومن لا معرفة له بسمومه القاتلة ، وخيف عليهم أن يعتقلوا صحة ما سطر فيه مما هو ضلال ، فيحرق قياساً على ما أحرقته الصحابة رضي الله عنهم من صحائف المصحف التي كان فيها اختلاف ألفاظ ونقص آي ، ألا ترى أنهم لو لم يحرقوا تلك الصحائف، وانتشرت في الخلق لحفظ كل إنسان ما وقع منها إليه، وأوشك أن يختلفوا فيتقاتلوا ويتقاطعوا " ^(٣) . وهكذا انكشف لنا -فيما مضى- أن سبب فتوى علماء قرطبة بإتلاف كتاب الإحياء* هو ما حواه بين دفتيه من أمور تشوش صافي العقيدة ، وتبدد شمل الجماعة ، وقد تؤدي في النهاية إلى التنازع ثم الاقتتال بين المسلمين في بلد أخرج ما يكون إلى اتلاف القلوب ، وتوحيد الكلمة ، وانتظام الصف . وإذا كانت هذه حقيقته

(١) الونشريسي : المعيار المغرب ، ج ١٢ ، ص ١٨٧ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٤٩٦ .

(٣) الونشريسي : المعيار المغرب ، ج ١٢ ، ص ١٨٧ .

✽ أفرد محمد بن عبد الرحمن المغراوي قسماً من أقسام كتابه " العقيدة السلفية " لدراسة أسباب حرق " إحياء علوم الدين " . فجعل الأسباب الحقيقية أربعة: ١- فتاوى علماء السنة وموقفهم من الكتاب. ٢ - الأحاديث الضعيفة والمندوسة في الكتاب. ٣ - احتواؤه على أصول البدع وأسسها. ٤ - الطامات والمصائب التي تهدم الإسلام من أصله . وقد وقف وقفات طويلة لشرح كل سبب من هذه الأسباب ، فاستشهد على ذلك بما جاء في الإحياء نفسه (العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات ، ق ٥ ، ط . الأولى ، دار المنار ، الرياض ، ١٤١٤ هـ) وانظر أيضاً : (عياض: ترتيب المدارك ، ج ١ ، ص يو - ك من مقدمة المحقق محمد بن تاووت الطنجي ؛ البدراري : إحراق كتاب الإحياء ، ص ٣١٨ ، ٣٢٢) .

فإن الأمر بإتلافه لم يكن بدعاً في حياة المسلمين^{*} . فالصحابا رضي الله عنهم أجمعوا على حرق ما خالف المصحف المعتمد لديهم خوفاً من نشوب الخلاف ومن ثم القتال .

ب - اختلال وحدة الأندلس عند تردي أوضاع الدولة المرابطية وموقف العلماء من ذلك :

كان قيام ابن تومرت وحزبه الموحدون بالثورة في المغرب ضد المرابطين من الأسباب التي أدت بأحوال الأندلس إلى الاختلال^(١) . فلمجابهة تلك الثورة المتصاعدة القوة نقل حكام المرابطين كثيراً من حماة الأندلس وأسلحتها وعُددها إلى المغرب ، " فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس ، واختل أمرها عليهم ، وألح النصارى بالضرب على جهات الأندلس حين علموا بعجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع ... فساءت الأحوال ، وكثرت الشدائد والأهوال"^(٢) وحينذاك توافرت لدى الأندلسيين "دواعي

✽ كان حرق الكتب في الأندلس شيئاً مألوفاً قبل المرابطين وبعدهم ، فقد حُرقت بعض كتب مكتبة الحكم المستنصر - وكذلك كتب ابن حزم (دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص ٣٨ ، وحاشية "٤١") كما حرق الموحدون أنفسهم كتب الفروع وعلى رأسها المدنة (المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٤ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ٣ ، ص ١١١ ، وانظر - أيضاً - : القبلي : مراجعات حول المجتمع ، ص ٥٠ ؛ روجي لي تورنو : حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، ترجمة أمين الطيبي ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ١٩٨٢م ، ص ٧٣) والظاهر أنه لو لم يستغل الموحدون إحراق الإحياء لصالحهم ، وقدر الله للدولة المرابطية الحياة مدة أطول لم حرق الإحياء في الأندلس دوغماً ضجيج .

(١) المراكشي : المعجب ، ٢٧٧ .

(٢) مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٢٠ .

الشتات ...، واستهدفوا الخلع" ^(١) ثم ما لبثت البلاد أن انفجرت بالثورة على المرابطين بعد مضي مدة وجيزة من عهد تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين الذي انشغل عنها بمقاتلة الموحدين ^(٢)، فكانت سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م هي السنة التي كثر فيها الثوار في جميع مناكب الأندلس ^(٣)، وعلى حد تعبير المراكشي ^(٤) "كادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية". وهذا معناه أن الوحدة التي كانت ترفل بها الأندلس في ظل المرابطين قد انفرط عقدها، وانحلت عراها، وتناثرت أجزاؤها.

ومما يستلفت النظر أن الذي تولى كبر هذه الفتنة، وأيقظها من رقدتها، وأوقد نارها هم من المحسوبين في زمرة العلماء ^(٥)، ولذلك سماها بعض المؤرخين "فتنة المريدين والفقهاء" ^(٦) فالمريدون هم شيعة أبي القاسم بن قسي ^{☆☆} الذي كان قد بادر بالتمرد على المرابطين في غربي الأندلس عام

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٧ .

(٣) الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤٢ ؛ ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ ؛ المعجم ، ص ٢٤٥ .

(٤) المعجم ، ص ٢٧٧ .

(٥) السامرائي : علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية ، ص ٢٨٣ .

☆☆ انظر عن أصناف العلماء كلاماً لابن رشد (فتاوى ابن رشد ، ج ٣ ، ص ١٦٢٥ - ١٦٢٩) وكلاماً آخر لأبي بكر بن العربي (قانون التأويل ، ص ٢٥٤ ؛ العواصم من القواصم ، ص ٣١٨ - ٣١٩) .

(٦) ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٣٨ .

☆☆ أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي ، إسباني الأصل من بادية شلب ، نشأ مشغلاً بالأعمال الإدارية الرسمية، ثم أظهر الزهد ولقى بالمرية أبا العباس بن العريف أحد زعماء المتصوفة في الأندلس حينذاك ، ثم أقبل على قراءة كتب أبي حامد الغزالي (ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ١٩٧) ثم أصبح كلامه في التصوف يُكتب ويُداول بين مريديه (ابن العريف : مفتاح السعادة ، ص ٢٠٨ ؛ بولس اليسوعي : رسائل ابن العريف إلى أصحاب ثورة المريدين في الأندلس ، مجلة الأبحاث - الجامعة الأمريكية ، بيروت ، عدد ٢٧ ، سنة ١٩٧٨-١٩٧٩م ، ص ٥١) ومن أشهر -

٥٣٨هـ / ١١٤٣م^(١) ، فكانت ثورته " باكورة الفتنة " على حد تعبير ابن الخطيب^(٢) . أما الفقهاء فقد كان إمامهم وقادتهم في الثورة قاضي الجماعة في قرطبة أبا جعفر بن حمدين* الذي جاهر بعصيانه المرابطين حين قبل تولي

- كُتبه كتاب خلع النعلين (الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ ٧ ، ص ٢٩٨ ؛ ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٩٩) ولما تشكل حوله الأتباع ادعى الولاية ثم تسمى بالمهدي ، وقد كثرت مخاريقه ومزاعمه ، منها أنه حج في ليلته (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤٩) وقد أشار المراكشي أن له أخباراً قبيحة مضمونها الجرأة على الله سبحانه (المعجب ، ص ٢٨١) وقد تعرض ابن تيمية لبعض أفكاره مفنداً لها لا سيما قوله بما قاله الفلاسفة أن النبوة مكتسبة (بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد ، تحقيق موسى الدويش ، ط . الأولى ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص ٣٩٠-٣٩١ ؛ درء تعارض العقل والنقل ، ج ١ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ ، ج ٦ ، ص ٢٤١ ، ج ١٠ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥) أما ثورته على المرابطين فقد استمرت مستعرة حتى دخل في طاعة الموحدين ، ثم انتقض عليهم ، وحالف النصرائي ابن الرقيق (الفونسو هنريكيز) حاكم البرتغال ، فقتله أتباعه في جمادي الأولى سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م (ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ١٩٨-٢٠٠ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٥٠-٢٥٢) .

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٥٠ .

(٢) الإحاطة ، ج ٤ ، ص ٣٤٥ .

✽ أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي . ولى قضاء الجماعة في قرطبة سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م ثم صرف عنه ، وبعد ذلك أعيد إليه كرة أخرى ، فبقى يشغل هذا المنصب إلى أن ثارت قرطبة على المرابطين في رمضان عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م فقام بحكمها ، وتسمى بأمر المسلمين والمنصور بالله ، وبعث إلى كثير من المدن يطالب زعماءها بالطاعة له . لكن الحكم لم يستقر له ، قال الأمر به إلى التحالف مع حاكم قشتالة في أواخر عام ٥٤٠هـ / ١١٤٦م ، فلما فشل في التفرد بإمارة قرطبة عن طريق هذا التحالف عبر إلى الموحدين ، وبعدها عاد إلى مالقة وظل بها إلى وفاته في رجب عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م (الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤٢ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٠ ، ص ٤١٧ - ٤١٨ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٤ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٠٣ - ١٠٤) ولقد خلط بعض الكتاب المحدثين بين ابن حمدين هذا وبين ابن حمدين المتوفي سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م (حمدي عبد المنعم محمد حسين : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين - دولة علي بن يوسف المرابطي - ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٦م ، ص ١٤٦ .

السلطة في قرطبة نفسها أوائل رمضان عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م عقب قيام عامة قرطبة بخلع الطاعة المرابطية ^(١). وقد اقتفى أثره عدد من القضاة فأعلنوا الثورة مثله ضد المرابطين ^(٢). ولا يعنينا في مقامنا هذا تقصي أخبار هذين الثائرين ولا غيرهما، ولا كذلك تبيان وجهة قيام معارضة للمرابطين في الأندلس من عدمه، إذ أن ذلك خارج عن نطاق دراستنا. ولكن الذي يعنينا هنا معرفة أن هذه الفتنة ضررها على وحدة الأندلس كان كبيراً. ففيما يتعلق بابن قسي وابن حمدين - مثلاً - فإن طموحهما الشخصي إلى السلطان جعلهما يُقاتلان ولاية المرابطين في الأندلس الذين ما زالوا يمسكون رسمياً - وإن شئت فقل شرعياً - بمقاليد الحكم في البلاد ^(٣)، وكذلك يتصادمان مع زعماء أندلسيين يطلبون ما يطلبان من السلطان ^(٤)، بل إنهما في سبيل الوصول إلى الرئاسة تحالفا مع النصارى ^(٥)، فأصيب المسلمون - ساعتئذ - بمحنة شديدة أدناها ما صوره ابن الخطيب ^(٦) - مثلاً - بقوله عن ابن حمدين "وأدخل ... النصارى قرطبة في عاشر ذي الحجة من عام أربعين [وخمسمائة] فاستباحوا المسجد... ومزقوا مصاحفه ... وحُرِّقَت الأسواق، وأفسدت المدينة ". ولا ريب أن هذا كله وما ينتظر أن تُخلفه الحركات

(١) الضبي: بغية الملتبس، ص ٤٢؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥٣.

(٢) انظر على سبيل المثال: ابن الأبار: الحلة، ج ٢، ص ٢١٢، ٢١٩، ٢٢٨، ٢٥١؛ ابن

الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٣.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٤، ص ٣٤٥.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥١، ٢٥٣.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٥١، ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٦) الإحاطة، ج ٤، ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

الأخرى المعارضة لسلطة المرابطين في بقية بقاع الأندلس* - من اضطرابات وخلافات ومحالفات واقتتال - إنما هو ممزق للوحدة ، مفرق للجماعة ، مذهب لريح الأمة . ولذا فالعلماء الأندلسيون الذين نحسبهم مخلصين لدينهم وأمتهم نأوا بأنفسهم عن الخوض في تلك الفتنة ، وتصرفوا وفق ما قدره مفيداً للمسلمين ووحدتهم . فمنهم من أنكر علانية على الثوار بفرض الإقرار لهم بالولاية على المناطق التي انتزوا فيها باعتبارهم خارجين على طاعة المرابطين الذين يعدون الولاة الشرعيين للبلاد . فقاضي بلنسية أبو بكر جعفر بن حسين الأموي** (ت ٥٤٠هـ / ١١٤٥م) أبى الاعتراف بإمرة مروان بن عبد العزيز*** على

✳ قال ابن جزّي : " وقام ببلاد الأندلس قضاتها على اتفاق منهم نظراً للمسلمين ، فقام بقرطبة ابن حمدين وبغرناطة ابن أضحى ، وبجيان أبو بكر بن عبد الرحمن بن جزّي ... وبمالقة ابن حسون ... " (القوانين الفقهية ، ص ٢٧٥) فابن جزّي يرى مشروعية حكم الفقهاء للبلاد في أواخر عصر المرابطين ، فقيامهم بذلك - عنده - من باب الحسبة ، أو حسب تعبيره كان " نظراً للمسلمين " . وغير خاف أن كلام ابن جزّي هذا لا يتوافق - مثلاً - مع ما فعله ابن حمدين الذي عرفنا ظروف وصوله للزعامة في قرطبة . ✳✳ أبو بكر جعفر بن الحسين بن أبي البقاء الأموي ، من أهل أُنْدَة عمل بلنسية ، ولى الصلاة والخطبة ثم القضاء ببلده ، وقد توفي في صفر سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٤١) وقد ذكر بعض أخباره النباهي ، ولكن سماه جعفر بن الحسن بن الحسن الأمدي (المرقبة العليا ، ص ١٦) . ✳✳ هو أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان بن عبد الله بن مروان بن عبد العزيز ، كان مولده عام ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م . وقد ولى قضاء بلده بلنسية في ذي الحجة سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٤ م ، ولما خلع الناس بلنسية طاعة المرابطين بعد منتصف عام ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م تأمر فيها بعد أن أظهر في البداية تردداً ، ثم دخل في حرب مع المرابطين ، وتملك شاطبة ولقنت وما إليهما ، ولكنه لم يمكث إلا يسيراً حتى ثار به الجند في جماد الأولى سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ففر إلى المرية فقبض عليه هناك ، وأرسل مقيداً إلى ميورقة فظل مسجوناً فيها اثني عشر عاماً ، ثم أطلق سراحه وتوجه إلى مراكش وبقي فيها حتى وفاته سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٦٣ ، ج ٢ ، ص ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٦٩٦ ؛ الحلة ، ج ٢ ، ص ٢١٨ - ٢٢٦ ؛ المعجم ، ص ١١٩ - ٢٠٠ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٠١ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٥٦ .

بلنسية محتجاً بأن البيعة الشرعية للمرابطين بحكم البلاد ما زالت سارية المفعول، فلا يجوز نقضها . وسياق الخبر ما رواه ابن الأبار ^(١) عن بعض الإخباريين أنه لما قام مروان بن عبد العزيز ببلنسية أواخر أيام المرابطين طُلب أبو بكر هذا " بالشهادة في بيعته ، فقال : والله لا أفعل وبيعة تاشفين* في عنقي " . وقد حُمدَ لأبي بكر هذا الموقف الشجاع الذي أبعدَه عن السقوط في الفتنة ^(٢) . وشيبه بموقف أبي بكر الأموي من الفتنة تصرّفُ أبي محمد عاشر ابن محمد بن مرجي الأنصاري** (ت ٥٦٧هـ / ١١٧٢م) مع أبي جعفر بن أبي جعفر*** المتأمر في مرسية في الأيام الأخيرة من حياة الدولة المرابطية . فحينما استدعاه أبو جعفر " وندبه إلى الدخول معه فيما دخل فيه ... امتنع

(١) التكملة ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

* من الملاحظ أن أبا بكر الأموي قال هذا الكلام بعيد مقتل تاشفين بن علي في رمضان عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م (ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ص ٤٥٤) .

(٢) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٦ .

*** أبو محمد عاشر بن محمد بن عاشر بن خلف بن مرجي الأنصاري ، ولد سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م . وقد سكن شاطبة ، وتقلب في عدة مناصب منها خطة الشورى ببلنسية ، والقضاء في شاطبة وفي مرسية . وقد كان فقيهاً حافظاً ، بصيراً في الفتوى ، شرح المدونة في مؤلف له . ولكنه توفي في شعبان عام ٥٦٧هـ / ١١٧٢م قبل إتمامه (الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤٣٨ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ج ٢ ، ص ٦٩٧ ؛ المعجم ، ص ٣١٠ - ٣١١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ق ١ ، ص ٩٩ - ١٠١ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٦٣ - ١٦٤) .

*** أبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد الخشني ، ويعرف بابن أبي جعفر ، من أهل مرسية ، كان فقيهاً حافظاً ، ولى قضاء بلده عند خلع أهلها طاعة المرابطين سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٥م ، ثم وصل إلى الحكم فيها ، فحارب المرابطين ، وسعى في توسعة سلطانه . وقد قتل في ربيع الأول عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م بمقربة من غرناطة التي كان قد قصدتها بجيش لقتال المرابطين (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٤٤٧ ؛ الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ ؛ المعجم ، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٨ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٥٨) .

أبو محمد من ذلك " (١) ، وابتعد بنفسه عن الفتن كلها* وأمضى بقية ساعات عمره " عاكفاً على العلم ، مفيداً ومستفيداً مقبلاً على ما يعنيه ، ناظراً في أسباب معيشته إلى أن لحق بربه " (٢) . وثمة علماء معدودون في ذلك الحين من كبار علماء الأندلس كابن العربي (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) - مثلاً - لا نحس منهم من أحد في تلك الأحداث ، ولا نسمع لهم صوتاً . والظن بمثل هؤلاء أنهم انسحبوا من الميدان ، واعتزلوا الفتنة . ومن الواضح أن تلك المواقف التي أبدوها أولئك العلماء في أيام الفتنة لم يظهر لها أثر يذكر في الإبقاء على وحدة الأندلس في ظل راية المرابطين ، لأن دولتهم في المغرب كانت تتزنج تحت ضربات الموحدين ، ثم ما نشبت أن لفظت أنفاسها الأخيرة ، وانقرضت من الوجود .

ج - أثر العلماء في وحدة الأندلس تحت حكم الموحدين :

إن قيام دولة الموحدين في المغرب على إنقراض الدولة المرابطية ، وعبور بعض كبار ثوار الأندلس كابن قسي وابن حمدين إلى العدو ، واعترافهم بالموحدين (٣) ، ثم تمكن هؤلاء الأخيرين من بسط سلطانهم على غربي الأندلس ووسطها** - إن ترادف ذلك كله جعل علماء الأندلس

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ١٠١ .

* ولقد ذكر أن مروان بن عبد العزيز ألزم أبا عبد الله بن غلام الفرس بتقليد الخطابة بجامع دانية ، فكان أبو عبد الله " إذا سئل عن حاله يقول : حال شيخ ابن سبعين سنة يطلع على هذه الأعواد فيكذب " (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ق ١٦٦) فهل معنى كلامه هذا عدم رضاه

بولاية مروان الثائر في شرقي الأندلس ؟

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ١٠١ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ .

** انظر : التمهيد من هذا الكتاب .

يرنون بأبصارهم نحو الدولة الموحدية الفتية ، فيتعلقون بحبل طاعتها ، ويعقدون عليها الآمال في مواجهة الخطر النصرائي . فعندما استولى الموحدون على إشبيلية وصل إلى مراكش وفد من أهلها لتقديم البيعة للحاكم الموحد عبد المؤمن بن علي ، وذلك في ذي الحجة من عام ٥٤١هـ / ١١٤٧م ^(١) ، وقد كان في مقدمة الوفد الإشبيلي كبار علمائهم ، وعلى رأسهم أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) وأبو بكر بن الجند* (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) وغيرهما ^(٢) . وحين دخل الوفد إلى عبد المؤمن في مجلسه ألقى ابن العربي خطبة بليغة ، ثم تبعه ابن الجند فألقى هو الآخر خطبة أخرى ^(٣) . ولم تصرح المصادر بفحوى هاتين الخطبتين ، لكن من المتوقع ألا يخرج عن إطاراء للموحدين ، ودعوة للاعتصام بدولتهم ^(٤) ، بدليل أنهما حازتا على إعجاب الحاكم الموحد ^(٥) . ومهما يكن من أمر فإنه بعد إلقاء الخطبتين قام رجال الوفد إلى عبد المؤمن "ودفعوا له بيعة أهل إشبيلية ، مشهودة بخطوطهم ، فقبلها منهم ، واستحسن فعلهم" ^(٦) .

(١) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٣ .

* أبو بكر بن الجند هو : محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرح بن الجند الفهري ، ولد في لَبَّة عام ٤٩٦هـ / ١١٠٥م ، ثم استقر بإشبيلية . برع بالعربية ، ثم مال إلى الفقه والحديث ، فكان ممن انتهت إليه الرئاسة في الفتيا ، وقد شُهر عنه قدرة خارقة على الحفظ . وكان أحد العلماء الذين حظوا بمكانة لدى الحكام المرابطين ثم الموحدين ، وتوفي في شوال عام ٥٨٦هـ / ١١٩٠م (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٤٢ - ٥٤٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ، ص ٣٤٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٣٢٣ - ٣٢٦ ؛ ابن فرحون : الدياج ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧) .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٣ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٤٧ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٣ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٤٨ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(٦) مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٤٨ .

وكان قاضي الجماعة في قرطبة أبو القاسم بن الحاج* (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) ممن أيد الموحدين ، ولكنه - فيما يبدو - لم يستطع في أول الأمر الشخوص بنفسه إليهم ، ولذا بعث اثنين من أسرته معززين بثالث من أصحابه إلى الحاكم الموحيدي عبد المؤمن فالتقوا به في مراكش . ثم رد عليه عبد المؤمن بكتاب خبره بوصول الرسل ، وتأديتهم البيعة^(١) . أما عن اعتذاره بعدم الحضور فقد جاوبه عبد المؤمن في ذلك الكتاب بقوله "وقام عذركم - وفقكم الله - على ساقه فقبل ، ومثل ولاؤكم نائباً عن الوصول فوصل"^(٢) .

ولقد كان العلماء - أيضاً - في طليعة الأندلسيين الذين مثلوا وسط الأندلس وغريبها^(٣) ، وتحركوا آخر عام ٥٤٥هـ / ١١٥١م^(٤) لمقابلة عبد المؤمن بن علي في المغرب ، وتأكيده الطاعة له ، حيث وصلوا إلى مدينة سلا** بالمغرب في خمسمائة رجل " من الخطباء والفقهاء والقضاة والأشياخ

* أبو القاسم بن الحاج هو محمد بن محمد بن أحمد بن لب يظير التحيبي . وهو ولد أبي عبد الله بن الحاج قاضي الجماعة في قرطبة المقتول في الجامع في صفر عام ٥٢٩هـ / ١١٣٤م (ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٨١) من أهل قرطبة كان من أهل العلم بالرأي والحفظ للمسائل . ولى قضاء الجماعة ببلده وقتاً ، ثم خرج منها وتجول ببلاد الأندلس ، فكانت وفاته في إشبيلية سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥١٨ - ٥١٩ ؛ وانظر : مخلوف : شجرة النور ، ص ١٥٢) .

(١) يفهم هذا من رسالة كتبها عبد المؤمن بن علي لأبي القاسم بن الحاج . (بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ٣-٤) .

(٢) بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٤٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٣ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٩٢ .

** مدينة سلا Sale هي إحدى مدن المغرب القائمة عند مصب نهر أسمر (أي رقرق) في البحر المحيط (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ٧٢ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٢٩٦) وتتصل حالياً بمدينة الرباط عن طريق عدد من القناطر المنصوبة على نهر إبي رقرق الفاصل بينهما (الصديق بن العربي : كتاب المغرب ، ط . الثالثة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٤٩ ، ١٣٨) .

والقواد" ^(١) . وفي أول يوم من العام التالي التقوا بعبد المؤمن ، فتقدم قاضي الجماعة في قرطبة أبو القاسم ابن الحاج* (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م) الذي أُتيحت له الفرصة هذه المرة بالحضور ، فراح يتكلم بين يدي الحاكم الموحد ، فركز في كلامه على العدوان النصرائي ، وأنه أضعف البلاد وأفقرها ^(٢) . ثم نهض من بعده أبو بكر بن الجذ (ت ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م) الذي سبق أن قدم مع وفد إشبيلية ، فخطب خطبة تطرق فيها لعبد المؤمن بن علي " وما يجب من البدار إلى طاعته ، والدخول في جماعته " ^(٣) . وقد تكرر مثل هذا المجلس في اليوم الثاني ، فأتيح الكلام بين يدي عبد المؤمن لكل من أراد أن يتكلم من رجال الوفد الأندلسي ، ثم عادوا إلى بلادهم ^(٤) .

والتأمل لما مر ذكره من أخبار الوفود القادمة من غربي الأندلس ووسطها إلى الحاكم الموحد في المغرب ، وترؤس العلماء لتلك الوفود يكاد يجزم بأن العلماء المخلصين في تلك المناطق حبذوا تملك الموحدين لها بعد انتزاعها من الفرقاء المتحاربين ، وذلك رغبة في ائتلاف القلوب ، واجتماع الكلمة ، ووحدة الصف أمام النصاري* . وقد كشف لنا أبو القاسم ابن الحاج في كلمته لعبد المؤمن أن ردع العدوان النصرائي ، وإيقاف زحفه هو غاية الأندلسيين الأولى في إنضوائهم تحت مظلة الدولة الموحدية .

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٩٢ .

* رسم ابن عذارى اسمه هنا بابن حجام (البيان ، ق . الموحدين ، ص ٤٤) .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٩٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٤٤ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

* تأمل كلام ابن العربي عند شرحه لقول الرسول ﷺ : " وألا تنازع الأمر أهله " حيث قال " يعني بقوله أهله : مَنْ مَلَكَهُ لا من يستحقه ، فإن الأمر فيمن يملكه أكثر منه فيمن يستحقه ، والطاعة واجبة في الجميع لأمر النبي ﷺ بذلك لكل أمير ولو كان عبداً حبشياً لما في ذلك من مصلحة الخلق ، فإن -

ولقد كان المظنون بعلماء شرقي الأندلس أن يسعوا إلى ربط بلادهم بالدولة الموحدية ، لأن حكام هذه الأخيرة يرفعون علم الجهاد ضد النصارى^(١) بينما محمد بن سعد بن مردنيش المتأمر على تلك المناطق الشرقية من الأندلس^(٢) - بجانب انهماكه باقتراف ألوان من المنكرات^(٣) - كان معروفاً بمدخلته النصارى ، حيث " ألقاه الخروج عن الجماعة ، والانفراد بنفسه إلى الاحتماء بالنصارى ، ومصانعتهم ، والاستعانة بطواغيتهم " ^(٤)☆. بيد أننا لا نخال جهداً صريحاً لأولئك العلماء في ذلك الشأن☆☆ ، لا سيما في مرحلة قوة ابن مردنيش ، وربما أن السبب المانع لهم في عمل شيء من ذلك عدم اطمئنانهم من نجاح مسعاهم ، فابن مردنيش كان في تلك المرحلة أصلب عوداً، وأشد

- الخروج على من لا يستحق الأمر إباحة للدماء ، وإذاهب للأمن ، وإفساد ذات البين ، فالصبر على ضرره أولى من التعرض لهذا الفساد كله " . (القيس ، ج ٢ ، ص ٥٨٢) . فهذا المنهج الذي حكاه ابن العربي هو الذي سار عليه - فيما يبدو - علماء الأندلس مع دولة الموحدين .

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٥٢ ؛ بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ١٢٢ ، ١٤٠ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ .

(٢) انظر : التمهيد من هذا الكتاب .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٦١ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

☆ لمعرفة الممالك النصرانية التي حالفها ابن مردنيش انظر (محمد أحمد أبو الفضل : شرق الأندلس في العصر الإسلامي ، ط. دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٦م ، ص ٩٩-١٠٠ ، ١٠٢-١٠٣ ، ١٣١ ، ١٣٢) ☆ هناك رسالة لابن مغاور الشاطبي (ت ٥٨٧هـ / ١١٩١م) كتبها عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م على لسان أشياخ بلنسية وأعيانها يحذر فيها أحد قادة محمد بن مردنيش من اقتحام بلنسية بعد أن أعلن فيها زعيم اسمه يوسف بن حامد الدخول في دعوة الموحدين ونبذ طاعة ابن مردنيش (ابن مغاور الشاطبي : نَوْرُ الكمائم وسجع الحمائم ، نشره محمد بن شريفة ضمن كتاب " ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره " ، ط . الأولى ، مطبعة النجاح الجديدة ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م ، ص ١٣١ - ١٣٤) وقد صرح ابن مغاور أن أولئك الأشياخ والأعيان استحضروه واستهضوه للكتابة عنهم في ذلك الشأن (المصدر السابق ، ص ١٣٢) ولذا فإن ما فعله ابن مغاور لا يُعد سعيّاً صريحاً ينسب إليه في مجال الاتحاد مع الموحدين .

نفوذاً في الأندلس من الموحدين الذين كان مركزهم فيها ما زال ضعيفاً^(١). ومع هذا ألا يُعد قتل ابن مردنيش علماء من شرقي الأندلس^(٢) مؤشراً على أنهم قاموا بنصحه أو عارضوه في سياسته أو حاولوا الاتصال بالموحدين ودعوتهم لضم بلاده ؟ . فلنأخذ - مثلاً - خبر وفاة أبي الحسن بن أبي الليث* ، فقد ورد أنه قُتِلَ بدانية مظلوماً عن أذن محمد بن سعد بن مردنيش في آخر رمضان سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م^(٣) ، وقد نص الرواة أن قتله كان " لسعاية عند السلطان محمد بن سعد " ^(٤) . وقُتِلَ عالم بارز كأبي الحسن بن أبي الليث الذي كان " كبير فقهاء دانية ورأس الفتوى " ^(٥) لن يجسُرَ عليه ابن سعد ما لم يكن يراه قد ارتكب - في نظره - جرماً عظيماً ، واحتمال كبير جداً أن تكون السعاية المذكورة في الخبر المتقدم هو تعلقه بالدولة الموحدية .

(١) مراجع عقيلة الغنای : قيام دولة الموحدين ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ١٤٠٩هـ /

١٩٨٨م ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٤١ .

(٢) انظر أمثلة في : ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٠٣ ، ٣٧٩ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ،

ص ٥١٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٨٥ ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٢١٩ ؛

ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٢٢ .

* أبو الحسن بن أبي الليث هو : علي بن صالح بن أبي الليث بن أسعد العبدي ، يُعرف بابن عز الناس ،

ولد بطرطوشة سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م وسكن دانية . وقد برز في الفقه ، وله مصنفات . وكانت

وفاته مقتولاً في رمضان سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ،

ص ٦٦٨ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ ؛ ابن الزبير :

صلة الصلة ، ص ٩٦ - ٩٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٤ ، ص ١٨٣ - ١٨٤ ؛ ابن فرحون :

الدياج ، ج ٢ ، ص ١١٩ ؛ التنبكي : نيل الابتهاج ، ص ٣١٣) .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٢١٩ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ،

ج ٤ ، ص ١٨٤ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٦٨ ؛ التنبكي : نيل الابتهاج ، ص ٣١٣ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٦٨ .

ويبدو أن بعض علماء شرقي الأندلس في مرحلة ضعف ابن مردنيش رحبوا بانضمام بلادهم إلى الدولة الموحدية ، فأبو الحسن بن فيد الفارسي* (ت ٥٦٧هـ / ١١٧٢م) - مثلاً - رغم بلوغه من العمر ما يقارب ثمانين عاماً فقد شارك أهل ألش** في التخلص من حكم ابن مردنيش^(١) والدخول في طاعة الموحدين . فقد ورد في ترجمة حياته أنه " نزل ألش وولى الصلاة والخطبة بجامعها ... واستشهد في خروجه من ألش مع عامة أهلها خوفاً على أنفسهم من الأمير محمد بن سعد ، إذ كانوا قد خلعوا طاعته " ^(٢) . وكان خلعهم لدعوته وتعلقهم بحكم الموحدين قد حدث في عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠م^(٣) . ومن الملاحظ أن العديد من المدن الأندلسية الشرقية قد أخذت في ذلك العام والعام الذي بعده بإعلان الولاء للدولة الموحدية^(٤) . ولا بد أن

✳ أبو الحسن بن فيد الفارسي هو : علي بن محمد بن أحمد بن فيد الفارسي القرطبي ، ولد في قرطبة قبل عام ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م . وكانت له رحلة إلى المشرق . عني بالحديث ، فكان محدثاً حافضاً ثقة . وقد خرج من قرطبة في ثنته عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م ، ونزل بألش ، وظل يتولى الصلاة والخطبة بجامعها حتى وفاته سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م (الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤١٤ - ٤١٥ ؛ ابن الأبار : التكملة ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٧٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ٢٧٨-٢٧٩ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٠٢) .

✳ ألش Elche من عمل مرسية (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٧٠) تقع غربي مدينة مرسية (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٨ حاشية "١") على بعد حوالي أربعين ميلاً منها (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩٣) وهي اليوم من مصايف إسبانيا (ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٥٤٩ ، حاشية "٥") .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٦٧٠ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ٢٧٩ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٨ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١١٣ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ؛ ابن الأبار : التكملة ،

ج ١ ، ص ٧٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٦ ؛ ابن عذارى :

البيان ، ق . الموحدين ، ص ١١٣ ، ١٢٢ .

يكون للعلماء أثر في ذلك التوجه باعتبارهم فئة من أولي الأمر المنوط بها تدبير أمور الناس ، والسهر على مصالحهم .

وحالما انتهى أمر ابن مردنيش بوفاته في رجب عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م^(١) تهافت أهل الديار الشرقية على الدعوة الموحدية ، فتوافد بعضهم على الحاكم الموحد يوسف بن عبد المؤمن عند قدومه إلى إشبيلية في ذلك الحين^(٢) ، وكان من أبرز الوافدين إليه لتوثيق البيعة أهل مرسية - قاعدة ابن مردنيش الرئيسة^(٣) - فكان في مقدمتهم أبو عبد الله بن الفرس^{*} (ت ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م)^(٤) ، وقد كانت النتيجة أن " استوسقت طاعة الموحدين بالشرق ، وشملته دعوتهم "^(٥) ، فعادت بذلك أجزاء جزيرة الأندلس الباقية يشد

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٧٩ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ١٢٧ ؛ وانظر التمهيد من هذا الكتاب .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٢٢ ، ٣٧٨ ؛ ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٢١ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٢١٦ .

* أبو عبد الله بن الفرس هو: محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن الفرج الخزرجي ، يرجع في نسبه إلى سعد ابن عبادة رضي الله عنه . ولد في غرناطة في صفر عام ٥٠١هـ/١١٠٧م ، كان عالماً بالفقه والحديث والقراءات والأخبار وغيرها . خرج من بلده في فتنة عام ٥٣٩هـ/١١٤٥م واستوطن مرسية ، فولى الشورى بها ، ثم تولى قضاء بلنسية مدة ، ثم عاد إلى مرسية وتفرغ للتدريس إلى أن وفد إلى إشبيلية فتوفى بها في شوال عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٠٨-٥١١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٣٧٢ - ٣٧٥) .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥١٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٣٧٥ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٦٢ .

بعضها بعضاً تحت راية الموحدين . قال الضبي ^(١) (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م) مشيداً بالموحدين ، وما آل إليه أمر الجزيرة في ظلهم " فاستولى الأمر العالي ... بعد ذلك على جميع ما كان بأيدي المسلمين من الأندلس ، وارتفعت الحن والفتن والجور والجزية ، واجتمعت الكلمة " .

ولقد بقي علماء الأندلس يؤيدون الحكم الموحي لبلادهم ، فعمل بعضهم في وظائف الدولة الموحدية ^(٢) ، وخرجوا مع جيوشها لجهاد النصارى ^(٣) . كما وقفوا موقفاً صليبياً من الحركات المعكرة للوحدة كموقفهم من محاولة والي الأندلس أبي يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن للوصول إلى الحكم بطريقة غير مشروعة لما مرض أخوه الحاكم الموحي المنصور يعقوب بن يوسف (٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م - ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م) مرضاً مدنفاً ؛ حيث استمال أشياخ الجزيرة ، ودعاهم إلى نفسه ، فنفروا من فعله ، وصار بعضهم يُحيله إلى بعض ، بل أنهم لما شفى المنصور من مرضه ، وعلم بتدبيره ، وأراد عقابه - شهدوا عليه بما دعاهم إليه ، فقتله المنصور من فوره ^(٤) .

(١) بغية المتمس ، ص ٤٥ .

(٢) انظر على سبيل المثال ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ١ ق ١ م ص ٣١٢ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٢٦٥ ، ٢٧١ .

(٣) انظر مثلاً ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٣ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٣٣١-٣٣٢ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٧٥٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ١ ق ، ٣١٢ .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٧-٣٥٨ .

وقبل ختام الكلام عن أثر العلماء الأندلسيين في وحدة بلادهم تحت مظلة الموحدين ثمة أمر يستلفت النظر، وهو أن ما مر بيانه من أثر سياسي لهم في سبيل الوحدة يبدو خافئاً إذا ما قُورن بأثرهم في المجال نفسه أيام حكم المرابطين ، ويمكن رد ذلك إلى سببين رئيسيين . أولهما : إن علماء المالكية الذين هم في غالبهم علماء الأندلس لم يكونوا دائماً على صفاء مع حكام الدولة الموحدية ^(١) ، فلم يخلُ العصر الموحي من مشاحنات بين الطرفين ^(٢) ، وذلك بعكس ما ساد من وفاق بينهم وبين حكام المرابطين ^(٣) لدرجة كان علي بن يوسف بن تاشفين لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورتهم ^(٤) . ثانيهما : كان ابن تومرت قد استحدث في التنظيم الذي وضعه لاتباعه ما أسماه بالطلبة ^(٥) ، وقد غدا هذا اللقب في عهد عبد المؤمن بن علي ومن بعده يطلق على جماعة من طلبة العلم* من المغرب وكذلك من الأندلس ارتكزت تنشيتهم العلمية على أفكار الدعوة الموحدية التومرتية . ثم أسندت إليهم المناصب الإدارية والعسكرية في الدولة ^(٦) ، بل إنهم حُمّلوا أحياناً في كافة

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٢) انظر مثلاً ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٨٨ ، ٦١٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٤٤٤ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٥ .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص ٢٣٥ .

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٨٢ .

* والطلبة تطلق على ثلاث فئات هم : الطلبة الحفاظ ، طلبة الموحدين ، طلبة الحضرة (حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣) .

(٦) سعد زغلول عبد الحميد : محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس ، ط . جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٣ م ، ص ٣٢ ، حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٣٣٢ ؛ عز الدين موسى : الموحدون ، ص ٩٩ ؛ تورنسو : حركة الموحدين في المغرب ، ص ٧٢ .

أرجاء البلاد المسؤولية التربوية والعلمية والإدارية والعسكرية والقضائية وحتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١) ، وكثيراً ما توجه إليهم الرسائل الرسمية^(٢) .

ولا ريب أن طبقة الطلبة هذه بوضعها الآنف الذكر قد سحبت البساط من تحت أقدام علماء الأندلس ، ونَحَّتْهم بعيداً عن مجريات الأمور ، فصاروا عندئذ يعيشون في الظل بخلاف حالهم أيام الدولة المرابطية .

د - اضطراب وحدة الأندلس أثناء اضمحلال دولة الموحدين وموقف العلماء من ذلك:

عقب تمكن دولة الموحدين من ضم الأراضي الإسلامية في الأندلس كلها عاش المسلمون في العدوتين معاً حقبة من الزمن منصوبة رايتهم ، قوية شوكتهم ، مجتمعة كلمتهم "لانتظام البرين على طاعة الدولة الممهدة القواعد، ورجوعها إلى إمام واحد" على حد تعبير الحميري^(٣) . وقد بقيت الأحوال على هذا النحو حتى جرت هزيمة المسلمين في وقعة العقاب في صفر عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م ومن يومها صار المسلمون بالأندلس "يرجعون القهقري"^(٤) ولقد تفاقم الوضع سوءاً بتنازع البيت الموحيدي على السلطة^(٥) ، ففي خضم ذلك التنازع استجاش أفراد من الأسرة الموحدية في الأندلس

(١) عز الدين موسى : الموحدون ، ص ٩٥ ، ٩٧ .

(٢) انظر مثلاً بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ٩٥ ، ٩٩ ، ١٤٩ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٨ .

(٣) صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٨ .

(٤) القرطبي : التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، ط . الثانية ، دار الريان ، القاهرة ، ١٤٠٧ هـ /

١٩٨٧ م ، ص ٧١٣ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، نصوص جديدة ، ص ٦٣ .

بالعدو النصراني، ولم يروا بأساً في التنازل له عن حصون ومدن أندلسية^(١). ونظراً لأن محمد ابن يوسف بن هود الشائر على الموحدين في الأندلس في منتصف العقد الثالث من القرن السابع الهجري قد حارب النصارى في بداية أمره^(٢)، وأعلن تبعيته للخلافة العباسية التي ما نشبت أن أرسلت إليه كتاباً - قريء على الناس - أيده على فعله، وصدقت شرعية حكمه، وحثه على الجهاد^(٣) - نظراً لذلك كله فقد دانت له معظم المدن الأندلسية بالطاعة^(٤) * وطفق رجال من أهل العلم يدعون إلى الالتفاف حوله من أجل اتحاد أجزاء البلاد لتبقى قادرة على مجابهة الأعداء النصارى المتربصين بها، فكان من هؤلاء أبوبكر عزيز بن خطاب** (ت ٥٣٦هـ/ ١١٣٨م) حينما كتب إلى

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٧ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ . وانظر التمهيد من هذا الكتاب .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٧٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٩٤-٢٩٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٨٠-٢٨٥ .

(٤) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٩٥ .

* نقل الذهبي من خط أبي الوليد بن الحاج أنه لما نجم ابن هود بشرقي الأندلس سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م " قام الناس كلهم بدعوته ، وتعصبوا معه وقاتلوا الموحدين في البلدان ... وخلصت الأندلس كلها له ، وفرح الناس به فرحاً شديداً " . (سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٢٠ - ٢١) .

** أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب القيسي ، من أهل مرسية ، وأصله من سرقسطة ، ولكن سلفه انتقلوا منها إلى مرسية ، فصاروا من أهلها . ولد عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م . كان من المستبحرين بفنون العلم ، واشتهر بالبلاغة في النثر والنظم ، وكان عابداً زاهداً متقللاً من الدنيا إلى أن نصبه ابن هود والياً على بلده مرسية ، فقام بتدبير أمورها حتى صرف عنها بوفاة ابن هود في جمادى الآخرة من سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م ، بيد أنه لم يلبث أن عاد إلى حكمها في محرم عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م بمبايعة أهلها له ، فلم يستمر طويلاً ؛ إذ قتل في رمضان من العام نفسه (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٩٦ ؛ الحلة ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ - ٣١١ ؛ ابن عميرة : رسائل أبي المطرف بين عميرة ، ورقة ٧٢-٧٣ ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥٢-٢٥٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ص ١٤٤-١٤٦ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٦٥ ؛ ابن خليل : اختصار القدر المعلي ، ص ٤٥ ، ١٤٦ - ١٤٧) وانظر ما كتبه عنه سحر السيد عبد العزيز سالم في : بنو خطاب بن عبد الجبار التدميري ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م ، ص ٦٨-٨١) .

خطيب بلنسية أبي عبد الله بن قاسم الأنصاري رسالة - الغرض منها في الأصل الإشارة عليه بنذب أبي جُميل زيان ابن مردنيش حاكم بلنسية للدخول في طاعة ابن هود ^(١) . فمما جاء فيها " ثم قد علمتم ما في إصلاح ذات البين من الأجر ، وأنه من الفرائض التي يَأْتُم الجميع بخلوهم عن قائم به... وعلمتم أن المدن المتجاورة المتشاركة في الدين التي لا تستقل كل واحدة منها بنفسها في معاشها أو دفاع عدوها التي يروم الاستيلاء على أهلها، واستئصال دينهم الحق واجب عليها أن تتناصر وتتعاضد على دفاع ذلك العدو ، ويأمن بعضها من بعض ، وتثبت بينها أسباب التواد والتناصر ، ويكونوا كما قال رسول الله ﷺ (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) ^(٢) ، وكما قال ﷺ (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) ^(٣) . كما يجب ذلك في المدينة الواحدة بين المنازل ، وهذا كله يَبِين لا يخفى أنه فرض في ديننا الذي رَضِيه لنا ربنا - جل وعز - وهو المراد بقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ ^(٤) ، وبقوله تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ ^(٥) " ^(٦) ، ثم أكد أن هذا الاتحاد بين تلك المدن لن يتأتى إلا بالاتفاق على زعيم واحد فقال " ويَبِين ومعلوم أن ذلك لا يكون إلا بالاتفاق على مدبر واحد ، يتمكن من الاطلاع على

(١) ابن المرباط : زواهر الفكر ، ص ٦٣-٦٤ .

(٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (البخاري : صحيح البخاري ، ط . الرابعة ، عالم الكتب ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ج ٣ ، ص ٢٥٧) .

(٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه (البخاري : صحيح البخاري ، ج ٣ ، ص ٢٥٨) .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ .

(٥) سورة الأنفال ، الآية ٤٦ .

(٦) ابن المرباط : زواهر الفكر ، ص ٦٥ .

الأحوال جميعها ، ينقاد إليه مدبر كل واحدة منها ، ويقبل منه المصالح المشتركة وينهي إليه ما يخص الجزء الذي يختص بتدبيره ، إذ بذلك تأتلف نفوس الجميع ... " ^(١) إلى أن يقول " فإنه إن لم يُنقد مدبروها إلى مدبر واحد يتمكن منه ما ذكر اختل نظامها الذي به تتعاضد ، وأثر كل واحد منهم مصلحته الخاصة به على المصلحة التي للآخر " ^(٢) وختم رأيه هذا بقوله " هكذا يكونون عند التسالم توقعاً " ^(٣) ثم تساءل قائلاً " فكيف عند ظهور استئثار أو تغالب أو تجاذب على بعض الأطراف ؟ " ^(٤) ، ثم بين أن هذا يُوجب " ولا بد وهناً في جميعها وتهيؤاً لاستيلاء عدوها عليها إن كانت متكافئة ، وكان الخلاف بين كل واحدة وكل واحدة منها ، أو في المنفردة منها إن كان أكثرها منتظماً مقاوماً للعدو " ^(٥) وبعد ذلك ذكّر بما يجب عن العلماء من نصح لحكامهم بالائتلاف وعدم اتباع الهوى " العائد عليهم بالخسر المؤدي إن داموا عليه إلى انبئات رئاستهم رأساً ، وانقطاع كلمة الدين عن مدينتهم على أيدي عدو دينهم " ^(٦) ثم أكد أن حكم البغاة ينبغي تطبيقه على من لم يقبل من حكام المدن بالوحدة . وبعد تصويره لخطر النصارى على بلنسية وما يتصل بها من ثغور أشار إلى أن ابن هود قد عقد العزم على ضمها ، وأنه يتعين على خطيب بلنسية ابن قاسم النصح لزيان للدخول في طاعة ابن هود ليُجنب المسلمين ما يتمخض عن ذلك من شرور .

(١) ابن المرباط : زواهر الفكر ، ص ٦٥-٦٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

وفي آخر رسالته طلب أبو بكر بن خطاب من صاحبه ابن قاسم أن يُبلغ نصيحته تلك إلى زيان ^(١) ☆ .

ولقد مكث الأندلسيون حيناً من الدهر يتفأفئون خيراً بآبن هود لانقاذهم من محتهم التي كانوا يقاسونها ^(٢) ، ثم تبدد هذا التفاؤل ، وخاب الظن به بعد أن ثبت عجزه عن تسيير شؤون البلاد بحزم ^(٣) ، فضلاً عن كونه مُني بهزائم من قبل النصارى ^(٤) ، بل إن الأندلسيين مقتوه حين تكشف لهم تورطه باتفاق سري مع أولئك النصارى للتخلي لهم عن قرطبة ^(٥) التي سقطت في قبضتهم في شوال عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م ^(٦) .

(١) ابن المرباط : زواهر الفكر ، ص ٦٦ .

☆ انظر الرسالة كاملة في ملاحق هذه الدراسة .

(٢) محمد بن شريفة : من أعلام التصوف بالأندلس في القرن السابع الهجري ؛ ابن عبيديس النفري (أحد بحوث ندوة تكريم المنوني نشر في كتاب بعنوان " في النهضة والتراكم " ط . الأولى ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٦م ، ص ٢٣٤ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ١٢٩ ؛ أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص ٢٧٨ .

(٤) ابن سعيد : المغرب ، ج٢ ، ص ٢٥١-٢٥٢ .

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢٣ ، ص ٢١-٢٢ .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٧٦ .

ثالثاً : أثر العلماء في الاستنجد بالدولة الحفصية لإيقاف الزحف النصراني :

اقتزنت الأندلس بالمغرب ^(١) ، فكان كل قطر منهما يعد منطقة أمان للآخر ، وامتداداً له ^(٢) . وقد ربط أهل المغرب مصيرهم وإمكاناتهم بأهل الأندلس ، فأعدوا أنفسهم ليكونوا شعباً مجاهداً حتى ترسبت لديهم فكرة الجهاد ، فصارت جزءاً من كياناتهم ^(٣) . وقد صَوَّرَ أحدهم ذلك بقوله " فالمسلمون حيثما كانوا أخوة لاسيما من بهذه الجزيرة وبتلك العدو " ^(٤) . ومنذ أواخر القرن الخامس الهجري أصبح المغرب يشكل القوة الرئيسة المساندة للأندلس في مواجهة الزحف النصراني المتلاطم ^(٥) . فلقد هرع أهل الأندلس للاستنجد بالمرايطين عندما أحسوا بخطر النصارى على بلادهم ^(٦) . ثم دخلت الجزيرة الأندلسية بعدها رسمياً - كما هو معلوم - ضمن أملاك الدولة المرابطية ثم الدولة الموحدية ^(٧) .

ولما تزايد نشاط النصارى العدواني على جبهات الأندلس كافة

(١) العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢ ؛ أحمد مختار العبادي : صور لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس ،

مجلة البيئة ، السنة الأولى ، عدد ٩ ، يناير ١٩٦٣ م ، ص ٨٤ .

(٤) مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٢ .

(٥) خليل السامرائي وزميلاه : تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٤١ ؛ المهدي البرجالي : أدب الجهاد في

العدوتين : نموذج الجهاد المرابطي في العدو لابن أبي الخصال ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٥٩ ، محرم -

صفر ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ١٠٩ .

(٦) ابن بسم : الذخيرة ، ق ٢ ، م ١ ، ص ٢٥٤ ، ق ٢ ، م ٢ ، ص ٦٥٣ - ٦٥٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال

الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤٣ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٣ ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥ ؛ مجهول : الحلل

الموشية ، ص ٣٣ .

(٧) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٥ .

إبان الحقبة المتأخرة من العصر الموحيدي^(١) في وقت كان الأندلسيون قد فقدوا الأمل من زعمائهم وعلى رأسهم ابن هود الذي كان قد تواطأ مع النصارى عند احتلالهم قرطبة^(٢) ثم ما لبث أن توفى في عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م^(٣) ، كما أنهم من ناحية أخرى قد يئسوا من الدولة الموحدية الغارقة في مشاكلها الداخلية* - لما حدث ذلك كله تجددت حاجة الأندلسيين للاستنجاد بإخوانهم أهل العدو المغربي ، وكان توجههم هذه المرة إلى إفريقية^(٤) ، حيث تقوم هناك دولة ناشئة توسموا فيها المقدرة على نجدهم ، وهي الدولة الحفصية** . وقد انبعث هذا التوجه من أهل شرقي الأندلس خاصة بعد أن

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ٣ ؛ الحلة ، ج٢ ، ص ٢٩٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٣٨٥ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢٣ ، ص ٢١ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ١٣٢ .

✱ هناك رسالة كتبت عن الحاكم الموحيدي الرشيد عام ٦٣٧هـ / ١٢٤٠م بشأن الأندلسيين الذين فروا من شرقي الأندلس ونزلوا في رباط الفتح تلهم أن الدولة الموحدية في ذلك الحين لم تكن تفكر في التصدي للزحف النصراني في الأندلس ، فالرشيد يوصي فيها أن يُوسع لهم بالأموال والأراضي وأن " يتأثلوا الأملاك لأنفسهم وأولاد أولادهم ... وأن يكرموا غاية الإكرام ... ويولوهم من حسن الجوار ما ينسبهم أوطانهم " (ابن عميرة : رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ١١٨-١١٩ ؛ ابن المرابط : زواهر الفكر ، ص ٢٣٩-٢٤٣) فهذه الأموال السابقة تنبئ أن الموحيدين لم تكن لديهم نية استعادة أوطان هؤلاء .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٣٠٨ .

✱✱ الدولة الحفصية : تنسب إلى أبي حفص عمر بن يحيى المقتاتي أحد أصحاب ابن تومرت المقرئين ، ويقال إن نسبه ينتهي بعمر بن الخطاب رضي الله عنه (ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٣٧٠-٣٧١ ؛ ابن الشماخ : الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق الطاهر المعموري ، ط . الدار العربية للكتاب ، طرابلس - ليبيا ، ١٩٨٤م ، ص ٤٨-٤٩) وكانت بداية نشأتها حين عرض محمد الناصر الموحيدي على أبي محمد عبدالواحد بن أبي حفص عمر عام ٦٠٣هـ / ١٢٠٥م ولايته إفريقية ليقف في وجه الثوار من بني غانية وغيرهم الذين ركزوا نشاطهم حينذاك فيها ، وقد قبل أبو محمد بشروط منها أن يتخبط من يشاء من رجال الموحيدين لمعاوته ، وأن لا يتعقب في شؤون إدارتها . ولقد تلكأ قليلاً عن البيعة للمستنصر الموحيدي بعد والده الناصر ولذا بعث المستنصر والياً يشاركه في الولاية على إفريقية ، فظل على تلك -

تعرضوا لهجوم كاسح من قبل نصارى أرغون^(١) ، بلغ ذروته في رمضان عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م بحصار مدينة بلنسية^(٢) التي كانت تعد من كبريات القواعد الإسلامية في هذه المنطقة^(٣) . ذاك أن أبا جُمَيْل زيان بن مردنيش حاكم هذه المدينة ندب أعيانها ، وفي طليعتهم أبو عبد الله الأبار (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩) للاستنجاد بأبي زكريا* حاكم الدولة الحفصية بإفريقية^(٤) . وذلك

= الحالة إلى وفاته أول عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م (ابن عذاري : البيان ، ق الموحدين ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، ٢٩٠ - ٢٩٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٣٧٣-٣٧٦ ؛ ابن قنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، ط . الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٨م ، ص ١٠٤-١٠٥ ؛ ابن الشماخ : الأدلة البينة ص ٤٩-٥٠ ؛ الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ١٨ ، ١٩ ؛ السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ج٢ ، ص ١٤٢) .

(١) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ٢١٤-٢١٥ ؛ ج٦ ، ص ٣٨٥ ؛ المقرئ : نفع الطيب ، ج٤ ، ص ٤٥٦ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٤٨ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٣٨٥ .

(٣) الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩١ ؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص ٧٣ .

* أبو زكريا يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر . كان عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد قد عين والياً على إفريقية ، فعقد لأخيه أبي زكريا هذا على مدينة قابس . ولما حوت الفتنة بين الأسرة الموحدية في مراکش ، وتمخضت عن وصول المأمون إلى الحكم أرسل إلى أبي زكريا يعده بولاية إفريقية إن أخذ البيعة له من أهلها ، فبادر أبو زكريا بذلك ، وخلع أخاه ، ودخل تونس في رجب عام ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م . ولقد استفاد من الانشقاق في البيت الموحي فاستقل عن الدولة الموحدية عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م ، إذ تلقب بالأمير وحدد البيعة لنفسه . وقد كانت وفاته في جمادى الآخرة عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م . (ابن الخطيب : شرح رقم الحلل ، ص ٢١٨ ؛ ابن قنفذ : الفارسية ، ص ١٠٧-١١٤ ؛ ابن الشماخ : الأدلة البينة ، ص ٥٤-٦٠ ؛ محمود مقديش : نزهة الأنظار ، ج١ ، ص ٥٤٤-٥٤٩)
ويعد أبو زكريا - بلا ريب - المؤسس الحقيقي للدولة الحفصية (روبر بارنشفليك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصسي ، ترجمة حمادي الساحلي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م ، ج١ ، ص ٥١) .

(٤) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٧ .

قبيل حصار بلنسية ^(١) أو عند حصارها ^(٢) على اختلاف بين المؤرخين .
وحضاً على سرعة الغوث ، وإمعاناً في تبيان الحاجة إلى الغوث حمّل أبو
جميل - فيما يبدو - أولئك الأعيان البيعة بالتبعية للحاكم الحفصي ^(٣) . وفي
هذا الصدد يقول ابن الخطيب ^(٤) عن سكان شرقي الأندلس " وكَلِبَ عليهم
عدو الشرق ، ويمسوا من نصرة أهل الأندلس وأهل المغرب ، فتعلقوا ببيعة
أبي زكريا بتونس ، واستصرخوه ، وأطمعوه بفتح الشرق... " . وحالما حل
الوفد البلنسي بتونس حاضرة الحفصيين قدم أفراده في يوم مشهود البيعة التي
كانوا يحملونها لأبي زكريا ^(٥) .

وقبل أن نتبين نتيجة هذه السفارة الأندلسية إلى تونس يحسن هنا
التوقف قليلاً عند قصيدة ابن الأبار السينية التي استحث فيها الحاكم الحفصي
على إغاثة أهل الأندلس ومطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً إن السبيل إلى منجاتها دَرَسَا ^(٦)
فالمصادر - المتوافرة لدينا - التي ذكرتها تباينت في تحديد زمن إلقاء
ابن الأبار لها بين يدي ذلك الحاكم ، ولكن على العموم يمكن أن نميز في هذا

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٧٣ . وانظر ما ذكره ابن الأبار عن نفسه في : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٢١٥ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٥٦ .

(٣) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٧ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ .

(٤) أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٧٢-٢٧٣ .

(٥) ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٨٦ .

(٦) انظر القصيدة كاملة في : ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، تحقيق عبد السلام الهراس ، ط . الدار التونسية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٣٩٥-٤٠٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦٠ ، ص ٢٥٩-٢٦٢ ؛ مجهول : الدرر الثيرة في أخبار الجزيرة ، ورقة ١٤٨ ب - ١٥٠ أ .

الشأن بين ثلاثة أنواع من المصادر ؛ الأولى : مصادر ربطت قصيدة ابن الأبار بالبعثة الأندلسية المار خبرها آنفاً ^(١) . الثانية : مصادر ساقطت القصيدة من غير أن تربطها بتلك البعثة ^(٢) . أما الثالثة : فهي مصادر حددت زمن إلقاء القصيدة بين يدي الحاكم الحفصي بـ " منسلخ شهر رجب " عام ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩ م ^(٣) أي بعد سقوط بلنسية* بأكثر من أربعة أشهر .

وعلى أي حال فسواء قيلت في تلك السفارة أو بعد ذلك فأياتها تبلغ سبعة وستين بيتاً ^(٤) ، ومضمونها نستطيع تلخيصه في ثلاثة محاور : أولها : تصوير ما يجري في الجزيرة الأندلسية من جراء الاحتلال النصراني . ثانيها : مدح الأمير الحفصي، وقد شغل منها حوالي الثلث. ثالثها : مناداة

(١) ابن خلدون : العبر ج٦ ، ص ٣٨٦ ؛ ابن الشماخ : الأدلة البينة ، ص ٥٩ ؛ المقرئ : نفع الطيب ، ج٤ ، ص ٤٥٧ ؛ ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٥٥ ؛ السراج : الحلل السندسية ، ج٢ ، ص ١٤٣ مقدش : نزهة الأنظار ، ج١ ، ص ٥٤٨ ؛ مجهول : الدرر الثمينة في أخبار الجزيرة ، ورقة ١١٠ ب ، ١٤٧ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٥٩ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٧٣ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج٣ ، ص ٢٠٧ ؛ ابن خليل : اختصار القدر المعلي ، ص ١٩١ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحد ، ص ٣٤٩ ؛ الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٧ .
* مما قد يؤيد الاتجاه الثالث : أ - ما أكد عليه ابن خلدون من أن زيان انتقل إلى جزيرة شقر لما سقطت بلنسية فحمل على الفور بيعته لأبي زكريا كاتبه ابن الأبار ، وحين وصل هذا الأخير إلى تونس ألقى قصيدته السينية (ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ٢١٥ ، ج٦ ، ص ٣٨٨) ب - كون بعض من ذكروا القصيدة أشاروا إلى أن ابن الأبار قالها في حادثة بلنسية وقرطبة . يقول ابن المراتب " وللفقيه... ابن الأبار... هذه القصيدة التي ذكر فيها حادث بلنسية وقرطبة - أعادهما الله تعالى - ورفعها إلى ... أبي زكريا " (زواهر الفكر ، ص ١٠٠-١٠١) بل أن ابن الأبار نفسه في أحد الأبيات قال :

وفي بلنسية منها وقرطبة — ما ينسف النفس أو ما يتزف النفسا

(ديوان ابن الأبار ، ص ٣٩٦) فقرن بين بلنسية وقرطبة في المعاناة ، ومعلوم أن قرطبة سقطت قبل بلنسية .

(٤) انظر ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، ص ٣٩٥-٤٠٠ .

الأمير لاستنقاذ الأندلس من قبضة الأعداء^(١) .

ويلاحظ أن ابن الأبار في نظمه حرص على إبراز ما خلفه الاحتلال النصراني من بالغ الضرر على الإسلام في الأندلس ، وذلك لتوكفه - فيما يظهر - أن الدولة الحفصية الفتية كانت يومذاك تتوق إلى الحلول محل دولة الموحدين المحتضرة في مهمتها الجهادية في الأندلس ، فها قد جاءت الفرصة لتبرهن أنها قادرة على القيام بتلك المهمة^(٢) .

أثمرت السفارة الأندلسية إلى أبي زكريا عن مسارحته بجمع ما استطاع من مؤن وأسلحة ومال^(٣) ، وقد قدرت قيمة ذلك جميعه بمائة ألف دينار^(٤) ، فشحنها على الفور بأسطول* وجهه صوب بلنسية ، لكن بسبب الحصار الشديد المضروب عليها من قبل النصارى لم يتمكن ذلك الأسطول من إيصال الإمدادات إليها، الأمر الذي دعاه إلى الرسو في دانية القرية منها، وهناك أفرغ حمولته ما عدا المال الذي رجع به إلى تونس^(٥) .

(١) الطاهر مكي : دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، ط . الثانية ، دارالمعارف ، القاهرة ،

١٩٨٣م ، ص ٢٦٦-٢٦٨ ؛ فوزي عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ١٨٧-١٨٨ .

(٢) جمعه شيخة : القيمة الوثائقية لديوان ابن الأبار ، ص ٤٥ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٣٨٨ ؛ الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٨ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج٣ ،

ص ٢٠٥ ؛ نفح الطيب ، ج٤ ، ص ٤٦٠ ؛ مجهول : الدرر النيرة في أخبار الجزيرة ، ورقة ١٤٧ ب .

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٣٨٨ ؛ الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٨ ؛ مقديش : نزهة الأنظار ،

ج١ ، ص ٥٤٨ .

* حدد عنان عدد سفن الأسطول باثنتي عشرة سفينة كبيرة ، وست صغيرة (عصر المرابطين والموحدين ،

ق٢ ، ص ٤٤٨) . بينما حددها برنشفيك باثنتي عشرة سفينة فقط (تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ،

ج١ ، ص ٦٢) ولا تحدد المصادر - الموجودة لدينا - الأسطول بعدد معين .

(٥) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٤٩ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٣٨٨ .

ظل الأندلسيون يستشرفون مساعدة أبي زكريا ، إذ كان لديهم " أمل في أخذه بثأرهم ، وضم انتشارهم " ^(١) ، ولذا لم يكتفوا باستصراخهم السابق لهم ، بل إن ابن الأبار كلف رسمياً بعد ضياع بلنسية بحمل رسالة من أبي جميل زيان إلى تونس ، وذلك في منتصف سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م ^(٢) . وثمة قصيدة أخرى له غير السينية المتقدم عرضها استنهض فيها همة أبي زكريا لإنجاد الأندلس المنهارة ، ولعله قالها بين يديه في رحلته تلك ^(٣) ، والقصيدة في تسعين بيتاً ^(٤) مطلعها :

نادتك أندلس قلب نداءها واجعل طواغيت الصليب فداءها ^(٥)

وموضوعاتها بوجه عام على منوال القصيدة السابقة إلا أنه خصص أبياتاً وجه فيها النداء للمسلمين جميعاً فيما وراء البحر يدعوهم إلى أن يهبوا لنصرة الأندلس ^(٦) ، فقال :

هَبُوا لَهَا يَا مَعْشَرَ التَّوْحِيدِ قَدْ آنَ الْهُبُوبِ وَأَحْرَزُوا عَلَيْهَا

إلى أن يقول :

أُولُوا الْجَزِيرَةَ نَصْرَةَ إِنْ الْعَدَى تَبَغْيِي عَلَى أَقْطَارِهَا اسْتِيلَاءَهَا

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٣٠٨ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ج٢ ، ص ٦٤٨ ، ٦٥٥ ، ٧٦١ ؛ الحلة ، ج٢ ، ص ٢٦٢ .

(٣) ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، ص ١١ ، ٣٣ حاشية ؛ عبد السلام المهراس : شاعر وفي لوطنه ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٢ ، سنة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م ، ص ١٢٤ .

(٤) ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، ص ٣٣ - ٤٠ .

(٥) ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، ص ٣٣ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج٤ ، ص ٤٧٩-٤٨٣ .

(٦) الطاهر مكي : دراسات أندلسية ، ص ٢٧٢ .

إلى أن يقول :

خوضوا إليها بحرها يصبح لكم رهواً وجوبوا نحوها بيداءها^(١)

ولأبي المطرف بن عميرة المخزومي (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) كتاب وجهه إلى أبي زكريا سلطان إفريقية الحفصي يستنفره لنصرة الأندلس . وقد ضمنه نظماً مدحه فيه ، ثم ذكره بأن المسلمين في الأندلس يترقبون يوماً منه يُعيد لهم - بعد الله - بلدهم السليب^(٢) . ثم اشفعه بنشر جاء فيه ما نصه في معرض حمده لله على ولاية أبي زكريا شؤون الأمة " الحمد لله الذي جعل به حرم الأمة آمناً ... وتلافى فلّ الإسلام منه بفيئاته التي منها ينتظرون الكر، وبها يُوعَدون الفتح الأعز والنصر الأغر ، فهم بين جدّة قبضوها ، وعدة رضوها ، وارتقاب للفتح أكبر همهم منه درك الثار ، وانتصاف لأهل الجنة من أهل النار " ^(٣) .

وحيث أن عدداً من رجال العلم الأندلسيين* قد هاجروا إلى تونس قبل السفارات الرسمية إليها^(٤) وبعدها^(٥) ، فإنه لا يستبعد قيامهم

(١) ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، ص ٣٦ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

* ذكر مخلوف أن ابن عصفور - أبو الحسن علي بن مؤمن - كان أحد الذين أرسلوا لاستصراخ أبي زكريا (شجرة النور - التتمة - ص ١٤٠) ومن الملاحظ من تتبع سيرته أنه كان قد عبر إلى إفريقية من الأندلس ، ثم رجع إليها ، ثم كانت هجرته الأخيرة إلى إفريقية واستقراره بها (ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٤٢ - ١٤٣) فرمى أن عبوره الأول إلى إفريقية كان يرمي من ورائه الاستصراخ .

(٤) انظر : مثلاً : ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٥) انظر على سبيل المثال : ابن الأبار : التكملة ، ج٢ ، ص ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٨ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٥٨ ؛ الغريبي : عنوان الدراية ، ص ٣١٨ ، ٣٤٥ ؛ ابن خليل : اختصار القدر المعلى ، ص ٢٠ ، ٩٤ .

باستحثاث السلطان الحفصي لإنقاذ بلادهم . يقول المقرئ ^(١) " ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى - دمرهم الله تعالى - على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثار بالنظم والشار . "

ولابد أن أهل المدن الأندلسية الذين بعثوا بيعاتهم لأبي زكريا ^(٢) كان بلسان حالهم إن لم يكن بلسان مقالهم يتطلعون إلى إغاثة وإعانتته على حماية مدنها من النصارى المعتدين ^(٣) ، وكونه من جانبه قد أرسل إمدادات ^(٤) غير مدده لبلنسية المار ذكره يوميء إلى أن التواصل بين الجانبين ظل قائماً .

وفي خاتمة كلامنا عن أثر العلماء في الاستنجاد بالحفصيين ننبه إلى أن كل ما بذل من جهود في ذلك المجال لم يُجدِ نفعاً في وقت الزحف النصراني، فموقف أبي زكريا من استنجاد الأندلس لا يتلاءم وخطورة الوضع الذي كانت تعاني منه ، فقضيته ليست قضية إمدادات بل قضية فساد أوضاع ، ولذا فإنقاذها لا يكون إلا بالقضاء على أصل الفساد ، ولن يتأتى ذلك إلا باقتحام الأندلس وتصفية الزعامات المتحكمة فيها ^(٥) . وهذا فوق طاقة الحاكم الحفصي في ذلك الوقت ، فدولته - حينذاك - لم تكن تملك

(١) نفع الطيب ، ج٤ ، ص ٤٧٩ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٧٨ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٣٨٨ ، ٣٩٣ ؛

ابن الشماخ : الأدلة البينة ، ص ٦٠ ؛ ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٥٦ ؛ السراج : الحلل

السندسية ، ج٢ ، ص ١٤٤ .

(٣) للتعرف على مثل ذلك الشعور انظر ما ورد في رسالة من زيان إلى أبي زكريا (ابن المرباط : زواهر

الفكر ، ص ٥٦-٦٢) .

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٣٩٤ .

(٥) محمد العروسي المطوى : السلطنة الحفصية تاريخها ودورها السياسي في المغرب الإسلامي ، ط . دار

الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ١٣٨ .

من القوة والتماسك ما يجعلها مقتدرة على إنهاء الدولة الموحدية العتيدة ،
ومن ثم النهوض بمهامها ^(١) . فأبو زكريا نكّل - فيما يبدو - عن التدخل
المباشر في الأندلس وما يدور على أراضيها من صراع بين المسلمين
أنفسهم من طرف وبينهم وبين النصارى من طرف آخر خشيةً على دولته
من الزوال ^(٢) .



وصفوة القول أن أثر علماء الأندلس السياسي في مواجهة النصارى
زمن المرابطين والموحدين توزع بين استنفار الأمة وطاقاتها للجهاد ، وحرص
مفرط على وحدة البلاد ، واستصراخ للمسلمين خارج الجزيرة الأندلسية في
السنوات التي عجز فيها الأندلسيون لوحدهم عن مقاومة الأعداء
ومجاهدتهم.

(١) محمد العروسي المطوى : السلطنة الحفصية ، ص ١٣٩ .

(٢) برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، ج ١ ، ص ٦٢ .

الفصل الثالث

مشاركة العلماء

في الجهاد الحربي ضد النصارى

بحكم مصابقة الأندلس الإسلامية للممالك النصرانية التي تروم دوماً اجتثاث الإسلام منها من جذوره ؛ علاوة على تداخل أراضي الجانبيين ببعضهما بعضاً^(١) - فقد كانت الأندلس على مر عصورها " دار جهاد ، وموطن رباط " ^(٢) ، واعتبرت عرصاتها " ملاعب الجياد للجهاد " ^(٣) . أما أهلها فقد وُصفوا بأنهم " أصحاب جهاد متصل " ^(٤) . وحين تكلم عنها الزهري ^(٥) - أحد المعاصرين لزمن الدراسة - رأى أن " كل ساكن في الأندلس إنما هو كالأخذ بعنان جوادٍ في سبيل الله " ، ثم نظر - فيما يبدو - إلى المخلصين لدينهم ووطنهم من أهلها فقال " فلا ترى في أرض الأندلس إلا عيناً ساهرة في ذات الله أو مجاهداً في سبيل الله ، أو محارباً للعدو في طاعة الله غير منفك عن الدين الحمدي " ^(٦) . وحرى بالعلماء الأندلسيين الذين هم أدرى الناس وأخبرهم بفريضة الجهاد في بلدهم الأندلس ^(٧) أن يكونوا في صدارة هذه الفئة المخلصة التي عناها الزهري ، فالعلماء قاطبة أولى من غيرهم في فهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في الجهاد ، واستيعاب مدلولاتها ، ثم تمثل ما جاء فيها من سنن وأحكام ^(٨) . وعلى هذا بذل كثير

(١) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، م ١٠ ، ص ١٤ ؛ الزهري : الجعرافية ، ص ٨١ .

(٢) البكري : المسالك والممالك ، ج ٢ ، ص ٨٩٨ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣ .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ، ص ١٨٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٥) الجعرافية ، ص ٨١ .

(٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٧) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٢ ، ص ١٠٢٣ ، ١٠٢٥ ؛ الوئرشيسي : المعيار العربي ، ج ١ ،

ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٨) عبد العزيز البدرى : الإسلام بين العلماء والحكام ، ط . الثانية ، دار القلم ، الكويت ١٤٠٦ هـ /

١٩٨٦ م ، ص ٢٥٣ .

من علماء الأندلس ما في وسعهم ، واستفرغوا طاقتهم في الجهاد الحربي ضد أعدائهم نصارى الممالك الإسبانية أيام المرابطين والموحدين ، فكأنهم وضعوا نصب أعينهم قول الله تبارك وتعالى ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ ^(١) فاجتهدوا في تحقيقه ، والعمل بمقتضاه .
وسنحاول - إن شاء الله - فيما يوالينا من صفحات الإحاطة بجهود هؤلاء العلماء في هذا المجال وتبيانها مقسمين ذلك على ثلاثة عناصر هي :

- مظاهر عامة لاهتمام العلماء بشؤون الجهاد الحربي ضد النصارى .
- إسهام العلماء في إنفاق الأموال في ميدان الجهاد الحربي ضد النصارى .
- مشاركات العلماء الميدانية في جهاد النصارى .



أولاً : مظاهر عامة لاهتمام العلماء بشؤون الجهاد الحربي ضد النصارى :

إن لدينا شذرات متفرقة ، ومجهودات متناثرة ذات صلة وطيدة بالجهاد الحربي للعلماء الأندلسيين ضد النصارى في زمن البحث - يصعب نظمها في سلك واحد ، أو ترتيبها في موضوع محدد ؛ لكنها - على أي حال - تتحد في كونها تعبر بجلاء عن اهتمام أولئك العلماء بالجهاد الميداني المضاد للقوى النصرانية ، وتشبعهم المغرق فيه ، ومعايشتهم لفصوله أولاً بأول .

فلقد كان لبعض العلماء أثر متميز ، وحضور لافت في هذا الميدان ، فابن رشد الجدل (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) هو العالم الذي حكم في هدنة كانت معقودة مع نصارى قشتالة أيام المرابطين ، وذلك من حيث سريان مفعولها بعد غارة شنها أولئك النصارى* على بلاد الأندلس ، وقد أثرت هذه المسألة عندما ورد عدد من التجار القشتاليين بتجاراتهم إلى قرطبة^(١) ، فقال ابن رشد " وإن كان التجار من أهل طليطلة** - أعادها الله - خرجوا منها بعد أن أغارت سريتهم على بلاد المسلمين فأسرت الرجال ، وأخذت الأموال فلا عهد لهم ... " ^(٢) إلى أن يقول " فالواجب أن يُرهنوا هم وما معهم من الأموال فيما أخذت السرية الخارجة من عندهم من أسرى المسلمين وأموالهم

✶ لا بد أن غارة النصارى هذه حدثت أيام أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين على قرطبة ، لأنه هو الذي وجه استفساره عنها وما يتعلق بها إلى ابن رشد من قرطبة (ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٣ ص ١٤٢٣) وحيث أن ولاية أبي طاهر على قرطبة ومعها غرناطة كانت بعد ذي الحجة سنة ٥١٧هـ / ١١٢٤م (ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٦٧ ، ١٠٦) وإلى رمضان سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م (ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٧٣) فإن زمن تلك الغارة لن يخرج عما بين هذين التاريخين .

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٣ ، ص ١٤٢٣-١٤٢٤ ؛ الونشريسي : المعيار العرب ، ج ٩ ، ص ٥٩٨ .

✶ عرفنا فيما سبق أن طليطلة غدت بعد سقوطها عاصمة لقشتالة . انظر (التمهيد من هذا البحث) .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٣ ، ص ١٤٢٤ .

حتى يصرفوا ذلك إليهم ، فإن أجابوا إلى ذلك وفعلوه بقيت الهدنة على ما كانت عليه ، وإن أبوا ذلك انتقضت وعادت حرباً ، وكان التجار المرتهنون أسرى المسلمين وأموالهم فيئاً لهم " (١) ☆ .

ولقد أبدى أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) فزعه الشديد من هجوم واسع اجتاح به نصارى قشتالة الأندلس عام ٥٢٧هـ / ١١٣٣م (٢) وراح بحماس منقطع النظير يُطالب بالتصدي لأولئك النصارى ، ويقترح تدابير رآها كفيلة بإحباط هجومهم ، بل القضاء عليهم قضاءً مبرماً . وقد وصف هذا قائلاً " ولقد نزل بنا العدو - قصمه الله - سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، فجاس ديارنا ، وأسر خيرتنا ، وتوسط بلادنا في عدد هالٍ الناس عدده ، وكان كثيراً ، وإن لم يبلغ ما حدوده " (٣) . ثم جسّد لنا موقفه من هذا العدوان بقوله " فقلت للوالي ☆☆☆ والولى عليه : هذا عدو الله وقد حصل في الشُّرك والشُّبْكة ، فلتكن عندكم بركة ، ولتظهر منكم إلى نصرة دين الله

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج٣ ، ص ١٤٢٤ - ١٤٢٥ .

☆☆☆ أورد الونشريسي كلام ابن رشد ، ولكن مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ (المعيار المغرب ، ج٩ ، ص ٥٩٩) .

(٢) انظر تفاصيل هذا الهجوم النصراني في (ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٢٩ ؛ ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٨٨) .

(٣) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق ٢ ، ص ٩٥٥ ؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ط . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ج ٨ ، ص ١٥٢ .

☆☆☆ من المرجح أن الوالي الذي وجه إليه ابن العربي الكلام هو والي إشبيلية ؛ لأن ابن العربي في ذلك الأوان في إشبيلية (الفصل الأول من هذا البحث) والي إشبيلية حتى رمضان سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٣م هو تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ، ثم خلفه في شوال من السنة نفسها ينتان بن علي الذي استمر عاملاً عليها حتى صفر سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م (ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ١٠٧) وحيث أن المصادر ضمنت علينا بتعيين الشهر من تلك السنة التي وقع فيه الهجوم النصراني فإنه لا يمكننا أن نحدد الذي خاطبه ابن العربي بصفته والياً لإشبيلية هل كان تاشفين أم ينتان .

المتعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع هذه الأقطار فيحاط به ، فإنه هالك لا محالة إن يسركم الله له ... " (١) . ثم عبر ابن العربي عن خيبة ظنه بمن وجه إليهم النداء (٢) .

ولقد عمد بعض العلماء إلى رصد ما شهدوه أو سمعوه من اعتداءات نصرانية على المدن الأندلسية ، ثم المبادرة بتبليغه لأولي الأمر لكي يقوموا بمسؤوليتهم في حماية المسلمين ، وكذلك في رفع علم الجهاد في وجوه النصارى المعتدين . من ذلك أن النصارى لما أغاروا على إشبيلية ، وعاثوا فيها مفسدين ، وقتلوا واليها أبا حفص عمر بن الحاج* في رجب سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م^(٣) رصد هذا كله قاضي الجماعة في قرطبة محمد بن أصبغ

(١) ابن العربي : أحكام القرآن ، ٢ ق ، ص ٩٥٥ ؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج ٨ ، ص ١٥٢-١٥٣ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٧٧ .

(٢) ابن العربي : أحكام القرآن ، ٢ ق ، ص ٩٥٥ ؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج ٨ ، ص ١٥٣ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٧٧ .

* وأبو حفص بن الحاج : هو عمر بن علي بن الحاج ، ويعرف بابن ويجور أو مجوز أو مقوز (ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٨٠ وحاشية " ٢ " منها ، ٨٣ وحاشية " ٢ " منها) ويرى بعض الباحثين أن اسم ويجور ومجوز ومقوز ما هي إلا صيغ بربرية لكلمة الحاج (ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٥٣ ، حاشية " ١ ") وقد تولى أبو حفص هذا حكم إشبيلية في ربيع الأول عام ٥٢٤هـ/١١٣٠م حتى مقتله في رجب عام ٥٢٦هـ/١١٣٢م (ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ١٠٧) .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٢٦-٢٢٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٤ ، ص ٦١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥١ .

* ساق ابن عذاري تفاصيل هذه الغارة في حوادث سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م (البيان : ج ٤ ، ص ٨٢-٨٣) ويظهر أن اضطراباً عند ابن عذاري حصل في نقل الخبر ، لأنه عاد في موضع آخر ، وذكر مقتل والي إشبيلية أبي حفص عمر بن الحاج في رجب عام ٥٢٦هـ/١١٣٢م (البيان ، ج ٤ ، ص ١٠٧) وهذا يعني تأكيداً على وقوع الغارة في هذه السنة الأخيرة ، وبهذا تتفق المصادر على سنة وقوعها .

(ابن المناصف) * (ت ٥٣٦ هـ / ١١٤٢ م) رسداً دقيقاً ، وبعثه على جناح السرعة إلى القائد المرابطي العام - آنذاك - في الأندلس تاشفين بن علي بن يوسف ^(١) الذي كان قد قدم للرد على النصارى دون أن يعرف ما خلفه هجومهم الغادر على إشبيلية . يقول ابن عذاري ^(٢) " ولما علم تاشفين بأخذ العدو على جهة إشبيلية خرج بالجيش إلى سمت قرطبة ، فتلقاه كتاب القاضي بها محمد بن أصبغ مُعلماً له باكتساح العدو مدينة إشبيلية ، وعرفه باستشهاد صاحبها " . فكانت النتيجة أن جدَّ تاشفين في السير نحو إشبيلية ^(٣) ، ثم أخذ بأعقاب النصارى الذين خلفوا إشبيلية ورائهم منهكة ، وما زال يطاردهم إلى أن التحم معهم في موقعة كبيرة * انتهت بنصره عليهم ^(٤) . وإذا كان محمد بن أصبغ قد نبأ تاشفين بخبر إشبيلية بصفته المسؤول المباشر عن شؤون الأندلس فإن أحد العلماء الإشبيليين وهو أبو أيوب بن أبي أمية الحضرمي * * * قد كتب

* محمد بن أصبغ : هو أبو عبد الله محمد بن أصبغ بن محمد بن محمد بن أصبغ الأزدي ، يعرف بابن المناصف ، تولى خطة المظالم في قرطبة ، ثم قضاء الجماعة فيها مدة طويلة ، وبعد صرفه عن القضاء ولي الصلاة بجامعها ، وأقبل على التدريس وإسماع الحديث حتى وفاته في رمضان عام ٥٣٦ هـ / ١١٤٢ م (ابن بشكوال : الصلاة ، ج ٢ ، ص ٥٨٥-٥٨٧ ؛ الضي : بغية الملتبس ، ص ٦١-٦٢ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ١٣٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ، ص ١٦٣) .

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٤٦ ؛ مجهول : الحلل المشوية ، ص ١٢١ .

(٢) البيان ، ج ٤ ، ص ٨٣ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٨٣ .

* * * حول تحركات تاشفين ضد النصارى عقب هجومهم على إشبيلية انظر (سحر السيد عبد العزيز سالم : من جديد حول وقعة الزلافة الثانية ، ندوة الأندلس في كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، ص ٨-١١) .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥٢ .

* * * وأبو أيوب الحضرمي : هو سليمان بن جعفر بن سليمان بن أبي أمية الحضرمي ، كان من أهل العلم والأدب ، تولى مدة القضاء في بلده إشبيلية ، ثم أعفي منه ، وقد وُصف بالنباهة والوجاهة ، ولا نعرف سنة وفاته (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والكملة ، ص ٤ ، ص ٦٠-٦١) .

إلى حاكم المرابطين نفسه في مراکش علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠هـ/١١٠٦م - ٥٣٧هـ/١١٤٢م) يخبره بما جرى لإشبيلية ويعلمه بمقتل أميرها ، وليس هذا فحسب بل ويستصرخه من أجل وضع حدٍ لذلك العيث النصراني ^(١) .

ونظراً لمشاركة العلماء الأندلسيين في الجهاد العسكري ضد النصارى ، أو متابعتهم لسير العمليات الحربية ومستجداتها على جبهات القتال وخطوط التماس بين المسلمين وأعدائهم - فقد عرض بعضهم للأحداث عبر رسائل إخوانية ، فاجتهدوا في تحليل دقائقها ، وتفسير تطوراتها ، وربما وضعوا تصورات لمستقبل الصراع الإسلامي النصراني في بعض البقاع الأندلسية . ففي إحدى المرات التي خرج فيها أبو محمد بن عطية (ت ٥٤١هـ/١١٤٧م) للجهاد في الجبهة الشرقية ^(٢) المصطلية بعدوان ابن رذمير (الفونسو المحارب) حاكم أرغون - كتب إلى أحد إخوانه من العلماء رسالة جاء فيها " أما ما ذهبت إليه ... من تعرف الأنباء ، واجتلاء الأنحاء فإن ابن رذمير ... قد جعل بناء سرقسطة لكللكه عطناً ، واتخذ لذلك الحريم وطناً ، وذلك أنه ندب لهذه السفرة من أهل ملته ما ندب ، وأجلب من خيلهم ورجلهم ما أجلب ، وهو يعتقد أن بمنازلة سرقسطة ستفتح عليه أبواب حروب... " ^(٣) . ثم أشار إلى أن الحاكم النصراني حاصر مدينة سرقسطة " لما رأى أن حمايتها ليست بضربة لازب ، وأبصر حبلها على الغارب " ^(٤) . لكن ابن عطية رجح أن سقوطها في تلك الآونة لن يقع - حسب رأيه - لسبيين :

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٤ ، ص ٦١ .

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٣ ، ص ٦٧٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٧٢ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

أحدهما: ما لوحظ أن النصارى أصحاب ابن رزمير لا استعداد لديهم - آنذاك - للمرابطة حولها . والسبب الآخر : الجهودات الحثيثة التي كان يبذلها بعض قادة المرابطين في تلك النواحي لإضعاف الجيش النصراني . ثم عاد ابن عطية بعد هذا التحليل ليرسم صورة لمستقبل سرقسطة وما حولها من مدن ، فتوقع - حسب ما توفر عنده من معلومات ، وما يملكه من نظرة عسكرية - أنها لا بد من وقوعها في شرك النصارى إن لم يتداركها المسلمون ، فيقول " وهي - أعزك الله - أقطار إن لم تُقِم القوة منها ميلاً وجنفاً ، ويستعمل لها نظراً أنفاً ، وإلا فعقدُها بـمـدرج نـشـار ، وهي في طريق انتكاث وعتار ، والله يكفي المسلمين فيها ، وينعم عليهم بتلافيها " ^(١) .

وثمة مثال آخر على متابعة العلماء لأحداث الصراع بين المسلمين والنصارى، واستشفافهم لمستقبل بعض جهات الأندلس، ماورد في رسالة كتبها أبو بكر عزيز بن خطاب (ت ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م) إلى أحد العلماء في أيام انحلال الحكومة الموحدية في الأندلس**؛ حيث عرض فيها لواقع الأندلس عامة ومدينة بلنسية بوجه خاص ، فقال " ولا يخفى عليكم حال الأندلس الآن ، وحال بلنسية منها ... وأن الثغور الراجعة إليها قد ضعفت وشارفت استيلاء العدو عليها ، وكثير منها قد استشعر ذلك " ^(٢) .

ولقد انعكس خوض بعض العلماء الأندلسيين غمار المعارك مع

(١) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٣ ، ص ٦٧٣ .

✳ نقل الأصفهاني بعض كلام ابن عطية في رسالته المثبت أجزاء منها في المتن (خريدة القصر ، ق ٤ ، ج ٢ ص ٥٣٨-٥٤٠) انظر الرسالة الكاملة في الملاحق آخر هذه الدراسة .

✳✳ رجح حسن إنليل تجبير أبي بكر بن خطاب رسالته بين سنتي ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م - ٦٢٩هـ / ١٢٣١م (ابن المرباط : زواهر الفكر ، ص ٦٣ ، حاشية " ١ ") .

(٢) ابن المرباط : زواهر الفكر ، ص ٦٧ .

النصارى على كتاباتهم ، فصاروا يتحدثون عن الشؤون الحربية وآلاتها -إذا تطرقوا إليها- حديثاً من خبرها ومرن عليها، وعرف جيداً من رديتها. فعن اختبار قائد الجيش لجنده من حيث طاعتهم له يقول أبو محمد بن عطية (ت ٥٤١هـ/ ١١٤٧م) " وهذه النزعة واجب أن تقع من كل متولي حرب، فليس يُحارب إلا بالجند المطيع " (١). وحينما تحدث أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) عن التعبئة للقتال ، واستشهد بجعل النبي ﷺ يوم بدر الشمس خلفه بخلاف المشركين الذين استقبلوا الشمس ، قال " وهذا من حسن التدبير فإن المقاتل إذا كانت الشمس في وجهه عشى بصره ، ونقص فعله " (٢)، ثم حكى ما وقع له شخصياً في إحدى المعارك الجهادية فقال " ولقد حضرتُ صفاً في سبيل الله في بعض الحروب مع قوم من أهل المعاصي والذنوب ، فلما وازينا العدو أقبلت سحب وريح ورذاذ كأنه رؤوس الأبر يضرب في ظهر العدو، ويأخذ وجوهنا فما استطاع أحد منا أن يقف مواجهة العدو ، ولا قدرنا على فرس أن نستقبلها به ، وعادت الحال إلى أن كانت الهزيمة علينا " (٣). وعن بعض الوسائل الناجعة في إثارة حماس المسلمين وإرهاب عدوهم وقت القتال أشار أبو محمد بن عطية (٤) (ت ٥٤١هـ/ ١١٤٧م) إلى رفع الأصوات ، وفرق بين نوعين منها ، ففي تفسيره لذكر الله تعالى حال لقاء المسلمين بأعدائهم قال " وهذا ذكر خفي ، لأن رفع الأصوات في موطن القتال رديء مكروه ، إذا كان الغطاءً " (٤)، ثم

(١) ابن عطية : المحرر الوجيز ، ج٢ ، ص ٢٦٢ .

(٢) ابن العربي : عارضة الأحوذى ، ج٧ ، ص ١٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المحرر الوجيز ، ج٨ ، ص ٨٢ .

بين النوع المفيد للمسلمين المرهب للعدو ، فقال " فأما إن كان من الجمع عند الجملة فحسن فاتٌ في عضد العدو" ^(١) ولما تكلم أبو بكر بن العربي ^(٢) (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) عن الطبل وذكر أنه قسمان : طبل حرب وطبل هور ، قال " فأما طبل الحرب فلا حرج فيه ، لأنه يقيم النفوس ويرهب على العدو". وشيء لاحظته ابن عطية في المرابطين الذين صحبهم كثيراً في الجهاد ^(٣) ، وهو طرحهم اللثام حال بحالدة الأعداء ، فسجله لما تعرض لكرهية التلثم في القتال بقوله " ولهذا والله أعلم يتسنى المرابطون بطرحه عند القتال على ضمانتهم به " ^(٤) . وقد أشاد ابن العربي ^(٥) بفاعلية السهم في قتال العدو إشادة بحرب بصير ، فقال " وقد شاهدتُ القتال مراراً فلم أرَ في الآلة أنجع من السهم ، ولا أسرع منفعة منه " ويرى ابن عطية ^(٦) أن " السهام من أنجع ما يُعطى في الحرب وانكاه في العدو وأقربه تناولاً للأرواح " ، وقال ابن العربي ^(٧) عن الرمي " ولا شيء أنفع من الرمي ولا أنكى منه في العدو ولا أسرع ظفراً منه ولو لم يكن إلا كفايته لمباشرته العدو وقتله ودفعه من بعيد " .

ومن المعلوم أن الخيل كانت إحدى العناصر المهمة في عدة الجيش الإسلامي الأندلسي المجاهد للنصارى ^(٨) ، فكانت الحاجة ملحة إلى

(١) ابن عطية : المحرر الوجيز ، ج ٨ ، ص ٨٢ .

(٢) أحكام القرآن ، ق ٣ ، ص ١٤٩٤ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧١ .

(٤) ابن عطية : المحرر الوجيز ، ج ٨ ، ص ٨٢ .

(٥) أحكام القرآن ، ق ٢ ، ص ٨٧٣ ؛ عارضة الأحوذى ، ج ١١ ، ص ٢١٤ .

(٦) المحرر الوجيز ، ج ٨ ، ص ١٠٠ .

(٧) عارضة الأحوذى ، ج ٧ ، ص ١٣٦ .

(٨) حامد عياط : أدب الجهاد في الأندلس ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

الاستكثار منها ^(١) . ولذا فإن احتفاء بعض العلماء بها من خلال كتاباتهم زمن الدراسة يمكن تصنيفه ضمن المظاهر العامة لجهودهم في حقل الجهاد الحربي المضاد للممالك النصرانية . فثمة فريق منهم - لما تطرق لذكرها عرضاً - نوه بأهميتها في الحروب ، وأثرها في هزيمة العدو ، فأبو محمد بن عطية ^(٢) (ت ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م) يؤكد أن " الخيل هي أصل الحروب وأوزارها ، والتي عقد الخير في نواصيها ، وهي أقوى القوة ، وحصون الفرسان " . أما أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) فيقول في هذا الصدد " وقرن النبي ﷺ الخير بنواصي الخيل بقية الدهر * لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش ، وما تُوصَل إليه من قهر الأعداء ، وغلبة الكفار ، وإعلاء كلمة الله " ^(٣) . وأبو الحجاج البلوي (ت ٦٠٤ هـ / ١٢٠٨ م) تطرق في معلمته " ألف باء " أكثر من مرة للخيل وفضلها وخصائصها وأهميتها في الجهاد ^(٤) . وهناك فريق آخر منهم استشعروا كبعض الأندلسيين - فيما يبدو - أن الكتابة عن الخيل من المعارف التي ينبغي الاعتناء بها ، لأنها مما " يرجع ... إلى شأن الجهاد ، ويتعلق بالتأهب للعداء والاستعداد " ^(٥) فانبروا للتأليف عنها في كتب منفردة

(١) العربي : الحياة العلمية في الأندلس ، ص ٣٤٠ .

(٢) المحرر الوجيز ، ج ٨ ، ص ١٠٠ .

* يشير ابن العربي إلى قول النبي ﷺ : " الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر والمغنم "

(البخاري : صحيح البخاري ، ج ٤ ، ص ٩٠) .

(٣) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق ٣ ، ص ١١٤٢ .

(٤) البلوي : ألف باء ، ج ١ ، ص ٣٤٤-٣٤٧ ، ج ٢ ، ص ٥١٦-٥١٨ .

(٥) ابن جزري : كتاب الخيل ، ص ٢٠-٢١ .

من هؤلاء أبو بكر بن المرخي* (ت ٦١٥هـ/ ١٢١٨م) الذي صنف كتاباً عن الخيل^(١)، سماه " بغية المرتبط ، ودرة الملتقط " ^(٢) ، فكانت مادته العلمية التي حواها " من أنبل الموضوعات ، وأعظمها جدوى " على حد تعبير ابن عبد الملك المراكشي^(٣) . بل إن أبا عمر السكوني** (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) لم يكتفِ بالتأليف عن الخيل وما يتصل بحياتها وصحتها وأنسابها، لكنه عُنى - أيضاً - بالتصنيف عن الشؤون الحربية بشكل عام^(٤) ، يقول ابن عبد الملك المراكشي^(٥) عنه " و صنف ... في الطب والبيطرة ، وصنعة ركوب الخيل ، وتدبير الحروب ، وتعليم الثقاف والرمي ... ومعرفة شيات***

☆ ابن المرخي : هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الملك اللخمي ، من أهل إشبيلية ، كان ذا معرفة بالآداب واللغات ، كاتباً بليغاً ، له عدة مؤلفات غير كتابه في الخيل ، توفي في ربيع الآخر عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٦٠٢ ؛ الرعيي : برنامج شيوخ الرعيي ، ص ٩٦-٩٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٤٨٧-٤٨٨ ؛ البليقي : المقضب من كتاب تحفة القاد ، ص ١٧٧) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٦٠٢ ؛ الرعيي : برنامج شيوخ الرعيي ، ص ٩٧ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٤٨٨ .

(٣) الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٤٨٨ .

☆☆ وأبو عمر السكوني : هو محمد بن أحمد بن خليل السكوني ، أصله من لُبْلَة ، وسكن إشبيلية ، فصار من أهلها ، كان فقيهاً حافظاً ، له عناية بكثير من العلوم ، ولّى القضاء في نواحي إشبيلية . وقد رحل إلى المغرب وأقام مدة في مراكش ، ثم عاد إلى الأندلس ، وتوفي عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م ، وقد خلف عدة مؤلفات في فنون شتى (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٣٥ - ٦٣٦) .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٣٥ - ٦٣٦ .

(٥) الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٣٥ - ٦٣٦ .

☆☆☆ الشّيات : جمع شية ، وهي كل لون يخالف معظم لون الفرس من أي الألوان كان (ابن جزري : كتاب الخيل ، ص ٧١) .

الخيل، ودلائل العتاقة" ☆ (١) .

هذا ما توفر رصده من مظاهر تشهد بأن علماء الأندلس عنوا بالجهاد الميداني ، فاهتموا بقضاياه ، وتابعوا أخباره ، ووقفوا دارسين لبعض أحداثه ، وتطرقوا في مؤلفاتهم لما يرتبط به من عتاد واستعداد .

☆ دلائل العتاقة ، أي علامات الأصالة التي يعرف بها الفرس الأصيل من المحين (ابن جزى : كتاب الخيل ، ص ١٧٠) .

(١) ومن المغاربة الذين عنوا بالتأليف عن الخيل في عصر البحث أبو الحسن بن القطان (ابن خلصة) المتوفى في ربيع الأول سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م ، حيث صنف مؤلفاً سماه "أسماء الخيل وأنسابها وأخبارها" (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٨ ، ق ١ ، ١٦٧) .

ثانياً : إسهام العلماء في إنفاق الأموال في ميدان الجهاد الحربي ضد النصارى :

الإنفاق في سبيل الله هو صنو الجهاد الذي فرضه الله على الأمة الإسلامية ^(١) ، ففي القرآن والسنة صاحبت الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله في معظم المواضع دعوة إلى الإنفاق ^(٢) . وقد رغب سبحانه وتعالى أعظم الترغيب بالإنفاق المبذول للجهاد في سبيل الله ، وذلك بالوعد بمضاعفة الثواب فيه أكثر بكثير مما وعده سبحانه بالثواب على ما ينفق في أبواب الخير الأخرى ^(٣) .

ولقد دأب العلماء الأندلسيون - كغيرهم - على تخصيص حديث منفرد عن الإنفاق في سبيل الله إذا ما تطرقوا للجهاد في مؤلفاتهم ^(٤) ، أو ألفوا كتباً عن الجهاد أو ما يدور حوله ^(٥) .

ولا جرم أن علماء الأندلس بما يفقهونه من واقع بلادهم ، وبما يعلمونه من فضل الجهاد بالأموال لاسيما في دعم جهاد العدو النصراني المهدد لهم دوماً - لاجرم أنهم سيكونون في طليعة المنفقين في ذلك السبيل ، الداعين غيرهم إلى البذل والعطاء فيه .

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ط . التاسعة ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ج١ ، ص ٣٠٤ .

(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٩٢ ، ج٣ ، ص ١٥٤٤ .

(٣) محمد خير هيكل : الجهاد والقتال ، ج٢ ، ص ١٠٨٤ .

(٤) عبد الحق الإشبيلي : الأحكام الشرعية الصغرى ، ج٢ ، ص ٤٧٣ ، ٤٧٩ ؛ ابن هذيل : تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس ، ورقة ١٥-١٦ .

(٥) ابن أبي زمنين : قدوة الغازي ، تحقيق عائشة السليمانى ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٩م ، ص ١٦٠-١٦١ ، كتاب الجهاد ، نشر في (ابن تومرت : أعز ما يطلب ، تحقيق عمار الطالبي ، ط . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٥م ، ص ٣٧٦-٣٧٩) .

ولا يعد غريباً أن لا تفصح المصادر إلا عن أسماء قلة قليلة من العلماء الأندلسيين الذين تطوعوا بالنفقة في الجهاد ضد النصارى ، إذ النفقة في هذا الموطن الأصل فيها ابتغاء وجه الله ، فيجئنا باذلاً إلى إخفائها عن الأنظار . وربما أن بعض من أفصحت المصادر بإنفاقهم في سبيل الله من العلماء كان إنفاقهم كثيراً ، بحيث صار بين الناس مشتهراً ، أو ربما كان إنفاقهم في مشروع يمت للجهاد بصلة ظاهر للعيان لا يمكن خفاؤه على أحد .

ومهما يكن من أمر فقد اختلفت السبل التي أنفق فيها علماء الأندلس في حقل الجهاد ضد الأعداء . فمنها ما كان في إطار حماية المسلمين من النصارى ، أو في أخذ الأهبة والاستعداد للجهادهم ، ومنها ما كان لمعالجة وضع المسلمين عقب الجهاد . ففيما يتعلق بالأول ما ذكر - مثلاً - عن أبي بكر العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) أنه لما كان قاضياً لمدينة إشبيلية ^(١) تبرع بمال وفير لإصلاح سورها ، وترميم تحصيناتها ^(٢) . وورد - أيضاً - أن موسى ابن عمران المارُتلي * (ت ٦٠٤هـ / ١٢٠٦م) تصدق بمائة دينار للنفقة

(١) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٣٤ ؛ وانظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٠ ، ص ٢٠٠ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

* هو أبو عمران موسى بن حسين بن موسى بن عمران القيسي المارُتلي . سكن إشبيلية ، وكان ورعاً زاهداً عابداً . له حظ وافر من الأدب والتقدم في قرض الشعر . توفي في جمادى الأولى سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٦م (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٧٥٤-٧٥٥ ؛ ابن سعيد : الغصون الياقة في محاسن المائة السابعة ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط . الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص ١٣٥-١٣٧ ؛ المغرب ، ج ١ ، ص ٤٠٦-٤٠٧ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ج ٣ ، ص ٥٢-٥٤ ؛ البليقي : المقتضب من تحفة القدام ، ص ١٤٥ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٢٢٥) ، والمارُتلي نسبة إلى بلدة مارُتلة الرابضة على نهر آنه ، وهي من أعمال كورة باجة (ابن سعيد : الغصون الياقة ، ص ١٣٥ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧٥) .

على غزوة الأرك سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م ، وقد دفعها رأساً للحاكم الموحدى يعقوب المنصور^(١) (٥٨٠هـ / ١١٨٤م - ٥٩٥هـ / ١١٩٩م) ، حيث أن المنصور لما عبر إلى الأندلس للجهاد زاره في موضعه ، ثم وجه إليه مالا ، فلم يأخذه ابن عمران المارتلي ، وفوق ذلك قدم لرسول المنصور المائة دينار المار ذكرها ، وطلب منه أن يقول للمنصور " هذه مائة دينار من حلال ، خذها لنفقتك في هذه الغزوة ، إني أرجو إن لم تطعم إلا الحلال أن تُنصَر " (٢) . وقد شهر عن المارتلي هذا - كما حكى ابن سعيد - (٣) أنه " لا يقبل من أحد شيئاً ، وإنما كان له ما يقوم به من مُلكٍ ورثه من جهة طيبة ، وكان مع ذلك يعمل الخُوص بيده في خلوته ويبيعه ويتصدق به " .

ولقد كانت للأحباس في الأندلس صلة وثيقة بالجهاد في سبيل الله^(٤) ، إذ اعتاد الأندلسيون أن يجعلوا نصيباً من أحباسهم لتمويل مرافق الجهاد الحربى ضد النصارى ومتطلباته^(٥) . وثمة أناس في زمن الدراسة حبسوا أملاكاً أو خيلاً على الجهاد ، وقد يكون هؤلاء الحابسون من طلبة العلم أو من سواهم ، فالمصادر حجبت أسماءهم عنا . فهذا رجل من جزيرة

(١) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) الغصون اليا نعة ، ص ١٣٧ .

(٤) كمال أبو مصطفى : بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامى ، ط . مؤسسة شباب

الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٣م ، ص ٢٠٠ .

(٥) محمد عبد الوهاب خلاف : تاريخ القضاء في الأندلس ، ط . الأولى ، المطبعة العربية الحديثة ،

القاهرة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، ص ٥٩٥ ؛ كمال أبو مصطفى : بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس ،

ص ١٧٥ .

طريف* "أوصى في مرضه الذي توفى فيه بوصية جمعت أشياء ، منها أن يحبس على ثغر من ثغور المسلمين الفندقان اللذان له ، تنفق غلتهما هنالك ما دامت الدنيا " حسبما نطقت بذلك الوصية ^(١) . ولدينا " رجل حبس فرساً على رجل ليجاهد به العدو " ^(٢) . وكان وقف الخيل للجهاد في سبيل الله من أهل الخير عادة متبعة عند الأندلسيين ^(٣) .

وهناك من العلماء من نوهت المصادر بكثرة صدقاتهم والمصارعة إلى بذل أموالهم في أعمال البر والخير ^(٤) . ومع أننا لا نمتلك نصوصاً تصرح أن تلك الصدقات أو ذلك البذل وجهه أصحابه لمصلحة الجهاد ضد النصارى إلا أنه لا جدال في كون النفقة في باب الجهاد تُعد من أفضل النفقات التي لا يتصور أن يَقْصُر عنها مَنْ يتصدق بماله في سبيل الخير ، وطرق البر المختلفة**

☆ جزيرة طريف Tarifa كانت تسمى قبل الفتح الإسلامي بالوما Palomas (الحمي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٥-٤٦) وقد سميت بعد الفتح باسم فاتحها طريف بن مالك . وهي تقع في أول المجاز ، ويتصل غربيها بالبحر المحيط (ابن هشام اللخمي : المدخل إلى تقويم اللسان ، ص ١٦٢ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٢٧) بينها وبين الجزيرة الخضراء الكاتنة إلى الشرق منها قدر ثمانية عشر ميلاً (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٦٦ ، ١٧٦) .

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٣ ، ص ١٣٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١٣-٣١٤ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥٧٣ ، ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٤) انظر أمثلة في : ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٩٥ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٤٢٩ ؛

ج ٢ ، ص ٥٥٩ ، ٦٠٦ ، ٩٣٦ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١١٩ ، ٢١٨ .

☆ ومصادق ما نذهب إليه هنا أن أبا محمد عبد الله بن محمد بن أبي جعفر الخشني (ت ٥٢٦هـ/١١٣١م) قال عنه الضبي بأنه " لم يكن قبله ولا بعده بمروية ... أكثر صدقة منه ، ولم يزل كذلك طول حياته " ثم مثَّل على كثرة صدقته بقصة شرائه ذات يوم فرساً لبعض المجاهدين في سبيل الله ، وأن البائع بكى فسأله عن السبب ، فخبره أنه ما باع فرسه إلا ليفتك ابنه من أسر العدو . فما كان من أبي محمد الخشني إلا أن أعطاه فدية ابنه وترك له فرسه ، واشترى لذلك المجاهد فرساً آخر (بغية الملتبس ، ص ٣٣٧-٣٣٨) .

أما ما يتصل بإنفاق العلماء الأموال لإصلاح أحوال المسلمين عقب الجهاد فقد بان واضحاً في افتكاك المجاهدين الواقعين أسارى بأيدي العدو . فأبو بكر بن زهر* (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٩م) أسهم بماله لإطلاق سراح أسرى مسلمين احتجزهم النصارى بعد تغلبهم على حصن شنتفلية** في صفر عام ٥٧٨هـ / ١١٨٢م^(١) ، حيث أسر العدو في ذلك الحصن سبعمائة مسلم ما بين رجل وامرأة " ففداهم أهل إشبيلية بألفين وسبعمائة دينار وخمسة وسبعين ديناراً ذهباً ، دفع منها ابن زهر من ماله مائة دينار عيناً ، والباقي جمعه الناس بالمسجد " كما يروي ابن عذارى^(٢) . وهذا يعني أن أبا بكر بن زهر قد خلّص بماله حوالي خمسة وعشرين مسلماً من الأسر . وكذلك كان محمد بن عبد الله الأنصاري*** (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠١م) ممن خصص جزءاً

* أبو بكر بن زهر هو محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر الأيادي ، ويعرف بأبي بكر بن زهر الحفيد ، من أهل إشبيلية ، كان ذا عناية بالحديث والفقه والآداب واللغة ، أديباً بارعاً ، بذ أهل زمانه في نظم الموشحات ، ماهراً في الطب فلم يكن في أطباء وقته من يتقدمه . وكان قد أخذ الطب عن والده وجده . تولى القضاء فلقب بقاضي الجماعة ، وحظي بمنزلة لدى حكام الموحدين . توفي في مراكش في ذي الحجة سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩م (ياقوت : معجم الأدباء ، ط . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج ١٨ ، ص ٢١٦ - ٢٢٥ ؛ ابن دحية : المطرب ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٥ - ٥٥٦ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ٣ ، ص ١٠٩ - ١١٩ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٤٣٤ - ٤٣٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٣٩٨ - ٤٠٣ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٧ ؛ مجهول : إنسان العيون في مشاهير سادس القرون ، ميكروفيلم جامعة أم القرى ، رقم ٢٤٨/تاريخ ، ورقة ١٨١ - ١٨٤) .

** شنتفلية Santafilea حصن منيع فوق جبل عالٍ على إحدى الطرق الواصلة بين إشبيلية وقرطبة (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ٢٠٧) .

(١) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٤٦ .

(٢) البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٤٦ .

*** أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان الأنصاري ، من أهل بلنسية ، رحل إلى المشرق ، وحج ثلاث مرات ، ثم عاد إلى بلده ، كان مقرئاً محدثاً حافظاً ، اشتهر بالورع والصلاح والزهد . توفي في -

من ماله لمفادات الأسارى^(١)، فهو - كما يقول ابن عبد الملك المراكشي^(٢) -
كان " يتعيش من تجارة يديرها ، ويصرف أكثر ريعها في الصدقات ، وفك
الأسرى وشبه ذلك من وجوه الخير "☆.

ومن جانب آخر فقد لجأ بعض الأندلسيين سواء من العلماء أو من
غيرهم - إلى أساليب أخرى في البذل لتخليص إخوانهم ممن استدلوا بالأسر
في بلاد النصارى ؛ منها التبرع بملك اليمين من النصارى مقابل الأسرى
المسلمين^(٣). ومنها - أيضاً - الوصية بأن يكون فك الأسارى المسلمين
إحدى طرق صرف المال الموقف لوجه الله تعالى بعد الممات^(٤).

ولقد وُصف أحد علماء وقت الدراسة وهو أبو الحسن بن دري☆☆

- مرسية في محرم عام ٥٩٨هـ / ١٢٠١م (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٩ ؛ ابن عبد الملك
المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٨٢) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٩ .

(٢) الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٢٨٢ .

☆ ذكر عن امرأة من غرناطة في عصر الدراسة تكنى أم العلاء اسمها سيدة بنت عبد الغني بن علي بن

عثمان العبدري المتوفاة عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م أنها عرفت بأعمال البر وفك الرقاب من الأسر (ابن

الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٧٤٨ - ٧٤٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل

والتكملة ، ص ٨ ، ق ١ ، ص ٤٨٧ . وانظر : العربي : الحياة العلمية في الأندلس ، ص ٣٩٩) ولكن

بالتأمل في ترجمة حياتها يتبين أن أفعالها هذه كانت بعد استقرارها في تونس عقب هجرتها من

الأندلس (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٨ ، ق ١ ، ص ٤٨٧ - ٤٨٨ ؛ ابن

الخطيب : الإحاطة " نصوص جديدة " ، ص ٢٦٨) .

(٣) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٢ ، ص ١٠٥٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٣٥ ، ٨٤٥ ، ١٢٣٢ .

☆☆ أبو الحسن علي بن محمد بن دري ، أصله من طليطلة ، ثم سكن غرناطة ، وتولى الإمامة في جامعها

وكان مقرناً رواية للحديث . وتوفي في رمضان عام ٥٢٦هـ / ١١٣٢م (ابن الخطيب : الإحاطة ،

ج ٤ ، ص ١٠١ - ١٠٤) .

(ت ٥٢٦هـ / ١١٣٢م) بأنه من المسارعين لقضاء الحوائج ، المشفقين على المساكين ^(١) " كثير الصدقة ، والسعي في فداء الأسرى " ^(٢) . فاحتمال أن سعيه في فداء الأسرى كان بدفع شيء من ماله الخاص لا سيما وأنه وُصف قبلها بكثرة الصدقة ، والعطف على المساكين ، وربما أن سعيه في فداء الأسرى كان بقيامه بالذهاب بنفسه إلى النصارى ومفاوضتهم في إطلاق أولئك الأسارى . ولا يستبعد - أيضاً - أنه كان يقوم بالعملين كليهما معاً .



وإذا كان ما مضى يجسد بسط العلماء أيديهم في النفقة تطوعاً في ميدان الجهاد فإن لهم من ناحية ثانية جهدهم المؤثر في إقناع الناس أو حثهم على الإنفاق في ذلك الميدان عند شعور الدولة المسؤولة عن الأندلس بعجزها - في وقت من الأوقات - عن توفير المال الكافي لتجهيز الحملات الجهادية . فقد أفتى علماء الأندلس - ومعهم علماء المغرب - يوسف بن تاشفين بجواز طلب المعونة من الناس ^(٣) لتغطية نفقات الجيش المرابطي المجاهد في الأندلس ^(٤) حينما قصرت عن ذلك أموال الدولة ^(٥) . ويرجح أن هذا كان

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٤ ، ص ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١١٩ ؛ الوئشريسى : المعيار المغرب ، ج ١١ ، ص ١٣٢ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٣٨٧ .

✽ جاء في رسائل أندلسية أن ذلك كان في عهد علي بن يوسف بن تاشفين (مجهول : رسائل أندلسية تحقيق فوزي عيسى ، ط . الأولى ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٨٩م ، ص ٧٩) .

(٤) الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر ومحمد الناصري ، ط . دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

(٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٥٢ .

في أواخر حكم يوسف بن تاشفين ^(١) ، لأن الموارد الشرعية لبيت المال* حينذاك " لم تعد تفي بالتزامات الدولة العسكرية في الأندلس** ، لا سيما مع تقلص أراضي الملكية العامة ، ثم عيشة الترف التي بدأ المرابطون يحيونها " ^(٢) *** . ولقد تعدى أثر علماء الأندلس الفتوى بجواز طلب المعونة إلى الاضطلاع بتحصيلها من الناس ^(٣) ، فموجب تلك الفتوى أرسل يوسف ابن تاشفين إلى قاضي كل بلد من البلدان يكلفه بإلزام أهل بلده بدفع معونة مالية لصالح الجهاد ^(٤) .

(١) عز الدين موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ، ط . الأولى دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ١٦٥ .

✧ الموارد الشرعية لبيت المال عند المرابطين هي - كما قال ابن أبي زرع - ما أوجه " حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأحماس غنائم المشركين " (الأنيس المطرب ، ص ١٣٧) . ✧ يقول الشاطبي : " إنا إذا قررنا إماماً مطاعاً مفتقراً إلى تكثير الجنود لسد الثغور ، وحماية الملك المتسع الأقطار وخلا بيت المال عن الحال ، وارتفعت حاجات الجند إلى ما لا يكفيهم ، فلإمام - إذا كان عدلاً - أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم في الحال إلى أن يظهر مال بيت المال ... " إلى أن يقول : " وإنما لم ينقل مثل هذا عن الأولين لاتساع مال بيت المال في زمانهم ... " (الاعتصام ، ج ٢ ، ص ٦١٩) .

(٢) عز الدين موسى : النشاط الاقتصادي ، ص ١٦٥ .

✧ ويرى سعيد أعراب أن طلب يوسف بن تاشفين المعونة كان بعد موقعة الزلاقة مباشرة (من الرسائل المرابطية : رسالتان لم تنشرا بعد ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٤٥ ، جمادى الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص ٣٥) .

(٣) سعيد أعراب : من الرسائل المرابطية ، ص ٣٤ .

(٤) يفهم هذا من كلام قاضي المرية ابن الفراء (ت ٥١٤هـ / ١١٢٠م) في رده على رسالة يوسف بن تاشفين بشأن المعونة ، حيث قال " فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة ، وتأخرى عن ذلك ... " (المقرئ : نقح الطيب ، ج ٣ ، ص ٣٨٦) وفي رواية أخرى " فإنه بلغني كتبك [كذا] تذكر فيها ما كان من تأخري عن المعونة وقبضها ... " (الونشريسي : المعيار المعرب ، ج ١١ ، ص ١٣٢) .

وعلى صعيد آخر احتسب بعض العلماء في جمع التبرعات المالية والعينية من أجل فكك الأسرى المسلمين في أعقاب المعارك الحادثة بينهم وبين أعدائهم النصارى ، فتراهم يقصدون أماكن تجمعات الناس يدعونهم إلى بذل ما تجود به النفوس ، وما تسخو به الأيدي من الصدقات لإطلاق سراح إخوان لهم أسروا وهم يجاهدون في سبيل الله* . من ذلك ما حكى من فعل أبي عبد الله بن الحجام** (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) في الجامع الأعظم بإشبيلية، إذ نهض يتكلم بأسلوب رقيق ، وعبارات مؤثرة يُذكر المصلين ويحثهم على النفقة في ذلك السبيل^(١) ، يقول أحد تلامذته ، - وقد رأى فعله بأم عينيه في جامع إشبيلية - " ... ولقد شاهدته ... وقد ندب الناس إلى افتكك أسارى ، فتسارع الناس إلى بذل ما حضرهم ، وخلع كثير منهم بعض ما كان عليه من الثياب، فعهدى بها تراكمت أمام منبره حتى

✽ كانت الدولة الموحدية تفادي الأسارى من بيت المال إذا كانوا من جنودها النظاميين ، أما إذا كانوا من المتطوعة فيقوم باقتنائهم أهالي المنطقة التي ينتمون إليها (السحيباني : النظم الحربية في دولة الموحدين بالمغرب والأندلس ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، كلية العلوم الاجتماعية بالرياض ، ١٤٠٢هـ ، ص ٢٥٤) .

✽ أبو عبد الله بن الحجام هو محمد بن أحمد بن محمد اللخمي ، سكن مراكش ، وحظى بمنزلة عند الحكام الموحدين . وكان زاهداً ، ذا حظ من الأدب ونظم الشعر ، عُنى بالوعظ والتذكير . وتوفي في شعبان سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م (التادلي : التشوف ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٨ ، ق ١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨ ؛ ابن أبي زرع : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، ط . دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢م ، ص ٥١ ؛ يحيى بن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، ط . المكتبة الوطنية الجزائرية ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ج ١ ، ص ١٠٢ - ١٠٣) .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٨ ، ق ١ ، ص ٢٦٨ ؛ يحيى بن خلدون : بغية الرواد ،

كادت تحجبه عن الأبصار سوى ما وُعد به ، فتجمل في أثمان تلك الثياب
مال جسيم " (١) .

وقصارى الكلام أن لعلماء الأندلس في عصري المرابطين والموحدين
إسهامات ملموسة في حقل الجهاد بالأموال في سبيل الله ؛ سواء ما كان
مرتبطاً بالاستعداد لغزو القوى النصرانية أو التصدي لعدوانها ، أو ما كان
مواساة لأوضاع المسلمين عقب احتكاكهم العسكري بالنصارى. وقد
تنوعت أساليبهم في هذا الحقل، فأنفقوا بأنفسهم الأموال بصور مختلفة ،
ودعوا غيرهم إلى النفقة ، وأعانوا الدولة المنوط بها الجهاد في الأندلس على
تحصيل الأموال لحرب النصارى حين أيقنوا بحاجتها الشرعية إلى ذلك .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٨ ، ق ١ ، ص ٢٦٨ .

ثالثاً : مشاركات العلماء الميدانية في جهاد النصارى :

كان الصراع العسكري بين المسلمين وجيرانهم النصارى في الأندلس متواصلاً على مر تاريخها الإسلامي المديد . فحروب الأندلسيين مع عدوهم " لم تزل سجلاً ، فتارة حال نصر واقتدار ، وتارة حال تمحيص واختبار " (١) . ولقد انعكس ذلك على نمط حياتهم ، فجعلهم - مثلاً - يُعنون بآلات الحرب المختلفة ، ويصرفون الهمم في صناعتها أو جلبها (٢) . وكذلك يسعون لاتقان استخدامهما ، فقد حكى ابن الخطيب أن الصبيان في الأندلس كانت تُدرب على العمل بالسلاح وتُعلم المثاقفة كما يعلم القرآن بالألواح (٣) . فالجماعة الأندلسية - إذن - جماعة محاربة ، وما العلماء وطلبة العلم الأندلسيون إلا فئة عاملة ناصبة في وسط تلك الجماعة ، فهم قد نحو - ولا بد - منحاهم في هذا الجانب التربوي في صغرهم ، ثم صاروا بعد ذلك أبصر من غيرهم بواجبات الجهاد في سبيل الله ، وكذلك بمستلزمات الدفاع عن حياض الأمة ، والذود عن بيضتها ، والذب عن ذمارها ، والحفاظ على ثغورها .

وفي زمن المرابطين والموحدين - الذي احتدمت فيه المجابهة مع النصارى - لم يتوان العلماء عن الانخراط في قافلة المجاهدين بأنفسهم في سبيل الله ، وبخاصة القادرون منهم على القتال ، المطيقون لحمل السلاح . فمنهم الذين نصت المصادر المعنية بتراجهم على مشاركتهم في غزوة أو أزيد، أو في

(١) ابن هذيل : تحفة الأنفس ، ورقة ١٠ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٣) أحمد مختار العبادي : الأعياد في مملكة غرناطة ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ١٥٣ ،

١٩٧٠م ، ص ١٣٨ ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٢ .

التصدي للعدو عند حصاره للمدن الأندلسية . ومنهم من عرفنا مشاركته بالجهاد بذكر مقتله في حرب معينة مع النصارى . وهؤلاء جميعاً سيأتي الحديث عنهم مفصلاً - بإذن الله تعالى - . ثم إن هناك طائفة من العلماء اكتفت المصادر بوصف الواحد منهم - مثلاً - بعبارات عامة قد يفهم منها مشاركته بالجهاد دون تحديد لمعركة أو حادثة معينة ، مثل القول عن بعضهم " كان...مجاهداً " ^(١) . أو عن آخر " كان ... شهير الزهد والخير والجهاد " ^(٢) . وتارة يذكر عن بعضهم كلمة قد توحي بأن حياته خُتِمت بقتال مع العدو النصراني مثل قول " توفي شهيداً " ^(٣) أو " استشهد " ^(٤) . ولا شك أن كلمة الجهاد أو الاستشهاد* وأشبهاهما - وإن كانت قد تدل دلالة قوية على المشاركة في الجهاد الحربي ضد الأعداء - إلا أنه لا ينبغي لنا الجزم مطلقاً

(١) انظر مثلاً : ابن الأبار : التكملة ، ج٢ ، ص ٨٢٨ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص ٣٩٨ ؛ س٤ ، ص ٢٢٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص ٦١ .

(٣) انظر ابن الأبار : التكملة ، ج٢ ، ص ٥٣١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص ٣١٠ .

(٤) انظر مثلاً : ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص ٦٤٣ ، س٦ ، ص ٣٧٧ .

هو عنون البخاري لأحد أبواب كتاب الجهاد في صحيحه بـ " باب لا يقول فلان شهيد " فأورد قول النبي ﷺ في حديث أبي هريرة ؓ " الله أعلم بمن يجاهد في سبيله ، والله أعلم بمن يُكَلِّم في سبيله " . ثم روى حديث الرجل الذي قال عنه النبي ﷺ إنه من أهل النار رغم أنه قاتل المشركين معه قتالاً شديداً ، وقد تبين أن ذلك الرجل أصيب بجرح غائر ، فاستعجل الموت وقتل نفسه (صحيح البخاري ، ج٤ ، ص ١٠٤ - ١٠٥) ومن كلام ابن حجر في شرحه لأحاديث هذا الباب قوله " فالمراد النهي عن تعيين وصف واحد بعينه بأنه شهيد ، بل يجوز أن يُقال ذلك عن طريق الإجمال " . ولما وصل إلى شرح حديث الرجل الذي قتل نفسه عقب جهاده المشركين علق عليه بقوله " فلا يطلق على كل مقتول في الجهاد أنه شهيد لاحتمال أن يكون مثل هذا ، وإن كان مع ذلك يعطى حكم الشهداء في الأحكام الظاهرة " (فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، نشر محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب ، ط. دار المعرفة ، بيروت ، ج٦ ، ص ٩٠) .

بدلالاتها على ذلك ، فقد يقصد بهما في المصادر معاني أخرى* .

وعلى كل حال فنحن على يقين تام أن كثيراً من العلماء وطلبة العلم في الأندلس وقت الدراسة لم يتخلفوا عن أي مجابهة مع النصارى على مدى أكثر من مائة وخمسين عاماً للحيثيات التي عرضناها في غضون كلام سبق - وذلك كمعرفتهم بفرضية الجهاد في بلادهم ، وإطلاعهم على فضل الجهاد أكثر من غيرهم ؛ فضلاً عن كون العلماء عموماً هم عنصر من العناصر الفاعلة في المجتمع الإسلامي الذي لا يُتصور أن يتخلف عن شهود وقائع ترتبط بمصير الأمة ومستقبلها . لكن الإشارة إلى مشاركتهم بالجهاد في المصادر تتوقف - كما هو معلوم - على قيامهم في المعارك بأعمال تسترعي الانتباه ، وذلك بكسر الوثيرة المؤلف رؤيتها في الجيوش المرابطية والموحدية ، أو يكون مقتلهم في هذه المعركة أو تلك . المهم يكون ثم سبب يدعو الراوي أو الإخباري إلى تسجيل معلومة أو خبر يفهم منهما اشتراك العالم أو طالب العلم بإحدى المعارك الجهادية مع النصارى ، ولذا فلا عجب أن نرى معارك كثيرة دارت رحاها زمن البحث على جبهات القتال بين المسلمين والنصارى - وقد تكون بعضها مهمة - تواطأت المصادر المتوافرة لدينا على عدم ذكر أحد من العلماء شارك فيها .

هذا ما يمكن قوله عن حال علماء الأندلس في المواجهات البرية ، أما حالهم في الغزوات البحرية فإننا لم نعثر - حسبما تهيأ لنا من مصادر - على نصوص صريحة تفيد باشتراك علماء أو طلبة علم أندلسيين في غزوات بحرية

١٠ فالوصف بالمجاهد قد تعني جهاد النفس عند المتصوفة (ابن العربي : عارضة الأحوذى ، ج ٧ ، ص ١٢٢) وكلمة الاستشهاد قد تستعملها بعض المصادر أحياناً في مقتل أحد العلماء ظلماً على أيدي مسلمين . انظر مثلاً (عياض : الغنية ، ص ١١٨ ؛ الضبي : بغية المتمس ، ص ٥١ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ١٥٢) .

في عصر المرابطين والموحدين . وافتقارنا إلى مثل تلك النصوص لا يخول لنا أبداً نفي مشاركة أهل العلم الأندلسيين بغزو البحر . صحيح إن ركوب البحر والقتال على ظهره يتطلب دربة ومراناً ، لكن من غير المعقول - مهما كانت الظروف - أن لا يكون أحد من رجال العلم الأندلسيين قادراً على خوض عباب البحر ، محتسباً لجهاد العدو فيه ، وبخاصة إذا تذكرنا أن المرابطين والموحدين كانوا قد اهتموا بالأساطيل في ذلك الحين ، وتوسعوا في رعايتها وتطويرها ^(١) ، واشتبكوا مع النصارى في معارك بحرية عديدة ^(٢) . وما قلناه - آنفاً - في تفسير عدم تعقب الرواة لكل مشاركات العلماء في المواجهات البرية يمكن أن يقال - أيضاً - في تعليل خلو المصادر من إشارات إلى مشاركات هؤلاء في الغزوات البحرية ، ولعل ما ورد عرضاً عن القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م) وهو من علماء المغرب ، وقد عاش شطراً من عمره في الأندلس ^(٣) - لعل ما ورد عنه من غزو في البحر يؤيد جزمنا بمشاركة علماء الأندلس في هذه المضمار ، فعندما أشار ابن عذارى ^(٤) إلى أحد رجال الموحدين قال "وكان قد غزا مع القاضي عياض الروم في البحر" .

وللوقوف على نشاط العلماء الميداني في الجهاد ضد القوى النصرانية

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣١٦ .

(٢) للاطلاع على تلك المعارك البحرية انظر : السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ط . النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٩ م ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ ، ٢٦٣ - ٢٦٩ ، ٢٧١ - ٢٧٢ ، ٢٧٦ - ٢٧٩ ، ٢٨٢ - ٢٨٣ ؛ العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٢٣ - ٣٢٦ ، ٣٣٣ - ٣٣٧ ، ٣٤٨ - ٣٥٩ ، ٣٦٢ - ٣٦٥ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ ؛ ابن عياض : التعريف بالقاضي عياض ، ص ٦ - ١٠ .

(٤) البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٢ .

في الأندلس سنقسمه إلى قسمين هما :

أ - مشاركة العلماء في الغزوات ضد نصارى الممالك الإسبانية .

ب - مشاركتهم في حماية المدن الأندلسية والدفاع عنها .

وقبلولوج في تفاصيل هذه القسمين ننبه على أن ما سيرد ذكره والكلام عنه فيها من مواجهات بين المسلمين والنصارى سواء في ميدان الغزوات أو في مجال الدفاع عن المدن لا يقتضي بالضرورة أهميتها في حلقة الصراع التاريخي بين الجانبين ، لأن التطرق إلى شيء من ذلك خاضع - كما لا يخفى - لما تسعفنا به المصادر من أسماء لرجال من أهل العلم الأندلسيين شاركوا في هذه المواجهة أو تلك .

أ - مشاركة العلماء في الغزوات ضد نصارى الممالك الإسبانية :

ما فتى علماء الأندلس عموماً ينفرون خفاً وثقلاً للجهاد في سبيل الله ، فصحبوا الجيوش المجاهدة للنصارى ، ورفعوا راية التوحيد ، وانتضوا السلاح ، وامتشقوا الحسام ؛ وتقدموا الصفوف ^(١) . فكثير منهم - وفقاً لما روت كتب التراجم والتاريخ - ما فارقوا الحياة الدنيا إلا وهم في ساحات الوغى ، أو في طريق مرجعهم منها ^(٢) . حيث كانت الشهادة في سبيل الله أغلى أمانيتهم كما جاء على لسان بعضهم ^(٣) .

وفي زمان دراستنا الذي تكالبت فيه القوى النصرانية على المسلمين في الأندلس تدافع العلماء على الخروج مع الجيوش المرابطة والموحدة النافرة للجهاد ^(٤) حتى قيل عن أحدهم أنه " كان لا يسمع بغزاة ولا سرية إلا تجهز لها ، وسارع إليها ، وبادر نحوها " ^(٥) . وعندنا عدد من العلماء نوهت المصادر بتتابع خروجهم للجهاد ، وبكثرة شهودهم للغزوات . فعلي بن عبد الله الأنصاري الخزرجي (ت ٥٣٩هـ / ١١٤٥م) " غزا بلاد العدو غزوات

(١) الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٣٢ ؛ محمد مفتاح : مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي ، مجلة عالم الفكر ، ١٢م ، ١٩٨١م ، ص ١٨٥ .

(٢) محمد الخضر حسين : علماء الإسلام في الأندلس ، ط : المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٧هـ ، ص ٢٥ .

(٣) ابن العربي : عارضة الأحوذى ، ج ١١ ، ص ١٤٠ ، وانظر : ثريا لحي : أبو الريح سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي ، ص ١٢٧ (نقلاً عن : الكلاعي : جهد النصيح وحظ المنهج في معارضة المعري في خطبة الفصيح ، مخطوط ، ورقة ٧١) .

(٤) Abdul ghafour Ismail Rozi : The Social Role of Scholars in Islamic Spain ،

Ph.D. , Boston University , ١٩٨٣ , P . ٥٠ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٦٦ .

كثيرة على قدمية ابتغاء الأجر " ^(١) . وأبو محمد بن عطية (ت ٥٤١هـ / ١١٤٧م) "كان يكثر الغزوات في جيوش المثلثين" ^(٢) . وكان أبو بكر محمد بن عبد النور السبائي (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) "كثيراً ما يحضر الغزوات ويلى فيها البلاء الحسن" ^(٣) . وكان - أيضاً - أبو الربيع الكلاعي (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) "يحضر الغزوات ، ويباشر بنفسه القتال ، ويلى فيها البلاء الحسن" ^(٤) . كما أن أبا المطرف ابن عميرة المخزومي ^(٥) (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) في سياق حديثه عن شيخه أبي الربيع الكلاعي هذا نص على حضوره الجهاد معه أكثر من مرة فقال " حضرت معه غير موطن من مواطن الجهاد " . ومن العلماء من أفادتنا المصادر بالنواحي التي اختلف عليها كثيراً من أجل الجهاد ، فأبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) تردد على بلنسية بقصد الغزو وفيما يليها من جهات ^(٦) ، كما أن منهم من خلّف بلده وراءه ، ورابط في الثغور المتاخمة للبلاد النصرانية ^(٧) .

ومما يستلفت النظر مشاركة علماء أندلسين في الجهاد ضد النصارى الصليبيين بالشرق* بالإضافة إلى مشاركتهم في الجهاد ضد القوى النصرانية

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٢٢٢ .

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧١ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٤١٣ .

(٤) المصدر السابق ، س ٤ ، ص ٨٩ .

(٥) رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ٦٨ .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ، ٤٧١ .

(٧) عياض : ترتيب المدارك ، ج ٨ ، ص ٢٠٧ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٢٤ ؛ ابن سعيد :

المغرب ، ج ١ ، ص ٤١٥ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٣٣٤ .

* شارك المغاربة (أهل الأندلس والمغرب) مشاركة فعالة في الجهاد ضد الصليبيين بالشرق بدليل وقوع -

مواطنهم الأصلي الأندلس . فأثبتوا بذلك عمق التلاحم بين المؤمنين في مكانين متباعدين من العالم الإسلامي ، كما جمعوا بين فضيلة الجهاد في بلاد الشام لتخليصها من الصليبيين الغاصبين وبين مثوبة الجهاد في بلادهم الثغرية لصد العدوان المتواصل عليها - من جانب نصارى إسبانيا . ويمثل هذا الصنف من العلماء أبو الحجاج البلوى (ت ٦٠٤ هـ / ١٢٠٨ م) . فقد ورد أنه شارك في الجهاد مع الحاكم الموحدى المنصور (٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م - ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م) وكذلك مع صلاح الدين الأيوبي* (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) قال ابن الزبير^(١) عنه "وغزا عدة غزوات مع المنصور بالمغرب ومع صلاح الدين بالشام" . ولعل مما يناسب الإشارة إليه هنا أن علماء كثيرين من خارج الأندلس دخولها بنية الجهاد ، فمنهم من قضى نحبه تحت بارقة السيوف، وبين الأسنة والرماح^(٢) ،

- عدد منهم في الأسر (ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٠) ولقد شاعت شهرة المغاربة بالمشرق بصفة خاصة في الجهاد البحري (أحمد مختار العبادي : دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي - ضمن كتاب "بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية" ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ هـ ، ص ٨٤) .

* حصل اتصال بين المنصور الموحدى وصلاح الدين الأيوبي ، إذ طلب الأخير من الأول الإعانة على جهاد الصليبيين في المشرق ، لكن المنصور لم يجبه إلى مبتغاه (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٢ ، المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٤٤٤ - ٤٤٥) لمعرفة أسباب توقف المنصور عن مساعدة صلاح الدين . انظر (عز الدين موسى : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ص ٣٩ - ٤١ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن الموحدى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، م ٦ - ٧ ، ١٩٥٢-١٩٥٣ م ، ص ٩٣-٩٧ ؛ السحيباني : النظم الحربية في دولة الموحدين ، ص ٢٦٩-٢٧٠ ؛ ابتسام مرعي خلف الله : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي ، ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ١٥٨ - ١٦٩) .

(١) صلة الصلة ، ص ٢١٨ .

(٢) انظر أمثلة : التادلي : التشوف ، ص ٤١٥ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٠٢ ، ج ٢ ،

ص ٦٨٤ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، "نصوص جديدة" ، ص ٢٠٥ .

ومنهم مَنْ كتبت له الحياة بعد ذلك ^(١) .

وقبل أن نأتي على تفاصيل مشاركة علماء الأندلس في المعارك الجهادية نلقى أضياءً عامة على طبيعة مسلكهم ، ومقدار أثرهم في الجيوش المرابطية والموحدية ، فإذا تركنا مباشرتهم للقتال على جنبٍ - والتي سيجيء الحديث عنها لاحقاً - ألفيناهم ينهضون في تلك الجيوش بخدماتٍ مختلفة ، وبجهودات متنوعة . وقد لا نغالي إذا قلنا أنه لا يجاريهم في النهوض ببعضها أحدٌ سواهم . ففي أخبار بعض الغزوات إلى بلاد النصارى نجد أمير الجيش سواء كان حاكم الدولة نفسه أو أحد العمال أو القادة يُحاط بكوكبة من العلماء ، طائفة منهم من الأندلسيين ^(٢) . وقد يُهاب أحياناً بالصالحين والعباد ومَنْ إليهم للخروج إلى جهاد النصارى تفاؤلاً بهم وبدعواتهم ^(٣) ، ولا بد أن قسماً من هؤلاء ينتمون إلى جماعة العلماء أو طلبة العلم . وكان بعض العلماء الأندلسيين النافرين للجهاد يستفاد منهم في معرفة مسارب الأندلس وتغورها ، ويستشارون في أمثل الطرق في بلادهم لمحاربة الأعداء ^(٤) .

وهناك مناشط معينة يضطلع بفعالها العلماء وطلبة العلم خلال التحرك للجهاد أو الاستعداد له ، لكنَّ المصادر في الغالب لا تكشف لنا هُوية هؤلاء

(١) انظر أمثلة في : ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٦١٣ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ ٢ ، ص ٦٨٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٨ ، ق ١ ، ص ١٦٣ ، ق ٢ ، ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٤٨ ؛ ق ٣ ، ص ٥٦ - ٥٧ ، ١٥٦ ، ٢١٩ - ٢٢٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٢ .

(٢) انظر أمثلة في : ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ٢٩ ، المعجم ، ص ٥٧ ؛ ابن عذارى : البيان ، جـ ٤ ، ص ٦٤ ؛ السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ، ص ٦٠ .

(٣) المراكشي : المعجب ، ص ٣٦٣ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٧١ .

إن كانوا من الأندلسيين أو من غيرهم . فمما نلمسه من هذه المناشط بصفة خاصة في الجيش الموحدى الشاخص للقتال تكليف العلماء بجمع أحاديث الجهاد لدراستها وإملائها على المقاتلين ^(١) . ومنها - أيضاً - قراءة بعض طلبة العلم القرآن بصورة جماعية أثناء سير الجيش إلى ساحة المعركة ؛ ثم يعقب ذلك قراءة الحديث وتوالياً ابن تومرت ^(٢) .

وقد نقل عن بعض العلماء سواء أكانوا أندلسيين أو سواهم قيامهم في الجيوش المرابطية والموحدية بمهمة التحريض على جهاد العدو ، والاستبسال في قتاله ^(٣) ، وذلك بإلقاء الخطب المتعلقة بهذا الأمر حال اللقاء مع الأعداء النصارى ^(٤) . وقد يستخدم المحرض على الجهاد من العلماء في الجيش الموحدى - أيضاً - اللسان العربي تارة ، واللسان البربري تارة أخرى ^(٥) .

وشيء خليق لإيراده في هذا الشأن عن العلماء ، وهو أن منهم مَنْ آلت إليه الراية خلال بعض المعارك مع النصارى، فحملها وسط المعترك ^(٦) ، واعتبر بذلك وكأنه قائد للجيش الغازي ، وهذا معناه أن بعض العلماء وصلوا إلى مرتبة تُضارع مرتبة القيادة في الجيوش الأندلسية .

أما عن القوى النصرانية التي عَلمنا - من خلال المصادر المتوافرة لدينا -

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢٧ .

(٣) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣٧١ ؛ السحيباني : النظم الحربية ، ص ٢٢٦ .

(٤) انظر أمثلة في : ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحديين ، ص ٢١٩ .

(٥) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٤١١ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحديين ، ص ١١٣ .

(٦) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٩ .

أن علماء الأندلس في زمن الدراسة خرجوا لمجابهة جيوشها ، واشتبكوا معها في معارك جهادية بذلوا فيها مهجهم ، وأرخصوا فيها أرواحهم ، وأهرقوا بها دماءهم فقد كانت أربع قوى هي : قشتالة ، وبرشلونة (قطالونيا) ، وأرغون ، والبرتغال* ، وفيما يلي سنصنف ما تيسر لنا رصده في هذا المضمار ، بحيث نضع نشاطهم الجهادي ضد كل مملكة على حدة ، وفي إطار هذا التقسيم وعند تناولنا لإسهاماتهم في الغزوات التي جُردت لجهاد هذه القوى سوف نقرنها بما لا مفر منه من إيضاحات تتعلق بهذه الغزوة أو تلك ، فنأخذ من مقدمات الغزوات أو أحداثها أو نتائجها ما نحسبه كاشفاً لجهود من جاء النص بمشاركته فيها من أولئك العلماء ، أو ما نظنه مُعيناً على فهم طبيعة إسهاماتهم فيها ، وسيراعى في ذلك كله الترتيب الزمني .

١ - مشاركتهم في الغزوات ضد مملكة قشتالة :

تقدم أن نشوء قشتالة بصفتها مملكة مستقلة كان في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - ، وأنها في النصف الأول من القرن التالي استحوذت على أراضي ممالك نصرانية متاخمة لها** ، فصارت تشمل منطقة الوسط والغرب من الشمال الإسباني^(١) . وباحتلالها لمدينة طليطلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م تمادت حدودها جنوباً في العمق الإسلامي إلى جبال

✧ سيكون الحديث عن نشاط العلماء الجهادي ضد قشتالة ، ثم برشلونة ، ثم أرغون ، ثم البرتغال ، والأساس المعتمد في هذا الترتيب مبني على الأقدم في النشأة بصفتها قوى سياسية ضمن دول إسبانيا النصرانية .

✧ انظر : التمهيد .

(١) رجب محمد عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك

الطوائف ، ط . دار الكتب الإسلامية ، بيروت ، ص ٣٠٥ .

قرطبة^(١) . وقد ظلت في عصر المرابطين والموحدين من أكبر الممالك الإسبانية رقعة ، وأوفرها موارد وقوة^(٢) ، رغم ما انتابها خلال سني ذلك العصر من خلافات على العرش ؛ فضلاً عما ترتب على ذلك من خسرانها لأجزاء من أراضيها أو انسلاخ لمناطق كاملة من أملاكها^(٣) .

ولقد كانت عشية عبور المرابطين إلى الأندلس لأول مرة أشد الممالك النصرانية حرباً على المسلمين ، فتمكن المرابطون بعد عبورهم من كسر حداثها ، وخضد شوكتها ، وقد استمرت المواجهات بين الطرفين بعد مآل الأندلس للمرابطين ، ثم حمل لواء المواجهة معها - من بعدهم - الموحدون كما هو معلوم* .

أما عن إسهام علماء الأندلس في جهادها فقد ورد ذكر لعدد منهم قاتلوا ضدها في صفوف المرابطين قبل ضم الأندلس إلى دولتهم . وفي عصر الدراسة أمدتنا المصادر بأسماء طائفة من العلماء الأندلسيين الذين خرجوا في حملات للغزو في أراضي هذه المملكة النصرانية . فأول موقعة مع قشتالة تطالعنا المصادر الموجودة بين أيدينا - باسم أحد المقاتلين فيها من العلماء هي وقعة أفلش** (أقليج) الكائنة إلى الشرق من طليطلة حاضرة

(١) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٢١٧ ؛ العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨٢ .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٤٧٧ ، ق ٢ ، ص ٥٨٣ - ٥٨٤ ؛ ليلي النجار : المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الشريعة والدراسات

الإسلامية ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٩ هـ ، ص ١٧١ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٤٧٩-٤٩٨ ، ق ٢ ، ص ٥٨٣ .

* انظر : التمهيد في مواضع متفرقة .

** يبدو أن أفلش دخلت في حوزة النصارى بعد سقوط طليطلة بأيديهم عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م -

قشتالة* ، وكان ذلك في ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م^(١) ، حيث أن تميم بن يوسف بن تاشفين لما ولي غرناطة من قبل أخيه حاكم المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م - ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م) بادر في التجهز لجهاد النصارى^(٢) ، وبالأخص مملكة قشتالة التي كان حاكمها أذفونش (الفونسو السادس) قد آذى المسلمين بتكرار غارته عليهم^(٣) ، فتحرك تميم من غرناطة في العشر الأواخر من رمضان من العام المذكور ميمماً وجهه شطر البلاد القشتالية ، وفي طريقه إليها دعا الأندلسيين للشخص معه فلبوا دعوته☆☆ . ولقد عبّر تميم عن ذلك بقوله " ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين على جهات سمعت منادينا ، وتبعت هادينا ، وانقادت وراءنا أعداد وأمداد ، برزوا من كمون ، وتحركوا عن سكون... وقد توافد الجمع ، وملى البصر والسمع " ^(٤) . ولا بد أن رجال العلم ساءتذاك كانوا في مقدمة من استجاب لداعي الجهاد . وفي اليوم الرابع عشر من شوال وصل الجيش المرابطي مدينة أقليمش فحاصرها^(٥) ، ولم ينشب أن اقتحمها بلا مشقة ،

= (ابن الكردوبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٨٧) وقد جزم شعيرة باستيلاء النصارى عليها عقب سقوط طليطلة (المرابطون ، ص ١٤٥) .

☆ انظر التمهيد من هذا الكتاب .

(١) ابن عذاري البيان ، ج ٤ ، ص ٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) المصدر السابق ، ٤٤ - ٤٥ .

☆☆ رسالة تميم إلى أخيه علي بن يوسف بشأن موقعه أقليمش كتبها ابن شرف ، نشر (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٥٣٤ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٣٦) .

(٤) رسالة تميم (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٥٣٤ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٣٦) .

(٥) رسالة تميم (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٥٣٤ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٣٧) .

الأمر الذي أفضى بحماتها النصارى إلى الاعتصام بقصبتها^(١)، وكان خير الهجوم الإسلامي عليها قد بلغ الحاكم القشتالي فبعث لنجدتها قوة عسكرية تحت إمرة ابنه شانجة^(٢)، فاشتبكت هذه القوة بالجيش الإسلامي، في معركة حامية الوطيس ختمت بنصر ساحق للمرابطين، وقد قُتل فيها من النصارى أعداد غفيرة كان على رأسهم شانجة بن أذفونش (الفونسو السادس)^(٣)، وسبعة من أكابر الفرسان النصارى المرافقين له، ولذا سميت هذه الموقعة^{***} في المصادر النصرانية بمعركة الأكناد

(١) ابن القطان: نظم الجمان، ص ٦٤؛ ابن عذارى: البيان، ج ٤، ص ٥٠؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٦٠.

✱ شانجة أوسانشو Sancho هو ابن الفونسو السادس من زوجته أرملة المأمون بن المعتمد على الله بن عباد التي تنصرت (ابن عذارى: البيان، ج ٤، ص ٥٠) وتُدعى زائدة أو السيدة، وكانت قد فرت إلى قشتالة بعد مقتل زوجها المأمون، فاتخذها الفونسو زوجة له، فأنجبت شانجة هذا (الونشريسي: أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواج تحقيق حسين مؤنس، ط. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص ٦٣، حاشية ١؛ بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، ط. دار نهضة مصر، القاهرة، ص ١٥٢-١٦٣؛ عنان: دول الطوائف، ص ٣٤٥-٣٤٨) وقد كان هو الابن الوحيد للفونسو، وحين خرج إلى أثليش كان له من العمر إحدى عشرة سنة في قول (الحجي: التاريخ الأندلسي ص ٤٢٥) وخمس عشرة سنة في قول آخر (بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١٦٢).

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٦٠.

(٣) ابن القطان: نظم الجمان، ص ٦٦؛ ابن عذارى: البيان، ج ٤، ص ٥٠؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٦٠، ١٧٠؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٣، ص ٢٥٣.

✱ أشار ابن الكردبوس إلى هذه المعركة لكن روايته مختصرة وغير دقيقة (تاريخ الأندلس، ص ١١٤-١١٥).

✱ زار أمبروسي ويسى ميراندا مكان المعركة سنة ١٩٥٣م ووصفه كتابةً ورسمًا (وقعة أثليش ومصرع الأمير ضون شانجة، مجلة تطوان، عدد ٢، سنة ١٩٥٧م، ص ١٢٢).

السبعة Batalla de los Siete Condes^(١) . أما المسلمون فقد فقدوا فيها - أيضاً - جمعاً من رجالهم . يقول ابن أبي زرع^(٢) " واستشهد فيها جماعة من المسلمين رحمهم الله " . وقد كان من هؤلاء عالم سماه ابن القطان^(٣) " الإمام الجزولي " * . وبما أن مقدمة الجيش الإسلامي التي يمثلها عسكر قرطبة هي التي تعرضت لانقضاض شرس من قبل الجند النصاري في بداية المعركة ، فاضطربت صفوفها ، وتقهقر رجالها^(٤) ؛ فمن المرجح أن يكون الجزولي ومن فقد من المسلمين معه حصل لهم ما حصل من القتل في غضون ذلك الانقضاض ، وبخاصة أن الذين رووا أحداث الواقعة لا يذكرون أن الجيش الإسلامي أصيب بنكسة غير هذه النكسة طوال القتال بين الفريقين . ومقتل الجزولي على تلك الحالة - إن صح ترجيحنا - يعني أنه كان من أولئك الذين خرجوا بشوقٍ إلى جهاد النصاري ، فالتحقوا بمقدمة جيش المسلمين وحملوا السلاح ، وقاتلوا في هذه الواقعة بشجاعة ، وشاركوا فيها مشاركة فعالة .



(١) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ٢٠ .

(٢) الأنيس المطرب ، ص ١٦٠ .

(٣) نظم الجمان ، ص ٦٦ .

✽ الجزولي بالبحث فيما نملكه من كتب تُعني بالرجال لم نثر على ترجمة للجزولي هذا . وعليه فلا نعرف عنه سوى ما جاء عند ابن القطان ، حيث لقبه بالإمام ، ووصفه بأنه " رجل صدق " (نظم الجمان ، ص ٦٦) .

(٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٦٤ - ٦٥ ، وحاشية ١ ؛ رسالة تميم (عنان : عصر المرابطين ، ق ١ ، ص ٥٣٧) .

وفي غزوة طَلَبِيْرَة* سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م جاء النص على رجال من أهل العلم شاركوا فيها^(١) ، وهم أبو عبد الله بن حمدين (ت ٥٠٨هـ / ١١١٤م)^(٢) وأبو محمد بن سمجون اللواتي** (ت ٥٢٤هـ / ١١٣٠م)^(٣) وأبو محمد بن عطية (ت ٥٤١هـ / ١١٤٧م)^(٤) . ذاك أن حاكم المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠هـ / ١١٠٦م - ٥٣٧هـ / ١١٤٢م) جاز بنفسه إلى الأندلس*** " برسم الجهاد ، ونصر الملة ، وإعزاز

☆ طَلَبِيْرَة Talavera تقع على نهر التاجه إلى الغرب من مدينة طليطلة ، بينهما مسافة تقدر بسبعين ميلاً (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٨٧) وهي الآن بلدة صغيرة في إسبانيا (أرسلان : الحلل السندسية، ج ١ ، ص ١٠١ حاشية) وقد دخلت في سلطان النصارى أيام احتلالهم طليطلة (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٨٧) .

(١) خليل إبراهيم السامرائي : علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالذول الإسلامية ، ط . دار الحرية ، بغداد ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٢١٦ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧٠ .

☆☆ أبو محمد بن سمجون هو عبد الله بن علي بن عبد الملك بن سمجون اللواتي ، عينه يوسف بن تاشفين على قضاء الجزيرة الخضراء ، وفي سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م نقله إلى قضاء غرناطة ، وظل قاضياً بها حتى سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م . وكانت وفاته عام ٥٢٤هـ / ١١٣٠م (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٩١٥ - ٩١٦) .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٩١٦ .

(٤) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ١٣٧ .

☆☆☆ اتفقت المصادر أن غزوة طلبيرة كانت في سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ، لكنه لا يظهر اتفاق بينها في تحديد وقت عبور علي بن يوسف إلى الأندلس ، فعدد منها تضع عبوره في سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م دون تحديد بشهر معين (ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ، ص ٥٢ ؛ ابن أبي ديتار : المونس ، ص ١٣٢ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٤) بينما يحدد ابن أبي زرع عبوره من سبته في ١٥ محرم منها (الأنيس المطرب ، ص ١٦١) أما إذا أخذنا برواية ابن القطان القائلة بوصول الجيش المرابطي إلى طلبيرة نفسها في ١٣ محرم من السنة المذكورة (نظم الجمان ، ص ٦٩) فمعنى ذلك أن عبور علي بن يوسف لابد أن يكون في أواخر سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٩م لأنه مرَّ على مدن أندلسية وامضى -

الكلمة»^(١) فلما وصل إلى غرناطة تربص بها قليلاً من أجل أن تتلاحق به العساكر المغربية، وتتجمع الحشود والمطوعة، وتتأهب الجيوش الأندلسية^(٢)، ثم غادرها متوجهاً إلى قرطبة، فأقام فيها أياماً^(٣)، وقيل شهراً^(٤). ثم تحرك صوب مدينة طلبيرة من أرض قشتالة^(٥). والاحتمال كبير جداً أن أبا محمد ابن سمجون - المار ذكره آنفاً - قد انضم إلى القوات المرابطية عندما تحركت من غرناطة، لأنه كان إذ ذاك قاضيها من قبل المرابطين^(٦). وكذلك يمكن أن يكون أبو محمد بن عطية قد فعل الشيء نفسه، وخرج من بلده غرناطة^(٧) مع تلك القوات، حيث كان حينها في الثانية والعشرين من عمره^(٨)، فكان في مرحلة الطلب، ولذلك استغل خروجه إلى الجهاد في الاستزادة من العلم، قال مخبراً عن استفادته من أحد العلماء "لقيته في جيان في نهوضي إلى غزوة طلبيرة سنة ثلاث وخمسمائة"^(٩). وغالب الظن أن أبا عبد الله بن حمدين التحق -أيضاً- بقوات المرابطين عند نهوضها من قرطبة، لأنه كان في ذلك

- بها وقتاً يربو عن الشهر (ابن عذارى: البيان، ج٤، ص ٥٢؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٦١) وانظر ميراندا: علي بن يوسف وأعماله في الأندلس، مجلة تطوان، عدد ٣-٤، عام

١٩٥٨م - ١٩٥٩م، ص ١٥٧ - ١٥٨).

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص ٨٥.

(٢) ابن عذارى: البيان، ج٤، ص ٥٢.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٦١.

(٥) ابن عذارى: البيان، ج٤، ص ٥٢.

(٦) ابن الأبار: التكملة، ج٢، ص ٩١٦.

(٧) ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص ٣٨٦.

(٨) ذاك أن ولادته كانت عام ٤٨١هـ / ١٠٨٨م (انظر: الفصل الأول من هذا الكتاب).

(٩) ابن عطية: فهرس ابن عطية، ص ١٣٧.

الوقت يتربع على كرسي قضاء الجماعة بها ^(١) . وقد لا نتجاوز الحقيقة في شيء إذ قلنا أن خروج هؤلاء مع الجيش المرابطي النافر للقتال في قشتالة إنما يمثل نموذجاً للعديد من العلماء وطلبة العلم الذين لا بد أنهم صاحبوا هذا الجيش ، فالمؤرخون أشاروا إلى مبادرة المطوعة في الالتحاق به ^(٢) . ولا جرم أن العلماء ومن على شاكلتهم يأتون على رأس المطوعة ، وبخاصة إذا كان الجيش يرفع راية الجهاد في سبيل الله .

وبنزول جيش المرابطين على طلبيرة سارع في مهاجمتها ، ثم شرع رجال الجيش في الإحاطة بها من كل جانب، ولكنه عُسِرَ عليهم الاقتراب من سورها بسبب جريان ماء النهر* من حوله ^(٣)، ذلك أنه قد بُنِيَ - فيما يظهر - سد في النهر لحجز مائه حتى يمر بجوار السور . ولذا فبمجرد أن ثلُم هذا السد انحسر الماء عند السور فبلغ المسلمون باب المدينة ، وتداعوا القتال ^(٤) ، وهنا يبرز قاضي الجماعة أبو عبد الله بن حمدين في حفز المقاتلين على الجهاد، وإثارة الحماس في نفوسهم يقول ابن القطان ^(٥) " وكان ابن حمدين يُحرض الناس على الجد والاجتهاد " .

ولقد تمكن المسلمون من دخول المدينة عَنوة ^(٦) عقب مقتل جرت

(١) عياض : الغنية ، ص ١١٦ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٦٩ ؛ ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ، ص ٥٢ .

* هو نهر تاجه (الإدريسي ، صفة المغرب ، ص ١٨٧) .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٦٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٩-٧٠ .

(٥) نظم الجمان ، ص ٧٠ .

(٦) ابن الخطيب: أعمال الأعمال ، ق ٢ ، ص ٢٤٧ ، ق ٣ ، ص ٢٥٤ ؛ مجهول: الحلل الموشية ص ٨٥ .

لنصارى على أيديهم ، أما من أفلت من القتل فقد تحصنوا في القسبة ، فلما جن عليهم الليل تسللوا منها فارين ^(١) . وبهذا استنقذ المرابطون طلبيرة من نصارى قشتالة ، ثم عرجوا على بعض الحصون وفتحوها ^(٢) . وبعدها توجهوا إلى طليطلة* وحاصروها أياماً ^(٣) ثم قفلوا راجعين إلى قرطبة ^(٤) ، ومنها إلى العدو المغربية ^(٥) . وبالنسبة لأبي عبد الله بن حمدين فقد رجع بعد هذه الغزوة إلى قرطبة ، وبقي قاضياً للجماعة بها ، قائماً بواجبه في التدريس وبث العلم حتى وفاته ^(٦) . وكذلك أبو محمد بن سمجون فقد عاد هو الآخر إلى غرناطة ليمارس عمله في القضاء ^(٧) . أما أبو محمد بن عطية فقد رجع ليكمل مشوار تحصيله العلمي على أيدي علماء الأندلس وغيرهم ** .



ولقد زودنا ابن صاحب الصلاة ^(٨) بأسماء عدد من العلماء الأندلسيين

(١) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

☆ روى ابن أبي زرع أن علي بن يوسف في حملته تلك فتح سبعة وعشرين حصناً من أحواز طليطلة ، وفتح مجريط (مدريد) ووادي الحجار (الأنيس المطرب ، ص ١٦١) ويرى ميراندا أن هذه الرواية لا يمكن قبولها ، فابن أبي زرع - على حد رأيه - خلط بين الحقائق والأكاذيب ، وبالع في الأحداث . (علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، ص ١٥٩) .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ، ص ٥٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥١ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦١ .

(٥) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١١٧ .

(٦) عياض : الغنية ، ص ١١٦ .

(٧) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٩١٦ .

☆☆ انظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٨) المن بالإمامة ، ص ٤٠٥ .

الذين رافقوا الحاكم الموحدى أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨هـ / ١١٦٣م - ٥٨٠هـ / ١١٨٤م) في حملته الجهادية إلى وبْذَة من المملكة القشتالية في أواخر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م. فلقد نهض أبو يعقوب بجيشه من مراكش^(١) وعبر المضيق في مستهل رمضان من عام ٥٦٦هـ / ١١٧١م^(٢)، وفي شوال من العام التالي خرج بمجموع وافرة من إشبيلية قاصداً الجهاد في قشتالة، وفي طريقه لبث أياماً في قرطبة^(٣). ثم تابع سيرة ماراً بعدة حصون حتى حل بساحة مدينة وبْذَة^(٤) التي كان قادة شرقي الأندلس قد أشاروا عليه بغزوها^(٥)، ولقد وصل بمعيته مجموعة العلماء وطلبة العلم كان منهم أربعة من الأندلسيين هم: أبو محمد المالقي^{*} (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٨م) وكان قد قَدِمَ من المغرب مع الجيش الموحدى يوم عبوره إلى الأندلس، حيث كان أوانها يشغل منصب شيخ طلبة الحضرة بمراكش^(٦). وأبو بكر بن الجلد (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) الذي يظهر أنه قد عبر هو الآخر من المغرب أيضاً، إذ كان قبل هذه الغزوة يسكن مراكش^(٧).

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٣٤٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٠٠ - ٤٠٢؛ ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ١٢٣.

(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٣٨١.

^{*} أبو محمد المالقي: هو عبد الله بن محمد بن عيسى الأنصارى، أصله من مالقة، وقد درس في صغره على علماء الأندلس، وكان فقيهاً خطيباً ذا حظ وافر من الأدب، رأس طلبة الحضرة بمراكش. وتوفي سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م، وقيل في السنة التي قبلها (ابن الأبار: التكملة، ج ٢، ص ٨٥٢؛

ابن عذارى: البيان، ق. الموحدين، ص ١٣٩ - ١٤٠).

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٣٥٢.

(٧) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ص ٦، ص ٣٢٥.

وأبو محمد بن الصفار* (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م) الذي يغلب على الظن أنه انضم إلى الجيش عند مروره بقرطبة ، حيث كان يومئذ يتولى القضاء فيها^(١). وأبو الوليد بن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) الذي يبدو أنه تحرك مع الجيش من إشبيلية ، إذ كان قاضيا في ذلك الحين**.

كانت طلائع الجيش الموحي قد اشتبكت مع القشتاليين الذين خرجوا من مدينتهم وبذة للدفاع عنها . وحالما تكاملت وحدات الجيش بوصول أبي يعقوب هاجم المسلمون المدينة ، واستولوا على أرباضها . وفي يومٍ تالٍ قُسم الجيش على جهات المدينة الأربع، وضربت للحاكم الموحي قبته الحمراء*** ، ثم استدعى الناس إليها للبيعة على الثبات في الجهاد ، والعزيمة على القتال ، والنصيحة للإسلام^(٢) . فكان العلماء الأندلسيون الذين سبقت أسماؤهم من أوائل من استدعوا إلى تلك القبة^(٣) . ولذلك فلا يستبعد أن يكون لهم أثر في استحثاث المقاتلين على مجابهة الأعداء ، والصدق في جهادهم .

* ابن الصفار : هو عبد الله بن مغيث بن يونس الأنصاري ، من أهل قرطبة ، ولد سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م ، وولى القضاء في بلده ثماني عشرة سنة . وتوفي في ربيع الأول سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٨٥٣ - ٨٥٤ ؛ التنبكي : نيل الابتهاج ، ص ٢١١) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٨٥٤ ، ٥٥٤ .

** انظر الفصل الأول من هذه الدراسة .

*** اعتاد الحكام الموحدون على نصب هذه القبة الحمراء في ميادين القتال (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدون ، ص ١٦٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٢٥ ، ٢٣٨) فكانت بمثابة غرفة لقيادة العمليات كما يعبر عنه في عصرنا الشاهد (السحياني : النظم الحربية في دولة الموحدين ، ص ٢٢٥) .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٤٠٢ - ٤٠٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٥ .

لم يقدر المسلمون على اقتحام المدينة رغم محاولاتهم المتكررة ^(١) ، وقد كان لدى الحاكم الموحدي أمل عريض في فتحها عنوة ، ولذا لم يلتفت إلى عرض أهلها عليه الأمان ^(٢) . ثم جدت ظروف على المسلمين تجسدت برياح وأمطار ، وشح في المؤن ، وانعدام في الأقوات ، فتبطلت الهمم ، وخارت العزائم ، فراح بعض الخطباء يخطبون بالجيش لحمله على مواصلة الحصار ، ومعاودة القتال ، ولكن لم تظهر لهذه ثمرة ^(٣) الأمر الذي حمل أبا يعقوب على قبول ما كان القشتاليون قد عرضوه من التسليم قبل أيام . ونظراً لكون قائد المدينة نماً إلى علمه تحرك سيده ملك قشتالة أذفونش (الفونسو الثامن) [☆] لنجدته؛ فضلاً عما شاهده بعينه من اختلال مريع في جيش الموحدين فقد أبى الاستجابة لرغبة الحاكم الموحدي ^(٤) ، فما كان من هذا الأخير إلا أن أعلن الرحيل ^(٥) ، فمر ببعض الحصون والمدن الإسلامية لتفقدوها ^(٦) ، وانتهى

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٤٠٦ - ٤٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٤٠٩ - ٤١١ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٢٣ .

☆ الفونسو الثامن (النبيل) Alfonso VII ورث حكم قشتالة وهو طفل صغير بعد وفاة والده شانجة ابن السليطين (الفونسو السابع) عام ١١٥٣ هـ / ١١٥٨ م ، واستمر في الحكم حتى وفاته عام ١٢١٤ هـ / ١٢١٤ م (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٢٥٧ ، ٣٨٦ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ٢ ، ص ٥٨٣ ، ٥٩٢ ، ١٠٢-١٠٤ . P . cit . Jose Terrero) ويأتي رسم اسمه في المصادر الإسلامية بـ " أذفونش " (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٥٣) وأحياناً يُرسم بـ " الفنش " (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١١٣) .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٤١١ - ٤١٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤١٣ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٢٣ .

(٦) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٤١٤ - ٤٢٣ .

☆☆ حكى ابن صاحب الصلاة أبو مروان عبد الملك بن محمد الباجي أنه قد حضر دخول الحاكم الموحدي مدينة قونكة (المن بالإمامة ، ص ٤١٥) .

به المطاف في مرسية من شرقي الأندلس ، ثم عاد أدراجه إلى إشبيلية ، فاستقبله أهلها . وكان على رأس مستقبله أبو بكر بن الجند (١) الذي لابد أنه كان قد سبق الموكب الرسمي إلى إشبيلية ، لأنه - كما أبنا آنفاً - أحد العلماء الأندلسيين الذين شاركوا في غزوة وبذة .



ولقد جاء التصريح باشتراك علماء الأندلس في غزوة الأرك* عام ٥٩١هـ/١١٩٥م التي كان سببها المباشر قيام نصارى قشتالة باستئناف غاراتهم على المدن الأندلسية عقب انصرام الهدنة بينهم وبين الموحيدين (٢) والتي كانت قد وقعت في عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م (٣) ، فعبّر أبو يوسف يعقوب المنصور**

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٤٢٣ - ٤٢٦ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحيدين ، ص ١٢٤ .

☆ سبق التعريف بالمكان في التمهيد من هذه الرسالة ، ونلفت النظر أن بعض المؤرخين يسميها "الأركة" (الضي : بغية الملتمس ، ص ٤٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ١٩٨) أو الأراكة (المقري : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧٢) .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحيدين ، ص ٢١٧ ؛ الغرناطي : رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة ، ط . مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٤٤هـ ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١١٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٤ .

☆☆ ذكر بعضهم أن ملك قشتالة الفونسو الثامن وصل بغاراته إلى الجزيرة الخضراء على ساحل الأندلس الجنوبي ، ثم كتب كتاباً إلى الحاكم الموحيدي المنصور يتهدده فيه ، ويستدعيه للقتال (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١١٣-١١٤ ؛ الحلبي : حسن التوصل إلى صناعة الترس ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، ط . دار الحرية ، بغداد ، ١٩٨٠م ، ص ٨٦ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٢٠-٢٢١) ويترتب في صحة نسبة هذا الكتاب إلى الفونسو الثامن ، لأن الكتاب ذاته بألفاظه روى أن الفونسو السادس كتبه إلى زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين (مجهول : الحلل المشوية ، ص ٤٢-٤٣) وقد نبه إلى ذلك ابن خلكان بعد أن وجد هذه المكاتبة بين الفونسو السادس ويوسف بن تاشفين -

(٥٨٠هـ/١١٨٤م - ٥٩٥هـ/١١٩٩م) إلى الأندلس في العشرين من جمادي الآخرة ، فنزل في إشبيلية ^(١) وقد كان يصاحبه في جيشه العلماء ^(٢) ، فكان في زمرتهم أحد العلماء الأندلسيين الذين استدعوا قبلاً للسكنى في مراکش وهو نجبة الرعيني* . غير أنه لم يكتب له حضور هذه الغزوة مع المنصور ، إذ وافاه أجله عند محاذاة الجيش الموحدى لجزيرة قبطيل** ، أي قبل أن يصل إلى إشبيلية بمسافة يسيرة*** ، وذلك في السابع والعشرين من جمادي الآخرة سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م ^(٣) . يقول ابن صاحب الصلاة ^(٤) عنه بعد أن

- في كتاب " تذكير العاقل " لأبي الحجاج البياسي الذي نقلها من خط ابن الصيرفي ، ثم عقب ابن خلكان بقوله " فإن كان كذلك فما يمكن أن تكون هذه الرسالة إلى يعقوب بن يوسف لأن ابن الصيرفي متقدم التاريخ على زمان يعقوب بكثير " (وفیات الأعيان ، ج٧ ، ص ٧) وثمة أمر آخر يُلاحظ على الكتاب وهو أن ما جاء فيه وصفاً لأحوال الأندلس نراه ينطبق على نهاية عصر الطوائف ، أي في الوقت الذي قيل أن الفونسو السادس راسل يوسف بن تاشفين ، فجاء فيه ما نصه " وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل ، وإهمال الرعية ، وإخلادهم إلى الراحة ، وأنا أسومهم بحكم القهر وحلاء الديار ، وأسبي الذراري ، وأمثل بالرجال " (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٢٠) .

(١) ابن عذاري: البيان، ق. الموحدين، ص ٢١٧-٢١٨؛ الغرناطي: رفع الحجب المستورة، ج٢، ص ١٥٤.

(٢) التادلي: التشوف، ص ٣٥٩؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٢٢.

☆ نجبة الرعيني: هو أبو الحسن نجبة بن يحيى بن خلف الرعيني، من أهل أشبيلية، كان عالماً بالقراءات والعربية، له عناية بالحديث، وقد استدعاه الحكام الموحدون للاستيطان عندهم في مراکش. توفي في جمادي الآخرة سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م (ابن الأبار: التكملة، ج٢، ص ٧٥٨ - ٧٥٩).

☆☆ جزيرة قبُطيل أو قبُطال إحدى جزر إشبيلية القرية منها (الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني، ص ٧٨) فهي في نهر الوادي الكبير إلى الجنوب من إشبيلية، بينها وبين البحر (الإدريسي: صفة المغرب، ص ١٧٧، ١٩٦).

☆☆ لأن هذه الجزيرة تقع على الجنوب من إشبيلية كما جاء في الحاشية السابقة.

(٣) ابن الأبار: التكملة، ج٢، ص ٧٥٩.

(٤) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

ذكر اليوم الذي توفي فيه " وكانت وفاته بالموضع المعروف بعطف جزيرة قبطيل ، وهو واصل صحبة المنصور - مقدمة لغزو الروم " .

لم يطل مكوث المنصور في إشبيلية ، فريثما استتم استعداداته العسكرية من حيث العدة والعتاد والمقاتلين ^(١) ، خرج منها بجيشه في الحادي عشر من رجب لجهاد نصارى قشتالة ، فكان من ضمن النافرين معه للجهاد خطيب إشبيلية أبو علي بن حجاج * (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠١م) . وقد جاز الجيش الموحدى بكورة قرطبة ، وما زال يسير حتى حل قريباً من المكان الذي تجمع فيه جند قشتالة ومن ناصرهم من بني ملتهم ^(٢) ؛ إذ كان ملك قشتالة أذفونش (الفونسو الثامن) قد استنفر النصارى * للقتال منذ سماعه بعبور الموحدين ^(٣) ونزل عند حصن الأرك ^(٤) الذي كان آنذاك على الحدود بين الأراضى الإسلامية والأراضى القشتالية ^(٥) .

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٢٥٨ .

* أبو علي بن حجاج هو الحسن بن حجاج بن يوسف الهواري ، يرجع في نسبه إلى قبيلة نجيب العريية ، أصله من المغرب ، ثم دخل الأندلس مراراً ، وولى الخطبة في إشبيلية بعد أبي الحسن المالقي ، وذلك في سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م . وقد توفي في عام ٥٩٨هـ / ١٢٠١م (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٧١) .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

* كان الفونسو الثامن قد طلب العون من ملكي ليون ونافار فاستجابا لطلبه بشاغل (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٣٣٥) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١١٤ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٨ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٢٣ .

(٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٢٠٠ ؛ فاضل السباعي : يوم الأرك ، مجلة المناهل ،

السنة ٧ ، عدد ١٧ ، جمادى الأولى ١٤٠٠هـ ، ص ٢٠٠ .

أمضى المنصور أياماً يتداول وجهات النظر مع رجال جيشه حول لقاء العدو ، ويستشيرهم في أمثل الطرق وأقومها لقتاله ، فاستقر الرأي على تقديم الجيوش الأندلسية يوم المواجهة مع النصارى ، فأهل الأندلس هم "المجاورون لهم ، المدربون على قتالهم ، العارفون بخدعهم وأحوالهم" ^(١) .

ولما عزم المسلمون على مناصرة العدو ، زحفوا نحوه حتى إذا ما تكاملت جموعهم ^(٢) " قام الخطباء ، فخطبوا في الحضر على الجهاد ، فأبلغوا وأحسنوا " على حد تعبير الغرناطي ^(٣) . وهنا يبرز جهد خطيب إشبيلية أبي علي بن حجاج في وسط المعمة ، إذ هبَّ يحرض الناس على القتال ، ويذكرهم بفضل الجهاد في سبيل الله ، ومثوبته عند الله ، يقول ابن عذارى ^(٤) في وصفه للقاء مع العدو " وقام أبو علي ... بن حجاج ، وخطب خطبة بليغة في التحريض على الجهاد وفضله ، والتنبيه على مكانه وقدره ، ومد القول في ذلك ما وسعه من بيانه " ؛ فكانت ثمرة ذلك بأن " انفصل الناس ، وقد استنارت بصائرهم " ^(٥) " وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم ، وقويت أنفسهم واعتزامهم ، وتضاعفت نجاتهم وإقدامهم " ^(٦) . وفي ضحوة التاسع من شعبان سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م تراءى الجمعان واستعدا للجلاد ^(٧) ، فلم

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٢٣ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحد ، ص ٢١٩ ؛ الغرناطي : رفع الحجب المستورة ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

(٣) رفع الحجب المستورة ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

(٤) البيان ، ق . الموحد ، ص ٢١٩ .

(٥) الغرناطي : رفع الحجب المستورة ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

(٦) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحد ، ص ٢١٩ .

(٧) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٢٦ .

يبقى أمام المنصور في تلك الساعة الحاسمة إلا التوجه إلى الله بأن ينصره على أعدائه ، فطلب أن يدعو بذلك " كل من يُظن عنده خيراً من الصالحين " (١) ، وبمقتضى الحال سيكون في عداد هؤلاء الصالحين طائفة من العلماء وطلبة العلم سواء من الأندلسيين أو من غيرهم .

التحم الجمعان في معركة عنيفة استمرت بضع ساعات* ، فكانت عاقبتها انهزام النصارى ، ومقتل جم كبير منهم (٢) ، وفرار ملكهم أذفونش (الفونسو الثامن)* لايلوى على شيء في ثلة من جنده*** تحت جناح الظلام إلى حاضرتة طليطلة . أما الجيش الإسلامي فقد فقد جماعة من أفرادہ**** ، ثم دخل حصن الأرك ظافراً بعد مقاومة من حماته (٣) ***** . وحين العودة

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٩ .

* هناك رواية تقول إن القتال استمر من الضحى حتى الزوال (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدین ، ص ٢٢٠ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٣) وثمة رواية أخرى يفهم منها أن القتال استمر حتى الليل (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨) .

(٢) الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤٥ - ٤٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١١٤ - ١١٥ ؛ ابن الخطيب : شرح رقم الحلل ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ ؛ ابن أبي دينار : المونس ، ص ١٤٣ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٥٩ .

* تظهر بعض الروايات النصرانية إصراره على المغامرة بنفسه في المعركة رغبة في الانتقام لمقتل جنده ، إلى درجة أن قومه لم يستطيعوا إخراجه من الميدان إلا بالقوة (ليلى النجار : المغرب والأندلس في عهد المنصور ، ص ١٩٠) .

* قيل أن الفونسو الثامن لم يكن معه عند هروبه إلى طليطلة سوى عشرين رجلاً (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدین ، ص ٢٢٠) وقيل ثلاثين رجلاً (المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٩) .

* كان أبو محمد عبد الواحد بن تومرت الهسكوري الأسود أحد علماء المغرب ضمن المقتولين في غزوة الأرك (التادلي : التشوف ، ص ٣٥٩) .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدین ، ص ٢٢٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ؛ الغرناطي : رفع الحجب المستورة ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٣ .

* للوقوف على نتائج موقعة الأرك انظر مثلاً شوقي أبو خليل : الأرك ، ط . دار الفكر ، -

إلى إشبيلية ^(١) كان من ضمن العائدين - فيما يظهر - أبو علي بن حجاج السالف الذكر ، إذ عاش بعد ذلك فنراه في قرطبة عام ٥٩٣هـ / ١١٩٧م ^(٢) ثم نرح إلى المغرب ، فكانت وفاته في فاس عام ٥٩٨هـ / ١٢٠١م ^(٣) .



وفي الحركة الجهادية التي قام بها محمد الناصر الموحيدي (٥٩٥هـ / ١١٩٩م - ٦١٠هـ / ١٢١٤م) ضد نصارى قشتالة وحلفائهم والتي بدأت بعبوره إلى الأندلس في ذي القعدة سنة ٦٠٧هـ / ١٢١١م ^(٤) ، وانتهت بوقعة العقاب في صفر سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م ^(٥) تهيأ لنا معرفة جماعة من العلماء الذين شاركوا فيها أو في بعض مراحلها . وكانت هذه الحركة من جانب الناصر قد نشأت على إثر الأنباء التي بلغته من الأندلس أن أذفونش (الفونسو الثامن) ملك قشتالة عاود غاراته عليها ^(٦) قبل انقضاء أجل الهدنة* المعقودة بين الطرفين ^(٧) .

- دمشق ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٦٢ - ٦٧ ؛ محمد زغروت : معركة الأرك الموحيدي ، ط . دار المعراج للنشر والتوزيع ، ص ٤٩ - ٥٥ .

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٩ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحيدين ، ص ٢٢٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٦ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص ٣٩٨ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٧٠ ؛ مجهول : الحلل المشوية ، ص ١٦١ .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

* كان حاكم قشتالة قد هادن الموحيدين بعد وقعة الأرك بستتين . انظر (التمهيد من هذا الكتاب) .

(٧) يفهم ذلك من رسالة للناصر كتبت في ربيع الآخر سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحيدين ، ص ٢٦١) .

استنفر الناصر قبيل جوازه إلى الأندلس أهل المغرب للجهاد " فأجابه خلق كثير " ^(١) كما أنفذ - أيضاً - " المخاطبات إلى الأندلس بتحريض المسلمين على الجهاد ، والتفرغ لما يجب من التأهب والاستعداد ، فامتثل ولاة الأندلس ما أمروا به " على حد قول ابن عذارى ^(٢) . وحين نزل في إشبيلية في ١٧ من شهر ذي الحجة عام ٦٠٧هـ / ١٢١١م ^(٣) مكث بها بقية ذلك العام ^(٤) وأوائل العام التالي عام ٦٠٨هـ / ١٢١١م وفي غرة صفر خرج منها بجيش لجب وقصد قلعة شَلْبُطْرَة ^(٥) التي كان يرباط فيها جماعة من الفرسان النصارى ^(٦) الذين شاركوا ملك قشتالة بالعدوان على المسلمين ^(٦) . فلما وصل الناصر إلى تلك القلعة أحاط بها من كل جانب ، فما برح يشدد

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٣٤ .

(٢) البيان ، ق . الموحدین ، ص ٢٥٩ .

(٣) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٣٤ .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص ٣٩٨ .

☆ شَلْبُطْرَة Salvatierra ترسم تارة شلبطة (المراكشي : المعجب ، ص ٣٩٩) وتارة أخرى شربطرة

(ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ، ص ٤٧) وهي من توابع قلعة رباح (الحميري : صفة جزيرة

الأندلس ، ص ١٠٨) تقع إلى الجنوب الغربي منها (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ،

ص ٢٨٧) .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٣٦ .

☆ هذه الجماعة من الفرسان كانت أولاً ترابط في قلعة رباح ، ولما استولى الموحدون عليها

عقب موقعة الأرك لجأت إلى قلعة شلبطرة (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٢١٤

Antonio Ubieto : Introduccion a la Historia de Espana , Barcelona , p . ١٩٤)

(٦) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٢٨٤ ؛ أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٣٥٦ ؛

شوقي أبو خليل : العقاب ، ط . دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٢٢ ؛

Antonio Ubieto : op . cit . , P . ١٩٤ .

عليها الحصار حتى فتحها ^(١) في ربيع الآخر سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م* فدخلها وحول كنيسة مسجداً ^(٢) . ولقد روى ابن عبد الملك المراكشي ^(٣) أن أحد علماء إشبيلية وهو أبو بكر الكنانى** قد " استشهد ... والمسلمون على شربطرة [كذا] سنة ثمان وستمائة " وشربطرة المذكورة في النص ما هي إلا قلعة شلبطرة التي نتحدث عنها ، ولكنها جاءت برسم مغاير قليلاً كما في بعض المصادر ^(٤) . قال ابن أبي زرع ^(٥) في حوادث سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م " وفيها كانت غزوة شربطرة وفتحها " . ويتنخل من هذا أن أبا بكر الكنانى كان أحد الذين قتلوا في هذه الغزاة ، فهو قد خرج - فيما يبدو - مع الجيش الموحدى من إشبيلية بلده ، ثم ظل مرابطاً مع المسلمين في حصارهم لشلبطرة حتى لقي حتفه مجاهداً للنصارى .

وكان أذفونش (الفونسو الثامن) في تلك الأثناء قد استصرخ

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٩٩ .

✠ يذكر أن أبي زرع أن قلعة شلبطرة لم يفتحها المسلمون إلا آخر ذي الحجة سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١٢ م (الأنيس المطرب ، ص ٢٣٨) لكن التاريخ الذي اعتمدناه في المتن جاء مثبتاً في رسالة كتبها الناصر بشأن فتح شلبطرة (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٦٠) وللعلم فإن أبا عبد الله البياسى الموحدى سلم هذه القلعة غنيمة باردة للنصارى عام ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٧٤) .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٦٠ - ٢٦٢ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٣٣ .

✠✠ أبو بكر الكنانى هو محمد بن أحمد بن محمد الكنانى ، من أهل إشبيلية ، رحل إلى المشرق حاجاً ، وكان محدثاً راوية . وقد توفي في سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م تحت أسوار شلبطرة (ابن عبد الملك

المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٣٣ ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٨) .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص ٣٩٩ ، حاشية " ١ " .

(٥) الذخيرة السنية ، ص ٤٧ .

النصارى لحرب المسلمين[☆] ، واستعان بالبابا^{☆☆} في ذلك ، فكان لهذا الأخير أثر فاعل في انثيال جحافل نصرانية عظيمة من داخل إسبانيا وخارجها على الحاكم القشتالي في طليطلة^(١) ، إذ " جاءه عباد الصليب من كل فج عميق ، ومكان سحيق " ^(٢) فسار بهم إلى بعض الحصون الإسلامية فاحتلها ، ثم انتهى بهم إلى المنطقة التي يقبع بها حصن العقاب إلى الشمال من جيان . أما الناصر الموحي فقد طفق منذ رجوعه من فتح شلبطرة إلى إشبيلية يستعد للمواجهة مع النصارى ، حيث " استنفر الناس من أقاصي البلاد ، فاجتمعت له جموع كثيفة " حسبما يقول المراكشي^(٣) . وفي العشرين من محرم سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م^(٤) انطلق بهم ونزل جيان ، ثم واصل سيره شمالاً حتى

☆ المصادر العربية تؤكد أن استصراخ الفونسو الثامن للنصارى حدث عقب سقوط شلبطرة بأيدي المسلمين عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م (المراكشي : المعجب ، ص ٣٣٩ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحيدين ، ص ٢٦٣ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٣٧ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٠٩) وللوقوف على ذلك بالتحديد . انظر (عنان : عصر المرابطين والموحيدين ، ق ٢ ، ص ٢٨٨-٢٨٩) بينما يفهم من الروايات النصرانية أن اتصالات الفونسو الثامن بالنصارى داخل الجزيرة الإسبانية وخارجها لحرب المسلمين كان قبل ذلك (Watt : op.cit, p : ٩٢-٩٣) لمعرفة تاريخ هذه الاتصالات انظر : هشام أبو رميلة : علاقات الموحيدين بالممالك النصرانية ، ص ٢٧٦) .

☆☆ البابا هو أنوسنت الثالث Innocent III اعتلى الكرسي البابوي عام ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م حتى عام ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م ، وقد احتلت البابوية في أيامه مركزاً سامياً في أوروبا (سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ط . السابعة ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ج ١ ، ص ٣٧٩ ، ٤٩٤-٤٩٥ ، ٥٣٧ ، ج ٢ ، ص ٢١٨-٢١٩) وقد وصف بأنه من أقدر البابوات وأنشطهم (Joseph Mccube : op . cit , P. ١٥٢) .

(١) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٣٥٧-٣٥٩ ؛ ١٩٥-١٩٤ . Antonio Ubieto : op . cit . , P .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحيدين ، ص ٢٦٣ .

(٣) المعجب ، ص ٤٠١ .

(٤) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٣٧ .

حل بالقرب من المعسكر النصراني^(١) .

ولدينا مجموعة من العلماء استبان لنا على ضوء وفياتهم أنهم قد نفروا للجهاد في هذه الغزوة ، وقد كانوا من مدن أندلسية مختلفة . فمن مدينة جيان خرج قاضيها أبو إبراهيم المجابري^(٢) . ويبدو أنه التحق بالجيش الموحدى عند حلوله في هاته المدينة متجهاً صوب العقاب . كذلك خف للجهاد مع المسلمين في هذه الغزوة أبو عمر بن عات النفزي من مدينة شاطبة^{☆☆} في شرقي الأندلس^(٣) ومحمد بن إبراهيم المديني^{☆☆☆} من مدينة بطليوس في غربي الأندلس^(٤) ومحمد بن حسن الأنصاري من مدينة مالقة في جنوبي الأندلس^(٥) ، وأبو محمد عبد الواحد بن سليمان الهمداني^{☆☆☆☆} ومُطَرِّف بن

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٤٠١ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق. الموحدين ، ص ٢٦٤ .

☆ أبو إبراهيم المجابري هو إسحاق بن إبراهيم بن يعمر المجابري ، كان فقيهاً حافظاً للرأي ، تولى القضاء في عدد من المدن الأندلسية والمغربية ، كان آخرها جيان ، فُقِدَ في العقاب (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١٩٤) .

(٢) ابن الأبار التكملة ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

☆☆ شاطبة Jativa من أعمال كورة بلنسية (ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ١٦) تقع إلى الجنوب من بلنسية المدينة (الزهري : الجغرافية ، ص ١٠٣) بينهما مسافة اثنين وثلاثين ميلاً (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩٢) وهي اليوم بلدة إسبانية صغيرة (شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ٣ ، ص ٢٥٣ ؛ عنان : الآثار الأندلسية ، ص ١٣٩) .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١٠١-١٠٢ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٠١-٦٠٢ .
☆☆☆☆ محمد بن إبراهيم المديني يكنى بأبي بكر وبأبي عبد الله ، من أهل بطليوس . كان مقرئاً مجوداً خطيباً ، وكانت وفاته في العقاب (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ١٠٩) .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ١٠٩ .

(٥) ابن الأبار التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٨٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ١٦٨ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٧٤ .

☆☆☆☆ هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الواحد بن عيسى الهمداني الإلبيري ، من أهل غرناطة -

مطرف* وكلاهما من مدينة غرناطة في جنوبي الأندلس أيضاً^(١). وأبو عبدالله الحضرمي* من بلدة إليسانة*** التابعة لقرطبة^(٢). كما عبر من المغرب عدد من العلماء^(٣) للمشاركة في هذه الغزوة^(٤)، فكان فيهم من الأندلسيين أحد أطباء الناصر وهو أبو مروان بن خلف الهمداني***^(٥).

- كانت له عناية بالحديث والفقه واللغة والنحو والأدب، وكان كاتباً شاعراً. وقد انتهت حياته بالعقاب (ابن الزبير: صلة الصلة، ص ٢٥ - ٢٦).

* هو أبو الحسن مطرف بن مطرف الغرناطي، من أهل غرناطة، أحد الأدباء الشعراء في عصر الموحدين، وقد قتل في العقاب (صفوان بن إدريس: زاد المسافر وغرة موحيا الأدب السافر، تحقيق عبد القادر محداد، ط. دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١٤٨ - ١٤٩؛ ابن سعيد: رايات المبرزين، ص ١٥٨؛ المغرب، ج ٢، ص ١٢٠ - ١٢١؛ البليقي: المقتضب من تحفة القادم، ص ١٥١ - ١٥٢). وانظر: ابن الأبار: تحفة القادم، أعاد بناءه إحسان عباس، ط. الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ١٤٣ - ١٤٥).

(١) ابن الزبير: صلة الصلة، ص ٢٥ - ٢٦؛ ابن سعيد: المغرب، ج ٢، ص ١٢٠.

** هو محمد بن إبراهيم الحضرمي، من أهل إليسانة، ولي الصلاة والخطبة والقضاء فيها، وقد ألف مؤلفاً أسماه "الدرة الوسطى في السلك المنظوم في رجال الموطأ" ولقد لقي حتفه في العقاب (ابن الأبار: التكملة، ج ٢، ص ٩٨٦).

*** إليسانة Lucena تقع إلى الجنوب الغربي من قرطبة على بعد أربعين ميلاً (الإدريسي: أنس المهج وروض الفرج، ورقة ١٤٩؛ صفة المغرب، ص ٢٠٥) وكانت تسمى مدينة اليهود، لأن اليهود كانوا سكانها لا يداخلهم في جوفها مسلم (الإدريسي: صفة المغرب، ص ٢٠٥).

(٢) ابن الأبار: التكملة، ج ٢، ص ٥٨٦.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، س ٨، ق ١، ص ٣٠٨.

(٤) انظر على سبيل المثال: التبادلي: التشوف، ص ٤١٥؛ ابن الأبار: التكملة، ج ١، ص ٢٠٢، ٢٣٥، ج ٢، ص ٦٨٤؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج ٣، ص ١٢٨؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، س ٨، ق ١، ص ٢٩٨.

*** هو عبيد الله بن محمد بن عمر بن خلف الهمداني، يعرف بابن قبلان، من أهل غرناطة، وقد انتقل إلى مالقة، كان طبيباً ماهراً، استدعاه الحكام الموحدون إلى مراكش، وبقي بها حتى عبر مع الجيش الموحدى إلى الأندلس، فقتل في العقاب (ابن الزبير: صلة الصلة، ق ٣، ص ١٦٣؛ ابن الخطيب: الإحاطة "نصوص جديدة"، ص ١٠٣).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة "نصوص جديدة" ص ١٠٣.

وفي منتصف صفر من سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م^(١) اشتبك الجيش الموحيدي بنده النصراني في قتال رهيب أسفر عن نكسة مفاجئة للمسلمين^(٢)، فقتل منهم أعداد هائلة^(٣) ، فيهم " طائفة كثيرة - يطول تعدادهم - من العلماء الفضلاء " حسب تعبيرة النباهي^(٤)، فكان على رأس المقتولين من هؤلاء العلماء أولئك النفر السالفة أسماؤهم قبل قليل ؛ حيث وردت في المصادر عبارات تؤكد أن كل واحد منهم قد انتهت حياته في هذه الموقعة^(٥). ولقد أظهر بعضهم من ضروب الشجاعة، وألوان البسالة ، والتحريض على الجهاد، وصدق النية ، في طلب الاستشهاد ما حدا بالناس إلى تناقله ، ومن ثم تدوينه، فقد ذكر ابن عميرة^(٦) عن شيخه ابن عات النفزي أنه " حضر

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٤٠٢ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٨٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ١٦٨ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحيدين ، ص ٢٦٣ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٧٠ ؛ شرح رقم الحلل ، ص ٢٠٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٣٦ .

(٣) المراكشي : المعجب ، ص ٤٠١ ؛ القرطبي : التذكرة ، ص ٧١٣ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٣٩-٢٤٠ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٣٨ ؛ ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٤٥ ؛ مجهول : الحلل المشوية ، ص ١٦١ .

✶ للوقوف - بتوسع - على أسباب هزيمة المسلمين في هذه الموقعة . انظر (شوقي أبو خليل : العقاب ، ص ٤٩-٥١ ؛ محمد قجة : معركة العقاب ، ط . الأولى ، دار الحوار ، اللاذقية ، ١٩٨٤ م ، ص ٦٤-٦٦ ؛ هشام أبو رميلة : علاقات الموحيدين بالممالك النصرانية ، ص ٢٩٤ - ٢٩٧) .

(٤) المرقبة العليا ، ص ١١٦ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، ١٩٤ ، ج ٢ ، ص ٥٨٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ١٠٩ ، ١٦٨ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٢٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة " نصوص جديدة " ص ١٠٣ .

(٦) رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ٧٠ .

وقعة العقاب... فلما رأى المسلمين ولوا الأذبار ، وأباحوا أكتافهم الكفار ، استقبل العدو بوجهه ، ومضى قُدماً حتى استشهد رحمه الله " . قال ابن الخطيب ^(١) عن محمد بن حسن الأنصاري " توفي شهيداً محرضاً صابراً " ، وقال ابن عبد الملك المراكشي ^(٢) في حقه " وذكر عنه من الثبوت ذلك اليوم ، وطلب الشهادة ، والحض على الجهاد ما دل على إخلاصه وصدق يقينه " ، أما النباهي ^(٣) فقد أشاد بموقفه في تلك المعركة بقوله " وذكر عنه من الثبات والحض على حصول الشهادة ، والرغبة في المجاهدة ما دل على حسن نيته ، وصدق بغيته " .

وعلى صعيد آخر فلقد اهتبل النصارى نصرهم على المسلمين في العقاب وهاجموا ما يليهم من مدن إسلامية ^(٤)، فكانت مدينة أُبْدَة* إحدى هذه المدن ^(٥) وقد قاوم أهلها الهجوم النصراني حتى قتل منهم جمع كبير، وأسر آخرون ^(٦)، فكان في هؤلاء المأسورين قاضي المدينة أبو الحسن بن قطرال**

(١) الإحاطة ، ج٣ ، ص ٧٥ . وانظر ابن فرحون : الدياج ، ج٢ ، ص ٢٨٤ .

(٢) الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ١٦٨ .

(٣) المرقبة العليا ، ص ١١٥ .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص ٤٠٢ .

* مدينة أُبْدَة Ubeda إحدى المدن التابعة لكورة جيان ، تعرف بأبْدَة العرب (ابن غالب : فرحة الأنفس ص ١٥ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٦٤) على مقربة من نهر الوادي الكبير ، تقع إلى الشرق من مدينة بياسة (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩٦ ، ٢٠٣) بينهما مسافة خمسة أميال (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١ ؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص ٤٦) وما زالت أبْدَة تضم بعض الآثار الإسلامية (عنان : الآثار الأندلسية ، ص ٢٣٠) .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٤٠ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١ .

(٦) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١ .

** أبو الحسن بن قطرال هو علي بن عبد الله بن محمد الأنصاري ولد عام ٥٦٢هـ / ١١٦٦م . كان -

(ت ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م) ^(١) فبقي في الأسر عند النصارى مدة إلى أن نجح أحد رجال الدولة الموحدية في إطلاقه ^(٢) ، فعاد كرة أخرى يزاول القضاء وما يتصل به إلى آخر يوم من عمره ^(٣) .

وهكذا انحصرت الغزات التي خبرتنا المصادر بأسماء العلماء الذين أسهموا فيها بالجهاد ضد نصارى قشتالة في ست غزوات ، ثنتين منها في زمن المرابطين ، وهما أقليمش وطلبيرة ، وأربع في زمن الموحدين وهي : وبذة والأرك وشلبطرة والعقاب .



٢ - مشاركتهم في الغزوات ضد إمارة برشلونة (قطالونيا) .

عرفنا سابقاً أن برشلونة (قطالونيا) تقع في الركن الشمالي الشرقي من الأندلس ، وأنها كانت تابعة للفرنجة في فرنسا، ثم انفصلت عنهم،

- محدثاً رواية ، فقيهاً حافظاً ، كاتباً بليغاً ، له عناية بالأدب ، تولى قضاء عدد من المدن الأندلسية والمغربية ، وتوفي في ربيع الأول أو جمادي الأولى سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م في مراکش (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٦٨٣ - ٦٨٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٨ ، ق ١ ، ص ١٥٤ - ١٥٩ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٤ ، ص ١٩٠ - ١٩١ ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص ١٨٣) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٦٨٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٨ ، ق ١ ، ص ١٥٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٤ ، ص ١٩١ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٦٨٣ - ٦٨٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٨ ، ق ١ ، ص ١٥٦ .

وصارت إمارة مستقلة ، ومنذ أوائل القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي - أخذت رقعة هذه الإمارة في الاتساع ، وكان أميرها حين خضعت الأندلس للمرابطين هو رامون برنجير الثالث (٤٨٥هـ/١٠٩٢م - ٥٢٥هـ/١١٣١) ^(١) .

ولقد أسهم علماء الأندلس في جهاد برشلونة ، من ذلك ما حدث عام ٥٠٨هـ/١١١٤م حينما حشد والى سرقسطة المرابطي محمد بن الحاج ^(٢) جيشاً كثيفاً ، وانطلق للجهاد في أراضيها ^(٣) ؛ إذ خف معه نفر من العلماء ، كان في جملتهم أبو جعفر بن ثابت العوفي [☆] من سرقسطة ^(٤) ، وأبو الوليد ابن قبروق ^{☆☆} من بلنسية ^(٥) .

توغل الجيش الإسلامي في عمق هذه الإمارة النصرانية ، وأحرز انتصارات رائعة ، فغنم المسلمون وسبوا حتى تجمع لديهم من ذلك قدر كبير. وعند الرجوع من تلك البلاد قسم ابن الحاج جيشه إلى قسمين ، القسم الأعظم ومعه المغنم تركه يسلك الطريق المعروف الموصل إلى أرض المسلمين .

(١) انظر التمهيد من هذا الكتاب .

(٢) سبق التعريف به .

(٣) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٠ ؛ وانظر الناصري : الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٥٨ .
^{☆☆} أبو جعفر أحمد بن ثابت بن عبد الله بن ثابت العوفي ، من أهل سرقسطة ، برز في الفقه حتى وصف بالفقيه . توفي في ربيع الأول سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٩ ،
 ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٧٧ - ٧٨) .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٧٧ .

^{☆☆} أبو الوليد بن قبروق هو يحيى بن محمد الأموي، أصله من لاردة، سكن شاطبة، ثم ولى القضاء بها وبعد ذلك انتقل إلى بلنسية . وقد توفي في ربيع الأول سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م (ابن الأبار : المعجم ، ص ٣٢٢) .

(٥) ابن الأبار : المعجم ، ص ٣٢٢ .

أما القسم الآخر وهو بقية الجيش فقد قاده هو بنفسه في طريق البرية ^(١) الذي كان - فيما يبدو - مختصراً ^(٢) ، ولكنه كان في الوقت ذاته جبلياً " لا يسلك إلى عن طريق واحد ، لصعوبته ، وشدة وعره " كما يعبر عن ذلك ابن أبي زرع ^(٣) . فكان في صحبته في هذه المغامرة العلمان اللذان سبقت الإشارة إليهما ^(٤) . وهنا وجدها النصارى فرصة للإيقاع بهذا الفريق ، فكمّنوا له وسط الطريق ^(٥) ، وأطبقوا عليه في موضع يسمى " البورت " ^(٦) ، ومعناها بالعربية الباب ^(٧) . وبعد قتال عنيف قُتلَ محمد بن الحاج وجماعته من المتطوعة ^(٨) . وقد ذكر ابن الأبار ^(٩) أنهم قتلوا " في نحو الثلاثين من العرب وعشرين من الفرسان والأندلسيين ، ومائتي راجل وعشرين راجلاً قتلوا قبل ابن الحاج ... " فكان في هؤلاء القتلى أبو جعفر بن ثابت العوفي ^(١٠) ،

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٠ - ١٦١ ؛ الناصري : الاستقصا ، ص ٥٨ .

(٢) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٢٤ .

(٣) الأنيس المطرب ، ص ١٦١ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٧٨ .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦١ .

(٦) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٤ ، ٣٢٢ ؛ التكملة ، ج ١ ، ص ٢٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل

والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٧٨ .

تُعرف هذه الواقعة عند المؤرخين النصارى باسم كونجست دي مارتوريل Congost de Martorell

(Martorell) ميراندا : علي بن يوسف ، ص ١٦٨ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٢٤ ؛ محمود

علي مكي : وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٢٩) .

(٧) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٣٨ .

(٨) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦١ .

(٩) التكملة ، ج ١ ، ص ٢٩ .

(١٠) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ،

وأبو الوليد ابن قبروق^(١). ويبدو أنهما ما قتلا إلا بعد أن قاتلا النصارى بشدة ، وأرخضا نفسيهما في قتالهم ، وأبليا البلاء الحسن يشهد بذلك أنهما آثرا مرافقة الطائفة المختارة من الجيش التي غامرت بالسير في طريق وعر المسلك ، صعب المرور. وقد حدث كل هذا في ربيع الأول سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م^(٢).

هذه المعركة هي كل ما وجدناه حول المشاركة الصريحة لعلماء الأندلس في جهاد هذه الإمارة التي ما لبثت في سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م أن اتحدت مع مملكة أرغون^(٣) الآتي الحديث عنها بعد .



٣ - مشاركتهم في الغزوات ضد مملكة أرغون :

ظهرت أرغون بصفتها مملكة مستقلة من ممالك إسبانيا النصرانية في أواخر الثلث الأول من القرن الخامس الهجري -الحادي عشر الميلادي - كما سلفت الإشارة -، وقد اتسعت رقعتها على حساب ما حولها من بلاد[☆]. وعند استيلاء المرابطين على الأراضي المصاوبة لأملاكها في شرقي الأندلس كان ابن ردمير (الفونسو الأول أو المحارب) (٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م - ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م) يتربع على عرشها^{☆☆}.

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ٣٢٢ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٩ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٥٠٢ ؛ هشام أبو رميلة : علاقات الموحدين بالممالك النصرانية ، ص ٣٢٠ .

☆ انظر التمهيد من هذا الكتاب .

☆☆ انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب .

ولقد دارت بين المسلمين ونصارى أرغون وقائع عديدة إبان عصري المرابطين والموحدين [☆] ، فكان العلماء الأندلسيون في جملة الشاهدين لتلك الوقائع ، الخائضين لغمارها. فلقد ثبت أن أبا علي الصديقي (ت ٥١٤هـ / ١١٢٠م) وأبا عبد الله بن الفراء ^{☆☆} (ت ٥١٤هـ / ١١٢٠م) وأبا بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) حضروا موقعة كُتْنَدَة ^{☆☆☆} عام ٥١٤هـ / ١١٢٠م ^(١) وكان سببها أن الفونسو المحارب لما سيطر على سرقسطة عام ٥١٢هـ / ١١١٨م ، وجعلها عاصمة له ^{☆☆☆☆} شرع في احتلال المدن الإسلامية الكائنة إلى الجنوب منها ^(٢) حتى وصل كتندة ، وضرب عليها الحصار ^(٣) ، فتعالت الصيحات ، وتوالت الصرخات ، مطالبة بجهاد هذا العدو ، ودرء خطره ^(٤) . فأمر حاكم المرابطين حينذاك علي بن يوسف بن

☆ انظر التمهيد من هذا الكتاب .

☆☆ رسم في بعض المصادر بـ ابن الفرج (المقرئ : أزهار الرياض ، جـ ٣ ، ص ١٥٣) ولكن الصحيح الذي اعتمدته المصادر هو ما اثبتنا رسمه في المتن أي ابن الفراء ، ومن الواضح أن ابن الفرج تحريف لابن الفراء .

☆☆☆☆ كُتْنَدَة أو كُتْنَدَة Cutanda من حيز دُرُوقة التابعة لكورة سرقسطة (ابن الأبار : المعجم ، ص ٤ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، جـ ٣ ، ص ٥٣ ، نفع الطيب ، جـ ٤ ، ص ٤٦٠) إلى الجنوب الشرقي من قلعة أيوب (أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٢٤٢) في الطريق بين سرقسطة وبلنسية (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩١) وتقع الآن ضمن مديرية تيروال الحالية في إسبانيا (حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٩٤) .

(١) المقرئ : أزهار الرياض ، جـ ٣ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

☆☆☆☆ انظر التمهيد من هذا الكتاب .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٨٦ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٥٠١-٥٢٠هـ) ص ٢٨٥ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٣ .

تاشفين^(١) (٥٠٠هـ/١١٠٦م-٥٣٧هـ-١١٤٢م) عماله في الأندلس بالخروج لجهاد العدو الأرغوني وكبح جماحه ، وأهاب بالأندلسيين للالتحاق بالجموع المرابطية^(٢) . وجعل القيادة العامة لأخيه أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين^(٣) .

سارع رجال العلم بالاستجابة لداعي الجهاد ، فقدم أبو عبد الله بن الفراء من المرية في جنوبي الأندلس ، إذ كان في ذلك الوقت على رأس القضاء بها^(٤) . وخف أبو علي الصدي من مرسية في شرقي الأندلس للجهاد^(٥) . ومن فرط إقباله على جهاد الأعداء ، وتوطينه لنفسه على القتل في سبيل الله أوصى وصية من لا يفكر بالعودة من ميدان المعركة إلى أهله ، فعند توديعه لابنته^{☆☆} الصغيرة التي كانت في سن الرضاعة أوصى بعدم تعجيل فطامها^(٦) ،

(١) يروي ابن الأثير أن علي بن يوسف بن تاشفين كان سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م في قرطبة ، فسير الجيوش منها إلى محاربة النصارى (الكامل ، ج١٠ ، ص٥٨٦) وهذا يخالف المصادر المغربية التي تحدد عبور علي بن يوسف إلى الأندلس في ربيع الأول من العام التالي (ابن عذاري : البيان ، ج١ ، ص٣٠٨ ؛ مجهول : الحلل المشوية ، ص ٨٦) .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٠٣ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان) .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج٤ ، ص ٤٦١ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص ٥٧٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج١٠ ، ص ٥٨٦ .

❦ وقد ورد سؤال عن رجل من مدينة المرية شهد موقعة كنتندة (ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج٣ ، ص ١٤٢٩) وهذا ينيء أن رجالاً من المرية شهدوا تلك الموقعة غير أبي عبد الله بن الفراء .

(٥) عياض : الغنية ، ص ١٩٤-١٩٥ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص ١٤٥-١٤٦ .

❦ اختلف في اسمها فسمها ابن الأبار : خديجة (التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٧٤٧) بينما سماها ابن عبد الملك المراكشي : فاطمة (الذيل والتكملة ، س٨ ، ق٢ ، ص ٤٨٩) .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، ج٢ ، ص ٨٤٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق٢ ، ص ٤٨٩ .

وقال : " سِنُوا بها سنة الاحترام ، ولا تجمعوا لها بين اليتيم والفقير " ^(١) .
 كما أوصى بإعتاق بعض مماليكه ^(٢) ، وبهذا الفعل من أبي علي الصدي
 انكشف لنا ما كان يَختلج في نفوس بعض رجال العلم الأندلسيين عند عزمهم
 على الخروج إلى قتال النصارى . ومن ناحية أخرى لوحظ على أبي علي
 استغلاله لوقته وهو في الطريق إلى الجهاد في التدريس ونشر العلم بين الناس ،
 فالكثير من الطلاب استمعوا إليه -مثلاً- في مدينة شاطبة التي مر عليها غازياً إلى
 كتندة ^(٣) . وبعمله هذا -أيضاً- ضرب أركى مثال للعالم المسلم العامل
 الذي يصرف ساعات عمره في جهاد مستمر ، متعدد الميادين " ينتقل فيه من
 واحد إلى آخر ، لذا قام من مجلس الدرس حيث يقيم ليتسلم مقبض السيف
 حيث يجول ، نوع آخر من الدروس ، وكله في سبيل الله الواحد سبحانه
 وتعالى " ^(٤) . أما أبو بكر ابن العربي فيبدو أنه نهض للغزو من بلده إشبيلية*
 مع واليه أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف الذي أسندت إليه القيادة العامة
 للجيش المرابطي النافر إلى كتندة كما سبق ذكره .

ومما يستلفت النظر أن حشوداً كبيرة من المتطوعين نفروا للجهاد في
 هذه الغزوة ، فأربى عددهم عن العشرين ألفاً ^(٥) ؛ فكانوا بذلك أكثر عدداً

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) انظر أمثلة في ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٤٣٣ ؛ ج ٢ ، ص ٤٧٢ ، ٩٣٣ ؛ المعجم ، ص ٥٧-

٥٨ ، ٦٧ ، ٩٦ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٥٦ ، ١٧٦ ، ٢٠٦ ، ٢٥٤ ، ٢٧٩ .

(٤) الحجى : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٣١ .

* إذ كان في ذلك الوقت يعيش في إشبيلية ، انظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٥) ابن الأبار : المعجم ، ص ٤ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج ٤ ، ص ١٥٤ .

- فيما يظهر - من الجند النظامي ^(١) ، ويرجح أن خروج هذا العدد الهائل من المتطوعين حصل بتأثير أبي علي الصديقي ^(٢) ؛ فهو أولاً كان يحتل مكانة علمية واجتماعية سامقة ليس في مرسية فقط بل في الأندلس بأسرها* ، وخروجه إلى هذه الغزوة بحمد ذاته دعوة لمحبيه وتلامذته ومن إليهم للاقتداء به والخروج معه إلى الجهاد ؛ وثانياً لا يستبعد أن يكون أبو علي قد حث على البروز للجهاد مع أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي نصب قائداً عاماً للجيش ، وذلك لمعرفته به قبلاً ، وإطلاعه على جانب من أحواله وأخلاقه ، إذ كان إبراهيم أيام ولايته على مرسية قد تتلمذ على يدي أبي علي ، فعند من أصحابه ^(٣) . وقد ظلت الصلة بين الاثنين وطيدة حتى بعد أن نُقل إبراهيم إلى ولاية إشبيلية ^(٤) .

وبوصول الجيش المرابطي إلى كتندة تقدم المتطوعة فيه - وعلى رأسهم العلماء - للالتحام بالجيش النصراني ، فنشبت في يوم الخميس الثامن عشر**

(١) حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

✧ انظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٥ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها ، وانظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

✧ اتفقت معظم الروايات على نشوب المعركة في ربيع الأول من سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م وأنه في يوم خميس منه ، ثم اختلفت في تاريخه من هذا الشهر ما بين الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين والرابع والعشرين (ابن الأبار : المعجم ، ص ٤ - ٥ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج ٣ ، ص ١٥٣-١٥٤) وبالرجوع إلى التقويم نجد أن أيام الخميس في ربيع الأول من ذلك العام توافق : ٤ ، ١١ ، ١٨ ، ٢٥ (محمد مختار باشا : التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ المحجرة بالسنين الفرنجية والقبطية ، تحقيق محمد عمارة ، ط . الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠ ، ج ١ ، ص ٥٤٦) ومن الملاحظ أن الرواية القائلة بوقوع المعركة في يوم الخميس الثامن عشر من ربيع الأول تتطابق مع تاريخ أحد أيام الخميس الواردة في التقويم ، فكان ذلك مرجحاً لاعتمادها في المتن .

من ربيع الأول سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م معركة حامية بين الجانبين ، تحمل فيها أولئك المتطوعة عبء القتال ، فأبلوا البلاء الحسن . بيد أن الهزيمة في الأخير حاقت بهم ، وقتل معظمهم* ، بينما ارتد الجند النظامي مفلولاً إلى مدينة بلنسية دونما مشاركة تذكر في القتال ^(١) .

ولا شك أن مبادأة المتطوعة بقتال العدو، وجريان هذه المقتلة الرهيبة** عليهم ليدل دلالة ساطعة على حماسهم للجهاد في سبيل الله ، والذي لا بد أنه استجاش في نفوسهم بأثر من مواعظ العلماء الذين كانوا يرافقونهم . ويظهر أن القيادة في الجيش المرابطي قدرت عدم جدوى الاستمرار في المواجهة مع القوات النصرانية عقب حدوث تلك المقتلة المفجعة، ففضلت الانسحاب من الميدان للحفاظ على بقية أرواح المسلمين .

وعلى أي حال فقد أصيب في هذه الموقعة عدد من العلماء^(٢)، فكان

* من الغريب أن يُرجح ميكال دي إبلزا هزيمة المسلمين في وقعة كتندة إلى انضمام المطوعة للجيش النظامي ، فالمطوعة - في نظره - ليس لهم هدف إلا الاستشهاد ، فجماهيرهم - حسب رأيه - أفسدت " الخطة الدفاعية والجدوى الهجومية في صفوف الجيش الإسلامي " (الرباط والرباطات في الأسماء والآثار الإسبانية ، تعريب الحسين يعقوبي ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ١٣ ، شعبان ١٤١٥هـ ، ص ٨٥) .

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ٤-٥ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج ٣ ، ص ١٥٤ ؛ نفخ الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٦٠-٤٦١ .

** ولقد كانت لهذه المقتلة صدى في كتب الفتاوى ، إذ ورد على ابن رشد سؤال من نساء فقنّ أزواجهن لا يعرفن مصيرهم أهم قتلوا أو أسروا (ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٣ ، ص ١٣٩٦ ، ١٣٩٩) كما ورد أيضاً سؤال آخر عن أرث رجل فقنّ في تلك الموقعة (المصدر السابق ، ص ١٤٢٩) .

(٢) شعرة : المرابطون ، ص ١٤٩ .

من ضمن الذين فقدوا أبو علي الصدي (١) وأبو عبد الله بن الفراء (٢) ☆. وبالنسبة لأبي بكر بن العربي فقد نجح في جملة من نجحوا من تلك النكسة المؤلمة، ولكن بعد أن خسر كل ما خرج به من سلاح ومتاع وعدة، يتضح ذلك من رده حين سُئل عن حاله بعد الواقعة، قال " حال من ترك الخباء والعباء " (٣)، " وهذا مثل - كما يقول المقرئ - (٤) عند المغاربة يُقال لمن ذهب ثيابه وخيامه، بمعنى أنه ذهب جميع ما لديه "، وقوله هذا يُلهم أنه باشر القتال بنفسه، ولم يبارح ميدان المعركة إلا بعد أن بذل كل ما في طاقته من مبارزة وكر وفر ☆☆.



ولقد شارك العلماء في غزوة ضد النصارى على الثغور الشرقية

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٤٦ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣١٠ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٥٠١-٥٢٠) ص ٣٦٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٨ ، ق ١ ، ص ١٥٩ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٨٦ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٥٠١-٥٢٠) ص ٣٧٧ .

☆ ذكر الضبي أن الفقيه المحدث أبا زيد عبد الرحمن بن فتح اللخمي الذي صحبه أبو علي الصدي وروى عنه كثيراً قد توفي شهيداً في سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م (بغية الملتبس ، ص ٣٧٠) فهل رُبطُ وفاته بالشهادة وفي السنة نفسها التي جرت فيها موقعة كتندة يعني أنه كان من ضمن المفقودين فيها ؟ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج ٣ ، ص ١٥٤ .

(٤) نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٦١ .

☆☆ ولعل أبا بكر بن العربي قصد هذه المعركة حينما قال " ولقد سررت الليل كله فراراً من العدو مهموماً مغموماً من هزيمة كبيرة ، وحثت حصناً على اليوم التالي ... وكان لي يوم وليلة لم أكل ولم أتم ... " (عارضة الأحوذى ، ج ٨ ، ص ١٩٤) .

للأندلس في زمن المرابطين وهي غزوة كُولِيَّة* التي قادها الأمير المرابطي أبو بكر بن علي ابن تاشفين** سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م . حيث وقفنا على ذلك في غضون خبر مفاده أن أبا عيسى بن وَرْهَزَن*** (ت ٥٣٨هـ/١١٤٣م) " سمع ... القاضي أبا بكر بن العربي ، لقيه بكولية من الثغور الشرقية حين غزاها مع الأمير أبي بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين في جهادي الآخرة سنة اثنين وعشرين وخمسمائة " (١) . ولنا وقفات حول هذه الغزوة :

الوقفة الأولى : أفاد الخبر آنفاً أن كولية من الثغور الشرقية ، ولم نهتدِ إلى مكانها حسبما تحت أيدينا من مصادر ، ولكن ورد أن أحد طلبية

☆ كُولِيَّة ثمة بلد اسمه قولية بالقاف ، وهو من عمل بسطة (المراكشي : المعجب ، ص ٤٥٥ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ٥٠ ، ٨٧ ؛ المقرئ : نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ٦٦) وكما جاء في المتن أن كولية من الثغور الشرقية ، وبسطة وما يلحق بها كانت وقت الحادثة التي تتكلم عنها في وسط بلاد المسلمين ، ولذا فمن المستبعد أن تكون قولية هي كولية . وسنحاول في المتن تحديد مكان هذه البلدة ولو بالتقريب .

☆☆ أبو بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين ، يلقب بيكور ، وكان ذا حدة ونجدة (مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٤) ولى حكم إشبيلية في محرم سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م ثم عزل عنها في رجب سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م (ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ١٠٦) وذلك بسبب اعتراضه على البيعة لأخيه سير بولاية العهد ، وقد غرب إلى الصحراء مكبلاً ، ثم شارك في الحرب ضد الموحدين (ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٤٩ ، ١٥٧) وفي سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م أمر والده علي بن يوسف بسجنه في الجزيرة الخضراء ، ولكنه ما لبث أن هلك في سجنه (ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ١٠١) لمعرفة أخباره انظر : محمود علي مكسي : وثائق تاريخه جديدة ، ص ١٣١-١٣٢ ، ١٣٣-١٣٩ ؛ حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة ، ص ٦٨ - ٧٠) .

☆☆☆ أبو عيسى بن وَرْهَزَن هو : لب بن عبد الجبار بن عبد الرحمن ، من أهل شَتَمَرِيَّة الشرق ، كان فقيهاً ، ولى القضاء في بلده وغيرها . وتوفي سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥٧٧-٥٧٨) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥٧٧-٥٧٨ ، ٥٧٨-٥٧٧ .

العلم سمع من أبي بكر بن العربي "مقدمه على بلنسية غازياً في سنة اثنين وعشرين"^(١) [وخمسمائة] . فلاحتمال كبير جداً أن الغزوة التي مر فيها أبو بكر بن العربي على بلنسية ما هي إلا غزوة كولية ، إذ هما متوافقتان في السنة ، فكلاهما في سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م ؛ فضلاً عن كون بلنسية تعد من البلاد الشرقية في الأندلس الموالية لبلاد العدو^(٢) . وحيث أن ابن ردمير (الفونسو المحارب) ملك أرغون قد جد في الاستيلاء على الثغر الأعلى الأندلسي والأراضي الواقعة إلى جنوبه عقب هزيمة المسلمين في كتندة^(٣) فلا يستبعد أن تكون كولية من الحصون الثغرية الكائنة إلى الشمال من بلنسية أو قريبة منها ، يعزز هذا أن الأراضي المحيطة ببلنسية وما يوصل إليها من طرق وصارت بعد غزو المسلمين لكولية مسرحاً لغارات الملك الأغوني وهجماته^(٤) .

الوقفه الثانية : ورد في حوادث سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م أن أبا بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين قصد حصناً للنصارى في شرقي الأندلس كانوا قد تملكوه غدرًا ، فحاصره حتى دخله عنوة ، ثم صدر عنه بعد أن ثقفه بالرجال والسلاح^(٥) . وبالمقارنة بين ما جاء في هذا الخبر وبين ما سقناه آنفاً

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٩٨ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٤٥٤ .

(٣) حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي ، ص ٢٩ ؛ عبد الواحد شعيب : دور المرابطين في الجهاد بالأندلس ، ط . الأولى ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٩٠م ، ص ١٢٨ .

(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ١١٧-١٢٢ ؛ حمدي عبد المنعم : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ص ١٩٩-٢٠٢ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ، ص ٧٧ ؛ وانظر : عبد الواحد شعيب : دور المرابطين في الجهاد بالأندلس ، ص ١٣٨ ، حاشية " ٢ " .

عن غزوة كولية* يظهر لنا وكأنهما خبران لحادثة واحدة ، فكلاهما في سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م ، والقائد فيهما هو أبو بكر بن علي بن يوسف ، وجهة الغزوة تقع في شرقي الأندلس ، فيكاد أحد الخبرين يفسر ما أبهم في الآخر.

الوقفه الثالثة: إن سماع أبي عيسى بن ورهزن العلم علي أبي بكر بن العربي في كولية يثبت جهاد الاثنين في تلك الغزوة ، فالأول وفد للمشاركة فيها من بلده شَتْمَرِيَّة الشرق**^(١) ، والثاني قدم مع القائد المرابطي من بلده إشبيلية*** ، ثم إن هذا السماع يعني أن أبا بكر بن العربي قد لازمه طائفة من طلبة العلم في غزوة كولية للأخذ عنه ، والاستفادة من علمه ،

☆ توجد رسالة كتبها ابن حسان عن أبي عبد الله بن ورقا إلى القاضي ابن عبد العزيز يبشره بفتح حصن اسم كواليه ، ويشرح فيها الطريقة التي تم فيها ذلك الفتح ، وهي مؤرخة بيوم الجمعة الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م (حسين مؤنس : نصوص سياسية ، ص ١٢١-١٢٢) وقد ساقها محمود علي مكّي على أنها تخص غزوة كولية التي نتحدث عنها (ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٥٢-١٥٣ ، حاشية) ونحن إذا تأملنا تاريخ كتابتها سواء الشهر أو السنة وجدناه بالفعل هو تاريخ وقوع غزوة كولية . ثم إن رسم كواليه يكاد يكون هو نفسه رسم كولية ، وربما تطابقا عند النطق بهما .

☆☆ شَتْمَرِيَّة الشرق ، وتسمى أيضاً السهلة أو سهلة بني رَزِين . تقع إلى الشرق من مدينة وادي الحجارة (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٧١ ، حاشية) فالجغرافيون المسلمون يعدونها من مدن شرقي الأندلس (أبو الفداء : تقويم البلدان ص ١٦٨) وهي إلى الشمال من بلنسية على مسافة مائة وعشرة أميال (الإدريسي : أنس المهج ، ورقة ١٥٧) وتعرف اليوم في إسبانيا بالبرائين Albarracin في مديرية ترويل (أرسلان : الحلل السندسية، ج٢ ، ص ١٠٠ ؛ حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية ص ١٠٤) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ٣٥٠ .

☆☆☆ حيث كان أبو بكر بن علي بن يوسف قائد الغزوة في ذلك الوقت لا يزال على رأس العمل في ولاية إشبيلية (ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ١٠٦) .

وهؤلاء الطلبة لابد وأنهم سيحضرون الغزوة مع شيخهم ، وهذا التوقع - إن صدق - معناه أن عدداً من أهل العلم غير ابن ورهزن وشيخه أبي بكر ابن العربي شهدوا غزوة كولية .

ومن المفيد أن نشير إلى ما أخبرنا به أبو بكر بن العربي ^(١) عن نفسه من حضوره غزوة مع المسلمين ، وأنهم حاصروا بلدةً من بلدان النصارى* فلما كادوا ييأسون منها يسر الله لهم فتحها " ومنَّ الأمير على مَنْ كان بها ، فخرجوا إلى بلادهم " حسب تعبيره . ومن الجائز أن تكون هذه البلدة التي قصدها أبو بكر بن العربي هنا هي كولية التي نتحدث عنها .



وبعد موقعة كولية تُعرضُ مصادرنا عن تدوين أي إشارة لعلماء أندلسيين خرجوا في الغزوات الإسلامية ضد مملكة أرغون حتى إذا ما وصلنا إلى أواخر عصر الموحدين أفصحت لنا تلك المصادر عن مشاركة لهم في غزوة أنيشة** عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م . ذاك أن الملك النصراني جايماش بن

(١) قانون التأويل ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

☆ كما ذكر أبو بكر بن العربي في موضع آخر أنه شارك في حصار مدينة من مدن الروم (أحكام القرآن: ق ٤ ، ص ١٧٠٨) .

☆☆ أنيشة أو أنيجة : موضع من عمل بلنسية (الرعيي : برنامج شيوخ الرعيي ، ص ٧٠ ، الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣٢) إلى الشمال منها (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٤٤٠ ، الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٧٤) على بعد سبعة أميال (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٤ ، ص ٨٩) ويسمى مكانها بالإسبانية البويش elbuig (ابن الأبار : الحلة ، ج ١ ، ص ٣٤ من المقدمة) .

بطرة (خايمي الأول) * حاكم أرغون وبرشلونة المتحدتين جرد نفسه لحرب المسلمين^(١)، فاحتل ما استطاع من جزائر الأندلس الشرقية (البليار)^(٢)، كما شرع منذ سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م في تنفيذ مخطط لاحتلال ما يلي بلاده من أراضٍ إسلامية في شرقي الأندلس، وأسبغ على ذلك صبغة صليبية، فكانت بلنسية مطعمه الرئيس^(٣). ولحقها ومن ثم التغلب عليها بعث جماعات من جيشه للاستيلاء على قراها وحصونها الشمالية^(٤). ونظراً لكون حصن أنيشة القريب منها يربض على جبل مرتفع^(٥) الأمر الذي جعل موقعه منيعاً وفي الوقت ذاته مشرفاً على مروج بلنسية ومرافقها فقد فطن حاكمها أبو جُميل زيان بن مردنيش إلى خطورة سقوطه بأيدي النصارى، فعمد إلى هدمه^(٦). غير أن جايمش (خايمي) احتل مكانه، وابتناه من جديد، ثم اتخذ

* خايمي الأول Jaime I تسميه المصادر الإسلامية جايمش بن بطرة (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢، ص ٣٣٧ ؛ الإحاطة ، ج ١، ص ٣٨٣ ؛ اللوحة البدرية ، ص ٤٧) أوجاقم البرشلوني (ابن الأبار : الحلة ، ج ٢، ص ١٢٧) كان عند وفاة والده في عام ٦١٠هـ/١٢١٣م طفلاً حديثاً ، فحكم مملكة أرغون وبرشلونة في البداية بوصاية أحد الفرسان عليه ، وقد جرت محاولات لأخذ الحكم منه ، لكنه في الأخير تغلب على منافسيه ، وظل في الحكم حتى وفاته عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م وفي عهده الطويل تضاءلت رقعة مملكته بشكل واسع على حساب المسلمين ، فلقبه قومه بالفتاح (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٣٨٣ ، ٤١٤-٤٢٦ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢، ص ٦٠٥ - ٦٠٧ ؛ Jose Terreo : op . cit . , p . ١٢٩-١٢٨)

- (١) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٤١٧ .
- (٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٩١ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٦٩ .
- (٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٤٣٩ .
- (٤) ابن خلدون : العمر ، ج ٦ ، ص ٣٨٥ .
- (٥) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣٢ .
- (٦) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢، ص ٢٤٠، ٢٤٢، محمد أبو الفضل : شرق الأندلس ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

قاعدة^(١) للإغارة والعيث في منطقة بلنسية^(٢) . ولقد ضاق المسلمون ذرعاً بالأعمال النصرانية المخربة المنطلقة من هذا الحصن فقرر أبو جميل انتزاعه منهم، فاستنفر المسلمين للجهاد ، فتوافدوا عليه من مدن الأندلس الشرقية مهطعين^(٣) . فكان في طليعة هؤلاء جماعة من علماء بلنسية وفضلائها وصلحائها، وعلى رأسهم أبو الربيع سليمان الكلاعي (ت ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧ م)^(٤) .

ويرى أحد الكتاب^(٥) أن الخروج لمجاهدة الأرغونيين في أنيشة لا يمكن أن يكون صاحب القرار فيه حاكم بلنسية زيان لأنه في ذلك الآوان كان يفاوض الملك الأرغوني ليستجلب رضاه ، ولذا فمن المرجح - حسب رأيه - أن القرار قد انبعث من أهل بلنسية وشيوخهم أبي الربيع الكلاعي .

ومهما تكن الحال فقد زحف الجيش الإسلامي، واصطدم بالنصارى عند أنيشة في ضحى يوم الخميس العشرين من ذي حجة عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧ م^(٦) حيث اختلط الفريقان في قتال شديد ، فانكشف المسلمون أمام عدوهم^(٧) ، وفي تلك اللحظات الحرجة هب أبو الربيع الكلاعي " وحرص المسلمون وقد اختلوا عن قتال عدوهم ، ورغبهم في مكافحته " حسبما يقول ابن عبد الملك

(١) ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٣٨٥ .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٣٨٥ .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٤ ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٥) وهو حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ١٠٩ .

(٦) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٩ .

(٧) ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ٣٨٥ .

المراكشي^(١) ويحكي عنه تلميذه ابن عميرة المخزومي^(٢) أنه يوم أنيشة " رأى الخلل في الناس ، فاستنزل من الصف ، وبرز أمام الزحف ، ورغبَ المسلمين في الصبر وقد انكشفوا ، وناشدهم الله أن يقفوا فما وقفوا " . ومع ذلك لم يزل قدام الصفوف، زاحفاً إلى الكفار ، مقبلاً غير مدبر^(٣) ، وقد حمل الراية بيده^(٤) وهو ينادي المنهزمين بقوله " أعن الجنة تفرون ؟ " . إلى أن قُتل صابراً محتسباً^(٥) . ولقد فقد من المسلمين غيره خلق كثير^(٦) ، بين قتيل وأسير^(٧) ، فكان في جملتهم طائفة من أهل العلم والصلاح والفضل في بلنسية . ويكفي الدلالة على عظم المصاب في وسط هذه الطائفة هو فقدان نحو سبعين رجلاً من أهل الصف الأول بجامع بلنسية الأعظم^(٨) .

وهكذا نلمس في موقعة أنيشة أثراً ظاهراً لأبي الربيع الكلاعي ومن معه من علماء بلنسية في التصدي للزحف النصراني على شرقي الأندلس ، فأبو الربيع كانت له جهوده في استنهاض الناس - فيما يبدو - لمحاربة الأرغونيين ، ثم نراه في ميدان المعركة بمثابة القائد للجيش الإسلامي ، فهو الذي حرض المسلمين على الاستبسال في قتال العدو ، فلما آنس منهم خوراً

(١) الذيل والتكملة ، س ٤ ، ص ٨٩ .

(٢) رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ٦٩ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٤ ، ص ٨٩ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٧٣ .

(٤) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٩ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٤ ، ص ٨٩ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٩ ،

المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٧٣ .

(٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٧٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٨٥ .

(٧) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٢٠ .

(٨) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٤ ، ص ٨٩ - ٩٠ .

في مجابهته ندر عن الصف ، فأمسك الراية بيده ، وتقدم أمامهم ، وأخذ يدعوهم إلى الشهادة في سبيل الله ، وظل على تلك الحالة حتى تجاذبته سيوف الأعداء من كل جانب فخر صريعاً . ولم يكن هذا الفعل من أبي الربيع بدعاً في هذه الموقعة ، فقد عُرف بأنه " ثابت الجأش ، جري الجنان ... يباشر بنفسه مواضع القتال ، ويُقدم إذا خام أشد الرجال " ^(١) . وقد سجل تلميذه ابن عميرة المخزومي ^(٢) ما شاهده بعينه في إحدى المواطن من شجاعة شيخه بقوله " فلعهدي به في أحد المعازل الشهيرة المنعة يتقدم حتى نقول سئم السلامة ... وكان العدو الكافر قد استولى على هذا المعقل غدرأً ، فجاء أهله يندبون لمعاجلته ، ويسهلون طريق محاولته ، فلما أطللنا عليه وجدناه أصعب على المتناول من نعام الدو ^(٣) ، أو عقاب الجو ، فندمنا أية ساعة مندم ، وحرنا بين متأخر ومتقدم ، فقام والله مقاماً شجع الرعديد ، وقرب البعيد ، وولى القتال بنفسه ، والحجر يهوي إليه ، والنبيل يقع حواليه حتى فتح الله على المسلمين ، واستردوا ذلك الحصن الحصين " .

وعلى ضوء ما مضى قد لا نتعدى الحق إذا قلنا أن أبا الربيع الكلاعي كان في تلك الأيام العصيبة - أي في أواخر عصر الموحدين بالأندلس - "أعظم من الحكام مكانة عند البلنسيين بفضل علمه وشخصيته وانصرافه لخدمة أهل بلده " ^(٤) . فبعد تلاشي السلطان السياسي العام في الأندلس

(١) ابن عميرة المخزومي : رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ٦٨ .

(٢) رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ٦٨ .

(٣) الدو : الفلاة المستوية الواسعة البعيدة الأطراف (الزبيدي : تاج العروس ، ج١٩ ، ص ٤٢٢) .

(٤) حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ١٠٧ .

❦ وفيما رثي به من شعر ما يُصدق ذلك ، فقد رثاه ابن الأبار في قصيدة تربو على المائة بيت مطلعها : -

- كما يقول حسين مؤنس^(١) - " أصبح الشيوخ رموزاً على السلطان الوحيد الباقي وهو سلطان الدين والعلم ، وصاروا رموزاً على قوة الدين وسيادته ، ومعقد الأمال في بعث الدولة وعودة هبة الإسلام في ... الجزيرة ، فهم عمدة الدين وجماعته ، وهم في واقع الأمر زعماء الجماعة الإسلامية الأندلسية وقادتها الحقيقيون . وكلما زاد السلطان السياسي تخلصاً ازداد أولئك الشيوخ جلالاً ، وزاد شعورهم بمسؤولياتهم ، فلم يعودوا مجرد فقهاء بل زعماء أيضاً يتحلون بما تتطلبه الزعامة السليمة من صدق وإخلاص وجرأة واستعداد لبذل النفس في سبيل الجماعة الإسلامية مع الحرص على العلم ، وهو عماد سلطانتهم الأولى " .



٤ - مشاركتهم في الغزوات ضد مملكة البرتغال .

عرفنا فيما سلف إن بداية انسلاخ منطقة البرتغال عن مملكة قشتالة ، حدث عقب وفاة أذفونش (الفونسو السادس) عام ٥٠٢هـ / ١١٠٩م الذي كان قد نصب على تلك المنطقة فارساً فرنسياً اسمه هنري دي لورين ، وقد

- ألما بأشلاء العلا والمكارم
تقد بأطراف القنا والصوارم
ومنها قوله :

تفرد بالعليا علماً وسودداً وحسبك من عال في الشهب عالم

تنظر القصيدة كاملة في (ديوان ابن الأبار ، ص ٢٧٥ - ٢٨٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٩٠ - ٩٥ ؛ ابن المرباط : زواهر الفكر ، ص ١٠٨ - ١٢١) كما رثاه شعراً ابن عميرة المخزومي (ابن المرباط : زواهر الفكر ، ص ١٥٦ - ١٥٩ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ٣٣) وأبو الحسن بن شبلون (البلفيقي : المقتضب من تحفة القادم ، ص ٢٠٤) .

(١) ابن الأبار : الحلة ، ج ١ ، ص ١٨ من مقدمة التحقيق .

لبث هنري هذا الذي تنعته المصادر الإسلامية بـ " صاحب قُلْمَرِيَّة " * يحكم البرتغال حتى وفاته سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م فخلف طفلاً اسمه ابن الرّيق (الفونسو هنريكيز) فحكمت أمه تيرزا** هذه البلاد بالوصاية عليه إلى أن كبر واستلم السلطة عام ٥٢٢هـ / ١١٢٨م***. وقد عمل ابن الرّيق (الفونسو هنريكيز) على إنهاء ما بقي من تسلط قشتالي على منطقة حكمه، فتحوّلت البرتغال بذلك من إمارة إلى مملكة. كما جدّ في التوسع على حساب جيرانه المسلمين، فعُدّ بأعماله تلك المؤسس الحقيقي لمملكة البرتغال^(١).

ولقد جرد حكام المرابطين ثم حكام الموحدين حملات لجهاد مملكة البرتغال والحد من أطماعها المتزايدة في غربي الأندلس****، وقد شارك علماء الأندلس في ذلك الجهاد، فنصت المصادر الموجودة بين أيدينا على مشاركتهم في حملتين؛ إحداهما في عصر المرابطين، والأخرى في عصر الموحدين. فأما التي في عصر المرابطين فقد وقعت عام ٥١١هـ / ١١١٧م، إذ

☆ قُلْمَرِيَّة Coimbra مدينة على نهر منديق الذي يصب في البحر المحيط (الإدريسي: صفة المغرب، ص ١٨٣) وتبعد عن هذا البحر مسافة اثني عشر ميلاً (الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٦٤) وتتبع حالياً دولة البرتغال إلى الشمال من مدينة لشبونة (إرسلان: الحلل السندسية، ج ١، ص ٩١، حاشية ٢؛ حسين مؤنس: رحلة الأندلس، ط. الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٣٩٤).
☆☆ تيرزا Theresa هي ابنة غير شرعية للفونسو السادس، وكان هذا الأخير قد زوجها لهنري دي لورين وجعله والياً على البرتغال نظير إخلاصه في الحرب ضد المسلمين (محمد محمود النشار: تأسيس مملكة البرتغال، ط. الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٣٦؛ محمود عمران: دور الحركة الصليبية في تكوين مملكة البرتغال، ص ١-٢؛ وانظر التمهيد من هذا البحث).

☆☆☆ انظر: التمهيد من هذا الكتاب.

(١) النشار: تأسيس مملكة البرتغال، ص ١٠.

☆☆☆☆ انظر التمهيد من هذا الكتاب.

تحرك حاكم المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠هـ / ١١٠٦م - ٥٣٧هـ / ١١٤٢م) من حضرته مراكش ، وجاز في أواخر محرم سنة ٥١١هـ / ١١١٧م البحر إلى الأندلس بغرض الجهاد في البلاد النصرانية[☆] . فنزل في إشبيلية ، وترىث بها قليلاً لاستتمام التجهيزات الحربية ، وتأهب المجاهدين الأندلسيين^(١) . وهنا نشهد المتطوعين من العلماء وطلبة العلم ومن إليهم يهرعون من قرطبة وإشبيلية نفسها وغرناطة للاشتراك مع الجيش المرابطي في جهاد النصارى^(٢) . قال ابن عذارى^(٣) " ولحقت من قرطبة لمة من الفقهاء والعلماء ولقيف من المجاهدين والزعماء خيلاً ورجلاً ، وتأهب فقهاء إشبيلية ومجاهدوها ، واستوفت مطوعة غرناطة ومرتبوها " . ومن أسف أن مصادرنا المتوافرة لم تعين أحداً باسمه من علماء هذه المدن الذين برزوا للجهاد في هذه الغزوة .

وعلى أي حال فقد انطلق علي بن يوسف من إشبيلية بحشوده ، واتجه صوب مدينة قلمرية^(٤) من البلاد البرتغالية^{☆☆} ، وبوصوله إليها طوقها

☆ يرى بعض الباحثين أن الهزائم التي حاقّت بالجيوش المرابطية في الأندلس على أيدي النصارى كانت من أكبر الدوافع التي حملت علي بن يوسف على العبور في ذلك الأوان (ميراندا : علي بن يوسف ، ص ١٦٨ ؛ حمدي عبد المنعم : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ص ٢١٢) .

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) البيان ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤٧ ؛ الإحاطة ، ج ٤ ، ص ٥٩ .

☆☆ يرجح أن علي بن يوسف قصد مملكة البرتغال بالذات لأنها كانت حينذاك تعاني من مشاكل داخلية (النشار : تأسيس مملكة البرتغال ، ص ٥٣ ؛ علي أحمد : تاريخ المغرب العربي الإسلامي ، منشورات ،

جامعة دمشق ، ١٩٩١-١٩٩٢م ، ص ١٧٧) .

بالحصار^(١) . وقد اختلف فيما جرى لها على قولين ؛ أحدهما أن عليّ بن يوسف افتتحها^(٢) ، والآخر إنه انصرف عنها بعد حصار شديد دام عشرين يوماً^(٣) . ثم كرر راجعاً إلى إشبيلية بعد أن "دوخ بلاد الشرك ... وكان أثره بها عظيماً"^(٤) .

والحاصل أن النص جاء مثبتاً خروج علماء الأندلس لغزوة قلمرية ، بيد أنه ضمن علينا ببيان شخصية أحد منهم من جهة ، وبمعرفة واقع جهودهم في تلك الغزوة من جهة أخرى .



أما الغزوة التي عثرنا على أسماء علماء أندلسيين أسهموا فيها ضد مملكة البرتغال في عصر الموحدين فقد حدثت عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م . ذاك أنه في الشطر الثاني من عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨هـ / ١١٦٣م - ٥٨٠هـ / ١١٨٤م) نشط البرتغاليون بزعماء ملكهم ابن الريق (الفونسو هنريكيز) في الغارات على غربي الأندلس ، ففتكوا بالمسلمين هناك قتلاً وأسراً ، وعاثوا بالحرقات والأموال هتكا ونهباً^(٥) . ولذلك بادر الحاكم الموحدي بالتوجه لغزوهم لما عبر بجيشه إلى الأندلس للجهاد في صفر سنة

(١) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٦٤ .

(٢) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٦ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٦٤ .

✽ تذكر بعض المصادر النصرانية أن حصار قلمرية من قبل المسلمين ابتداءً في اليوم الثامن عشر من صفر سنة ٥١١هـ / ١١١٧م (ميرندا : علي بن يوسف ، ص ١٦٩) .

(٤) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٦ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٦٢ . وانظر التمهيد من هذا الكتاب .

٥٨٠هـ/١١٨٤م^(١) فما هي إلا أيام يسيرة أمضاها في إشبيلية لتجميع قواته ، وتفقد استعدادته^(٢) . ثم سرعان ما قصد مدينة شَنْتَرِين من بلاد البرتغال ، فحضر عليها الحصار حال وصوله إليها^(٣) في ربيع الأول من تلك السنة^(٤) .

ويبدو أن أبا يعقوب غزا شَنْتَرِين بالذات من بين المدن البرتغالية لأن أكثر غارات البرتغاليين وأعتاها كانت قد انبعثت منها^(٥) .

وكيفما كان الأمر فعلماء الأندلس خفوا للجهاد مع الجيش الموحي وقْتذاك ، فهذا أبو بكر بيبش العبدري^{*} قدم من مدينة بلنسية في شرقي الأندلس ، والتحق بعسكر الموحدين الغازي لتلك المدينة النصرانية^(٦) . وثمة نفر من أهل العلم الأندلسيين حضروا هذه الغزوة بصفتهم -فيما يظهر- من رجال الدولة الموحدية الذين يعملون في خدمتها، وهم : أبو الحسن

(١) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٥٩ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢١٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢٥ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٣٣٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٥٩ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢٥ .

(٣) المراكشي : المعجب ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٥ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢١٤ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٦٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢١٤ .

(٥) سحر سالم : تاريخ بطليوس ، ج ٢ ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ ؛ النشار : تأسيس مملكة البرتغال ، ص ١٩٢ .
 * أبو بكر بيبش بن محمد بن أحمد بن بيبش العبدري من أهل أُنْدَة ولكنه انتقل إلى بلنسية . كان فقيهاً نبيهاً ، عارفاً بالأحكام ، كاتباً حسن الخط . توفي بعد عودته من غزوة شَنْتَرِين (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٢٨) .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .

المالقي ☆^(١) الذي كان خطيب الدولة ^(٢) ، أو خطيب الجماعة كما يُلقب أحياناً ^(٣) . وأبو بكر بن زهر ^(٤) وابن قاسم ☆☆ ، وابن مقبل (أو ابن طفيل) ☆☆☆ وثلاثتهم أطباء للحاكم الموحي ^(٥) ، وأبو الحجاج يوسف ابن عمر ☆☆☆☆^(٦) الذي يُعد من كتاب الجيش ^(٧) ، وأبو مروان بن صاحب

☆ أبو الحسن المالقي : هو علي بن عبد الله بن عبد الرحمن المالقي . كانت له معرفة بالفقه والحديث ، وشهر بقرض الشعر وصناعة الكتابة . وفوق ذلك كان خطيباً معتبراً لدى الحكام الموحيين (المراكشي : المعجب ، ص ٣٣١ - ٣٣٢) .

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٣٢ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحيين ، ص ١٦٤ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٣٣٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحيين ، ص ١٦٢ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٠٧ .

☆☆☆ ابن قاسم : هناك طبيب من أطباء أبي يعقوب الموحي يدعى أبا مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي ، وقد توفي سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٢٢ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٠٧) أي قبل غزوة شنترين . وهذا يعني أنه ليس ابن قاسم المشار إليه في المتن وربما أن ابن قاسم المعني هنا هو أبو يحيى بن قاسم الإشبيلي الذي كان هو ووالده من أطباء الموحيين ، وعاش حتى دولة المستنصر الموحي (ابن أبي صبيحة : عيون الأنباء ، ج ٣ ، ص ١٢٨) .

☆☆☆☆ ابن مقبل لم نثر على طبيب للموحيين بهذا الاسم . ويرى عنان أن هذا الاسم تحريف لاسم ابن طفيل التوفي سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م طبيب الحاكم الموحي الخاص (عصر المرابطيين والموحيين ، ق ٢ ، ص ١٢٧ ، حاشية ١) انظر ترجمة ابن طفيل في : (المراكشي : المعجب ، ص ٣١١ - ٣١٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ٨٥ - ٨٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ - ٤٨٢) .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحيين ، ص ١٦٤ .

☆☆☆☆ أبو الحجاج يوسف بن عمر الأموي أو المرواني من أهل إشبيلية . ألف في التاريخ والأدب ، ومن مؤلفاته : الحلي الكناية والتحف الأدبية ، ولا تعرف سنة وفاته بالضبط (المراكشي : المعجب ، ص ٣٩١ ؛ ابن الأبار : التكملة ، تحقيق عبد السلام الهراس ، ج ٤ ، ص ٢٢١) .

(٦) تَبَيَّنَ من حضوره هذه الغزوة من قوله مخيراً عن يوم الرحيل عن شنترين " حضرت يوم هذا الإقلاع وليله فما رأيته في تاريخ قبله ... " (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحيين ، ص ١٦٤) .

(٧) المراكشي : المعجب ، ص ٣٩١ .

الصلاة*^(١) الذي كان كاتباً من كتاب الموحدين^(٢) .

وعلى كل فقد نشبت معارك ضارية بين المسلمين والنصارى المحاصرين في شنترين* ، فكانت الغلبة للمسلمين^(٣) ، وبينما كانت الحال كذلك، إذ صدر من أبي يعقوب أمر بسحب الجيش من مكانه إلى موضع آخر*** ، فوقع خطأ في التنفيذ ، إذ انسحبت أكثر وحدات الجيش بالليل دون علم الحاكم الموحد الذي وجد نفسه بعد أن تنفس الصبح في قلة من جنده

✠ أبو مروان بن صاحب الصلاة هو عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجي ، كان كاتباً محسناً ، غنى بالتاريخ ، فصنف فيه كتاباً ، منها " تاريخ ثورة المريدين بالأندلس " و " المن بالإمامة ... " (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٢٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥٥ ، ق ١ ، ص ٣٢) ولا تعرف سنة وفاته بالضبط . وقد رجح عبد الهادي التازي أنها كانت في أواخر القرن السادس الهجري (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٩ من مقدمة المحقق) .
(١) عرفنا شهود هذه الغزوة من قوله عن بعض أحداثها " رأيت ... " (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٦٠) .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٢-١٣ من مقدمة المحقق .

✠ ولقد حضرها أحد المصريين الموالين للدولة العبيدية (المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٦٨) .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

✠✠✠ أشار ابن أبي زرع أن الحاكم الموحد ترك حصار شنترين لعزمه على غزو مدينة لشبونة ، وشن الغارات على أنجائها (الأنيس المطرب ، ص ٢١٤) ويرى المراكشي أن السبب وراء الانسحاب من شنترين هو دخول وقت الشتاء في تلك الأيام ، إذ خشي الحاكم الموحد على جيشه من البرد ، وما قد يحصل من ازدياد في منسوب النهر الذي يحول بينهم وبين العودة إلى الأراضي الإسلامية (المعجب ، ص ٣٣١) أما المصادر النصرانية فتجعل انسحاب الجيش الإسلامي هو مقدم فرناندو الثاني ملك ليون لإنجاد بني ملته في شنترين (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ١٢٥) ويرى عنان تفسير المراكشي للانسحاب غير مقنع ، إذ أن حصار شنترين كان في أوائل الصيف ، ولم يدم سوى أيام ، ويرى أن الرواية النصرانية أحق بالصواب ، إذ تتفق مع منطق الحوادث (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥) انظر : حول أسباب الانسحاب (النشار : تأسيس مملكة البرتغال ، ص ١٩٥-١٩٦ ؛ مراجع الغناي : سقوط دولة الموحدين ، ص ١٥٤) .

المحيطين به ^(١) . ويهمنا هنا ما ألقى من تبعة على الخطيب أبي الحسن المالقي في حركة الانسحاب ، فقد روى أنه هو أول من قوَّض خبائه في المعسكر الإسلامي ، وتأهب للرحيل ، فلما رآه الناس فعل ذلك أئتسوا به فقوضوا أختيتهم ^(٢) " ثقة به لمكانة من الدولة ، ومعرفته بأخبارها ، فعبّر من العشية أكثر العسكر النهر يريدون التقدم خشية الزحام ، وحرصاً على أخذ جيد المواضع " كما يقول المراكشي ^(٣) ، فكانت العاقبة أن استغل النصارى ذلك في الإيقاع بالجيش الموحدى ، فقتلوا منه جمعاً عظيماً ، كان منهم أبو الحسن المالقي في رواية ^(٤) ، وفي رواية أخرى أنه خشى على نفسه من الحاكم الموحدى الذي حمله مسؤولية ما حصل لجيشه ، فالتجأ إلى ابن الريق (الفونسو هنريكيز) في شنترين ، ولكنه لم يمكث أن كتب للموحدين يستعطفهم ، ويدلهم على عورات المدينة ، فوقع الكتاب في أيدي النصارى ، فأتوا بأبي الحسن فقتلوه حرقاً بالنار ^(٥) .

وعلى صعيد آخر فقد كان النصارى قد خلصوا إلى الحاكم الموحدى أبي يعقوب أثناء انسحابه ، وأصابوه بجراح ^(٦) ، فكان الأطباء الثلاثة المار ذكرهم يمرضونه إلى أن توفي بعد أيام متأثراً بجراحه ^(٧) .

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٣١-٣٣٢ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٦١-١٦٣ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢١٤ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٣٥-١٣٦ .

(٣) المعجب ، ص ٣٣٢ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٦٤ .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٣٣٣-٣٣٤ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٣٣٢ .

(٧) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٦٤ .

وواضح أن ما سبق إirاده من أخبار عن أثر رجال العلم الأندلسيين الذين خرجوا في هذه الغزوة لا يكشف لنا ما هم خليقون بفعله في جهاد العدو ، فلاحتمال كبير جداً أن هؤلاء كلهم أو على الأقل بعضهم باشرُوا القتال بأنفسهم . ثم من المنتظر أن يكون أبو بكر بيش العبدري وأبو الحسن المالقي - باعتبارهما من علماء الشرع - على رأس الواعظين للناس في ذلك الوطن ، المبينين لهم فضل الجهاد ، الحاضين على قتال الأعداء ؛ لا سيما المالقي الذي كان يتولى رسمياً خطة الخطابة عند الموحدين ، وكان خباؤه - كما م - في وسط المعسكر الإسلامي ، فالناس يترسمون خطاه، ويقتدون بما يصدر عنه من حركات. وبالنسبة لابن زهر وابن قاسم وابن مقبل (ابن طفيل) فبصفتهم أطباء فإنهم لن يتوانوا في تضييد المثخنين بالجراح من المسلمين . وأما أبو مروان بن صاحب الصلاة وأبو الحجاج يوسف بن عمر فبصفتهم كاتبين للموحدين ، وبخاصة أن الثاني منهما أكد النص على أنه من كتاب ديوان الجيش فمن المتوقع أن يضطلعوا ولو بجزء من أعمال هذا الديوان كإحصاء الجند ، ومعرفة احتياجاته المتجددة ^(١) ، وتحديد الرواتب والأعطيات ^(٢) ، وكذلك كتابة الأوامر الحربية ^(٣) . وليس إلى الشك سبيل أن العمل في مصلحة الجيش المجاهد للنصارى كالقيام بمهمة التمرير والكتابة داخلية في إطار أعمال الجهاد في سبيل الله .



(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٤٣ من مقدمة المحقق ؛ فايذة كلاص : الجيش عند الموحدين ،

مجلة دراسات تاريخية ، السنة ١٠ ، العدد ٣١-٣٢ ، ١٩٨٩ م ، ص ١٩٨ .

(٢) السحيباني : النظم الحربية في دولة الموحدين ، ص ١٧٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨١ .

وفي ختام كلامنا عن مشاركة العلماء في الغزوات ضد القوى النصرانية نشير إلى أن ثمة علماء تحدثت المصادر عن خروجهم إلى الجهاد من غير أن تقدم لنا أي إفادة عن الممالك النصرانية التي جاهدوا ضدها ، ولا المعارك التي خاضوها ؛ حيث اكتفت بذكر قصص جهادهم في بلاد العدو ، وأخبرت أن نهاية بعضهم كانت القتل في سبيل الله ^(١) ، أما البعض الآخر فأفادت بوقوعهم أسارى بأيدي الأعداء ^(٢) .

(١) انظر مثلاً ابن سعيد : المغرب ، ج١ ، ص٤١٥ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج٣ ، ص٣٣٤ ، ٣٣٩-٣٤٠ .

(٢) انظر مثلاً ابن بسام : الذخيرة ، ق٢ ، م٢ ، ص٨١١ ، ٨١٥ - ٨١٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص٤٣٤ .

ب - مشاركة العلماء في حماية المدن الأندلسية والدفاع عنها :

اعتاد المسلمون في الأندلس على الاصطلاء بنار الهجمات النصرانية على مدنها وقراها وحصونهم ، وقد تكون تلك الهجمات على شكل غارات خاطفة ، وقد تكون على هيئة حملات منظمة ، وهي آونة لا تتعدى منطقة الثغور ، وآونة أخرى تمتد إلى الداخل فتكون بعيدة الغور . وقد صور أحد القرطبيين في العصر المرابطي حالهم مع العدوان النصراني بقوله " وهذا العدو المجاور لنا - قصمه الله - قد أحرقنا بشررة من ناره ، وأغرقنا من غماره " ^(١) . فالغارات والحملات النصرانية سيتخلف عنها - بلا شك - نهب للأموال ، وتخريب للمزارع ، وإفساد للمساكن ، وانتهاك للمحارم ، وسي للذراري ؛ فضلاً عما يتخلل ذلك من إزهاق لأرواح المسلمين رجالاً ونساءً ^(٢) . وللتوقي من هذا العدوان النصراني المسلط على المدن الأندلسية، والتقليل من ضرره على المسلمين كان من الطبيعي أن يُعنى بتحصين المدن ، وتجديد أسوارها ، وتقوية قلاعها . فكان للعلماء جهودهم في هذا الشأن . فلقد أسند حاكم المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠هـ/١١٠٦م - ٥٣٧هـ/١١٤٢م) إلى أبي محمد بن مالك المعافري [☆] (ت ٥١٨هـ/١١٢٤م)

(١) مجهول : رسائل ومقامات أندلسية ، ص ٨٩ .

(٢) انظر أمثلة في : ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٣ ، ص ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٦١٤ ؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ ، ج ١٠ ، ص ٢٧٠ ؛ ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٨٣ ؛ ق . الموحدين ، ص ٥٣ ، ١٢٥ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٤٠٠ .

☆ أبو محمد بن مالك المعافري هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافري ، من أهل غرناطة ، كان له اهتمام بالفقه والحديث ، بارعاً في الأدب ، شاعراً كاتباً ، يعد من رجالات الأندلس المتميزين ، خدم في الدولة المرابطية وتوفي في غرة شعبان سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م انظر أخباره في (ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٢ ، ص ٥٠٠-٥٠٤ ؛ ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ٧٣٩ - ٧٥٤ ؛ -

مهمه أعمال بعض الثغور الشرقية ، قال ابن خاقان ^(١) " ولما كثر اختلال الشرق وفساده ، وظهر استفحال العدو فيه واستئساده ، صرف أمير المسلمين وناصر الدين إليه وجه اهتمامه ... ووجه أموالاً لرم خلله وحسم عله ، وإقامة ميله ، وانتعاش رَجَلِه وخيله ... " ، ثم أشار إلى إسناد علي بن يوسف تلك المسؤولية لأبي محمد بقوله " فقلده طوقها ... ووجهه لبناء الأقطار ... فاستقل بها أحسن استقلال ، ونظم مصالحها نظم اللآل " ^(٢) . وقد كشفت لنا إحدى الروايات جانباً من جهده على الأخص في مدينة طرطوشة الثغرية ، حيث ورد التأكيد على قصده هذه المدينة برسم بنائها ، وإصلاح خللها بتكليف من علي بن يوسف ^(٣) ، وأنه في سبيل إنجاز مهمته التي باشرها بنفسه ^(٤) استعمل أمناء من ذوي البيوتات ، ووسع أرزاقهم حتى كمل له ما أراد من تحديد البناء ، وردم ما اعترى الأسوار من الاختلال ^(٥) .

ولقد كان لقاضي الجماعة أبي الوليد بن رشد الجد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) أثر فاعل في التحصينات التي طرأت على المدن الأندلسية في عهد الحاكم المرابطي علي بن يوسف تاشفين (٥٠٠هـ / ١١٠٦م - ٥٣٧هـ / ١١٤٢م) فهو الذي نبه المرابطين إلى وجوب العناية بأسوار مدن الأندلس ^(٦) من حيث

- ابن سعيد : المغرب ، ج٢ ، ص ١١٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ٥٢٤ - ٥٢٧ ؛ المقرئ : نفع الطيب ، ج٣ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(١) فتلاند العقيان ، ق ٢ ، ص ٥٠١ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ٥٢٤ ؛ المقرئ : نفع الطيب ، ج٣ ، ص ٢٣٢ .

(٤) ابن خاقان : فتلاند العقيان ، ق ٢ ، ص ٥٠٢ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ٥٢٥ ؛ المقرئ : نفع الطيب ، ج٣ ، ص ٢٣٢ .

(٦) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٧٣ .

ترميمها وتجديدها وتدعيم بنائها والذي عرف عند الأندلسيين بالتعريب^(١) ، وكان ابن رشد قد أفاض برأيه هذا لعلي بن يوسف عند لقائه له في مراكش^(٢) عقب قيام الفونسو المحارب (٤٩٨هـ/١١٠٥م - ٥٢٩هـ/١١٣٤م) ملك أرغون باختراق الأندلس من شماليها إلى جنوبيها بجيشه في غضون أشهر من عامي ٥١٩هـ و ٥٢٠هـ/١١٢٥م و ١١٢٦م* فأخذ الحاكم المرابطي برأي ابن رشد ، وبعث بكتبه فوراً " إلى الأندلس بالنظر في الأسوار بجميع البلاد " كما يقول ابن عذارى^(٣) . ويظهر أن ابن رشد أفتى بجواز جمع الأموال من الناس لتمويل المشروع** ، إذ أننا نرى القضاة والولاة في المدن الأندلسية طالبوا السكان بدفعها^(٤) ، وقد سماها بعض الكتاب المحدثين ضريبة التعريب^(٥) أو المعونة^(٦) . وبهذه الطريقة بُنيت أسوار غرناطة وأسوار المرية ، وتولى أهل قرطبة " رم أسوارها... فعزم أهل كل مسجد إقامة ما يليهم... وكذلك أهل إشبيلية " ^(٧) . ويبدو أن بقية مدن الأندلس أعتني بأسوارها*** تنفيذاً لأوامر

(١) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٧٣ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

* عرضنا لذلك في الفصل السابق .

(٣) البيان ، ج٤ ، ص ٧٣ .

** انظر ما سلف عن مشروعية أخذ مثل هذه الأموال من الناس في أوائل هذا الفصل .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٧٣-٧٤ .

(٥) حمدي عبد النعم ، تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ص ٣٧٥ ؛ الهرفي : دولة المرابطين ، ص ٣٨٥ .

(٦) دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص ٢٢٦ .

(٧) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٧٤ .

* يقول السيد عبد العزيز سالم عن الأسوار الأندلسية في عصر المرابطين " وقد ابتكر المرابطون نظاماً جديداً في تخطيط الأسوار ، ذلك أنهم عمدوا إلى الإكثار من الزوايا الداخلية بالسور ، بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة ومتكسرة ، وميزة هذا النظام أن يترك الجند أعداءهم يتقدمون داخل إحدى الزوايا ثم -

حاكم المرابطين ^(١) .

ولقد ورد أن أهل قرطبة سخطوا على قاضيهم محمد بن أصبغ (ابن المناصف) (ت ٥٣٦هـ / ١١٤٢م) عام ٥٢٥هـ / ١١٣١م إلى درجة أنهم رجموه ، وكان ذلك بسبب المعونة ^(٢) ، ويرجح أن تكون هذه المعونة هي عينها التي فرضت على الأندلسيين لاصلاح أسوار مدنها ^(٣) - كما مر آنفاً - وهذا يعني - إذا صح ما رجحناه - أن بناء الأسوار استغرق سنوات ، وأن العلماء - كابن المناصف - قد شددوا في إنفاذ كل وسيلة مشروعة تخدم عملية إتمام التسوير ، حمايةً للمدن الأندلسية من إعتداءات الأعداء النصارى وغدراتهم .

وكان لأبي بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) جهود في تحصين مدينة إشبيلية أيام ولايته لقضاها عام ٥٢٨هـ / ١١٣٣م ، حيث كُلف من قبل علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠هـ / ١١٠٦م - ٥٣٧هـ / ١١٤٢م) في بناء سور إشبيلية من ناحية نهر الوادي الكبير ^(٤) ، أي من جهته الغربية ^(٥) ، فكان المال اللازم لتنفيذ البناء غير متوفر حينذاك ؛ ونظراً لكون الاحتياج إلى المال وافق أيام عيد الأضحى فقد خطر على بال ابن العربي الاستفادة من

- يندفعون عليهم من أعلى الأسوار على الدروب فيفتكون بهم فتكاً ذريعاً " (المساجد والقصور في الأندلس ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٦م ، ص ١٥٩) .

(١) ليوبولدو توريس بالباس : الفن المرابطي والموحدي ، ترجمة سيد غازي ، ط . دار المعارف . بمصر ، ١٩٧١م ، ص ٣٦ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٢٢ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها ، حاشية " ٤ " .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٣٤ .

(٥) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٩ .

جلود الأضحى في باب المصالح العامة ^(١) ، ففرض على الإشبيليين التبرع بجلود ضحاياهم ^(٢) للفادة - فيما يبدو - من قيمتها في البناء . ولم يتوقف جهد أبي بكر عند هذا الحد بل إنه في سبيل تعمير سور إشبيلية أنفق مبالغ طائلة من ماله الخاص ^(٣) ، حيث كان أحد العلماء الموسرين في ذلك العصر ^(٤) .

فإذا كان ما سلف يشرح جانباً مهماً من أثر العلماء في تحصين المدن الإسلامية في الأندلس وحماتها من هجوم النصارى فإن أثرهم قد استبان أيضاً في الدفاع عنها ، ونرمق ذلك في حالتين ؛ الأولى عند قيام العدو النصراني بالغارات على تلك المدن . والأخرى أثناء هجومه عليها هجوماً منظماً ، وما قد يتبع ذلك أحياناً من حصار .

ففيما يتعلق بالأولى فلدينا حادثة تصور أدق تصوير النشاط المسلح الذي أبداه بعض العلماء في رد الغارات النصرانية على المدن الأندلسية ، وهذه الحادثة حكيت عن أبي محمد عبد الله بن كوثر الغافقي* خلال غارة

(١) ابن العربي : العواصم من القواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب ، ط . الخامسة ، دار المكتبة السلفية ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ ، ص ٢٦ من مقدمة المحقق .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٠ ، ص ٢٠٠ ، المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٠ ، ص ٢٠٠ .

* أبو محمد عبد الله بن بكر بن خلف بن كوثر الغافقي ، كان محدثاً حافظاً ، ديناً فاضلاً ، عرف بالشجاعة ، فكان يحرص على حضور الغزوات فيبلى فيها بالبلاء الحسن ، ولا تعرف سنة وفاته (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٨٥٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٤ ، ص ١٨٥ -

نصرانية على مدينة شربة أو شاربة* ، وندع لابن عبد الملك المراكشي^(١) يرسم لنا بقلمه ما وقع لأبي محمد الغافقي الذي تعود على حضور الغزوات، فيقول إنه في غداة أحد الأيام " لم يرعهم ... إلا العدو مغيراً على شاربة ، فأسر بضاحتها قوماً ألفاهم بها على غرة ، فركب أبو محمد وأحد أصحابه عند ذلك تجاه العدو ، وحملوا عليه حتى استنقذا أولئك الأسارى ، ثم لم يزلوا في حرب مع الروم حتى تكاثر الأعلاج عليهما ، فعزم صاحبه على الفرار، فقال أبو محمد - رحمه الله - أين تريد يا فلان وهذه الجنة ؟ فلم يلو عليه ، وصار إلى شاربة . وناشب أبا محمد القتال أحد أولئك الأعلاج ، فتطاعنا حتى تكسرت رماحهما ، ثم تضاربا بالسيوف حتى سقطا معاً عن فرسيهما إلى الأرض ، ويد كل واحد منهما في شعر صاحبه ، وأهل شاربة ناظرون إليهما من أعلى سور شاربة . ثم إن العليج استصرخ عُلجاً آخر فقصده إليهما وطعن أبا محمد من خلفه، فاستشهد - رحمه الله - ... ، وانكفأ العدو بغير شيء سوى قتل أبي محمد ، ولم يقتل من المسلمين حينئذٍ بذلك الموضع سواه ."

والناظر في الرواية المتقدمة لا يخالها تدلي بأية معلومة عن هوية العدو المغير على مدينة شربة (شاربة) ، كما أنها لم تعين الزمن الذي وقعت فيه الغارة ، بل إذا رجعنا إلى ترجمة أبي محمد الغافقي فإننا لا نهتدي إلى حدث مؤرخ عنه بسنة محددة وفي الوقت نفسه صريحة تُعيننا على معرفة عصره حتى إن ابن الأبار^(٢) لم يستطع التحقق من العام الذي مات فيه فقال " ولم أقف

* شربة أو شاربة Serpa تقع في غربي الأندلس (ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٨٥٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٤ ، ص ١٨٦) وقد ترسم شربة ، وتقع بالتحديد جنوب بطليوس (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٢٨٩ ، حاشية ٦) .

(١) الذيل والتكملة ، س ٤ ، ص ١٨٦-١٨٧ .

(٢) التكملة ، جـ ٢ ، ص ٨٥٥ .

على تاريخ وفاته " . ولكن بالتمعن في المصادر كرة أخرى نجد أن أبا محمد قد روى عنه أبو الوليد سعد السعود بن عُفَيْر* الذي توفي في عام ٥٨٨هـ / ١١٩٢م^(١) . وهذا معناه أن أبا محمد الغافقي أولاً قد عاش في النصف الأول من عصر الموحدين ، وثانياً أن الغارة التي قُتِلَ فيها جرت قبل هذا التاريخ . وحيث أن مدينة شربة (شاربة) تقع في غربي الأندلس فالمنتظر أن تكون تلك الغارة صادرة من البرتغاليين ، فغربي الأندلس هو المجال الحيوي الذي كان البرتغاليون يزاولون فيه نشاطهم التوسعي ضد المسلمين في العصر الموحيدي^(٢) .

وباستعراض حوادث غربي الأندلس في النصف الأول من عصر الموحدين نجد خبراً مقتضباً يشير إلى غارة نصرانية في سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م نفذها فارس نصراني يعمل لحساب ملك البرتغال حينذاك اسمه جراند*.

☆ سعد السعود بن أحمد بن هشام بن عفير اللبلي . كان فقيهاً محدثاً أديباً شاعراً ، توفي في ذي القعدة عام ٥٨٨هـ / ١١٩٢م (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ ٢ ، ص ٧١٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٤ ، ص ١٨-٢١) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ ٢ ، ص ٧١٤ .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٥٢٨ ؛ نهاية الأندلس ، ص ٨٨ .

☆☆ جراند* هو خيرالدو سيمبا فور Geraldo Sem Pavor أي خيرالدو الباسل (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٢٦ ؛ سحر السيد عبد العزيز سالم : تاريخ بطليوس ، جـ ٢ ، ص ١٩٨) وقد اختلف في أصله فقيل إنه من البرتغال نفسها ، وقيل إنه أحد الفرسان الصليبيين الذين استقروا في البرتغال (النشار : تأسيس مملكة البرتغال ، ص ٢٠٩) ولقد عُرِفَتْ به المصادر العربية التي تسميه جراند* الجليقي ، فذكرت صرامته وشدته وأسلوبه في اقتحام المدن الإسلامية ، واستعانة ملك البرتغال به في حرب المسلمين (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٢٨٨-٢٨٩ ؛ ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٠٤) ثم إنه ترك الملك البرتغالي ودخل في خدمة الموحدين عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م فما زال هذا الملك يرأسه سراً ويدعوه إلى المكر بالمسلمين حتى هم بذلك ، فعلم الموحدون به ، فبعثوه إلى المغرب فسجن هناك ، ثم فر من السجن ، فكان عاقبة أمره أن قُتِلَ في -

يقول ابن صاحب الصلاة ^(١) عن جرائدة " ثم غدر حصن شيرة* في عقب جمادى الأولى عام واحد وستين " [وخمسمائة] . فلا يستبعد أن تكون هذه الغارة هي ذاتها التي شارك في مقاومتها أبو محمد الغافقي حتى قضى نوبة مدافعاً عن حرمت المسلمين .

وسواء أكان ما استتجنه صواباً كله أم كان غير ذلك فإن الرواية التي حدثتنا عن موقف أبي محمد الغافقي من النصارى المغيرين على تلك المدينة قد أمدتنا بتفصيل فريد من نوعه عن إقدام بعض العلماء وشجاعتهم وصبرهم ومصابرتهم في مقاومة النصارى بالسلاح ، دع عنك ما ذودتنا به من وصفٍ حيٍّ للقاء بين مُقاتِلَيْن أحدهما مسلم والآخر نصراني ، والأسلوب الذي كان كل واحد منهما يנהجه في مطاعنه صاحبه حتى كأنك ترى ذلك رأي العين.

وإذا انتقلنا من غربي الأندلس إلى شرقيها وجدنا نموذجاً آخر للعلماء الذين اندفعوا إلى قتال النصارى عند غاراتهم على حرمت المسلمين ، ففي أواخر سنة ٥٧٥هـ / ١١٨٠م هاجم العدو بلده لريرة** الكائنة في كورة بلنسية ^(٢) . ولعل هذا الهجوم كان صادراً من نصارى أرغون وبرشلونة ، إذ

- إحدى المراسي المغربية قبل أن يعبر إلى الأندلس (ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٣٠) وانظر أيضاً ما ورد عنه في (البيدق : أخبار المهدي ، ص ٨٩) ولقد تحدث عنه البارودي في (أضواء على المسيحية ، ص ٣٨-٣٩) .

(١) المن بالإمامة ، ص ٢٨٩ .

* وشيرة هي شيرة كما بينا ذلك آنفاً .

** لريرة Liria من أعمال بلنسية (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ٢١٤ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٠٩) وهي قرية قريبة جداً من بلنسية المدينة (شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ٣ ، ص ٢١٧) .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٧٣٤ .

أن هذه المنطقة من شرقي الأندلس كانت في ذلك الحين مجالاً مباحاً لهجماتهم^(١). وحين اقتحم العدو هذه البلدة قاومه أهلها، وكان على رأسهم أبو عمر بن عياد اللري^{*} الذي لم يمنعه بلوغه السبعين من العمر من حمل السلاح للدفاع عن بيضة المسلمين؛ حيث اشتبك مع الأعداء المهاجمين، "فقاتل حتى ائخن جراحاً، ثم اجهزوا عليه، وذلك يوم العيد سنة ٥٧٥هـ". كما يقول ابن الأبار^(٢).

وثمة إشارات إلى علماء قتلوا على إثر هجمات نصرانية على المدن، وقد يكون مقتلهم بسبب أنهم ناشبوا العدو بالسلاح، وربما أنهم راحوا ضحية غارات غادرة تقتل كل من تلقاه من المسلمين. ومن هؤلاء أبو القاسم خلف البكري^(٣) الذي قتل عام ٥٥٦هـ/١١٦١م بأيدي نصارى البرتغال عند قيامهم بغارة غادرة على مدينة بطليوس^(٤). وقد وصلنا خبر مقتله من خلال كتابة منقوشة كانت على قبره، فمما جاء فيها ما نصه "... هذا قبر الشيخ الفقيه أبي القاسم خلف بن حسن بن فرجون البكري نور الله ضريحه وقلس روحه، استشهد بشرقي جامع بطليوس حين غدر العدو لها في صبيحة يوم

(١) ابن مغاور: نور الكمائم وسجع الحمائم، ص ١٥٩. وانظر أشباخ: تاريخ الأندلس، ص ٢٩١. هو أبو عمر بن عياد اللري هو يوسف بن عبد الله بن سعيد بن أبي زيد. من أهل لريرة. كان معتنياً بالحديث وعلومه، نحوياً أديباً. كتب مؤلفات في التاريخ والرجال والحديث والرقائق وغيرها. وتوفي عام ٥٧٥هـ/١١٨٠م (ابن الأبار: التكملة، ط. كوديرا، ج ٢، ص ٧٣٤؛ ابن الزبير: صلة الصلة، ص ٢١١).

(٢) التكملة، ط. كوديرا، ج ٢، ص ٧٣٤.

(٣) فيما تحت أيدينا من مصادر لم نهتد إلى ترجمة للبكري هذا.

(٤) سحر سالم: تاريخ بطليوس، ج ٢، ص ١٩٤.

الخميس أول يوم من ربيع الآخر عام ستة وخمسين وخمسمائة" ^(١) .



أما أثر العلماء أثناء الحملات النصرانية المنظمة على المدن الأندلسية فقد حفظت لنا المصادر جملة من الحوادث التي تعبر عن مقاومتهم لتلك الحملات . وسوف نتناول الحوادث المعنية واحدة بعد الأخرى طبقاً للترتيب الزمني غير ملتفتين إلى مكان المدن من الأندلس من ناحية ، ولا إلى مصدر الهجوم النصراني عليها من ناحية أخرى ، فقد يجيء الحديث - مثلاً - متسلسلاً عن حملات قوة نصرانية معينة على مدن مختلفة ، وربما يأتي بشكل متفرق وفقاً للسنوات التي وقعت فيها ؛ فالغاية هنا رصد مواقف العلماء من هجوم النصارى على المدن أياً كان مصدره ؛ ناهيك عن كوننا - فيما سبق - نعرفنا على القوى النصرانية المعاصرة لزمن الدراسة .

ففي وقت حصار القائد النصراني الشهير القمبيطور مدينة بلنسية مدة عشرين شهراً من رمضان سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م ^(٢) حتى نهاية جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م ^(٣) أبدى أهلها ضروباً رائعة من الصبر على الحصار ، والإصرار على المقاومة ، ومقدرة كبيرة على مواجهة العدو ، وتحمل ما صاحب ذلك من أذى ومحنة حتى بلغ الجهد بهم " والامتحان أن أحلوا مُحَرَّم الحيوان " كما يقول ابن بسام ^(٤) . ويصف ابن علقمة ^(٥) - وهو شاهد عيان -

(١) سحر سالم : تاريخ بطليوس ، ج٢ ، ص ١٩٤ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ٢٩٨ .

(٣) ابن الأبار : الحلة ، ج٢ ، ص ١٢٦ .

(٤) الذخيرة ، ق ٣ ، م ١٠ ، ص ٩٧ .

(٥) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٣٨ .

حال بلنسية في ربيع الثاني من عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م أى في الشهر ما قبل الأخير من الحصار - بقوله "عظم البلاء ، وتضاعف الغلاء ، واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء" ولذا "ترمق سائر الناس بالجلود والإصماغ وعروق السوس ، ومن دون هؤلاء بالفئران والقطط وجيف بني آدم" ^(١) ومع ذلك لم يسلموا مدينتهم إلا بعد أن "عُدمت الأقوات بالجملة ، وهلك الناس ، ولم يبق من ذلك الجم إلا نزر يسير" ^(٢) . وذلك في منسلخ جمادى الأولى من ذلك العام ^(٣) .

وأيام هذه المحنة كان لعلماء بلنسية أثر لا يُنكر ، فمن المعروف أن مقاليد الأمور في المدينة أيام محنتها وقبل ذلك كانت بيد قاضيه أبي أحمد جعفر بن جَحَّاف (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م) ^(٤) . ولذا فهو لم يألُ جهداً عند إحكام القمبيطور حصاره لها في طلب النصرة من المرابطين أولاً ^(٥) ، ثم من المستعين بالله بن هود صاحب سرقسطة ثانياً ^(٦) ، فاستجاب المرابطون ، وبعثوا إليه بقوة عسكرية ، لكنها لم توفق في الوصول إلى بلنسية ^(٧) . وأما ابن هود فلم يفعل شيئاً سوى "التسويق والمطل" ^(٨) . ولاشك أن انتظار أهل بلنسية النجدة من إخوانهم المسلمين ، وأملهم في وصولها إليهم يوماً بعد يوم

(١) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٣٨-٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٠٣-٢٠٤ . وانظر الفصل الثاني من هذا الكتاب .

(٥) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٣٣ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٠٤ .

(٦) المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٣٣ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٠٤ .

(٨) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٣٩ .

قد زرع في نفوسهم الصبر ، وثبتهم على مواجهة المحنة . بل إن ابن جحاف لجأ إلى أساليب رآها معينة - فيما يبدو - على مد عمر المقاومة في المدينة كأمره باقتحام الدور لجمع القوات منها، ومن ثم توزيعه على المحاصرين جميعاً، وكرتغيه لابن هود - لما استنجد به - " في المال والبلد مع الأجر في استنقاذ المسلمين من القتل والأسر " ^(١) وحين لم يُعَدَّ في قوس المقاومة منزع وافق على تسليم المدينة بالأمان بعد أن كلمه الفقيه أبو الوليد الوقشي * (ت ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م) الذي كان الناس قد طلبوا منه إقناع ابن جحاف بعملية التسليم ^(٢). وبعد أن دخل القمبيطور بلنسية ما زال يفتعل الأسباب لإيقاع بابن جحاف حتى قبض عليه بعد مرور عام بحجة إخفائه لأموال كان قد اشترط عليه آداءها ؛ فعذبه عذاباً شديداً، ثم أنهى حياته حرقاً بالنار ^(٣) . وقد جهر المؤرخون بالسبب الحقيقي الذي أغضب القمبيطور على ابن جحاف ، فقَتَلَه هذه القِتلة البشعة فقال بعضهم " ولم يكن غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزمة، واجتهاده في طلب النصر، ودفعه إياه

(١) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٣٨ .

✱ أبو الوليد الوقشي هو هشام بن أحمد بن هشام الكناني ، يُعد أصلاً من أهل طليطلة . وقد وصف بأنه فقيه إمام في اللغة والآداب ، مستبحر في علوم عصره كلها ، وقد توفى بدانية في جمادى الآخرة سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م (ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص ٦٥٣-٦٥٤ ؛ الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤٨٥ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٩٦) . ويبدو أن هجرته من طليطلة كانت بعد سقوطها بأيدي النصارى ، وربما أنه قدم إلى بلنسية مع القادر بالله بن ذي النون صاحب طليطلة الذي مر خبره في صفحات خلت . ومن المرجح أنه خرج - أيضاً من بلنسية بعد احتلال النصارى لها بدلالة وفاته في دانية .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٣٩ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ١٠ ، ص ٩٨-٩٩ ؛ ابن الأبار : الحلة ، ج٢ ، ص ١٢٦ ؛ المقرئ : نفع الطيب ، ج٤ ، ص ٤٥٥ .

بالمطالبة «^(١) رجاءً في استمساك البلدة للإسلام، واستبقاءً للكلمة فيها»^(٢).

فالذي أغاض النصارى - إذن - من ابن جحاف موقفه الصارم ضدهم^(٣) فلا مرية أن تلك المقاومة الأبية التي سطر صفحاتها أهل بلنسية ضد الهجوم النصراني إنما مردها بالمقام الأول إلى ابن جحاف بصفته حاكم المدينة ومصرف شؤونها إلى آخر لحظة من الحصار ، وأسطع دليل على ذلك أن البلنسيين لم يجرأوا على الاتصال بالنصارى لطلب الأمان إلا بعد أن أقنعوه بذلك عن طريق الفقيه أبي الوليد الوقشي .

وكيفما كان الأمر فإن هذا الحقد النصراني لم يقتصر على قائد المدينة ابن جحاف بل تنزى على غيره من علماء بلنسية ، إذ قتل القمبيطور أبا جعفر البتي* بالأسلوب نفسه الذي قُتل فيه ابن جحاف ، فحرقه - أيضاً - بالنار في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م في رواية^(٤)، وسنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م في رواية أخرى^(٥).

(١) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٣٨ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٠٥ .

(٣) السحيباني : جهود مفكري الأندلس ، ص ٧٧ ؛ غير زكريا يومي : دور الفقهاء السياسي والحضاري ص ١٥٩ - ١٦٠ .

* أبو جعفر البتي : هو أحمد بن عبد الولي بن أحمد بن عبد الولي البتي نسبة إلى قرية بُتة بشرقي بلنسية ، كان كاتباً بليغاً ، شاعراً مطبوعاً ، ذا عناية بالآداب واللغة والأشعار الجاهلية والإسلامية (الرشاطي : اقتباس الأنوار ، ص ٢٨ ؛ ابن الخراط : اختصار اقتباس الأنوار ، ص ١٠٩ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص ١٩٥ ؛ ابن دحية : المطرب ، ص ١٩٥ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٦) .

(٤) الرشاطي : اقتباس الأنوار ، ص ٢٨ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص ١٩٥ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٦ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢١ ؛ مجهول : الدرر الثيرة في أخبار الجزيرة ، ورقة ١١٠ ب .

كما أنه قبض على جماعة من البلنسيين ، وصادر أموالهم ، وشدّد عليهم حتى هلك كثير منهم نتيجة ذلك ^(١) .

والظاهر أن العلماء الذين عمل القمبيطور على إنهاء حياتهم كان لهم أثر مميز في صمود مدينتهم عند الحصار ، ثم رَفُضِ الاحتلال النصراني للمدينة والتحريض على التخلص منه ^(٢) . فابن علقمة ^(٣) الذي شهد الأحداث رصد مشاعر الناس حال تسليم بلنسية للنصارى ، فأشار إلى أن انجلاء الحصار عن المدينة خلق جواً من السرور بين أهلها ، إذ " تهللت الوجوه ، وانبسطت النفوس " ثم عاد فاستثنى طائفة منهم بقوله " إلا أهل العقول والنظر في العواقب " ولا جدال أن العلماء كانوا على رأس هذه الطائفة المحزونة التي تأبى الخضوع للنير النصراني ، فتجتهد في الخلاص منه .

ومن جانب آخر لا يُستبعد أن يكون للعلماء الذين صبروا على الحصار في بلنسية ثم خرجوا منها بُعيد استيلاء النصارى عليها ^(٤) جهود في نقل معاناة البلنسيين إلى الحكام المرابطين ، ومن ثم حثهم لاستعادتها . لاسيما وأن بعضهم عبر إلى العدو المغربية ^(٥) . وقد تكون تلك الجهود المباركة إحدى الدوافع المحركة للمرابطين لطرد العدو النصراني منها ، فنراهم يجتهدون في ذلك حتى تمكنوا من إعادة راية الإسلام خفاقة إليها في شهر رجب عام

(١) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٣٨ .

(٢) كريم عجيل حسين : الحياة العلمية في مدينة بلنسية ، ص ١٣٨ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٣٩ .

(٤) انظر أمثلة في : ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ٢٨٦ ؛ ج٢ ، ص ٤٧٨ ، ٥٠٢ ، ط . كوديرا ،

ج٢ ، ص ٦٤٠ ؛ المعجم ، ص ١٦٩ .

(٥) عياض : الغنية ، ص ٢٦٦ .

٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م^(١) .



وحين نازل ملك أرغون بيدو الأول[☆](٢) مدينة وشقة^{☆☆} في أواخر عام ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م حشد المستعين بالله بن هود حاكم سرقسطة جيشاً كثيفاً للدفاع عنها ، إذ كانت وشقة - حينذاك - من أعماله^(٣) . فكان من ضمن المتحقين بجيشه من العلماء أبو جعفر عبد الوهاب الأنصاري^{☆☆☆} (ت ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م) ، فجرت معركة^{☆☆☆☆} ضارية بين الفريقين تواصلت من

(١) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ١ ، ص ١٠١ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٤٢٢ ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ ، ٩١٤ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٥٦ ؛ مجهول : الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ، تحقيق سهيل زكار ، ط . مكتبة دار الملاح ، دمشق ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ص ٦٨ .

☆ بيدو الأول بن سانشو بن راميرو بن سانشو الكبير ، ولي حكم أرغون بعد والده عام ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م واستمر في الحكم حتى وفاته عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ١٠٤-١٠٥ ، ١٣٨-١٣٩ ؛ عنان : دول الطوائف ، ص ٤٠٥-٤٠٦ ؛ ١٢٤ ؛ Jose trrero . op. cit.) (٢) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ١٠٤ .

☆☆ وشقة أو أشقة Huesca تقع إلى الشمال الشرقي من سرقسطة (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٧٤ ، حاشية ٣) والمسافة بينهما تقدر بخمسة وأربعين ميلاً (الإدريسي : أنس المهج ، ورقة ١٦٥) .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٢ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٤٤١ . ☆☆☆ أبو جعفر الأنصاري : هو عبد الوهاب بن محمد بن حكم الأنصاري ، من أهل سرقسطة . لقب بالمقرئ لتصدره ببلده للإقراء ، حيث انتفع الناس بإقرائه وأخذوا عنه ، وقد توفى في آخر عام ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م (ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٣٨-٦٣٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٩٦) . ☆☆☆ هذه المعركة عند النصارى معركة الكراز (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ١٠٥ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١٧) .

بزوغ الشمس إلى غروبها ، فكانت عاقبتها انكسار المسلمين ^(١) ، ومقتل جم غفير منهم ^(٢) ، وقد جاء أبو جعفر في طليعتهم ، يقول ابن الأبار ^(٣) فيه " واستشهد في وقعة وشقة سنة ٤٨٩ هـ في آخر ذي القعدة أو أول ذي الحجة منها " . فكان بعمله هذا أحد الذين حملوا السلاح للجهاد في سبيل الله والدفاع عن مدينة وشقة ضد الأطماع النصرانية .



ولقد شارك المقرئ أبو زيد بن قرايش [☆] في الذود عن حمى سرقسطة التي تعرضت لهجوم نصراني ^(٤) من قبل ابن ردمير (الفونسو المحارب) ملك أرغون. وكان ذلك بعد ضم المرابطين لها مباشرة في سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ^(٥) وحاصل ما حدث أن الفونسو المحارب تقدم نحو سرقسطة بجيشه ، فلما صار على قيد مسافة قليلة منها أمر واليها المرابطي أبو عبد الله بن الحاج الناس بالنهوض لردّه ^(٦) ، فكانت ابن قرايش أحد الذين بادروا بالنهوض ^(٧) . ومع

(١) الطرطوشي: سراج الملوك، ج٢، ص ٦٨٥-٦٨٦ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٢ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٦٣٩ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٢ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٤٤١ .

(٣) التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٦٣٩ .

☆ أبو زيد بن قرايش هو عبد الرحمن بن محمد بن حيوة الأنصاري . من أهل وشقة ، ولكنه سكن سرقسطة . كان مقرئاً ماهراً ، نحوياً ، حافظاً . توفي في سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م (ابن الأبار : التكملة ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٥٥٤-٥٥٥) .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٥٥٥ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٥٤ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٥ .

(٦) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٥٤ .

(٧) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٥٥٥ .

أن ابن الحاج قضى يومه في ترتيب رجاله ، وتهيئتهم للحرب ؛ إلا أن أعدادهم تناقصت في العشي بعد تسلل جماعات منهم إلى المدينة ، فانتهر الملك النصراني الفرصة ، وتقدم لقتالهم^(١) ، فدارت في منتصف ذي الحجة من عام ٥٠٣هـ / ١١١٠م معركة بين الطرفين^(٢) ، قاتل فيها ابن قرايش - الأنف الذكر - حتى قُتل^(٣) مع جماعة من إخوانه المسلمين^(٤) . ولكن بالرغم مما حصل في صفوف المسلمين من قتل إلا أنهم نجحوا في الاحتفاظ بمدينةهم سرقسطة ، فلم يستطع النصارى دخولها هذه المرة^(٥) فكان في ذلك بيان واضح على مقدار الجهد الذي بذله المسلمون - وفيهم العلماء كأبي زيد بن قرايش - للدفاع عن هذه المدينة ، ودرء العدوان النصراني عنها .



ولما استغل النصارى الصراع الدائر بين المرابطين والموحدين ، وتجمعوا في حلف واحد من قوى متعددة من داخل إسبانيا وخارجها[☆] ، وقصدوا ساحل

(١) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٥٤ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٥ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٥٥٥ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ج٤ ، ص ٥٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٥ .

☆ كانت هذه القوى من إسبانيا وإيطاليا ، وقد انضوت تحت قيادة ملك قشتالة الفونسو السابع الملقب بالسليطين (٥٢٠هـ / ١١٢٦م - ٥٥٢هـ / ١١٥٧م) (أشباه : تاريخ الأندلس ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٣٧١ ، ٥٠٨ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ص ٩٣ - ٩٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم والعبادي : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٢٤٩ ، ١٤٤ ؛ Joseph McCabe , op. cit . P . وقد صرحت مصادر إسلامية بالسليطين بصفته زعيماً للنصارى المحتلين لمدينة المرية (المقري : نفح الطيب ، ج٤ ، ص ٤٦٣) .

الأندلس الجنوبي ، واقتحموا ميناء المَرِيَّة عنوة في شهر جمادى الأولى عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م^(١) بعد حصار دام ثلاثة أشهر^(٢) " قتلوا أهلها ، وسبوا نساءهم وبنيتهم ، وانتهبوا أموالهم " ^(٣) فكان في عداد القتلى من أهل البلد أبو محمد الرشاطي الذي قال في مقتله ابن الأبار^(٤) " واستشهد بالمريّة عند تغلب الروم عليها صبيحة يوم الجمعة الموفى عشرين لجمادى الأولى سنة اثنين وأربعين وخمسمائة " . وكذلك أبو الحجاج بن القفال^{☆☆} الذي قال عنه ابن الزبير^(٥) " واستشهد - رحمه الله - في دخول العدو المريّة ، وذلك في الموفى عشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢هـ " .

ومقتل هذين العالمين^{☆☆☆} يوم اقتحام النصارى المدينة يثبت أنهما كانا

(١) ابن الأبار: التكملة، ط. كوديرا، ج٢، ص٧٣٢؛ المقرئ: نفح الطيب، ج٤، ص٤٦١، ٤٦٣. وانظر إشارة إلى هذا الاحتلال النصراني للمريّة في: ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٢٦٤-٢٦٥، ٢٧١. (٢) أشباح: تاريخ الأندلس، ص٢٢٥.

☆☆ للتعرف على ظروف هجوم النصارى على المريّة ودوافعهم في ذلك، ثم حصارهم واحتلالهم لها. انظر دراسة موسعة في (محمد أحمد أبو الفضل: دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، ط. دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٩٦م، ص٢٣١-٢٦٤).

(٣) المراكشي: المعجب، ص٢٨٠.

(٤) المعجم، ص٢٢٨. وانظر أيضاً: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص١٠٧؛ المقرئ: نفح الطيب، ج٤، ص٤٦٢؛ الزبيدي: تاج العروس، ج١٠، ص٢٦٣.

☆☆ أبو الحجاج بن القفال هو يوسف بن علي بن محمد القضاعي، ويعرف أيضاً بالحداد، من أهل أُنْدَة. رحل إلى المشرق، فلما آب إلى الأندلس سكن المريّة. كان أديباً فاضلاً، صدوقاً صحيح السماع. وكانت وفاته في جمادى الأولى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م (ابن الأبار: التكملة، ط. كوديرا، ج٢، ص٧٣٢؛ ابن الزبير: صلة الصلة، ص٢٠٦).

(٥) صلة الصلة، ص٢٠٦. وانظر أيضاً: ابن الأبار: التكملة، ط. كوديرا، ج٢، ص٧٣٢.

☆☆☆ ذكر ابن الزبير أن يوسف بن يقي بن يسعون التحبيبي التاجلي، توفي عند دخول النصارى المريّة (صلة الصلة، ص٢٠٥) لكن ابن الأبار وهو أسبق من ابن الزبير ذكر أن يوسف المذكور توفي بعد سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م (التكملة، ط. كوديرا، ج٢، ص٧٣٣).

من الذين تحملوا شدايد الحصار الذي امتد ثلاثة أشهر . وأما صيغة الاستشهاد التي عُبر بها عن مصير كل واحد منهما ساعة احتلال العدو للمدينة ، وذلك في صبيحة يوم الجمعة العشرين من جمادي الأولى ففيه احتمالان ، الأول أنهما قاوما العدو بالسلاح حين دخوله المرية ، فقاتلا حتى سقطا قتيلين . والاحتمال الثاني أنهما قُتلا مع الناس بأيدي العدو ، وإن لم يشهرا السلاح في وجهه . فالنصارى كما سبق قُتلوا أهل المرية بمجرد أن دخلوا مدينتهم .



ولقد شارك العلماء في الدفاع عن مدينة قصر أبي دَانِس* عندما هاجمها النصارى في أوائل سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م . حيث أن نصارى البرتغال اغتتموا مرور الصليبيين الألمان المتجهين إلى المشرق بالساحل الغربي للأندلس ، ودعوهم إلى التعاون في احتلال مدينة قصر أبي دَانِس^(١) ، فسار الجميع إليها ، وضربوا حولها الحصار^(٢) ، فما كان من أهلها إلا أن استنجدوا بالموحدين ، فبادر هؤلاء الأخيرون بدفع جيوشهم إليها من غربي الأندلس وإشبيلية

☆ قصر أبي دَانِس أو القصر Alcacer ينسب إلى جد من بني دَانِس بن عوسجة المصمودي من البربر البرانس (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٥٠١) ويقع على نهر شَطُوبَر الذي يسمى أيضاً نهر أبي دَانِس ، والمسافة بين القصر ولشبونة الواقعة إلى الشمال الغربي منه أربعون ميلاً (الإدريسي : أنس المهج ، ورقة ١٤٤ ؛ ابن سعيد : الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربي ، ط . المكتب التجاري ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ص ١٧٨) وهو الآن مركز إداري في مديرية يَابُرة بالبرتغال (ابن الأبار : الحلة : ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، حاشية ١) .

(١) عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق ٢، ص ٣٣٨؛ محمود سعيد عمران: دور الحركة الصليبية في تكوين

ملكية البرتغال ص ٢٣. ٤٢، P., ١٩٨٤., la Reconquista, Barcelana, Derk W. Lomax :

(٢) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٦١ .

وقرطبة وجيان لإنجاحها^(١)، فخفف مع حشود إشبيلية أبو بكر بن محمد بن عبدالنور السبائي^(٢) الذي تعود على حضور الغزوات^(٣)، وأبو العباس أحمد بن محمد الأنصاري* الذي عُرف بالمجاهد^(٤)، ربما لكثرة خروجه للجهاد. ولما تراءى الجمعان عند قصر أبي دانس خامر قلوب المسلمين الرعب^(٥)، وتخاذل رؤساؤهم^(٦)، فولوا الأدبار، وأخذوا بالفرار^(٧)، وجرت معركة غير متكافئة في أحد شهري ربيع عام ٦١٤هـ/١٢١٧م^(٨) قُتل فيها آلاف من المسلمين^(٩)، فكان العالمان المذكوران قبل قليل في طليعتهم. قال الرعيني^(١٠) عن شيخه أبي بكر السبائي "توفي شيخنا أبو بكر هذا مستشهداً في كائنة قصر أبي دانس في عام أربعة عشر وست مائة، وكان قد حضر قبلها غزوات "أما أبو العباس الأنصاري فقد قيل في مقتله "واستشهد - نفعه الله - في كائنة قصر أبي دانس سنة أربع عشرة وستمائة" ^(١١).

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٤٢٢ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٦٢ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٩٦ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٤١٣ .

* أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن عبيد الله الأنصاري ، من أهل إشبيلية . كان خيراً فاضلاً ، انصرف إلى تعليم الناس فنفع الله به خلقاً كثيراً . وكانت وفاته في عام ٦١٤هـ/١٢١٧م (ابن عبد

الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٧١) .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٧١ .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٤٢ .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٧) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٤٢ .

(٨) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٩٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٤١٣ .

(٩) ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

(١٠) برنامج شيوخ الرعيني ، ص ١٨ .

(١١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٧١ .

وهكذا هب هذان العالمان من إشبيلية ، والتحقا بالجيش الإسلامي ،
وحملا السلاح - كدأب العلماء - نصرة لإخوانهم أهل قصر أبي دانس ،
ودفاعاً عن ذمارهم ، فشاركوا في قتال النصارى المعتدين حتى فقدوا حياتهما
في سبيل الله . وقد كانت هذه الواقعة التي شاركوا فيها من الوقائع المؤثرة على
مجرى الأحداث في الأندلس يومذاك ، وقد عبر أحد من عايش وقوعها
- وهو ابن الأبار - ^(١) بقوله عنها " وهي إحدى الكوائن المنذرة حينئذ بما
آل إليه أمر الأندلس الآن " ، إذ سقطت على إثرها قصر أبي دانس بأيدي
النصارى في جمادي الأولى من ذلك العام ^(٢) ، وبسقوطها زالت عقبة كأداء
أمام الزحف البرتغالي نحو الجنوب الأندلسي ، فتهاوت بعدها المدن الإسلامية
في ذلك الصقع واحدة تلو الأخرى ^(٣) .

وحينما تغلب النصارى [☆] على مدينة لَوْشَة ^{☆☆} سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م في
رواية ^(٤) ، وسنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م في رواية أخرى ^(٥) ، أقدموا على أسر خطيبها

(١) الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٢) ابن الأبار : الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٣) محمود سعيد عمران : دور الحركة الصليبية في تكوين مملكة البرتغال ، ص ٢٧ .

☆ المقصود بالنصارى هنا هم نصارى قشتالة بقيادة ملكهم فرناندو الثالث (عنان : عصر المرابطين
والموحدين ، ق ٢ ، ص ٣٥٩) .

☆☆ لَوْشَة Loja من أعمال غَرْنَاطَة (ابن الأبار التكملة ، ج ١ ، ص ١١٤) وهي على نهر شَنْيَل ،
وتقع إلى الغرب من إلبيرة (غرناطة) المدينة (ابن الخطيب : اللوحة البدرية ، ص ٢٨) والمسافة
بينهما خمسة وعشرون ميلاً (الإدريسي : أنس المهج ، ورقة ١٥٣ ؛ صفة المغرب ، ص ٢٠٤) وهي
الآن من مدن إسبانيا المتوسطة الحجم (عنان : الآثار الأندلسية ، ص ٢٣٦) .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٦١ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧٤ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٧١ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٧٤ .

وصاحب الصلاة في جامعها أحمد الأنصاري*^(١) (ت ٦٢٤هـ/١١٢٧م) .
 وحيث أن تغلبهم عليها كان بمساعدة أحد أبناء الأسرة الموحدية**حال
 منافسته على الحكم في البلاد^(٢) فإن أسر هؤلاء النصارى لهذا العالم قد يرجع
 إلى كونه دعا إلى مقاومتهم بالسلاح ، لأنهم احتلوا المدينة " وعاثوا بها أشد
 العيث " ^(٣) وربما كان أسرهم له بسبب قيامه بإثارة الناس عليهم ، أو بمجرد
 خوفهم أن يفعل ذلك*** ، فقد كان - كما مر - خطيب لوشة وإمامها .
 وعلى أي حال فإنه لم يمكث طويلاً في الأسر ، إذ أنقذه الله تعالى
 منه ، ثم توفي بعد إطلاقه بأيام ^(٤) .



وأيام تكالب النصارى بقيادة خايمي الأول (٦١٠هـ/١٢٢٣م -

☆ هو أحمد بن علي بن يوسف الأنصاري ، يكنى بأبي جعفر وبأبي العباس . كان محدثاً زاهداً ورعاً ،
 اعتنى بالرواية ولقاء المشايخ والأخذ عنهم . وقد توفي بمالقة في ربيع الآخر سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م (ابن
 الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ١١٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٤٥ .
 (١) ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ١١٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٤٥ .
 ☆ المقصود هنا أبو محمد عبد الله البياسي في صراعه مع العادل (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ،
 ص ٢٧١) .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٧١ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧٣ -
 ١٧٤ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٦١ .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٦١ .

☆☆ ولقد ورد أن أحد علماء لوشة أحمد بن محمد العكي وصاحباً له اسمه أبو إسحاق بن إبراهيم قد
 امتحن بأسر النصارى لهما ، فتوفي الأول منهما أسيراً بأيديهم في آخر سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م
 (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٨٩) فهل كانت ظروف أسرهما

تماثل أسر خطيب لوشة المنوه عنه بالمتن ؟

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١١٤ .

٦٧٥هـ/١٢٧٦م) ملك أرغون وبرشلونة على جزائر الأندلس الشرقية ، وتصميمهم على احتلال ميورقة منها تصدر العلماءُ جموعَ المدافعين عنها ، فكانوا مضرب المثل في الإقدام على المواجهة ، والمصابرة على القتال ، والتضحية بالنفس في سبيل جهاد أعداء الله. ففي شوال سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م وصلت الأساطيل النصرانية ساحل ميورقة ^(١) ، فحاض بعض أفرادها في الثامن عشر من ذلك الشهر معركة مع المسلمين ، فتراجع المسلمون أمامهم ، ثم استجمع النصارى قوتهم ، واندفعوا لضرب الحصار حول مدينة ميورقة نفسها ^(٢) ، فجرى لها " من القتال وشدة الحصار، وأنواع المحن ما لم يجر مثله في زمان " على حد تعبير الحميري ^(٣) . ولهذا السبب قيل إن حاكمها أبا يحيى التينملي ^{✳✳} فاوض الملك النصراني خايمي الأول كرتين، فأغراه أولاً بالمال مقابل الانسحاب ، ولما لم يقبل عرض عليه في الثانية تسليم المدينة ، وتأمين أرواح من بها من المسلمين ، فرفض أيضاً هذا العرض تحت تأثير كبار القادة

(١) ابن المستوفي : نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأمائل (تاريخ إربل) ، تحقيق سامي الصقار ط . دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠م ، ق ١ ، ص ٤٣١ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٩١ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٧٠ .

✳✳ أبحر الأسطول النصراني الذي اتخذ الصليب شعاره من ساحل برشلونة (قطلونيا) في مائة وخمسين سفينة كبيرة ، وعدد كبير من الزوارق الصغيرة . وانضم إليه كثير من المتطوعين الجنوبيين والبرفانس والألمان وفرسان الداوية (أشباخ : الأندلس ، ص ٤١٨ ؛ سيسالم : جزر الأندلس المنسية ، ص ٤١٩) .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٧٠ (والمقرئ ينقل بتصرف وتلخيص من كتاب : ابن عميرة المخزومي : تاريخ ميورقة) .

(٣) صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٩١ .

✳✳ أبو يحيى التينملي : هو محمد بن أبي الحسن علي بن أبي عمران موسى التينملي ، نصب والياً على ميورقة سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م (المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٦٩) وأشار ابن عذارى أن الناصر الموحدى ولاه عليها سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م (البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٥٦) وانظر أيضاً (ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٦٧ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٣٣٢ ، ٣٧٩) .

والنبلاء والرهبان الذين أصروا على مواصلة الحصار^(١). ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م "قاتلوا البلد قتلاً شديداً"^(٢) ، واستمر القتال مستعراً بين الجانبين حتى استطاع العدو النصراني اقتحام المدينة عنوة بعد يومين^(٣) ، وذلك في يوم الاثنين الرابع عشر من صفر المذكور^(٤) ، فارتكب في حق أهلها مجزرة شنيعة^(٥) . وقد أفادت المصادر أن عدداً من العلماء تعرضوا للقتل والأسر في ذلك اليوم ، ونكاد نجزم أن قتلهم وأسرههم قد حدث وهم يقاومون الغزاة ، ويحثون الناس على القتال^(٦) . فمن الذين قتلوا إبراهيم بن محمد الأنصاري ، حيث يذكر النباهي^(٧) أنه سكن ميورقة ، وولى قضائها ، ويوم تغلب عليها النصارى في يوم الاثنين الرابع عشر من صفر سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م "استشهد بها" . وكذلك خطيب ميورقة عبد الملك بن إبراهيم العبدري قُتل في المواجهة مع النصارى عند دخولهم المدينة في اليوم نفسه^(٨) . وقد صرح الذهبي^(٩) في ترجمته لمحمد

(١) سيسالم: جزر الأندلس المنسية ، ص ٤٢٦-٤٢٨؛ عنان: عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ص ٤٧١ .

(٣) سيسالم : جزر الأندلس المنسية ، ص ٤٢٩ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٦٢٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ١٢ ، ص ٦ ، ص ٦ ، وانظر أيضاً : ابن المستوفى : نباهة البلد الحامل ، ق ١ ، ص ٤٣١ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٧٥ .

(٥) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٧١ . وانظر استعراضاً مطولاً لما قيل عن هذه المجزرة في :

سيسالم: جزر الأندلس المنسية ، ص ٤٣١-٤٣٢ .

(٦) سيسالم : جزر الأندلس المنسية ، ص ٤٧٥ .

(٧) المرقبة العليا ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٨) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٢٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ١٢ .

(٩) تاريخ الإسلام (الطبقة الثالثة والستون) ص ٢٦٧ .

ابن أحمد البكري* أنه " عُدِمَ في دخول الروم ميورقة في صفر " ولا جدال أن مقصوده بدخول الروم هو الاحتلال النصراني الذي نتحدث عنه هنا ، بدليل أن البكري هذا قد استقصى في ميورقة قبل هذا الاحتلال بشهر أو نحوه (١)☆☆ .

أما الذين تجرعوا ذل الأسر من العلماء عند سقوط ميورقة☆☆☆
فيأتي على رأسهم المتصدر لإقراء القرآن في البلد ، والمناوب لعبد الملك العبدري على الخطبة بالجامع علي بن أحمد العبدري الذي توفي وهو يرسف في قيود الأسر (٢)☆☆☆☆ . وأيضاً إبراهيم بن إسحاق

☆ هو محمد بن أحمد بن عبدود البكري يكنى بأبي عبد الله ، كان فقيهاً مفتياً ، له اهتمام بعلم العربية وقرض الشعر . توفي في صفر عام ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م (ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٦٢٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ص ٧ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام (الطبقة الثالثة والستون) ص ٢٦٧) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٦٢٤ .

☆☆ ذكر ابن عبد الملك المراكشي أن محمد بن عبد الله البكري قُتل في ميورقة عند تغلب الروم عليها ، ولم يُعط تاريخاً لذلك (الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٣٢٧) ونظراً لكوننا لم نستطع تبين العصر الذي عاش فيه هذا العالم فإنه لا يمكننا القطع بمقتله عند احتلال النصارى ميورقة عام ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م لأن النصارى سبق لهم في سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م أن احتلوها واستعادها المسلمون في السنة التالية (انظر : التمهيد من هذه الدراسة) ولذلك يحتمل أن يكون مقتل البكري في الاحتلال النصراني الأول أو الثاني . أو ربما أن ترجمة هذا البكري اختلطت بترجمة البكري المشار إليه في المتن .

☆☆☆ وما يجدر ذكره أن النصارى قبضوا على حاكم ميورقة أبي يحيى التينمللي فعذبوه حتى مات تحت وطأة العذاب (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٩١ ؛ المقرئ ، نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ٤٧١) .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ١٨٣ .

☆☆☆☆ بعض المسلمين الذين وقعوا أسرى في أيدي النصارى عند سقوط ميورقة تقاذفتهم الأيدي حتى صاروا عند نصارى المشرق ، حيث نجد أسرين من أهل ميورقة في حوزة نصراني في عكا (القشتالي : تحفة المغرب ببلاد المغرب ، تحقيق فرناندو دي لاجرانخا ، ط . المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٧٤م ، ص ١٧٣) .

العبدري* الذي وقع أسيراً في أيدي الغزاة ، فبقى مدة في الأسر ، ثم أفرج عنه** ، فقدم بلنسية ، ثم انتقل إلى دانية ، وبعدها لحق بتونس ، فتوفى بها آخر عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٥م^(١) .

وهناك جماعة من الميورقيين يتقدمهم العلماء قرروا مواصلة مقاومة النصارى المعتدين ، فأنحازوا من المدينة إلى أحد الجبال القريبة منها ، واعتصموا به ، وظلوا يناشبون العدو القتال حوالي سنة وخمسة أشهر حتى انتهى أمرهم بالصلح في شعبان سنة ٦٢٨هـ/ ١١٣١م^(٢) . وليس إلى الشك سبيل أن مَنْ اختار من العلماء الاعتصام بذلك الجبل*** تلك المدة سيئذل قصارى طاقته في جهاد الأعداء باللسان تارة ، وبالسنان تارة أخرى . فمن الذين انخرطوا في تلك الجماعة أبو علي عمر بن أحمد العمري**** ، فكان يقوم بأعمال القضاء في الجبل أثناء المقاومة إلى أن توفي فيه خلال سنة ٦٢٨هـ/

* إبراهيم بن إسحاق بن محمد العبدري ، يكنى بأبي إسحاق ، يُعرف بابن عائشة ، كان من فقهاء بلده ميورقة ، وقد توفي في تونس في ذي القعدة سنة ٦٤٢هـ/ ١١٤٥م (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١٧١-١٧٢) .

* نص ابن المستوفي أن أبا علي الحسن بن محمد الأندلسي وَرَدَ إربيل في ذي القعدة سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م يستغيث بحاكمها أبي سعيد كوكبوري بن علي لفكاك ما يقدر فكاه من أسرى ميورقة (نباهة البلد الخامل ، ق ١ ، ص ٤٣٠) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١٧١-١٧٢ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٤٥ .

*** انظر تفصيلاً موسعاً عن حركة المقاومة في هذا الجبل في (سيسالم : جزر الأندلس المنسية ، ص ٤٣٣-٤٣٧) .

**** هو عمر بن أحمد بن عمر العمري نسبة إلى عمر بن الخطاب ؓ ، اشتهر بقوة الحفظ ، فكان يستظهر الموطأ وغيره ، وقد توفي في حصن بُلائسنة سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٤٤٢) .

١٢٣١م^(١) . كما كان أبو العباس بن المواق^(٢) ممن سارع إلى الانضواء إلى جبل ميورقة لئیسهم في المقاومة مع إخوانه ، فلما نزلوا منه صلحاً هاجر إلى المغرب فعاش هناك إلى وفاته سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م^(٣) .



وقبل أن تغادر إسهام العلماء في رد العدوان النصراني على المدن* نخرج على عمليّن نراهما يتصلان بجهودهم في حماية المدن والديار عنها : أولهما: المخاطرة بالنفس والتسلل من المدينة لمقابلة القادة المنوط بهم دفع العدو عنها. وثانيهما: الكتابة من المدينة المحاصرة إلى المسؤولين في الأندلس لإطلاعهم على ظروف المدينة ، وتذكيرهم بأنجع الوسائل لإنقاذها . وقد تجسد هذان العملان كلاهما في غضون حصار النصارى لسرقسطة عام ٥١٢هـ/١١١٨م. ففي أيام محتنها بالحصار تسلل منها خطيبها أبو زيد بن منتيال* وبصحبه

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ٢ ، ص ٤٤٢ .

(٢) ابن المواق : اسمه أحمد بن علي الأنصاري ، كان فقيهاً حافظاً ، وُصف بالوقار والنزاهة . وقد توفى بتونس سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م (ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ص ١، ق ١، ص ٣٤٥-٣٤٦)

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ١ ، ق ١ ، ص ٣٤٥-٣٤٦ .

✠ جاء عند ابن الأبار أن أبا جعفر أحمد بن يوسف بن إسماعيل بن صاحب الصلاة الذي كان من أهل باجة قد استشهد عند باب الجامع في غدر العدو بلده ، وذلك في ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م (التكملة ، ج ١ ، ص ٦٥) وقد ورد في مصدر آخر التأكيد على غدر نصارى البرتغال مدينة باجة في تلك الليلة نفسها (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٢٨٩) ويظهر أن ابن عذارى خلط بين خبر هذا الغدر وخبر هجوم آخر عليها سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م فأشار إلى مقتل أبي جعفر بن صاحب الصلاة في ذلك الهجوم (البيان، ق. الموحد، ١٢٧) ونظراً لأن النص أكد غدر العدو لباجة ، وأنه كان في ليلة ٢٢ التي لا تعد من ليالي الإبدار فالاحتمال الأكبر أن لا يكون مقتله حصل بعد مقاومة للعدو ، ولذا آثرنا عدم تصنيفه ضمن العلماء الذين دافعوا النصارى عن المدن. ✠ أبو زيد بن منتيال أو منتيال هو عبد الرحمن بن عبد الله بن منتيال الأنصاري ، من أهل سرقسطة ، صهر القاضي أبي علي الصدي ، كان رجلاً ديناً ورعاً ، أديباً شاعراً ، وكان خطيباً بليده . توفي في صدر سنة ٥١٥هـ/١١٢١م (ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٤٦-٣٤٧) .

الفقيه أبي الحسن بن مسعود الخولاني* إلى الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين لِيُطْلَبَا منه بالنيابة عن أهلها مواجهة النصارى المحاصرين لهم. قال ابن عبد الملك المراكشي^(١) في ترجمته لأبي الحسن الخولاني "وهو الذي خرج مع الخطيب أبي زيد بن متيئال إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين في حصار سرقسطة، وكلماه عن أهلها... في مناجزة العدو...". وكان حصار سرقسطة الموماً إليه في النص قد ابتدأ في أوائل سنة ٥١٢هـ/١١١٨م^(٢) على يد ملك أرغون الفونسو المحارب الذي أطبق عليها بجيشه ومن استجاب له** من نصارى إسبانيا وفرنسا^(٣). حيث كان قد استغل وفاة والي المدينة*** وبقاءها مدة بدون والٍ في الدعوة إلى غزوها، ومن ثم

☆ أبو الحسن هو علي بن مسعود بن إسحاق بن عصام الخولاني. كان فقيهاً مشاوراً، حافظاً للمدونة، بارعاً في الوثائق، له حظ وافر من الأدب. توفي سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م (ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ص ٥، ق ١، ص ٤٠٨-٤٠٩).

(١) الذيل والتكملة، ص ٥، ق ١، ص ٤٠٨.

(٢) ذاك أن الحميري حدد محاصرة النصارى لها بتسعة أشهر (صفة جزيرة الأندلس، ص ٩٧) وقد انتهى الحصار في رمضان من تلك السنة (ابن الأبار: التكملة، ج ١، ص ٢٠٠) وقد أفادت رواية أن بداية الحصار كان في مستهل صفر من سنة ٥١٢هـ/١١١٨م (عنان: عصر المرابطين والموحدين، ق ١، ص ٩٢ "نقلاً عن ابن عذاري: أوراق مخطوطة من البيان المغرب").

☆☆ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٦٣؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ٩٨.

(٣) أشباح: تاريخ الأندلس، ص ٤٤؛ شعيرة: المرابطون، ص ١٤٨؛ عبد الواحد شعيب: دور المرابطين في الجهاد بالأندلس، ص ١٢١-١٢٢.

☆☆ هذا الوالي هو أبو بكر بن إبراهيم المسوفى، وهو زوج أخت علي بن يوسف، وقد توفي عام ٥١٠هـ/١١١٦م (ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٠٤-٤٠٨)، وفي رواية أن وفاته كانت في عام ٥١١هـ/١١١٧م (عنان: عصر المرابطين والموحدين، ق ١، ص ٨٩ "نقلاً عن ابن عذاري: أوراق مخطوطة من البيان").

إحكام الحصار عليها^(١)، لاسيما وأنه كان قبل ذلك لا يكف عن مضايقتها والإغارة عليها كلما لاحت له فرصة، أو سنحت له نهزة^(٢).

ويظهر أن وضع المدينة تخرج كثيراً عقب وفاة القائد المرابطي عبد الله ابن مزديلي^(٣) الذي ظل يدافع عنها بمقدرة فائقة^(٤) منذ وصوله إليها في ربيع الأول سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م^(٥) ولذا خرج الخطيب ابن منتيال وصاحبه إلى تميم بن يوسف بن تاشفين المسؤول عن ولاية شرقي الأندلس حينذاك طالبين منه باسم أهل سرقسطة التحرك لمناجزة العدو. ونظراً لكون الرواية لاتحدد مكاناً للقائهما به فأمانا احتمالان، إما إنهما التقيا به في بلنسية مقر ولايته في تلك الأيام^(٦). وإما إنهما التقيا به على مقربة من سرقسطة حين قدم بجيش لاستنقاذها حسب أوامر أخيه حاكم المرابطين

(١) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٣ ، ص ٦٥٢ ، ٦٧٢ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٠٨ . وانظر حسين مونس : الثغر الأعلى ، ص ٢٣ ؛ عبد الواحد شعيب : دور المرابطين في الجهاد ، ص ١٢١ .

✽ عبد الله هذا هو ولد مزديلي بن تيولتكان اللمتوني قريب يوسف بن تاشفين في النسب ، وأحد رجال دولته الكبار (ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٢٧٤-٢٧٥) . ولي عبد الله بن مزديلي بعد وفاة والده عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م غرناطة (ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٦٠-٦١) ثم كان سيره إلى سرقسطة ووفاته بها (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٢-١٦٣) انظر بعض أخباره في (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٧٢ " نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان " ؛ ميراندا : علي بن يوسف ، ص ١٦٦) .

(٣) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٣ ، ص ٦٥٣ . ويذكر ابن عذاري أن وفاته كانت في رجب من ذلك العام (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٩٤ " نقلاً عن : أوراق مخطوطة من البيان ") .

(٤) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٣ ، ص ٦٥٣ ، ٦٧٣ .

(٥) المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٥٨٩ .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٣ .

علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ هـ / ١١٠٦ هـ - ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م) (١).

هذا فيما يتعلق باختراق العلماء الحصار للاتصال بالقادة المنوط بهم الحفاظ على المدن والدفاع عنها* . أما الكتابة من المدينة المحاصرة إلى المسؤولين لتعريفهم بأحوالها وندبهم للإسراع في إنقاذها من براثن الأعداء فقد جاءت على لسان قاضي سرقسطة ثابت بن عبدالله** إلى الأمير نفسه تميم بن يوسف بن تاشفين ، وذلك في الأيام الأخيرة من الحصار النصراني للمدينة ، وبالتحديد في يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر شعبان عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م (٢)*** . فبعدما يشرح في رسالته للأمير معاناة أهل سرقسطة ، وما أصابهم من جراء الحصار من كرب عظيم ، وجهد أليم ، وما سوف

(١) رسالة قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين ، نشرها حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٤٦ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٥٣٩ .
* لقد أتت إشارة إلى أن الفقيه أباعبد الله محمد بن عبد الله الأنصاري خرج من بلده بلنسية لما حاصرها النصارى عام ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م قاصداً مرسية لاستمداد أهلها (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٣٠٥) .

** ثابت بن عبد الله بن ثابت بن سعيد بن ثابت بن قاسم بن ثابت بن حزم العوفي ، يكنى بأبي الحسن قاضي سرقسطة ، كان نبيه البيت والحسب ، توفي بقرطبة سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م (ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٢٢ - ١٢٣) وقد نسب إليه ابن فرحون كتاب الدلائل الذي ألفه أحد أجداد ثابت (الديباج المذهب ، ج ١ ، ص ٣١٩ ، ٣٢٠) ومن المستغرب أن يجزم حسين مؤنس بعدم وجود أي معلومات عن ثابت بن عبد الله هذا (الثغر الأعلى ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، وحاشية ٤) .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٩٦ .

*** نظراً لأن كاتب الرسالة قد أرحها بقوله فقط " يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان " فقد أشكل على حسين مؤنس لما نشرها تحديد السنة ، فذهب إلى أنها كتبت سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م معتمداً على مقارنتها بوثقتين نشرهما بعدها (الثغر الأعلى ، ص ٤٣) بيد أن محمد عبد الله عنان قطع بأنها كتبت أثناء الحصار ، لأن نص الرسالة وفقراتها المتتالية تدل على ذلك ؛ فضلاً عن كون تميم الذي وجهت له قد توفي سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م أي قبل السنة التي حددها مؤنس (عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٩٨ ، حاشية ١) وقد دلل العجلان على أنها كتبت في سنة الحصار وذلك بما جاء فيها من -

تكون حالهم وحال مدينتهم لو سقطت بأيدي النصارى - يتوجه له بالخطاب بصفته المسؤول الأول عنها ، إذ ابتعته حاكم المرابطين علي بن يوسف بالأجناد نحوها ، وندبه إلى مقارعة العدو . ثم يلومه على تراجعته عن لقاء ذلك العدو ، ويبيدي تحسره على الإسلام إن كان أنصاره بهذه المثابة^(١). وبعد ذلك يُلفت نظره إلى أهمية سرقسطة بالنسبة لمن يحكمون الأندلس بقوله " فسرقسطة ... هي السد الذي إن فُتق فتقت بعده أسداد ، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله استبيحت له أقطار وبلاد " ^(٢) . ثم ينبهه إلى أن أقوم طريقة لإنقاذها تتمثل في قتال الأعداء ﴿ فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره ، ولمن حامى عن دينه أن يؤيده ويظهره " ^(٣) . ثم يهون عليه شأن هؤلاء الأعداء ، لأنهم سيكونون صيداً سهلاً لرماح المسلمين وسيوفهم. ثم يستثير حماس الأمير بأسلوب مبطن بالتهديد ، وذلك بالإشارة إلى الهدف من إرسال الكتاب إليه بقوله " وكتابتنا هذا أيها الأمير اعتذار تقوم لنا به الحجة في جميع البلاد، وعند سائر العباد في إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والإلحاد " ^(٤). وبعدها يؤكد أن أهل

= دعاء لله بحراسة المدينة ، وذكر لمعانة أهلها المحاصرين سبعة أشهر ، وكون بعض العبارات فيها توحى بأنها ما زالت في حوزة المسلمين ، ثم ما ورد فيها حول تحذير للمرابطين من سقوطها ؛ علاوة على أن الثلاثاء الذي نسخت فيه يطابق تاريخه تاريخ الثلاثاء من ذلك العام حسب التقويم (الأندلس تحت حكم المرابطين ، ص ١٧٢-١٧٣) ونضيف إلى ذلك دليلاً آخر وهو أن القاضي ثابت بن عبد الله الذي كُتِبَت الرسالة على لسانه قد خرج من سرقسطة بمجرد أن سقطت بأيدي النصارى ، فاستوطن قرطبة ، ثم ما لبث أن توفي عام ٥١٤هـ / ١١٢٠م (ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٢٣ ؛ ابن فرحون : الدياج المذهب ، ج ١ ، ص ٣٢٠) .

(١) رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٤٤-٤٦) .

(٢) رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٤٦ - ٤٧) .

(٣) رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٤٧) .

(٤) رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٤٧-٤٨) .

سرقسطة موقنون بأنه سيسارع إلى نصرتهم ، وأن التخاذل عنهم أبعد ما يكون عن دين الأمير وصحة يقينه " . ثم يدعو إلى عدم التأخر لأن في المطل والتسويق وقوع المكروه ، ثم يعود مرة أخرى إلى تحميل المرابطين - والأمير واحد منهم - المسؤولية عن سرقسطة وأهلها ، فهي تابعة لدولتهم فيقول "فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا ، والمسؤولون عن صبيتنا وأطفالنا لاحتجامكم عن أعدائنا وتببطكم عن إجابة ندائنا " (١) . ثم يذكره بتعين جهاد الكفار عليه ، والذب عن الحريم والديار . ويفهم من خاتمة الرسالة أن القاضي ثابت بن عبد الله قد حملها بعض ثقاته ، إذ طلب من الأمير أن يستفهم منهم أكثر عن أوضاع سرقسطة ومحتتها . فقال " ومن متحملي كتابنا هذا - وهم ثقاتنا - تقف من كُنْه حالنا على ما لم يتضمنه الخطاب ، ولا استوعبه الاطناب ... " (٢) .

ولنا أن تساءل عن هؤلاء الثقات المعنيين في آخر الرسالة ، هل في عدادهم أبو زيد بن منتيال وصاحبه أبو الحسن الخولاني ؟ لا نستبعد أن يكونا على رأس هؤلاء الثقات الذين حملهم قاضي سرقسطة رسالته . بل لماذا لا نفترض أن يكونا هما اللذين حملا الرسالة دون غيرهما ؟ إذ جاء - كما سبق إيراده - أنهما قابلا الأمير تميم ، وكلماه عن أهل سرقسطة في مناجزة العدو ، والرسالة التي بعثها القاضي ثابت بن عبد الله كانت للغرض نفسه ، وهي من القاضي " وجماعة سرقسطة " (٣) ؛ فضلاً عن أن النتيجة لكلا العاملين من

(١) رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٤٨) .

(٢) رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٤٨ - ٤٩) .

(٣) رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٤٤) .

جانب الخطيب وصاحبه ومن جانب القاضي وأهل سرقسطة كانت واحدة إذ لم يُجدى في إنقاذ المدينة ، فسقطت في الرابع من رمضان سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م^(١) .

بقي في نهاية الحديث عن مشاركة العلماء في حماية المدن الأندلسية والدفاع عنها أن نشير إلى طائفة من العلماء وأفادت كتب التراجم عن موتهم بكلمة " استشهد " وربطت ذلك بمعارك عند بعض المدن الأندلسية أو بمواضع قريبة منها^(٢) ، لكن تلك الكتب والمصادر الموجودة بين أيدينا لاتسعننا بمعلومات تقطع بأن هؤلاء قتلوا دفاعاً عن تلك المدن * ، وفوق ذلك فإن الطرفين المتقاتلين في تلك المعارك يكتنف هويتهما الغموض .



وهكذا عبر الصفحات الماضية تجلّى لنا في عدة جوانب أثر علماء الأندلس في الجهاد الحربي ضد النصارى في عصر المرابطين والموحدين ، فرأينا اهتمامهم الكبير بشؤون الجهاد وقضاياه وأخباره ، وما يرتبط بذلك

(١) ابن الأبار : الحلة ، ج٢ ، ص٢٤٨ ؛ التكملة ، ج١ ، ص٢٠٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق٢ ، ص٤٢٩ ، س٦ ، ص١٣٦ .

(٢) انظر هؤلاء في : ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص١١٣ ، ١٥١ ، ٢٤١-٢٤٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٤٠٠ ، س٥ ، ق١ ، ص١١٥ - ١١٦ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص٢٢١ .

✚ وهناك جماعة من العلماء امتحنوا بالأسر دون أن يتأكد لنا أسرهم في جهاد مع النصارى . انظر ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص١٢٣ ، ١٧٦ ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص٧٢٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٤٩٦ ، ٥٠٨ - ٥٠٩ ، س٨ ، ق١ ، ص٣١٠ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص١٣٣ ، ١٩١ ، ق٣ ، ص٣٠ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج٢ ، ص٧٥ ، ١٤٨ .

من عدة وعتاد . كما ظهرت جهودهم في دعم حركة الجهاد الميداني بالأموال ؛ سواء بانفاق ما يستطيعون منها في ذلك السبيل ، أو بِحَثِّ غيرهم على الإنفاق ، أو بمآزرة الدولة القائمة على حركة الجهاد في مطالبتها الناس بالمعونة عند الحاجة إلى ذلك . على أن أثرهم استبان لنا بشكل لامع في ساحات القتال سواء في الحملات التي جُهزت لغزو البلاد النصرانية ، أو في مجال حماية المدن الأندلسية والدفاع عنها . فرأيناهم يتقدمون الصفوف ، ويحملون السلاح ، ويخالطون به العدو . كما أنهم كانوا لا ينفكون عن تحريض أفراد الجيش الإسلامي على التضحية في سبيل الله ، ومقاومة الأعداء في حالة عدوانهم على الديار الإسلامية .

الفصل الرابع

تصدي العلماء

للهجمات الفكرية النصرانية ضد الإسلام

ما انفك الأعداء النصارى يتربصون بالإسلام الدوائر ، ويتكرون الأساليب المختلفة لإيقاف زحفه المتدفق ، وإطفاء نوره الساطع ، وتشتيت كلمة أهله ، وخلخلة عقيدتهم . وقد صور الجاحظ ^(١) (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) خطرهم على الأمة الإسلامية ، وأحاييلهم في ضرب عقيدتها ، وهدم فكرها بقوله «على أن الأمة لم تبتل باليهود ولا المجوس ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى، وذلك لأنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالإسناد من روايتنا، والمتشابه من آي كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاحين ؛ وحتى مع ذلك ربما تجرأوا على علمائنا وأهل الأقدار منا يشغبون على القوى ، ويلبسون على الضعيف».

ومن البائن في النص المتقدم أن من الأساليب الدراجة لدى النصارى في محاربة الإسلام والمسلمين النظر في مصادر التلقي والتربية الإسلامية سواء الكتاب أو السنة أو ما تمخض عنهما من ثقافة وفكر ، ثم أخذ ما يلوح فيها من أمور مشتبهاة ، واستغلالها مع سواها من القضايا الإلحادية في تشكيك المسلمين بدينهم وإبعادهم عنه . وهذا الأسلوب القائم على الكلمة والفكرة هو ما يجوز لنا تسميته بالحرب الفكرية النصرانية للإسلام والمسلمين .

ولقد قيض الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة علماء - على مدار تاريخ المسلمين - يتصدون لأمثال هؤلاء المبطلين المضلين ، فيقذفون بالحق باطلهم، وينفون بالصحيح زيفهم ، ويُزهقون بالعلم ما زخرفوه من أقوال ، وما

(١) المختار في الرد على النصارى ، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي ، ط . الأولى ، دار الصحوة ، القاهرة

زوروه من دعاوى ، كما قام أولئك العلماء بفضح النصارى ونسف أركان عقيدتهم المحرفة ، وكشف ما هي عليه من تناقض ، وما تحمله من غموض وحيرة ولبس حتى يبين من يدعون فهمها حق الفهم من رجال الدين ؛ دع عنك الغوغاء والعمالة .

ومما لا مشاحة فيه أن الأندلس جزء من الوطن الإسلامي الكبير الذي يستهدف الأعداء النصارى تقطيع أوصاله ، وتمزيق أجزائه ، والقضاء على عقيدته الإسلامية . وقد تكشف في عصر المرابطين والموحدين أكثر من أي عصر مضى أن النصارى قد جعلوا ضرب الإسلام في الأندلس - فكرياً - سلاحاً معتبراً في حربهم المتطاولة مع المسلمين ؛ حيث أيدوا مفكريهم الذين عُثِرُوا بهذا النمط من السلاح ، فشجعوا خططهم ، ودفعوهم مادياً ومعنوياً . فكان موقف المسلمين من ذلك أن انبرى جمع من علمائهم للوقوف في وجه تلك الحرب الفكرية النصرانية بسلاح فكري إسلامي ، فناظروا مواجهة قوماً من النصارى ، وردوا بالكتابة على قوم آخرين . ولاستجلاء ما أشرنا إليه سنقسم الموضوع إلى مباحث ثلاثة هي :

- ١ - حملات النصارى الفكرية ضد الإسلام في عصر المرابطين والموحدين .
- ٢ - العلماء الذين تصدوا للحملات الفكرية النصرانية .
- ٣ - عرض لما دونه العلماء في الرد على النصارى .

أولاً : حملات النصارى الفكرية ضد الإسلام في عصر المرابطين والموحدين :

كانت الكنيسة الإسبانية قبل القرن الخامس الهجري -الحادي عشر الميلادي- منعزلة عن البابوية في روما ^(١) ، فلم تكن تعترف بالرياسة الروحية للبابا ، بيد أنه في غضون هذا القرن أتيح للأبء التابعين للبابوية النفاذ إلى الممالك الإسبانية ^(٢) ؛ ثم ما نشبوا أن انبثوا في أديرتها ، فصار وجودهم في إسبانيا بهذا الشكل سبيلاً للبابا للتدخل المباشر في الشؤون الإسبانية ^(٣) ، إذ كتب إلى الحكام الإسبان يطالبهم بالاعتراف له بالسيادة العليا عليهم، وأن لا يقوموا بأي غزو في أراضي المسلمين إلا بعد أخذ إذن منه . كما عمل على وضع جميع أديرة إسبانيا تحت رعايته لتكون له الأحقية في تعيين الأساقفة الإسبان ^(٤) . كما اجتهد في إحلال الطقوس الرومانية محل الطقوس المحلية في الكنائس الإسبانية ^(٥) . ثم إنه سعى إلى رفع شأن رجال الدين المنتمين إليه في هذه البلاد، فكانت النتيجة أن انتخب منهم فيما بعد معظم الأساقفة العاملين فيها ^(٦) ، فكان من أشهرهم برنارد الفرنسي* الذي عين مطراناً لطليطلة بعد

(١) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ١١٩ ؛ كلود كاهين : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة

أحمد الشيخ ، ط . الأولى ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص ٨٠ .

(٢) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ١١٩-١٢٠ ؛ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا ، ص ٣٢٦ .

Reyna Pastor de Togneri : del Islam al Cristianismo, Barcelona, 1985, P. 114

(٣) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ١٢٠ ؛ كلود كاهين : الشرق والغرب ، ص ٨٠ .

(٤) محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ط . دار الغرب ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص ١٩٠ .

(٥) مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٤٩٨ ؛ Reyna Pastor de Togneri : op . cit . P 114

(٦) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ١٢١ .

* برنارد الفرنسي Bernardo كان من المحاررين الشجعان ، ثم انتظم في السلك الكنسي الكلوني ، -

انتزاعها من المسلمين عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، ثم ما لبث البابا بعد مدة أن أصدر مرسومه بتعيينه رئيساً عاماً للكنيسة الإسبانية دون الالتفات إلى معارضة رجال الدين المحليين ^(١) .

لقد كان ارتباط البابوية في روما بالكنيسة الإسبانية ذا أثر فاعل في تأجيج ما يسمى عند النصارى بحركة الاسترداد ^(٢) الرامية إلى محاربة المسلمين في الأندلس واقتلاع جذورهم منها . فلقد شجعت البابوية المحاربين الأوربيين وبخاصة من فرنسا- للانضمام إلى الجيوش الإسبانية المواجهة للمسلمين ^(٣) ، كما باركت قيام جماعات الفرسان الدينية في إسبانيا التي كانت غايتها الذود عن النصرانية ، وجلاد المسلمين ^(٤) . معزل عن التقلبات السياسية بين الممالك

- وعين أسقفاً لدير ساهاجون القريب من ليون . ولما احتل الفونسو السادس طليطلة نصبه بعد شهور مطراناً لطلطلة ، فكان له أكبر الأثر في سرعة تحويل جامع طليطلة إلى كنيسة . وفي عام ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م قابل البابا في روما فصدر مرسوم بابوي بتعيينه رئيساً عاماً للكنيسة الإسبانية (أشباح : تاريخ الأندلس ، ص ١٢١-١٢٤ ؛ ضياء باشا : الأندلس الزاهية ، تعريب عبدالرحمن أرشيدات ، ط. الأولى ، وزارة الثقافة والإعلام ، عمان ١٩٨٩م ، ج ٢ ، ص ٨٣ - ٨٤ ، Reyna Pastor de Togneri : op . cit., P . 114-116) .

(١) أشباح : تاريخ الأندلس ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،

Reyna Pastor de Togneri : op . cit . P . 115-116 .

(٢) العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨٣ ؛ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا ، ص ٣٢٦ ؛ الحركة الصليبية والغرب الإسلامي في القرن الحادي عشر للميلاد " دور البابوية " ؛ ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية ، حصاد ٣ ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ، ص ١٧٣ ؛ أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ١٨٧ .

(٣) كلود كاهين : الشرق والغرب ، ص ٨٠ .

Claudio Sanchez Albornoz : el Islam de Espana y el Occidente , p . 181 .

(4) Derek W.Lomax:la Reconquista,P.134-144;Reyna Pastor de Togneri:op.cit .,P.124.

الإسبانية^(١) . وفوق ذلك فقد حرّم البابا على الإسبان المشاركة في الحروب الصليبية في المشرق لأن محاربة المسلمين الذين يهددونهم في عقر دارهم - على حد اعتقاده - لا تقل أهمية عن المحاربة في المشرق^(٢) . ولهذا هرع كثير من الأساقفة الإسبان لمرافقة الجيوش الإسبانية^(٣) ، بل قاد بعضهم بأنفسهم حملات لقتال المسلمين^(٤) .

فإذا كانت الكنيسة الإسبانية أضحت - حسبما تقدم - كنيسة محاربة في ميدان القتال ضد المسلمين في الأندلس^(٥) فإن رجالها الذين رفعوا شعار "من أجل الدفاع عن النصرانية"^(٦) أو "من أجل الدفاع عن الكنيسة في مواجهة أعداء الصليب"^(٧) لم يقتصرُوا على الحرب العسكرية بل قرنوا بها حرباً فكرية تتخذ من الكلمة والفكرة وسيلة لها لضرب الإسلام والمسلمين في الأندلس^(٨) . يقول أحد رجال الدين النصارى موجهاً كلامه إلى المسلمين في عصر المرابطين "إنني لا أهاجمكم - كما يفعل كثيرون بيننا - بالسلاح ،

(١) أشباح : تاريخ الأندلس ، ص ٢٦٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٤ ؛ منتجمرى وات : فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ترجمة حسين أحمد أمين ، ط . الأولى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ٧٢ ؛ محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية ، ص ١٩١ .

(٣) أشباح : تاريخ الأندلس ، ص ١٢٥ ، Derek W.Lomex : op. cit . p.138

(4) Reyna Pastor de Togneri : op . cit . , P .125 .

(٥) رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا ، ص ٣٢٩ .

(6) Derek W.Lomax : op. cit . p.134 .

(7) Ibid , p . 135 .

(٨) أليكسي جوارفسكي : الإسلام والمسيحية ، ترجمة خلف محمد الجراد ، ط . عالم المعرفة ، الكويت ، جمادى الآخرة ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ص ٨١ ، ٨٢ .

إنني أوجه إليكم كلماتٍ فقط بغير عنف وبتعقل وهدوء ... " ^(١) . وعلى ضوء هذه المقالة انساق جمع من الناشطين النصارى للإسهام في تلك الحرب الفكرية ، فكان محور نشاطهم يدور حول إظهار محاسن النصرانية في مقابل إثارة الشبه تجاه تعاليم الإسلام وإحكامه ونبيه ﷺ ، وقد صاحب ذلك - بطبيعة الحال - دعوة إلى النصرانية ، وترويج لها بين المسلمين .

ومما ينبغي إيضاحه أن الحملات الفكرية النصرانية التي تعرض لها مسلمو الأندلس إبان عصر المرابطين والموحدين لم تكن كلها جديدة بالمرّة عليهم ، لأنهم من قبل واجهوا شيئاً من التهجم على الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام، وذلك من طرف النصارى الذين يعيشون بين ظهرائهم، إذ نرى أصداءً لهذا التهجم في المصادر الإسلامية ، وبشكل خاص خلال القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي - ^(٢) . لكنّ الجديد الذي نلمحه في زمن الدراسة أن الكنيسة ليس في الأندلس وإنما في الممالك النصرانية المجاورة تبنت ذلك الاتجاه منهجاً لحرب المسلمين الأندلسيين ؛ حيث طفق بعض أولى الفطنة والمكر من رجالها للتعرف بقدر من الموضوعية على الدين الإسلامي ، والحصول على معلومات أكثر واقعية عن تعاليمه وأحكامه ^(٣) بغرض

(١) ريتشارد سودرن : صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة رضوان السيد ، ط . الأولى ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص ٨٢ .

(٢) ابن سهل : وثائق في أحكام أهل الذمة (مستخرجة من الأحكام الكبرى) تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف ، ط . المركز العربي الدولي للإعلام ، ١٩٨٠م ، ص ٧٠-٧١ ؛ عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، تحقيق محمد أمين قرّة علي وآخريين ، ط . الثانية ، دار الفيحاء ، عمان ، الأردن ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، ج ٢ ، ص ٥٧٣ ، ٦٢٨ .

(٣) مكسيم رودنسون : الصورة الغربية والدراسات الغربية للإسلام (تراث الإسلام ، تصنيف شاخت وبنزورث) ط . عالم المعرفة ، الكويت ، شعبان - رمضان ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ق ١ ، ص ٣٧ -

التفتيش عن المتشابه ، ونبش الغامض ، ومن ثم لبس الحق بالباطل ، وخلط الصحيح بالسقيم ، والغث بالثمين . ومن ذلك ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ، إذ قام رئيس رهبان دير كلوني* بطرس الموقر** (ت ٥٥١هـ/ ١١٥٦م) أثناء رحلته إلى إسبانيا بتكليف نفر من المترجمين في طليطلة عام ٥٣٨هـ/ ١١٤١م بترجمة القرآن^(١) ، فتم ذلك في غضون عامين^(٢) ، ثم استفيد من هذه الترجمة - فيما يبدو حال الفراغ منها - في الهجوم الفكري على الإسلام ، ذاك أنه في عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٣م ظهر كتاب يطعن في الإسلام والني ﷺ تخللته بعض الآيات القرآنية ، وقد كان تأليفه برعاية بطرس الموقر^(٣) .

- محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ط . الأولى ، كتاب الأمة ، قطر ، صفر ١٤٠٤هـ ، ص ٢٤ .

☆ دير كلوني Cluny ظهر في شرقي فرنسا عندما أصدر دوق أكويتان عام ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م أمراً بإنشائه، وقد ترك له نوعاً من الحكم الذاتي على أن يكون تحت حماية البابا نفسه . ومن هذا الدير انطلقت حركة إصلاح دينية امتدت إلى أنحاء أوروبا ، فصار دير كلوني مع حلول القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي - يتبعه أكثر من ألف ومائة دير كلها يشرف عليها كلوني إشرافاً مباشراً (أيرل كيرنز : المسيحية عبر العصور " تاريخ الكنيسة المسيحية " ترجمة عاطف سامي برنابا ، ط . دار نوبار ، ١٩٦٢م ، ص ٢٣١ ؛ رودنسون : الصورة الغربية ، ص ٣٧) .

☆☆ بطرس الموقر Petrus Venerabilis فرنسي ولد عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م . وقد انتظم في سلك الرهبنة ، ثم تولى رئاسة بعض الأديرة ، ولما بلغ الثلاثين من عمره صار رئيساً لدير كلوني ، فاجتهد في إصلاحه وتوسعة نفوذه . وقد رحل إلى إسبانيا مرتين ، وتوفي سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م (عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ، ط . الثانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٩م ، ص ٦٨ ؛ نجيب العقيقي : المستشرقون ، ط . الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م ، ج ١ ، ص ١١٢) .

(١) بدوي : موسوعة المستشرقين ، ص ٦٨ ، ٣٠٦ ؛ العقيقي : المستشرقون ، ج ١ ، ص ١١٣ .

Claudio sanchez Albornoz : op . cit . , P . 197 - 198 .

(٢) سوزن : صور الإسلام ، ص ٨٠ ؛ Reyna Pastor de Togneri : op . cit . , P . 120 .

(٣) بدوي : موسوعة المستشرقين ، ص ٦٨ ؛ موتجمري وات : فضل الإسلام ، ص ٩٩ .

ونظراً للارتباط الوثيق والصلة اللاحمة بين الكنيسة الإسبانية ودير كلوني ، والتأثير الكبير الذي يشكله هذا الدير على الحياة الدينية في إسبانيا في ذلك الأوان، فضلاً عما كان يديه رئيسه بطرس من عناية زائدة بالنصارى الإسبان ^(١) فمن المؤكد أن المخطط الذي تنبأه الكلونيون في حربهم الفكرية للإسلام قد طبق في إسبانيا وإن تلونت أحياناً وسائل التطبيق . ففي سبيل ذلك الهدف - أعني محاربة الإسلام فكراً - أقبل لفيف من النصارى الإسبان على الدراسات العربية المتعلقة بالدين الإسلامي ، فقام - مثلاً - مارك الطليطلي* (ت حوالي ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م) بترجمة القرآن إلى اللاتينية^(٢)، ثم ما لبث بعد ثلاث سنوات - أي في سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م - ^(٣) أن قام بترجمة كتاب عقيدة ابن تومرت^(٤) المعروف بالمرشدة ، ورسائل موحدية أخرى^(٥) . وكان بأمر من رئيس أساقفة طليطلة الذي كان يُعد آنذاك الرئيس الكاثوليكي لإسبانيا كلها ^(٦) . وقد أفصح مارك هذا عن غرضه من الترجمة بقوله " لقد

(١) بدوي : موسوعة المستشرقين ، ص ٦٨ ؛ العقيلي : المستشرقون ، ج ١ ، ص ١١٢ .

* مارك الطليطلي : Marcos de Toledo يعد من مترجمي مدرسة طليطلة في عصرها الثاني ؛ حيث ازدهر نشاطه في مجال الترجمة بين عامي ٥٨٧هـ/ ١١٩١م و ٦١٣هـ/ ١٢١٦م ، فكان مما ترجمه بعض كتب جالينوس ، والقرآن الكريم وعدة رسائل موحدية . وقد أصبح بعد ذلك كاهن طليطلة ، ويظهر أنه عاش حتى عام ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م (رامون مينينديث بيدال : إسبانيا تنقل العلم العربي إلى الغرب ترجمه مع عدة أبحاث: الطاهر أحمد مكي في: الأدب الأندلسي من منظور إسباني، ط . الأولى ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ٢٥٦؛ Claudio Sanchez Albornoz: op. cit., p. 199 .

(٢) العقيلي : المستشرقون ، ج ١ ، ص ١١٣ ؛ عبد الرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ط . الثالثة ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ١٠ .

(٣) ابن تومرت : أعز ما يطلب ، ص ٢١ من مقدمة المحقق .

(٤) Claudio Sanchez Albornoz : op.cit. , p. 199-200 .

(٥) بيدال : إسبانيا تنقل العلم العربي ، ص ٢٥٦ .

(٦) ابن تومرت : أعز ما يطلب ، ص ٢٠ ، ٢١ من مقدمة المحقق ؛ عبادة كحيل : تاريخ النصارى في الأندلس ، ط . الأولى ، المطبعة الإسلامية الحديثة ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م ، ص ٩٣-٩٤ .

قمت ... بترجمة كُتِيب ابن تومرت بعد أن انتهيت من ترجمة القرآن لكي يتسنى للمسيحيين [النصارى] أن يأخذوا أكبر قدر من المعلومات يتمكنون عن طريقها من الرد على المسلمين ومحاربتهم " (١) ☆ ، ثم عاد بعد قليل فأكد بعبارة أخرى على غرضه من ترجمة القرآن وعقيدة ابن تومرت فقال " ولقد قمت بذلك ليتمكن الكاثوليكيون - بعد أن يدرسوا كلا منهما - أن يعرفوا أسرار المسلمين ، ويستطيعوا عن هذه الطريق مهاجمتهم " (٢) .

وثمة رجال دين نصارى من إسبانيا كانوا قد تعلموا اللغة العربية ، ثم سخرُوا ذلك فيما يفيد بني ملتهم في حربهم الفكرية ضد الإسلام (٣) ، بل إن بعضهم رَغِبَ في تعلم اللغة العربية "التماساً لحجج يقارع بها الإسلام وأهله" (٤) .

وربما يكون اتجاه بعض رجال الدين إلى التعرف على تاريخ المسلمين داخلياً في بعض أهدافه في دائرة الحرب الفكرية المتصاعدة ضد الإسلام ، فالمطران رودريك خيمينيس الطليطلي☆☆ رئيس أساقفة طليطلة ما بين سنة

(١) ابن تومرت : أعز ما يطلب ، ص ٢١ من مقدمة المحقق .

☆ يظهر أن اختيارهم ترجمة كتاب المرشدة يعود لكونه الكتاب المعتمد لدى الدولة الموحدية التي كانت تواجههم . ثم لا يستبعد أن اختيارهم أيضاً وقع على هذا الكتاب بالذات لأنه يتضمن شطحات عقدية تجعله لا يتوافق مع العقيدة الإسلامية الصحيحة . انظر : (ابن تيمية : مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ١١ ص ٤٧٦-٤٩١) وبذلك يسهل عليهم العثور على مفارقات يستغلونها في طعن الإسلام وإثارة الشبهات حوله وبالتالي تشويبه عند بني قومهم .

(٢) ابن تومرت : أعز ما يطلب ، ص ٢٢ من مقدمة المحقق .

(٣) العقيلي : المستشرقون ، ج ١ ، ص ١١٣ ، ١١٥ ؛ جمال الدين الشيال : التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوربي في عصر النهضة ، ط . دار الثقافة ، بيروت ، ص ٢٢ .

Cristobal Cuevas : op. cit ., p. 265 .

(٤) بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٥٤١ .

☆☆ رودريك خيمينيس Rodrigo Jimenez ولد بمقاطعة نبرة في الشمال الإسباني، ودرس في -

٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م^(١) الذي كان يتكلم العربية^(٢) - ألف في تاريخ العرب المسلمين^(٣) ؛ وكونه خصص جزءاً من هذا التاريخ لحياة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين^(٤) يوميء إلى أن أحد مقاصده من ذلك التأليف كان الاستفادة منه في مواجهة الإسلام فكرياً .

ومهما يكن من أمر وسواء كان حصول هؤلاء النصارى على معلومات عن الإسلام عن طريق الترجمة إلى لغتهم ، أو عن طريق تعلمهم بأنفسهم اللغة العربية ، فالذي يتجلى لنا أن محرري الكتابات النصرانية المحاربة للإسلام في عصر المرابطين والموحدين قد عرفوا القرآن الكريم ، بحيث صاروا يستشهدون بآيات قرآنية ، وربما ذكروها تارة بنصوصها^(٥) ، وربما اكتفوا حيناً بعبارة تنبه إلى أن ما ذكروه وارد في القرآن^(٦) ، بل أن المتمعن في تلك

- فرنسا ، ثم عاد إلى إسبانيا ، وبدأ حياته الكنيسة ، حيث عين أسقفاً لمدينة أوسمة ، ثم صار مطراناً لطليطلة حتى وفاته عام ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م . ولقد أسهم في الحياة السياسية في عصره ، وأبدى حماساً في محاربة المسلمين . وقد ألف الحولية المنسوبة إليه التي تضمنت قسماً عن تاريخ المسلمين (رودنسون : الصورة الغربية ص ٤٢ ؛ عبد المحسن رمضان : تاريخ حركة المقاومة الإسبانية ضد المسلمين في الأندلس ، ط . مكتبة سعيد رأفت ، القاهرة ، ١٩٨٧ م ، ج ١ ، ص ٧٧-٧٨ ؛ الشيال : التاريخ الإسلامي ، ص ٤٠) .

(١) عبد المحسن رمضان : تاريخ حركة المقاومة ، ج ١ ، ص ٧٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٨ ؛ الشيال : التاريخ الإسلامي ، ص ٤٠ .

(٣) رودنسون : الصورة الغربية ، ص ٤٢ .

(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) الخزرجي : مقامع الصليبان ، تحقيق عبد المجيد الشرقي ، ط . الشركة التونسية لفنون الرسم ، تونس

١٩٧٥ م ، ص ٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ؛ القرطبي : الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ،

وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبيينا محمد عليه الصلاة والسلام ، تحقيق : أحمد حجازي

السقا ، ط . دار التراث العربي ، القاهرة ١٩٨٠ م ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ، ٢١٧ ؛ الونشريسي : المعيار

المعرب ، ج ١١ ، ص ١٥٦ .

(٦) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ٣١ ، ٣٦ .

الكتابات يلمح أن بعضهم قد درس عقيدة المسلمين ^(١) ، واطلع على أصول الدراسات الشرعية الإسلامية ^(٢) ؛ وعرف من أحكام الدين الإسلامي نصيباً وافراً ^(٣) .

ولقد تكاثرت الكتابات الطاعنة في الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام في تلك الحقبة ، وقد حكى ذلك قسيس نصراني كتب آنذاك مخاطباً أحد المسلمين بقوله " أما دينكم فقد ألف كثير من أساقفتنا كتباً في الطعن فيه... " ^(٤) ويظهر أن تلك الكتابات كانت تسطر باللغة العربية، وقد يجتمع عدد من الأساقفة لتصنيف شيء منها ^(٥) ، وكان بعضها يوجه إلى أشخاص معينين من المسلمين ^(٦) ، وبعضها الآخر يروج لها في المدن الإسلامية بين الخواص والعوام على حد سواء ^(٧) . وكانت مدينة طليطلة عاصمة مملكة قشتالة هي أهم المدن الإسبانية التي حملت لواء الحرب الفكرية ضد المسلمين في الأندلس ، فالرسائل والكتب المحادة للإسلام كانت تنبعث من رجال الدين فيها ^(٨) . ولا غرابة في ذلك وهي التي كانت وقتذاك قاعدة النصرانية في إسبانيا ، وكنيستها هي أم الكنائس والأديرة الإسبانية .

(١) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٥ ؛ القرطبي : الإعلام ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ .

(٤) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ٣٤ .

(٥) القرطبي : الإعلام ، ج ١ ، ص ٤٩ .

(٦) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ٣٠ .

(٧) القرطبي : الإعلام ، ج ١ ، ص ٤٣ ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ، ج ٤ ، ص ٤٠٢ ، ٤٣٨ .

(٨) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ٢٩ ؛ القرطبي : الإعلام ، ج ١ ، ص ٤٣ ، ٤٩ ؛ ابن الخطيب :

الإحاطة : " نصوص جديدة " ، ص ٧٤ .

أما عن الموضوعات الإسلامية التي استغلها النصارى في حملاتهم الفكرية فهاجموها أو أثاروا حولها الشبهات فقد كانت في عصر المرابطين والموحدين تلخص في قدسية القرآن الكريم وإعجازه ، وصدق نبوة الرسول ﷺ ، وما يحصل في الجنة والنار من نعيم وعذاب ، وكذلك فيما يتصل ببعض شرائع الإسلام وأحكامه كتعدد الزوجات والطلاق والقصاص والجهاد وانتشار الإسلام بالسيف إلى غير ذلك .

ويبدو أن ما لاح في ذلك العصر من نزعة شعوبية تمجد العجم ، وتفخر بمآثرهم ، وتنتقص العرب ، وتخط من قدرهم ^(١) كانت موجة من موجات الحملات الفكرية المحاربة للإسلام ؛ فالعرب - كما لا يخفى - هم الذين في وسطهم شع نور الدين الإسلامي ، فحملوه إلى الآفاق . وعرب الأندلس ومن تعرب من أهل البلاد بعد أن رضي الإسلام ديناً كانوا هم حملة هذا الدين في الأندلس ، الذابين عنه الأعداء النصارى ، فانتقص قدرهم ، واحتقار شأنهم في الأندلس يعد ضرباً من ضروب الهجوم على الإسلام بينما تعظيم قدر العجم في المقابل إنما هو في حقيقته - رفع من شأن النصرانية ، لأن هؤلاء هم الذين يمثلونها ، ويرفعون لواءها .

وبجانب الكتابات الناضجة بالعداء للإسلام نشط القساوسة في بث شبهاتهم شفهياً بين المسلمين الذين ظلوا يعيشون في المدن الداخلة حديثاً في الاحتلال النصراني، فكانوا يلتقون بالعامّة من أولئك المسلمين، ويشككونهم في عقيدتهم ، ثم يستميلونهم إلى النصرانية ^(٢) ؛ أما العلماء وطلبة العلم

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج١ ، ص ٥٤٥ ، ج٣ ، ص ١٤٢٧ - ١٤٢٩ .

(٢) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص ٢٩ ؛ الونشريسي : المعيار المغرب ، ج١١ ، ص ١٥٥ .

المسلمين فكان رجال الدين النصارى يحتلون بهم ويستجرونهم إلى المناظرة في مسائل يرونها كفيلة بخلخلة العقيدة الإسلامية في قلوبهم^(١). ومما يسترعى الانتباه أن أولئك القساوسة والرهبان - كفاء ما يقومون به من بذر الشكوك بين المسلمين وتنصير لهم - كانوا يتقاضون أجوراً من الملوك النصارى ، وينشدون من وراء ذلك عندهم مكاناً علياً^(٢). يحكى أحد الكتاب المسلمين عما رآه بأمر عينيه من فعل رجال الدين في مدينة مُرْسِيَّة في شرقي الأندلس بعد سقوطها في قبضة النصارى ، فيقول " وكان قد ورد عليها من قبل طاغية الروم جماعة من قسيسهم ورهبانهم شأنهم الانقطاع في العبادة بزعمهم ، ونظر العلوم ، مشرئبون للنظر في علوم المسلمين وترجمتها بلسانهم برسم النقد... ولهم حرص على مناظرة المسلمين ، وقصد ذميم في استمالة الضعفاء، يأكلون على ذلك مال طاغيتهم ، ويستمدون به الجاه من أهل ملتهم ..."^(٣).

على أن التنصير لم يكن قاصراً على المدن المحتلة بل امتد إلى الأراضي الإسلامية ، ففي الرسائل النصرانية التي خطها رجال الدين برسم الرد على الإسلام بزعمهم ، وبعثوها إلى المسلمين نلمح في بعضها الدعوة إلى التنصير . تأمل كلمات أحدهم في رسالته إلى أحد طلبة العلم المسلمين بعد أن بين له محاسن النصرانية وفضلها على الإسلام حسب اعتقاده ، قال " وأنا قد بذلت لك النصيحة في هذه الرسالة لما ظهر لي من نُبُلِكَ ، فاعتبرها وتدبرها ، والله يجعلها نورك ، وسبب هداك ، آمين"^(٤). ولا ريب أن النصارى لن يألوا

(١) الونشريسي : المعيار العرب ، ج ١١ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢) القرطبي : الإعلام ، ج ١ ، ص ٤٣ - ٤٤ ؛ الونشريسي : المعيار العرب ، ج ١١ ، ص ١٥٥ .

(٣) الونشريسي : المعيار العرب ، ج ١١ ، ص ١٥٥ .

(٤) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ٣٨ - ٣٩ .

جهداً في الدعوة إلى دينهم والدعاية له بين المسلمين في الأندلس إذا حانت لهم الفرص . فعلى سبيل التمثيل قدم نفر من رجال الدين النصارى المتعصبين إلى الأندلس أيام ضعفها في أواخر عصر الموحدين ، فحلوا في مدينة إشبيلية ، وتجروا على دخول مسجد من مساجدها في وقت صلاة ، فجعلوا ينشرون الإنجيل ، ويدعون إلى عقيدتهم فما برحوا يفعلون ذلك إلى أن طردهم المصلون من المسجد ^(١) . ومع أنهم زجوا في أحد السجون إلا أن حماسهم في التنصير لم يخب ، إذ استمروا يدعون إلى دينهم وهم في سجنهم ^(٢) .

وقد لا يجانبنا الصواب إذا قدرنا أن القائمين على الكنيسة الإسبانية حين صوبوا سهامهم إلى العقيدة الإسلامية ، واتجهوا إلى تنصير المسلمين في الأندلس المسلمة كانوا يرمون إلى خلق جو من الغزو الروحي لأولئك المسلمين ليسهل عليهم حينئذٍ غزوهم عسكرياً ^(٣) .

والمتفحص لواقع المسلمين الفكري في الأندلس يلمح حالات من الانحراف الفكري عن العقيدة الإسلامية بين أفراد منهم خلال زمن دراستنا . فهناك ألفاظ صدرت من بعض الناس تتضمن اجترأً على الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، واستخفافاً بما عظمه الله سبحانه من حقوقهم، وتهاوناً بما فرضه الله من توقييرهم ^(٤) ؛ بل شاعت في زمن الموحدين ما نسب إلى

(١) هنري دي كاستزي : الإسلام خواطر وسوانح ، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ، ط . مطبعة الشعب ، مصر ، ١٩٣٩هـ / ١٩١١ ، ص ٤٧ ، ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٨ ، ١٦٢ .

(٣) عبد المجيد التركي : قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٢٠ .

(٤) عياض : الشفا ، ج ٢ ، ص ٢١٩ - ٥٢٠ ؛ الونشريسي : المعيار المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

الأنبياء عليهم السلام من حكايات منكرة ، وقصص مكذوبة ^(١) . كما صدرت - أيضاً - أقوال من بعضهم تنطوي على غض من جناب النبي ﷺ ، وانتقاص من شخصه الكريم ^(٢) ؛ بل بلغ الفسق بأحدهم إلى سبه عليه الصلاة والسلام ^(٣) . وثمة عبارات ترددت آنذاك تستهجن لسان العرب ، وترى عدم الحاجة إليه ^(٤) . وقد تجرأ أحدهم على لعن اللغة العربية ، وتبجح بالقدرة على قراءة سورة يوسف بلغة العجم ^(٥) . وغير بعيد أن تكون هذه الانحرافات الفكرية التي طفت على السطح بين مسلمي الأندلس عصرذاك كانت بأثر من الحملات الفكرية النصرانية المسلطة عليهم ، يعزز ما نميل إليه من أحد كتاب العصر الموحدى - لما رصد الطوائف التي أشاعت القصص المستشعنة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ذكر منها " أراذل اليهود والنصارى " ^(٦) .

وحاصل القول أن الأندلس تعرضت في عصر المرابطين والموحدين لحرب فكرية منظمة انبعثت من الممالك الإسبانية ، وبخاصة من مملكة قشتالة وحاضرتها طليطلة ، وقد كان أثر البابوية في تأجيج تلك الحرب ظاهراً ، ثم إنها تلونت بين التشكيك في الإسلام وأحكامه وتعاليمه، والقذح في العرب، والترويج للنصرانية ، وقد صوبت نحو خواص المسلمين فضلاً عن عوامهم.

(١) ابن حمير : تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم خُثالة الأغبياء ، تحقيق محمد رضوان الداية ، ط . الأولى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٣ ، ص ١٤٢٧ ؛ الونشريسي : المعيار العرب ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٩ .

(٣) عياض : مذاهب الحكماء ، ص ٨١ ؛ الونشريسي : المعيار العرب ، ج ٢ ، ص ٣٦٦ ، ٥٢٦ .

(٤) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ١ ، ص ٥٤٥ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٤٢٧ - ١٤٢٨ ؛ الونشريسي : المعيار العرب ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ .

(٦) ابن حمير : تنزيه الأنبياء ، ص ٢٤ .

ثانياً : العلماء الذين تصدوا للهجمات الفكرية النصرانية :

إن دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من النصارى وغيرهم لا ينحصر - كما هو معلوم - على الجهاد بالسيف والسنان وإنما يشمل أيضاً جهادهم بالحجة والبرهان واللسان ^(١) ، وقد تدعو الحالة - أحياناً - إلى الجمع بين النوعين ، وقد ينفع أحدهما حيث لا ينفع الآخر ^(٢) . فإذا قُدح الكفار في الإسلام وطعنوا في آياته وشرائعه وجب جهادهم " بالعلم والبيان دون السيف والسنان " ^(٣) . " فالاعتداء على الدين أضر من الاعتداء على الأنفس والأموال ، والدفاع عن الدين أوجب من الدفاع عن الأنفس والأموال " ^(٤) .

ومن نافلة القول التأكيد على أن العلماء وطلاب العلم هم القادرون - خلاف غيرهم من أفراد الجماعة الإسلامية - على الذب عن الدين الإسلامي ، والتصدي للشبهات التي يطلقها ضده الأعداء .

ولقد أدرك علماء الأندلس أيام المرابطين والموحدين خطر الحملات الفكرية النصرانية على بلادهم ، ووعوا مسؤوليتهم في درئها* ، وتحصين

(١) عبد الرحمن السعدي : جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين ، ط . دار ابن القيم ، الدمام ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، ص ٩ ؛ عبد الله بن زيد آل محمود : الجهاد المشروع في الإسلام ، ط . الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ج ١ ، ص ٢٦ .

(٢) ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ط . علي السيد صبح المدني ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٤) آل محمود : الجهاد المشروع ، ج ١ ، ص ٢٨ .

* لما تعرض أبو بكر بن العربي لقوله تعالى ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ ذكر أن هذه الآية تحتل أن تكون مكية "ويكون حق الجهاد في مجاهدة الأعداء بالجدال " إلى أن قال "ومجاهدة الأعداء-

المسلمين من آثارها ، حتى إن أحدهم حين تطاول نصراني بكتاباتهِ على الإسلام في النصف الثاني من العصر الموحدي اعتبر أن الرد على تلك الكتابات وكشف زيفها مسؤولية مناعة به شخصياً ، فحكى شعوره بتلك المسؤولية قائلاً " فصار ذلك علي كأنه من فروض الأعيان " (١) .

وإذا تذكرنا أن الحملات الفكرية النصرانية على الأندلس زمنذاك تمحورت في التأكيد على صحة العقيدة النصرانية في مقابل إثارة الشبه حول الدين الإسلامي عقيدة وشريعة - إذا تذكرنا ذلك علمنا أن مواجهتها مواجهة فكرية واعية تتطلب علماء من طراز خاص لهم علم بمكائد الأعداء وتدابيرهم ، ودراية بفساد العقيدة النصرانية وتناقضاتها ، ومعرفة بأحكام الشريعة الإسلامية وفضائلها ومحاسنها وحكمها . ولعل أبا بكر بن العربي (٢) (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) قصد مثل هذا الطراز من العلماء حين ذكر أن من أصناف العلماء الناصحين لدين الله أولئك الذابون " عن دين الله أهل العناد وأصحاب البدع ، فهم شجعان الإسلام ، وأبطاله المداعسون عنه في مآزق الضلال " . فيكون ذبهم عن الدين ونصرتهم له ، وإعزازهم لرايته في هذا المجال عن طريق الكلام والأقلام ، وقد عبر أبو الحجاج البلوي (٣) (ت ٦٠٤ هـ / ١٢٠٨ م) عن ذلك بقوله " ويأبى الله إلا أن يُعز هذا الدين وينصره ، أقام له حماةً أجماداً ، كماةً أنجاداً ، نصره بكلامهم ، وزبروه في الكتب بأقلامهم " .

- بالجدال لم يزل ولا يزال " (النسخ والنسوخ ، ج ٢ ، ص ٣٠٧) .

(١) القرطبي : الإعلام ، ج ١ ، ص ٤٥ .

(٢) العواصم ، ص ٣١٨ .

(٣) ألف باء ، ج ١ ، ص ٣٥٣ .

وقبل أن نتحدث عن العلماء الأندلسيين الذين شهروا بالتصدي الصريح لحملة النصارى الفكرية نشير إلى أن هناك طائفة أخرى من علماء الأندلس كانت لهم إسهامات معينة في هذا المضمار . فالمسلمون بعامة عند قراءتهم للقرآن الكريم يتعرفون على ضلال العقيدة النصرانية ، إذ ناقش القرآن دعاوى النصارى مناقشة عقلية ، أثبت لهم فيها فساد ما يدعونه ^(١) . وبهذا يمكننا القول إن معلمي القرآن في ذلك الزمان - وهم أكثر ^(٢) - بتدريسهم للقرآن يسهمون بتبصير المسلمين وإعلامهم بما تحويه عقائد النصارى الضالين من انحراف وأوهام . وكذلك الحال بالنسبة للمفسرين الذين يشرحون في دروسهم وكتبهم تلك الآيات المتعلقة بالنصارى ومزاعمهم ^(٣) .

وغير بعيد أن يكون العلماء الأندلسيون الذين ألفوا في ذلك العصر كتباً في نبوة الرسول ﷺ قد قصد بعضهم في تأليفها مواجهة الحملات النصرانية المشككة - أو قل المنكرة - لتلك النبوة . يومئ إلى ذلك أنه فيما توافر لدينا من كتب مخصصة للرد على النصارى زمن دراستنا نشهد فصولاً تُعنى بإثبات نبوته ﷺ والتدليل على صدقها ^(٤) . وخلق بالبيان هنا الإفادة

(١) خالد بن عبد الله القاسم : الحوار مع أهل الكتاب ، ط . الأولى ، دار المسلم ، الرياض ، ١٤١٤ هـ ، ص ١٩٦ .

(٢) انظر على سبيل المثال : ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٩٦ ؛ المعجم ، ص ٣٩٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ١ ، ق ١ ، ص ٣٩٨ ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ١٢ ، ص ١٨٢ .

(٣) انظر مثلاً : ابن برجان ، تفسير ابن برجان (قطعة منه) ، ورقة ٦٦ ب ، ٦٨ ب ، ٦٩ أ ، ٧٧ أ ،

٨٨ ب ؛ ابن عطية : المحرر الوجيز ، ج ٤ ، ص ٣١٦ - ٣١٨ ، ج ٥ ، ص ١٦١ ، ج ٨ ، ص ١٦٤ ؛

ابن العربي : أحكام القرآن ، ق ١ ، ص ٥١٨ ؛ ابن الجزري : غاية النهاية ، ج ١ ، ص ١٢ ، ١٧ ،

٦٦ ، ٨٧ ، ١٢٧ ، ج ٢ ، ص ٣ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٤٦ ، ٦٠ ، ١٠٨ ، ١٤٣ .

(٤) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ١١٦ - ١١٧ ؛ القرطبي : الإعلام ، ج ٣ ، ص ٢٦١ .

بأن آيات النبوة التي يكتب عنها العلماء بعامّة تعنى عادة معجزاته ﷺ أو دلائل نبوته أو أعلامها^(١). وعندنا علماء أندلسيون ألفوا في النبوة، منهم أبو عبد الله بن خلف الأوسي* (ت ٥٣٧هـ/١١٤٢م) الذي ألف كتاب "الأصول إلى معرفة الله ونبوة الرسول ﷺ" ^(٢). وأبو عبد الله بن أبي الخصال ^(٣) (ت ٥٤٠هـ/١١٤٦م) الذي نظم قصيدة في النبي ﷺ عرض فيها لمعجزاته عنوانها "معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب في ذكر نسب الرسول ﷺ ومعجزاته ومناقب أصحابه" ^(٤). وعبد الحق الإشيلي** (ت ٥٨٢هـ/١١٨٦م) الذي ألف كتاباً بعنوان "معجزات الرسول ﷺ" ^(٥). ومحمد بن

(١) ابن تيمية: الجواب الصحيح، ج٤، ص ٦٧.

* أبو عبد الله محمد بن خلف الأنصاري الأوسي، ويعرف بالإلبيري، لأن أصله من إلبيرة، سكن قرطبة، كان من العارفين بمذاهب المتكلمين، مشاركاً في الأدب، متقدماً في الطب، له عدة مؤلفات في الأصول والحديث. توفي في جمادى الآخرة عام ٥٣٧هـ/١١٤٢م (ابن الأبار: التكملة، ج ١، ص ٤٣٩-٤٤٠؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ص ٦، ص ١٩٣-١٩٥؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٣، ص ١٦٥-١٦٦؛ ابن فرحون: الدياج، ج ٢، ص ٣٠٢).

(٢) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ص ٦، ص ١٩٤.

(٣) رسائل ابن أبي الخصال، ص ٦٢٧-٦٣٧.

(٤) الكلاعي: الإكتفاء، ج ١، ص ٣٩؛ الوادي آشي: برنامج الوادي آشي، ص ٢٢٤.

** أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الإشيلي، يعرف بابن الخراط، من أهل إشبيلية، خرج من الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين، فسكن بجاية في المغرب الأوسط. كان فقيهاً حافظاً، بارعاً في الحديث وعلومه، مشاركاً في الأدب والشعر، وله مصنفات عدة في الأحكام والحديث والوعظ طبع أكثرها. وقد توفي في بجاية سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م وقيل ٥٨٢هـ/١١٨٦م (ابن الأبار: التكملة، ط. كوديرا، ج ٢، ص ٦٣٧-٦٣٨؛ المنذري: التكملة، ج ١، ص ٦١؛ ابن الزبير: صلة الصلة، ص ٤-٧؛ الغبريني: عنوان الدراية، ص ٤١-٤٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ١٩٨-٢٠٢؛ ابن قنفذ: الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، ط. الثالثة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ٢٩٣؛ ابن فرحون: الدياج، ج ٢، ص ٦١).

(٥) ابن فرحون: الدياج، ج ٢، ص ٦١.

أحمد اللخمي* (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) الذي صنع أرجوزة في معجزات النبي ﷺ سماها " نظم الدرر السنية في معجزات سيد البرية " وقد شرحها بنفسه في سفر ضخم^(١).

ومن جانب آخر فإننا إذا استعرضنا بعض كتب السيرة النبوية المؤلفة في عصر الدراسة نلاحظ أنها لا تخلو في بعض المواضع من عبارات تُزرى باعتقادات النصارى ، وقلة حظهم من العلم والعقل^(٢) . ومن الملاحظ أن أبا الربيع الكلاعي^(٣) (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) لما نقل قصة وفادة نصارى نجران على النبي ﷺ من كتب السيرة ، وما جاء فيها من ذكر لاعتقادهم في عيسى عليه السلام قطع سياق القصة وقال " ففي كل هذا من قولهم قد نزل القرآن مدحاً حججهم ، ومبطلاً دعاويهم ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل " ^(٤) . ثم ساق عدداً من الآيات القرآنية الداحضة لأقوالهم^(٥) ، ثم نراه يرجع مرة أخرى ليتم بقية القصة^(٦) . فكأنه أراد بهذا التوضيح ألا يفوته الإسهام في مجابهة الفكر النصراني الموجه نحو الإسلام والمسلمين في الأندلس حينذاك.

✽ أبو بكر محمد بن أحمد بن عيسى بن حجاج اللخمي ، من أهل إشبيلية ، سكن بأخرة مراکش ، كان مشاركاً في فنون من العلم ، ذا حظ من الأدب وقرض الشعر . ولى القضاء مرتين ، وله مؤلفات في الحديث ورجاله . وقد توفي في شعبان سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ١٨-١٩) .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ١٩ .

(٢) السهيلي : الروض الأنف ، ج ٢ ، ص ٤٠٤-٤٠٥ ، ج ٥ ، ص ٣٥-٣٦ .

(٣) الاكتفاء : ج ١ ، ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٤) الكلاعي : الاكتفاء ، ج ١ ، ص ٤٨٧ .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٨٧ - ٤٩٢ .

وبالرغم من أن القاضي عياضاً^(١) (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م) قد صرح في كتابه " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " عند حديثه عن معجزاته ﷺ ، وخصائصه وكراماته - بأنه لم يجمعه " لمنكر نبوة نبينا ﷺ ، ولا لطاعن في معجزاته " ^(٢) . بمعنى أنه لم يرد رداً مباشراً على أحد أنكر النبوة ، أو طعن في المعجزات إلا أن الناظر فيما حواه الكتاب من أبواب تبين منزله الرسول ﷺ ، وما أظهره الله على يديه من الآيات والمعجزات ، وما يجب له من حقوق على الناس ، وما يجوز عليه من الأمور البشرية وما يمتنع ، وكذلك ما ورد فيه من بيان لأحكام من سبه أو انتقصه من المسلمين أو من أهل الكتاب - إن الناظر في كل هذا يشعر بأن المؤلف لم يُقدم على تأليف كتابه إلا لمعالجة تيار فكري أخذ يسري بين الناس عصرئذٍ يقلل من قدر النبي ﷺ ، يدعم وجهة النظر هذه إشارته في صدر الكتاب إلى أن شروعه فيه قد جاء بعد إلحاف متكرر من بعضهم عليه لتصنيفه ، وأنه طلب منه التمثيل على أقواله ليكون أدعى إلى الاستفادة الحقة منه ^(٣) . زد على ما سبق أن عياضاً قد حكى ما شهد به بنفسه في ذلك الزمن من أن الناس قد اجتالتهم موجة من التساهل بالألفاظ المنطوية على عدم التوقير للنبي ﷺ ^(٤) .

والذي يلوح لنا - من خلال ما وصلنا إليه آنفاً - أن القاضي عياضاً قد ألف كتابه الشفا لئسهم في التصدي لتيار فكري منحرف حمل في أطوائه جرأة على مقام النبي ﷺ ، وغير مستبعد أن يكون للنصارى أثر في تغلغل

(١) الشفا ، ج١ ، ص ٤٧٩ .

(٢) عياض : الشفا ، ج١ ، ص ٤٨١ .

(٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٨ .

(٤) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٥٢٤ .

ذلك التيار بين المسلمين في ذلك العصر .

ولقد كان لبعض الشعراء مشاركة في التحذير من فساد العقيدة النصرانية وتبيان زيغها وضلالها . فأبو طالب عبد الجبار المرواني[☆] (ت ٥١٦هـ / ١١٢٢م) تعرض للعقيدة النصرانية في أرجوزته التي وضعها في التاريخ ، فقال أثناء بيانه للعلم والنظر فيه :

وصانعُ العَالَمِ فردٌ صمدٌ	والصُّنْعُ لم يشركه فيه أحدٌ
فصنْعُ الاثنين اشترَاكٌ منهما	لا يخلوَانِ مِنْ تَغَايُرهما
وكلُّ ما زاد عن اثنين كذا	من خالف التوحيدَ فهو قد هذى

إلى أن يقول :

وللنصارى القولُ في التثليثِ	أفطع به من مذهبٍ خبيثِ
وطابقوا اليهودَ في التجسيمِ	أف له من منطقٍ ذميمِ
جَلَّ الإلهُ الفردُ عن شريكِ	فهو ذوُ التقديسِ والتبريكِ ^(١)

☆

☆

☆

أما الآن فقد حان الحديث عن العلماء الذين جندوا أنفسهم للتصدي للحملات الفكرية النصرانية ، فكانوا يترصدون لما يذيعه النصارى من أفكار ضالة بين المسلمين ، ويتعقبون ما يثيرونه من شبهات حول الدين الإسلامي ونبيه ﷺ ، ثم يقومون بالرد عليها بالمناظرة الشفهية أونة ، وبالمجادلة

☆ هو عبد الجبار بن عبد الله بن أحمد المرواني يتصل نسبه بالأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط ، كان من أهل المعرفة بالأدب واللغة والشعر . وله كتاب في التاريخ بعنوان " عيون الإمامة ونواظر السياسة " . توفي في رمضان عام ٥١٦هـ / ١١٢٢م (ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، ٢م ، ص ٩١٦-٩٤٤ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٧٩-٣٨٠ ؛ ابن سبيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٧١) .

(١) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، ٢م ، ص ٩٢٤-٩٢٥ .

الكتابية آونة أخرى . ويأتى في مقدمة هؤلاء أبو جعفر بن عبيدة الخزرجي ☆
(ت ٥٨٢هـ / ١١٨٧م) ☆☆ الذي ابتدأت عنايته بالرد على الحملات الفكرية
المعادية للإسلام في سن باكرة ^(١) ، ثم إنه في سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م ^(٢) ، وبينما
كان عمره إحدى وعشرين سنة ^(٣) أخذته النصارى أسيراً من قرطبة إلى
طليطلة ^(٤) ☆☆☆ ، فكان أحد القساوسة ☆☆☆ هنالك يلتقي بالمسلمين الخاضعين

☆ أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة بن عبد الحق الخزرجي ، ينسب إلى سعد بن عبادة ؓ من
أهل قرطبة ، عُرف منذ شببته بالذكاء والحفظ ، وكان معتنياً بالحديث والتواريخ والقصص . ولقد
امتنحن بالأسر في طليطلة ، ولما أطلق سراحه تنقل بين عدة مدن كان آخرها مدينة فاس بالمغرب ، حيث
توفي بها في ذي الحجة سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٧م . وقد خلف عدة مؤلفات من أبرزها : مقامع الصليبان ،
ونفس الصباح في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه . وقد طبعا كلاهما (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ،
ص ٨٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٩-٢٤١ ؛ ابن فرحون :
الديباج ، ج ١ ، ص ٢١٥-٢١٦ ؛ التنبكي : نيل الابتهاج ، ص ٦٩ ؛ ابن القاضي : جذوة الاقتباس
في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، ط . دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٣م ، ج ١ ، ص ١٤١) .
☆☆ في معظم صحائف هذه الرسالة المنهج الذي سرنا عليه في تناول جهود العلماء أو أثرهم في الصراع
ضد النصارى ترتيبهم حسب الأسبقية بالوفاة . وقد بدأنا هنا بابن أبي عبيدة رغم تأخره بالوفاة عن
عدد من العلماء الذين سنذكرهم بعده ، لأن المصادر أعطتنا تاريخاً محدداً لجهوده في مجال المواجهة
الفكرية مع النصارى يسبق بسنوات ليست قليلة وفاة أولئك العلماء الذين لا نعرف بالتحديد التاريخ
الذي زاولوا فيه جهودهم في المجال نفسه .

(١) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ١٢٠ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٠ .

(٣) ذاك أن مولده كان في سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م . (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٨٥) .

(٤) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ٢٩-٣٠ .

☆☆☆ يرجع عبد الحميد الشرفي أن ابن أبي عبيدة كان من أنصار يحيى بن غانية عامل المرابطين على
قرطبة ، وأن أسرَه حَدَثَ عند دخول النصارى قرطبة سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م (الخزرجي : مقامع
الصليبان ، ص ٨ من مقدمة التحقيق) حيث أنهم دخلوها بالتحالف مع ابن حمدين في أواخر تلك
السنة (ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٤ ، ص ٣٤٥) .

☆☆☆☆ لم يتيسر معرفة اسم هذا القسيس (الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ١٦ من مقدمة التحقيق) وقد
تجنب فرناندودي لاجراخا التحري عن هوية هذا القسيس لما تطرق له في بحثه حول كتاب مقامع -

للحكم النصراني ، ويطرح عليهم شبهات حول الإسلام بغية تشكيكهم فيه ، فاستغل هؤلاء المسلمين وجود ابن أبي عبيدة الخزرجي عندهم ، فراحوا يعرضون عليه - رغم حداثة سنة - ما يحيرهم من اعتراضات القسيس على الإسلام ، فكان ابن أبي عبيدة يلقنهم الحجج المفحمة التي استطاعوا بها إسكات ذلك القسيس ، وإدحاض شبهاته المزخرفة ^(١) ، بل لقد قدر لابن أبي عبيدة الخزرجي أن يكتب - وهو في الأسر - كتاباً في الرد على النصارى . ذاك أن القسيس الطليطلي استنكر إجادة المسلمين في الرد على أغاليطه ، فأخذ يستفهم عن ذلك حتى علم بخبر ابن أبي عبيدة ^(٢) ، فبعث إليه برسالة يشرح له فيها - على حد زعمه - محاسن النصرانية ، ومساوئ الإسلام ^(٣) . ونظراً لكون ابن أبي عبيدة الخزرجي يقيم أسيراً في طليطلة فقد خشى على نفسه من غضب النصارى وبطشهم إن رد على رسالة قسيسهم ، فتمهل مدة إلى أن علم بموعد خلاصه من الأسر ^(٤) ، وذلك في بحر سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ^(٥) ، وعندها بادر بالرد على تلك الرسالة ، فأخذ يتعقب عباراتها ، ويكشف عوارها ، ويهتك سترها ، ويبين تهافتها ^(٦) ، فتجمع لديه كتاب

- الصليبان ، فاكنتى بتسميته بـ " قسيس طليطلة " .

(milagras Espanoles en una obra Polemica Musulmana , Revista Al Andalus , vol . xxxl11 , 1968 , p . 14 , 19 , 21 , 39 , 54) .

(١) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠ - ٢٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٠ .

(٦) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ٣٩ - ١٩٧ .

حفيل في الرد على ذلك القسيس* ، فحرص على نشره في عدة نسخ بين المسلمين في طليطلة قبل مغادرته إياها . يقول ابن عبد الملك المراكشي^(١) عنه وعن كتابه " وتركه في نسخ بأيدي جماعة من المسلمين المبطلين بالأسر هناك لما يَسَّرَ الله في تخلصه " . وقد جاء عنوان هذا الكتاب في المصادر غير متطابق ، فسمى بـ " مقامع هامات الصليبان وروائع رياض الإيمان " ^(٢) و " مقامع الصليبان ومرائع رياض أهل الإيمان " ^(٣) و " مقامع الصليبان في الرد على عبدة الأوثان " ^(٤) و " مطامع الصليبان وروضان الإيمان " ^(٥) و "مقامع الصليبان" ^(٦) وقد طبع هذا الكتاب أكثر من مرة .

ويظهر أن اطلاع ابن أبي عبيدة الخزرجي عن قرب على الجهود المبذولة من قبل النصارى لحرب الإسلام وأهله فكرياً ، وقيامه بالرد على بعضها حينما كان مأسوراً عندهم قد خلق في نفسه -لما فاء إلى دار الإسلام- همماً دائماً ، وعناية خاصة بالدراسات التي تنافح عن الإسلام ، وتفضح الحملات الفكرية النصرانية المضادة له . إذ نراه يقدم كتابه الآنف الذكر

✽ استفاد أحد الكتاب المتأخرين من كتاب ابن أبي عبيدة في رده على هذا القسيس فضمنه برمته في كتاب له سماه " الفاصل بين الحق والباطل " ووجهه إلى رجل نصراني اسمه " حنا مقار " (الخزرجي : بين الإسلام والمسيحية (مقامع الصليبان) تحقيق محمد شامة ، ص ٤٢-٤٤ من مقدمة التحقيق) .

(١) الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٠ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٨٥ ؛ ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج ١ ، ص ١٤١ .

(٤) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ٣٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٢ من مقدمة المحقق .

(٦) الرعيي : برنامج شيوخ الرعيي ، ص ٥٢ ؛ التبكي : نيل الابتهاج ، ص ٦٩ .

للطلاب ، فيقرأونه عليه بعد سنوات من تصنيفه ^(١) . كما نراه - أيضاً -
قد ألف كتاباً آخرَ يبدو أنه يعالج القضية عينها ، وذلك بعنوان " مقام المدرك
في إفحام المشرك " ^(٢) . وثمة مصنف ثالث كتبه حول إعلام نبوة الرسول ﷺ
بعنوان " قصد السبيل في معرفة آيات الرسول ﷺ " ^(٣) . ومسألة نبوة الرسول
ﷺ مسألة طالما شكك فيها النصارى وأضربهم خلال حملاتهم الفكرية ضد
الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام .



ومن ذاعت شهرته بين علماء الأندلس في ميدان المواجهة الفكرية مع
النصارى أبو مروان بن مسرة اليحصي* (ت ٥٥٢هـ / ١١٥٧م) فلقد اجتمع
أساقفة النصارى في طليطلة ، واتفقوا على الكتابة إلى أبي مروان هذا ^(٤)
يثنون - فيما يبدو - على النصرانية ، ويطعنون في الإسلام ، " فبعد أن بذلوا
جدهم ، وأجهدوا جهدهم كتبوا له رسالة ... في بطاقة صغيرة عدد أسطوارها
نحو ثلاثين " ^(٥) . وقد تولى صياغة عباراتها نيابة عنهم رجل اسمه عبدالرحمن

(١) الرعيي : برنامج شيوخ الرعيي ، ص ٥٢ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٠ ؛ ابن فرحون : الديباج ، ج ١ ،
ص ٢١٦ . انظر تعليقاً للشرفي في : الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص ١٢١ ، حاشية .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٠ ؛ ابن فرحون : الديباج ، ج ١ ،
ص ٢١٦ .

* أبو مروان عبد الملك بن مسرة بن فرج بن خلف بن عزيز اليحصي ، من أهل قرطبة ، كان ممن جمع
الله له الحديث والفقه مع الأدب والفضل والدين والورع والتواضع . توفي في رمضان عام ٥٥٢هـ /
١١٥٧م (ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٦٦-٣٦٧ ؛ الضبي : بغية الملتبس ، ص ٣٨٢ ، ابن
فرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ١٨-١٩) .

(٤) القرطبي : الإعلام ، ج ١ ، ص ٤٩ .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

ابن غصن ^(١)☆ ، فصارت تلك الرسالة تنسب إليه ^(٢) .

وبالمقارنة بين الزمن الذي عاش فيه ابن مسرة - وهو النصف الأول من القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي - وبين ما شرحناه سابقاً من ترجمة النصارى القرآن الكريم وغيره عام ٥٣٨هـ / ١١٤٣م بقصد حرب الإسلام بالفكر يتراءى لنا أن هذا العمل الذي أقدم عليه أولئك القساوسة ما هو إلا صورة من صور الحرب الفكرية التي أزمعت القوى النصرانية على إحكام تنفيذها تجاه مسلمي الأندلس . أما تخير النصارى أبا مروان بن مسرة لبيعوا إليه برسالتهم دون سواه فربما مرد ذلك إلا أنه كان وقتها من أبرز العلماء في قرطبة الحاضرة العتيدة للمسلمين في الأندلس ؛ إذ كان أبو مروان فيها حينئذ عالي الذكر ، رفيع القدر ^(٣) . وتلقي مثله لرسالة من النصارى يُكسبها دعاية عريضة بين المسلمين عالمهم وعاميتهم . فيترتب على ذلك تناقلهم لخبرها ، وتشوفهم إلى النظر فيها ، ومعرفة محتواها ، وإذا تحقق شيء من هذا فلا يستبعد أن يتأثر بما ورد فيها بعض ضعاف المسلمين . فيضطرب إيمانهم ، وتهتز عقيدتهم . وهذا ما ينشده النصارى ويرمون إليه .

ومهما كان الأمر فحين استلم أبو مروان الرسالة بادر بالرد عليها،

(١) القرطبي : الإعلام ، ج١ ، ص ٤٩ .

✽ عبد الرحمن بن غصن وصف في بعض المصادر بالنصراني (ابن الأبار : التكملة ، ج٢ ، ص ٧٢٣) فاسمه يوحى أنه من مسلمي طليطلة الذين ارتدوا عن الإسلام . وهناك بعض الشخصيات المعروفة في مدينة وادي الحجارة القريبة من طليطلة ينسبون إلى غصن (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج٢ ، ص ٦٠٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج٢ ، ص ٣٣) فهل عبد الرحمن هذا يمت إليهم بصلة ؟

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ج٢ ، ص ٧٢٣ ، القرطبي : الإعلام ، ج١ ، ص ٤٩ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص ٣٦٧ .

حيث أجابهم عنها " وأحسن الجواب ، وأظهر لهم جهلهم وتبلدهم في ذلك الكتاب " (١) ، ولم يكتف بذلك ، وإنما شفعها بقصيدة دالية نظمها في معنى جوابه المذكور (٢)★. وقد عرفت رسالته وقصيدته في الرد على النصارى بـ " ميزان الصدق المفرق بين أهل الباطل وأهل الحق " (٣) . ولقد سمع طلبية العلم الأندلسيون هذه الرسالة من أبي مروان وكتبوها (٤) وتداولوها فيما بينهم ، وقد قرضها أحد تلامذته بقصيدة جاء فيها :

عقيدةُ إيمانٍ : حَدَّتْهَا كَرَامَةٌ

تَجَلَّى ظِلَامُ الشَّرِكِ مِنْهَا بِكُوكَبِ

أَشَادَتْ بِذَاكَ رَأَاهَا الْعُدَاةُ فَشَيَّدَتْ

أَقَاوِيلَ حَامٍ عَنْ ذُرَا الدِّينِ مُعَرِّبِ (٥)



(١) القرطبي : الإعلام ، ج ١ ، ص ٤٩ .

(٢) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ٤١٨ .

✽ كان الشعر أحد الأسلحة الفكرية المعتبرة لدى المفكرين المسلمين في مواجهة النصارى (عبد المجيد الشرفي : الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر ، ط . الدار التونسية ، تونس ١٩٨٦م ، ص ٤٥٤) ولقد استشهد بعض العلماء في معرض تعريتهم للديانة النصرانية المحرفة بالشعر (القرطبي : الإعلام ، ج ٤ ، ص ٤١٩ ؛ القرافي : الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة ، تحقيق بكر زكي عوض ، ط . الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص ١٩٨ - ١٩٩) .

(٣) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ٤١٨ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٧٢٣ .

ويعد عبد الله بن سهل الغرناطي* (ت ٥٧١هـ/١١٧٦م) من العلماء الأندلسيين الذين حاوروا النصارى وجادلوهم ، فحرزوا الغلبة عليهم . فلقد كان مقامه في مدينة بَيَّاسة** أيام سيطرة نصارى قشتالة عليها بين سنتي ٥٤٣هـ/١١٤٨م و ٥٤٧هـ/١١٥٢م^(١) في أعقاب الصراع بين المرابطين والموحدين - كان ذلك فرصة أتاحت له الالتقاء برجال الدين وطلاب العلم النصارى القادمين من حاضرتهم طليطلة^(٢) . فجرت بينه وبين قسيسهم عدة مناظرات ، استطاع ابن سهل أن يعلو عليه فيها ، يقول ابن الخطيب^(٣) عن ابن سهل هذا " وله مع قسيسهم مجالس في التناظر ، حاز فيها قصب السبق " . ولعل من أكبر الأسباب في إقدام ابن سهل على مناظرة القسيس عدة مرات ، ومن ثم سحقه بالحجة والبرهان كونه قد تسلح بالعلوم المساعدة على ذلك ، فلقد كان بجانب معرفته بالعلوم الشرعية ذا معرفة بالمنطق والعلوم الرياضية

☆ أبو محمد عبد الله بن محمد بن سهل الضرير ، ينز بوجه نافخ ، من أهل غرناطة . كانت له عناية بالقرآن والحديث والنحو والآداب والمنطق والعلوم القديمة وغيرها . سكن مرسية بعد أن طلبه محمد بن سعد بن مردنيش لتأديب ولده ، فبقى بها حتى وفاته في ذي القعدة سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م (ابن الأبار: التكملة ، ج٢ ، ص ٨٤٩ - ٨٥٠ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ٤٠٤ ، الإحاطة " نصوص جديدة " ، ص ٧٤) .

☆ بَيَّاسة Baeza إحدى المدن الكبيرة في كورة جيان (ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ١٥ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٥١٨) إلى الشمال الشرقي من الحاضرة (عنان : الآثار الأندلسية ، ص ٢٢٨) وكانت تطل على نهر الوادي الكبير (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ٢٠٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج٢ ، ص ٧١) وهي حالياً مركز إداري في محافظة جيان في إسبانيا (ابن الأبار : الحلة ، ج٢ ، ص ٢٥٣ ، حاشية ٢) .

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ٤٠٤ ، الإحاطة " نصوص جديدة " ، ص ٧٤ .

(٣) الإحاطة ، ج٣ ، ص ٤٠٤ .

والعلوم القديمة - معرفة شهد له بها النصارى واليهود فضلاً عن المسلمين^(١)، حيث " امتد صيته من أجلها ، وأجمع المسلمون واليهود والنصارى أن ليس في زمانه مثله " ^(٢) .



ولقد نظم الفقيه أبو الأصبع بن زروال الشعباني ☆ " قصيدة طويلة ميمية في الرد على نقفور عظيم الروم " كما يقول ابن عبد الملك المراكشي ^(٣) ، وقد بلغت أبياتها مائة واثنين وسبعين بيتاً ، لا تملك منها سوى البيت الأول فقط ، وهو :

من الملك المنصور من آل هاشم

سليل السراة المنجبين الأعظم^(٤)

وواضح من وزن القصيدة وقافيتها ، وكذلك من سياق كلام ابن خير^(٥) (ت ٥٧٥هـ / ١١٧٩م) عنها ، والذي كان قد قرأها على ناظمها

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ٤٠٤ ، الإحاطة " نصوص جديدة " ، ص ٧٤ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ٤٠٤ .

☆ عيسى بن موسى بن عمر بن زروال الشعباني ، من أهل غرناطة ، كان فقيهاً محدثاً أديباً بليغاً وشاعراً مجيداً ، وخطيباً مصقفاً (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٥١٢-٥١٣ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٤٦-٤٧) ولا نعرف سنة وفاته ، لكن ابن خير المتوفي سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م روى عنه ، وتَرَحَّم عليه مما يشعر بأنه كان قد توفى حين كتب ابن خير كتابه (فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ٤١٠) فتكون وفاة ابن زروال إذن قبل سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م .

(٣) الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٥١٢-٥١٣ .

(٤) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ٤١٠ .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

أبي الأصبع نفسه أن المقصود بنقفور ليس حاكماً نصرانياً معاصراً للناظم - وإنما هو الامبراطور البيزنطي نقفور* الذي كان قد بعث إلى الخليفة المطيع لله العباسي☆☆ (١) (٣٣٤هـ/٩٤٧م - ٣٦٣هـ/٩٧٤م) قصيدة ميمية مطلعها :

من الملك الطهر المسيحي مالكا
إلى خلف الأملاك من آل هاشم
إلى الملك الفضل المطيع أخى العلا
ومن يرتجى للمعضلات العظام (٢)

☆ هو نقفور بن فوكاس Nikephoros Phokas ينتمي إلى إحدى الأسر الكبرى في آسيا الصغرى وصل عرش الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة الإمبراطور رومانوس الثاني عام ٣٥٢هـ/٩٦٣م . وكان قبل ذلك يطلق عليه الديمستق . معنى القائد العام للقوات البيزنطية في آسيا الصغرى ، واشتهر أيامها بحروبه العنيفة ضد المسلمين ، فاحتل كريت ودخل حلب واحتاح كثيراً من الأراضي الإسلامية ، وبعد اعتلائه عرش الإمبراطورية واصل نشاطه الحربي في بلاد المسلمين حتى قاد بنفسه حملات إليها . وقد استمر في الحكم إلى أن اغتيل في سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م . انظر أخباره مفصلة في الباز العريبي : الدولة البيزنطية ، ط . دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص ٤٣٤-٤٤١ ، ٤٤٩-٤٦٤ ، ٤٧٢-٤٩٧ ، ٥١٢-٥١٦) ويبدو أن أخباره اختلطت على ابن كثير رحمه الله (البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٢٤٣-٢٤٤) .

☆☆ المطيع لله العباسي هو أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر بويج له بالخلافة لما خلع المستكفي بالله في جمادي الآخرة سنة ٣٣٤هـ/٩٤٦م واستمر في الحكم إلى أن تنازل لابنه الطائع بالله عن الخلافة آخر سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م ، ثم توفي في محرم السنة التالية (ابن العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٧٧-١٧٩ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٥ ، ص ١١٣-١١٨) .

(١) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ٤٠٩ ؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ومحمود الطنحاحي ، ط . دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦م ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٢٤٤ .

(٢) ابن حزم : ديوان الإمام ابن حزم الظاهري ، تحقيق صبحي رشاد عبد الكريم ، ط . الأولى ، دار الصحابة ، طنطا ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص ٤٢ .

وأبياتها تدنو من السبعين بيتاً^(١) ، حيث أنشأها لهذا الأباطور أحد كتابه ممن ارتد عن الإسلام ، فكان " يفخر فيها بهذا اللعين ، ويتعرض لسب الإسلام والمسلمين ، ويتوعد فيها أهل حوزة الإسلام بأنها سيملكها كلها حتى الحرمين الشريفين ... ويزعم أنه ينتصر لدين المسيح عليه السلام ... و ... يعرض فيها بجناب الرسول عليه من ربه التحية والإكرام ، ودوام الصلاة مدى الأيام " ^(٢) .

ومن المتوقع أن السبب الذي حرك أبا الأصبغ بن زروال للرد على قصيدة نفقور الروم بالرغم من الفارق الزمني البعيد بينهما هو قيام النصارى في الأندلس بإعادة نشرها بين المسلمين في ذلك الحين ، إذ تحمل في حناياها - كما مر قبل قليل - تهديداً للمسلمين بامتلاك بلادهم ، وتمجيذاً للنصرانية والمسيح عليه الصلاة والسلام ، وتكريفاً بمقام النبي ﷺ . وهذه الأغراض هي ذاتها التي كان يدندن حولها نصارى الممالك الإسبانية في حربهم النفسية والفكرية للمسلمين في الأندلس إبان ذلك العصر .

وحيث أنه ليس عندنا من قصيدة أبي الأصبغ بن زروال غير البيت الأول ، وليس لدينا - أيضاً - في المصادر وصفاً لها فإننا بلا شك لا نستطيع تقويمها ، ولا التحقق من مفردات عناصرها ، ولا الحكم على مضامين أبياتها ، ولكن هذا لا يمنعنا - بحكم أنها جاءت رداً على قصيدة نفقور - أن نرجح عدم ابتعادها عن النسق العام للقصائد التي أنشأها علماء الإسلام

(١) ابن حزم : ديوان الإمام ابن حزم ، ص ٤٢-٤٨ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ -

٢٠٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٢٤٤ .

للرد على تلك القصيدة النصرانية ^(١) ، لا سيما القصيدة التي سبكها في الربع الأول من القرن الخامس الهجري أبو محمد بن حزم ^(٢) (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) بصفته أندلسياً كأبي الأصبع بن زروال ، حيث دارت قصيدته البالغة مئة وستة وثلاثين بيتاً على محاور متعددة أبرزها : التذكير بالفتوحات الإسلامية ، والإشادة بالقادة المسلمين الذين كانت لهم وقائع مشهودة مع الروم ، والتقليل من شأن النصارى وتهديداتهم على البلدان الإسلامية؛ لأن المسلمين سيقفون لهم بالمرصاد ، ويردونهم على أعقابهم بكل عزة وقوة ، ثم التعرض للعقيدة النصرانية المحرفة ، وما فيها من فساد وضلال ، ومجافاة للعقل والمنطق ، وأخيراً التأكيد على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ مع ذكر أمثلة على ذلك ^(٣) . فلا يُظن أن تبتعد كثيراً قصيدة أبي الأصبع بن زروال عن هذه الموضوعات التي طرقها ابن حزم في قصيدته ما دام أنه قد أنشأها للرد على قصيدة نفقور الروم ، وإن اختلفت طريقتة عن غيره في تناول تلك الموضوعات .



ولقد كان لأحد علماء قرطبة في الثلث الأول من القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي - مشاركة رائدة في مواجهة الفكر النصراني المهاجم

(١) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ٤٠٩-٤١٠ .

(٢) قلنا في الربع الأول من القرن الخامس الهجري ، لأن القصيدة اطلع عليها ابن حزم في مجلس الخليفة الأموي في الأندلس المعتد بالله (ابن حزم : ديوان الإمام ابن حزم ، ص ٤٨) والمعتد بالله الأموي تولد من ٤١٨هـ / ١٠٢٧م حتى ٤٢٢هـ / ١٠٣١م (المقرئ : نفخ الطيب ، ج ١ ، ص ٤٣٨) .

(٣) انظر القصيدة كاملة في : ابن حزم : ديوان الإمام ابن حزم ، ص ٥٢-٦٢ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٣ ، ص ٢١٤-٢٢٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٢٤٧-٢٥٢ .

للإسلام والمسلمين في الأندلس . إذ كتب بعض المنتحلين لدين النصرانية كتاباً أسماه " تثليث الوجدانية في معرفة الله " ، وبعث به من طليطلة إلى قرطبة* ، " متعرضاً فيه لدين المسلمين ، نائلاً فيه من عصابة الحق الموحيدين " ^(١) وقد سعى إلى تسويق كتابه هذا بين المسلمين " ليستنزل به الأغبياء الأغمار " ^(٢) . ثم إنه تناول أكثر على الدين الإسلامي ، وأخذ يكثر من الاعتراض عليه ، ويتبجح عند قومه النصارى أن علماء الأندلس ليس في مكتهم مجاراته في أقواله ، ولا الرد على شبهاته ^(٣) . ولهذا تصدى هذا العالم القرطبي لصاحب

✽ بعد أن نقل القرافي السؤال الحادي عشر للنصارى الذي ادعوا فيه جواز الاتحاد بين الله وغيره تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، واستشهدوا على ذلك بتكليم الله تعالى لموسى عليه السلام ، وأشار إلى أن هذا السؤال اعتمد عليه أغشتين زعيم قسيسي طليطلة في كتابه " مصحف العالم " (الأجوبة الفاخرة ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨) قال : " ثم جاء ابن الفخار اليهودي ، تنصر ورأس عند ملوك الإفرنج بالوزارة وغيرها ... وكتب بهذا السؤال إلى علماء قرطبة ... " (المصدر السابق ، ص ٢٦٨) وإذا رجعنا إلى نصوص " تثليث الوجدانية " وجدنا فيها فحوى هذا الادعاء (القرطبي : الإعلام ، ج ١ ، ص ١٠٥ - ١٠٦) وحين رد عليه ذلك العالم القرطبي بين أن الكاتب قد استعان في صياغة ادعائه على ما كتبه إغشتين في " مصحف العالم " (المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٦ ، ١٤٣ - ١٤٧) فوجود فحوى ذلك الادعاء في كتاب " تثليث الوجدانية " وتأكيده القرافي أن ابن الفخار قد كتب مثل هذا الادعاء إلى علماء قرطبة يدفعنا إلى أن نسأل لماذا لا يكون ابن الفخار هو محرر " تثليث الوجدانية " ؟ لا سيما وأن ابن الفخار الذي اسمه إبراهيم كان سفيراً للملك قشتالة إلى حكام الموحيدين ، وذكر منهم المستنصر الموحيدي (٦١٠ هـ / ١٢١١ م - ٦٢٠ هـ / ١٢٢٤ م) (المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٥٢٨) والزمن الذي عاش فيه ابن الفخار هذا هو الزمن عينه الذي أُلّف فيه كتاب الإعلام . كما أن أحوال ابن الفخار كمعايشته للمسلمين ومعرفته باللغة العربية والمنطق (ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٣ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٥٢٧) هذه الأحوال تتوافق مع أحوال كاتب " تثليث الوجدانية " حسبما تظهر واضحة لمن يقرأ مناقشة القرطبي له في كتابة الإعلام .

(١) القرطبي : الإعلام ، ج ١ ، ص ٤٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٥ .

كتاب " تثليث الوجدانية " منطلقاً من قناعته " أن النكاية في العدو بالبرهان واللسان أوقع من نكاية السيف والسنان " (١) . فافتنى أقواله قولاً بعد قول ، وناقشه مناقشة علمية جلى فيها فساد كلامه وتناقضه ، وذلك في كتاب وسم بـ " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام " * وقد نسب هذا الكتاب إلى القرطبي المفسر المشهور ، نزيل مصر : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي * المتوفي سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م .

وحيث أن كتاب الإعلام هذا يُعد وثيقة شاهدة على إسهام علماء الأندلس في رد الحملات الفكرية النصرانية الموجهة صوب الأندلس في زمن دراستنا فمن الضروري النظر في مدى صحة نسبته إلى القرطبي المفسر .

(١) القرطبي : الإعلام ، ج١ ، ص ٤٦ .

* لم يأت ذكر لهذا العنوان على لسان المؤلف لا في مقدمة الكتاب ولا في غيرها .

* أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي . نشأ في قرطبة ، ثم هاجر إلى المشرق ، واستوطن مصر . كان محدثاً فقيهاً مفسراً ، متبحراً في كثير من العلوم . عَمَرَ أوقاته بين العبادة والتصنيف ، وتوفي في منية ابن الخصيب في صعيد مصر في شوال سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م . وقد خَلَفَ عدة مؤلفات طُبِعَ أكثرها ، ومن أشهر تلك المؤلفات كتابه في التفسير : الجامع لأحكام القرآن (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ٢ ، ص ٥٨٥ ؛ ابن فرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ؛ السيوطي : طبقات المفسرين ، ص ٧٩ ؛ الداودي : طبقات المفسرين ، ج ٢ ، ص ٦٩ - ٧٠ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢١٠ - ٢١٢ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٣٨٣ ، ٣٩٠ ، ٥٣٤ ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص ١٩٧) انظر تفاصيل واسعة عن حياته وآثاره في : (القصبي محمود زلط : القرطبي ومنهجه في التفسير ، ط . دار الأنصار ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ٦ - ٥٠ ؛ يوسف عبد الرحمن الفرت : القرطبي المفسر ، ط . الأولى ، دار القلم ، الكويت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ٣٣ - ٩٩ ؛ مشهور حسن سلمان : الإمام القرطبي ، ط . الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، ص ١١ - ١٥٥) .

فأولاً : لا جدال أن المؤلف قرطبي ، يوحى بذلك ما جاء في مقدمة كتاب الإعلام بأنه بادر بالنظر في كتاب " تثليث الوجدانية " الوارد إلى قرطبة بصفته أحد علمائها ^(١) ؛ علاوة عن أن مخطوط الإعلام قد كتب تحت عنوان أنه " للقرطبي رحمه الله " ^(٢) .

ثانياً : من الواضح أن الكتاب تم تأليفه قبل سقوط قرطبة بأيدي النصارى عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م ^(٣) ، فالمؤلف يقول عن كتاب النصراني إنه " بعث به من طليطلة أعادها الله إلى مدينة قرطبة حرسها الله " ^(٤) . فعبارة " حرسها الله " تدل على أن قرطبة ما زالت في حوزة المسلمين بعكس قوله عن طليطلة " أعادها الله " التي تعنى أنها قد خرجت من سلطان المسلمين .

ثالثاً : بل يخيل إلينا أن الكتاب قد ألف قبل سقوط قرطبة بمدة ليست بالقصيرة ، فالمؤلف حين تحدث عن الإسلام وظهوره على الدين كله قال : " وهذا دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ له ست مائة سنة ونيف من الأعوام، وهو باق إلى آخر الأيام ... " ^(٥) وفي موضع آخر قال " وهذا دين محمد رسولنا ﷺ قائم منذ ست مائة سنة ونيف " ^(٦) . فهذا يثبت أن الكاتب

(١) القرطبي : الإعلام ، ج١ ، ص ٤٣ .

(٢) انظر صورة الصفحة الأولى من المخطوط : القرطبي : الإعلام ، ج١ ، ص ٣٩ .

☆ استفاد منه بعض علماء الإسلام ، واكتفوا باسم " القرطبي " دون إشارة إلى كنية أو اسم (ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ج٤ ، ص ١٥٦ ؛ رحمت الله الهندي : إظهار الحق ، تحقيق محمد أحمد ملكاوي ، ط . الثانية ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، ج٢ ، ص ٣٩٥) .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ج١ ، ص ١٢٠ ، ٣٢٣ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٣١ .

(٤) القرطبي : الإعلام ، ج١ ، ص ٤٣ .

(٥) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٧٧ .

(٦) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢١٩ .

صنف كتابه بعد عام ست مائة هجرية بسنوات معدودات . فنيف تفيد الزيادة القليلة على العدد ، حتى أن بعض أهل اللغة يراها بين الواحدة إلى الثلاث ^(١) .

رابعاً : ثم إن المتأمل في مقدمة الإعلام يحس بأن الكاتب كان من أعلام علماء قرطبة ، وليس من غمار طلبة العلم العاديين ، فهو يرى أن جواب النصراني قد تعيّن عليه ^(٢) ، بل يحكى أن جماعة من إخوانه رغبوا إليه أن يرد على ذلك النصراني ^(٣) ، مما يفيد أنه كان على قدر من العلم كبير .

خامساً : وإذا قلبنا صفحات الكتاب انكشف لنا أن صاحبه رجل غزير العلم، واسع الثقافة، كثير الاطلاع ، فهو عالم بأصول الدين ودقائق العقيدة، ذو معرفة باللغة والحديث والتفسير والسيرة ، ولديه حظ وافر من الشعر والحكم والأمثال .

سادساً : ثم إننا إذا كررنا النظر في الكتاب استبان لنا أننا أمام كاتب عارف بطرق المجادلة ، متمرس على فنون المحاججة ، قد اطلع على كثير من أسفار النصارى وكتاباتهم ^(٤) ، وتتبع بعض ما كتبه العلماء المسلمون من ردود عليهم ^(٥) . بل إنه وعد بإفراد كتاب للرد على أحد مشاهير علماء النصارى السابقين عندما تعرض لبعض أقواله ^(٦) . وهذه الأشياء كلها تنبئ إن مؤلف

(١) الزبيدي : تاج العروس ، ج١٢ ، ص٥١٦ .

(٢) القرطبي : الإعلام ، ج١ ، ص٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المصدر السابق ، ص٧٩ .

(٥) المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٢٨ .

(٦) المصدر السابق ، ج١ ، ص٨٤ ، ١٥٧ .

الإعلام شخص متخصص في الدراسات المتصلة بالنصرانية قد صرف وقتاً من عمره للإحاطة بها .

وبناء على هذه المعطيات التي تجمعت لنا حول كتاب الإعلام ننظر الآن إلى أي حد تتوافق وأحوال القرطبي المفسر محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الذي يُنسب إليه الكتاب . فنقول كان القرطبي المفسر حتى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م لا يزال يقرأ العلم على مشايخ قرطبة ^(١) ، بل إنه في السنة التي سبقتها قد تردد في مسألة علمية بين ثلاثة من علماء قرطبة ليستفتيهم في شأنها ^(٢) الأمر الذي يفيد أن القرطبي المفسر حتى ذلك الحين لا يعدو أن يكون طالب علم في قرطبة لا يتميز عن غيره من الطلاب . وإذا تذكرنا أن كتاب الإعلام قد ثبت تأليفه قبل عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م وربما قبل ذلك بسنوات ليست قليلة - كما رجحناه - وأن مؤلفه - حسبما استنتجنا - كان من علماء قرطبة البارزين ، وأنه متخصص في الدراسات المتعلقة بالنصرانية - إذا تذكرنا هذه الأشياء جميعها وقارناها بوضع القرطبي المفسر في المدة الزمنية عينها ألفيناها بعيدة الاتفاق ، وأنه من غير المعقول أن يكون القرطبي هذا هو مؤلف الإعلام ، فهو لم يكن حينذاك من علماء قرطبة المعدودين ، ولم يَئِدْ عليه أي اهتمام بالدراسات النصرانية وما يرتبط بها ، وإذا ملنا إلى تأليف كتاب الإعلام في أوائل القرن السابع الهجري كان القرطبي المفسر - فيما يبدو - صبيّاً وقتها ليس في مقدوره تصنيف الكتب ناهيك عن تصنيف كتاب مثل كتاب الإعلام .

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج٣ ، ص ٢٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٢٧٢ .

وأمر آخر يضعف أن يكون كتاب الإعلام للقرطبي المفسر ، وهو أن نسبة هذا الكتاب إليه تبناها بعض المهتمين بكتب التراث من المتأخرين ^(١) فما تحت أيدينا من مصادر قديمة سواء كانت مغربية أو مشرقية ترجمت للقرطبي المفسر لا تذكر كتاب الإعلام في عداد مؤلفاته ، مع أنه من المفترض - لو كان قد ألفه - أن يأتي ذكره في رأس قائمة المصنفات التي كتبها بصفته أحد مؤلفاته الأولى ؛ وبخاصة عند المغاربة والأندلسيين ، إذ يلزم أن يكون القرطبي قد كتب كتاب الإعلام قبل مغادرته الأندلس ، ولو كان ذلك كذلك لما فات على هؤلاء المؤرخين المغاربة والأندلسيين معرفتهم بتأليفه له - وهم الذين حرصوا على تتبع أخباره لما استوطن مصر بعد تركه الأندلس ^(٢).

ومما يضعف نسبه الإعلام إلى القرطبي المفسر - أيضاً - أن الذين كتبوا عنه من المعاصرين ، وعنوا بحصر مؤلفاته ، وتعقبوا أماكن وجودها ، لم يعثروا على إشارة لهذا الكتاب في تضاعيف مؤلفاته المعروفة رغم أن كتبه ترددت أسماء بعضها في بعض ، لأن منهجه في التأليف الابتعاد عن تكرار المعلومات أكثر من مرة ^(٣) ، فكثيراً ما يكتفي - إذا عرضت له مسألة من المسائل - بالإحالة من كتاب إلى آخر من كتبه ، فيذكر هذا الكتاب أو ذاك بعنوانه المعروف ^(٤) ، ولا شك أن كثيراً من المسائل المتصلة بالنصارى وعقائدهم قد

(١) البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، ط . دار العلوم الحديثة ، بيروت ١٩٥٥ م ،

ج٢ ، ص ١٢٩ ؛ Fernando de la Granja : milagros Espanoles , p . 2,5 .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ٢ ، ص ٥٨٥ .

(٣) مشهور حسن سلمان : الإمام القرطبي ، ص ٩٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٩٨ ، ١٢٨-١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ؛

الفرق : القرطبي المفسر ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ؛ القصبي زلط : القرطبي ، ص ٤٩ - ٥٠ .

تطرق إليها ، وبخاصة في كتابه التفسير ، فلو كان الإعلام من مؤلفاته ليس هذا فحسب ، بل ومن أوائلها لأحال إليه وردد اسمه سواء في التفسير أو غيره .

وخلاصة ما نخرج منه بعد هذا النقاش أن القرطبي المفسر محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري المتوفى سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٣م يبعد أن يكون هو مؤلف كتاب " الإعلام بما في دين النصاري من الفساد والأوهام " والأقرب أن يكون مصنفه أحد علماء قرطبة الآخرين ، وربما كان من شيوخ القرطبي المفسر .

ولقد عثرنا على إحالات لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي* (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) - وهو شيخ القرطبي المفسر - ^(١) في شرحه لصحيح مسلم ^(٢) يشير فيها إلى كتاب اسمه " الإعلام " ، وذلك في عدة مواضع ،

✽ أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري ، يعرف بابن المزين ، ولد بقرطبة ، وسمع فيها الكثير ، وانتقل إلى المشرق ، واستقر بمصر ، فاشتهر أمره ، وطار صيته . كان بارعاً في الفقه والعربية ، عارفاً بالحديث ، له عدة مؤلفات من أبرزها : المفهم في شرح ما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، كشف القناع عن حكم مسائل الوجد والسماع . توفي في الإسكندرية في ذي القعدة سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ١ ، ق ١ ، ص ٣٤٨ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٧ ، ص ٢٦٤-٢٦٥ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ١ ، ص ٢٤٠ - ٢٤٢ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٦١٥ ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص ١٩٤) .

(١) صرح بذلك القرطبي المفسر في عدد من كتبه . انظر مثلاً : الجامع لأحكام القرآن ، ج ٣ ، ص ٩٥ ، ج ٤ ، ص ١٣ ، ج ٥ ، ص ٤٤ ، ج ٦ ، ص ٢٩٥ ، ج ١٤ ، ص ٢٢٩ ؛ التذكرة ، ص ١٢٠ ، ١٩١ ، ٢٣٦ ، ٣٧٧ ، ٤٢١ ، ٦٦٤ ...

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، تحقيق محي الدين مستو وآخرين ، ط . الأولى ، دار ابن كثير ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ج ٤ ، ص ٥٧٠ ، ج ٦ ، ص ٥٠ ، ١٤٨ ، ١٧٦ ، ١٨٣ .

الأول : حينما عرض لبركة النبي ﷺ قال : " وذكرنا من ذلك جملة صالحة في كتاب (الإعلام بمعجزات النبي عليه الصلاة والسلام) " ^(١) . الثاني : لما أشار إلى أن نبينا ﷺ قد أعطي من كل نوع من أنواع معجزات الأنبياء عليهم السلام قبله عقب على ذلك بقوله " كما أوضحناه في كتابنا المسمى بـ (الإعلام بصحة نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام) " ^(٢) . الثالث : عندما تطرق لصفة الرسول ﷺ في الكتب القديمة قال " وقد ذكرنا منه مواضع كثيرة جاءت في كتب أنبياء بني إسرائيل في كتاب (الإعلام) " ^(٣) . الرابع : حين رد على القائلين بأن الحوارين كانوا أنبياء أرسلوا إلى الناس بعد عيسى عليه الصلاة والسلام قال " وهو قول أكثر النصارى كما ذكرناه في كتاب (الإعلام) " ^(٤) . الخامس : لما تعرض لتأويل النصارى للختان قال " وليس هذا بأول جهالاتهم ، فكم لهم منها وكم ؟ وكيفيك من ذلك أنهم زادوا على أنبيائهم في الفهم ، وغلطوهم فيما عملوا عليه ، وقضوا به من الحكم " ثم قال " وقد اسبغنا القول في هذا في كتاب (الإعلام) " ^(٥) . وإذا أرجعنا البصر في هذه الإحالات الخمس نلاحظ مايلي :

١ - في الأولى جاء الكتاب باسم " الإعلام بمعجزات النبي عليه الصلاة والسلام " ، وفي الثانية باسم " الإعلام بصحة نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام " ، وفي الثالث الباقية اكتفى فقط بالكلمة الأولى من

(١) القرطبي : المفهم ، ج٤ ، ص ٥٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج٦ ، ص ٥٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج٦ ، ص ١٤٨ .

(٤) المصدر السابق ، ج٦ ، ص ١٧٦ .

(٥) المصدر السابق ، ج٦ ، ص ١٨٣ .

العنوان وهي "الإعلام" .

٢ - موضوعات الإحالات الثلاث الأولى تتسق وموضوع كتاب الإعلام هذا الذي يشير إليه أبو العباس القرطبي بصفته أحد مؤلفاته ، فهي تمس - كما هو واضح - معجزات النبي ﷺ وإثبات صحة نبوته بالمعجزات أو بأوصافه في التوراة والإنجيل ، بينما الإحالتان الرابعة والخامسة يبعدان في موضوعيهما عن موضوعات الإحالات الثلاث الأولى ، فهما يختصان بالرد على النصارى ، وتبدو الخامسة أكثر تعلقاً بموضوع الرد على النصارى . فهو - كما سبق - لما ذكر تأويلات النصارى المضلة ، وافتراءاتهم على أنبيائهم عقب بقوله " وقد أسبغنا القول في هذا في كتاب (الإعلام) " . وبناءً على هذا الاستنباط يفترض أن يكون كتاب الإعلام هذا أكثر من واحد ، وبخاصة أن المؤلف ذكر اسمه بثلاث صيغ ، فيكون - مثلاً - واحد منها يختص بإثبات نبوته ﷺ ، والثاني يُعنى بالرد على النصارى . وإما أن يكون الكتاب واحداً ، ولكن مؤلفه لم يلتزم بالعنوان .

٣ - إذا عُذنا إلى الكتاب المنسوب إلى القرطبي المفسر وهو "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام" ألفيناه يتضمن موضوعات كل الإحالات الخمس التي سردناها قبل قليل ، ففيه أمثلة عن بركة الرسول ﷺ^(١) ، وفيه التأكيد على أن رسول الله ﷺ قد أعطى من كل نوع من أنواع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله^(٢) ، وفيه أمثلة كثيرة من

(١) القرطبي : الإعلام ، ج٣ ، ص ٢٨١ - ٢٨٨ ، ٣٧٠ - ٣٧٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٤٠ ، ج٣ ، ص ٣٤٨ - ٣٦٦ .

أوصاف الرسول ﷺ في التوراة والإنجيل^(١) ، وفيه رد على القائلين بإرسال الحواريين إلى الناس بعد عيسى بصفتهم أنبياء^(٢) ، وفيه نقد لكثير من جهالات النصارى وضلالاتهم^(٣) . فهل يعني أن الكتاب الذي يعزو إليه القرطبي أبو العباس ويسميه "الإعلام" هو كتاب "الإعلام" الذي نروم معرفة مؤلفه ، وبخاصة أن الكلمة الأولى من العنوان في الكتابين واحدة ؟

إننا لا نستطيع البت في الإجابة على هذا السؤال ، لأن كتاب "الإعلام" لأبي العباس القرطبي في حكم المفقود ، فهو غير موجود بين أيدينا ، ولا نملك نصراً منه - ولو محدودة - لنجري مقارنة بينه وبين ما جاء في كتاب "الإعلام" بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " فلنتدبر إذن في أحوال أبي العباس القرطبي هذا ، ونقارنها بما كنا قد استخلصناه من صفات توفرت في مؤلف ذلك الكتاب ، لعنا نصل إلى شيء فيما نحن بصدد التثبيت منه .

لقد ضنت المصادر علينا بأخبار عن حياة أبي العباس القرطبي في الأندلس ، فكل ما نعرفه أنه ولد في سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م في قرطبة ، وسمع فيها الكثير^(٤) . على أن ثمة خبراً ذكره أبو العباس عن نفسه يُلقي ضوءاً على أحد الجوانب التي تهمنا معرفتها من حياته ، وفيما يلي سوف نسوق بعض هذا الخبر بالنص وبعضه الآخر بالمعنى . قال أبو العباس^(٥) " أني لما وصلت إلى تونس قاصداً الحج سمعت أخباراً سيئة عن البلاد المصرية من جهة العدو الذي

(١) القرطبي : الإعلام ، ج ٣ ، ص ٢٦٣ - ٢٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ ، ج ٣ ، ص ٣٨١ .

(٣) انظر مثلاً : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٨ - ٢١٣ ، ج ٤ ، ص ٣٩٣ - ٤٣٧ .

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٧ ، ص ٢٦٥ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٦١٥ .

(٥) المفهم ، ج ٦ ، ص ٢٤ .

غلب على دمياط ، فعزمت على المقام بتونس إلى أن ينجلي أمر العدو " ثم ذكر أنه رأى في المنام وكأنه في مسجد رسول الله ﷺ وأنه يسلم عليه ، وعندئذ زال عنه الخوف وتجدد عزمه على قصد الحجاز ، ثم قال " وسافرت إلى أن وصلت الإسكندرية عن مدة مقدارها ثلاثون يوماً فوجدتها والديار المصرية على أشد خوف ، وأعظم كرب ، والعدو قد استفحل أمره ، وعظمت شوكته ، فلم أكمل في الإسكندرية عشرة أيام حتى كسر الله العدو... " (١) ، ثم ختم كلامه بقوله " ثم إن الله تعالى كمل على إحسانه وإنعامه وأوصلني بعد حج بيته إلى قبر نبيه ﷺ ومسجده ، فرأيت والله في اليقظة على النحو الذي رأيته في المنام من غير زيادة ولا نقصان " (٢) .

يفهم من خاتمة كلام أبي العباس القرطبي أنه لم يسبق له القدوم إلى مسجد رسول الله ﷺ قبل هذه المرة ، وبالتالي أنه لم يسبق له حج بيت الله الحرام قبلها أيضاً . وإذا كان قد نص على أن وصوله إلى تونس كان بقصد الحج ، فإن هذا يُلهم أنه قدم من بلده الأندلس سواء كان مباشرة أو بعد مروره بالمدن المغربية الواقعة إلى الغرب من تونس ، فكان خروجه هذا من الأندلس لأول مرة . فالأندلسيون والمغاربة كان أول شيء يحرصون على المبادرة فيه إذا خرجوا إلى المشرق هو التوجه إلى أرض الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة المسجد النبوي (٣) . وإذا علمنا كذلك أن حادثة دخول العدو النصراني (الصلبيين) دمياط التي أشار إليها أبو العباس قد وقعت في سنة

(١) القرطبي : المفهم ، ج٦ ، ص ٢٤-٢٥ .

☆ هكذا وردت ، حيث قدم قصد قبر النبي ﷺ على مسجده !!

(٢) القرطبي : المفهم ، ج٦ ، ص ٢٥ .

(٣) مونس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ٤٣٢ .

٦٤٧هـ / ١٢٤٩م^(١) . وأن كسر المسلمين له حدث في محرم سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م^(٢) فمعنى ذلك أن خروج أبي العباس القرطبي من الأندلس لأول مرة ووصوله إلى تونس كان في سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م أي بعد أزيد من عشر سنوات على سقوط قرطبة الحادث في سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م^{*} .

أما الآن وبعد أن تجمعت لدينا هذه المعلومات الآتفة الذكر الخاصة بأبي العباس القرطبي وما خالطها أيضاً من استنتاجات فلنطبقها على ما عندنا من معطيات كنا قد استخلصناها من قبل عن مؤلف كتاب "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام" فأبو العباس من أهل قرطبة فهو قرطبي إذن ، وترجح لدينا أنه لم يخرج إلى المشرق إلا بعد سنوات من سقوط قرطبة عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م ، وليس هناك شيء يمنعنا من الجزم بأنه وقت تأليف كتاب "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ..." كان أحد علماء قرطبة ، فمولده قد ثبت في عام ٥٧٨هـ / ١١٨٢م ، وقد عُذَّ من

(١) الذهبي : العبر ، ج٣ ، ص ٢٥٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٧٧ .

(٢) الذهبي : العبر ، ج٣ ، ص ٢٥٨-٢٥٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٧٨ ؛ مجهول :

الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ، ص ٩٧ .

✽ ذكر ابن فرحون عن بعضهم أن أبا العباس القرطبي "رحل مع أبيه من الأندلس في سن الصغر"

(الديباج المذهب ، ج١ ، ص ٢٤١) وقد أخذ بهذه الرواية بعض الذين ترجموا له من المتأخرين

(القرطبي : المفهم ، ج١ ، ص ٣١ من مقدمة المحققين ؛ الفرت : القرطبي المفسر ، ص ٥٣ ؛ مشهور

سلمان : الإمام القرطبي ، ص ٧٢) وهؤلاء قد خلطوا بين أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي مؤلف

المفهم نزيل الإسكندرية ، وبين سميّه أبي العباس أحمد بن محمد بن عمر القرطبي ساكن قنا

(ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م) فالذي رحل مع أبيه من الأندلس في سن الصغر هو هذا الأخير وليس صاحب

المفهم (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٥ ؛ الصفدي : الوافي

بالوفيات ، ج٧ ، ص ٣٣٩-٣٤٠) ثم أن ما حكاه صاحب المفهم عن نفسه - كما في المعن -

يقطع كل التباس .

مشايخ القرطبي المفسر . ولا يخامرنا شك في اهتمامه بالرد على النصارى بعد الذي نقلناه على لسانه من أقوال تنص على ذلك .

وبناء على هذا التطابق، أو التطابق في بعض الوجوه وعدم التعارض في بعضها بين أحوال أبي العباس القرطبي وبين ما عليه مؤلف كتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " فلاحتمال كبير أن يكون هذا الكتاب هو الذي عزا إليه أبو العباس عند شرحه لصحيح مسلم ؛ يرجح هذا الاحتمال ما وقفنا عليه من تصريح لأبي العباس برده على النصارى في كتابه " الإعلام " . ثم إنه لم يثبت - أعني أبا العباس القرطبي - على اسم لكتابه - كما رأينا ، فتارة سماه " الإعلام بمعجزات النبي عليه الصلاة والسلام " وكرة أطلق عليه " الإعلام بصحة نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام " . ومرات سماه " الإعلام " فقط . ثم إننا من ناحية أخرى إذا رجعنا - أيضاً - إلى كتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " لا نجد في المقدمة نصاً على تسميته بهذا العنوان ، كما هي عادة معظم المصنفين ، فهل يا ترى اجتهد بعض التلاميذ أو النساخ في تسمية هذا الكتاب بهذا الاسم ليتطابق محتواه مع عنوانه ؟



ولقد أفادنا أبو علي بن رَشِيق التغلبي* (ت ٦٩٦هـ/١٢٩٦م) بأن

☆ أبو علي الحسين بن عتيق بن الحسين بن رَشِيق التغلبي ، من أهل مرسية ، كانت متبحراً في التاريخ رياناً من الأدب ، شاعراً مقلقاً ، كاتباً بارعاً ، مشاركاً في كثير من الفنون . وقد كتب لبعض الأمراء والحكام في عصره . وله مؤلفات منها كتاب بعنوان "ميزان العمل" توفي في محرم سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م (الوادي آشى : برنامج الوادي آشى ، ص ١٢٠ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٧٢ - ٤٧٦ ؛ مجهول : بلغة الأمنية ومقتصد اللبيب فيما كان بسبته في الدولة المرينية من مدرس -

مناظرة حول إعجاز القرآن جرت بينه وبين أحد القساوسة النصراني* وقد سجلها فيما بعد في أحد كتبه^(١). ولم يحدد لنا بالضبط السنة التي جرت فيها ، لكنه حكى عن وقت حدوثها بقوله " وكنت في ذلك الوقت أجلس بين يدي والدي - رحمه الله تعالى - لِكُتْب الوثائق وعقود الإحكام ، وأنا إذ ذاك لما بَقَلَ☆☆ وجهي " ^(٢) . فكان حينها شاباً لم ينبت من شعر وجهه شيء بعد ، أي أن عمره - بلا ريب - دون العشرين☆☆. غير أنه بلغ من العلم مرحلة صار يُعتمد فيها عليه في كتابه الوثائق وعقود الأحكام . ونبأنا - أيضاً - أن

= وأستاذ وطبيب، تحقيق عبد الوهاب منصور ، ط . المطبعة الملكية ، الرباط ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ،

ص ٢٢) انظر تحليلاً مفيداً لما ورد من أخبار في الإحاطة عن حياة أبي علي بن رشيقي ومؤلفاته في :

(Fernando de la granja :una polemica religiosa en Murcia en tiempos de

Alfonso el sabio, revista Al Andalus . vol . xxxI, 1966.p. 49 - 55)

☆ أشار ابن رشيقي أن القسيس كان من مراكش (الونشريسي : المعيار ، ج ١١ ، ص ١٥٥) ويتوقع محمد ابن شريفة أن يكون القسيس المعني هو رامون مارتني Ramon marti الذي كان قد أقام مدة طويلة في مراكش ، وينسب إليه القاموس العربي اللاتيني (حول التسامح الديني وابن ميمون والموحدين ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ١٤ ، محرم ١٤١٦هـ ، ص ٢٧) ، وبالرغم من أن فرناندو دي لاجرانجا يرى أن الأوصاف الأخلاقية التي ذكرها ابن رشيقي عن مجادله القسيس النصراني تنطبق على رامون مارتني إلا أنه لا يميل إلى ترجيح أن يكون رامون مارتني هو القسيس الذي جادل ابن رشيقي ، وذلك لعدم قناعته بوجود رامون مارتني في مرسية وقت جريان المناظرة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن المناظرة الشبيهة بما جرى بين ابن رشيقي وذلك القسيس والتي أدرجت في القاموس العربي اللاتيني على أنها لرامون مارتني لا تتوفر الدلائل القطعية على نسبتها إليه (Una polemica religiosa en murcia, p.60-62)

(١) الونشريسي : المعيار ، ج ١١ ، ص ١٥٥

☆☆ " بَقَلَ وجه الغلام إذا خرج شعره يعني لحيته " (الزبيدي : تاج العروس ، ص ١٤ ، ص ٥٩) .

(٢) الونشريسي : المعيار ، ج ١١ ، ص ١٥٥ .

☆☆ يفترض فرناندو دي لاجرانجا أن عمر أبي علي بن رشيقي وقت المناظرة كان خمسة عشر عاماً (una polemica religiose en murcia, p.57) .

مناظرته للقسيس وقعت في مدينة مُرْسِيَّة " أيام محنة أهلها بالدجن " ^(١) .
والدجن عند أهل الأندلس يعني إقامة المسلمين في أوطانهم خاضعين للحكم
النصراني ^(٢) ، ومرسية دخلها نصارى قشتالة ^(٣) صلحاً في شوال سنة ٦٣٦هـ /
١٢٣٩م في رواية ^(٤) ، وسنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٣م في رواية أخرى ^(٥) ، فتملكوا
قصبها ^(٦) ، وغدت تحت حمايتهم ^(٧) . ولما تشوف أهلها إلى التخلص من
القشتاليين ^(٨) تقدم نحوها خايمي الأول (٦١٠هـ / ١٢٢٣م - ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م)
ملك أرغون ^(٩) ، فاحتلها سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م فخرجت بذلك من ملك
المسلمين نهائياً ^(١٠) .

ولنرجع البصر كرة أخرى في أقوال أبي علي بن رشيق الماضية وما
جرت به من بيانات لها لعنا بذلك نصل - ولو بالتقريب - إلى تاريخ
محدد لحصول المناظرة الدائرة بينه وبين ذلك القسيس ، وبخاصة أننا
لا نعرف سنة مولد أبي علي، ولا عدد السنوات التي أمضاها في هذه الحياة.

(١) الونشريسي : المعيار ، ج ١١ ، ص ١٥٥ .

(٢) الونشريسي : أسنى المتاجر ، ص ١٤ من مقدمة المحقق .

(٣) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٤٣٧ ؛ أرسلان : الحلل ، ج ٣ ، ص ٤٣٨ ؛ عنان : عصر المرابطين
والموحدين ، ق ٢ ، ص ٤٦٠ .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٧٢ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٦٥٢ .

(٦) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحد ، ص ٤٣٢ .

(٧) أرسلان : الحلل ، ج ٣ ، ص ٤٣٩ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٤٦١ .

(٨) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحد ، ص ٤٣٢ .

(٩) أرسلان : الحلل ، ج ٣ ، ص ٤٤٣ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٤٦٣ .

(١٠) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحد ، ص ٤٣٢ .

وحاصل ما نعلم عنه أنه توفي سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م^(١) .

إن مناظرة أبي علي للقسيس النصراني حصلت - كما سلف - في حياة والده أبي بكر بن رشيقي^{*} . وحيث أن هذا الأخير توفي في ذي الحجة سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م^(٢) فإن الدجن في مرسية المشار إليه سابقاً لا يمكن أن يكون أيام حكم نصارى أرغون لها . لأن هؤلاء الأخيرين لم يحتلوها إلا في السنة التالية كما عرفنا . وهذا يفيد - بلا تردد - أن الدجن المقصود في النص هو أيام الحماية القشتالية على المدينة التي ابتدأت سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م أو سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٣م ، وحيث أن أحد الذين ترجموا لأبي علي أثبت أقصى سنة عرف أنه كان فيها حياً وهي سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م ، وأنه كان وقتها عالماً بارزاً ، وشاعراً مُفْلِقاً^(٣) ، وكاتباً كبيراً يحرص حكام العصر والأمراء على استكتابته^(٤) . فمن المتوقع أن لا يقل عمره في تلك السنة عن الخمسين . ونظراً لكون مناظرته للقسيس حدثت وهو تحت العشرين - كما ظهر لنا سابقاً - فإن وقت المناظرة لابد أن يكون في السنوات الأولى من

(١) مجهول : بلغة الأمنية ، ص ٢٢ .

☆ أبو بكر عتيق بن الحسين بن عبد الله بن رشيقي التغلبي ، أصله من بَيَّاسَة ، ثم سكن مرسية ، كان مقرئاً محدثاً فقيهاً نحويّاً أديباً ، له عناية بالتاريخ والطب وعلم الكلام ، صنف في الحديث ، وتوفى بمرسية في غرة ذي الحجة سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ،

ق ١ ، ص ١١٩ - ١٢٠) .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ١٢٠ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٧٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٥ .

بسط نصارى قشتالة حمايتهم على مرسية[☆] .



وقبل أن يغادر العلماء الأندلسيين الذين واجهوا الحملات الفكرية النصرانية إبان عصر المرابطين والموحدين نود الإشارة إلى أن هناك رسالة شعوبية كان قد أنشأها في حدود منتصف القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي - ^(١)☆☆ أي قبل عصر الدراسة بأكثر من ثلاثين سنة- أبو عامر ابن غرسية☆☆☆ " ذم فيها العرب ، وفخر بقومه العجم " ^(٢) (٣) . فانبرى للرد

✠ يقدر محمد بن شريفة أن المناظرة تمت في منتصف القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي - دون أن يشرح كيف توصل إلى هذا التاريخ (حول التسامح الديني ، ص ٢٧) .

(١) عنان : دول الطوائف ، ص ٢٠٤ ، جمعه شيخة : من مظاهر الشعوبية في الأندلس ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٤ ، ذو القعدة ١٤١٠ هـ ، ص ٢٧ وحاشية ٦ .

✠✠✠ جزم عبد السلام هارون بكتابة ابن غرسية رسالته في حياة حاكم دانية والجزائر الشرقية مجاهد العامري (٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م - ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م) (نواذر المخطوطات ، ط . الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ج ١ ، ص ٢٥٨) لكن كلام ابن سعيد في ترجمته لأبي جعفر بن الجزائر الذي وجه إليه ابن غرسية رسالته يفهم من سياقه أن الرسالة كتبت في عهد ابن مجاهد العامري: على إقبال الدولة (٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م - ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م) (المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٥٥) .

✠✠✠✠ أبو عامر أحمد بن غرسية من أبناء البشكش ، سبي صغيراً ، فعاش في بلاط مجاهد العامري حاكم دانية والجزائر الشرقية ، ثم في بلاط ابنه علي إقبال الدولة (ابن الأبار : المعجم ، ص ٣١١ ؛ البلوي : ألف باء ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٥٥-٣٥٦ ، ٤٠٦-٤٠٧) وقد اجتهد بعض الكتاب المحدثين في كشف جوانب من حياته . انظر (عبد السلام هارون : نواذر المخطوطات ، ج ١ ، ص ٢٥٦-٢٥٨ ؛ العبادي : الصقالبة في إسبانيا ، ط . المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م ، ص ٢٨-٣٠) .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ٢ ، ص ٧٠٤-٧٠٥ .

(٣) انظر نص هذه الرسالة في : ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ٢ ، ص ٧٠٥-٧١٤ ؛ مجهول : رسائل

أندلسية ، ص ١١٥-١٢٦ ؛ عبد السلام هارون : نواذر المخطوطات ، ج ١ ، ص ٢٧١-٢٧٩ -

عليها عدد من علماء الأندلس ، فقام أولاً بالرد عليها العلماء الذين عاشوا في عصره ^(١) ، ثم استمر العلماء يردون عليها على مدى قرنين من الزمان تقريباً ^(٢) . والذي يعنينا من هؤلاء - بطبيعة الحال - من عاشوا في عصر المرابطين والموحدين ، حيث تمكنا - حسبما توافر لدينا من مصادر - من رصد أسماء أحد عشر عالماً من علماء هذا العصر ردوا على أبي عامر بن غرسية في رسائل وقصائد مختلفة . فبينما اكتفت المصادر من هذه الردود بذكر عناوين مجموعة منها ^(٣) ، أو بالإشارة فقط إلى بعضها ^(٤) - حفظت لنا

- وانظر تحليلاً لها في (عبد السلام هارون : نواذر المخطوطات ، ج ١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ؛ فوزي سعد عيسى : الهجاء في الأدب الأندلسي ، ط . دار المعارف ، القاهرة ، ص ٩٨ - ١٠١ ؛ عبد الواحد ذنون طه : الدس الشعوبي بالأندلس وموقف العرب من مجابته ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٤ ، ذو القعدة ١٤١٠ هـ ، ص ١٥ - ١٨ ؛ جمعه شيخة : من مظاهر الشعوبية ، ص ٢٧ - ٢٨) .
(١) ابن بسم : الذخيرة ، ق ٣ ، م ٢ ، ص ٧٠٣ ، ٧٠٤ ؛ السرقسطي : روضة المحاسن وعمدة المحاسن ، تحقيق منجد مصطفى بهجت ، ط . الجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ١٧٤ - ١٧٥ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص ١٨٢ ، ١٩١ .

(٢) عبد الواحد ذنون طه : الدس الشعوبي في الأندلس ، ص ١٩ .

(٣) المجموعة التي اقتصرنا المصادر على ذكر عناوينها فقط هي : " خطف البارق وقذف المارق في الرد على ابن غرسية المارق في تفضيله العجم على العرب وقرعه النبع بالغرب " لأبي عبد الله بن أبي الخصال (ت ٥٤٠ هـ / ١١٤٦ م) (البلوي : ألف باء ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٧١٦) ورسالة " الاستدلال بالحق في تفضيل العرب على جميع الخلق والذب والانتصار لصفوة الله المهاجرين والأنصار " لأبي مروان عبد الملك الأوسي (ت ؟) (البلوي : ألف باء ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦١٩ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٧٨) ورسالة " تفضيل العرب وتمييز النبع من الغرب " لأبي العلا بن إدريس القرطبي (ت ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م) (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٩) .

(٤) أما الرسائل التي اكتفت المصادر بالإشارة إليها فقط دون ذكر لعناوينها فهي : رسالة لأبي الوليد بن صبر الغافقي الذي كان حياً في أواخر عصر المرابطين (البليقي : المقتضب ، ص ٩٠ - ٩١) ورسالة -

نصوص أربعة منها ، الأول لأبي الطيب بن منّ الله ^(١) (ت ٤٩٣هـ / ١٠٩٨م) والثاني منسوب لأبي العلا بن الجنان الشاطبي ^(٢) (ت ٥٣٩هـ / ١١٤٤م) والثالث لأبي الحجاج البلوي ^(٣) (ت ٦٠٤هـ / ١٢٠٨م) والرابع لأبي يحيى بن مسعدة ^(٤) . ويرى بعض الكتاب أن تناول العلماء والأدباء لرسالة

- لأبي محمد بن الفرس (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) (البلوي : ألف باء ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٨ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٥٤٣) ورسالة لأبي عمرو ابن عبد ربه التجيبي (ت ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م) (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٤٨٧ ؛ ابن الخطيب الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٢٢٩) ورسالة لعلي بن أبي قوة الأزدي (ت ٦٠٨هـ / ١٢١١م) (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ١ ، ص ١٥٤) ورسالة لأبي المتوكل السكوني الإشبيلي (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) (الرعي : برنامج شيوخ الرعي ، ص ١٩٤) .
✠ أبو الطيب : عبد المنعم بن منّ الله بن أبي بجر الهواري القيرواني أو القروي ، سكن شرقي الأندلس . وكان أديباً شاعراً . توفى في صفر سنة ٤٩٣هـ / ١٠٩٨م (ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٩٢) .

(١) ابن بسم : الذخيرة ، ق ٣ ، م ٢ ، ص ٧٢٢ .
✠ أبو العلا بن الجنان هو عبد الحق بن خلف بن مفرج الكتاني الشاطبي ، كان من كبار الأدباء ، ومن جلة الشعراء ، له معرفة باللغة والطب ، توفى سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م . (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٤٧)

(٢) عبد القادر زمامة : كتاب روض الأنس ونزهة النفس ، لأبي البقاء الرندي ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، م ١٨ ، ج ١ ، ربيع الثاني ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م ، ص ٣٣٥ .
(٣) ألف باء ، ج ١ ، ص ٣٥١ ، ٣٥٤ .

✠✠ محمد بن علي بن محمد بن علي بن سعيد بن مسعدة العامري القيسي ، من أهل غرناطة ، كان أديباً بارعاً ، حسن النظم والنثر . وقد كان يكتب مع أخيه أبي بكر لعثمان بن عبد المؤمن والي غرناطة (ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ١١٣ ، ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٤٨٨) ولا تعرف سنة وفاته ، ولكنه كان حياً على عهد الحاكم الموحد الناصر (٥٩٥هـ / ١١٩٩م - ٦١٠هـ / ١٢١١م) كما يتضح في آخر رسالته (مجهول : رسائل أندلسية ، ص ١٧٤) .

(٤) مجهول : رسائل أندلسية ، ص ١٢٧ .

ابن غرسية أصبح بعد عصره " معرضاً لإظهار البراعة في الرد ... ومجالاً للتجارب الأسلوبية " (١) ، فالعلماء الذين ردوا على رسالة ابن غرسية في عصر المرابطين والموحدين - طبقاً لهذا الرأي - كان يحركهم للرد فقط دافع بلاغي بحث . صحيح أن الناظر فيما وُجدَ من ردود على ابن غرسية من العصر المرابطي والموحدي يلمح كتابها يتوجهون إليه بالخطاب ، ويتعقبون كلماته بالتفنيد ، ويتبارون في الوصول إلى أجود الأساليب ، وأقوى الحجج ، لكن ذلك لا يعطينا حقاً قاطعاً بالحكم عليهم أن لا هدف لهم غير الغرض البلاغي؛ ذاك أن أكثر تلك الردود التي حررها العلماء الأندلسيون في هذا العصر لم نطلع عليها بأسرها لنقطع بأنها جميعاً على منوال الردود الموجودة . ثم إن مواصلة العلماء ردودهم على ابن غرسية لا يمنع أن يكون سببه قيام أشياعه بالاستمرار في تداول رسالته في عصر الدراسة ، والإكثار من استنساخها ، وتبني أفكارها. ففي أواخر زمن الموحدين في الأندلس وُصفت رسالة أبي العلا إدريس القرطبي* (ت ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م) في الرد على ابن غرسية - بأنها جاءت " فائدة انتجاع الطالب المقيم والمرتحل ، وفائدة أشياع ... ابن غرسية المنتحل " (٢) . ففي الشق الثاني من النص تأكيد على أن أشياع ابن غرسية في عداد المقصودين بالإفادة من رسالة أبي العلا ، لتصحيح مفاهيمهم ، وتصفية اعتقاداتهم حول العرب والعجم . وفي هذا إيماء بأن ثمة جماعات لاتزال تناصر

(١) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، ص ١٧٦ .

* أبو العلا إدريس بن محمد بن محمد بن موسى الأنصاري القرطبي . سمع الحديث ، ومال إلى العربية والآداب وكانت له مشاركة في النظم والنثر ، انتقل بعد سقوط بلده قرطبة بأيدي النصارى إلى سبتة ، فتوفى بها في آخر سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١٩٦-١٩٧ ؛

ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٩) .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٩ .

أفكار ابن غرسية الشعوية، وتعمل على ترويجها في الأندلس في ذلك الحين. ولا جرم أن النصارى الذين كانوا يحاربون المسلمين فكراً عصرئذ سيكونون في طليعة من يرعى تلك الجماعات ، ويشجعها على بث أفكارها.

وشيء نلفت النظر إليه وهو أن رسائل العلماء الأندلسيين في الرد على أبي عامر بن غرسية التي أُلِّفَتْ قبل زمن دراستنا وفي غضونه كان العلماء يتناقلونها بينهم ^(١) ، ويُسمعونها لطلابهم ^(٢) ، فانتشرت بين مسلمي الأندلس انتشاراً واسعاً . يقول أبو الحجاج البلوي ^(٣) إن تلك الرسائل " سارت بها السفار ، وأنجد ذكرها في البلاد وغار ، وانتشر أمرها في البلاد وطار ، واشتهر خبرها في أكثر الأقطار " . والمستعرض لمحتوى ما وصلنا من رسائل في هذا الموضوع سواء في عصر الدراسة أو قبله يجد فيها إبرازاً لمآثر العرب قبل الإسلام وأجسادهم في ظله ^(٤) ، وفخراً بالفتوحات الإسلامية ^(٥) ، وذكراً رفيعاً للرسول ﷺ ^(٦) ، واحتقاراً للعجم (النصارى) وآثارهم ^(٧) وتعريضاً بدينهم المحرف وتشنيعاً بقولهم في عيسى بن مريم عليه السلام ^(٨) . وهذه النقاط

(١) البلوي : ألف باء ، ج١ ، ص ٣٥١ .

(٢) الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص ١٩٤ .

(٣) ألف باء ، ج١ ، ص ٣٥٤ .

(٤) انظر مثلاً ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ٢ ، ص ٧٢٨-٧٢٩ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص ١٨٨-١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٨ .

(٥) انظر مثلاً ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ٢ ، ص ٧٢٧ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص ١٩٦ .

(٦) انظر ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ٢ ، ص ٧٤٥ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص ١٧٣ ، ١٨٠ ، ٢١٨ .

(٧) انظر على سبيل المثال ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ٢ ، ص ٧٢٥-٧٢٦ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص ١٩٣-١٩٤ .

(٨) انظر مثلاً ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ٢ ، ص ٧٤٢-٧٤٣ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص ١٣٧-١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٨٧ ، ٢١٤ ، ٢١٥ .

بجد ذاتها إذا قرأها المسلمون في الأندلس وتدارسوها أفادتهم في الالتقاء من سموم الهجوم الفكري النصراني المسلط عليهم ، وإن لم تكن الرسائل التي تضمنتها تلك النقاط قد صنفت أصلاً للرد على ما حبكه النصارى من مخططات فكرية لضرب الإسلام والمسلمين في الأندلس في عصر دراستنا .

وهكذا تعرفنا على العلماء الأندلسيين الذين تصدوا للحملات الفكرية النصرانية في عصر المرابطين والموحدين ، وقد وقفنا من خلال ذلك على جهودهم في هذا الميدان ، واستبان لنا أن بعضهم ناظر النصارى وجادلهم مشافهة . أما البعض الآخر فقد دحض شبه النصارى ورد عليهم بالرسائل والكتب وكذلك بنظم الشعر .

ثالثاً : عرض لما دونه العلماء في الرد على النصارى :

إن علماء الأندلس - كما مر شرحه - حرروا كتابات مختلفة في الرد على حملات النصارى الفكرية إبان عصر المرابطين والموحدين ، تفاوت بين الطول والقصر ، والشعر والنثر ، فلم يصلنا منها تماماً حتى الآن سوى كتابين ومناظرة . فالكتابان أحدهما لأبي جعفر بن أبي عبيدة الخزرجي (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٧م) بعنوان " مقاطع الصلبان ... " ، والآخر المنسوب للقرطبي بعنوان " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " أما المناظرة فهي لأبي علي بن رشيق التغلبي (٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) .

والناظر في هذه المكتوبات الثلاث - التي تحت أيدينا - يوقن أن ما كتبه علماء الأندلس رداً على النصارى في ذلك الزمان لم يكن مجرد مباحث كلامية اعتاد بعض علماء الإسلام تضمينها مصنفاتهم في العقيدة أو في باب التوحيد داخل مؤلفات عامة ^(١) ، وإنما هي منبعثة من واقع فعلي فرضه الأعداء النصارى على العلماء الأندلسيين بهجومهم الفكري الموجه نحو دين الإسلام وأتباعه الموحدين . فكل واحد من هؤلاء الثلاثة وجد نفسه في خندق المواجهة الفكرية مع النصارى ، فابن أبي عبيدة الخزرجي أيام انتقال الحكم في الأندلس من المرابطين إلى الموحدين رد على رسالة وجهت له شخصياً تحمل في طياتها طعناً في الدين الإسلامي . والقرطبي في النصف الأول من القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي - تعين عليه من بين علماء قرطبة الرد على متكلم نصراني آذى المسلمين بمقالاته وكتابه ، وتبجح بعجز علمائهم عن مجاراته ومحاججته . وابن رشيق التغلبي في أواخر عصر الموحدين ألزمه أحد

(١) الشرفي : الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ، ص ٨ ، ١٤ .

الأساقفة على مناظرة في أصل من أصول الإيمان في الإسلام فوفق في دحره وإسكاته . ولذلك فإن المسائل التي عاجلها هؤلاء في كتاباتهم جاءت تبعاً لما أثاره المتهجم على الإسلام ، ولكن هذا لا يمنع أن يكونوا قد استرسلوا في الكلام عن تلك المسائل ، وربما انتقلوا منها إلى مسائل أخرى رأوها قميئة بالشرح والبيان ، فالاطلاع -إذن- على ما وصلنا من كتابات في هذا الباب، وعرض محتواها من الأهمية بمكان هنا للتعرف على طريقة النصارى حينذاك في هجومهم الفكري على الإسلام من ناحية ، ومنهج العلماء المسلمين في التصدي لذلك الهجوم من ناحية أخرى .

ولنأخذ الآن ما كتبه أولئك الأندلسيون الثلاثة ، وننظر في عمل كل منهم على حدة . ولنبدأ بكتاب " مقامع الصليبان " فلقد تصدرته رسالة القسيس الطليطلي إلى أبي جعفر بن أبي عبيدة الخزرجي والتي ابتدأها بالدعوة إلى الإيمان بالمسيح عليه السلام باعتباره ابناً لله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، لأن القرآن يقر بأن المسيح روح الله وكلمته ^(١) ، وأنه أحيى الموتى ، ثم أخذ يدلل على ألوهية عيسى عليه السلام وفي أثناء ذلك عرج على حكاية الصلب، وحين خلس منها دعا مرة أخرى المسلمين إلى الإيمان بألوهية المسيح لأنهم يعظمونه ، ثم بحكم ما عندهم من العدل والإنصاف لو عادوا إلى التوراة والزبور والنبوات لرأوا فيها شواهد ما يقول . ثم راح يرغب في النصرانية ، ويذكر ميزاتها، وفي المقابل يزهد في دين الإسلام ، ويدعي انعدام الفائدة فيه، وبعد ذلك أخذ يطعن بالشريعة الإسلامية ، فزعم خلوها من التسامح ، وتعرض لتعدد الزوجات ، والطلاق ، ثم شرع ينكر على القرآن ما جاء فيه عن

(١) انظر التفسير الصحيح لهذه الكلمات الواردة في القرآن في ابن تيمية : الجواب الصحيح ، ج-٢ ، ص ١٢٧-١٣١ ؛ درء تعارض العقل والنقل ، ج-٧ ، ص ٢٥٩-٢٦٠ ، ٢٦٢-٢٦٨ .

القتال في التوراة والإنجيل ، ويزعم تعارضه في نسب مريم ، وغلطه في القول بإسقاط إبليس من السماء بعد خلق آدم عليه السلام ، ويرد نصوصه المخبرية بتحريف التوراة والإنجيل ، ويكذب ما ورد فيه من نعيم في الجنة ، ثم ختم شبهاته بانتشار الإسلام بالسيف ^(١) .

ولقد رد أبو جعفر بن أبي عبيدة الخزرجي على ذلك القسيس ، فافتتح رده بتجريد التوحيد لله وحده ، والتأكيد على أن الإسلام هو الدين الحق ^(٢) . ثم اندفع يرد على أقوال القسيس قولاً بعد قول ، وإن لم يلتزم في تناوله لتلك الأقوال الترتيب على الدوام ، وربما تكررت مناقشته لقضية من القضايا في أكثر من موضع من كتابه . على أن طريقته في الرد " تعتمد الحجج النقلية أساساً ، ولا تجنح إلى المناقشة الكلامية البحت إلا بصفة عرضية سريعة... وهو لا يتحاشى استعمال عبارات السب والشتم في بعض المواضع ، ويبيد الكثير من الترفع على مخاطبته ، والاحتقار له ولقومه رغم أنه كان أسيراً فيهم " ^(٣) .

ويبدو أن الأسلوب الذي استخدمه القسيس في دعوة المسلمين إلى النصرانية بادعائه أن في دينهم ما يؤيدها ويشهد بصحتها ^(٤) قد أثار أبا جعفر ابن أبي عبيدة ، وجعله يستشعر خطر مثل تلك الدعوى على الرعايا من المسلمين فخصص ما يقارب ثلث كتابه لبيان حقيقة النصرانية المحرفة ، فراح يقوض ما يدعونه من ألوهية المسيح والتثليث والصلب والفداء وغيرها منطلقاً من كتبهم التي بين أيديهم ^(٥) . وقد أكد على أن ما استشهد به في الرد

(١) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص ٣٠-٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٩-٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤ من مقدمة المحقق .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣١ ، ٣٣-٣٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٠-٨٦ .

عليهم إنما نقله " من أناجيلهم حرفاً حرفاً " ^(١) وأنه لم يورد من ذلك إلا ما قرأه من كتبهم العبرانية ، ووقف عليه بنفسه ، وطالعه في بعض تفاسيرهم وشافهم بها ^(٢) . ولهذا رآها ابن أبي عبيدة فرصة للحديث عن تحريف الكتب النصرانية، وشرح تناقض نصوصها ، وفساد تأويل النصارى لها ^(٣) .

وحين وصل أبو جعفر إلى الكلام عن مطاعن النصارى في الإسلام ونبهه محمد ﷺ قال " وأما طعنكم في ملة الإسلام ، وتجردكم إلى خلق الأكاذيب والنيل منها فغير نكير على مَنْ كانت عقيدة ديانته ما تقدم من إذابة الخالق ... ووصفه تعالى بغير صفاته الحسنى ، وخليق بمن دان بمثل هذا كله أن يجري عن سنن مثله من الطعن أيضاً في دين الله وكتابه الحكيم ورسوله الكريم " ^(٤) . وحيث أن القسيس كان قد أراد أن يُوهم المطلع على رسالته بوجود مطاعن في الرسول ﷺ لا يمكن دفعها ، وذلك بالإشارة إلى أن أساقفة النصارى ذكروا عنه أشياء ، ولكن دون أن يتلفظ بواحدة منها ^(٥) فقد أثر أبو جعفر أن يذكرها غير مكترث بها ، لأنها لاتعدو أن تكون أكاذيب لفقوها، إذ ما فتئوا " يصنفون الدواوين في خلق الأكاذيب على سيد المرسلين محمد ﷺ ، وشتتم عرضه على نحو ما فعلوا بالخالق سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً " ^(٦) ثم مثل بجملة من شبهات أثاروها حول النبي ﷺ والتي من

(١) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص ١٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٦ ، ٥٩-٦٥ ، ٦٧-٧١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ٨٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

أبرزها نفيتهم لمعجزاته ، وردهم لحسن نظم القرآن وإعجازه مع الإشادة بما يسمى بقرآن مسيلمة الكذاب ، وجحدهم لبشارات السابقين به ﷺ ، ثم انطلق يكشف زيفها ، ويجلي حقيقة أمرها ، ويقيم الأدلة المتتابعة على خلاف ما زعمه أولئك الأساقفة. وقد استغرق منه ذلك صحائف كثيرة من كتابه ^(١).

وبعد ذلك ذهب أبو جعفر بن أبي عبيدة يرد الشبه التي كان القسيس الطليطلي قد ساقها في رسالته ضد الإسلام ، فرد على ماقاله في شأن مريم ^(٢) ، وتعدد الزوجات ^(٣) ، والقتال ^(٤) ، ونعيم الجنة ^(٥) ، وانتشار الإسلام بالسيف ^(٦). وأغفل - إما عمداً أو سهواً - الرد على طعنه في الطلاق وطرده إبليس من الجنة ، إلا أن الرد عليها جاء " ضمناً في بيان ما في التوراة والإنجيل من تحريف " ^(٧). وقد تخلل الرد على تلك الشبه تعرية لاعتقادات يؤمن بها النصراني ، وطقوس يتقيدون بها في عباداتهم ^(٨).

ولعله من المناسب أن نختم عرض كتاب "مقامع الصليبان" بإيراد مقتطفات من كلام أبي عبيدة في الرد على شبهة انتشار الإسلام بالسيف . قال " لاخفاء أن سيد المرسلين محمداً ﷺ لم يكن قبل ملكاً فيقال حمل رعيته على دينه ، ولا صاحب مال فيقال بذل ماله مصانعة على دينه ، وإنما أتى

(١) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ٩٤ - ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٧ - ١٦٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٨٣ - ١٨٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٨٩ - ١٩٣ .

(٧) الخزرجي : بين الإسلام والمسيحية (مقامع الصليبان) تحقيق محمد شامة، ص ٤٦ من مقدمة المحقق.

(٨) الخزرجي : مقامع الصليبان ، ص ١٧٣ - ١٧٧ ، ١٩٣ - ١٩٦ .

قومه بخلع الأوثان ، وكسر الأصنام ، وعبادة الله وحده ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وآيات ومعجزات خارقات للعوائد ، دالات على صدق رسالته ونبوته ، ثم خصه الله بآية باقية إلى اليوم وهي القرآن ... " (١) " ولما بعثه الله ليدعو العالم إليها اتبعه جماعة من الناس سبقوا إلى الخير ، ورغبوا عن الشرك والشر ، فعمد قومهم إليه وعتوا على من اتبعه وعليه ، وآذوهم بالرجم والضرب والنفي والعذاب والفتنة عن دينهم ، وما زال ﷺ كذلك زهاء عشر سنين* يجهد نفسه في إظهار أمر الله صابراً على أذى قومهم ، لا يخفى نفسه ، ولا يستتر ولا يجحد ... ولم يكن - عليه الصلاة والسلام - بالذي يضعف ويجزع من شيء حتى أفشا دين الله في الأرض ، وجعل أصحابه نجوم الهدى ومصابيح الدجى " (٢) .



ونأتي على الكتاب الثاني وهو " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام " فلقد صنفه ذلك العالم القرطبي خصيصاً للرد على كتاب بعنوان " تثليث الوجدانية في معرفة الله " الذي بلغت صفحاته - حسب النصوص المنقولة منه في كتاب الإعلام - حوالي عشرين صفحة (٣) . والقراءة العابرة لهذه النصوص قد تعطي قارئها انطباعاً بأن الكاتب النصراني لا يهدف فيما كتبه إلى مهاجمة الدين الإسلامي بقدر ما يريد أن يشرح عقيدته النصرانية

(١) الخزرجي : مقامع الصليان ، ص ١٨٩ .

* عشر سنين دون سنوات الدعوة السرية الثلاث .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٠ .

(٣) القرطبي : الإعلام ، ج ١ ، ص ٤٧ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ - ١١٥ ،

١١٧ ، ج ٢ ، ص ١٦٣ - ١٦٥ ، ١٧٧ ، ١٨١ - ١٨٥ ، ٢١٥ - ٢١٧ .

بطريقة منطقية لا أقل ولا أكثر . ولكننا عندما نعود ونقرأ تلك النصوص قراءة متمعنة ندرك مدى خطر أقواله على المسلمين وعقيدتهم ، فهو قد تعرف على طريقة المسلمين في توحيد الأسماء والصفات ، وبأسلوب ملتوٍ استدل على التثليث بثلاث من صفات الله عز وجل^(١) ، ثم ربط الأسماء والصفات جميعها بالتثليث^(٢) ، وبعدها راح يشرح كيف يكون اتحاد الثلاثة بواحد على طريقة بعض الفلاسفة والمتكلمين^(٣) ، وقد استشهد على ذلك بما جاء في القرآن الكريم عن تكليم الله لموسى عليه السلام ، فتطرق للآيات القرآنية الواردة في ذلك . ثم استغل ما قالته عن هذه الآيات بعض الفرق المنحرفة لدى المسلمين ، ودلل به على صدق ما يذهب إليه^(٤) ☆ . ومع أنه وصل - من وجهة نظره - إلى نتيجة نهائية في صحة عقيدته النصرانية إلا أنه لم يشأ تخطئة ما يخالفها في البداية ، فاعتبر المسلمين واليهود ومعهم النصارى قومه كلهم يدعون الإيمان لأنفسهم ، والكفر لغيرهم ، وإن كل واحد منهم قد ورث دينه عن آبائه حتى صار ذلك طبعاً فيهم ، وإنه لا يفصل بينهم - حسب زعمه - إلا البينة من الكتب التي يقرون جميعهم بها ، ويجمعون على صحة مافيهما^(٥) . ثم أخذ يثبت أن المسيح المنتظر المذكور في الكتب إنما يُعنى به عيسى عليه السلام ، وأن

(١) القرطبي : الإعلام ، ج١ ، ص ٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٧ ، ٩١ ، ٩٧ .

(٤) المصدر السابق ، ١٠٥-١٠٦ ، ١١٥-١١٧ .

☆ انظر أقوال بعض الفئات المنحرفة في تفسير تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام والرد عليها في ابن تيمية : مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج٦ ، ص ١٥٣-١٥٦ ، ٥١٣-٥٢٩ ، ج١٢ ، ص ٣٧ -

١١٦ ؛ درء تعارض العقل والنقل ، ج٧ ، ص ٢٥٨-٢٦٠ .

(٥) القرطبي : الإعلام ، ج٢ ، ١٦٣-١٦٥ .

عيسى قد جاء في كلام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ^(١) . وبعد ذلك ذكر قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ هَدَى لِلنَّاسِ ﴾ ^(٢) فطالب المسلمين بإثبات دينهم من التوراة والإنجيل كما أثبت هو دينه منهما ، قال " فأثبتوه من التوراة بالعبراني ، ومن الإنجيل بالعجمي كما أنتم مقرون " ^(٣) . وأكد أنه لن يقبل الروايات الواردة عن الرسول ﷺ لأنه لا يعترف بها ، ثم مثل بحديث من صحيح مسلم استغله في الطعن بالطلاق والسخرية من حكمة الإسلام فيه ^(٤) . ونظراً لكونه قد كتب رسالة قبل هذا الكتاب يدعو فيها إلى نصرانيته ، فانتقده أحد العلماء المسلمين ، وبين باطله ، فقد وجه تهديده إلى ذلك العالم بقوله " واعلم أنك إن أرسلت بعد هذا بالشتم فياني أبعث إلى كل بلد كتاباً بنص شريعتكم ، وبكل مانعرف فيها من الأقاويل التي لا تقدر على إنكارها " ^(٥) . وأخيراً ختم كتابه بلمز العرب وذم لهم ^(٦) .

والظاهر أن ذلك العالم القرطبي حين انبرى للرد على كتاب " تثليث الوجدانية " كان قد تصور ما يشكله هذا الكتاب من خطر فكري على خواص المسلمين فضلاً عن عوامهم ، فالنصراني استخدم أولاً ألفاظ المسلمين في التوحيد ومصطلحاتهم في شرح العقيدة النصرانية ، وقلل في ذلك الشرح من الاستشهاد بالتوراة والإنجيل ما أمكنه ذلك . وتظاهر - ثانياً - بطلبه الحق أياً كان محله سواء عند المسلمين أو اليهود أو عند أهل ملته النصارى ، واقترح

(١) القرطبي : الإعلام ، ج ٢ ، ص ١٨١-١٨٥ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٤٣ .

(٣) القرطبي : الإعلام ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢١٥-٢١٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

منهجاً لإثبات الحق يتفق عليه أصحاب الملل الثلاث . وبالمناهج الذي اقترحه أثبت - ثالثاً - أن دينه هو الحق ، وطالب المسلمين أن يثبتوا صحة دينهم بالمناهج نفسه . واغتنم - رابعاً - ذكره عرضاً لحديث من أحاديث النبي ﷺ وطعن في حكم من أحكام الإسلام . فهذا النصراني - كما لاحظنا - لم يهاجم الإسلام مهاجمة مكشوفة يستوى في استنكارها المسلم الصغير والكبير والعامي والمتعلم ، بل قصد - كما يبدو من أسلوبه - أن يلبس على المسلمين دينهم، وأنه لا يعدو أن يكون ديناً من الأديان ، وأن فيه من الأقاويل والمثالب ما فيه ، وأنهم لو تجردوا للحق لاقتنعوا - حسب خياله - أن الحق في النصرانية . ولذلك فإن صاحب الإعلام - فيما يظهر - لم يجعل رده على أقوال النصراني رداً عاماً ، وإنما حرص على تجزئة نصوص "تثليث الوجدانية" حسب موضوعاتها ، ثم بنى على تلك الموضوعات فصول كتابه ، فأخذ يسوق في فاتحة كل فصل كلام النصراني ، ثم يشرع في مناقشته مناقشة علمية رصينة معتمداً في ذلك على العقل والنقل^(١) . وكان قبل ذلك في صدر الكتاب قد ساق خطبة كتاب النصراني ، وناقشه عند كل كلمة فيها^(٢) ، ثم أعرض عن تلك الطريقة ، لأنه إن تتبع كلامه كما تتبع خطبته " خرج الأمر عن الاعتدال ، وأدى ذلك إلى الكسل والملال " على حد تعبيره^(٣) . ولقد غطى سرد نصوص " تثليث الوجدانية " والرد عليها وما تخلل ذلك من بيان لتحريف التوراة والإنجيل، وحكاية لمذاهب المتقدمين من النصارى الذين عول عليهم صاحب التثليث - غطى ذلك كله ما يدنو من نصف كتاب

(١) القرطبي : الإعلام ، ج ١ ، ص ٥٧-١٥٧ ، ج ٢ ، ص ١٦١-٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧-٥٤ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٤ .

الإعلام^(١). أما النصف الثاني فهو وثيق الصلة بالقسم الأول، حيث خصصه المؤلف لمسائل كان قد تناولها عرضاً في القسم الأول، ورأى ضرورة بسط مجملها، وإيضاح غامضها، وتفصيل أجزائها. كما خصصه - أيضاً - لشرح مقاصد عبارات عامة وردت في كلام ذلك النصراني. فلقد تكلم ذلك العالم القرطبي عن معنى النبوة والرسالة والمعجزة^(٢)، ثم عطف بالكلام عن معجزات عيسى عليه السلام، ووضح حقيقة كثير مما يتناقله النصارى منها^(٣)، وبين أنه تحدى بها الناس ليؤمنوا بأنه رسول الله لا ليعتقدوا بأنه إله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً^(٤). وحيث أن النصراني كان قد طالب المسلمين أن يستدلوا على صدق ما يدعونه بكلام الأنبياء السابقين فقد تحدث المؤلف عن نبوة النبي ﷺ، فساق أولاً الأدلة على نبوته من كتب الأنبياء^(٥)، وقد قدم تلك الأدلة على سواها مع أن الحق تقديم ما هو أقوى منها - ليساير النصراني في طلبه ذلك^(٦). ثم عرض بعد هذا لأنواع ثلاثة من الأدلة الشاهدة على نبوة الرسول ﷺ، فراح يشرح الاستدلال على نبوته بقرائن أحواله^(٧)، ثم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه^(٨)، ثم بجمله من المعجزات والآيات الواقعة له ﷺ^(٩)، وكذلك الكرامات الحادثة

(١) القرطبي: الإعلام، ج ١، ص ٤٧-١٥٧، ج ٢، ص ١٦١-٢٣٦.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٧ - ٢٤٠.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤١ - ٢٥٨.

(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤١.

(٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦٣-٢٨٠.

(٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦٣.

(٧) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٨١ - ٣٢٢.

(٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢٣ - ٣٤٧.

(٩) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٤٨ - ٣٨١.

لبعض أتباع دينه من الصحابة والتابعين ^(١) والتي تغاير تماماً ما يحكيه النصارى من خوارق زائفة يزعمون وقوعها في أماكن معينة ، وأوقات محددة ^(٢) .

وبعد ذلك عطف مرة أخرى على موضوع كان قد عالج جوانب معينة منه في الرد على كلام صاحب " التلث " وهو حال النصارى مع دينهم ، فتكلم عن طريقتهم في الاعتقاد ، وبين خروجهم عن تعاليم التوراة والإنجيل ، وأنه لا مستند لهم في أحكامهم إلا محض الأغراض والأهواء . ثم أخذ يعرض شعائر الديانة النصرانية المخرفة وطقوسها ^(٣) . وقد كان غرض المؤلف من إيراد تلك الشعائر والطقوس أن يُخرس صاحب كتاب التلث عن التعرض للإسلام ، لأن دينه المخرف يحتوي على عيوب شنيعة ، وأخطاء فادحة ، فكان الأولى به أن يستزها ويسعى إلى كتمانها ^(٤) . ثم انتقل للحديث عن محاسن الدين الإسلامي ، وجمل من أحكامه وفروعه ، وبخاصة تلك التي يطعن فيها النصارى ، وصدر حديثه هذا بقوله " إنما فعلنا ذلك لغرضين : أحدهما : إن السائل الذي حركنا لهذا الكتاب هددنا وزعم إن سُبَّ أو شُتِمَ كتب كتاباً بنص شريعتنا ، ووجهه للبلاد حتى يقف الناس عليه ، فأردت أن تولى ذكر شريعتنا لئلا يتعاطى ذكرها ونقلها جهول لا يحسن ما ينقل ولا ما يقول... " ^(٥) . والغرض الثاني أنه لا يبعد أن يقف على هذا الكتاب نصراني أو يهودي لم

(١) القرطبي : الإعلام ، ج ٣ ، ص ٣٨١ - ٣٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٨٤ - ٣٨٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٩٣ - ٤٣٧ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٠٢ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٣٨ .

يسمع قط من ديننا تفصيلاً ولا تصريحاً ، بل إنما سمع له سباً وتقييحاً ، فأردت أن أسرده على الجملة ، ليتبين حسنه لمن كان ذكي العقل ، صحيح الفطرة ، فلعل ذلك يكون سبب هداه .. " (١) . ثم أورد باقتضاب قواعد اعتقاد أهل الإسلام مجردة من أدلتها وشواهداها ، وبعد أن أوماً إلى علم الأصول وبعض مصطلحاته أشار إلى ما في الشريعة الإسلامية من مراعاة للمصالح الدنيوية والأخروية ، وما تضمنته من حث على الأخلاق المحمودة ، وتنفير من الأخلاق المذمومة (٢) . وقد ختم الكتاب بتجلية لحقيقة ما تعود رجال الدين النصراني على إثارته حول الدين الإسلام ، إذ إنهم " يعيرون دين الإسلام ويقبحونه عند جهالهم وعامتهم بأمور من فروع الإسلام لا ينبغي لمنصف أن يعيها ، وييب شرعاً هي فيه " (٣) . ثم نقل ما قاله أحد القساوسة في إنكاره لنبوة الرسول ﷺ ، وتعيبه عليه الأمر بالقتال والقصاص، وإباحة تعدد الزوجات والطلاق ، وقوله بربط الهدى والضلال بمشيئة الله (٤) . كما مثل المؤلف -أيضاً- ببعض أقوال القسيس الذي كان قد كتب إلى أبي جعفر بن أبي عبيدة الخزرجي رسالة ، وسبق أن تعرضنا لها (٥) . وبعد ذلك أتى هذا العالم القرطبي على هذه الشبهات ورد عليها واحدة بعد الأخرى ، واكتفى بالرد على بعضها باختصار محيلاً للقارئ إلى ما بينه من قبل في أطواء الكتاب (٦) . وقبل أن ينهي كتابه أبدى استعداده التام لمواصلة المعركة الفكرية

(١) القرطبي : الإعلام ، ج٤ ، ص ٤٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٤٢ - ٤٤٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٤٧ .

(٤) المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٤٨ .

(٥) قارن بين الخزرجي : مقام الصلبان ، ص ٣٥ ؛ القرطبي : الإعلام ، ج٤ ، ص ٤٤٨ .

(٦) القرطبي : الإعلام ، ج٤ ، ص ٤٤٩ - ٤٥٧ .

مع أولئك القساوسة فقال " ولئن زادوا زدنا ، وإن عادوا عدنا " ^(١) .

ومن المناسب هنا الإفادة بأن هذا العالم القرطبي في كتابه الإعلام كان سلس الأسلوب ، واضح العبارة ، قوي الحجّة ، موفقاً فيما ساقه من استدلالات وشواهد ، واعياً بما يُثبِتُ من كلام وبما يذر ^(٢) . على أنه ما فتئ من أول الكتاب إلى آخره يسخر بالنصراني ، ويسفه عقله ، ويُزري بفهمه ، ويَهْزأ بكلامه ، ويزدري أقواله . وهذا غير مستغرب في الجدل الديني في ذلك الزمن ، فاستخدام مثل هذا المنهج يكاد يكون قاعدة مطلقة في هذا النوع من التأليف سواء صدر عن النصارى أو عن المسلمين ^(٣) ، بدليل أن المؤلف رغم ما وجهه إلى النصراني من عبارات قاسية ، وألفاظ ساخرة فقد دعاه أكثر من مرة إلى إنقاذ نفسه من الضلال إلى الهدى ، وتمنى أن يراه حَكَمَ العقل ، وثاب إلى الرشد ، واعتنق الدين الحق : الإسلام ^(٤) .

ومن الخير أن نذيل استعراضنا لكتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام " بمقاطع من أقوال مؤلفه في حديثه عن بعثة الرسول ﷺ إلى الخلق أجمعين ، وظهور دينه الإسلام على سائر الأديان . قال " إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى الناس كافة ، وإلى جميع أهل الملل عامة نصرانيهم ويهوديهم وغير ذلك ، فبلغهم ما أمر الله به ، فناصروه العداء ، وأبدوا له

(١) القرطبي : الإعلام ، ج٤ ، ص ٤٥٧ .

(٢) مما يدل على وعيه أنه تحاشى تقصى الأدلة المبطلّة للحجج التي أقامها صاحب التلث على اليهود ، وعلل ذلك بخوفه أن يستفيد منها مَنْ يطلع على كتابه من اليهود (القرطبي : الإعلام ، ج٢ ، ص ١٧٨) .

(٣) الخزرجي : مقامع الصليان ، ص ١٤ - ١٥ من مقدمة المحقق .

(٤) القرطبي : الإعلام ، ج١ ، ص ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٢٣ ، ج٢ ، ص ٢٣٦ .

صفحة الخلاف " (١) " فأول من حاربه كفار قريش فأظفـره الله بهم ، وأظـهره الله عليهم ، ثم حاربته يهود فأمكنه الله منهم ... فعلا عليهم وظهر، ثم حاربته النصارى ، فغزاهم بتبوك ، ودخل عليهم بلادهم ، وافتتح في طريقه حصوناً لهم ولغيرهم وأظـهره الله عليهم " (٢) " ثم إن أصحابه بعده لم يزالوا على مثل حاله يقاتلون مَنْ كفر بالله ، ولا يخافون لومة لائم في الله فلقد صيروا ملوك الروم وغيرهم أذلة أهل صغار وجزية وذلة ، ثم لم يزل دين الإسلام مع مرور الأيام ينتشر بكل مكان ويظهر ، وغيره من الأديان يقل ويصغر ، وحسبك شاهداً على ذلك فتح هذه الجزيرة الأندلسية على أيدي جماعة من العرب ، قليل عددهم وعُددهم ، كثير دينهم ومددهم على أعداد من النصارى لا تحصى ، وجنود لا تستقصى ، ولكن صدق الله عبده ، وأنجز وعده ... ، فأمكنهم الله منكم ، وأظـهرهم عليكم فأجدادكم عندهم بين أسير وقتيل ، وتحت صغار الجزية ذليل " (٣) .



أما الأثر الثالث الموجود بين أيدينا في ميدان الرد على النصارى فهي تلك المناظرة التي في مجال إعجاز القرآن بين أبي علي بن رشيـق التغلبي وأحد القساوسة النصارى في مدينة مُرْسِيَّة ، وقد قص تفاصيلها أبو علي بن رشيـق نفسه ، فذكر أن قسيساً نصرانياً استدعاه للمذاكرة ، ثم استدرجه حتى قعد إلى نفر من النصارى رابعهم ذلك القسيس (٤) ، فبدأ الأخير يتكلم في أمر

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٤) الونشريسي : المعيار العرب ، جـ ١١ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

المعجزة ، ثم انطلق منها إلى مقدمات مسلمة لدى المسلمين حول القرآن وإعجازه ، فاعترف بأن القرآن من أعظم معجزات النبي ﷺ ، وأن الله قد تحدى به العرب -وهم الفصحاء البلغاء- فعجزوا عن الإتيان بشيء من مثله وأن هذا التحدي باقٍ إلى آخر الدهر^(١) . فلما وافقه ابن رشيق عموماً على تلك المقدمات أفصح القسيس عما يريد الوصول إليه ، فذكر كتاب المقامات للحريري^{*} (ت ٥١٦هـ/١١٢٢م) وزعم أن أهل الأدب عجزوا عن معارضته، وأنه قد أنشد بيتين اثنين في المقامة السادسة والأربعين المسماة بالمقامة الحليّة، وتحدي أن يعززهما أحد بثالث^(٢)، وأن السنين انصرمت، والأجيال انقضت ولم يأت أحد بثالث لهما - كما يزعم -^(٣) ، رغم كثرة درّس الناس لتلك المقامات وتداولها بينهم في المجالس والمحافل^(٤) . وانتهى إلى القول على ضوء ما قرره من مقدمات - أن ما أتى به الحريري يكون معجزة ، وهو ليس بنبي ،

(١) المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٥٦ .

✽ أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري ، من سكان البصرة . عُرف بالذكاء والفصاحة والبلاغة ، فكان أحد أئمة أهل الأدب واللغة . له تصانيف متعددة تشهد بمقدرته وتفوقه ، يأتي على رأسها " المقامات " التي بلغت خمسين مقامة ، سمى كل واحدة منها - سوى ثلاث - بأسماء البلدان ، وقد توفي في رجب سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م (السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ؛ الشريشي : شرح مقامات الحريري ، ج ١ ، ص ٤-٥ ؛ القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط . الأولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ج ٣ ، ص ٢٣-٢٧ ؛ ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٦ ، ص ٢٦١ - ٢٩٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٦٣-٦٧ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٤٦٠-٤٦٥) .

(٢) انظر ما قاله الحريري فعلاً في : مقامات الحريري ، ط . دار صادر ، بيروت ، ص ٤٠٦-٤٠٧ ، الشريشي : شرح مقامات الحريري ، ج ٤ ، ص ١٩٧ .

(٣) لا يغربن عن البال أننا نعرض المناظرة كما جاءت ، ولا نتعرض لمصادقية ما ورد فيها من أقوال . انظر (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٤ ، ص ٤٩-٥٣) .

(٤) الونشريسي : المعيار العرب ، ج ١١ ، ص ١٥٧ .

فإذا حصل وقوع تلك المعجزة القائمة على عجز الناس عن الاتيان بمثل ما تحدوا به من قول لغير نبي فإن نبوة الرسول ﷺ - حسب زعمه - لا تثبت بمسألة التحدي المنصوص عليها في القرآن " اللهم - كما يقول - إلا أن نستعين بقرينة أخرى أو بقرائن من غير القرآن ، فتكون حينئذ قد جعلت القرآن غير مستقل بإثبات نبوءة نبيكم " (١) . وحين حاول ابن رشيق أن يقنعه الفرق بين المسألتين بالبراهين الأصولية ، والأقاويل العلمية أخذ يرد عليه القسيس بقوله " قد سمعت هذا وناظرني به فلان " (٢) . وفي تلك الأثناء انقذ في ذهن ابن رشيق بيتاً ثالثاً على شاكلة بيتي الحريري ، فأنشده أياه ، فعند ذلك انقطعت حجة القسيس التي ركب عليها شبهته ، فراح يفهم أصحابه ذلك البيت ، فكانت النتيجة أن ابن رشيق لم ينفصل عنهم " إلا وهم كالمسلمين في انقطاع شبهتهم " على حد تعبيره (٣) .

ومن ناحية أخرى أكد ابن رشيق أن ذلك النصراني كان خلال المناظرة حريصاً أشد الحصر على التلطف بالقول ، والتحفظ من النطق بكلمات غير لائقة بحق القرآن والرسول ﷺ ، والاعتذار من الألفاظ التي تُفهم على أكثر من وجه (٤) . ويبدو أنه لجأ إلى هذا الأسلوب ليكسب مُناظره ، ويحكم شبهته التي اعتقد أنها مفحمة . على أن ابن رشيق رغم حداثة سنة في ذلك الوقت قد وفق في إسكاته وإدحاض باطله .

وهكذا استعرضنا كتاب " مقامع الصلبان " ، وكتاب " الإعلام بما في

(١) الونشريسي : المعيار العرب ، ج ١١ ، ص ١٥٧-١٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المصدر السابق ، ١٥٦-١٥٧ .

دين النصارى من الفساد والأوهام " ، ومناظرة أبي علي بن رشيح مع قسيس نصراني . وكان من حسن حظنا أن هذه الآثار الثلاثة وفرت لنا نماذج ثلاثة من الرد على النصارى ، كل نموذج له ظروفه الخاصة ، وطابعه المميز . فالأول كتبه أبو جعفر بن أبي عبيدة الخزرجي - وهو أسير في طليطلة - رداً على رسالة أحد القساوسة ، وقد تميز هذا الأثر بإحتوائه على مناقشة لعددٍ غير قليل من شبهات النصارى حول الإسلام . أما الأثر الثاني فقد كُتب على إثر ذبوع كتاب بين المسلمين اسمه " تثليث الوجدانية في معرفة الله " ظاهره شرح العقيدة النصرانية ، وباطنه ضرب للعقيدة الإسلامية ، فجاء الرد عليه محتوياً على نقض لأصول الدين النصراني مدلاً على صدق الدين الإسلامي . أما الأثر الثالث فقد كان أصله مناظرة شفهية دونت - فيما بعد - وقائعها ، وقد تركزت على قضية واحدة لم تتجاوزها ، كانت تدور - أيضاً - في جانب واحد من جوانب إعجاز القرآن وأثره في إثبات نبوة الرسول ﷺ .



وصفوة ما تبين لنا من خلال صفحات هذا الفصل أن الأندلس في عصر المرابطين والموحدين تعرضت لحمولات فكرية نصرانية غرضها تقويض أركان الإسلام ، وتشكيك المسلمين في عقيدتهم ، وصرفهم عن الدين الحق إلى الدين النصراني ، ثم تأكد لدينا أن عدداً من علماء الأندلس نهضوا بمسؤوليتهم في التصدي لتلك الحملات سواء بالمشافهة أو بالكتابة . وقد تيسر لنا معاينة ثلاثة من الأعمال الباقية من مجهوداتهم في هذا الميدان ، حيث تعرفنا بصورة حية على المناهج والوسائل والأدوات التي استخدمها العلماء الأندلسيون في صد الأفكار والعقائد والتصورات النصرانية المناوئة للإسلام.

الفصل الخامس

أثر العلماء في المحافظة على

الشخصية الإسلامية تجاه التأثيرات النصرانية

إن تميز أي أمة من الأمم في شخصيتها أوضح ما يكون في المظاهر الشكلية والجوانب السلوكية ، ويتجسد ذلك غالباً في العادات والتقاليد والقيم والشعائر والآداب والعطاءات المادية والفنية ، ولا خفاء أن تلك المظاهر والجوانب ما هي إلا مرآة صافية للثقافة التي تتبناها هذه الأمة أو تلك . والأمة الإسلامية لها شخصيتها المميزة ، وهويتها المتفردة ، فنظام المجتمع فيها " يقوم على الإسلام ابتداءً ، ويستمد قوانينه كلها من شريعة الإسلام ، ولا يستمدّها من أي مصدر سواه " ^(١) ، فكان حصيلة ذلك " سمات اتسم بها المجتمع الإسلامي ، وسلوكاً معيناً اتخذه المسلمون ، تميزوا به عن المجتمعات كلها من قبلهم ومن بعدهم " ^(٢) . والمسلم حين يتجول في بلاد الإسلام في ذلك الزمان يجد الناس يتوجهون بالعبادة إلى الإله الأحد ، يصلون مثلما يصلون ويجد - أيضاً - شريعة واحدة ^(٣) ، وقيماً متساوية ، وسمات متقاربة ، ولكن هذا لا يمنع أن يوجد في البلدان الإسلامية اختلاف في بعض التطبيقات السلوكية والمظهرية لأحكام الإسلام أو آدابه ، وذلك تبعاً للعادات والتقاليد والأعراف المشتهرة بين سكان تلك البلدان .

وجماعة المسلمين في الأندلس كانت - بطبيعة الحال - مصطبغة في أنماطها الاجتماعية على الأغلب بقواعد الإسلام وآدابه، وقد يبدو بينها وبين

(١) محمد قطب : هل نحن مسلمون ، ط . دار الشروق ، بيروت - القاهرة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص ٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٣) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده ، ط . الرابعة دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، ج ١ ، ص ٢٢ .

المشاركة - أحياناً - اختلاف في بعض مظاهر السلوك والأزياء ونحوها^(١). على أن المسلمين في الأندلس إبان عصر المرابطين والموحدين شاركوا النصارى في بعض عوائدهم ، ومال بعضهم إلى التشبه بأولئك النصارى في بعض النواحي السلوكية والمظاهر الشكلية .

ومما لا شك فيه أن اتجاه بعض مسلمي الأندلس إلى هذا الطبع - أعني المشاركة للنصارى في أمورهم الخاصة والتشبه بهم - يمثل تهديداً للشخصية الإسلامية المتميزة التي ينبغي حفظها من التلاشي ، وحمايتها من الذوبان في الثقافات الأخرى ، هذا في الأحوال العادية . أما في عصر كعصر دراستنا الذي كان الصراع فيه محتدماً بين المسلمين في الأندلس ونصارى الممالك الإسبانية ، ليس هذا فحسب ؛ بل ربما مالت كفة النصارى على المسلمين في بعض المواقع والسنوات - فإن الانسياق وراء ما يختص بالنصارى من مظاهر وشكليات وسمات يكون أنكى خطراً ، وأعظم ضرراً على هوية المسلمين في الأندلس ، إذ المعروف " أن المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالة في الباطن " ^(٢) ، والمسلمون في الأندلس في ذلك العصر أحوج ما يكونون إلى دعم وحدتهم ، وتماسك جبهتهم الداخلية ، وتقوية قلوبهم ، وتجريد ولائهم للإسلام ودولته ، والابتعاد عن كل سبيل يسهل على العدو هزيمتهم واحتلال بلادهم .

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢٢٢-٢٢٣ .

(٢) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، تحقيق ناصر بن عبد الله العقل ،

ط . الثالثة ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، ج١ ، ص ٤٨٨ .

أولاً : بعض التأثيرات النصرانية على الشخصية الإسلامية في الأندلس :

المتمعن في طوائف المجتمع الأندلسي ، وصلات بعضها ببعض ، وأثر بعضها على بعض يلمح أن المسلمين - كما أثروا على الطوائف الأخرى في شتى أوجه حياتها ، وفرضوا مظاهر اجتماعية عديدة عليها - فقد وجدت في حياتهم الاجتماعية - هم الآخرون - جملة من العادات والتقاليد والسمات النصرانية وقد كانت تتفاوت في مقدار انتشارها بينهم ، ومدى تقبلهم لها ، ولكن يمكننا أن نميز بين نوعين منها ، فنوع تواترت الأخبار بأن جمهرة كبيرة من مسلمي الأندلس التزموها، واعتادوا على الاحتفاء بها، ونوع آخر من تلك المظاهر النصرانية لم تستهوَ سوى أفراد معينين ، أو عصابة قليلة من المسلمين.

فعلى سبيل المثال كانت فقام كبيرة من مسلمي الأندلس تستعد -مثلاً- للأعياد والمناسبات النصرانية ، ثم تشارك النصارى في الاحتفال بها. فمن الأيام النصرانية التي كان المسلمون في الأندلس يحتفون بها مع النصارى ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام ^(١) المحدد بالخامس والعشرين من شهر ديسمبر العجمي ^(٢) ، ويناير سابع ولادته ^(٣) ، ويوم ختنه وهو أول السنة الميلادية ^(٤) ، والعنصرة ^(٥) المسمى أيضاً ب عيد سان خوان ^(٦) والذي يعتقد أنه يوم مولد

(١) العزفي : الدر المنظم في مولد النبي العظيم ، مقدمة الكتاب ، نشرها فرناندودي لاجرانخا ، مجلة

AL ANDALUS الإسبانية ، عدد ٣٤ ، سنة ١٩٦٩ ، ص ١٩ ، ٢٣ .

(٢) عريب بن سعد : الأنواء ، نشر : ر . دوزي ، ط . ليدن ، بريل ، ١٩٦١ م ، ص ١٨٣ .

(٣) العزفي : الدر المنظم ، ص ١٩ ، ٢٣ .

(٤) عريب بن سعد : الأنواء ، ص ٢١ ، ٢٧ .

(٥) العزفي : الدر المنظم ، ص ١٩ ، ٢٣ .

(٦) العبادي: الأعياد في ملكة غرناطة، ص ١٤٠ ، سامية مصطفى مسعد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية-

يحيى بن زكريا عليهما السلام^(١) ، ويوافق اليوم الرابع والعشرين من يونية^(٢) ، وخميس إبريل^(٣) الذي يرمز عند النصارى إلى يوم صلب المسيح كما شبه لهم^(٤) .

ولقد كان الجحيم الغفير من المسلمين في الأندلس يترقبون موعد هذه الأعياد^(٥) " فكثيراً ما يتساءلون عن ميلاد عيسى ... وعن ينير ... وعن العنصرة " ^(٦) حتى كان ديدنهم " التحفى عنها بالسؤال ، والمحافظة عليها والإقبال " ^(٧) ، يقول ابن بشكوال^(٨) (ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) واصفاً عناية المسلمين في الأندلس بالأعياد النصرانية كما شاهد ذلك بأمر عينه " فلإني رأيت ... الجمهور اللئيف والعالم الكثيف من أهل عصرنا قد تواطأوا على إعظام شأن هذه البدع الثلاث : الميلاد وينير ... والعنصرة - تواطؤاً

= في إقليم غرناطة في عهد المرابطين والموحدين ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ، ١٩٨١ م ، ص ٢٥٩ .

(١) العزفي : الدر المنظم ، ص ١٩ .

✠ ويقال إنه يمثل عند النصارى حسب زعمهم يوم نزول الروح القدس على الخواريين (إبراهيم القادري بوتشيش : المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ط . الأولى ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٩٣ م ، ص ٩٣) .

(٢) عريب بن سعد : الأنواء ، ص ١٠١ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٢٢٧ .

(٣) الطرطوشي : الحوادث والبدع ، تحقيق عبد المجيد تركي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٣٠٠ حاشية ؛ ابن خليل : اختصار القدر الملقى ، ص ١٥٦ .

(٤) بوتشيش : المغرب والأندلس ، ص ٩٤ ، حاشية " ١ " .

(٥) العزفي : الدر المنظم ، ص ١٩ ، ٢٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

فاحشاً ، والتزموا الاحتفال لها ، والاستعداد لدخولها التزاماً قبيحاً ، فهم يتقربون مواقيتها ، ويفرحون بمجيئها " .

وكان بعض مسلمي الأندلس يعتبرون المناسبات النصرانية " كأحد الأعياد " ^(١) . ففي يناير رأس السنة الميلادية " يترك الرجال والنساء أعمالهم صبحيتها تعظيماً لليوم " ^(٢) . وربما لبسوا فيها الثياب الحسنة ^(٣) . ولا يُستغرب أن يذبح بعضهم فيها الذبائح ^(٤) . وكان من عاداتهم في يناير وغيره من المناسبات النصرانية ^(٥) تجهيز صنوف المأكولات ، منها ما عُرف لديهم بالمدائن ^(٦) ، وهي معجنات مصنوعة بالأفران من الدقيق والزيت والبيض والزعفران والأصباغ المتعددة الألوان وخلافه ، وكانت تُصنع على هيئة مدن ذات أسوار ^(٧) ، وقد يشكل منها صور مجسمة ^(٨) . وكان أهل اليسار منهم ينصبون في تلك المناسبات - أيضاً - موائد تحتوي على قناطر السكر وأنواع كثيرة من الفاكهة والثمار ذوات القشور، والخالية من القشور

(١) الونشريسي : المعيار المغرب ، ج ١١ ، ص ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(٣) ابن قزمان : ديوان ابن قزمان ، تحقيق : ف . كورينطي ، ط . المعهد الإسباني العربي للثقافة ،

مدريد ١٩٨٠م ، ص ٢٨٤ .

(٤) العزفي : الدر المنظم ، ص ٢٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٠ ؛ ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .

(٧) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٥-٥٦٦ ؛ المقرئ : نفع الطيب ،

ج ٤ ، ص ١٣١ .

(٨) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٢ ، ص ٩٤٠ ؛ ابن المناصف : تنبيه الحكام ، ص ٣٤٦ ؛ العزفي :

الدر المنظم ، ص ٢٠ .

الرطبة منها واليابسة ^(١) . وقد تبلغ النصفة من هذه الموائد سبعين ديناراً أو تزيد ^(٢) ☆ . وكان بينهم من يدعو أقاربه وأصهاره إلى تناول شيء مما أعده من هذه المأكولات ^(٣) . كما وُجد من المسلمين من يتهادون في الأعياد النصرانية " صنف الأطعمة وأنواع التحف والطرف " ^(٤) . وقد اختص خميس إبريل من بين الأعياد النصرانية بأكل المجنات والإسفنج ^(٥) ☆☆ .

وهناك من الناس من أُلقي في رُوعه اعتقادات فاسدة حول ما يفعلونه في تلك الأعياد؛ إذ اعتقد بعضهم أن التوسعة في الأطعمة في هذا العيد أو ذاك

(١) ابن قزمان : ديوان ابن قزمان ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٦ ؛ العزفي : الدر المنظم ، ص ٢١ .

(٢) العزفي : الدر المنظم ، ص ٢١ .

☆ لتصور القيمة الشرائية للدينار في ذلك العصر ، ومن ثم معرفة تكلفة هذه الموائد التي تنصب في الأعياد النصرانية نذكر أن رطل القمح بلغ - في وقت الغلاء الفاحش الذي حل ببلنسية أيام حصار القمبيطور لها سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م - بلغ ديناراً ونصف دينار ، ورطل الشعير ديناراً (ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ، ص ٣٨) فإذا كان هذا في وقت الغلاء الفاحش ففي الحالات الطبيعية سيكون الرطل من القمح أو الشعير أقل من ذلك بكثير .

(٣) الونشريسي : المعيار المغرب ، ج ١١ ، ص ١٥١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(٥) الطرطوشي : الحوادث والبدع ، ص ٣٠٠ حاشية ؛ ابن خليل : اختصار القدرح المعلى ، ص ١٥٦ .

☆☆ والمجنات تصنع من سميد يعجن بالماء ، ثم يحشى بالجن الطري ، ويقلّى بالزيت ، فإذا نضج سقي بالزبد الطري والعسل المذاب ، ثم ذر عليه سكر وقرفة . والمجنات أنواع متعددة (ابن رزين التجيبي : فضالة الخوان في طبياط الطعام والألوان ، تحقيق محمد بن شقرون ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص ٨٢-٨٦) وانظر السقطي : في آداب الحسبة ، تحقيق حسن الزين ، دار الفكر الحديث ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص ٤٦ .

والإسفنج يصنع ببل السميد أو دقيق الدرمل بالماء الساخن ، ثم يمزج بالملح والخمير ، ثم تعجن هذه الأشياء وتترك حتى تختمر ، ثم تقلّى بالزيت بعد تقطيعها إلى قطع صغيرة أو كبيرة حسب الحاجة ، وله أنواع ، منها إسفنج الريح وإسفنج القلة (ابن رزين التجيبي : فضالة الخوان ، ص ٨٠-٨٢) .

تبشير بخصب العام ، وتفاؤل ببسط الرزق فيه ^(١) .

ولقد كانت تجرى في الأعياد النصرانية أنشطة مختلفة بقصد التسلية والترفيه . ففي العنصرة يعمد الصبيان إلى رش الشوارع والأسواق بالماء ، ويلعبون بالمقارع والعصى ^(٢) . وفي اليوم نفسه - أيضاً يقوم بعض الناس بإشعال شعلة نار يسمونها شعلة العنصرة ، ويقفزون من فوقها ابتهاجاً بتلك المناسبة ^(٣) . كما يحتفل رجال الأسطول في بعض المدن ، فيقيمون في هذا اليوم السبق بين سفنهم في الأنهار ^(٤) . وقد يقام في تلك الأيام سباق للخيل ^(٥) . وفي خميس إبريل اعتاد الناس - بمن فيهم المثقفون - على الخروج للنزهة ^(٦) ☆ .

والحديث عن مشاركة مسلمي الأندلس في الأعياد النصرانية، وتتبعهم لمواعيدها يجرنا إلى الوقوف عند تأثير نصراني آخر عليهم ، وهو تعاملهم في حياتهم بالتقويم العجمي النصراني بجانب التقويم الهجري ، فلقد كان تعامل

(١) العزفي : الدر المنظم ، ص ٢١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ .

(٢) الجرسيفي : رسالة في الحسبة ، نشرها إ . ليفي برونسفال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب

الحسبة والمحتسب ، ط . المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥ م ، ص ١٢٤ .

(٣) الزجالي : أمثال العوام في الأندلس ، دراسة وتحقيق محمد بن شريفة ، ط . مطبعة محمد الخامس ،

فاس ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ، ق ١ ، ص ٢٤٠ ، ق ٢ ، ص ٨٥ ، ٢٦٧ .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص ٢١٥ .

(٥) الزجالي : أمثال العوام ، ق ١ ، ص ٢٤٠ ؛ الوئشريسبي : المعيار المغرب ، ج ١١ ، ص ١٥١ .

(٦) ابن خليل : اختصار القدر الملقى ، ص ١٥٦ .

☆ ذكر بعض الكتاب وسائل مختلفة للاحتفال بالأعياد في مملكة غرناطة (العبادي : الأعياد في مملكة

غرناطة ، ص ١٤١ - ١٤٥ ؛ سامية مصطفى مسعد : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة،

ص ٢٦٠ - ٢٦١) .

المسلمين في الأندلس بالشهور العجمية* سارياً في عصر المرابطين والموحدين، إذ كانوا أحياناً يعينون بها الحوادث مضافة إلى التاريخ الهجري^(١)، ويحددون بها مواسم الأمطار^(٢) والزراعة^(٣)، وأوقات صناعة بعض الأطعمة^(٤)، كما لم يجد بعضهم غضاضة في اعتماد الأعياد النصرانية أنفسها لتحديد تاريخ الوفيات^(٥) أو المواليد^(٦). وقد بلغ الأمر بأحد طلبه العلم أن تذكر ميلاده بالشهر العجمي، ونسى ما يوافقه بالعربي^(٧).

ومن الأمثلة التي يمكن أن تذكر عن التشبه بالنصارى استخدام بعض مسلمي الأندلس - وبخاصة من يجاورون الممالك الإسبانية - أزياء النصارى في الملابس والمركب والسلاح. وكذلك استخدام اللغة العجمية النصرانية. فلقد ورد أن محمد بن سعد بن مردنيش حاكم شرقي الأندلس في النصف الأول من العصر الموحي كان يقلد النصارى " في الزي والكلم " ^(٨). وتحدث

✽ في التقويم السنوي الذي كتبه عريب بن سعد، أو ألفه باللاتينية المستعرب ربيع بن زيد ثم نقله إلى العربية عريب بن سعد (بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٨٧ ؛ كحيلة : تاريخ النصارى ، ص ١٠٨) في هذا التقويم الذي ظهر في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - جعلت الأشهر العجمية النصرانية هي الأساس ، بينا الأشهر القمرية والشمسية التي يستخدمها المسلمون لم تحض فيه باهتمام كبير (الأنواء ، ص ٢١ - ١٨٧) .

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٢٩٨ ، ٣٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣١١ .

(٣) ابن العربي : عارضة الأحوذى ، ج ٥ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٤) ابن رزين التجيبي : فضالة الخوان ، ص ٢٢٠ ، ٢٦٢ .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٧٤ .

(٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٦١ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٦٦٠ - ٦٦١ .

(٨) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٢٠٢ .

ابن الخطيب ^(١) عنه بقوله " وأثر زي النصارى في الملابس والسلاح واللجم والسروج ، وكَلَفَ بلسانهم ... " . وقال عنه في موضع آخر " ومال إلى اتخاذ زي الروم من اللباس الضيق ، وركوب البراذين الهماليج ، واتخاذ السروج الضخمة القرايس ... " ^(٢) ☆ .

وهكذا بالأمثلة السالفة ثبت أن المسلمين في الأندلس تلبسوا بمظاهر نصرانية ، فابتعدوا بذلك عن الشخصية الإسلامية التي ينبغي أن تكون متميزة عن أعدائها في المظهر والمخبر .

(١) الإحاطة ، ج٢ ، ص ١٢٣ .

(٢) أعمال الإعلام ، ق ٢ ، ص ٢٦١ .

✽ لما تكلم ابن سعيد عن الزي الأندلسي قال " وكثيراً ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم ، فسلحهم كسلحهم ، وأقبيتهم من الإشكرولاط [نوع من الجوخ] وغيره كأقبيتهم ، وكذلك أعلامهم وسروجهم " (المقرئ : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣) والذي حكاه ابن سعيد في هذا النص يظهر أنه ينطبق على حال المسلمين بعد أن انحصرت دولتهم في مملكة غرناطة النصرانية ، فهو يتحدث عما شاهده بنفسه . وقد كانت وفاته سنة ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م (ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٤ ، ص ١٥٨) وقد وصف ابن الخطيب زي أهل مملكة غرناطة بشيء قريب مما قاله ابن سعيد (الإحاطة ، ج١ ، ص ١٣٦ ؛ اللوحة البدرية ، ص ٣٩) .

ثانياً : تفسير علماء الأندلس ونظرتهم لوجود المظاهر النصرانية بين المسلمين :

من تعامل مع التاريخ الأندلسي يعلم أن ما عرضناه آنفاً من تأثيرات نصرانية سارية في حياة بعض مسلمي الأندلس - يعلم أنها لم تكن كلها وليدة عصر المرابطين والموحدين ، وإنما كان بعضها أقدم من ذلك بكثير ، فالتاريخ بالتقويم العجمي النصراني - مثلاً - كان متداولاً بين المسلمين في الأندلس منذ أمد بعيد ، فثمة تقاويم سنوية انتشرت عندهم منذ النصف الأول من القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي ^(١) - كان عمادها الأشهر العجمية ^(٢) . وكذلك الاحتفال بالأعياد النصرانية كان موجوداً بين المسلمين في الأندلس منذ زمن الأمويين . وما زال العلماء ينعون على المسلمين مشاركتهم النصارى في مناسباتهم وعوائدهم ^(٣) ، ولكن الذي يسترعى الانتباه في عصر الدراسة أن العلماء في تناولهم لمثل هذه الظواهر النصرانية الفاشية بين المسلمين كانوا أكثر تدقيقاً لمسائلها ، وأوعب تحليلاً لأسبابها ، وأقرب معرفة لواقعها الفعلي في حياة المجتمع الإسلامي مما ينبئ بانتشارها بين المسلمين في وقت صار النصارى في الأندلس أقلية في وسط الجماعة الإسلامية ^(٤) . وكانت أعدادهم - أيضاً - في انخفاض مطرد بسبب الهجرة إلى الممالك الإسبانية ^(٥) ، واستمرار دخول أفواج منهم في

(١) بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٨٧ .

(٢) انظر - مثلاً - غريب بن سعد : الأنواء ، ص ٢١ - ١٨٧ .

(٣) العزفي : الدر المنظم ، ص ٢٧ .

(٤) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٤٣٩ ؛ كحيلة : تاريخ النصارى ، ص ١٩٤ ، ٢٤٦ .

(٥) لطفي عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ، ط ٢ . الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص ٣٠ ،

٣٤ ؛ كحيلة : تاريخ النصارى ، ص ٨٤ ، ٢٣٩ .

الإسلام^(١) ، وفوق ذلك كان الصراع بين الإسلام والنصرانية قد بلغ - حينذاك - حداً خطيراً .

إن وجود السمات والمظاهر النصرانية بين مسلمي الأندلس التي سبق أن سقنا أمثلة منها يعاكس القاعدة المشهورة أن " المغلوب يتشبه أبدأً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله " ^(٢) ، حيث نرى المغلوبين النصارى في الأندلس أثروا في الغالبين المسلمين ^(٣) فلننظر بما فسر به علماء الأندلس في زمن البحث تفشي بعض العوائد والسمات النصرانية في جماعة المسلمين الأندلسيين . فابن بشكوال ^(٤) (ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م) حين تحدث عن تعلق مسلمي الأندلس بالاحتفال في الأعياد والمناسبات النصرانية ذكر إن من أعظم أسبابها " وأقوى دواعيها مطاوعة الرجال للنساء على الاستعداد لها ، والتفخيم لشأنها ، وانقيادهم لهن

(١) الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ١٦٢ .

✠ لقد استمر دخول نصارى الأندلس في الإسلام حتى زمن الدراسة ، فهناك عدد من المعاهدين النصارى من أهل إشبيلية أسلموا في عهد الحاكم المرابطي علي بن يوسف (الونشريسي : المعيار المعرب ، ج ٨ ، ص ٢٠) كما أن جماعة من النصارى أسلموا - أيضاً - في عصر الموحدين (كحيلة : تاريخ النصارى ، ص ٢٤٧) .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٨٤ .

(٣) Fernando de la Granja: fiestas cristianas en Al Andalus , Revista AL Andalus, vol xxxIV, 1969, p. 3

✠ يقول أحد الكتاب أن الأمة الغالبة " كثيراً ما تستهين بشخصية الأمة المغلوبة ، وقدرتها على التأثير فيها ، ومن خلال استهانتها بأعدائها قد تدخل إليها من أفكار المغلوب وسلوكياته واعتقاداته ما يكون له آثار مدمرة لكيانها في المستقبل " (الورداني : النهي على الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار ، تحقيق طه جابر فياض العلواني ، ط . دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص ١١ من مقدمة التحقيق) .

(٤) الغزفي : الدر المنظم ، ص ٢٨ .

في ذلك عاماً بعد عام حتى رسخت في صدورهم ، وتصورت في عقولهم ، وتاقت لها نفوسهم " . فابن بشكوال قد وقع - فيما يبدو - على سبب مهم من أسباب وجود عادات وتقاليد نصرانية في وسط المسلمين في الأندلس يدركه من عرف التركيبة الاجتماعية لهم ؛ فالمسلمون عربهم وبربرهم منذ نزولهم في الأندلس أقبلوا على الزواج من نساء أهل البلاد سواء تلك اللاتي اعتنقن الإسلام ، أو اللاتي بقين على نصرانيتهن ^(١) . فالأخيرات لن يستنكر عليهن الاستمرار في التمسك بشعائر دينهن وتقاليدهن وآدبهن النصرانية ما دام المسلمون - رعاة ورعية - حسب ما يمليه عليهم دينهم الإسلامي قد تكفلوا لأهل الذمة عدم المساس بشيء من تلك الأشياء ^(٢) ، ومن ثم فإن مسaire أزواجهن وأولادهن المسلمين لهن في بعض المظاهر الاجتماعية تبقى محتملة جداً ، فنشأت الأجيال الإسلامية التالية على ذلك .

ولقد علل أبو العباس العزفي ^(٣) * (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م) تشبه مسلمي

(١) مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٤٢٠-٤٢٢ ؛ الحجى : التاريخ الأندلسي ، ص ١٥٨ ؛ كحيلة : تاريخ

النصارى ، ص ١٦٥-١٧٠ ؛ إبراهيم القادري بوتشيش : المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى

الأندلس ، مجلة دراسات أندلسية ، العدد ١١ ، رجب ١٤١٤ هـ ، ص ٣١ ؛

Jesus Greus : Asi vivian en Al Andalus , madrid , 1989 , p. 20-21

(٢) ضيا باشا : الأندلس الزاهية ، ج ٣ ، ص ٣٩٧ ، ٣٩٩ ؛ كحيلة : تاريخ النصارى ، ص ١٤٤-١٦١ ؛

الحجى : التاريخ الأندلسي ، ص ١٥٨ ؛ السامرائي : علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية ، ص ٤٠٤ .

(٣) الدر المنظم ، ص ٢١ .

هو أبو العباس العزفي هو أحمد بن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد اللخمي عرف بابن أبي عزفة . كان من

أهل العلم بالسنة ، لزم التدريس بجامع سبتة ، وتوفى في شهر رمضان سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م (الرعيي :

برنامج شيوخ الرعيي ، ص ٤٢-٤٧ ؛ المقرئ : أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٣٧٥) وانظر ما كتبه عنه :

الأندلس بالنصارى في بعض تقاليدهم وعاداتهم كالعناية بالأعياد والأيام النصرانية ، وما صاحب ذلك من اعتقادات فاسدة - فقال " وأرى أن ماجر على أهل الأندلس هذا إلا جوار النصارى - دمرهم الله من جيران - ، ومخالطتهم لتجارهم ، ومكاشفتهم عند الكينونة في إسمارهم " . ففيما يتعلق بجوار النصارى فقد كان المسلمون في الأندلس على مستوى دولتهم يتأخون من الشمال دول إسبانيا النصرانية ، ومن أهمها في زمن الدراسة - كما تكرر مراراً - أرغون وقشتالة والبرتغال . أما في داخل البلاد الأندلسية فالنصارى كانوا منبئين بين المسلمين في مناكبها . وقد كان السواد الأعظم منهم يقيمون في كبريات المدن ^(١) ، ولم يفرض عليهم اتخاذ مساكن معزولة عن المسلمين ^(٢) * بل كانوا يعيشون بين ظهرائهم ^(٣) ، فكان النصراني يجاور في داره المسلم ^(٤) . ولا يخفى ما لهذا جميعه من أثر في انتقال بعض العادات والآداب والتقاليد بين المتجاورين .

- ومع أن إقامته كانت في سبتة ولم تكن بالأندلس بحيث يُعد عالماً أندلسياً فإننا استشهدنا بآرائه هنا لأسباب منها : أ - أنه درس على علماء الأندلس ويروي عنهم (العزفي : الدر المنظم ، ص ٢٢ ؛ الرعيي : برنامج شيوخ الرعيي ، ص ٤٥ ، ٤٦) ب - إن طلبة العلم الأندلسيين درسوا على يديه وأخذوا العلم منه (الرعيي : برنامج شيوخه الرعيي ، ص ٤٢ ، ٤٣) ج - أنه عاش في وقت اتحاد المغرب بالأندلس في عصر دولة الموحدين . د - أنه اهتم بقضية أندلسية ، وناقشها مناقشة جادة ، أعني مسألة الاحتفال بالأعياد النصرانية في الأندلس من قبل المسلمين .

(١) لطفي عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ، ص ٢٧ ، ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ، ط . دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ص ٧٩ .

(٢) عمر بنميرة : جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس الإسلامية ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ١٤ ، محرم ١٤١٦ هـ ، ص ٥٩ .

* وهذا لا ينفي أن يكون للنصارى في بعض المدن الأندلسية أحياء خاصة بهم (Jesus Greus:op.cit.p.13) .

(٣) ابن العربي : العواصم ، ص ٦١ ؛ ابن رزين التجيبي : فضالة الخوان ، ص ٣١ .

(٤) الطرطوشي : سراج الملوك ، ج ٢ ، ص ٥٨٩ .

أما المخالطة بالتجارة التي يراها أبو العباس العزفي عاملاً من عوامل تشبه المسلمين في الأندلس بالنصارى في بعض عوائدهم فقد كانت بالفعل قائمة بين الجانبين ، فلقد تعود تجار النصارى من الممالك الإسبانية على القدوم بتجارثهم إلى الأندلس أوقات الهدنة مع الدولة الإسلامية ، فكان المسلمون يتعاملون معهم ويبيعونهم ^(١) ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كانت أسواق الأندلس تعج بالنصارى المحليين من أهل الذمة ^(٢) ، فكان عموم المسلمين يبيعون عليهم ويتاعون منهم الألبسة والأطعمة وغيرها ^(٣) . وفي كلا الصورتين سواء تعامل المسلمون بالتجارة مع نصارى الممالك الإسبانية أو مع النصارى المحليين فإنه لا مناص من حصول الخلطة بين الطرفين عند البيع والشراء ، من ثم فإن تأثر طرف بشيء من عادات الطرف الآخر وتقاليده يبقى مؤكداً .

وثالث العوامل التي عدها العزفي مفسرة لما وُجد بين المسلمين الأندلسيين من مظاهر اجتماعية نصرانية فيُرجعه إلى بقاء بعض المسلمين أسارى مدة في بلاد العدو ، ثم عودتهم إلى بلادهم وقد اكتسبوا بعيشهم هنالك - بعد تقاليد النصارى وعاداتهم ، وقد عبر عن ذلك بقوله - كما مر - " ومكاشفتهم عند الكينونة في إسمارهم " . ذاك أن الأسرى المسلمين الذين يقعون في أيدي النصارى - وبخاصة عقب الهزائم الحربية - سيكون

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج٣ ، ص ١٦١٩ - ١٦٢٠ .

(٢) عمر بن ميمونة : جوانب من تاريخ أهل الذمة ، ص ٥٨ .

(٣) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج٢ ، ص ٩٧٣ ، ج٣ ، ص ١٢٨١ - ١٢٨٢ ، ١٦١٨ ؛ الزجاجي :

أمثال العوام ، ق ١ ، ص ٢٤٦ ، ق ٢ ، ص ٢٩٣ ؛ الوئشريسبي : المعيار العرب ، ج٦ ، ص ٦٩ .

غالبهم من العامة ^(١) . وقد يبقى بعضهم سنوات في دار الحرب ^(٢) قبل فدائهم بالمال أو غيره ^(٣) ، ومثل هؤلاء العامة إذا عاشوا سنوات يتجرعون ذل الأسر بين النصارى ، وربما صحب ذلك أحياناً عمليات مقصودة لتغيير المعتقدات والأفكار ^(٤) . فإنه لا يؤمن عليهم إذا رجعوا إلى بلاد الإسلام أن يحملوا معهم بعض المظاهر السلوكية التي عايشوها أو شاهدوها هناك ^{*} .



ولاجرم أن مَنْ نصب نفسه من العلماء لتتقية المجتمع الإسلامي مما أُلِّم به من مظاهر نصرانية كان ينطلق في أحكامه وتصوراتهِ من هدى الإسلام الداعي إلى تميز المسلمين عن غيرهم في مظهرهم العام ، دع عنك تميزهم في المضمون أيضاً ^(٥) . وللإطلاع على نظرة العلماء الأندلسيين إلى هذه القضية نسوق مقطعاً من كلام أحدهم حين تعرض لاحتفال المسلمين في الأندلس بالأعياد النصرانية ، إذ قال " أي بدعة أفحش وأسمج من أن يكون المسلمون يحتفلون ويستعدون لدخول شهر أو سنة من شهور [كذا] العجم ، وهم

(١) الحسين اليعقوبي : في الفكاة والفكاكين ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٧ ، رجب ١٤١٢ هـ ، ص ٦٨ .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، ج ٢ ، ص ١٠٥٨-١٠٥٩ .

(٣) الحسين اليعقوبي : في الفكاة والفكاكين ، ص ٦٨ .

(٤) الخزرجي : بين الإسلام والمسيحية ، ص ٣٤ ، ٥٣ .

☆ يقول ابن تيمية " وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشوا المسلمين هم أقل كفرًا من غيرهم ، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشره اليهود والنصارى هم أقل إيمانًا من غيرهم من جرد الإسلام " (اقتضاء الصراط المستقيم ، ج ١ ، ص ٤٨٨) .

(٥) محمد بن سعيد القحطاني : الولاء والبراء في الإسلام ، ط . الثانية ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٠٤ هـ ، ص ٣٢١ .

أعداؤنا ، وإنما عاديناهم على كفرهم بالله ، وقد قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ ^(١) فأى مودة تكون أبين من تعظيم أعيادهم في ضلالهم وكفرهم . يا لها مصيبة ما أجلها ، إنا لله وإنا إليه راجعون " ^(٢) .

على ضوء هذا النص يبدو أن العلماء الأندلسيين في عصر المرابطين والموحدين استيقنوا بأن أهل الذمة من نصارى الأندلس الذين كان المسلمون يشاركونهم في بعض المظاهر لا يقل خطراً على الإسلام والمسلمين في هذه البلاد عن خطر نصارى الممالك الإسبانية . تأمل عبارة " وهم أعداؤنا " التي تلت مباشرة القول باستعداد المسلمين في الأندلس واحتفالهم مع هؤلاء النصارى المحليين بالأعياد والأيام العجمية ، ويبدو أن رأي العلماء هذا في أهل الذمة الأندلسيين قد تشكل على إثر مواقف بعضهم المتكررة لحكامهم المسلمين ، إذ تكشف في ذلك العصر أن جماعات متفرقة من النصارى الإندلسيين الذين عاشوا جنباً إلى جنب مع المسلمين لم يستطيعوا كبت عواطفهم الدينية، ومشاعرهم القومية تجاه إخوانهم في العقيدة نصارى الممالك الإسبانية الذين كانوا في حرب ضروس مع الدولة الإسلامية في الأندلس . فلقد ثبت أن قوماً منهم هددوا المسلمين باستدعاء حاكم قشتالة الفونش (الفونسو السادس) ^(٣) . كما أن أهل الذمة النصارى في بلنسية صاروا في

(١) سورة الممتحنة ، آية (١) .

(٢) العزفي : الدر المنظم ، ص ٢٨ .

(٣) ابن بلقين : التبيان ، ص ١٠٨ .

صف القائد النصراني القمبيطور أثناء حصاره لهذه المدينة ^(١) ، ثم أيام حكمه لها ^(٢) ما بين سنتي ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م و ٤٩٥هـ / ١١٠٢م* . وتجلت عداوة النصارى المحليين للمسلمين في الأندلس بشكل فاضح في غارة الفونسو المحارب ملك أرغون الذي اخترق بها الأندلس في غضون شهور من سنتي ٥١٩هـ / ١١٢٥م و ٥٢٠هـ / ١١٢٦م والتي مضى عرضها في فصل سالف* ، حيث أن فكرتها نبعت أساساً من المعاهدين النصارى في غرناطة وغيرها الذين خاسوا بذمة المسلمين ، ونكثوا ميثاقهم ، وخانوا عهدهم ^(٣) ، واتصلوا بهذا الملك النصراني ، ودعوه للمجيء إلى غرناطة للسيطرة عليها . ولإغرائه للقدوم أرسلوا إليه كتاباً سُجلت فيه أسماء اثني عشر ألفاً من مقاتليهم ، ووعدوه بالانضمام إليه متى ما وصل ، كما زودوه بشرح مفصل عما تتمتع به غرناطة من خيرات وميزات ^(٤) . ومن المؤكد أنهم لن ييخلوا عليه بمخطط يُعرفه بنقاط ضعف غرناطة وقوتها من الناحية العسكرية . كما أبانت هذه الغارة -أيضاً- ما يكنه أهل الذمة النصارى في صدورهم للمسلمين من عدااء على طول الطريق الذي سلكه الفونسو المحارب ، إذ التحق به أثناء ذلك عدد وافر منهم " يكثرون سواده ، ويدلون على الطريق ، وينبهون إلى المراكب التي تضر

(١) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

✽ انظر الفصل الثالث من هذا البحث .

✽ انظر الفصل الثاني .

(٣) شعبة : المراكب ، ص ١٥١ ؛ محمد أبو الفضل : شرق الأندلس ، ص ٧٠ .

(٤) ابن عذاري : البيان ، ج٤ ، ص ٦٩ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص ١٠٩ ؛ مجهول : الحلل

الموشية ص ٩١ .

بالمسلمين وتنفعه " ^(١) ، فبلغ جملة من وصل معه إلى غرناطة نتيجة لذلك خمسين ألفاً ^(٢) رغم أنه لم يخرج من مملكته إلا بأربعة آلاف في رواية ^(٣) ، وعشرين ألفاً في رواية أخرى ^(٤) ☆ .

ويرى قائل النص -أيضاً- بأن مشاركة مسلمي الأندلس في المناسبات المختصة بالنصارى ، والتشبه بهم في بعض أحوالهم آية محبة ، وعنوان ولاء لقوم عداوتهم للإسلام وأهله أزلية . وقد أثبتت الأحداث تأصل هذه العداوة في قلوب أهل الذمة من النصارى الأندلسيين وتكرسها رغم عيشهم الكريم في وسط المسلمين ، وإذا داخلت قلوب بعض مسلمي الأندلس محبة وموالة للنصارى المحليين الذين يرتبطون بنصارى الممالك الإسبانية برباط العقيدة ، ووحددة الهدف فإن موقف أولئك المسلمين من الغزو النصراني سيضعف بلا ريب ، وستخف لديهم روح المقاومة . وقد يحل في نفوس بعضهم شيء من عدم المبالاة عند حلول الأعداء بلادهم ☆☆ .

(١) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) ابن عذاري : البيان ، ج ٤ ، ص ٦٩ .

☆ ولقد أقر نصارى غرناطة ضمناً بخيانتهم للمسلمين بعد انسحاب الفونسو المحارب إلى بلاده ، حيث خافوا على أنفسهم من المسلمين ، فهرب من غرناطة عشرة آلاف نصراني كما يحكي دوزي (المسلمون في الأندلس ، ج ٣ ، ص ١٦٣) .

☆☆ نذكر على سبيل المثال أن نصارى قشتالة حينما دخلوا مدينة يباسة في أواخر عصر الموحدين ، وسكنوا قصبته لم يتحرج المسلمون في سائر المدينة من الاتصال بهم ، إذ بقي النصارى " في القصة ساكنين ، والمسلمون في البلد يداخلونهم ويعاملونهم " (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٥٨) .

ولباب القول أن بعض علماء الأندلس في خضم معالجتهم لقضية الهوية الإسلامية أمام النصارى في زمن الدراسة فسروا وجود مظاهر نصرانية في وسط المسلمين بمطابقة النساء اللاتي كان قسمٌ منهن من النصرانيات ، وكذلك بكثرة المخالطة مع النصارى سواء عن طريق الحوار أو التجارة أو الأسر ، كما لَفَتَ بعضهم الأنظار إلى التناقض الحاصل بين موافقة كثرة من مسلمي الأندلس النصارى في مجموعة من سماتهم - والتي تعني مودتهم ومحبتهم - وبين عداوتهم الأزلية التي نبأ بها العليم الخبير ، وصدقها الواقع بشكل جلي في العصر المرابطي والموحدي .

ثالثاً : جهود علماء الأندلس في الحفاظ على الهوية الإسلامية أمام النصارى :

من خصائص الإسلام الأصلية بثه لروح التميز بين أتباعه في القول والعمل والسلوك تميزاً ينأى بهم نأياً عن التشبه بغيرهم من الأمم المخالفة لهم في العقيدة والخلق والاتجاه ، وذلك في كل شأن يمس وجودهم الفريد ، وأوضاعهم الاجتماعية ، وطابع شخصيتهم العامة ^(١) ، إذ الشعور بالتميز المستند إلى الحق ، والمتصل بالشرعية ، والمنبثق من جوهر العقيدة " يصون في الأمة مقومات وجودها ، وينشيء لها كياناً راسخاً صلباً لا يعتريه التصدع أو ينفذ إليه الخلل " ^(٢) .

وليس سبيل إلى الشك أن للعلماء - وعلى الأخص علماء الشرع - كبير الأثر في وضوح تميز حياة المجتمع الإسلامي عن غيره في كل زمان ، لأنهم هم الموقعون عن الله ، الحاملون لهذا الدين ، المكلفون بتعليمه للجماعة الإسلامية ، وتأصيل أحكامه وآدابه بين أفرادها ^(٣) ؛ بل إنهم فوق ذلك المتعين عليهم صيانة الدين ، وحمايته من كل انتحال باطل ، وتخريف غال ، وتأويل جاهل ، والمناط بهم أيضاً مع غيرهم إصلاح فساد الأمة ، ومعالجة أي إغوجاج يطرأ على عقيدتها ، أو أي تنكب ينحرف بها عن طريقها القويم . وطبيعي أن يسير علماء الأندلس على نهج علماء الإسلام عموماً في

(١) عمر عودة الخطيب : لمحات في الثقافة الإسلامية ، ط . الثالثة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،

١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٣) انظر خوليان ريبوا : التربية الإسلامية في الأندلس ، ترجمة الطاهر أحمد مكى ، ط . دار المعارف ،

القاهرة ١٩٨١م ، ص ٣٠ .

رعاية الهوية الإسلامية ، والحفاظ على تميزها عن سواها . ولابد أنهم في وقت تصاعد الصراع مع النصارى في عصر المرابطين والموحدين قد عنوا بهذا الجانب أكثر من ذي قبل ، وأخذوا على عواتقهم مقاومة ما في حياة المسلمين من مظاهر ذات صلة بالنصارى .

والمتيقن أن يكون للعلماء الأندلسيين - وبخاصة الذين يتعاطون التعليم والتدريس في مجال العلوم الشرعية - أثر في بقاء تميز المسلمين في الأندلس في شخصيتهم أمام النصارى . ذاك أن القرآن الكريم والسنة المطهرة اللذين هما أساس العلوم الإسلامية ^(١) يتضمنان منهجاً تربوياً يقيم بين المسلمين وأعدائهم حاجزاً نفسياً يرسخ فيهم الاعتزاز بشخصيتهم الإسلامية ، ويصونهم - في الوقت عينه - من الذوبان في هوية غيرهم ^(٢) . وفي عصر الدراسة لدينا أعداد وفيرة من علماء الأندلس المعنيين بتدريس القرآن والسنة وما يتفرع عنهما من علوم ، سواء منهم من بانث لنا -قبلاً- مساهمته في الجهاد ضد النصارى ، أو ممن لم يستبن لنا أي جهد له في ذلك المضمار . ولا نشك أن هؤلاء جميعاً قد أثروا قليلاً أو كثيراً في نمط حياة المجتمع الإسلامي في الأندلس في زمنهم ، وذلك بتعرضهم خلال تدريسهم للناس لكثير من الآيات والحديث والمبادئ الإسلامية الموحدة في نفوس المسلمين روح الاستعلاء والعزة ، وازدراء الكفر وأهله ، والتنفير من موالاة الأعداء ومحبتهم ، وما يستتبع ذلك من تأكيد على التميز عن النصارى ومن إليهم في المظاهر والسمات والشكليات .

ومن الملاحظ أن بعض كُتاب ذلك العصر حين كتبوا إلى مَنْ لهم علاقة

(١) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ، ص ٢٣٤ ، ٢٨١ .

(٢) الورداني : النهي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار ، ص ٦ -

بالنصارى أو مَنْ ابتلوا من المسلمين بالوقوع تحت الحكم النصراني - من الملاحظ أنهم عمدوا إلى إبراز الآيات القرآنية الناهية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء^(١) ، وكذلك الأحاديث النبوية المحرمة للإقامة بين أظهر الكفار^(٢) . وقد أوضح عبد السلام بن بَرَّجان^(٣) (ت ٥٣٦هـ / ١١٤١م) رأيه في موالة أهل الكتاب فقال " ولاشك أن موالاتهم من أرذل الرذائل ، إذ لا موالة إلا بالمناسبة " . وحين عرض ابن عطية^(٤) (ت ٥٤١هـ / ١١٤٧م) لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[☆] قال " نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء في النصره والخلطة المؤدية إلى الامتزاج والمعاضدة ، وحُكِّمُ هذه الآية باقٍ ، وكل من أكثر مخالطة هذين الصنفين فله حظه من هذا المقت الذي تضمنه قوله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ ﴾ . أما معاملة اليهودي والنصراني من غير مخالطة ولا ملابسة فلا تدخل في النهي ... " .



ولقد أخذ بعض علماء الأندلس يتناقلون في ذلك العصر مؤلفات مصنفة في أحكام أهل الذمة في الدولة الإسلامية ، فكان بعضهم يُحدِّثُ بها بعضاً ، ويحتفظون بها مكتوبة لديهم^(٥) . كم أننا - أيضاً - نرمق في

(١) ابن مغادر الشاطبي : نَوْرُ الكمائِم ، ص ١٣٢ ، ١٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

(٣) تفسير ابن بَرَّجان (قطعة منه) ورقة ١٨٥ .

(٤) المحرر الوجيز ، ج ٥ ، ص ١٢٦ .

﴿ سورة المائدة ، آية ٥١ .

(٥) ابن خير: فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ٢٥٩ ؛ الوئشريسى : المعيار العرب ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

كتاباتهم المختلفة اهتمامات ملموسة بشأن تميز المسلمين في الأندلس عن النصارى والتي يمكن اعتبارها إجراءات وقائية دعا إليها العلماء لحفظ الشخصية الإسلامية من الذوبان في هوية الأعداء ، فكان شطر منها موجه إلى أهل الذمة النصارى ومن على شاكلتهم ، والشرط الآخر قصيد به المسلمون . ولنعرض أمثلة من أقوال هؤلاء العلماء تشهد باهتمامهم بهذه القضية في بعض كتاباتهم التي وصلت إلينا . فأبو بكر بن العربي ^(١) (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) لما تعرض لأهل الذمة - ونصارى الأندلس يعدون منهم - قال محدداً وضعهم الذي يجب أن يكونوا عليه بين المسلمين - قال " إنما عُقد لهم أن يُقروا على ما هم عليه فيمن يؤخذ منهم ، فيكونوا من أهل دارنا لا يساونا فيها ، وإنما يساونا في الأمانة والعصمة خاصة ، على صغار وذلة ، فمن ذلك تميزهم بغير يكون عليهم ، ولا يركبوا إلا بإكافٍ* ، ولا يُبدؤوا بالسلام ، ولا يُظهروا دينهم علانية ... " وقال عن تعامل المسلم مع أهل الذمة " أما الذمي فقد أذن الله في ملاينته وبره لافي احتمال جفائه ، فإن ذلك لا يجوز لمسلم بحال " ^(٢) . وحين تطرق إلى الزواج من الكتابيات ذكر كراهية علماء المالكية للزواج منهن ، لأن الولد من تلك الكتابيات معرض لشرب الخمر ، وأكل الخنزير ونحو ذلك ^(٣) ، ثم أفضى برأيه الخاص في هذه المسألة فقال " ولم تزل الصحابة والتابعون يتسرون الكوافر ، وينكحون ، وقد أذن الله تعالى بالتحليل في كتابه ، وخاطب بذلك جميع خلقه ، لاسيما

(١) عارضة الأحوذى ، ج٧ ، ص ١٠٤ .

☆ الإكاف : هو البرذعة ، وتُشبّه الرجال والأقتاب (الزبيدي : تاج العروس ، ج١٢ ، ص ٨٧) .

(٢) الناسخ والنسوخ ، ج٢ ، ص ٣٢١ .

(٣) أحكام القرآن ، ج٢ ، ص ٥٥٧ ؛ القبس ، ج٢ ، ص ٧١١ .

وفي استفراشها عزة للإسلام" ^(١) . وحول تعيين أحد من أهل الذمة - اليهود والنصارى - في منصب يمس شؤون المسلمين ، قال " لا ينبغي لأحد من المسلمين وُلّي ولاية أن يتخذ من أهل الذمة ولياً فيها، لنهي الله عن ذلك، وذلك أنهم لا يخلصون النصيحة ، ولا يؤدون الأمانة ، بعضهم أولياء بعض " ^(٢) ☆ . ولقد أبدى ابن العربي ^(٣) - أيضاً - تحسره على تكليف المسلمين نصارى وأشباههم لترجمة الكتب القديمة إلى العربية ، إذ كيف يوثق بهؤلاء ويسند إليهم ترجمة كتب لا يُعلم حقيقة ما فيها من معلومات قد تكون أحياناً مخالفة لأصول الإسلام .

وابن عبد الغفور الكلاعي ^(٤) بحكم تخصصه في المجال الأدبي نبه إلى وجوب تمييز المسلم في مخاطباته ورسائله عن غير المسلمين من النصارى وغيرهم فقال " ومما يجب - أعزك الله - في مكاتبة أهل الكفر أن يترك تبجيلهم ، ويتجنب ترفيعهم وتأهيلهم ، وأن يُنظروا بعين الاحتقار ، ويعتمدوا بالذلة والصغار " . ثم أكد بعد ذلك أنه يجب على الكاتب المسلم " ألا يُسلّم على يهودي ولا نصراني في ابتداء خطاب ، ولا في رد جواب " ^(٥) . ولُعزز آراءه

(١) القبس ، ج٢ ، ص ٧١١ .

(٢) أحكام القرآن ، ج٢ ، ص ٦٣٤ .

☆ ولقد جاء في رسالة الحاكم المرابطي تاشفين بن علي (٥٣٧هـ / ١١٤٢ - ٥٣٩هـ / ١١٤٤م) إلى بلنسية " وكذلك نؤكد عليكم أتم تأكيد أمر أهل الذمة ألا يتصرف أحد منهم في أمور المسلمين ، لأنه فساد

الدين " (مجهول : رسائل أندلسية ، ص ٦٠ ، مؤنس : نصوص سياسية ، ص ١١٣) .

(٣) العواصم ، ص ٧٥ .

(٤) إحكام صناعة الكلام ، ص ٩٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٩٥ .

هذه أتكا على فتوى في أهل الذمة سمعها من أحد أشياخه* ، فأثبتها بقوله عن هذا الشيخ أنه " يفتي في أهل الذمة ... بألا يتشبهوا بالمسلمين ، فلا يلبسوا الطيالس ، ولا يمسكوا العمائم ولا القلانس ، ولا يمشوا في الخفاف ، ولا يركبوا إلا عرضاً على الإكفاف ، ولا يدخلوا معنا حماماً ، ولا يبيعوا من المائعات طيباً ولا طعاماً ، ولا يتجروا في سوقنا ، ولا يزاحمونا في طرقنا ، ولا يمسكوا الدنانير التي فيها اسم الله تعالى " (١) .

ولقد نادى بعض رجال الحسبة الأندلسيين إلى اتخاذ تدابير مفيدة للحفاظ على الشخصية الإسلامية في الأندلس تجاه النصارى . فابن عبدون (٢) أكد على وجوب قطع ضرب النواقيس ببلاد الإسلام ، ورأى في الحقل الطبي أنه من الأفضل إبعاد الأطباء النصارى واليهود عن تطبيب المسلمين (٣) . كما أنكر أن يعمل أي من المسلمين في خدمة اليهود والنصارى (٤) . أما الجرسيفي (٥) فقد دعا إلى منع " أهل الذمة من الإشراف على المسلمين في منازلهم والتكشيف عليهم ، ومن إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين ، ومن

يُسمى هذا الشيخ بالفقيه الحافظ أبي القاسم بن إسماعيل (أحكام صنعة الكلام ، ص ٨٥-٨٦ ، ٩٣) وربما كان يقصد أبا القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل الأزدي الذي كان إماماً في جامع إشبيلية ، ويفتي القضاة في نوازل الأحكام (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٥٥٦) أو أبو القاسم خلف بن خلف بن إسماعيل الأنصاري المتوفى سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م (المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٠-٥٢) .

- (١) ابن عبد الغفور الكلاعي : أحكام صنعة الكلام ، ص ٩٣ .
- (٢) رسالة في القضاء والحسبة ، نشرها إ . ليفي برونفسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ط . المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٥٥ .
- (٣) المصدر السابق ، ص ٥٧ .
- (٤) المصدر السابق ، ص ٤٨ .
- (٥) رسالة في الحسبة ، ص ١٢٢ .

ركوب السروج والزي بما هو من زي المسلمين ، أو بما هو من أبهة ،
وينصب عليهم علماً يمتازون به من المسلمين " . ووقف بشدة من العمل لدى
أهل الذمة في أعمال فيها " خسارة أو إذلال للمسلمين كطرح الكُناسة ،
ونقل آلات الخمر ، ورعاية الخنازير وشبه ذلك ، لما فيه من علو الكفر على
الإسلام " ^(١) ، وإذا باشر أحد من المسلمين شيئاً من ذلك رُدَّع بالتأديب ^(٢) .



ولعل ما كتبه بعض علماء الأندلس من فضح حياة النصارى وما فيها
من ابتذال وتهتك وإباحية كان له أثره في تنفير المسلمين من أولئك النصارى ،
وتجنب الانسياق وراء عاداتهم وتقاليدهم وآدابهم وبالتالي الاعتصام بالهوية
الإسلامية المتميزة والتمسك بها . فأبو الطيب بن مَنَّ الله ^(٣) (ت ٤٩٣ هـ /
١٠٩٨ م) تعرض لحياة النصارى وما فيها من تفسخ وضياع في رسالته التي رد
فيها على ابن غرسية الشعوبي ، وقد تبادلها الكتاب الأندلسيون من بعده ^(٤) ،
فقال موجهاً كلامه للنصارى " وأنتم .. لا تغيرون ولا تغارون ، ولا تمنعون
ولا تمتنعون ، قلوبكم قواء ☆ ، وأفئدتكم هواء ، وعقولكم سواء ، ... تحلقون
اللحي والشوارب ، وتهادون القبل في المشارب ... " . والمباضعة عندكم
كالمراضعة ، ما في السكر عندكم نكر ، تبيحون ولوج العلوج على بُدور

(١) رسالة في الحسبة ، ص ١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، ٢م ، ص ٧٢٥ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، ٢م ، ص ٧٢٢ ؛ البلوى : ألف باء ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ .

☆ قواء . بمعنى خاوية مقفرة (الزبيدي : تاج العروس ، ج ٢٠ ، ص ١١٠) .

الحدوج* ، الزنا عندكم سنا ، والفجار عند فخار ... " (١) . فتبادل مثل هذه الأقوال التي تجلي واقعاً منحنطاً يعيشه النصارى ، وإطلاع مسلمي الأندلس عليه من خلال رسائل كرسالة أبي الطيب بن مَن الله ، أو من خلال مؤلفات أكبر ككتابات بعض المؤرخين والرحالة والجغرافيين الأندلسيين (٢) سيجدد لدى المسلمين في الأندلس - فيما نظن - الثقة بكمال عقيدتهم ، واستقامة منهجهم ، وسمو حياتهم في ظل الإسلام ، مقابل الديانة النصرانية المحرفة ، ولا يخفى ما لهذا الشعور من آثار نفسية ومعنوية مفيدة في التثبيت بالهوية الإسلامية المتفردة .



ومن أبين الدلائل التي تؤكد أن علماء الأندلس في عصر الدراسة اضطلعوا بمهمتهم في الحفاظ على تميز المجتمع الإسلامي في بلادهم هو ما انتهى إلينا من فتاوى وأقوال وكتابات صريحة تتصدى لمظاهر نصرانية كانت تتخلل حياة مسلمي الأندلس في العصر المرابطي والموحدي . فحول أعياد النصارى التي كانت طوائف من المسلمين في الأندلس تشارك فيها شدد أبو عبد الله بن الحاج (٣) (ت ٥٢٩هـ / ١١٣٤م) أن يكون لأحد من المسلمين يد في إقامتها ، أو الإعانة على تمويلها ، فقال محذراً المسلمين ، وقاصداً

* الحدوج جمع جذج وأصله مركب النساء (الزبيدي : تاج العروس ، ج ٣ ، ص ٣١٩) .

(١) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، م ٢ ، ص ٧٢٦ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص ١٩٥ .

(٢) انظر - مثلاً- البكري : المسالك والممالك ، ج ٢ ، ص ٩١٣ ؛ ابن جبير : رحلة ابن جبير ،

ص ٢٨٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ، ص ٥١ .

(٣) الونشريسي : المعيار العرب ، ج ٢ ، ص ٤٨٩ .

النصارى في أعيادهم " ولا يُعارون دابة ، ولا يعانون على شيء من عيدهم " . وقد علل نهييه هذا بقوله " لأن ذلك من تعظيم شركهم ، وعونهم على كفرهم " ^(١) . فمساعدة المسلمين للنصارى بشيء من تلك الأعياد علو للملة النصرانية ، ورفع لقدرها ومقامها بين المسلمين ، وهذا - بلا ريب - تهديد خطير للهوية الإسلامية في الأندلس إزاء النصارى ، ولذلك فإن ابن الحاج عاد وناشد السلطات التنفيذية في الأندلس للتدخل في زجر من يعاونون النصارى في أعيادهم من المسلمين . فقال " وينبغي للسلطين أن ينهوا المسلمين عن ذلك " ^(٢) .

ولقد تطرق أبو عبد الله بن أبي الخصال ^(٣) (ت ٥٤٠ هـ / ١١٤٦ م) في خطبة من خطب عيد الأضحى لمشاركة مسلمي الأندلس في الأعياد غير الإسلامية ، فخصص جزءاً من خطبته لتحذير الناس من الاحتفاء بالأعياد والأيام النصرانية وغيرها وحثهم في الوقت عينه على الاكتفاء بالأعياد الإسلامية فقط ، فقال " أمتنا أيام ملتنا الأوانس ، وأحيينا مهرجان الروم وفارس ، وجددنا نيروزها* الدائر الدارس ، وهجرنا تسبيح تلك وقرآنها ،

(١) الونشريسي : المعيار العرب ، ج ٢ ، ص ٤٨٩ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٥٦٤ .

* المهرجان والنيروز رغم أن أصلهما عيدان فارسيان (النويري : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٨٥ ، ١٨٧) إلا أن العلماء في الأندلس يعتبرونهما عيدين نصرانين (العزفي : الدرر المنظم ، ص ٢٣) وذلك لأن الاحتفال بالنيروز في الأندلس يمتزج بيوم يناير أول السنة الميلادية ، وليس في أول شهر مارس كما يُحتفل به في المشرق ، وكذلك الحال في المهرجان فالاحتفال به يكون في الأندلس في يوم العنصرة في يوم ٢٤ يونيو وليس في سبتمبر كما في المشرق . وعلى هذا فالنيروز عند الأندلسيين هو يناير ، والمهرجان عندهم هو العنصرة (هنرى بيرس : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، ترجمة الطاهر أحمد مكى . ط. الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

وأعدنا لهذه الطاغية أقرانها ، وضارعناها إلا نيرانها وأوثانها " (١) . وبعد أن أشار إلى تشابه الأيام من الناحية الفلكية بين أن الله تعالى قد اختص المسلمين بأيام مفضلة " دلهم بها على سبيل إلى رضوانه تُشرع ، وأبواب إلى غفرانه تُقرع ، ودرجات إلى داره دار السلام تفرع ... " (٢) .

وكان أبو بكر بن العربي (٣) (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) حاسماً حين عرض لحضور المسلمين الأعياد النصرانية وغيرها ، إذ انطلق في فتواه مما يدور فيها ، فذكر أن أي عيد من أعياد أهل الذمة " يذكر فيه الكفر فمشاهدته مشاهدة كفر " . ثم استثنى قائلاً " إلا لما يقتضي ذلك من المعاني الدينية ، أو على جهل من المشاهد له " (٤) فهو قد استثنى من المشاهدة أن تكون لها معاني دينية ، ربما قصده - مثلاً - اطلاع عالم مسلم عليها ليعرف ما يحصل فيها ، ومن ثم الحكم عليها وتحذير الناس منها تحذير من خبرها ، كما استثنى من ذلك أيضاً المشاهد المسلم الجاهل .

وقد أدى جنوح بعض المسلمين في الأندلس إلى التشبه بالنصارى في أشياء من عوائدهم وتقاليدهم ومظاهرهم أيام المرابطين والموحدين أن أصبح هذا الأمر هاجساً أشغل بال ابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م) بصفته آنذاك عالماً من علماء الأندلس ، فهب للكتابة في هذا الموضوع ، وتبيان الحق

(١) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٥٦٦ - ٥٦٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٦٧ .

(٣) أحكام القرآن ، ج ٣ ، ص ١٤٣٢ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

في غوامضه . حيث حكى أحد تلاميذه أنه قد ألف في ذلك " جزءاً حسناً " ^(١) . وقد سعى إلى نشره بين الناس ، إذ يقول هذا التلميذ إنه " مما أذن لنا فيه ، وكتب به غير مرة إلينا " ^(٢) وقد كان أحد أبواب هذا الجزء بعنوان " باب كراهية النيروز والمهرجان * والميلاد وذم الاحتفال لها ، وترك تعظيمها والاستعداد لدخولها " ^(٣) . ولا نجد إشارة لهذا المؤلف في قائمة مؤلفات ابن بشكوال المذكورة في المصادر التي تحت أيدينا ، ولكن لا غرابة في ذلك ، لأن مؤلفاته قد بلغت الخمسين ^(٤) ولم يذكر منها في المصادر إلا القليل .

ولعلنا نتعرف على ما ذكره ابن بشكوال في الباب الوحيد الذي وصل إلينا بعضه حتى الآن من هذا الكتاب ، وهو الباب الذي يتحدث عن كراهية الأعياد غير الإسلامية ، وتشديد النكير على الذين يعظمونها من المسلمين ويحتفون بها ، وقد أشرنا إلى عنوانه آنفاً . فمما قاله في هذا الباب " كان السلف رضي الله عنهم وأهل الخير والفضل والدين والورع يكرهون هذه الفصول المذمومة ويعيبنها على فاعلها والمستعمل لها والمحافظ عليها " ^(٥) . ثم نص على سبب هذه الكراهية والعيب لدى هؤلاء فقال " لأنها أعياد النصارى " ^(٦) . وقد عزز رأيه هذا بحديث للنبي ﷺ ورد النهي العام فيه عن

(١) العزفى : الدر المنظم ، ص ٢٣ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

* سبق أن ذكرنا قبل قليل أن النيروز والمهرجان يطلقان على أعياد النصارى في الأندلس .

(٣) العزفى : الدر المنظم ، ص ٢٣ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٠٦ ؛ مجهول : إنسان العيون ، ورقة ٩٤ .

(٥) العزفى : الدر المنظم ، ص ٢٣ .

(٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

التشبه ، وهو حديث "من تشبه بقوم فهو منهم" ^(١) ^(٢) . وبعد أن أشار إلى ما شاهده بنفسه من اهتمام كثير من المسلمين في الأندلس بالأعياد النصرانية أبدى وجهة نظره في ذلك فقال " ولعمري لقد نشبوا في فتنة هوى أوقعتهم في بدعة عمى ، وشاقوا الله ورسوله من حيث لا يعلمون ، واستسهلوا هذه البدع حين ألفوها وعظموها حتى صارت عندهم كالسنة المتبعة " ^(٣) . ثم حمل إخوانه العلماء ومن ورائهم السلطان كفلاً من تبعه تهادى مسلمي الأندلس في بحارة النصارى في أعيادهم وعاداتهم وراح بعد ذلك يسوق أقوال العلماء الأندلسيين وغيرهم الذين كتبوا من قبل حول الموضوع ، وكذلك آثار من قبلهم من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين ^(٤) . ويستوقف النظر أن ما استشهد به من أقوال وآثار لم يقصرها فقط على الأعياد بل توسع في ذلك فنقل بعضاً مما ورد من نهى عن التشبه بالنصارى في أمور أخرى كالتشبه بأزيائهم وتعلم رطانتهم ^(٥) . فكأن الحديث عن مشاركة المسلمين في الأعياد النصرانية قد جر ابن بشكوال إلى معالجة انحرافات أخرى كان يراها في بعض أفراد المجتمع الإسلامي في الأندلس والمتجسمة في تقليد النصارى في أزيائهم والتكلم بلغتهم .



(١) العزفى : الدر المنظم ، ص ٢٣ .

(٢) انظر روايات للحديث في أحمد : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ج ٢ ، ص ٦٨ ، ٦٩ ، وانظر تخريجه والحكم عليه في ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ، ج ١ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤٢ حاشية " ٩ " .

(٣) العزفى : الدر المنظم ، ص ٢٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٣ - ٢٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ .

وثمة أمور أثرت على تميز الشخصية الإسلامية في الأندلس أمام أعدائهم النصارى وقف منها العلماء مواقف مشهودة ، وهذه الأمور حرمها - أصلاً- الإسلام ، ولكن بعض مسلمي الأندلس غفلوا عن تحريمها ، وأخذوا يفعلونها فكان فعلهم هذا موافقاً للنصارى وغيرهم الذين كانوا يمارسونها في حياتهم بشكل طبيعي . فمن ذلك الخمر الذي حرمه الإسلام ومع ذلك كان موجوداً بين بعض مسلمي الأندلس في زمن المرابطين والموحدين ، وقد انتشر بينهم في أواخر عصر الموحدين بشكل لافت ، بل رافق انتشاره هذا استهتار بالحرمانات ، وانسلاخ في الأخلاق ، وجرأة على الله تعالى ودينه ^(١) . ولا جدال أن معاقرة بعض المسلمين في الأندلس للخمر وما ينجم عنها من آثار عليهم سبب رئيس من أسباب تلاشي شخصيتهم أزاء النصارى . فالابتعاد عن تعاليم الدين الإسلامي وأحكامه بشرب الخمر وما يتفرع عنه من انتهاكات أخرى هو بحد ذاته تراجع عن الهوية الإسلامية التي يجب أن تكون متفردة بخلال الإسلام وسماته . وإذا أضفنا أن الخمر مسوغ شره لدى النصارى في دينهم المحرف ^(٢) كان تعاطي المسلمين له موافقة لهؤلاء الأعداء في شيء من عاداتهم [☆] . وغير خافٍ ما يكون لهذا كله من خطر على تميز شخصية مسلمي الأندلس تجاه النصارى ، ولذلك هب العلماء للحد من انتشار الخمر بين المجتمع الإسلامي في الأندلس . فأبو بكر ابن العربي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) الذي عرف أثناء ولايته قضاء إشبيلية

(١) السعيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، ص ٢٠١ - ٢١٦ ؛ فوزي عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ١٤٨ - ١٥٧ .

(٢) القرطبي : الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ، ج ٤ ، ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .
[☆] وترى إحدى الكتابات أن من أسباب تفشي الخمر بين مسلمي الأندلس اختلاطهم بالمستعربين ، وزواجهم من النصرانيات (عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص ٣٣٣) .

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والضرب على أيدي المفسدين والصرامة مع المستهترين بالدين ^(١) - اتخذ أعواناً يتبعون خطوات المتعاملين بالخمير ^(٢) ، فكانوا - كما يرى أحد الكتاب ^(٣) - " يرقبون كل حركة أو بادرة من طرف السكارى والمخمورين " ، ولقد عثروا ذات يوم على رجل يحمل خمراً فأخذوه إلى أبي بكر بن العربي ، فلما وصلوا إليه اعتذر حامل الخمر بأن ما يحمله إنما هو لخدام نصرانية عنده ، والخمر قوام شرعها " فأطرق ابن العربي ، وقال : لعن الله بائعها ومبتاعها وعاصرها وحاملها ، اللعن عليها " ^(٤) ، فأمر بلعن الخمر " وعرضه على الحامل ، ثم خلى سبيله ، فانطلق عليه اللعن في كل مكان ، ومن كل إنسان " ^(٥) ، فكان ذلك " أمراً من العقاب ، وأشد من العذاب ، فلما طال على الرجل الأمر انتقل عن البلد " ^(٦) .

وكما حرص أبو القاسم بن الطيلسان (ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) على تحريض الجماعة الإسلامية في الأندلس على جهاد العدو النصراني بتأليفه كتاباً عن الجهاد* فقد اجتهد - أيضاً - أن يصلح من الداخل هذه الجماعة التي ستواجه ذلك العدو في ميدان القتال ، وأن تعود إلى هويتها الإسلامية

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٩١ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٠٦ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ، ص ٩٣ .

(٣) هو سعيد أعراب : مع القاضي أبي بكر بن العربي ، ص ٨٤ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ج ٤ ، ص ٩٣-٩٤ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٤ .

(٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

* انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب .

الصحيحة ، فأسهم في محاربة الخمر وآثاره بينها* ، فصنف كتاباً أبرز فيه - فيما يبدو - الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المحرمة للخمر ، والمنفرة منه ، وذلك بعنوان " ما ورد من تغليظ الأمر على شربة الخمر " (١) .

ولقد أفادتنا المصادر أن حكام الدولتين المرابطية والموحدية سعوا إلى الحد من شيوع الخمر بين مسلمي الأندلس ، فعلى سبيل المثال جاء في خطاب للحاكم المرابطي تاشفين بن علي (٥٣٧هـ/١١٤٢م - ٥٣٩هـ/١١٤٤م) إلى بعض المتنفذين في الأندلس " والخمر - نزهكم الله عن خبايث الأمور - التي هي جماع الأثم والفجور ، والباب المفضي إلى سواكن الفسق والشرور ، فاجتهدوا في شأنها ، وأوعزوا في جميع جهاتكم بإراقة دينها " (٢) . وورد في رسالة للمنصور الموحدي (٥٨٠هـ/١١٨٤م - ٥٩٥هـ/١١٩٩م) إلى المسؤولين في بعض مدن الأندلس يأمرهم بشأن الخمر بقوله " فإذا وافاكم كتابنا هذا بحول الله عز وجل فاقطعوه جملة وتفصيلاً ، ولا توجدوا أحداً إلى بيعه سيلاً ، واشتدوا في ذلك اشتداداً لا يوسع مستسماً فيه صُدوفاً عن هذا القصد الحميد ولا عُدولاً " (٣) (٤) .

✽ لما شرح ابن عطية قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ... ﴾ الآية ﴿ كان مما قاله إنه " باجتماع النفوس والكلمة بحمي الدين ويجهاد العدو ، والبغضاء تنقض عرى الدين ، وتهدم عماد الحماية . وكذلك أيضاً يريد الشيطان أن يصد المؤمنين عن ذكر الله وعن الصلاة ويشغلهم عنها بشهوات ، فالخمر والقمار كله من أعظم آلاته في ذلك ... " (المحرر الوجيز ، ج ٥ ، ص ١٨٥) .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٥ ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ .

(٢) مجهول : رسائل أندلسية ، ص ٥٩ - ٦٠ ، مؤنس : نصوص سياسية ، ص ١١٣ .

(٣) بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ١٦٧ .

(٤) انظر مثلاً ثالثاً في : المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

ولا نتصور أن لا يكون للعلماء يد في حث حكام المرابطين والموحدين على محاربة الخمر في الأندلس ، فالعلماء عندهم - كما مر في غضون صحائف هذه الدراسة - محترمون ، وكلمتهم مسموعة ، بل إن هذين الخطابين - مثلاً - قد وجَّها إلى المسؤولين في الأندلس لانفاذ ما فيهما من أوامر على واقع الناس ، وقد جعل العلماء على رأس أولئك المأمورين بالتنفيذ ^(١) .

وأمر آخر توافق بعض مسلمي الأندلس مع النصارى في فعله قد نهى - أصلاً - عنه الإسلام ، وهو استعمالهم للصور والتمائيل في المساكن والمرافق العامة ، فمنذ القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي - تقريباً اضمحل لدى كثير من مسلمي الأندلس الحرج من الصور والتمائيل لذوات الأرواح التي حذر الإسلام منها ^(٢) ، فصارت كثرة من قصور الحكام والأمراء وحتى من دونهم ، وأيضاً المباني العامة لا تخلو من رسوم وتماميل مجسمة متنوعة الأشكال لرجال ونساء ، وكذلك لحيوانات مختلفة الأجناس ، وقد استعمل في صناعة تلك التماثيل الحجارة والرخام والذهب والفضة والبرنز ^(٣) . وعلى هذا عاش المسلمون في الأندلس تحيط بهم أشكال مصورة ومجسمة في العديد من المباني الخاصة والمرافق العامة . وظل هذا التقليد متواصلاً على

(١) مجهول : رسائل أندلسية ، ص ٥٥ ؛ مؤنس : نصوص سياسية ، ص ١١٠ ؛ بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ١٦٤ .

(٢) فون شاك : الفن العربي في إسبانيا وصقلية ، ترجمة الطاهر أحمد مكى ، ط . الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٦٦ ؛ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا ، ص ٤٦٣ .

(٣) فون شاك : الفن العربي ، ص ٦٦-٦٨ ؛ هنري بريس : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، ص ٢٩١ - ٢٩٨ .

امتداد عصر المرابطين والموحدين^(١) . وإذا عدنا إلى النصارى رأينا الصور والتماثيل لديهم من الأشياء المعتادة منذ تاريخهم المبكر ، فهي تقوم عندهم بتجسيد بعض حقائق ديانتهم النصرانية^(٢) . إذن فزواج الصور والتماثيل في مباني المسلمين في الأندلس يباعدنا من نمط العمارة الإسلامية المتشكلة على ضوء ضوابط الإسلام وتعاليمه ، ويقربها في الآن ذاته من نمط عمارة أعدائهم النصارى ، فيكون ذلك سبباً في ذوبان شخصيتهم الإسلامية التي يجب أن تكون متميزة الشكل ، متفردة الطابع في المجال العمراني كشأنها في المجالات الأخرى . ولذا بذل بعض العلماء مساعيهم للوقوف في هذا التيار الذي كان رائجاً بين المسلمين في عصر الدراسة ، فأبو عبد الله بن المناصف^(٣) (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) أبدى ضيقه مما رآه من تصاوير وتماثيل ذات أرواح* كانت تباع في أسواق المسلمين لتنصب بعد ذلك في البيوت والحمامات مما ينأى بها في شيء من طرازها وتشكيلها عن النمط الإسلامي المتميز فقال محذراً المسلمين ، وحاضاً رجال الحسبة في الأسواق على تغيير ما يُستطاع تغييره منها ، إن "بيع التصاوير والأشكال المتخذة على هيئة الحيوان كنحو ما يستعمل لجري الماء في الحمامات والديار ونحوها على أشكال الأسد وغيره من جنس الحيوان ، وكالتصاوير التي تستعمل للصبيان في الأعياد والمواسم كل ذلك منكر

(١) هنري بريس : الشعر الأندلسي ، ص ٢٩٩ .

(٢) إيرل كيرنز : المسيحية عبر العصور ، ص ١٨٨ .

(٣) تنبيه الحكام ، ص ٣٤٦ .

* يرى ابن رشد الجد أن " المحرّم من ذلك بإجماع ما كان مخلوقاً له ظل قائم على صفة إنسان أو ما يحيا من الحيوان ، وما سوى ذلك من الرسوم في الحيطان ، أو المرقوم في الستور التي تُنشر ، أو البسط التي تفرش ، أو الوسائد التي يرتفق بها ويتكأ عليها - مكروه وليس بحرام في الصحيح من الأقوال لتعارض الآثار في ذلك ... " (الجامع من المقدمات ، ص ٢٩٣) .

لا يحل ، ويجب تغييره ، والمنع من جميعه ... " (١) .



وعلى صعيد آخر فالوعظ والتذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة من الوسائل الناجعة التي فرضها الإسلام على المسلمين وبالأخص على العلماء* لتوطيد كيان مجتمعهم ، ودعم أركانه وصيانتهم من عوامل الفساد ، وإصلاح ما يعتوره من انحرافات وتجاوزات ، ونشاهد في عصر المرابطين والموحدين مجموعة من العلماء الأندلسيين اختصوا بوعظ الناس وتذكيرهم والنصح لهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ونظراً لكون التشبه بالنصارى وموالاتهم ومشاركتهم ببعض خصائصهم داخل في إطار الانحراف عن الدين الحق فإننا لا نستبعد أن يكون هؤلاء العلماء جميعهم أو بعضهم قد قاموا بجهود في هذا الميدان وإن كنا نجهل حجمها ومقدار أثرها . ولنذكر أمثلة لهذه المجموعة من العلماء المشار إليها آنفاً . فلقد كان عُلَيم بن عبدالعزيز العمري** (ت ٥٦٤هـ/١١٦٩م) " واعظاً ناصحاً " (٢) نفع الله تعالى بنصحه

(١) ابن المنصف : تنبيه الحكام ، ص ٣٤٦ .

☆ عند تفسير ابن عطية لقوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ... الآية ﴾ قال " وأمر الله الأمة بأن يكون منها علماء يفعلون هذه الأنواع على وجهها ، ويحفظون قوانينها على الكمال ، ويكون سائر الأمة متبعين لأولئك ، إذ هذه الأفعال لا تكون إلا بعلم واسع ، وقد علم تعالى أن الكل لا يكون عالماً " (المحرر الوجيز ، ج ٣ ، ص ١٨٦) .

☆☆ عُلَيم بن عبد العزيز بن عبد الرحمن العمري يكنى بأبي الحسن وبأبي محمد ، أصله من شاطبة كان صالحاً زاهداً محدثاً حافظاً يستظهر عدداً من كتب الحديث والرأي والتفسير . وكان ذا حظ وافر من الأدب وعلم الكلام وعبارة الرؤيا وقرض الشعر . وقد عرف بأعمال الخير وقضاء حوائج الناس ، توفي في آخر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م ، أو في السنة التي بعدها (ابن الأبار : التكملة ، تحقيق عبد السلام الهراس ، ج ٤ ، ص ٤٣ - ٤٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : س ٥ ، ق ١ ، ص ٤٢٩ - ٤٣٠ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٦٢ - ١٦٣) .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٤٢٩ .

"خلقاً كثيراً" ^(١) ، إذ كان " يجلس للعامة فيعظهم ويعلمهم دينهم فينقلبون وقد أحرزوا آمالاً ، وأحكموا من التكاليفات أقوالاً صالحة وأعمالاً " ^(٢) . أضاف إلى ذلك أنه كان " محتسباً نفسه في تغيير المناكر " ^(٣) ، فكان " يخاطر بنفسه في تعفير وجه المنكر وتغييره " ^(٤) . ولقد وُصف أبو الحسن النجار الزاهد ^{☆☆} (ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م) بأنه " كان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر " ^(٥) . وكان " يعظ الناس في المساجد ويذكرهم ، فتتفعل نفوسهم لما كانوا يعلمون من دينه وصدق يقينه " ^(٦) . ولقد انتاب بعض العلماء مساجد معينة للوعظ فيها ، فعلى سبيل المثال كان لخلف بن يحيى الزاهد ^{☆☆} (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م) مجلس بجامع الزاهرة يعظ فيه الناس ^(٧) . وكان محمد بن يحيى ^{☆☆☆} (ت ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م) يصلي التراويح في رمضان بجامع قرطبة

(١) ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٤٢٩ .

(٢) ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٦٢ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٤٣٠ .

(٤) ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٦٢ .

☆☆ أبو الحسن علي بن حسين النجار ، يُعرف بابن سعدوك ، أصله من جزيرة شقر ، وسكن بلنسية ، كان من أهل الزهد والصلاح والعلم ، وكان يحفظ من صحيح مسلم كثيراً . توفي سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م .

(ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٧٢ ، وتحقيق عبد السلام الهراس ، ج ٣ ،

ص ٢١٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٢٠٥) .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، ج ٢ ، ص ٦٧٢ .

(٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٢٠٥ .

☆☆ خلف بن يحيى بن خطاب الزاهد ، يكنى بأبي القاسم ، من أهل قرطبة ، كان قد أم بالجامع الأعظم فيها وقتاً . وتوفي سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٠٤) .

(٧) ابن الأبار التكملة ، ج ١ ، ص ٣٠٤ .

☆☆☆ محمد بن يحيى القرطبي كنيته أبو عبد الله ، كان مقرئاً مجوداً ، توفي في رمضان ، سنة

٦٠٠هـ / ١٢٠٤م . (ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٦٩) .

الأعظم ثم " يجلس للتذكير والوعظ " ^(١). وثمة من استثمر المسجد الذي يؤم فيه في القيام بنصح المصلين وتذكيرهم وتنبيههم على ما يراه من أخطاء وانحرافات، فمثلاً عياش بن فرج الأزدي [☆] (ت ٥٤٠هـ / ١١٤٥م) الذي كان يؤم بأحد مساجد قرطبة ^(٢). ويدرس فيه بعض العلوم - قد خصص يوماً في الأسبوع لوعظ الناس وإرشادهم " فنفخ الله به خلقاً كثيراً " ^(٣). وكان أحمد بن محمد الحشني ^{☆☆} (ت ٦١١هـ / ١٢١٤م) يؤم بمسجد إحدى الحصون القريبة من قرطبة فيُقرئ به القرآن ويُسمع الحديث ^(٤) " ويذكر الناس " ^(٥) ^(٦).

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٦٩ .

☆ عياش بن فرج بن عبد الملك الأزدي يكنى أبا بكر . أصله من يابرة ، وسكن قرطبة ، كان معتنياً بالقرآن وتجويده ، أقرأه وكتبه بجامع قرطبة زماناً طويلاً ، وكان يدرس - أيضاً - النحو واللغة ، وكان متين الدين صالحاً زاهداً . توفي في حدود سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م (الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤٣٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٤٨٦ - ٤٨٧ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ؛ ابن الجزري : غاية النهاية ، ج ١ ، ص ٦٠٧) .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٤٨٦ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٥٧ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٤٨٦ .

☆☆ سبق أن عُرف به في الفصل الأول .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١٠٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٣٩٨ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١٠٤ .

(٦) انظر أمثلة أخرى في عياض : الغنية ، ص ١٨٠ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٧٣ ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ ، ٣٥٠ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٤١٤ ، تحقيق عبد السلام المهراس ، ج ٤ ، ص ١٩٤ ، ٢٥٩ ؛ الحلة ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٥٨٤ ، س ٦ ، ص ١١٨ ، ١٢٦ ، ٣٠٢ ، س ٨ ، ق ١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨ ، ق ٢ ، ص ٣٨٨ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤٨٥ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٣ ، ١٥ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ١٧٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ق ٣ ، ص ٣٤ - ٣٦ ، ق ٥ ، ص ٢٦٩ - ٢٧١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، نصوص جديدة ، ص ٢٢١ ؛ المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٦٨ ، ١٣٩ .

أما العلماء خطباء الجوامع فلا جدال أن خطب كثير منهم في كل جمعة ستحتوى على ما يمس حياة المجتمع ومعالجة ما فيه من مشكلات وانحرافات ، فأبو عبد الله بن قاسم الأنصارى* (ت ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) - مثلاً - الذي ولى الخطابة في بلنسية وغيرها زمناً^(١) غنى بالوعظ حتى أنه ألف كتابين في ذلك ، عنوان الأول " نسيم الصبا " والآخر " بغية النفوس الزكية في الخطب الوعظية "^(٢) .

ولقد سمى ببعض العلماء همهم وحبهم للخير ، وإقبالهم على الإصلاح إلى أن يتنقلوا في مناحي الأندلس بين المدن والقرى لوعظ المسلمين. ونصحهم بالحسنى ، وأطهرهم على الحق أطراً . فهذا أبو المعالي الواعظ*** " كان يتجول في البلاد للوعظ والتذكير فينتفع الناس به " ^(٣) . وأبو العباس الشنتريني*** " كان واعظاً صادق النصيحة ، كثير التجوال ببلاد الأندلس للتذكير والوعظ " ^(٤) .

☆ عُرف به من قبل .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٣٠٥ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٦٥١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ٦ ، ص ٣٠٥ .

☆☆ أبو المعالي الواعظ هو إدريس بن يحيى بن يوسف الواعظ ، من أهل إشبيلية غنى بالحديث ، وقد سمع من أبي بكر بن العربي بقرطبة عام ٥٣١هـ/ ١١٣٦م (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ١٩٥ - ١٩٦ ؛ المعجم ص ٦٨ - ٦٩) وسماعه من أبي بكر بن العربي عام ٥٣١هـ/ ١١٣٦م يفيد أنه كان حياً حتى ذلك العام .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ٦٩ .

☆☆ أبو العباس الشنتريني هو أحمد بن محمد بن سعدان القيسي ، من أهل شنترين ، كان خيراً فاضلاً سنياً ، وقد قرئت عليه إحدى رسائل الغزالي سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م (ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٩٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٠) والقراءة عليه في سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م يعنى أنه كان حياً في تلك السنة .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٠ .

وحاصل ما سبق أن كثرة من العلماء أسهموا بجهود متنوعة في سبيل تميز الشخصية الإسلامية في الأندلس أمام الأعداء النصارى ، فكان منهم من رجحنا إفادته في هذا الجانب بتدريس الثقافة الإسلامية المحتوية على منهج تربوي يغرس في النفوس التميز عن الأعداء . ومنهم مَنْ أفاد في الجانب نفسه بالدعوة إلى اتباع إجراءات وقائية تحول بين مسلمي الأندلس وذوبانهم في هوية أعدائهم . وكان منهم - أيضاً - مَنْ تصدى لمظاهر نصرانية صريحة متغلغلة في داخل الجماعة الإسلامية في الأندلس ، ومنهم كذلك من جندوا أنفسهم للوعظ والنصح والدعوة إلى الخير ، والإرشاد إلى الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتصحيح المفاهيم والانحرافات في حياة المجتمع الإسلامي الأندلسي ، وقد رجحنا أن قيامهم بهذا كله في ظل الصراع مع النصارى سيشمل - لا محالة - ما تلبس به بعض المسلمين من أمور نصرانية .

الخاتمة

ها نحن أولاء قد انتهينا - بنعمة من الله وفضل - إلى خاتمة الرسالة لنستقصى فيها أهم ما توصلنا إليه من نتائج ، وما اهتدينا إليه من اجتهادات على مدى ما مر من فصول ، وما خلا من صفحات .

لقد تبين لنا أن العلماء الأندلسيين الذين وقفوا أمام النصارى، وتصدوا لاعتداءاتهم المتنوعة الصور على الإسلام والمسلمين في الأندلس أيام المرابطين والموحدين كانوا كثرة كثرة معظمهم احتل مكانة علمية شهد لهم بها أولاً معاصروهم ، ثم شهد لهم بها الواقع ثانياً ، حيث تربع نفر منهم على كرسي الصدارة العلمية في العلوم التي تخصصوا بها ، وصار كثير منهم مثابة لطلبة العلم من داخل البلاد وخارجها ، يقرأون عليهم ، وينهلون من علمهم . كما وصل جماعة منهم إلى شغل وظائف رفيعة في المجتمع والدولة لا يصل إليها إلا من كان علمه يؤهله إلى شغلها . ثم إن فريقاً منهم كتبوا مؤلفات دل ما بقي منها ، أو ما ورد في وصفها - أن مصنفها بلغوا في العلم درجة عالية .

كذلك اتضح أن لهم منزلة سامية في مجتمعهم الذي عاشوا فيه ، فقد كان الحكام المرابطون يرفعون قدرهم ، ويعلون مقامهم ، ويقبلون شفاعتهم ، ولا يقطعون في كثير من الأمور - لاسيما التي تخص الأندلس - إلا عن رأيهم . كما أن الحكام الموحدين - أيضاً - أحلوهم منزلة كريمة ، فاستقدموا بعضهم إليهم في مراکش ، واستفادوا من علمهم ومشورتهم . وقد كان لهؤلاء العلماء كلمتهم المسموعة ، ورأيهم النافذ ، وأوامرهم المطاعة عند جماعة المسلمين في الأندلس ، وقد دأبوا على الالتفاف حولهم إذا استنفروهم لتحقيق واجب ، أو استصرخوهم لجهاد عدو . كما اعتاد الناس في كثير من الأوقات على اللجوء إليهم - بعد الله - إذا حزبه أمر ، أو حلت بهم رزية ، أو أدركتهم مظلمة .

ولقد استبان أن هؤلاء العلماء أفادوا المسلمين في الأندلس من الناحية العلمية ، فعن طريق امتلاكهم لقنوات التأثير على المجتمع كالتدريس والخطابة والتأليف وغيره نشروا العلوم والمعارف الأساسية التي لا يستغنى المسلمون عن معرفتها والإلمام بها ، وخرَّجوا أعداداً متعاقبة من طلبة العلم الذين صار عديد منهم من كبار العلماء ، وتهيأ لنفر منهم نشر مصنفات كثيرة في فنون مختلفة . كما وفق آخرون في إثراء علوم تخصصوا فيها، فصار لبعضهم آراء واجتهادات يركن إليها معاصروهم ومن جاء بعدهم .

ثم إن هذه الدراسة كشفت بجلاء ما كان للعلماء زمن المرابطين والموحدين في الأندلس من جهود متعددة الأشكال ، متلونة الصور في ميدان الصراع ضد النصارى ، فتبين لنا أنهم تبنوا أساليب ومناشط مختلفة لدعوة الناس إلى مناهضة العدو ومواجهة عدوانه ، فأصدروا الفتاوى الشرعية الموضحة لفرضية الجهاد في بلاد الأندلس على الأندلسيين ومن يجاورهم ، وخصصوا دروساً وخطباً في المساجد للتحريض على جهاد الأعداء ، واغتمموا - أحياناً - احتشاد جماهير المسلمين في المساجد وغيرها خلال المناسبات الخاصة والعامة لشحن النفوس بقضية العداء للنصارى ليبقى الجهاد عندهم ماثلاً في الأذهان ، متجدداً على الدوام . كما اتجه العلماء في سبيل الحض على الجهاد أثناء ذلك العصر إلى تصنيف كتب تتعلق بالجهاد في الاسلام ، وما يرتبط به من أحكام . وقد لاحظنا أن بعضهم توقفوا عند بعض الآيات والأحاديث والألفاظ الخاصة بالجهاد في مؤلفاتهم في التفسير والسنة والأدب ، فعُتِنوا ببيانها وشرح دلالاتها، واستنبطوا منها معاني وأحكاماً ربطوها بواقعهم لتبصر الناس بأهمية إعداد القوة لمجاهدة الأعداء ،

والتصدي لانتهاكاتهم وغاراتهم وعدوانهم . كما استغلوا سقوط بعض المدن الأندلسية بأيدي النصارى في تحريك همم الناس للجهاد ، وذلك بإنشائهم الكتب والقصائد التي تصف ما وقع لها ولسكانها على أيدي النصارى من محن وفظائع . كذلك رأينا أن من الأساليب التي استخدمها العلماء لدفع مسلمي الأندلس نحو مقاومة الأعداء والنهوض لجهادهم الكتابة عن فضل الأندلس وخصائص سكنائها باعتبارها من الثغور الإسلامية ، مع إبراز ماضي الأمة المجيد الذي ارتفع فيه علم الجهاد في سبيل الله ، وبخاصة في عصر الرسول ﷺ وصحابته الكرام - رضي الله عنهم - ، ثم الإشادة بالقيادة الأوائل الذين فتحوا هذه الجزيرة الأندلسية . كما حرص بعضهم على إشاعة ما يصلهم من أخبار سارة عن انتصارات المسلمين في الشام على النصارى الصليبيين ليكون ذلك حافزاً للأندلسيين في جهاد أعدائهم المصائبين .

ومن الجوانب المهمة التي كشفتها الدراسة ما أبداه علماء ذلك العصر من سعي متواصل لإبقاء الأندلس متلاحمة الأجزاء ، متحدة الكلمة في وجه العدو النصراني ، فهم مثلما تبنا دعوة المرابطين لاستنقاذ الأندلس من براثن النصارى ، ثم أفتوا يوسف بن تاشفين بخلع ملوك الطوائف ، وقتلهم إذا لزم الأمر - فقد رأيناهم يتابعون تأييدهم للحكام المرابطين لإتمام توحيد البلاد بجمعها تحت رايتهم ، فيقفون في صفهم ضد بعض ملوك الطوائف الذين أظهروا الطاعة للحكم المرابطي في البداية ، ثم ما لبثوا أن انشقوا عليه ، كفعل ابن الأفطس في بَطْلَيْوس ، وابن هود في سَرْقُسْطَة . كما شهدنا علماء عملوا بأنفسهم لتخليص مدن كان يحكمها حكام مسلمون محتمون بالنصارى ، بغية ضمها إلى الوحدة المرابطية كسعي ابن حجاج وابن واجب

في ضم بَلَنْسِيَّة إلى المرابطين بعد انتزاعها من القادر بالله بن ذي النون المحتمي بالقائد النصراني القمبيطور .

وبعد ذلك ثبت لنا أن علماء الأندلس حرصوا على دعم وحدة بلادهم في ظل الدولة المرابطية ، فرأيانهم يستمسكون بجبلها ، ويسيطرون في ركابها ، فارتبط كثير منهم بجهازها الإداري ، وداخل بعضهم أمراءها وعمالها ، وأخذوا يثنون الدعاية الحسنة لها في أواسط المجتمع الأندلسي . ثم تبين لنا أن لهم أثراً كبيراً في اتصال الدولة المرابطية بالخلافة العباسية وبعلماء المشرق لإضفاء الشرعية على حكمها في المغرب والأندلس والذي كان من أجلّ ثماره دعم وحدة بلادهم في مواجهة القوى النصرانية . ثم عرفنا أن للعلماء الأندلسيين جهودهم الفعالة في الحفاظ على الوحدة متماسكة تحت حكم المرابطين ، فكانوا يتعهدونها ، ويقفون بالقول والفعل لكل عمل يكدر صفوها ، ويعكر انسجامها ، فرأينا كيف وقف أبو عبد الله بن حمدين (ت ٥٠٨هـ / ١١١٤م) موقفاً صارماً من حركة والي قرطبة ابن الحاج حين فكر في عصيان حاكم المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين في غرة عهده ، وكيف تصدى ابن رشد الجد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) للفتنة في قرطبة عام ٥١٤هـ / ١١٢١م ، ثم موقفه من حركة نصارى الأندلس من أهل الذمة الذين خانوا المسلمين ، وتعاونوا مع حاكم أرغون الفونسو المحارب بين عامي ٥١٩هـ / ١١٢٥م و ٥٢٠هـ / ١١٢٦م . كما اتضح لنا حساسيتهم المفرطة من وقوع الاختلاف المذهبي والعقدي بين الأندلسيين الذي يؤدي إلى تصدع الوحدة أمام النصارى ، فكان موقفهم المعروف من دخول كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م) . ولما اختلت وحدة

الأندلس بالفتنة التي أشعل فتيلها عدد من الثوار ضد المرابطين في أواخر أيامهم نأى بعض العلماء المخلصين عن الخوض في الفتنة ، وتصرف بعضهم وفق ما غلب على ظنهم أن فيه فائدة للمسلمين ووجدتهم في هذه البلاد ، فأذكروا علانية على أولئك الثوار ، وامتنعوا عن التسليم لهم بالولاية باعتبارهم خارجين على السلطة المرابطية الشرعية .

وحين انقرضت دولة المرابطين من الوجود بقيام الدولة الموحدية ، وأخذت هذه تفرض وجودها في المنطقة ، وتظهر نية جازمة للنهوض بمهام الجهاد في الأندلس تبين لنا أن العلماء الأندلسيين تعاملوا مع هذا الواقع المفروض فترأسوا وفود بلادهم للبيعة للموحدين ، وصار بعضهم يعمل جاهداً لإنهاء المعارضين للحكم الموحد في البلاد لتبقى الكلمة واحدة ، والجهود متعاظمة إزاء الزحف النصراني ، كموقف بعض علماء شرقي الأندلس من محمد بن سعد بن مردنيش . ثم اتضح أن هؤلاء العلماء استمروا يقفون في صف هذه الدولة ، ويشاركون في أجهزتها الإدارية ، ويعارضون أي حركة تشق عصاها ، أو تضعف كيانها . ولكن حينما انشق البيت الموحد على نفسه ، وغرق في خلافات أسرية تجرأ أفراد من الأسرة الموحدية على تسليم مدن أندلسية إلى النصارى نظير مساعدة لهم على منافسيهم - رأينا بعض العلماء يدعون الأندلسيين إلى الالتفاف حول ابن هود الزعيم الأندلسي الذي ظنوه في البداية أنه سينقذهم - بعد الله - من الخطر النصراني ، وذلك كما فعل أبو بكر عزيز بن خطاب (ت ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م) في رسالة له في هذا الشأن . ثم كان للعلماء أثر في الاستنجاد بأهل العدو المغربية عندما تزايد نشاط الممالك النصرانية ضد الأندلس في

الوقت الذي لم يكن فيها دولة ولا زعماء يعول عليهم في دفع ذلك النشاط، فشاهدناهم يتجهون إلى حاكم إفريقية أبي زكريا الحفصي الذي رآوه مؤهلاً لمعاونتهم على كشف محتهم ، فخف بعضهم إليه كما فعل أبو عبد الله بن الأبار (ت ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م) ، وكتب إليه آخرون مثلما فعل أبو المطرف بن عميرة المخزومي (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) .

ولقد أراح البحث الستار عن إسهامات متشعبة لعلماء الأندلس في الميدان الحربي ضد الممالك الإسبانية في ذلك العصر ، فبان لنا بجلاء أن جهاد النصارى كان على رأس اهتماماتهم ، فكانوا يتابعون فصوله أولاً بأول ، وكانت لهم فيه فتاوى وأقوال . وكان بعضهم يرصد ماشهده أو سمعه من اعتداءات نصرانية ، ثم يبادر بتبليغ ذلك إلى القادة أو الحكام ليقوموا بمسؤوليتهم تجاهها . وبحكم مشاركتهم المباشرة في المعارك العسكرية الدائرة رحاها بين المسلمين وأعدائهم ، ومتابعتهم لتطوراتها كان لبعضهم حولها تحليلات دقيقة ، وآراء جيدة ، وتوقعات صائبة . ثم أن عدداً منهم صار يتحدث عن الأمور الحربية حديث من خبرها ومارسها ، وعلم الطرق المجدية منها ، وعرف جيد آلاتها من رديتها . ثم لاحظنا بعضهم قد ذهب به الاهتمام بجهاد النصارى إلى الاحتفاء بعناصر أساسية في سير العمليات القتالية فحثوا - مثلاً - على العناية بالخيـل ، وأشادوا بفوائدها في الجهاد ، وأفردوا في شأنها المؤلفات .

ثم وجدنا لعلماء الأندلس حضوراً متميزاً في مجال الإنفاق على الجهاد الحربي ضد النصارى ، سواء ما كان في إطار حماية المسلمين ، أو في أخذ الأهبة للجهاد أو في معالجة الأوضاع بعده . فكان هؤلاء العلماء في طليعة المنفقين في

ذلك المجال في شتى صوره ، الداعين غيرهم إلى الإنفاق فيه ؛ بل أنهم تبناوا إلزام الناس في الأندلس بمعونة مالية لصالح الجهاد حينما تحققوا من عجز الدولة القائمة بحرب الأعداء عن توفير النفقات اللازمة لذلك .

وبعد ذلك تجلّى لنا أن العلماء الأندلسيين حينذاك انخرطوا بشكل كبير في قافلة المجاهدين بأنفسهم في سبيل الله فحفوا مع الجيوش المرابطية والموحدية في غزواتها ضد القوى النصرانية المجاورة ، فكانوا يتوافدون للمشاركة في تلك الغزوات من مدن الأندلس المختلفة ، حتى أن بعضهم لا يسمع بغزاة ولا سرية إلا تجهز لها ، وبادر بالخروج إليها . وقد كان هؤلاء العلماء فوق مشاركتهم القتالية في المعارك الحربية بين المسلمين والنصارى - لا يتوانون في بذل كل شيء يعين الجيش الإسلامي في النصر على الإعداء ، فأخلصوا النصيحة للقادة ، ووعظوا المقاتلين وذكروهم ، وألقوا الخطب والمواعظ للتحريض على القتال ، وحمل بعضهم الراية في أتون المعارك . ثم ثبت أنهم شاركوا على نطاق واسع في الحملات العسكرية الموجهة نحو الممالك الإسبانية المجاورة في ذلك الحين ، فكان من ضمن المشاركين في جهاد مملكة قشتالة أيام المرابطين الإمام الجزولي في غزوة أقليمش عام ٥٠١هـ / ١١٠٨م التي انتهت بنصر مؤزر للمسلمين ، وأبو محمد بن عطية (ت ٥٤١هـ / ١١٤٧م) في غزوة طليّة عام ٥٠٣هـ / ١١٠٩م التي كانت عاقبتها أيضاً للمسلمين . وفي أيام الموحدين كان من ضمن المشاركين في جهاد هذه المملكة النصرانية أبو الوليد بن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) في غزوة وبّدة عام ٥٦٧هـ / ١١٧٢م ، وأبو علي بن حجاج (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠١م) في غزوة الأرك عام ٥٩١هـ / ١١٩٥م التي انتصر

فيها المسلمون ، وأبو بكر الكنانى في غزوة شَلْبَطْرَة عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م والتي قضى نخبه فيها ، وقد كانت نهايتها أندحار القشتاليين ، وأبو عمر بن عات النفزي في موقعة العقاب ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م ، وقد قُتِل فيها عقب هزيمة موجعة للمسلمين . كما جاهد العلماء مملكة برشلونة (قطلونيا) فكان من أشهرهم أبو جعفر بن ثابت العوفي الذي انتهت حياته في معركة البورت (الباب) بين قوات هذه المملكة والمسلمين عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م . ثم رأينا علماء الأندلس خرجوا لجهاد نصارى مملكة أرغون ، فكان في جملة المشاركين في جهادها إبان عصر المرابطين أبو علي الصدي الذي فُقد في قتالها في معركة كُتْنَدَة عام ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م والتي انتصر فيها الأرغونيين على المسلمين ، وأبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) الذي حضر كُتْنَدَة الآنف ذكرها ، وموقعة كُولِيَة عام ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ . أما أبرز المشاركين في جهاد هذه المملكة في أواخر عصر الموحدين فقد كان أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الذي كان على رأس النافرين لقتالها في أُنَيْشَة عام ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م ، فقاتل فيها قتالاً شديداً حتى قُتِلَ ، وانهزم المسلمون هزيمة مروعة . وفي جهاد مملكة البرتغال اشترك علماء الأندلس فكان من أظهرهم أبو بكر يبيش العبدري الذي فُقد في موقعة مع هذه المملكة عند شَنْتَرين عام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م بعد انكسار المسلمين فيها ، وأبو الحسن الملقى وأبو بكر بن زُهر اللذان كانا في أعداد المشاركين في هذه الموقعة .

ثم وقفنا على إسهامات فاعلة للعلماء في حماية المدن الأندلسية والدفاع عنها من هجمات النصارى المركزة وغاراتهم الخاطفة في ذلك العصر ، فكان لأبي الوليد بن رشد الجَد (ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) أثر

ملموس في دفع المرابطين للعناية بأسوار مدن الأندلس ، وقد تبنى العلماء القول بجواز جمع الأموال من الناس لتمويل هذا المشروع ؛ بل رأينا أبا بكر ابن العربي (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٨م) يتبرع بقدر من أمواله الخاصة لتثقيف سور مدينة إشبيلية . أما العلماء الذين تصدوا لغارات العدو على المدن الأندلسية فقد جاء على رأسهم أبو محمد عبد الله بن كوثر الغافقي الذي قُتِلَ عند رده لغارة على مدينة شربة في غربي الأندلس ، وأبو عمر بن عياد الذي قُتِلَ أثناء بروزه عام ٥٧٥هـ / ١١٨٠م لمقاتلة النصاري المغيرين على بلدة لُرِيَّة التابعة لكورة بلنسية . وقد تيسر لنا معرفة عدد من العلماء الذين قاوموا هجمات العدو المنظمة على المدن الأندلسية ، فكان منهم أبو أحمد جعفر بن جَحَّاف (ت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م) الذي وقف للقمبيطور عند حصاره العنيف لمدينة بلنسية عشرين شهراً ما بين سنتي ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م و ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ، وأبو جعفر عبد الوهاب الأنصاري الذي قتل عام ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م حال اشتراكه في مقاومة العدو المهاجم لمدينة وشَقَّة ، وأبو زيد بن قرايش الذي لقي ربه في الذود عن مدينة سرقسطة عام ٥٠٣هـ / ١١١٠م ، وأبو محمد الرشاطي الذي قتله النصاري عند دخولهم المِرْيَّة سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م ، وأبو بكر بن عبد النور السبائي الذي قُتِلَ مجاهداً للعدو تحت أسوار مدينة قصر أبي دانس عام ٦١٤هـ / ١٢١٧م ، وأحمد الأنصاري الذي وقع أسيراً في أيدي النصاري بعد مقاومته لهم عند اقتحامهم مدينة لوشة سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م أو في السنة التي بعدها ، وعبد الملك بن إبراهيم العبدي المقتول عام ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م بأيدي النصاري عند جهاده لهم أثناء تغلبهم على مدينة ميورقة في جزائر الأندلس الشرقية

(البليار) ، وإبراهيم بن إسحاق العبدري (ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٥م) المأسور على أيدي هؤلاء الغزاة بعد مشاركته في التصدي لهم . وقد رأينا أن العلماء الأندلسيين علاوة على حملهم السلاح لمقاومة العدو المهاجم للمدن الإسلامية - فإن بعضهم قد قام بمهمة الرسل لأهل مدنها المحاصرة من أجل المساعدة لفك الحصار عنها ، كما أن بعضهم الآخر لجأ إلى الكتابة للغرض نفسه كما فعل قاضي سرقسطة ثابت بن عبد الله (ت ٥١٤هـ / ١١٢٠م) الذي كتب يطلب النجدة من القائد المرابطي أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين لما حاصر العدو الأرغوني مدينة سرقسطة عام ٥١٢هـ / ١١١٨م .

ولقد كشفت الدراسة تعرض الأندلس في عصر المرابطين والموحدين لحرب فكرية نصرانية منبعثة من الممالك الإسبانية المجاورة ، حيث اتجه النصارى في تلك الممالك - بتأثير من البابوية كبير - إلى مهاجمة الإسلام آنذاك باللسان والقلم ، وجعلوا ذلك - أكثر من أي عصر مضى - سلاحاً معتبراً في حربهم الضروس ضد مسلمي الأندلس ، فترجموا في سبيل ذلك القرآن الكريم وعقيدة ابن تومرت (المرشدة) وغيرها ، وتعلموا اللغة العربية وقد تركزت حملاتهم الفكرية في إظهار محاسن النصرانية ، وترويج مبادئها بين المسلمين في مقابل إثارة الشكوك ، وتلفيق الأكاذيب ، وخلق الشبهات حول تعاليم الإسلام وآدابه وشرائعه ونبه محمد ﷺ والعرب ولغتهم . وقد كانت طليطة عاصمة قشتالة أهم المدن الإسبانية التي حملت لواء هذه الحملات الفكرية - مشافهة أو كتابة - إلى خواص المسلمين وعوامهم تارة في المدن المحتلة ، وتارة في المدن الإسلامية .

ولقد اتضح لنا أن علماء الأندلس كانوا حينذاك مدركين لخطر تلك

الحملات على بلادهم ، واعين بمسؤوليتهم في دمجها ، وحماية الأمة من آثارها. ف بجانب ما كان لهم من جهود تعتبر عامة في هذا المضمار كتدريسهم للقرآن وتفسيره ، والتأليف في نبوة الرسول ﷺ وحقوقه ، والتنفير من العقيدة النصرانية - فقد وجدناهم يترصدون لما كان يقوم به رجال الدين النصارى من أنشطة فكرية مضادة للدين الإسلامي في الأندلس، فيكشفون زيف أفكارهم ، ويطلقون زخارف شبهاتهم ، فكان منهم من ناظر القساوسة النصارى - مواجهةً - كعبد الله بن سهل الغرناطي (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م) وأبي علي بن رشيق التغلبي (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م)، ومنهم من رد على النصارى بالشعر كفعل أبي الأصبح بن زروال الشعباني ، ومنهم من رد عليهم برسائل نثرية وشعرية كنهج أبي مروان بن مسرة اليحصبي (ت ٥٥٢هـ / ١١٥٧م) . وهناك مَنْ صنف في هذا المجال مؤلفات موسعة كابن أبي عبيدة الخزرجي (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٧م) ، وقد توصلنا - أثناء - استعراضنا لهؤلاء العلماء وجهودهم في هذا المضمار - إلى أن مؤلف كتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " يبعد أن يكون القرطبي المفسر المشهور : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي المتوفي سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٣م ، لأن زمن تأليف هذا الكتاب ، وما حواه من معلومات لا يتوافق مع أحوال هذا القرطبي في الزمن نفسه ؛ فضلاً عن أمور أخرى ذكرناها في مجلدنا ، وقد عثرنا على إحالات لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) - شيخ القرطبي المفسر - في شرحه لصحيح مسلم جعلتنا نميل إلى الظن الغالب بأنه هو مؤلف كتاب " الإعلام " .

كذلك لاحظنا أن جماعة من العلماء كأبي العلا الجّنان (ت ٥٣٩هـ / ١١٤٤م) وأبي الحجاج البلوى (ت ٦٠٤هـ / ١٢٠٨م) وغيرهما تصدوا لفكر يلتقي في حقيقته وأهدافه مع حملات النصارى على الإسلام ، أعني الفكر الشعبي الذي يركز على ذم العرب ودينهم الإسلامي في مقابل الفخر بالعجم ودينهم النصراني .

ثم شرحت الدراسة بشكل ثابت موثوق ، وبصورة حية مباشرة - منهج العلماء في مواجهة الحملات الفكرية النصرانية ضد الإسلام والمسلمين في الأندلس ، وذلك من خلال استعراضنا لثلاثة من أعمال علماء الأندلس في هذا المجال تعود كلها إلى ذلك العصر ، وهي " مقامع الصليبان " لابن أبي عبيدة الخزرجي (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٧م) و " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " المنسوب للقرطبي ، ومناظرة أبي علي بن رشيّق التغلي (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) لقسيس نصراني ، وقد وجدنا أن منهجهم يقوم على عرض الشبهات النصرانية كما جاءت من مثيرها ، ثم الرد عليها رداً علمياً محكماً يعتمد في عمومها على الأدلة النقلية ، والبراهين العقلية ، والمناقشات الكلامية ، كل ذلك بأساليب سلسلة ، ولغة واضحة ، وعبارات مفهومة .

ولقد كشف البحث أن هناك جملة من العادات والتقاليد والسمات النصرانية كانت مألوفة في حياة مسلمي الأندلس الأمر الذي أدخل بهويتهم الإسلامية إزاء أعدائهم المحاربين لهم ، فكانت فقام من هؤلاء المسلمين - تشارك مثلاً - النصارى في أعيادهم ومناسباتهم الموسمية ، فاحتفل بها مثلما يحتفلون ، وتمارس فيها الأنشطة التي يمارسون . كما تعامل المسلمون

في الأندلس - أحياناً - بالتقويم العجمي النصراني ، ومال بعضهم إلى التشبه بالنصارى في زيهم ولغتهم .

ثم تبين لنا أن فئة من علماء الأندلس في عصر المرابطين والموحدين تناولوا هذه الظواهر النصرانية الفاشية في مجتمعهم بالدراسة ؛ حيث رصدوها من واقعهم المشهود ، ثم راحوا يدققون النظر فيها ، ويحللون أسبابها ، فكان من الأسباب التي توصلوا إليها لفشو تلك الظواهر النصرانية في مجتمعهم : مطاوعة الرجال للنساء اللاتي كان قسم منهن من النصرانيات ، والمجاورة بالسكنى ، والمخالطة بالتجارة ، وعيش بعض المسلمين أسارى في بلاد العدو مدة من الزمن .

ولقد برز خلال الدراسة ما للعلماء من جهود متنوعة الأثر في مجال تميز شخصية المسلمين في هذه البلاد ، وحفظها من الذوبان في شخصية أعدائهم النصارى ، فكان من تلك الجهود ما جاء تلقائياً عن طريق تدريسهم للعلوم الإسلامية المحتوية على منهج تربوي يقيم حاجزاً نفسياً يرسخ في نفوس المسلمين الاعتزاز بشخصيتهم المتميزة ، ويصونهم من الذوبان في هوية غيرهم من أهل الملل الأخرى ، ثم كان منها ما ظهر لنا أن أولئك العلماء قد قاموا بها ابتداءً مدفوعين بغيرتهم على الهوية الإسلامية التي رأوها تتراجع أمام هوية الأعداء النصارى الذين يحاربون مسلمي الأندلس بضراوة على أكثر من جبهة وصعيد ، فأخذوا يُعنون في ذلك الوقت بالمؤلفات المصنفة في أحكام أهل الذمة ، ثم لمسناهم في كتاباتهم يدعون إلى التقيد بطائفة من الضوابط الشرعية في التعامل مع الذميين لتكون بمثابة إجراءات وقائية تحفظ للمسلمين شخصيتهم ، وتكفل لهم تميزهم عن أعدائهم . كما عمد بعضهم إلى التنفير

من النصارى بفضح ما في حياتهم من ابتذال وتهتك وتفسخ وإباحية . ثم إنا رأينا عدداً من العلماء تصدوا لما كان يطبع حياة مسلمي الأندلس في بعض جوانبها من مظاهر نصرانية صريحة ، أو أعمال أصلها محرم في الإسلام توافق فعلهم لها مع فعل النصارى ، فاجتهدوا بأقوالهم وكتاباتهم محذرين المسلمين من التلبس بشيء منها ، إذ أن تعاطيهم لها يعني مسخاً لمعالم شخصيتهم المتفردة ، وفقداناً لطابع هويتهم المتميزة .



تم الفراغ من هذه الدراسة في عصر يوم الخميس الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٤١٧ هـ الموافق ١٩٩٧/٣/٢٧
وعند فراغي منها كان يتردد في مسامعي دعوات وتمنيات
ذاك الذي غاب عن هذه الدنيا الفانية مرتحلاً إلى الدار الآخرة
في ليلة الخميس السابع عشر من شهر رجب سنة ١٤١٧ هـ
والذي رحمه الله وجعل الجنة مثواه - دعواته المباركات وتمنياته
الصادقات لي بالانتهاء من هذا العمل العلمي كلما
رآني مقبلاً إليه ، أو ناهضاً من مجلسه حتى في مرضه
الأخير الذي لقي فيه ربه . وقبل هذا كان قد رباني
صغيراً ، وتعهدي بالتوجيه كبيراً ، وشجعني على
إتمام دراستي العليا . فجزاه الله عني خير الجزاء
اللهم ما لي هذا العمل من حق وخير لا جعل
ثوابه له ، وثقل به ميزان حسناته ، اللهم
اغفر له ، وارفع درجته في المهلدين ،
واجعلنا وإياه وجميع المسلمين ممن تكون
لهم عقي الدار ، جنات عدن يدخلونها
ومن صلح من آياتهم وأزواجهم وذرياتهم .
آمين آمين . وصلى الله على نبينا محمد
وعلى آله وصحبه ومن تبعهم
لاحسان إلى يوم الدين .

الملاحق والخرائط

[١]

رسالة أبي بكر عزيز بن خطاب إلى الفقيه أبي عبد الله بن قاسم يندبه
لدعوة أبي جميل زيان للدخول في طاعة محمد بن يوسف بن هود . وجاء
فيها بيان وجوب تكاتف المدن الأندلسية وتأزرها ضد النصارى* .

" سلام كريم طيب ، عليك أيها الفقيه المعظم ، الخطيب ، الزاهد ،
الفذ ، الورع ، التقى ، الفاضل ، المقدم ، الحبيب في الله عز وجل ، المكرم ،
أبو عبد الله بن قاسم ورحمة الله وبركاته .

كتب إليك أخوك في الله تعالى ، العارف بحقك ، المعترف بفضلك ،
الحب فيك ، الناصح لك ، عزيز بن خطاب ، مستفتحاً للخطاب ، مستمنحاً
للجواب ، مستجناً للصواب ، يقول مذكراً بآيات الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَخَذَ
اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْمُومُهُ ﴾ ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ
مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ... الْآيَةِ ﴾ ، ثم قد علمتم ما في إصلاح ذات
البين من الأجر ، وأنه من الفرائض التي يَأْتُمُّ الجميع بخلوهم عن قائم به ، وأعمه
أعظمه أجراً وأتمه ، وعلمتم ما في الأمر بالمعروف وما تجشم الصالحون فيه ،
وعلمتم أن المدن المتجاورة المشاركة في الدين ، التي لا تستقل كل واحدة
منها بنفسها في معاشها أو دفاع عدوها ، الذي يروم الاستيلاء على أهلها ،
واستئصال دينهم الحق ، واجب عليها أن تتناصر وتتعاقد على دفاع ذلك
العدو ، ويأمن بعضها من بعض ، وتنبئت بينها أسباب التواد والتناصر ،
ويكونوا كما قال رسول الله ﷺ (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) ،
وكما قال - صلى الله عليه وسلم - : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه

بعضاً) ، كما يجب ذلك في المدينة الواحدة بين المنازل ، وهذا كله بين لا يخفى أنه فرض في ديننا الذي رضيه لنا ربنا - جل وعز - وهو المراد بقوله تعالى : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ ، ويُنَّ معلوم أن ذلك لا يكون إلا بالاتفاق على مدير واحد ، يتمكن منه الإطلاع على الأحوال جميعها ، ينقاد إليه مدير كل واحدة منها ، ويُقبل منه المصالح المشتركة ، ويُنهى إليه ما يخص الجزء الذي يختص بتديره ، إذ بذلك تأتلف نفوس الجميع ، وتكون كل واحدة منها على ثقة من أن المصلحة التي لها في الأخرى تصل إليها ، فتسمح هي بالمصلحة التي للأخرى فيها ، لأن نسبها إلى مدير واحد نسبٌ متكافئة ، فهو يُعني بها عناية متساوية ، فيُحسِّن النظام ، ويقع التعاضد على ثقة من التناصف ، فإنه إن لم ينقد مديروها إلى مدير واحد يتمكن منه ما ذكر ، اختل نظامها الذي به تعاضد ، وآثر كل واحد منهم مصلحته الخاصة به على المصلحة التي للآخر ، ولم يثق أهل مدينة منهم أهل مدينة أخرى ، في أن يستأثروا عنهم بما يخصهم ولم يركنوا إلى مدير يصرفهم لتساوي عنايته بهم ، هكذا يكونون عند التسالم توقعاً ، فكيف عند ظهور استئثار ، أو تغالب أو تجاذب ، على بعض الأطراف؟ ويوجب هذا ولا بد وهنا في جميعها وتهيؤا لاستيلاء عدوها عليها ، إن كانت متكافئة ، وكان الخلاف بين كل واحدة وكل واحدة منها ، أو في المنفردة منها ، إن كان أكثرها منتظماً مقاوماً للعدو . ويجب على الصالحين من أهل الدين والرضا ، أن يسعوا في نظامها ويدعوا إليه ، ويؤكدوا على المنفردة على الأكثر أن ترجع عن انفرادها لغير سبب ديني ، ولا عدل مدني ويعظوا المدير والرؤساء في عدم اتباع الهوى ، العائد عليهم بالخسر المؤدي

- إن داموا عليه - إلى انبتات رياستهم رأساً ، وانقطاع كلمة الدين عن مدينتهم ، على يدي عدو دينهم ، فإن أجاب الرؤساء والمدير إلى ذلك وجب على حملة الدين وعلمائه ، أن يسعوا في إعلاء مراتب ذلك المدير وأولئك الرؤساء ، ويثثوا بينهم وبين المدير الذي انقادوا إليه أسباب المودة ، ويؤكدوا عليه استخلاصهم وتمكينهم ، إذ أصلح الله تعالى أهل الدين ، ونظم شملهم على أيديهم ، ويشددوا الثقة بهم ، إذ آثروا الصواب على ما كان بأيديهم ، طوعاً لله تعالى وإنصافاً من أنفسهم ، وإن لم يجيبوا إلى ذلك ، أوجب كتاب الله تعالى ، والنظر الصحيح ، على أهل المدن المنتظمة محاربتهم ، بعد الإعذار إليهم ، والموعظة لهم ، حتى يرجعوا إلى الانتظام معهم ، والتعااضد على عدوهم ، وكانت محاربتهم عدلاً ، لظهور البغي عندهم ، ومفارقتهم الأكثر وجعلهم لعدو الدين سبيلاً إلى أنفسهم وحریمهم ، قال الله تعالى : ﴿ فقاتلوا التي تبغى حتى تهى إلى أمر الله ﴾ ، وإثم من يصاب منهم من المستضعفين ومن لا يعلم من الصالحين - على المدير المنفرد ، وحجة الله تعالى عليهم للذي يصيبهم : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ ، ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ ، ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ ، هذا كله بين لا ينكر ذو دين صحته ، قرآناً وسنة ، وإجماعاً ونظراً ، ولا تخفى عليكم حال الأندلس الآن ، وحال بلنسية منها ، وبأي أصل من هذه الأصول تلحق ، وأن الثغور الراجعة إليها قد ضعفت وشارفت استيلاء العدو عليها ، وكثير منها قد استشعر ذلك فانتظم مع الأكثر ثقة بأنه الصواب ، وبقي علي أن أعلمكم ، بأن البلاد المصاوبة لكم ، التي انتظمت مع هذه البلاد ، تؤكد الرغبة على أمير المسلمين - أيده الله تعالى - في النهوض إليها ، وتقرر أنها قد أحقدت بلنسية فلا تأمن عاديتهما ، ولا

تتهدن معها أرجاؤها ويقولون : إنما لحقنا بالأكثرين لنغزو على عدو الدين ، فإن أسلمنا إلى ما نخاف من الأقلين ، كان ذاك أشد لنكايتنا ، وأبعد من حمايتنا ، وأمير المسلمين - أيده الله تعالى - يرى أنه لا يسعه تركهم ، ولا تسوغ له إضاعتهم ، ويكره أن يطأ في أثناء أهل بلنسية ، رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات ، فتصيبهم معرة بغير علم ، فيتردد ويرجع إلى الدعاء والضراعة إلى الله تعالى في رفع الفتن وجمع الكلمة ، ويكي بمحضري بكاء مبرحاً ، رافة بالمؤمنين وإشفاقاً على ضعفاء المسلمين ، ويقول : كيف الخلاص بين إسلام قوم تقوم لهم علينا الحجة ، ووطء قوم قبل أن تتم عليهم الحجة على أنه قد استفتى من قبله ، فأفتوه بالنهوض إليهم ، إلا من شاء الله تعالى توفيقه ، فأفتاه بالرفق بهم والأناة فيهم والموعظة لهم ، معذرة إلى ربهم ولعلمهم [كذا] ، فإن استمروا على الفرقة ، فأخْلِقْ بهم أن تتفق الفتوى على حربهم ، ويجتمع المسلمون على سقوط حرمتهم ! أعاذنا الله تعالى من التماذي على الفرقة ، وعصمنا من الاختلاف .

ودعاني إلى الدخول في هذا الشأن الذي لم يكن من شؤني، أداء ما تعين على من السعي في إصلاح ذات البين وحَذَارِ الإثم في الكف عنه، إذ لم أر من يتحرك إليه ويقوم به ، مع أنه فرض على الجميع ، وأنا أدعوك إلى الله تعالى في أن تعينني في ذلك، وتُنْهِي الموعظة عني وعنك إلى الرئيس أبي جُميل، وتُذَكِّرْه بالله تعالى وبآيات الله ، وبأن الدنيا لا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة ، ولأن يهدي الله تعالى به رجلاً واحداً خير له مما طلعت عليه الشمس ، وتُقَوِّي ما جعل الله تعالى في قلبه وجَبَلَه عليه ، من اختيار الخير واتباع معالم الدين ، ، وتُضَعِّف كيد الشيطان فيما يريد أن يوقعه من العداوة

بين المؤمنين ، وتذكره بندامة أبي بكر - رضي الله تعالى عنه - إذ حضرته الوفاة فقال (وندمت على أن لم أقذف بالأمر في عنق أحد الرجلين فيكون أميراً وأكون وزيراً) و ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ [فعسى] الله أن يؤتیه المنقبة العظمى ، التي كان رسول الله ﷺ يشر بها الحسن - رضي الله عنه - ويفضله من أجلها ، ويقول له (ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) ، وتُعلمه أن نفوس صلحاء الأندلس ، تجتمع على محبته إذا دخل فيما دخلوا فيه ، ويقر له جميعهم بفضل الانقياد إلى الحق ، وتنطلق ألسنتهم بالدعاء له ، وينشر الملأ الكثير فضائله ، ثم لا يفوته من الملك إلا كدره ، ويشرب صفوه يأخذ عفوه ، ممتعاً به هيناً ، ويربح إلى ذلك ملكاً لا يبيد ، وينال عند الله تعالى من مودة أمير المسلمين وإخائه كل ما يريد ، وما أربح صفقة من آتاه الله تعالى الدنيا فاشترى بها الآخرة ، فاعتاض من زائل حقير قليل دائماً كبيراً كثيراً ! أين من يزاحم إبراهيم بن أدهم في مقامه ؟ أين من يتبع الحسن بن علي - رضي الله تعالى عنه - في مآثرته ؟ هل في الأمراء من يفاخرهما ؟ أو في المسلمين بعدهما من لا يرى تقديمهما ؟ والتوسل إلى الله تعالى بهما ؟ أما يقنع الرشيد السعيد أن يكون لهما ثالثاً تالياً ، وإلى عليّ درجتهم راقياً ؟ أين المتنازعون على الممالك ؟ أين السالكون في طلب الدنيا في شتى المسالك ؟ هل ﴿ ترى لهم من باقية ﴾ هل وقتهم من الموت واقية ؟ هل بقي لهم في ملكهم ما بقي للحسن وابن أدهم من زهدهما ؟ أين الذين قالوا لمن آتاه الله الملك : ﴿ نحن أحق بالملك منه ﴾ ؟ أين الذين ﴿ قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﴾ صدوا عنه ؟ ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم

ركزا ﴿؟ ما أعلم من يُسمعي بما صاروا إليه ؟ ما أقل ما تنفعهم الندامة فيما ندموا عليه ، حين رأوا ما قَدَموا إليه ؟ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأخذ بحجزنا عن النار ، ونحن نتهافت عليها تهافت الفراش ، يقول لنا : (لا تطلبوا الإمارة ولا تتخذوا الدنيا دار عمارة) ونحن لا نستقر من أجل طلبها على فراش ، ما أغوانا إن لم نقبل نصيحته ! ما أقل هدايا إن لم نسلك طريقته ! والله إني لأنصح الناس للرئيس أبي جُميل ، وأدلهم له على كل جميل ، وأسعاهم في أن ينال في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وأنت بكذلك يوجب عليك الدين ، فتعال نتعاون على نصيحته ، فقد جعله الله تعالى ممن يحب أهل الصلاح والدين ، ويأخذ في أموره أخذ المهتدين ، فتلطف في توصيل الموعظة إليه ، وأعرض نصيحتي عليه ، فعسى الله تعالى أن ينظم شمل المسلمين على يديه ، وقد أدبت ما لله تعالى علي من النصيحة والتنبية ، على غفلة ربما عرضت ، ولم يبق مع الأصول التي قَدَّمت موضع إشكال و ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ ، والعدل من البغي ، فأد يا أخي ، أنت ما عليك كما يقتضيه الحق منك ، ولا تأخذك في الله تعالى لومة لائم ، والله تعالى يجزينا على نياتنا ، إن عَجَزَتْ عنها أعمالنا ، وأنا منتظر جوابك بما تؤول إليه الحال. ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ ، جعلنا الله تعالى ممن قال الحق مرأ ، وأطاع الله سرأ وجهراً ، وجعل لنا الدنيا طريقاً إلى السعادة في الأخرى ، وهدانا من مرضاته إلى الأحق والأحرى ، بمنه ، والسلام الكريم عليكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

[٢]

رسالة تبين اهتمام العلماء بشؤون الجهاد *

" كتب [أبو محمد بن عطية] إلى الفقيه القاضي أبي سعيد خلوف بن خلف - أعزه الله - من حضرة بلنسية ، وقد نهض في صحبة الأمير الأجل عبد الله بن مزدلي ، عند منهدة إلى سرقسطة - أعادها الله - ملياً لمناديها ، ومعيناً لمدافعة العدو المخيم بواديها ، وأقام الفقيه أبو محمد خلاف المعسكر هنالك لعذر اعترضه وعاق منهضه :

أستوهدب الله للفقيه الأجل ، قاضي الجماعة سيدي وعمادي شمول نعمه وأياديه ، واتصال روائح عز الطاعة وغواديه ، واتساق خواتم الإجمال بمباديه ، والتتام أعجاز السعد بهواديه ، ولا زال مُنْهَل سحاب العدل ، ممتد أطناب الظل ، مُخَضَّر جناب الفضل ، لا يُقرع باب أملٍ إلا ولجه ، ولا يَعْنُ لما تكره النفوس من أمرٍ إلا فرجه ، بعزة الله كتبته - أدام الله بالطاعة عزك - من حضرة بلنسية - حرسها الله - يوم كذا عن منبر ودك الذي لا تخبو لدي ناره ، ولا تأفل عندي شموسه وأقماره ، ونضير عهدك الذي لا يخلع لبسه الكرم ، ولا يزداد إلا طيباً على القِدَم ، وعطير حمدك الذي به أحاور وأحاضر وبمحاسنه أباهي وأكاثر ، والله تعالى يملأ بمحامدك أسماعاً ويطلق ألسناً ، وييقيك للفضل عيناً كريمة وأثراً حسناً ، ويديم ما بيننا في ذاته زاكي الفروع ثابت الأصول ، حصين الشُّكَّة مرهف النصول ، بمنه .

بعد أن ورد كتابك الكريم روضة الحزن ، غب المزن ، وحديقة الزهر تبسمت لوفد المطر ، تتجارى إلى محاسنه العين والنفوس ويتفرق من خلاله الأنس ، وانتهيت منه أيضاً إلى ما يقتضي رضى وتسليماً ، ويسر كما

سمي اللديغ سليماً ، وأما ما ذهبت إليه دام عزك ، من تعرّف الأنباء ، واجتلاء الأنحاء ، فإن ابن رُذُمير - وقمه الله - قد جعل بناء سرقسطة لِكُلِّكِلِه عَطَنًا ، واتخذ ذلك الحريم وطناً ، وذلك أنه ندب لهذه السفرة من أهل ملته ما ندب ، وأجلب من خيلهم ورجلهم ما أجلب ، وهو يعتقد أن بمنزلة سرقسطة ستفتح عليه أبواب حروب ، وأنه قد وطئ غيلاً غير مقروب ، فلما رأى أن حمايتها ليست بضربة لازب ، وأبصر حبلها على الغارب ، نهت المطامع حرصه ، ففعل فعل الضعيفة أصابت فرصة ، فلازم ملازمة الغريم ، وصرف إليها وجوه الهمم والهموم ، أما أن غراب الرحيل ينعب كل يوم في عرصاته ويفصح ، وطوائف الإفرنج - دمرهم الله - كل ليلة تمسي ولا تصبح ، لأن نيتهم قذفٌ ، ونواهم نزوح ، ومن دون أفراحهم مهامةٌ فيحٌ ، وأيضاً فإن الأمير الأجل أبا محمد عبد الله بن مزدلي - أيده الله - قد أضاق بضبط الطرق ، وقَطَعَ المتصرفين ذرعهم ، وعجّز بنصب حبال الخيل لمن شد أو فر وسعهم ، فإنه - دام أمره - أطل عليهم إطلال الفجر على الظلام ، وأخذ هنالك بضبع الإسلام وأقام مرة كالحية النضناض ، وطوراً كالأسد القضااض ، يُسرّب إلى محلتهم من يضرهم نار الحرب في أكنافها ، ويأتي أرضهم بنقصها من أطرافها ، ولولاه ما علا هنالك للإسلام اسم ، ولا حبي للمدافعة رسم ، ولا لاح للمكافحة وسم ، ولا عَنْ لتلك العلل المجهزة على تلك الأقطار جسم ، ولكنه رَكِبَ صعبَ الأهوال ، وصدق الصيال ، وهي - أعزك الله - أقطار إن لم تُقِمِ القوة منها ميلاً وجَنَفًا ، ويستعمل الجد لها نظراً أنفاً ، وإلا فقعدها بِمَدْرَجِ نثار ، وهي في طريق انتكاث وعثار ، والله يكفي المسلمين فيها ، ويُنعم عليهم بتلافيها ، بعزته ، والسلام الجزيل ، عليك يا عمادي ، ورحمة الله وبركاته .

[٢]

فتوى لابن رشد الجهاد ☆

"وكتب إليه ﷺ أمير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين - أدام الله أمره وأعلى نصره - يسأله هل الحج أفضل لأهل الأندلس أو الجهاد ؟ ونص السؤال : بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم جوابك - رضي الله عنك - فيمن لم يحج من أهل الأندلس في وقتنا هذا هل الحج أفضل أم الجهاد ؟ وكيف إن كان قد حج حجة الفريضة ؟ راجعنا في ذلك بما تراه موقفاً مأجوراً إن شاء الله .

فأجاب : - أدام الله توفيقه - على ذلك بما هذا نصه : تصفحت -رحمنا الله وإياك - سؤالك هذا ، ووقفت عليه . وفرض الحج ساقط عن أهل الأندلس في وقتنا هذا لعدم الاستطاعة التي جعلها الله شرطاً في الوجوب لأن الاستطاعة القدرة على الوصول مع الأمن على النفس والمال ، وذلك معدوم في هذا الزمان . وإذا سقط فرض الحج لهذه العلة صار نفلاً مكروهاً لتقحم الغرر فيه . فبان بما ذكرناه أن الجهاد الذي لا تحصي فضائله في القرآن والسنن المتواترة والآثار أفضل منه ، وأن ذلك أبين من أن يحتاج إلى السؤال عنه .

وموضع السؤال إنما هو فيمن حج حجة الفريضة والسبيل مأمونة ،

وهل الحج له أفضل أم الجهاد ؟ والذي أقول به : أن الجهاد له أفضل لما ورد فيه من الفضل العظيم . وأما من لم يحج حجة الفريضة والسبيل مأمونة فيتخرج ذلك على الاختلاف في الحج هل هو على الفور أو على التراخي ؟ وهذا إذا سقط فرض الجهاد على الأعيان بقيام من قام به . وأما في المكان الذي يتعين فيه على الأعيان فهو أفضل من حجة الفريضة قولاً واحداً للاختلاف فيه هل هو على الفور أو على التراخي ؟ وبالله التوفيق .

[٤]

المعارك الحربية مع النصاري التي ثبت لدينا مشاركة علماء الأندلس فيها زمن المرابطين والموحدين

القوة النصرانية التي اشتبك معها المسلمون	نوعية المعركة	المعركة وتاريخها *
أرغون	هجوم نصراني على مدينة وشقة الإسلامية .	وَشَقَّة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م
قشتالة	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	أُقْلِيش ٥٠١هـ / ١١٠٨م
قشتالة	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	طَلْبِيرة أوائل سنة ٥٠٣هـ / ١١١٠م
أرغون	هجوم نصراني على مدينة سرقسطة الإسلامية .	سَرْقُسْطَة أواخر سنة ٥٠٣هـ / ١١١٠م
برشلونة	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	البورت (الباب) ٥٠٨هـ / ١١١٤م
أرغون	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	كُتْنَدَة ٥١٤هـ / ١١٢٠م
أرغون	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	كُوبَة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م
مجموعة من القوى النصرانية	هجوم نصراني على مدينة المرية الإسلامية .	المريّة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م
البرتغال	غارة نصرانية على مدينة بطليوس الإسلامية .	بَطْلْيُوس ٥٥٦هـ / ١١٤٧م
البرتغال	غارة نصرانية على بلدة شرية الإسلامية .	شِرْبَة ٥٦١هـ / ١١٦٥م
قشتالة	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	وَبْنَة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م .
غالب الظن أنها أرغون	غارة نصرانية على بلدة لرية الإسلامية .	لَرِيَة ٥٧٥هـ / ١١٨٠م
البرتغال	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	شَتْرِين ٥٨٠هـ / ١١٨٤م
قشتالة	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	الأرك ٥٩١هـ / ١١٩٥م
قشتالة	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	شَلْبَطْرَة ٦٠٨هـ / ١٢١١م

المعركة وتاريخها *	نوعية المعركة	القوة النصرانية التي اشتبك معها المسلمون
العقاب ٦٠٩هـ / ١٢١٢م	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	قشتالة
أبذة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م	هجوم نصراني على مدينة أبذة الإسلامية	قشتالة
قصر أبي دانس ٦١٤هـ / ١٢١٧م	هجوم نصراني على مدينة قصر أبي دانس الإسلامية .	مجموعة قوى نصرانية
لوشة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م أو ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م	هجوم نصراني على مدينة لوشة الإسلامية .	قشتالة
ميورقة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م	هجوم نصراني على مدينة ميورقة الإسلامية .	أرغون
أنيشة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو	أرغون

[٥]

حكام المرابطين والموحدين ومدة ولاية كل واحد منهم

أ - حكام المرابطين :

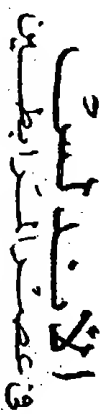
- ١ - يحيى بن عمر اللمتوني ٤٣٤هـ/١٠٤٢م - ٤٤٨هـ/١٠٥٦م .
- ٢ - أبوبكر بن عمر اللمتوني ٤٤٨هـ/١٠٥٦م - ٤٦٥هـ/١٠٧٣م .
- ٣ - يوسف بن تاشفين ٤٦٣هـ/١٠٧٠م - ٥٠٠هـ/١١٠٦م .
- ٤ - علي بن يوسف ٥٠٠هـ/١١٠٦م - ٥٣٧هـ/١١٤٣م .
- ٥ - تاشفين بن علي ٥٣٧هـ/١١٤٣م - ٥٣٩هـ/١١٤٥م .
- ٦ - إبراهيم بن تاشفين ٥٣٩هـ/١١٤٥م - ٥٤١هـ/١١٤٧م .
- ٧ - إسحاق بن علي بن يوسف ٥٤١هـ/١١٤٧م - ٥٤٢هـ/١١٤٨م .

ب - حكام الموحدين :

- ١ - محمد بن تومرت ٥١٥هـ/١١٢١م - ٥٢٤هـ/١١٣٠م .
- ٢ - عبد المؤمن بن علي ٥٢٤هـ/١١٣٠م - ٥٥٨هـ/١١٦٣م .
- ٣ - يوسف بن عبد المؤمن ٥٥٨هـ/١١٦٣م - ٥٨٠هـ/١١٨٤م .
- ٤ - يعقوب المنصور بن يوسف ٥٨٠هـ/١١٨٤م - ٥٩٥هـ/١١٩٩م .
- ٥ - محمد الناصر بن يعقوب ٥٩٥هـ/١١٩٩م - ٦١٠هـ/١٢١١م .
- ٦ - يوسف المستنصر بالله ٦١٠هـ/١٢١١م - ٦٢٠هـ/١٢٢٤م .
- ٧ - عبد الواحد المخلوع ٦٢٠هـ/١٢٢٤م - ٦٢١هـ/١٢٢٤م .
- ٨ - عبد الله العادل ٦٢١هـ/١٢٢٤م - ٦٢٤هـ/١٢٢٧م .

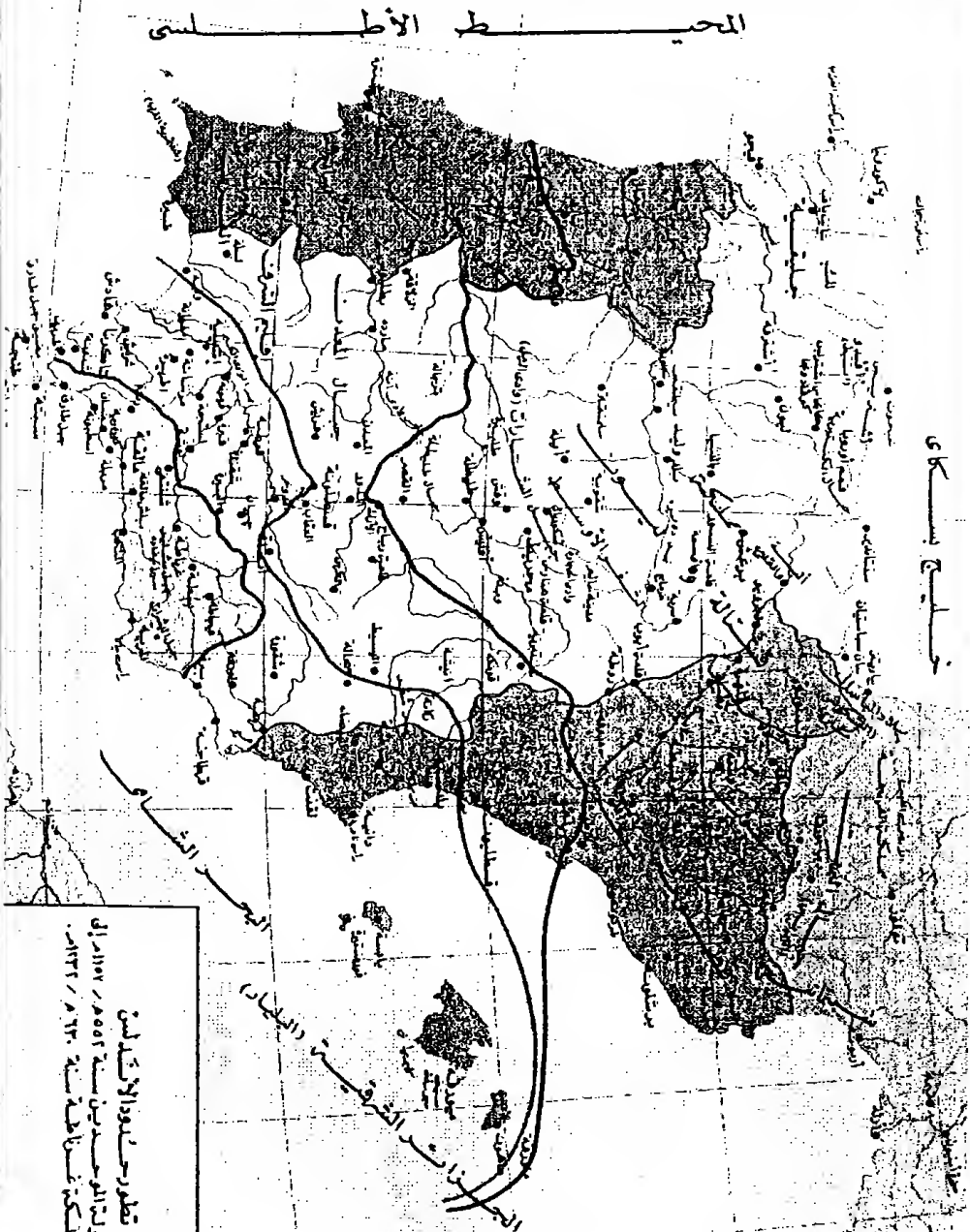
- ٩ - إدريس المأمون ٦٢٤هـ/١٢٢٧م - ٦٢٩هـ/١٢٣٢م.
- ١٠ - يحيى المعتصم ٦٢٤هـ/١٢٢٧م - ٦٣٣هـ/١٢٣٦م.
- ١١ - عبد الواحد الرشيد ٦٣٠هـ/١٢٣٢م - ٦٤٠هـ/١٢٤٢م.
- ١٢ - علي السعيد ٦٤٠هـ/١٢٤٢م - ٦٤٦هـ/١٢٤٨م.
- ١٣ - عمر المرتضى ٦٤٦هـ/١٢٤٨م - ٦٦٥هـ/١٢٦٦م.
- ١٤ - إدريس الواصل ٦٦٥هـ/١٢٦٦م - ٦٦٨هـ/١٢٦٩م.

(معروفة من كتاب : اهلئ تاريخ الإسلام ، د / حنيف مؤنس ، ص ١٧٤)



خارطة ٢ : تبين حدود الدولة الموصلية في الأندلس وكذلك القوى الأسبانية الصمرانية
 المعاصرة لها التي شارك المسلمون في جهادها إبان عصر الدراسة
 (مضمومة من كتاب : أطلس التاريخ الإسلام ، د / حسين موسى ، ص ١٧٥)

خليج بسكاي



تطور حدود الأندلس
 من قيامة الأندلس سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٢ م إلى
 قيام سلطنة غزنافية سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٢ م.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية القديمة

أ - المصادر المخطوطة .

الإدريسي : أبو عبد الله محمد بن محمد (ت حوالي ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) .

- أنس المهج وروض الفرج ، مخطوط حكيم أوغلي برقم ٦٨٨ ، مكتبة السليمانية في إستانبول ، نشر مخطوطاً بالتصوير الفوتوغرافي في معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في فرانكفورت .

ابن برجان : أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال (ت ٥٣٦هـ / ١١٤١م) .

- تفسير ابن برجان (قطعة منه) ، مخطوط مكتبة عزيزة الوطنية بالجامع الكبير ، كتاب رقم ٩٧ .

البرزلي : أبو القاسم بن أحمد البلوي (ت أول القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) .

- جامع مسائل الأحكام لما نزل بالقضايا من المفتين والحكام ، ميكروفيلم جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، رقم ١٠٧٩٠ .

السهيلي ☆ :

- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، مخطوط المكتبة الظاهرية رقم ٦٤٩ / تاريخ ، ميكروفيلم جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، رقم ١٠٥٣ / تاريخ .

✳ جاء في الصفحة الأولى من المخطوط بعد الحمد لله والتسليمة عبارة " قال الشيخ الإمام أبو القاسم وأبو الزيد (كذا) عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن أصبغ بن حسين ابن سعدون بن رضوان بن فتوح الخثعمي السهيلي الأندلسي " فسلسلة النسب هذه والكنية في البداية تنطبقان على السهيلي المشهور صاحب الروض الأنف (ت ٥٨١هـ / ١١٨٥م) . لكن كتاب "جذوة المقتبس" هذا تعدى في تراجمه عصر السهيلي الأخير إلى وقت متأخر ، بل تُرجم فيه لصاحب الروض الأنف .

- ابن العربي : أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري (ت ٥٤٣هـ/١١٤٧م) .
- سراج المريدين في سبيل المهتدين ، مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ٢٠٣٤٨ ب .
- ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) .
- تاريخ دمشق ، نشرته مخطوطاً مكتبة الدار بالمدينة المنورة .
- ابن عميرة المخزومي : أبو المطرف أحمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) .
- رسائل أبي المطرف بن عميرة ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ، رقم ٥٢٣٢ .
- ابن فودي : عثمان بن محمد (فودي) بن عثمان (ت ١٢٣٢هـ/١٨١٧م) .
- نجم الإخوان يهتدون به يا ذن الله تعالى في أمور الزمان ، مخطوط مجموعة صكت ، مجلد (١) ، مطروف (١) ، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا ، جامعة أحمد بيللو ، زاريا ، نيجيريا .
- مجهول :
- إنسان العيون في مشاهير سادس القرون ، ميكروفيكم جامعة أم القرى ، رقم ٢٤٨/تاريخ .
- مجهول :
- الدرر النيرة في أخبار الجزيرة ، مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس ، رقم ١٨٦٢١ .
- ابن المرباط : محمد بن علي بن عبد الرحمن (كان حياً عام ٧٢١هـ/١٣٢١م) .
- زواهر الفكر وجواهر الفقر ، حققه حسن أفيلل ، رسالة دكتوراه غير منشورة * كلية الفلسفة والآداب ، جامعة غرناطة ١٩٩٢م .
-
- * آثرت إدراج كتاب ابن المرباط هذا ضمن المخطوطات مع أنه يُعد رسالة جامعية لسببين : الأول : أنه في حكم المخطوط فهو مكتوب بالآلة الكاتبة . والثاني : أنني استفدت من نصوص " زواهر الفكر " دون كلام المحقق ، فكتبت أعزو إلى ابن المرباط عند الرجوع إليه .

ابن هذيل : أبو الحسن علي بن عبد الرحمن (من أهل القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي)

- تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس ، مخطوط . م . نهيل ، الدار البيضاء، نشره مخطوطاً بالتصوير الفوتوغرافي لويس مرسى، باريس ١٩٣٢م.

ب - المصادر المطبوعة :

ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٩م) .

- إعتاب الكتاب ، تحقيق صالح الأشر ، ط . مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م .

- تحفة القادم ، أعاد بناءه وعلق عليه إحسان عباس ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- التكملة لكتاب الصلة ، نشر السيد عزت العطار الحسيني ، ط . مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م ، في جزئين ، وطبعة فرانسيسكو كوديرا ، مدريد ، في جزئين الأول ، ١٨٨٦م ، والثاني ، ١٨٨٧م . وتحقيق عبد السلام الهراس ، ط . دار المعرفة ، الدار البيضاء .

- الحلة السراء ، تحقيق حسين مؤنس ، ط . الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة ، ١٩٦٣م .

- دُرر السمط في خبر السبط ، تحقيق عز الدين أحمد موسى ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

- ديوان ابن الأبار ، تحقيق عبد السلام الهراس ، ط . الدار التونسية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدي ، ط . دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م . وط . فرانسيسكو كوديرا، مدريد، ١٨٨٥م .

- ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن بن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) .
- الكامل في التاريخ ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- أحمد : الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م) .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، إعداد مجموعة من الباحثين ، إشراف سمير طه المجذوب ط . الأولى ، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
- الإدريسي ☆ :
- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، ط . لندن ، ١٩٦٨م .
- ابن أبي أصيبعة : أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م) .
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ط . دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م) .
- صحيح البخاري ، ط . الرابعة ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- ابن بسام : أبو الحسن علي بن بسام الشنتري (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م) .
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، ط . الثانية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الله (ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م) .
- كتاب الصلة ، ط . الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م .
- البكري : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) .
- المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري ، ط . الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٩٢م .

البلفيقي : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (من رجال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي) .

- المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط . الثانية ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

ابن بُلُقَيْن : عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيري (ت آخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) .

- التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة "مذكرات الأمير عبد الله" . تحقيق إ. ليفي برونفيسال ، ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

البلوي : أبو الحجاج يوسف بن محمد - ابن الشيخ - (ت ٦٠٤هـ/١٢٠٨م) .

- كتاب ألف باء ، ط . الثانية ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

البياسي : أبو الحجاج يوسف بن محمد (ت ٦٥٣هـ/١٢٥٥م) .

- الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام ، تحقيق شفيق جاسر أحمد محمود ، ط . الأولى ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

البندق : أبو بكر بن علي الصنهاجي (عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .

- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، ط . دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط ، ١٩٧١م .

التادلي : أبو يعقوب يوسف بن يحيى - ابن الزيات - (ت ٦٢٧هـ/١٢٢٩م أو ٦٢٨هـ/١٢٣٠) .

- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي ، تحقيق أحمد توفيق ، ط . الأولى ، دار النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

- التجيبى : القاسم بن يوسف (ت ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م) .
- برنامج التجيبى ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ١٩٨١م .
- ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق فهد محمد شلتوت ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧١م .
- التنبكى : أبو العباس أحمد بابا بن أحمد (ت ١٠٣٦هـ / ١٦٢٧م) .
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، نشر عبد الحميد الهرامة ، ط . الأولى ، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٨٩م .
- ابن تومرت : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٥٢٤هـ / ١١٣٠م) .
- أعز ما يطلب ، تحقيق عمار الطالبي ، ط . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٥م .
- ابن تيمية : أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م) .
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، تحقيق ناصر بن عبد الله العقل ط . الثالثة ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
- بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلل والائحاد ، تحقيق موسى بن سليمان الدويش ، ط . الأولى ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . ط . علي السيد صبح المدني ، القاهرة .
- درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم، ط . مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- مجموع فتاوى ابن تيمية ، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد ، ط . مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب .

- مجموعة الرسائل والمسائل ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- مقدمة في أصول التفسير ، تحقيق محمود نصار ، ط . مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٨٨م .
- الجاحظ : أبو عثمان عمر بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) .
- المختار في الرد على النصارى ، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي ، ط . الأولى ، دار الصحوة ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .
- ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) .
- رحلة ابن جبير " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار " ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- الجرسيفي : عمر بن عثمان (من أهل القرن السادس الهجري / الثاني الميلادي) .
- رسالة في الحسبة ، نشره إ . ليفي بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، ط . المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م .
- ابن جُزَيِّ الكلبي : أبو محمد عبد الله بن محمد (من أهل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) .
- كتاب الخيل " مطلع اليمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال " ، تحقيق محمد الغربي الخطابي ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- ابن جزى : أبو القاسم محمد بن أحمد (ت ٧٤١هـ / ١٣٤٠م) .
- القوانين الفقهية ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت .
- حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م) .
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ط . دار العلوم الحديثة ، بيروت .

ابن حُبَيْش : أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨ م) .

– الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء

الأول الثلاثة ، تحقيق سهيل زكار ، ط . الأولى ، دار الفكر ، بيروت ،

١٤١٢هـ / ١٩٩٢ م .

ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩ م) .

– فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، نشر محمد فؤاد عبد الباقي وعبد

الدين الخطيب . ط . دار المعرفة ، بيروت .

ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣ م) .

– جهرة أنساب العرب ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ /

١٩٨٣ م .

– ديوان الإمام ابن حزم الظاهري ، تحقيق صبحي رشاد عبد الكريم ، ط .

الأولى ، دار الصحابة ، طنطا ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م .

الحلي : شهاب الدين محمود بن سليمان (ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٤ م) .

– حسن التوسل إلى صناعة التوسل ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، ط . دار

الحرية ، بغداد ، ١٩٨٠ م .

الحميدي : أبو عبد الله بن أبي نصر (ت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥ م) .

– جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإياري ، ط .

الثانية ، دار الكتب الإسلامية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م .

ابن حمير : أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي (من أهل القرن السادس الهجري /

الثاني عشر الميلادي) .

– تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم خُفالة الأغبياء ، تحقيق محمد رضوان الداية ،

ط . الأولى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠ م .

الحميري : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت حوالي ٧٢٧هـ / ١٣٢٦ م) .

- صفة جزيرة الأندلس (منتخب من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار) ، نشر إ . ليفي برونفسال . ط . د . م .
- ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد (ت ٥٢٨هـ / ١١٣٨م) .
- قلاتد العقيان ومحاسن الأعيان ، تحقيق حسين يوسف خربوش ، ط . الأولى ، مكتبة المنار ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، تحقيق محمد علي شوابكة ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- الخزرجي : أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٧م) .
- مقامع الصلبان ، تحقيق عبد المجيد الشرفي ، ط . الشركة التونسية لفنون الرسم ، تونس ، ١٩٧٥م ، وتحقيق محمد شامة الذي عنون له بـ " بين الإسلام والمسيحية " ، ط . مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٩م .
- نَفَس الصَّبَاح في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه . تحقيق محمد عزالدين المعيار الإدريسي ، ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .
- ابن أبي الخصال : أبو عبد الله محمد بن مسعود (ت ٥٤٠هـ / ١١٤٦م) .
- رسائل ابن أبي الخصال ، تحقيق محمد رضوان الداية ، ط . الأولى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .
- ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) .
- الإحاطة في أخبار غرناطة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، م ١ : ط . الثانية ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ، م ٢ : ط . الأولى ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م ، م ٣ : ط . الأولى ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ، م ٤ : ط . الأولى ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٦م ، ونصوص جديدة لم تنشر ، تحقيق عبد السلام شقور ، ط . مؤسسة التغليف والطباعة والنشر ، تطوان ، ١٩٨٨م .

- أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام . ق ٢ "تاريخ إسبانيا الإسلامية" ، نشر إ . ليفي بروفنسال ، ط . الثانية ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٦م ق ٣ "تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط" ، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ، ط . دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤م .

- شرح رقم الحلل في نظم الدول ، تحقيق عدنان درويش ، ط . وزارة الثقافة السورية ، ١٩٩٠م .

- اللوحة البدوية في الدولة النصرية ، ط . الثالثة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

ابن خلدون : أبوزيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) .

- [العبر [☆]] ديوان المبتدأ والخبر وأيام العرب [والعجم [☆]] والبربر ومن عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر ، نشر خليل شحادة ، ط . دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

ابن خلدون : أبو زكريا يحيى بن محمد (ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م) .

- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، ط . المكتبة الوطنية الجزائرية ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

ابن خلكان : أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢هـ) .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

☆ كلمة " العبر " و " العجم " سقطتا من العنوان في هذه الطبعة مع أنهما من ضمن العنوان الذي جاءت تسميته على لسان ابن خلدون نفسه في صدر الكتاب وفي الطبعة نفسها .

ابن خليل : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (؟) .

- اختصار القُدَح المَعْلَى في التاريخ المَحَلَّى لابن سعيد ، تحقيق إبراهيم

الإبياري ، ط . الثانية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

ابن خير : أبو بكر محمد بن خير الأموي (ت ٥٧٥هـ / ١١٧٩م) .

- فهرسة مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم

وأنواع المعارف، نشر فرانسيسكو كوديرا ، ط . الثانية، دار الآفاق الجديدة،

بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

الداودي : محمد بن علي بن أحمد (ت ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) .

- طبقات المفسرين ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣هـ /

١٩٨٣م .

ابن دحية : أبو الخطاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م) .

- المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الإبياري و حامد عبد

المجيد و أحمد أحمد بدوي ، ط . القاهرة ، ١٩٩٣م .

ابن أبي دينار : محمد بن القاسم الرعيني القيرواني (كان حياً سنة ١٠٩٢هـ / ١٦٨١م) .

- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، ط . الثالثة ، دار السيرة ، بيروت ،

١٩٩٣م .

الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) .

- تذكرة الحفاظ ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .

- سير أعلام النبلاء ، حقق بعضه وأشرف على تحقيق بعضه الآخر شعيب

الأرنؤوط، ط . الثامنة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

- العبر في خبر من غبر ، تحقيق أبو المهاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول،

ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

ابن رَزَيْن التَّحِيبي: أبو الحسن علي بن محمد (عاش في القرن السابع الهجري/الثالث

عشر الميلادي)

- فضالة الخوان في طبقات الطعام والألوان ، تحقيق محمد بن شقرون ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٤ م .
- ابن رسول : الأشرف عمر بن يوسف (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦ م) .
- طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ، تحقيق سترستين ، ط . الثانية ، دار الكلمة ، صنعاء ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥ م .
- الرُّشاطي : أبو محمد عبد الله بن علي (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧ م) .
- اقتباس الأنوار ، نشر وحقق ما يخص الأندلس منه في كتاب تحت عنوان " الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار الأنوار " إيميليو مولينا وخاينيتو بوسك بيلا ، ط . المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربي ، مدريد ، ١٩٩٠ م .
- ابن رشد الجد : أبو الوليد محمد بن أحمد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦ م) .
- البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة ، تحقيق محمد حجي ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .
- الجامع من المقدمات . تحقيق المختار بن الطاهر التليلي ، ط . الأولى ، دار الفرقان ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .
- فتاوى ابن رشد . تحقيق المختار بن الطاهر التليلي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م ، وتحقيق محمد الحبيب التيجكاني بعنوان " مسائل أبي الوليد بن رشد " ، ط . الثانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣ م .
- ابن رشد الحفيد : أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد " الجد " (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨ م) .
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ط . السادسة ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م .

- تهافت التهافت ، تحقيق محمد العريبي ، ط . الأولى ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ١٩٩٣ م .

- رسائل ابن رشد الطبية ، تحقيق جورج قنواطي وسعيد زايد ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧ م .

- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، ط . الثانية ، دار العلم للجميع ، بيروت ، ١٩٣٥ م .

- الكشف عن مناهج الأدلة ، ط . الثانية ، دار العلم للجميع ، بيروت ، ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٥ م .

الرعييني : أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م) .

- برنامج شيوخ الرعييني ، تحقيق إبراهيم شبوح ، ط . مديرية إحياء التراث القديم ، دمشق ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م .

الزبيدي : محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى (ت ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ م) .

- تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق علي شيرى ، ط . دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٤ م .

ابن الزبير : أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (ت ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م) .

- صلاة الصلوة ، تحقيق إ . ليفي بروفنسال ، ط . مكتبة خياط ، بيروت ، وتحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب ، ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، القسم الثالث ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م . والقسم الرابع ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م . والقسم الخامس ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .

الزجالي : أبو يحيى عبيد الله بن أحمد (ت ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م) .

- أمثال العوام في الأندلس ، دراسة وتحقيق محمد بن شريفة ، ط . مطبعة محمد الخامس ، فاس ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبد الله (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م) .

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ط . دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢ م .

- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية . ط . دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢ .

الزركشي : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (كان موجوداً ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م) .

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، ط . الثانية ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٦٦ م .

ابن أبي زمنين : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م) .

- قدوة الغازي ، تحقيق عائشة السليمانى ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٩ م .

ابن زهر : أبو مروان عبد الملك بن زهر الأيادي (ت ٥٥٧هـ / ١١٦٢م) .

- التيسير في المداواة والتدبير ، تحقيق ميشل الخوري ، ط . الأولى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م .

الزهري : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت في أواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .

- كتاب الجغرافية[☆] ، تحقيق محمد حاج صادق ، ط . مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة .

السبكي : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م) .

- طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي ، ط . دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .

السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) .

☆ بالعين المهملة ، ومعناها " خارطة " .

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق فرانز روزنثال ، ترجمة صالح العلي ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

السراج : محمد بن محمد الأندلسي (ت ١١٤٩هـ / ١٧٣٦م) .

- الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة . ط .

الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٥م .

السرقسطي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مطروح (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) .

- روضة المحاسن وعمدة المحاسن ، تحقيق منجد مصطفى بهجت ، ط .

المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .

ابن سعيد : أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) .

- الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربي ، ط . المكتب التجاري ، بيروت ،

١٩٨٠م .

- رايات المبرزين ووغايات المميزين ، تحقيق محمد رضوان الدايدة ، ط .

الأولى ، دار طلاس ، دمشق ، ١٩٨٧م .

- الفصون الياصرة في محاسن المائة السابعة ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، ط .

الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

- المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، ط . الثالثة ، دار

المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

- المقتطف من أزاهير الطرف ، تحقيق سيد حنفي حسنين ، ط . الهيئة

المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

السقطي : أبو عبد الله محمد بن أبي محمد (من أهل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي)

- في آداب الحسبة ، تحقيق حسن الزين ، ط . دار الفكر الحديث ، بيروت ،

١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

السمعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) .

الأنساب . تحقيق عبد الله عمر البارودي . ط . الأولى ، دار الجنان ، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

ابن سهل : أبو الأصبع عيسى بن سهل الأسدي (٤٨٦هـ / ١٠٩٣م) .

- ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس " مستخرجة من الأحكام الكبرى " ، تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف ، ط . الأولى ، المركز العربي الدولي للإعلام ، القاهرة ، ١٩٨١م .

- وثائق في أحكام أهل الذمة " مستخرجة من الأحكام الكبرى " . تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف ، ط . المركز العربي الدولي للإعلام ، ١٩٨٠م .

السُّهَيْلي : أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن أبي محمد (ت ٥٨١هـ / ١١٨٥م) .

- الرُّوضُ الأَنْفُ في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، ط . الأولى ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . ط . المكتبة العصرية ، بيروت .

- طبقات المفسرين ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

الشاطبي : أبو إسحاق إبراهيم بن موسى (ت ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م) .

- الاعتصام . تحقيق سليم عيد الهلالي . ط . الأولى ، دار ابن عفان ، الخير ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

الشَّريشي : أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن (ت ٦١٩هـ / ١٢٢٢م) .

- شرح مقامات الحريري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط . المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

ابن الشماخ : أبو عبد الله محمد بن أحمد (كان حياً سنة ٨٦١هـ / ١٤٥٧م) .

- الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر المعموري، ط . الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٨٤ م .
- ابن صاحب الصلاة : أبو مروان عبد الملك بن محمد (ت أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .
- المن بالإمامة "تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين" . تحقيق عبد الهادي التازي ، ط : الثالثة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٧ م .
- الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣ م) .
- الوافي بالوفيات . تحقيق مجموعة من المحققين ، ط . دار النشر فرانز شتاينز بفيسبادن ١٤١١هـ / ١٩٩١ م .
- صفوان بن إدريس : أبو بحر التجيبى المرسى (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠٢ م) .
- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر ، نشر عبد القادر محداد ، ط . دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨٠ م .
- الضبي : أبو جعفر أحمد بن يحيى (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٢ م) .
- بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس ، ط . دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ م .
- الطُرطُوشي : أبو بكر محمد بن الوليد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦ م) .
- الحوادث والبدع ، تحقيق عبد المجيد تركي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م .
- سراج الملوك ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ، ط . الأولى ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م .
- عبد الحق الإشبيلي : أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن (ت ٥٨١هـ / ١١٨٥ م) .
- الأحكام الشرعية الصغرى ، تحقيق أم محمد بنت أحمد الهليس ، ط . الأولى ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣ م .

- الصلاة والتهجد ، تحقيق عادل أبو المعاطي ، ط . الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .
- ابن عبد الغفور الكلاعي : أبو القاسم محمد بن عبد الغفور (من أهل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .
- إحكام صناعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس ، تحقيق محمد رضوان الداية . ط . الثانية ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- ابن عبد الملك المراكشي : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك (ت ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م) .
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دار الثقافة ، بيروت ، السفر الرابع ، د . ت . ، السفر الخامس ، ١٩٦٥م ، السفر السادس ، ط . الأولى ١٩٧٣م . وتحقيق محمد بن شريفة ، السفر الأول ، ط . دار الثقافة ، د . ت . السفر الثامن ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، ١٩٨٤م .
- ابن عبدون : محمد بن أحمد التجيبي (من أهل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .
- رسالة في القضاء والحسبة ، نشرها إ . ليفي بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، ط . المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م .
- ابن عذارى : أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد ٧١٢هـ / ١٣١٢م) .
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج ٤ ، تحقيق إحسان عباس ، ط . الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣م ، " قسم الموحدين " ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ودار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .

ابن العربي ☆ :

- أحكام القرآن ، ط . دار المعرفة ، بيروت .
- رسائل أبي بكر بن العربي ، تحقيق عصمت عبد اللطيف دندش (ملحقة بكتاب دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا للمحققة ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) .
- عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي ، ط . دار أم القرى للطباعة والنشر ، القاهرة .
- العواصم من القواصم . تحقيق عمار طالي ، ط . الأولى ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م . وتحقيق حب الدين الخطيب ، ط . الخامسة ، دار المكتبة السلفية القاهرة ، ١٣٩٩هـ .
- قانون التأويل ، تحقيق محمد السليمانى ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٠م .
- القبس في شرح موطأ مالك بن أنس ، تحقيق محمد عبد الله ولد كريم ، ط . الأولى دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٢م .
- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم ، تحقيق عبد الكبير العلوي المدغري ، ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ابن عربي : أبو بكر محمد بن علي الحائمي الصوفي (ت ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م) .
- الفتوحات المكية . تحقيق عثمان يحيى ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- عريب بن سعد القرطبي (ت ٣٦٩هـ / ٩٧٩م) .
- الأنواء ، نشر ر . دوزي ، ط . ليدن ، بريل ، ١٩٦١م .
- ابن العريف : أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٥٣٦هـ / ١١٤١م) .
- مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، تحقيق عصمت عبد اللطيف دندش ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٣م .

العزّبي : أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م) وابنه أبو القاسم محمد (ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٩م) .

- الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، نشر مقدمة هذا الكتاب فرناندو دي لاجرانخا في مجلة Al Andalus الإسبانية ، عدد ٣٤ ، سنة ١٩٦٩م .

ابن عطية : أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر غالب (ت ٥٤١هـ / ١١٤٧م) .

- فهرس ابن عطية ، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٣م .

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق المجلس العلمي بفاس وغيره ، ط . مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

العماد الأصفهاني : أبو عبد الله محمد بن محمد (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) .

- خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، ط . دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

- الفتح القسي في الفتح القدسي ، ط . الأولى ، المطبعة الخيرية بمصر ، ١٣٢٢م .

ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م) .

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط . دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

ابن العمراني : محمد بن علي (ت في حدود ٥٨٠هـ / ١١٨٤م) .

- الأنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي ، ط . الثانية ، دار العلوم ، الرياض ١٩٨٢م .

عياض : القاضي أبو الفضل عياض بن موسى (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م) .

- الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط . الثانية ، دار التراث ، القاهرة ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي وآخرين ، ط . الثانية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، تحقيق محمد أمين قره علي وآخرين ، ط . الثانية ، دار الفيحاء ، عمّان ، الأردن ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .
- الغنية " فهرست شيوخ القاضي عياض " ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
- مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام ، بالاشتراك مع ولده محمد ، تحقيق ، محمد بن شريفة ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٠م .
- ابن عياض : محمد بن القاضي عياض (ت ٥٧٢هـ / ١١٧٦م) .
- التعريف بالقاضي عياض ، تحقيق محمد بن شريفة ، ط . الثانية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- ابن غازي : محمد بن أحمد بن محمد (ت ٩١٩هـ / ١٥١٣م) .
- الروض المتهون في أخبار مكناسة الزيتون ، تحقيق عبد الوهاب منصور ، ط . الثانية ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ابن غالب : محمد بن أيوب (من أهل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .
- فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ، (قطعة من هذا الكتاب) ، تحقيق لطفي عبد البديع ، ط . مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
- الغبريني : أبو العباس أحمد بن أحمد (ت ٧١٤هـ / ١٣١٥م) .
- عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة بيجاية ، تحقيق عادل نويهض ، ط . الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٩م .
- الغرناطي : الشريف محمد بن أحمد بن محمد (ت ٧٦٠هـ / ١٣٥٩م) .
- رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة ، ط . مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٤٤م .
- أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) .
- تقويم البلدان ، نشر دينود وماك كوكين ديسلان ، ط . الأولى ، باريس ، ١٨٤٠م .
- ابن فرحون : أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م) .
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق محمد الأحدي

أبو النور ، ط . دار التراث ، القاهرة .

ابن القاضي : أبو العباس أحمد بن محمد (ت ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م) .

- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، ط . دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٣م .

القرافي : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) .

- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة ، تحقيق بكر زكي عوض ، ط . الثانية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

القرطبي : ☆ :

- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، تحقيق أحمد حجازي السقا ، ط . دار التراث العربي ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

القرطبي : أبو العباس أحمد بن عمر (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) .

- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، تحقيق محي الدين مستو يوسف بديوي ، وأحمد السيد ومحمود بزال ، ط . الأولى ، دار ابن كثير ، دمشق - بيروت ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت ٦٧١هـ / ١٢٧٣م) .

- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، ط . الثانية ، دار الريان ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

- الجامع لأحكام القرآن ، ط . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

ابن قزمان : أبو بكر بن عبد الملك (ت ٥٥٤هـ / ١١٥٩م) .

✽ ناشر كتاب " الإعلام ... " نسبه إلى القرطبي المفسر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت ٦٧١هـ / ١٢٧٣م) ، وفي الفصل الرابع من دراستنا هذه استبعدنا أن يكون هذا هو مؤلف الكتاب ، ثم ترجح لدينا أن مؤلفه هو أبو العباس أحمد بن عمر (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) شيخ القرطبي المفسر .

- ديوان ابن قزمان ، تحقيق ف . كورينطي ، ط . المعهد الإسباني العربي للثقافة ، مدريد ، ١٩٨٠ م .

القشتالي : أبو العباس أحمد بن إبراهيم (من أهل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) .

- تحفة المغرب ببلاد المغرب ، تحقيق فرناندو دي لاجرانخا ، ط . المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمadrid ، ١٩٧٤ م .

ابن القطان : أبو محمد حسن بن علي (ت . في حدود منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) .

- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، تحقيق محمود علي مكي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٠ م .

القفطي : أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٢٤هـ / ١٢٢٦ م) .

- إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط . الأولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م .

القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤٨١ م) .

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .

- قلاند الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق إبراهيم الإياري ، ط . الثانية ، دار الكتب الإسلامية ، بيروت ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م .

ابن قنفذ القسنطيني : أبو العباس أحمد بن حسن (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦هـ) .

- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، ط . الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٨ م .

- الوفيات ، تحقيق عادل نويهض ، ط . الثالثة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م .

ابن قيم الجوزية : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠ م) .
الفروسية ، تحقيق مشهور بن حسن بن سلمان ، ط . الأولى ، دار الأندلس ،

حائل ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

الكتبي : محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) .

- فوات الوفيات ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤ م .

ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك (عاش في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .

- تاريخ الأندلس (قطعة من كتاب الإكتفاء في أخبار الخلفاء) ، تحقيق

أحمد مختار العبادي ، ط . معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١م .

الكلاعي : أبو الربيع سليمان بن موسى (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) :

- الإكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تحقيق مصطفى عبد

الواحد ، ط . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

مجهول :

- الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ، تحقيق

سهيل زكار ط . مكتبة دار الملاح ، دمشق ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

مجهول :

- بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيما كان بسبته في الدولة المرينية من مدرس

وأستاذ وطبيب ، تحقيق عبد الوهاب منصور ، ط . الملكية ، الرباط ،

١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

مجهول : (من أهل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) .

- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر

زمامة ، ط . الأولى ، دار الرشاد الحديثة ، الرباط ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

مجهول : (عاش في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) .

- ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، ط . المجلس الأعلى للأبحاث

العلمية ، مدريد ، ١٩٨٣م .

مجهول :

- رسائل أندلسية ، تحقيق فوزي سعد عيسى ، ط . الأولى ، منشأة المعارف

بالإسكندرية ، ١٩٨٩م .

مجهول :

- رسائل ومقدمات أندلسية ، تحقيق فوزي سعيد عيسى ، ط . منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٨٩ م .

مجهول :

- نص في أخبار دول ملوك الطوائف ملحق بـ (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري) جـ ٣ ، ص ٢٨٧-٣١٦ ، ط . الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

مجهول :

- نبذ تأريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى (منتخبة من كتاب مفاخر البربر) ، نشر إ . ليفي بروفنسال ، ط . المطبعة الجديدة ، الرباط ، ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٤ م .

المراكشي : محي الدين عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م) .

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ط . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة .

ابن المستوفى : شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) .

- نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأمائل (تاريخ إربل) ، تحقيق سامي الصقار ، ط . دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ م .

ابن مغاور الشاطبي : أبو بكر عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م) .

- نور الكمائم وسجع الحمام ، نشره محمد بن شريفة ضمن كتابه " ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره " ، ط . الأولى ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .

مقديش : محمود بن سعيد (ت حوالي سنة ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م) .

- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨ م .

المقرى : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) .

- أزهار الرياض في أخبار عياض ، ط . صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة ، الرباط ، ١٩٧٨ م .

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

- المنذري : زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) .
 - التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق بشار عواد معروف ، ط . الثانية ،
 مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
 ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) .
 - مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط .
 الأولى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠١هـ / ١٩٩٠م .
 النباهي : أبو الحسن علي بن عبد الله (كان موجوداً سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م) .
 - المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا "تاريخ قضاة الأندلس" ، ط .
 دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
 النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٣هـ / ١٣٧٢م) .
 - نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق عدد من المحققين ، ط . الهيئة
 المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
 ابن هشام اللخمي : أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٥٧٧هـ / ١١٨١م) .
 - المدخل إلى تقويم وتعليم البيان ، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان ، ط .
 الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .
 الوادي آشي : أبو جعفر أحمد بن علي البلوي (ت ٩٣٨هـ / ١٥٣٢م) .
 - ثبّت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي ، تحقيق عبد الله
 العمران ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
 الوادي آشي : محمد بن جابر (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) .
 - برنامج الوادي آشي ، تحقيق محمد محفوظ ، ط . الأولى ، دار الغرب
 الإسلامي ، أثينا ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
 الورداني : مصطفى بن محمد (يرجح أنه من علماء الدولة العثمانية الذين عاشوا في
 القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي) .
 - النهي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار ،
 تحقيق طه جابر فياض العلواني ، ط . دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٣م .
 الونشريسي : أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٨م) .
 - أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر
 وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر ، تحقيق حسين مؤنس ، ط . مكتبة

الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

- المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس

والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، ط . دار الغرب

الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

ياقوت : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) .

- معجم الأدباء ، ط . دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

- معجم البلدان ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

ثانيا : المراجع العربية الحديثة

أحمد : علي (دكتور) .

- الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية

القرن التاسع الهجري ، ط . الأولى ، دار طلاس ، دمشق ، ١٩٨٩ م .

- تاريخ المغرب العربي الإسلامي ، منشورات جامعة دمشق ، ١٩٩١ م -

١٩٩٢ م .

أرسلان : شكيب .

- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ط . دار مكتبة الحياة ،

بيروت .

أعراب : سعيد .

- مع القاضي أبي بكر بن العربي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ،

بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .

الأهواني : عبد العزيز (دكتور) .

- الزجل في الأندلس ، ط . معهد الدراسات العربية العالمية ، ١٩٥٧ م .

البارودي : رضوان (دكتور) .

- أضواء على المسيحية والمسيحيين في المغرب في العصر الإسلامي . ط .

دار الفكر العربي ، ١٩٩٠ م .

باشا : علي إسلام .

- إسبانيا والأندلس ، ط . مطبعة مصر ، القاهرة .

باشا : محمد مختار .

- التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية

والقبطية ، تحقيق محمد عمارة ، ط . الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات

والنشر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م .

بدر : أحمد (دكتور) .

- تاريخ الأندلس ، ط . مكتبة أطلس ، دمشق ، ١٩٨٣ م .

البدرى : عبد العزيز .

- الإسلام بين العلماء والحكام ، ط . الثانية ، دار القلم ، الكويت ،
١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م

بدوي : عبد الرحمن (دكتور) .

- دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي . ط . الثانية ، دار القلم ، بيروت ،
١٩٧٩م

- موسوعة المستشرقين ، ط . الثانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ،
١٩٨٩م .

بروفنسال : إ . ليفي .

- مجموع رسائل موحدية ، ط . المطبعة الاقتصادية ، الرباط ، ١٩٤١م .

البغدادي : إسماعيل باشا .

- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، ط . دار العلوم الحديثة ،
بيروت ، ١٩٥٥م .

بهجت : منجد مصطفى (دكتور) .

- الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف
والمرابطين ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

بوتشيش : إبراهيم القادري (دكتور) .

- المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ط . الأولى ، دار الطليعة ، بيروت ،
١٩٩٣م .

التركي : عبد المجيد (دكتور) .

- قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي ، ط . الأولى ، دار الغرب
الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .

التليلي : المختار (دكتور) .

- ابن رشد وكتابه المقدمات ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، ١٩٨٨م .

الحجي : عبد الرحمن علي (دكتور) .

- التاريخ الأندلسي ، ط . الثانية ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م .

الحرثاني : نهلة عبد الكريم .

- معجم الشعراء والكتاب والمرسلين في عصر المرابطين ، ط . الأولى ،
دار البشير ، عمان ، الأردن ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

حركات : إبراهيم .

- المغرب عبر التاريخ، ط . الأولى ، دار السلمي ، الدار البيضاء ،
١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م

- النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ، ط . مكتبة الوحدة العربية ،
الدار البيضاء .

حسن : حسن علي (دكتور) .

- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس - عصر المرابطين والموحدين ،
ط . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

الحسيسن : عبد الهادي أحمد .

- مظاهر النهضة الحديثة في عهد يعقوب المنصور الموحيدي ، ط . مطابع
الشويخ ، تطوان ، ١٩٨٢م .

حسين : حمدي عبد المنعم محمد (دكتور) .

- تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، دولة علي بن يوسف
المرابطي . ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٦م .

حسين : كريم عجيل .

- الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ،
بيروت ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

حسين : محمد الخضر .

+ علماء الإسلام في الأندلس ، ط . المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٧هـ .

الخطابي : محمد العربي .

- الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ، ط . الأولى ، دار الغرب
الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م .

الخطيب : عمر عودة (دكتور) .

- لمحات في الثقافة الإسلامية ، ط . الثالثة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- خلاف : محمد عبد الوهاب (دكتور) .
- تاريخ القضاء في الأندلس ، ط . الأولى ، المطبعة العربية الحديثة ، القاهرة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .
- خلف الله : ابتسام مرعي (دكتورة) .
- العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي ، ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ،
- أبو خليل : شوقي .
- الأرك ، ط . دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- العقاب ، ط . دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- دندش : عصمت عبد اللطيف (دكتورة) .
- الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- الرقب : شفيق محمد .
- شعر الجهاد في عصر الموحدين ، ط . مكتبة الأقصى ، عمان ، الأردن ، ١٩٨٤م .
- رمضان : عبد المحسن طه (دكتور) .
- تاريخ حركة المقاومة الإسبانية ضد المسلمين في الأندلس ، ط . مكتبة سعيد رأفت ، القاهرة ، ١٩٨٧م .
- أبو رميلة : هشام (دكتور) .
- علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس ، ط . الأولى ، دار الفرقان ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- زعرور : إبراهيم (دكتور) وعلي أحمد (دكتور) .
- معجم أطباء المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى ، ط . مطابع الجمهورية ، دمشق ، ١٩٩٤م .

- زغروت : محمد (دكتور) .
- معركة الأرك الموحدية ، ط . دار المعراج للنشر والتوزيع .
- زقزوق : محمود حمدي (دكتور) .
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ط . الأولى ، كتاب الأمة ، قطر صفر ، ١٤٠٤ هـ .
- زلط : القصبي محمود (دكتور) .
- القرطبي ومنهجه في التفسير ، ط . دار الأنصار ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- الزيات : عبد الله .
- رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ط . الأولى ، جامعة قاريونس ، بنغازي ، ليبيا ١٩٩٠ م .
- سالم : سحر السيد عبد العزيز (دكتورة) .
- بنو خطاب بن عبد الجبار التدميري ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٩ م .
- تاريخ بطليوس الإسلامية ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .
- سالم : السيد عبد العزيز (دكتور) .
- تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ط . دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٩ م .
- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .
- المساجد والقصور في الأندلس ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٦ م .
- سالم : السيد عبد العزيز (دكتور) وأحمد مختار العبادي (دكتور) .
- تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ط . النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٩ م .
- السامرائي : خليل إبراهيم (دكتور) .

- علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالذول الإسلامية ، ط . دار الحرية بغداد ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- السامرائي : خليل إبراهيم (دكتور) وعبد الواحد ذنون طه (دكتور) وناطق صالح مطلوب (دكتور) .
- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، ط . جامعة الموصل .
- تاريخ المغرب العربي ، ط . جامعة الموصل ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- سعد : الطبلاوي محمود (دكتور) .
- موقف ابن تيمية من فلسفة ابن رشد ، ط . الأولى ، مطبعة الاستقامة ، مصر ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .
- السعدي : عبد الرحمن بن ناصر .
- جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين ، ط . دار ابن القيم ، الدمام ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .
- السعيد : محمد مجيد (دكتور) .
- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، ط . دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠م .
- سلمان : مشهور حسن .
- الإمام القرطبي ، ط . الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
- سيسالم : عصام سالم (دكتور) .
- جزر الأندلس المنسية ، ط . الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٤م .
- الشرفي : عبد المجيد (دكتور) .
- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر ، ط . الدار التونسية ، تونس ، ١٩٨٦م .
- ابن شريفة : محمد (دكتور) .
- أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ، ط . المركز الجامعي للبحث العلمي بجامعة محمد الخامس ، ١٩٦٦م .

شعيب : عبد الواحد .

- دور المرابطين في الجهاد بالأندلس ، ط . الأولى ، جمعية الدعوة الإسلامية

العالمية ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٩٠ م .

شعيرة : محمد عبد الهادي (دكتور) .

- المرابطون " تاريخهم السياسي " ، ط . الأولى ، مكتبة القاهرة الحديثة ،

١٩٦٩ م .

شقور : عبد السلام .

- القاضي عياض الأديب ، ط . الأولى ، دار الفكر المغربي ، ١٩٨٣ م .

الشيال : جمال الدين (دكتور) .

- التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوربي في عصر النهضة ، ط .

دار الثقافة ، بيروت .

الطالي : عمار .

- آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ، ط . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،

الجزائر ، ١٩٧٤ م .

الطيار : رضا عبد الجليل .

- الدراسات اللغوية في الأندلس ، ط . دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ م .

الطبي : أمين توفيق (دكتور) .

- دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، ط . الدار العربية للكتاب ،

ليبيا - تونس ، ١٩٨٤ م .

عاشور : عبد الفتاح سعيد (دكتور) .

- أوربا العصور الوسطى ، ط . السابعة ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٧٨ م .

العبادي : أحمد مختار (دكتور) .

- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ،

الإسكندرية .

- الصقالبة في إسبانيا ، ط . المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ،

١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م .

- في تاريخ المغرب والأندلس ، ط . مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية . عباس : إحسان (دكتور) .
- تاريخ الأدب الأندلسي " عصر الطوائف والمرابطين " ، ط . الخامسة ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٧٨ م . عبد البديع : لطفي (دكتور) .
- الإسلام في إسبانيا ، ط . الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة . عبد الحليم : رجب محمد (دكتور) .
- العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف ، ط . دار الكتب الإسلامية ، بيروت . عبد الحميد : سعد زغلول (دكتور) .
- محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس ، ط . جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٣ م . عبد المجيد : عبد العزيز .
- ابن الأبار حياته وكتبه ، ط . المطبعة الحسنية ، تطوان ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤ م . ابن العربي : الصديق .
- كتاب المغرب ، ط . الثالثة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م . العريبي : الباز (دكتور) .
- الدولة البيزنطية ، ط . دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢ م . العقاد : عباس محمود .
- ابن رشد ، ضمن كتاب المجموعة الكاملة جـ ٩ ، ط . الأولى ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٨ م . العقيقي : نجيب .
- المستشرقون . ط . الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ م . العكش : إبراهيم .

- التربية والتعليم في الأندلس ، ط . الأولى ، دار الفيحاء ، دار عمار ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
- علام : عبد الله (دكتور) .
- الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، ط . دار المعارف بمصر ، ١٩٧١م .
- العلوي : جمال الدين .
- المتن الرشدي ، ط . الأولى ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٦م .
- عميرة : عبد الرحمن (دكتور) .
- الفلسفة الإسلامية بين التقليد والابتكار ، ط . مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة ، ١٩٧٥م .
- عنان : محمد عبد الله .
- الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، ط . الثانية ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م .
- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، ط . الثانية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .
- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ط . الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، ط . الثالثة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .
- عيسى : فوزي سعد (دكتور) .
- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ط . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩١م .
- الهجاء في الأدب الأندلسي ، ط . دار المعارف ، القاهرة .
- عيسى : محمد عبد الحميد (دكتور) .
- تاريخ التعليم في الأندلس ، ط . الأولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

الفناني : مراجع عقيلة (دكتور) .

- سقوط دولة الموحدين ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ،
١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .

- قيام دولة الموحدين ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ،
١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .

فايد : عبد الوهاب عبد الوهاب (دكتور) .

- منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم ، ط . الهيئة العامة لشؤون
المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

فخري : ماجد .

- ابن رشد فيلسوف قرطبة ، ط . الثالثة ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٩٢م .
الفرت : يوسف عبد الرحمن .

- القرطبي المفسر ، ط . الأولى ، دار القلم ، الكويت ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
فرحات : يوسف شكري (دكتور) .

- غرناطة في ظل بني الأحمر ، ط . الأولى ، دار الجيل ، بيروت ،
١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .

أبو الفضل : محمد أحمد (دكتور) .

- دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس ، ط . دار المعرفة الجامعية ،
الإسكندرية ، ١٩٩٦م .

- شرق الأندلس في العصر الإسلامي (٥١٥-٦٨٦هـ / ١١٢١-
١٢٨٧م) ، ط . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٦م .

القاسم : خالد عبد الله .

- الحوار مع أهل الكتاب ، ط . الأولى ، دار المسلم ، الرياض ، ١٤١٤هـ .

القبلي : محمد .

- مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط ، ط . الأولى ، دار
توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٧م .

قجة : محمد .

- معركة العقاب ، ط . الأولى ، دار الحوار ، اللاذقية ، ١٩٨٤ م .

القحطاني : محمد بن سعيد .

- الولاء والبراء في الإسلام ، ط . الثانية ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٠٤ هـ .

القرضاوي : يوسف (دكتور) .

- غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، ط . الثانية ، مؤسسة الرسالة ،

١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م .

قطب : سيد .

- في ظلال القرآن . ط . التاسعة ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ /

١٩٨٠ م .

قطب : محمد .

- هل نحن مسلمون ، ط . دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ،

١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

كحيلة : عبادة عبد الرحمن (دكتور) .

- تاريخ النصارى في الأندلس . ط . الأولى ، المطبعة الإسلامية الحديثة ،

١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

كنون : عبد الله .

- أدب الفقهاء ، ط . دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٨ م .

- النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ط . الثالثة ، دار الكتاب اللبناني ،

بيروت ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

محمود : حسن أحمد (دكتور) .

- قيام دولة المرابطين ، ط . دار الفكر العربي ، القاهرة .

آل محمود : عبد الله بن زيد .

- الجهاد المشروع في الإسلام ، ط . الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،

١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

مخلوف : محمد بن محمد .

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . ط . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- أبو مصطفى : كمال (دكتور) .
- بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٣ م .
- المطوى : محمد العروسي .
- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٢ م .
- السلطنة الحفصية "تاريخها السياسي ودورها السياسي في المغرب الإسلامي" ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
- المغراوي : محمد بن عبد الرحمن .
- العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات ، ق ٥ ، ط . الأولى ، دار المنار ، الرياض ، ١٤١٤ هـ .
- مكي : الطاهر أحمد (دكتور) .
- دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، ط . الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .
- ملحمة السيد ، ط . مطابع دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩١ م .
- المنوني : محمد .
- حضارة الموحدين ، ط . الأولى ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٩ م .
- موسى : عز الدين أحمد (دكتور) .
- دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ط . الأولى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
- النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ، ط . الأولى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

- مؤنس : حسين (دكتور) .
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ط . الثانية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- تاريخ المغرب وحضارته ، ط . الأولى ، العصر الحديث للنشر ، بيروت ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
- الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين ، ط . مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .
- رحلة الأندلس ، ط . الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣م .
- شيوخ العصر في الأندلس ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦م .
- فجر الأندلس ، ط . الثانية ، الدار السعودية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- الناصرى : أبو العباس أحمد بن خالد .
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر ومحمد الناصري ، ط . دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م .
- الناعوري : عيسى (دكتور) .
- في ربوع الأندلس ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا- تونس ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
- النشار : محمد محمود (دكتور) .
- تأسيس مملكة البرتغال ، ط . الأولى ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، القاهرة ، ١٩٩٥م .
- نصر الله : سعدون بن عباس (دكتور) .
- دولة المرابطين في المغرب والأندلس " عهد يوسف بن تاشفين " ، ط . الأولى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- هارون : عبد السلام .
- نواذر المخطوطات ، ط . الأولى ، دار الجليل ، بيروت ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .
- الهرامة : عبد الحميد .

- الأعمى التُّطيلي حياته وأدبه ، ط . الأولى ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ليبيا ، ١٩٨٣ م .
- الهرفي : سلامة محمد .
- دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، ط . المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- الهندي : رحمت الله .
- إظهار الحق ، تحقيق محمد أحمد ملكاوي ، ط . الثانية ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .
- هيكل : محمد خير (دكتور) .
- الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ، ط . الأولى ، دار البيارق ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .
- الوراكلي : حسن (دكتور) .
- ياقوتة الأندلس ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٤ م .

ثالثا : المراجع المنقولة إلى العربية

أحمد : منير الدين (دكتور) .

- تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري ، ترجمة وتلخيص وتعليق سامي الصقار ، ط . دار المريخ ، الرياض ، ١٩٨١ م .

أشباح : يوسف .

- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، ط . الثانية مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م .

باشا : ضيا .

- الأندلس الذهبية ، تعريب عبد الرحمن إرشيدات ، ط . الأولى ، وزارة الثقافة والإعلام ، عمان ، الأردن ، ١٩٨٩ م .

بالباس : ليوبولدو توريس .

- الفن المرابطي والموحدي ، ترجمة سيد غازي ، ط . دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ م .

برنشفيك : روبار .

- تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، ترجمة حمادى الساحلي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨ م .

بروفنسال : إ . ليفي .

- الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، ط . دار نهضة مصر ، القاهرة .

- حضارة العرب في الأندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ، ط . دار مكتبة الحياة ، بيروت .

بلانت : ريتشارد .

- النقود العربية والإسلامية ، تعريب بسام سروج وإبراهيم سروج ، ط . الأولى ، مكتبة السائح ، سوريا ، ١٩٩٤ م .

بول : ستانلي لين .

- العرب في إسبانيا ، تعريب علي الجارم ، ط . دار المعارف بمصر .

بيريس : هنري .

- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، ترجمة الطاهر أحمد مكّي ، ط .

الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

تورنو : روجي لي .

- حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، ترجمة

أمين الطيبي ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، ١٩٨٢م .

جوارفسكي : أليكسي .

- الإسلام والمسيحية ، ترجمة خلف محمد الجراد ، ط . عالم المعرفة ،

الكويت ، جمادي الآخرة ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

دوزي : رينهرت .

- المسلمون في الأندلس ، ترجمة حسن حبشي ، ط . الهيئة المصرية العامة

للكتاب ، ١٩٩٥م .

دي بوز .

- تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريّدة ، ط .

الخامسة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م .

دي كاستري : هنري .

- الإسلام خواطر وسوانح ، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ، ط . مطبعة

الشعب ، مصر ، ١٣٢٩هـ / ١٩١١م .

ريبيرا : خوليان .

- التزيية الإسلامية في الأندلس ، ترجمة الطاهر أحمد مكّي ، ط . دار

المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١م .

رينان : أرنست .

- ابن رشد والرشدية ، ترجمة عادل زعيتّر ، ط . دار إحياء الكتب العربية ،

القاهرة ، ١٩٥٧م .

سوذرن : ريتشارد .

- صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة رضوان السيد ، ط .
الأولى ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٤ م .

شاك : فون .

- الفن العربي في إسبانيا وصقلية ، ترجمة الطاهر أحمد مكى ، ط . الثانية ،
دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م .

غومس : إميليو غرسيه .

- الشعر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ط . الثالثة ، مكتبة النهضة
المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .

كاهين : كلود .

- الشرق والغرب في زمن الحروب الصليبية ، ترجمة أحمد الشيخ ، ط .
الأولى ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥ م .

كراتشكوفسكي . أغناطيوس يوليا نوفتش .

- تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ط .
الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

كيرنز : أيرل .

- المسيحية عبر العصور " تاريخ الكنيسة المسيحية " ، ترجمة عاطف سامي
برنابا ، ط . دار نوبار ، ١٩٩٢ م .

وات : مونتجمري .

- فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ترجمة حسين أحمد أمين ، ط .
الأولى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

رابعاً : الرسائل الجامعية غير المنشورة

بيومي : عبير زكريا سليمان .

- دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري/
الحادي عشر الميلادي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ،
١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

السحيباني : حمد بن صالح .

- النظم الحربية في دولة الموحدين بالمغرب والأندلس ، رسالة ماجستير ،
كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ،
١٤٠٢هـ .

العجلان : عبد الرحمن بن سليمان .

- الأندلس تحت حكم المرابطين ، رسالة ماجستير ، كلية العلوم الاجتماعية ،
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، ١٤٠٢هـ .

عياط : حامد كساب .

- أدب الجهاد في الأندلس في عصر المرابطين ، رسالة ماجستير ، كلية
الآداب ، الجامعة الأردنية ، ١٩٨٣م .

ابن محمد : عبد رب النبي .

- مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا والأندلس ، رسالة
ماجستير ، كلية الشريعة بمكة المكرمة ، ١٣٩٨هـ - ١٣٩٩هـ .

مسعد : سامية مصطفى محمد .

- الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عهد المرابطين
والموحدين (٤٨٤-٦٢٠هـ/١٠٩٢-١٢٢٣م) ، رسالة دكتوراه ،
كلية الآداب ، جامعة الرقازيق ، ١٩٨١م .

النجار : ليلي أحمد .

- المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي (دراسة تاريخية وحضارية)،
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ،
١٤٠٩هـ .

خامسا : الأبحاث والمقالات العربية

أعراب : سعيد .

- من الرسائل المرابطية : رسالتان لم تنشر بعد ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٤٥ ، جمادى الأولى ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

الإمام : رشاد (دكتور) .

- ابن الأبار وعصره في تونس ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٢ ، ذو القعدة ١٤٠٩هـ

البدراوي : محمد اليعقوبي .

- إحراق كتاب الإحياء في الغرب الإسلامي ، مجلة المناهل ، عدد ٩ ، السنة ٤ ، رجب ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

البرجالي : المهدي .

- أدب الجهاد في العدوتين : نموذج الجهاد المرابطي في العدو لابن أبي الخصال ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٥٩ ، محرم - صفر ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

بنسباع : مصطفى .

- ابن الحاج التجيبي القرطبي ومسائل بيعوه في معيار الونشريسي ، ندوة الأندلس ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، الجلسة (٦) ، بحث (٢)

بنميرة : عمر .

- جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس الإسلامية ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ١٤ ، محرم ، ١٤١٦هـ .

بوتشيش : إبراهيم القادري (دكتور) .

- المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ١١ ، رجب ١٤١٤هـ .

الحسيين : عبد الهادي .

- الحركة العلمية في العصر الموحد ، مجلة دار الحديث الحسنية ، عدد ٥ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .

زمامة : عبد القادر .

- كتاب روض الأنس ونزهة النفس لأبي البقاء الرندي ، مجلة معهد المخطوطات

العربية ، م ١٨ ، ج ١ ، ربيع الثاني ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

سالم : سحر السيد عبد العزيز (دكتورة) .

- من جديد حول وقعة الزلاقة الثانية ، ندوة الأندلس في كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

السباعي : فاضل .

- يوم الأرك ، مجلة المناهل ، السنة ٧ ، عدد ١٧ ، جمادى الأولى ، ١٤٠٠هـ .

السحياني : حمد بن صالح (دكتور) .

- الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، عدد ٦ ، محرم ، ١٤١٣هـ .

- جهود مفكري الأندلس لإصلاح الوضع السياسي في عصر ملوك الطوائف ، بحث غير منشور .

ابن شريفة : محمد (دكتور) .

- حول التسامح الديني وابن ميمون والموحدين ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ١٤ ، محرم ١٤١٦هـ .

- من أعلام التصوف بالأندلس في القرن السابع : ابن عبيد يس النفزي ، نشر في كتاب " في النهضة والتراكم " مجموعة بحوث ندوة تكريم محمد المنوني ، ط . الأولى ، دار بوتقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٦م .

شيخة : جمعة (دكتور) .

- ثورة الميورقيين بإفريقية وأثرها في توازن القوى بين الإسلام والنصرانية في المغرب والأندلس ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، تونس ، عدد ١١٧ - ١١٨ ، ١٩٨١م .

- القيمة الوثائقية لديوان ابن الأبار ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٢ ، ذو القعدة ، ١٤٠٩ هـ .

- من مظاهر الشعوبية في الأندلس ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٤ ، ذو القعدة ، ١٤١٠ هـ .

صادق : صبيح .

- ما كُتب عن ابن رشد في المراجع العربية الحديثة ، مجلة المورد ، م ٧ ، عدد ٢ ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

الطاهر : محمد .

- حول ابن أبي الخصال ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٦٦ ، محرم ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

طه : عبد الواحد ذنون (دكتور) .

- الدس الشعوبي بالأندلس وموقف العرب من مجابهته ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٤ ، ذو القعدة ، ١٤١٠ هـ .

العبادي : أحمد مختار (دكتور) .

- دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي ، نشر ضمن كتاب " بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية " ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ م .

- صور لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس ، مجلة البيّنة ، السنة الأولى ، عدد ٩ ، يناير ١٩٦٣ م .

عباس : إحسان (دكتور) .

- الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق ، مجلة الأبحاث ، السنة ١٦ ، ج ٢ ، حزيران ، ١٩٦٣ م .

- نوازل ابن رشد ، مجلة الأبحاث ، السنة ٢٢ ، ج ٣ - ٤ ، ١٩٦٩ م .

عبد الحليم : رجب محمد (دكتور) .

- الحركة الصليبية والمغرب الإسلامي في القرن الحادي عشر للميلاد " دور البابوية " ، ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية ، حصاد " ٣ " ، منشورات إتحاد المؤرخين العرب القاهرة ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

عبد الحميد : سعد زغلول (دكتور) .

- العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، م ٦ - ٧ ، ١٩٥٢م - ١٩٥٣م .

عفيفي : أبو العلا .

- أبو القاسم بن قسي وكتابه خلع النعلين ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١١م ، ١٩٥٧م .

عمران : محمود سعيد (دكتور) .

- دور الحركة الصليبية في تكوين مملكة البرتغال ، ندوة الأندلس في كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

قارة : حياة .

- رائية أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي البلسي ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٩٨ ، محرم ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

الكتاني : محمد إبراهيم .

- أبو عبد الله بن المناصف المجتهد المغربي ، مجلة الباحث ، السنة الأولى ، م ٢ ، ١٩٧٢م .

كلاس : فايضة .

- الجيش عند الموحدين ، مجلة دراسات تاريخية ، السنة ١٠ ، العدد ٣١ - ٣٢ ، ١٩٨٩م .

مخلص : عبد الله .

- كتاب ألف باء ، مجلة المقتبس ، م ٧ ، ج ٥ ، ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م .

مفتاح : محمد .

- مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي ، مجلة عالم الفكر ، م ١٢ ، ١٩٨١م .

مكي : محمود علي (دكتور) .

- وثائق جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، م٧-٨ ، ١٩٥٩ - ١٩٦٠ م .

مؤنس : حسين (دكتور) .

- السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، م٣ ، عدد ١ ، مايو ١٩٥٠ م .

- صورة الأندلس ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، م١٤ ، ١٩٦٠ م .

- نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، عدد ٣ ، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥ م .

الهراس : عبد السلام (دكتور) .

- شاعر وفيّ لوطنه ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٢ ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩ م .

الوافي : إبراهيم (دكتور) .

- التفسير وعلوم القرآن في الغرب الإسلامي من القرن الثاني إلى القرن الثامن الهجري ، ندوة الأندلس ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣ م جلسة (٢) ، بحث (١) .

الوراكلي : حسن (دكتور) .

- التراث الأندلسي وسؤال الوحدة ، ندوة الأندلس ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣ م ، جلسة (٢) ، بحث (٣) .

اليسوعي : بولس نويا .

- رسائل ابن العريف إلى أصحاب ثورة المريدين في الأندلس ، مجلة الأبحاث ، عدد ٢٧ ، ١٩٧٨ - ١٩٧٩ م .

اليعقوبي : الحسين .

- في الفكاهة والفكاهين ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٧ ، رجب ١٤١٢هـ .

سادسا : الأبحاث والمقالات المنقولة إلى العربية

بيدال : رامون مينيديث .

- إسبانيا تنقل العلم العربي إلى الغرب ، ترجمه مع أبحاث أخرى الطاهر أحمد مكى في كتاب " الأدب الأندلسي من منظور إسباني " ، ط . الأولى ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

دي إبلزا : ميكال .

- الرباط والروابط في الأسماء والآثار الإسبانية ، تعريب الحسين يعقوبي ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ١٣ ، شعبان ١٤١٥هـ .

رودنسون : مكسيم .

- الصورة الغربية والدراسات الغربية للإسلام ، نشر في (تراث الإسلام ق ١ ، تصنيف شاخت وبوزورث) ترجمة محمد زهير السمهوري ، عالم المعرفة ، الكويت ، شعبان - رمضان ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

ميراندا : أمبروسي ويسى .

- علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، مجلة تطوان ، عدد ٣ - ٤ ، عام ١٩٥٨ - ١٩٥٩م .

- وقعة أقليمش ومصرع الأمير ضون شانجة ، مجلة تطوان ، عدد ٢ ، عام ١٩٥٧م .

سابعاً : الأطللس ودور المعارف

- أطللس تاريخ الإسلام ، حسين مؤنس ، ط . الأولى ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- دائرة المعارف الإسلامية ، تعريب أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس ، ط . دار المعرفة ، بيروت .
- دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدي ، ط . الثالثة ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧١م .

ثامنا : المراجع والأبحاث الأجنبية

- Abdulghafour Ismail Rozi : The Social role of Scholars in Islamic Spain , ph . D., Boston University , 1983 .
- Antonio Ubieto : Introduccion a la Historia de Espana , Barcelona .
- Claudio Sanchez Albornoz : el Islam de Espana y el Occidente , Madrid , 1981 .
- Cristobal Cuevas : el Pensamiento del Islam , Madrid , 1972.
- Derk W. Lomax : la Reconquista , Barcelona, 1984 .
- Emilio Mitre : La Espana medieval , Madrid , 1979 .
- Fernando de la Granja : Fiestas cristianas en AL Andalus, Revista AL Andalus, vol . xxxiv , 1969.
- Milagras Espanoles en una obra polemica Musulmana, Revista AL Andalus , vol.xxxiii, 1968.
- Una polemica religiosa en Murcia en tiempos de Alfonso el sabio , Revista AL Andalus , vol . xxxi,1966
- Jesus Greus : Asi vivian en AL Andalus, Madrid, 1989.
- Jose Terrero : Historia de Espana , Barcelona , 1972 .
- Joseph Mccabe : The Splendour of Moorish Spain , London, 1935 .
- Montgomery Watt and Pierre Cachia : Ahistory of Islamic Spain , New York , 1967 .
- Reyna Pastor de Togneri : del Islam al Cristianismo , Barcelona , 1985 .

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
إيضاحات	٢٨
التمهيد	٢٩
الفصل الأول : العلماء المشاركون في الصراع مع النصارى ومنزلتهم العلمية والاجتماعية	٧٣-١٤٨
أولاً : مشاهير العلماء المشاركين في ميدان الصراع مع النصارى	
في عصر المرابطين والموحدين	٧٦
ثانياً : المنزلة العلمية للعلماء المشاركين في الصراع مع النصارى	١١١
ثالثاً : المنزلة الاجتماعية للعلماء المشاركين في الصراع مع النصارى	١٢٤
رابعاً : أثرهم العلمي في المجتمع	١٣٧
الفصل الثاني : أثر العلماء السياسي في مواجهة النصارى	١٤٩-٢٤٢
أولاً : أثر العلماء في الدعوة لمواجهة العدوان النصراني على الأندلس	١٥٢
ثانياً : أثر العلماء في الحفاظ على وحدة الأندلس أمام خطر النصراني	١٧٦
أ - أثرهم في وحدة الأندلس في عصر المرابطين	١٧٧
١ - وقوفهم في صف المرابطين لتمام توحيد الأندلس	١٧٨
٢ - نشاطهم في دعم وحدة الأندلس تحت حكم المرابطين	١٨٨
٣ - وقوفهم ضد الأعمال المؤدية إلى تفتيت الوحدة	١٩٧
ب - اختلال وحدة الأندلس عند تردي أوضاع الدولة المرابطية	
وموقف العلماء من ذلك	٢١٢
ج - أثر العلماء في وحدة الأندلس تحت حكم الموحدين	٢١٨
د - اضطراب وحدة الأندلس أثناء اضمحلال دولة الموحدين	
العلماء من ذلك	٢٢٨
ثالثاً : أثر العلماء في الاستنجد بالدولة الحفصية لإيقاف الزحف النصراني	٢٣٣

الفصل الثالث : مشاركة العلماء في الجهاد الحربي ضد النصارى ٣٦٤-٢٤٣

أولاً : مظاهر عامة لاهتمام العلماء بشؤون الجهاد الحربي ضد النصارى ٢٤٧

ثانياً : إسهام العلماء في إنفاق الأموال في ميدان الجهاد الحربي ضد النصارى ٢٥٨

ثالثاً : مشاركات العلماء الميدانية في جهاد النصارى ٢٦٨

أ - مشاركة العلماء في الغزوات ضد نصارى الممالك الإسبانية ٢٧٣

١ - مشاركتهم في الغزوات ضد مملكة قشتالة ٢٧٨

٢ - مشاركتهم في الغزوات ضد إمارة برشلونة (قطالونيا) ٣٠٣

٣ - مشاركتهم في الغزوات ضد مملكة أرغون ٣٠٦

٤ - مشاركتهم في الغزوات ضد مملكة البرتغال ٣٢١

ب - مشاركة العلماء في حماية المدن الأندلسية والدفاع عنها ... ٣٣١

الفصل الرابع : تصدي العلماء للحملات الفكرية النصرانية ضد الإسلام ٤٣٨-٣٦٥

أولاً : حملات النصارى الفكرية ضد الإسلام في عصر المرابطين والموحدين ٣٦٩

ثانياً : العلماء الذين تصدوا للحملات الفكرية النصرانية ٣٨٢

ثالثاً : عرض لما دونه العلماء في الرد على النصارى ٤٢٢

الفصل الخامس : أثر العلماء في المحافظة على الشخصية الإسلامية تجاه التأثيرات

النصرانية ٤٨١-٤٣٩

أولاً : بعض التأثيرات النصرانية على الشخصية الإسلامية في الأندلس ٤٤٣

ثانياً : تفسير علماء الأندلس ونظرتهم لوجود المظاهر النصرانية بين المسلمين ٤٥٠

ثالثاً : جهود علماء الأندلس في الحفاظ على الهوية الإسلامية أمام النصارى ... ٤٦٠

الخاتمة ٤٨٣

الملاحق والخرائط ٤٩٩

المصادر والمراجع ٥١٧

المحتويات ٥٧٣